سلسلة شروحات ومؤلفات معالي الشيخ صالح الفوزان (٨)

تعليقات على

الجواب الكافي

للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب
المعروف بابن قيم الجوزية
(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

الشرح
لفضيلة الشيخ العلامة
الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

اعتنى به وأشرف على طبعه
د. سلمان جابر عثمان المجلهم السويلم
غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

التراث الذهبي
الرياض

مكتبة الإمام الذهبي
الكويت

تعليقات على الجواب الكافي

تعليقات على

الجواب الكافي

للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب
المعروف بابن قيم الجوزية

ح مؤسسة التراث الذهبي للنشر والتوزيع، ١٤٣٩ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المجلهم، سلمان بن جابر بن عثمان

تعليقات على الجواب الكافي لمن سأل على الدواء الشافي لابن القيم، / سلمان جابر عثمان المجلهم، - الرياض، ١٤٣٩ هـ

٢ مج

ردمك: ٠-٢-٩١٠٣٨-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

ردمك: ٤-٤-٩١٠٣٨-٦٠٣-٩٧٨ (ج ٢)

١- الوعظ والإرشاد أ. العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٣٩/٢٩٦٨

رقم الإيداع: ١٤٣٩/٢٩٦٨

ردمك: ٠-٢-٩١٠٣٨-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

ردمك: ٤-٤-٩١٠٣٨-٦٠٣-٩٧٨ (ج ٢)

الطَّبْعَةُ الثَّانِيَة

(١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م)

الإمام الذهبي

مكتبة الإمام الذهبي للنشر والتوزيع

الفرع الرئيسي: حولي - شارع المثنى - مجمع البدري - ت: ٢٢٦٥٧٨٠٦

فرع المصاحف: ت ٢٢٦١٥٠٤٦ - فرع الجهراء: الناصر مول: تلفون: ٩٥٥٥٨٦٠٨

فرع الفحيحيل: البرج الأخضر - شارع الدبوس - تلفون: ٢٥٤٥٦٠٦٩ - ٩٥٥٥٨٦٠٧

فرع الرياض: المملكة العربية السعودية التراث الذهبي - جوال ٠٠٩٦٦ ٥٥٧٧٦٥١٣٨

الخط الساخن: جوال: ٠٠٩٦٥ ٩٤٤٠٥٥٥٩

z.zahby74@yahoo.com imamzahby

تعليقات على

الجواب الكافي

للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب
المعروف بابن قيم الجوزية
(٦٩١ - ٧٥١هـ)

الشرح

لفضيلة الشيخ العلامة
الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

اعتنى به وأشرف على طبعه
د. سلمان جابر عثمان المجلهم السويلم
غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

الحمدلله وبعد:

فقد أذنت لفضيلة الشيخ الدكتور سلمان بن جابر بن عثمان المجلهم بطباعة كتابي : (التعليقات على كتاب الجواب الكافي لابن القيم رحمه الله)

رجاء أن ينفع الله بها، ويكتب لي وله الأجر

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.

كتبه: صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء واللجنة الدائمة

٢٤/٧/١٤٢٩هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشـــر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحابته الطيبين، وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

إن من أسماء الله تعالى (الفتاح) وهو خير الفاتحين، فتح لمن شاء من عباده الرزق والعافية والعلم النافع والعمل الصالح، وآتى من شاء من عباده الحكمة، وجعل علماء الشرع منارات هدى وخير وبركة لعباده أجمعين، الصالح منهم المجتهد في الطاعات، والمقصر منهم الذي يقترف الآثام والسيئات.

ولقد فتح الله للشيخ الإمام ابن القيم في العلم النافع وأجرى قلمه، ووفقه الله لما حصل به النفع العميم، وكتب ابن القيم شاهدة بذلك بمنهجه في التأليف بالاعتماد على الكتاب والسنة، وتقديم أقوال الصحابة على من سواهم، رضي الله عنهم وأرضاهم وأخزى الله من سبهم وعاداهم، ومن خير كتبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب: (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي)، وله اسم آخر: (الداء والدواء)، يعني: داء القلب ودواؤه -كما قال شيخنا صالح الفوزان رفع الله درجته في المهديين- فإن داء القلب يكون بالشبهات السيئة والشهوات المحرمة، وهما بابين من أبواب النار.

ولقد اجتهد ابن القيم في بيان العلاج والدواء وأسباب الشفاء، في كتابه الذي هو جواب لسؤال، فردَّ عليه ابن القيم بأسلوب شاف بديع جذَّاب في غاية الروعة، يأخذ بلب القارئ وعقله وقلبه من جمال سياقه، وعذوبة ألفاظه،

وجودة بلاغته.

ولقد قال العلامة الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ابن القيم: «وله من حسن التصرف مع العذوبة الزائدة وحسن السياق ما لا يقدر عليه غالب المصنفين، بحيث تعشق الأفهام كلامه، وتميل إليه الأذهان، وتحبه القلوب».

وقد قال الامام بن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن مؤلفات ابن القيم مرغوبة عند جميع الطوائف، ولو كانوا ممن يعادون ابن القيم، فكانوا يقبلون على كتبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان حسن الترتيب، يسوق الأمور بسياقات حسنة، حتى في مؤلفاته كان تضرعه وابتهاله إلى الله يظهر».

ولقد أشار ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى موضوع الكتاب فقال: «فلنرجع إلى ما كنا فيه من ذكر دواء الداء الذي إن استمرّ أفسد دنيا العبد وآخرته».

ولقد تناول في كتابه حسن الظن بالله، وصلة العبد بربه عن طريق الدعاء، مع الحذر من الاغترار، والعقوبات القدرية للمعاصي، وأفاض في بيان علاج العشق، وأن كل شر في الدنيا والآخرة سببه الذنوب والمعاصي كفانا الله شرها.

ولقد كنت بكرم الله وفضله عليَّ، ومنَّته جَلَّ وَعَلَا أن وفقني لملازمة دروس شيخنا العلامة صاحب الفضيلة الشيخ الدكتور صالح بن فوزان الفوزان، جزاه الله عنا خيرًا كثيرًا وأجرًا كبيرًا، وكنت أحضر درس الفجر لسماع شرح وتعليقات شيخنا على كتاب الجواب الكافي وتقييدها للانتفاع بها، وهومن أهم وأعظم ما صُنف في باب الأخلاق والتربية وتزكية النفوس، فأحببت أن تظهر هذه التعليقات لإخواني المسلمين رغبة في نشر الخير،

وتحصيل الثواب من الله العظيم الكريم الوهاب، فاستأذنت شيخنا بنشر تعليقاته وطباعتها، فأذن لي تكرمًا منه أثابه الله تعالى.

ومما يُشار إليه أن إعداد هذا الكتاب والعائد من بيعه وريعه، كله وقف لله تعالى، وقد تم إعداده على نفقة الفقراء إلى عفو ربهم ورضاه: الشيخ مساعد ابن علي بن محمد بن زيد الشايجي، والشيخ أبي وائل محمد بن أحمد الفرحان، وزوجته الكريمة، غفر الله لهم ولوالديهم، ولذريتهم ولآل بيتهم، وعفا عنهم وجزاهم خير الجزاء في الدنيا والآخرة، وحشرهم تحت لواء الحمد، وفي جنات النعيم، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

وإني أسأل الله تبارك اسمه أن يشركني بالأجر مع شيخنا العلامة صالح الفوزان، ومع إمامنا ابن القيم رحمة الله تعالى عليه، وأن يجمعنا بهم في دار كرامته في الفردوس الأعلى في أعلى عليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، فاللهم آمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وزوجاته وصحبه أجمعين.

كتبه

د. سليمان بن جابر بن عثمان المجلهم السويلم

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشـــارح

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو: الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان أبوه قيِّمًا على المدرسة الجوزية، وكان أشهر من تولى هذا المنصب، فصار هو المراد عندما يُقال: «قيم الجوزية»، ثم غلبت هذه الشهرة على ابنه، فيُقال له: «ابن قيم الجوزية»، ويختصر فيقال: «ابن القيم».

وقد سُئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن مرض القلوب وما دواؤه، والمقصود بمرض القلوب: المرض المعنوي وليس المرض العضوي، فالقلوب تمرض مرضًا عضويًّا، وهذا علاجه عند الأطباء، وبالأدوية المعروفة أو العمليات والجراحات، وهذا خطره إنما هو على الحياة فقط.

أما النوع الثاني: وهو المرض الخطير -المرض المعنوي- الذي يصيب القلوب، وذلك بالذنوب والمعاصي؛ فإنها تمرض القلوب، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠]، ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢]، يعني: مرض الشهوة؛ لأن مرض القلب على قسمين: مرض الشهوة ومرض الشبهة، فمرض الشهوة يكون بالأفعال والمعاصي، ومرض الشبهة يكون بالشبهات والشكوك، ويكون في العقيدة وهذا أخطر، وعلاج ذلك ليس بالأدوية والعمليات والجراحات، وإنما دواؤه بالتوبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبالأعمال الصالحة، فإن هذا هو شفاء القلوب، والعلم النافع في كتاب الله وسنة رسوله،

هذا هو علاج هذا المرض، فقد أنزل الله جَلَّ وَعَلَا القرآن شفاءً للقلوب وشفاء للأبدان أيضًا، فالقرآن شفاء من الأمراض الحسية والمعنوية، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢].

فشفاء هذا المرض بالقرآن وبالتوبة وبالأعمال الصالحة، يعني: ثلاثة أمور، هذا علاج مرض القلوب الذي هو أخطر من مرض الأبدان؛ لأن مرض الأبدان خطره بالموت أو بالألم، وأما هذا فخطره أشد وهو النار -والعياذ بالله- والعذاب، فهذا أشد، وكلما أكثر الإنسان من المعاصي زاد مرضه، وكلما أكثر من الشكوك زاد مرضه؛ حتى يموت القلب، فالقلب يُمرض حتى يموت، فإذا لم يعالج بالتوبة والأعمال الصالحة وبالقرآن فإنه يموت، فلا يكون فيه شعور ولا إحساس ولا غيرة ولا محبة للخير، فإذا مات القلب فإنه لا فائدة فيه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، هذا موت والعياذ بالله.

هذا الكتاب في هذا الموضوع؛ في بيان خطر المعاصي والذنوب، وفي علاج ذلك، ولذلك يُسمى: «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي»، وفي بعض النسخ: «الداء والدواء»، يعني: داء القلب ودواؤه.

ولا شك أن الله جَلَّ وَعَلَا ما أنزل داءً إلا وأنزل له شفاءً، سواء من الأمراض الحسية أو من الأمراض المعنوية، أنزل الشفاء رحمة منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولم يترك عباده بدون دواء ولا علاج.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَبِهِ نَسْتَعِينُ

مَا تَقُولُ السَّادَةُ الْعُلَمَاءُ أَئِمَّةُ الدِّينِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ فِي رَجُلٍ ابْتُلِيَ بِبَلِيَّةٍ، وَعَلِمَ أَنَّهَا إِنِ اسْتَمَرَّتْ بِهِ أَفْسَدَتْ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ، وَقَدِ اجْتَهَدَ فِي دَفْعِهَا عَنْ نَفْسِهِ بِكُلِّ طَرِيقٍ، فَمَا تَزْدَادُ إِلَّا تَوَقُّدًا وَشِدَّةً، فَمَا الْحِيلَةُ فِي دَفْعِهَا؟ وَمَا الطَّرِيقُ إِلَى كَشْفِهَا؟

فَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ أَعَانَ مُبْتَلًى، «وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»(١)، أَفْتُونَا مَأْجُورِينَ.

فَأَجَابَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَالِمُ، شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُفْتِي الْمُسْلِمِينَ، شَمْسُ الدِّينِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرِ أَيُّوبَ إِمَامِ الْمَدْرَسَةِ الْجَوْزِيَّةِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

الْحَمْدُ لِلَّهِ، ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً»(٢). وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ فَإِذَا أَصَابَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ»(٣).

الشرح:

قوله: (مَا تَقُولُ السَّادَةُ الْعُلَمَاءُ ... فِي رَجُلٍ ابْتُلِيَ بِبَلِيَّةٍ...) هذا هو السؤال،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٠٤).

رجلٌ ابتُلِي وافتُتِن في دينه، فما هو علاجه؟! سؤال عظيم يحتاج إليه كلُّ أحدٍ.

فاستهل إجابته رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذكر هذا الحديث الصحيح: **«مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً»**، وحديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **«لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ فَإِذَا أَصَابَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ»**، فالأمراض كلها من خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإيجاده، أي: داخلة في قضاء الله وقدره وخلقه، ابتلاءً وامتحانًا، وقد خلق الله عَزَّ وَجَلَّ هذه الأمراض وهذه الأدواء لحكمة، وأنزل لها شفاءً دواء يتداوى به.

وهذا من الأسباب النافعة، فلا يهمل الإنسان ويترك الدواء ويقول: هذا قضاء وقدر. بل هو مأمور بفعل الأسباب، مأمور بالعلاج، مأمور بالتماس الدواء الذي يشفيه بإذن الله، وهو موجود، فلا يستسلم للذنوب والمعاصي، وكذلك لا يستسلم لمرض البدن ويقول: هذا قضاء وقدر.

نعم هو قضاء وقدر، لكن أنت مأمور بأن تفعل السبب لزواله ولا تهمل، ولذلك قال صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً»**، ولكن ما يكفي وجود الدواء، بل لابد من استعماله، وإلا لو ملأت بيتك من الأدوية ولم تستعملها ما نفعتك بشيء، لابد من استعمال الدواء والبحث عنه، وكل مرض له دواء بقدره، فإذا أُصِيب الدواء النافع واستعمل فإنه يشفي بإذن الله عَزَّ وَجَلَّ، أما إذا استُعمل دواءٌ غير مناسب فإنه يضر ولا ينفع، فكل مرض له دواء يناسبه، وهذا يحتاج إلى أهل الخبرة وأهل الفن وأهل التجربة، فلا بد من أن يكون الدواء مناسبًا للمرض وعلاجًا لهذا المرض، أما لو استعملت دواءً غير مناسب فإنه يضر ولا ينفع.

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ أُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ»(١).

وَفِي لَفْظٍ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً، أَوْ دَوَاءً، إِلَّا دَاءً وَاحِدًا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هُوَ؟ قَالَ: الْهَرَمُ»(٢). قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وَهَذَا يَعُمُّ أَدْوَاءَ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ وَالْبَدَنِ، وَأَدْوِيَتِهَا.

وَقَدْ جَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْجَهْلَ دَاءً، وَجَعَلَ دَوَاءَهُ سُؤَالَ الْعُلَمَاءِ.

فَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ فَأَصَابَ رَجُلًا مِنَّا حَجَرٌ، فَشَجَّهُ فِي رَأْسِهِ، ثُمَّ احْتَلَمَ، فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ: هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيَمُّمِ؟ قَالُوا: مَا نَجِدُ لَكَ رُخْصَةً، وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ، فَاغْتَسَلَ، فَمَاتَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُخْبِرَ بِذَلِكَ، فَقَالَ: «قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَلَا سَأَلُوا إِذَا لَمْ يَعْلَمُوا، فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِرَ -أَوْ يَعْصِبَ- عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً ثُمَّ يَمْسَحُ عَلَيْهَا، وَيَغْسِلُ سَائِرَ جَسَدِهِ»(٣).

فَأَخْبَرَ أَنَّ الْجَهْلَ دَاءٌ، وَأَنَّ شِفَاءَهُ السُّؤَالُ.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٣٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٣٦) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه أبو داود (٣٣٧)، وابن ماجه (٥٧٢)، وأحمد (١/ ٣٣٠)، والحاكم (١/ ٢٨٥) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنِ الْقُرْآنِ أَنَّهُ شِفَاءٌ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤]. وَقَالَ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]. وَ﴿مِنَ﴾ هُنَا لِبَيَانِ الْجِنْسِ لَا لِلتَّبْعِيضِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ شِفَاءٌ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى. فَهُوَ شِفَاءٌ لِلْقُلُوبِ مِنْ دَاءِ الْجَهْلِ وَالشَّكِّ وَالرَّيْبِ، فَلَمْ يُنْزِلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنَ السَّمَاءِ شِفَاءً قَطُّ أَعَمَّ وَلَا أَنْفَعَ وَلَا أَعْظَمَ وَلَا أَنْجَعَ فِي إِزَالَةِ الدَّاءِ مِنَ الْقُرْآنِ.

الشرح:

قوله: (عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ) هذا فيه زيادة، فليس كل الناس يعرفون الدواء، بل الناس يتفاوتون، فمنهم من أُعطي الحكمة ووضع الأشياء في مواضعها، ومنهم من لا يعلم ولا يدري، فيُرجع إلى أهل الخبرة وأهل المعرفة والبصيرة في هذه الأمور، ففي أمراض الأبدان يُرجع فيها للأطباء الحاذقين، وفي أمراض القلوب يُرجع فيها إلى أهل العلم وأهل البصيرة.

وقوله: (الْهَرَمُ) أي: أن الهرم -الذي هو الكِبَرُ- لا ينفع معه دواء، فلا يدخل في قوله: (إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً)، فلا تبحث عن دواء للكبر أبدًا، وإنما تب إلى الله واستغفر، واسأل الله حُسن الخاتمة، وإلا فإن الكبر ليس بزائل لو عالجته.

وقوله: (وَقَدْ جَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْجَهْلَ دَاءً) أي: أن الجهل من الأمراض المعنوية، فهو مرض ودواؤه (سُؤَالَ الْعُلَمَاءِ)، قال الله جَلَّ وَعَلَا:

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للذين أفتوا بجهل وتركوا السؤال: **«قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَلَا سَأَلُوا إِذَا لَمْ يَعْلَمُوا، فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ»**. فينبغي للإنسان أن يسأل أهل العلم، ولا يترك السؤال ويستحيي، أو يقول: ما أنا بحاجة للسؤال، ويروح هو يتخبط وهو ما يعرف، فكثير من الناس يتخبط وهو ما يعرف، ويظن أنه عالم وهو ليس كذلك، فيضر نفسه ويضر غيره.

وفي هذا الحديث أن من أفتى بجهل فإنه يضر السائل، وهؤلاء أفتوا هذا الرجل بجهل فقتلوه؛ لأنه استعمل الماء فدخل في الجرح ومات الرجل، ولو أنهم سألوا أهل العلم لما حصل هذا.

وجواب هذا السؤال: أنه يعصب على جرحه عصابة أو لصوقًا أو جبيرة، ثم يمسح عليها، فيغسل الصحيح من أعضائه ويمسح على الجريح، وإذا كان عليه جنابة يغسل الصحيح من جسده ويمسح على الجرح، ويكفيه هذا، وهذا أمر سهل، لكن يحتاج إلى علم.

وهذا يدل على أن الذي ليس عنده علم لا يجوز له أن يفتي؛ لأنه يضر المستفتي، ويدل على أن الجاهل يجب عليه السؤال، ولا يبقى في جهله أو يعبد الله على جهل هذا لا يجوز له؛ لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، وهذا أمر، ما قال: اسألوا أي واحد، وإنما أمرهم أن يسألوا أهل العلم، وإن كانت الآية واردة في أهل الكتاب الذين يعرفون الكتب ويسألون عن القرآن هل هو حق؟ وهل هو من عند الله أو لا؟ لكن لفظها عام وإن كان السبب خاصًّا، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص

السبب، فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْـلَ ٱلذِّكْـرِ﴾ هذا لفظ عام، وإن كان سببه واردٌ في القرآن أن أهل الكتاب يعرفون أنه حق، ويسألون عنه.

وقوله تعالى: **﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُـدًى وَشِـفَآءٌ﴾**، الشاهد في قوله: **﴿وَشِـفَآءٌ﴾** يعني: من المرض الحسي، ولذلك يُرقى المريض ويُقرأ عليه من القرآن، هذا مرض حسي، وكذلك هو شفاء لمرض القلب من الجهل ومن الشكوك ومن الذنوب، فهو يشفي بإذن الله، لكن الشأن فينا نحن، هل نستشفي به ونؤمن به، أما القرآن نفسه فهو شفاء، إذا استُعمل شفى الله به، وإن لم يُستعمل لم ينفع.

وقوله: **﴿شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُـؤْمِنِينَ﴾**، أما الذي لا يؤمن به فإنه لا يزيده إلا ضلالًا؛ لأنه يكفر به فيزيده شرًّا.

قال: (**وَ﴿مِنَ﴾ هُنَا لِبَيَانِ الْجِنْسِ لَا لِلتَّبْعِيضِ**)، يعني: القرآن كله شفاء ما هو بعضه شفاء، فليست **﴿مِنَ﴾** للتبعيض، وإنما هي للجنس، **﴿وَنُـنَزِّلُ مِـنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾** يعني: من جنس القرآن.

وقوله: (**فَإِنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ شِفَاءٌ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ**)؛ لأنه قال في الآية المتقدمة: **﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾**، ولم تأت **﴿مِـنَ﴾**، فدل على أن كله شفاء، وأن **﴿مِنَ﴾** ليست للتبعيض.

قوله: (**وَلَا أَنْفَعَ وَلَا أَعْظَمَ وَلَا أَشْجَعَ فِي إِزَالَةِ الدَّاءِ مِنَ الْقُرْآنِ**)، فلا أعظم من القرآن، الله جَلَّوَعَلَا أنزل الكتب على أنبيائه ورسله، وكلها فيها شفاء؛ التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى، كلها فيها شفاء للناس، لكن القرآن هو أعظمها وأكثرها شفاءً وأدومها.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: انْطَلَقَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفْرَةٍ سَافَرُوهَا، حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَاسْتَضَافُوهُمْ، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ. فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الْحَيِّ، فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلَاءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ نَزَلُوا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ. فَأَتَوْهُمْ، فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ، إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ، وَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ، فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْقِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا. فَصَالَحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنَ الْغَنَمِ، فَانْطَلَقَ يَتْفُلُ عَلَيْهِ وَيَقْرَأُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فَانْطَلَقَ يَمْشِي، وَمَا بِهِ قَلَبَةٌ، فَأَوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عَلَيْهِ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اقْتَسِمُوا، فَقَالَ الَّذِي رَقِيَ: لَا نَفْعَلُ حَتَّى نَأْتِيَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَذْكُرُ لَهُ الَّذِي كَانَ، فَنَنْظُرُ بِمَا يَأْمُرُنَا. فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرُوا لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟»، ثُمَّ قَالَ: «قَدْ أَصَبْتُمْ، اقْتَسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا»(١).

فَقَدْ أَثَّرَ هَذَا الدَّوَاءُ فِي هَذَا الدَّاءِ، وَأَزَالَهُ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ، وَهُوَ أَسْهَلُ دَوَاءٍ وَأَيْسَرُهُ، وَلَوْ أَحْسَنَ الْعَبْدُ التَّدَاوِيَ بِالْفَاتِحَةِ، لَرَأَى لَهَا تَأْثِيرًا عَجِيبًا فِي الشِّفَاءِ.

الشرح:

هذه القصة فيها فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى -وهي التي ساق المصنف الحديث من أجلها-: أن القرآن

(١) أخرجه البخاري (٢٢٧٦).

فيه علاج ورقية، وأنه شفاء من الأمراض الحسيَّة، فاللدغة هذه مرض حسيٌّ، واللدغة تكون من الثعبان، أما من العقرب فيقال: لسعة ذوات السموم، والسم هذا مرض يؤثر في الجسم فلا بد له من علاج، وأنفع علاج له هو الرقية من القرآن.

الفائدة الثانية: أنه يجوز للراقي بالقرآن أن يأخذ أجرة على رقيته؛ لأن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أخذوا جُعلًا على الرقية، والجُعل معناه: الأجرة، فدل على أن الراقي له أن يأخذ أجرة على الرقية، لكن لا يجعلها حرفة، بأن يجلس ويفتح محلًّا ويستقبل الناس ويرقيهم ويأخذ أجرة، مثل الطبيب الذي يفتح عيادة، فهذا لم يفعله الصحابة ولم يفعله المسلمون فيما مضى، لم يتخذوا الرقية حرفة وبابًا للكسب، لكن لو أنه إذا رقى أحيانًا أو بعض المرات فأخذ جعلًا فلا بأس بذلك، لا أن يجعل هذا حرفة له؛ لأن هذا يفسد الرقية ويجعل كل واحد يرقي لأجل الأجر، وقد لا يحسن الرقية، بل إن بعضهم قد يستعمل الشرك والخرافات والشعوذات، وحصل من هذا الشيء الكثير؛ لأن همهم الحصول على المال وجذب الناس، وليس همهم العقيدة الصحيحة، فلا يُفتح الباب لكل أحد وتجعل الرقية حرفة، ولا يُقر كل واحد للرقية، بل لا بد أن تُعرف عقيدته ويُعرف علمه، لا أن تكون الرقية لكل ما هب ودب، فيحصل في هذا فساد و شر، فلا بد من ضبط الناس في هذا الأمر.

الفائدة الثالثة:أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فعلوا هذا باجتهاد؛ لأنهم لما لم يضيفوهم قالوا: لا نرقيكم إلا بجُعل، فدل على أنهم لو أضافوهم رقوه بدون شيء، وإنما فعلوا هذا من باب المجازاة، فدل على أن الرقية ليست حرفة،

وإنما الصحابة فعلوا هذا من باب المجازاة لهؤلاء؛ لأن قِرَى الضيف أمر واجب؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»**(١).

فالضيافة أمر واجب في القرى والبوادي التي ليس فيها مطاعم ولا فنادق، وليس فيها محلات لبيع الطعام، فيجب على من نزل به ضيف في هذه الأماكن أن يكرمه وأن يَقريه، والضيافة معروفة عند العرب، وهي من الخصال الطيبة عند العرب، لكن يكون فيهم بعض المخالفين للعادات الطيبة مثل هذا الحي، فهذا خارج عن عادة العرب.

الفائدة الرابعة: يؤخذ من هذا الحديث أنه لا بد من سؤال أهل العلم، فهؤلاء الصحابة ما طابت أنفسهم أن يقتسموا هذا الجُعل حتى يسألوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هل هو حلال أم حرام، فلما سألوه أقرهم على ذلك، وقال: **«اضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا»**؛ ليطيب خواطرهم، ويذهب ما فيها من التوقف، فإذا أخذ منه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذهب ما في قلوبهم من التوقف والكراهية.

الفائدة الخامسة: أن سورة الفاتحة رقية، ولذلك فإن من أسمائها: الرقية، والكافية.

وقوله: **(فَقَدْ أَثَّرَ هَذَا الدَّوَاءُ فِي هَذَا الدَّاءِ)** هذا هو النتيجة ومحل الشاهد من الحديث أن هذه الرقية شفى الله بها هذا المريض، فدل على أن القرآن شفاء حتى من الأمراض الحسيَّة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَمَكَثْتُ بِمَكَّةَ مُدَّةً تَعْتَرِينِي أَدْوَاءٌ، وَلَا أَجِدُ طَبِيبًا وَلَا دَوَاءً، فَكُنْتُ أُعَالِجُ نَفْسِي بِالْفَاتِحَةِ، فَأَرَى لَهَا تَأْثِيرًا عَجِيبًا، فَكُنْتُ أَصِفُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشْتَكِي أَلَمًا، وَكَانَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَبْرَأُ سَرِيعًا.

وَلَكِنْ هَاهُنَا أَمْرٌ يَنْبَغِي التَّفَطُّنُ لَهُ، وَهُوَ أَنَّ الْأَذْكَارَ وَالْآيَاتِ وَالْأَدْعِيَةَ الَّتِي يُسْتَشْفَى بِهَا وَيُرْقَى بِهَا، هِيَ فِي نَفْسِهَا نَافِعَةٌ شَافِيَةٌ، وَلَكِنْ تَسْتَدْعِي قَبُولَ الْمَحِلِّ، وَقُوَّةَ هِمَّةِ الْفَاعِلِ وَتَأْثِيرَهُ، فَمَتَى تَخَلَّفَ الشِّفَاءُ كَانَ لِضَعْفِ تَأْثِيرِ الْفَاعِلِ، أَوْ لِعَدَمِ قَبُولِ الْمُنْفَعِلِ، أَوْ لِمَانِعٍ قَوِيٍّ فِيهِ يَمْنَعُ أَنْ يَنْجَعَ فِيهِ الدَّوَاءُ، كَمَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْأَدْوِيَةِ وَالْأَدْوَاءِ الْحِسِّيَّةِ، فَإِنَّ عَدَمَ تَأْثِيرِهَا قَدْ يَكُونُ لِعَدَمِ قَبُولِ الطَّبِيعَةِ لِذَلِكَ الدَّوَاءِ، وَقَدْ يَكُونُ لِمَانِعٍ قَوِيٍّ يَمْنَعُ مِنَ اقْتِضَائِهِ أَثَرَهُ، فَإِنَّ الطَّبِيعَةَ إِذَا أَخَذَتِ الدَّوَاءَ بِقَبُولٍ تَامٍّ كَانَ انْتِفَاعُ الْبَدَنِ بِهِ بِحَسْبِ ذَلِكَ الْقَبُولِ، وَكَذَلِكَ الْقَلْبُ إِذَا أَخَذَ الرُّقَى وَالتَّعَاوِيذَ بِقَبُولٍ تَامٍّ، وَكَانَ لِلرَّاقِي نَفْسٌ فَعَّالَةٌ وَهِمَّةٌ مُؤَثِّرَةٌ، أَثَّرَ فِي إِزَالَةِ الدَّاءِ.

الشرح:

قوله: (**وَمَكَثْتُ بِمَكَّةَ مُدَّةً يَعْتَرِينِي أَدْوَاءٌ**) هذا ابن القيم يحكي عن نفسه.

وقوله: (**وَكَانَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَبْرَأُ سَرِيعًا**) فيه أن هناك علاجًا ميسرًا، وهو العلاج بالقرآن، لكن يحتاج إلى إيمان وتصديق بالقرآن، وأنه شفاء، وليس معناه أن الإنسان لا يذهب إلى الأطباء والمستشفيات، فهذا مباح، لكن يوجد ما هو أقرب منه وأسهل وهو الرقية، فلو أن المسلم استعمل الرقية عن إيمان وتصديق وتوكل على الله؛ لخف عنه كثير من الأمراض، وشُفي بإذن الله من

كثير منها، وما احتاج إلى الأطباء والمستشفيات، ولكن هذا يحتاج إلى إيمان وحضور قلب.

قوله: **(وَلَكِنْ تَسْتَدْعِي قَبُولَ الْمَحِلِّ، وَقُوَّةَ هِمَّةِ الْفَاعِلِ وَتَأْثِيرَهُ)** فلا شك أن القرآن شفاء؛ لأن الله أخبر أنه شفاء، ولكن الشأن في استعمالنا نحن، هل نستعمله دواءً بإيمان وصدق ويقين، أو نستعمله ونحن غافلون ولا نستحضر أنه شفاء، وأنه لا ينفع ولو كان قرآنًا؟! فلو قرأت الفاتحة من غير إيمان ومن غير حضور قلب ما نفعك قراءتها، فبعض الناس يقول: أنا قرأت ولا وجدت شيئًا، أو رقيت نفسي أو رقاني فلان ولا رأيت شفاءً. وهو يظن أن القرآن لا يشفي، فنقول له: البلاء من عندك أنت، أما القرآن فهو شفاء بلا شك، لكنك لم تستعمله على الوجه المطلوب.

ولا بد من قبول المحل وهو المرض؛ لأن كل مرض له علاج، وكل مرض له رقية، هذا من ناحية المحل، أما من ناحية الشخص فلابد أن يكون مؤمنًا بأن هذا القرآن في الشفاء، ولهذا يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢] .

قوله: **(فَمَتَى تَخَلَّفَ الشِّفَاءُ كَانَ لِضَعْفِ تَأْثِيرِ الْفَاعِلِ)**، وهو الراقي، لا لضعف القرآن، **(كَمَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْأَدْوِيَةِ وَالْأَدْوَاءِ الْحِسِّيَّةِ)** أي: أن الأسباب لا تنفع إلا إذا انتفت موانعها، فقد يكون هناك مانع من تأثير السبب، فإذا كان هناك مانع فالسبب لا ينفع.

وقوله: **(لِعَدَمِ قَبُولِ الطَّبِيعَةِ لِذَلِكَ الدَّوَاءِ)**، وذلك في الأدواء الحسية التي يسمونها العضوية، فقد يأخذ المريض دواءً ولا ينفعه؛ لأنه ليس دواءً مناسبًا

لمرضه، أو أنه أساء استعماله، فلم يستعمله على وصف الطبيب، فيكون الخلل من عنده وليس في الدواء.

قوله: (**وَقَدْ يَكُونُ لِمَانِعٍ قَوِيٍّ يَمْنَعُ مِنَ اقْتِضَائِهِ أَثَرَهُ**)، أي: قد يكون هناك مضاد في جسم المريض لهذا الدواء فلا يقبل الدواء ولا يتأثر به.

وقوله: (**إِذَا أَخَذَ الرُّقَى وَالتَّعَاوِيذَ بِقَبُولٍ تَامٍّ، وَكَانَ لِلرَّاقِي نَفْسٌ فَعَّالَةٌ وَهِمَّةٌ مُؤَثِّرَةٌ**)، هذا هو شرط الانتفاع بالرقية، فلا بد للراقي والمرقي أن يكون عندهما إيمان وقبول للقرآن حتى ينفع، أما من كان غافلًا عن ذلك فلا ينفعه القرآن.

وَكَذَلِكَ الدُّعَاءُ، فَإِنَّهُ مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ فِي دَفْعِ الْمَكْرُوهِ وَحُصُولِ الْمَطْلُوبِ، وَلَكِنْ قَدْ يَتَخَلَّفُ عَنْهُ أَثَرُهُ، إِمَّا لِضَعْفِهِ فِي نَفْسِهِ بِأَنْ يَكُونَ دُعَاءً لَا يُحِبُّهُ اللَّهُ لِمَا فِيهِ مِنَ الْعُدْوَانِ، وَإِمَّا لِضَعْفِ الْقَلْبِ وَعَدَمِ إِقْبَالِهِ عَلَى اللَّهِ وَجَمْعِيَّتِهِ عَلَيْهِ وَقْتَ الدُّعَاءِ، فَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الْقَوْسِ الرِّخْوِ جِدًّا، فَإِنَّ السَّهْمَ يَخْرُجُ مِنْهُ خُرُوجًا ضَعِيفًا، وَإِمَّا لِحُصُولِ الْمَانِعِ مِنَ الْإِجَابَةِ: مِنْ أَكْلِ الْحَرَامِ، وَالظُّلْمِ، وَرَيْنِ الذُّنُوبِ عَلَى الْقُلُوبِ، وَاسْتِيلَاءِ الْغَفْلَةِ وَالسَّهْوِ وَاللَّهْوِ، وَغَلَبَتِهَا عَلَيْهَا.

كَمَا فِي صَحِيحِ الْحَاكِمِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ»[1].

فَهَذَا دَوَاءٌ نَافِعٌ مُزِيلٌ لِلدَّاءِ، وَلَكِنَّ غَفْلَةَ الْقَلْبِ عَنِ اللَّهِ تُبْطِلُ قُوَّتَهُ.

وَكَذَلِكَ أَكْلُ الْحَرَامِ يُبْطِلُ قُوَّتَهُ وَيُضْعِفُهَا، كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ، لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون:٥١]، وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة:١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟»[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٧)، والترمذي (٣٤٧٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٧٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشرح:

كذلك الدعاء من أسباب علاج الذنوب وكشف الكربات، فهو باب عظيم، وقد أمر الله جَلَّوَعَلَا بدعائه، ووعد أن يستجيب فقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، وقال تبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، والدعاء أعظم أنواع العبادة، كما قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**»(١).

وسماه الله عَزَّوَجَلَّ دينًا فقال: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]، أي: مخلصين له الدعاء، وسماه عبادة فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ أي: عن دعائي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

ولكن ليس كل من دعا يُستجاب له، فلماذا لا يُستجاب له مع أن الله جَلَّوَعَلَا وعد أنه سيستجيب، وهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لا يخلف وعده؟!

الجواب عن هذا في عدة أمور:

أولًا: أن الله عَزَّوَجَلَّ قد يؤخر الإجابة لمصلحة العبد، ولهذا جاء أن الإنسان لا ييأس ويقول: دعوت ودعوت فلم يستجب لي(٢). فليكثر من الدعاء، فقد تكون مصلحته في تأخير الإجابة؛ لأن الله إما أن يجيب دعوته،

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، والنسائي في الكبرى (١٠/٢٤٤)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد (٤/٢٦٧) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي**». أخرجه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥).

وإما أن يدخر له خيرًا منها، وإما أن يغفر له من الذنوب مثلها، فالله حكيم عليم. فعلى العبد أن يدعو ويكثر من الدعاء ولو لم تحصل الإجابة السريعة، ولا ييأس من رحمة الله.

ثانيًا: قد يكون المانع من قبل العبد، فقد يدعو بدعاء غير مشروع، والله جَلَّ وَعَلَا لا يقبل إلا بما شرع، وقد يدعو وقلبه غافل ليس موقنًا بالإجابة، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ**».

وقد يكون ممن يأكل الحرام، وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون:٥١]، وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة:١٧٢]**»، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟.

هذه كلها موانع من إجابة الدعاء، فيجب على العبد أن ينتبه لها، ويتخلى منها، وأن يدعو بقلب حاضر، ولا يعتدي في الدعاء، وإنما يدعو الله بما هو مشروع له أن يدعو به، وأن يتحرى الحلال في مأكله ومطعمه ومشربه وملبسه؛ حتى يُستجاب له الدعاء.

فالدعاء دواء نافع للذنوب وقضاء الحاجات، ولكن هذا الدواء لا بد أن يصادف محله، وأن يؤخذ على الصفة المطلوبة، فإذا صادف الدواء الداء شفى

بإذن الله، وإذا لم يصادفه فإنه لا ينفع، فهو مثل دواء الأمراض الحسية تمامًا، لا بد أن يكون بصفات مطلوبة.

وقد قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: المباحات، فكل ما أباحه الله فهو طيب، وكل ما حرمه الله فهو خبيث، كما في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، فأكل الطيبات والمباحات سبب لقبول الدعاء، وأكل الحرام سبب لمنع القبول، فليتحرى العبد الحلال في مطعمه ومكسبه.

وَذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الإِمَامِ أَحْمَدَ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ لِأَبِيهِ: أَصَابَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَلَاءٌ، فَخَرَجُوا مَخْرَجًا، فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ إِلَى نَبِيِّهِمْ أَنْ أَخْبِرْهُمْ: تَخْرُجُونَ إِلَى الصَّعِيدِ بِأَبْدَانٍ نَجِسَةٍ، وَتَرْفَعُونَ إِلَيَّ أَكُفًّا قَدْ سَفَكْتُمْ بِهَا الدِّمَاءَ، وَمَلَأْتُمْ بِهَا بُيُوتَكُمْ مِنَ الْحَرَامِ، الْآنَ حِينَ اشْتَدَّ غَضَبِي عَلَيْكُمْ؟ وَلَنْ تَزْدَادُوا مِنِّي إِلَّا بُعْدًا[١].

وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: يَكْفِي مِنَ الدُّعَاءِ مَعَ الْبِرِّ، مَا يَكْفِي الطَّعَامَ مِنَ الْمِلْحِ[٢].

الشرح:

قال النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ»**[٣]، وقال: **«إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلاَ تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، فَإِنْ كَانَ حَقًّا لَمْ تُكَذِّبُوهُمْ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلاً لَمْ تُصَدِّقُوهُمْ»**[٤].

فأخبار بني إسرائيل على ثلاثة أقسام -كما ذكر ابن كثير في أول تفسيره[٥]-:

---

(١) لم أقف عليه في المطبوع من الزهد للإمام أحمد، وأخرجه أبو داود في الزهد (١٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/٣٨٧) عن مالك بن دينار.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (٧٨٩)، وابن المبارك في الزهد (٣١٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/٣٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/٣٨٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٤) أخرجه أحمد (٤/١٣٦)، وأبو داود (٣٦٤٤)، والطبراني في الكبير (٨٧٤)، وابن حبان (١٤/١٥١) من حديث أبي نملة الأنصاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٥) يُنظر: تفسير ابن كثير (٣/٤٧٧).

القسم الأول: ما يوافق شريعتنا، فهذا نقبله.

والقسم الثاني: ما يخالف شريعتنا، فهذا لا نقبله.

والقسم الثالث: ما لا يوافق ولا يخالف، فهذا نتوقف فيه، فلا نصدقه ولا نكذبه؛ لأنه يحتمل أن يكون حقًّا فنكون كذبنا بالحق، أو يحتمل أن يكون باطلًا فنكون صدقنا بالباطل.

وحاصل هذا الأثر: أن الله منع القبول لبني إسرائيل مع أنهم يستسقون ويدعون الله، منع القبول عنهم لأنهم يأكلون الحرام ويسفكون الدماء.

وهذا جاء في شريعتنا ما يوافقه كما في قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون:٥١]، وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة:١٧٢]**»، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟.

وقوله: (**وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: يَكْفِي مِنَ الدُّعَاءِ مَعَ الْبِرِّ، مَا يَكْفِي الطَّعَامَ مِنَ الْمِلْحِ**) يعني: ليس المقصود أن تكثر الدعاء بغير تمعن ولا تدبر، وإنما المقصود أن يكون الدعاء خالصًا، ولو كان قليلًا مثل الملح، فالقليل من الملح يكفي ويصلح الطعام.

فَصْـلٌ

وَالدُّعَاءُ مِنْ أَنْفَعِ الْأَدْوِيَةِ، وَهُوَ عَدُوُّ الْبَلَاءِ، يَدْفَعُهُ وَيُعَالِجُهُ، وَيَمْنَعُ نُزُولَهُ، وَيَرْفَعُهُ، أَوْ يُخَفِّفُهُ إِذَا نَزَلَ.

وَهُوَ سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ؛ كَمَا رَوَى الْحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدُّعَاءُ سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ، وَعِمَادُ الدِّينِ، وَنُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»(١).

وَلَهُ مَعَ الْبَلَاءِ ثَلَاثُ مَقَامَاتٍ:

أَحَدُهَا: أَنْ يَكُونَ أَقْوَى مِنَ الْبَلَاءِ فَيَدْفَعُهُ.

الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ أَضْعَفَ مِنَ الْبَلَاءِ فَيَقْوَى عَلَيْهِ الْبَلَاءُ، فَيُصَابُ بِهِ الْعَبْدُ، وَلَكِنْ قَدْ يُخَفِّفُهُ وَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا.

الثَّالِثُ: أَنْ يَتَقَاوَمَا وَيَمْنَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ.

وَقَدْ رَوَى الْحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُغْنِي حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ، وَالدُّعَاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ، وَإِنَّ الْبَلَاءَ لَيَنْزِلُ فَيَلْقَاهُ الدُّعَاءُ، فَيَعْتَلِجَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(٢).

وَفِيهِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الدُّعَاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ، فَعَلَيْكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِالدُّعَاءِ»(٣).

وَفِيهِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ: «لَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٦٩).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٦٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٤٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٧٠).

الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ»(١).

الشرح:

الدعاء مقامه عظيم، ولذلك أمر الله به في آيات كثيرة، ووعد أن يستجيب، حتى الكفار إذا دعوا في حال الشدة، وأخلصوا الدعاء لله استجاب لهم، فكيف بالمؤمنين؟ فالدعاء أمره عظيم، وهو سلاح المؤمن، ولكن ينبغي أن يعرف أحكام الدعاء وفقهه، حتى يكون دعاؤه نافعًا له، فليس كل دعاء ينفع، وليس كل دعاء يُستجاب، إلا إذا توافرت فيه شروط، هي:

- أن يكون دعاءً مشروعًا.
- أن يكون خالصًا لله.
- أن يكون مع اليقين بالإجابة.
- أن يكون مع تحري الحلال، وترك الحرام.

والإكثار من الدعاء طيبٌ ومأمور به مع الإلحاح، لكن قد يكثر العبد من الدعاء ولا يُستجاب له؛ لافتقاده هذه الشروط، أما إذا توفرت الشروط فإنه ينفع بإذن الله ولو كان دعاءً قليلًا.

فالدعاء إذا كان صادرًا عن إخلاص وعن تضرع إلى الله عَزَّوَجَلَّ فإنه لا يذهب سدى، وهو يعالج القضاء والقدر، إما أن يدفعه، وإما أن يتمانع القضاء والقدر.

والدعاء أيضًا من القدر، فإن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ إذا قدر شيئًا فلا بد أن يقع،

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٧)، وابن ماجه (٤٠٢٢)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٧٠).

فإن قدر الله أن يدعو العبد، وأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ سيدفع عنه البلاء بسبب هذا الدعاء، فهو قدرٌ يُدفع بقدرٍ.

كما في حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: **«الدُّعَاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ»**، أي: ينفع مما نزل من الابتلاء، وينفع مما لم ينزل فيمنع نزوله.

وحديث ثوبان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: **«لَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ»**، فلا يدفع القضاء والقدر إلا الدعاء، فإن قال قائل: كيف يدفع القضاء مع أن الله قضاه، وما قضاه الله لا بد أن يقع؟ نقول: إن الدعاء أيضًا من القضاء، فأنت ما دعوت إلا لأن الله قضى وقدر أنك تدعو، فهذا من دفع القدر بالقدر.

فَصْلٌ

وَمِنْ أَنْفَعِ الْأَدْوِيَةِ: الإِلْحَاحُ فِي الدُّعَاءِ.

وَقَدْ رَوَى ابْنُ مَاجَهْ فِي سُنَنِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»(١).

وَفِي صَحِيحِ الْحَاكِمِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَعْجِزُوا فِي الدُّعَاءِ فَإِنَّهُ لَا يَهْلِكُ مَعَ الدُّعَاءِ أَحَدٌ»(٢).

وَذَكَرَ الْأَوْزَاعِيُّ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُلِحِّينَ فِي الدُّعَاءِ»(٣).

وَفِي كِتَابِ الزُّهْدِ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قَالَ مُوَرِّقٌ: «مَا وَجَدْتُ لِلْمُؤْمِنِ مَثَلًا إِلَّا رَجُلٌ فِي الْبَحْرِ عَلَى خَشَبَةٍ، فَهُوَ يَدْعُو: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، لَعَلَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُنْجِيَهُ»(٤).

الشرح:

قوله: **(الْإِلْحَاحُ فِي الدُّعَاءِ)** يعني: الإكثار منه مع عدم اليأس، فعلى العبد أن يكثر من الدعاء، ويصلح حاله حتى يُستجاب له، وإذا ما وجد استجابة

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧٣)، وابن ماجه (٣٨٢٧)، وأحمد (٢/ ٤٤٢)، والحاكم (١/ ٦٦٨).

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٦٧١)، وابن حبان (٣/ ١٥٣).

(٣) أخرجه الطبراني في الدعاء (٢٠)، والشهاب القضاعي في مسنده (٢/ ١٤٥)، وابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال (٧/ ١٦٣).

(٤) أخرجه أحمد في الزهد (١٧٦٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٦٥).

رجع إلى نفسه وحاسبها، فإن وجد عنده مانعًا من موانع الدعاء تخلى عنه، ولا ييأس، فهو لا يدري ما هو الأصلح له، وقد يكون تأخير الإجابة أحسن له ولا شك.

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»** يدل على أن الدعاء واجب؛ لأن الغضب يدل على أنه ترك أمرًا واجبًا، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، هذا أمر، والأمر يفيد الوجوب، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥] هذا أمر.

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا تَعْجِزُوا فِي الدُّعَاءِ فَإِنَّهُ لَا يَهْلِكُ مَعَ الدُّعَاءِ أَحَدٌ»**، فإذا تسلح المسلم بالدعاء فإن الله ينفعه، وإذا غفل عنه فإنه يتعرض للابتلاء والامتحان. وقال أيضًا: **«إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُلِحِّينَ فِي الدُّعَاءِ»**، يعني: المكثرين، وهذا دليل على مشروعية الإكثار من الدعاء.

فإذا وقع الإنسان في الخطر الشديد فإنه يتسلح بالدعاء، مثل الإنسان إذا وقع في البحر، فإنه يكثر من الدعاء، حتى المشركون إذا أخذهم الموج وأحاطت بهم الأمواج، دعوا الله مخلصين له الدين؛ لأنهم يعلمون أنه ما ينفع إلا دعاء الله وحده، وينسون ما يدعون من دون الله، ينسون أصنامهم ومعبوداتهم؛ لأنهم يعلمون أنه لا يُخلص من الشدة إلا الله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ﴾ [الإسراء:٦٧].

فَصْلٌ

وَمِنَ الْآفَاتِ الَّتِي تَمْنَعُ تَرَتُّبَ أَثَرِ الدُّعَاءِ عَلَيْهِ: أَنْ يَسْتَعْجِلَ الْعَبْدُ، وَيَسْتَبْطِئَ الْإِجَابَةَ، فَيَسْتَحْسِرُ، وَيَدَعُ الدُّعَاءَ. وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ بَذَرَ بَذْرًا أَوْ غَرَسَ غَرْسًا، فَجَعَلَ يَتَعَاهَدُهُ وَيَسْقِيهِ، فَلَمَّا اسْتَبْطَأَ كَمَالَهُ وَإِدْرَاكَهُ تَرَكَهُ وَأَهْمَلَهُ.

وَفِي الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»[(١)].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهُ: «لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الِاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: «يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ»[(٢)].

وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَزَالُ الْعَبْدُ بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَسْتَعْجِلُ؟ قَالَ: «يَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ رَبِّي فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»[(٣)].

الشرح:

من موانع قبول الدعاء أن يستعجل الإنسان ويقول: **«دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»**، فيترك الدعاء، فإذا استبطأ الإجابة وترك الدعاء فإنه لا يستفيد من دعائه الأول.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٣).

(٣) أخرجه أحمد (٣/١٩٣).

وكل هذه الأحاديث التي أوردها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تدل على أن المسلم ينبغي له أَلَّا ييأس ولو تأخرت الإجابة، بل عليه أن يُكثر من الدعاء، فإن الله جَلَّ وَعَلَا لا يُضيع عمله، ولكن مع هذا عليه أن يحاسب نفسه، ويتفقد أحواله، ويتخلى عن الموانع، ويكثر من الدعاء.

فَصْلٌ

وَإِذَا جَمَعَ مَعَ الدُّعَاءِ حُضُورَ الْقَلْبِ وَجَمْعِيَّتَهُ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَى الْمَطْلُوبِ، وَصَادَفَ وَقْتًا مِنْ أَوْقَاتِ الْإِجَابَةِ السِّتَّةِ -وَهِيَ: الثُّلُثُ الْأَخِيرُ مِنَ اللَّيْلِ، وَعِنْدَ الْأَذَانِ، وَبَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ، وَأَدْبَارُ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ، وَعِنْدَ صُعُودِ الْإِمَامِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَلَى الْمِنْبَرِ حَتَّى تُقْضَى الصَّلَاةُ، وَآخِرُ سَاعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ- وَصَادَفَ خُشُوعًا فِي الْقَلْبِ، وَانْكِسَارًا بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ، وَذُلًّا لَهُ، وَتَضَرُّعًا وَرِقَّةً، وَاسْتَقْبَلَ الدَّاعِي الْقِبْلَةَ، وَكَانَ عَلَى طَهَارَةٍ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَبَدَأَ بِحَمْدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ ثَنَّى بِالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، ثُمَّ قَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ حَاجَتِهِ التَّوْبَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَى اللَّهِ، وَأَلَحَّ عَلَيْهِ فِي الْمَسْأَلَةِ، وَتَمَلَّقَهُ وَدَعَاهُ رَغْبَةً وَرَهْبَةً، وَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ دُعَائِهِ صَدَقَةً؛ فَإِنَّ هَذَا الدُّعَاءَ لَا يَكَادُ يُرَدُّ أَبَدًا، وَلَا سِيَّمَا إِنْ صَادَفَ الْأَدْعِيَةَ الَّتِي أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهَا مَظِنَّةُ الْإِجَابَةِ، أَوْ أَنَّهَا مُتَضَمِّنَةٌ لِلِاسْمِ الْأَعْظَمِ.

الشرح:

للدعاء أوقات ستة فيها مظنة الإجابة، وهي:

الأول: (**الثُّلُثُ الْأَخِيرُ مِنَ اللَّيْلِ**)؛ لأنه وقت النزول الإلهي إلى السماء الدنيا، كما في قوله ﷺ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي**

فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»(١).

الثاني: **(عِنْدَ الْأَذَانِ)**؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَالَ حِين يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إلا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِالله رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، غُفِرَ له ذَنْبُهُ»(٢).

الثالث: **(بَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ)**، إذا كان ينتظر الصلاة فإنه يدعو في هذا الوقت، وهو مظنة الإجابة.

الرابع: **(أَدْبَارُ الصَّلَوَاتِ المكْتُوبَاتِ)**، إذا سلمت من المكتوبة، وأتيت بالأذكار المشروعة، فإنك تدعو الله بحاجتك؛ لأن هذا مظنة الإجابة.

الخامس والسادس: **(عِنْدَ صُعُودِ الْإِمَامِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَلَى الْمِنْبَرِ حَتَّى تُقْضَى الصَّلَاةُ، وَآخِرُ سَاعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ)**؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ فِي الْجُمُعَةِ لَسَاعَةً، لَا يُوَافِقُهَا مُسْلِمٌ، قَائِمٌ يُصَلِّي، يَسْأَلُ اللهَ خَيْرًا، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ»**(٣). وهذه الساعة مخفاة في اليوم كله، لكن أحراها ومظنتها اختلف العلماء فيه على قولين:

القول الأول: أنه من حين يصعد الإمام على المنبر إلى أن تُقضى الصلاة، كل هذا وقت للإجابة؛ لأنه وقت الصلاة ووقت الذكر، فهو مظنة الإجابة.

القول الثاني: أنها آخر ساعة من يوم الجمعة.

وعلى كل حال هذا اليوم فيه هذه الساعة، فليجتهد العبد في تحريها.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٣٨٦) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٩٣٥)، ومسلم (٨٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقد ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ آدابًا إذا صادفها العبد في دعائه فحري به أن يُجاب، وهي:

أولًا: قال: **(صَادَفَ خُشُوعًا فِي الْقَلْبِ)**، أي: يكون القلب حاضرًا وقت الدعاء ولا يكون غافلًا.

ثانيًا: **(وَانْكِسَارًا)** يعني: افتقار **(بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ)**، أي: يعرف فقره وحاجته إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

ثالثًا: **(وَذُلًّا لَهُ وَتَضَرُّعًا وَرِقَّةً)**؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف:٥٥].

رابعًا: **(وَاسْتَقْبَلَ الدَّاعِي الْقِبْلَةَ)** من أسباب القبول أنه يستقبل القبلة، وهكذا العبادات يُستحب أن تستقبل بها القبلة؛ لأنها قبلة المسلمين.

خامسًا: **(وَكَانَ عَلَى طَهَارَةٍ)** يُستحب أن يكون وقت الدعاء على طهارة؛ لأنه عبادة، وكونه يؤديها على طهارة أفضل.

سادسًا: **(وَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى اللَّهِ)** كذلك رفع اليدين إلى الله من باب إظهار الفقر والحاجة إلى الله، وهذا من أسباب القبول.

سابعًا: **(وَبَدَأَ بِحَمْدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ)** كذلك من آداب الدعاء أن يبدأ بحمد الله جَلَّ وَعَلَا، ويصلي على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم يدعو.

ثامنًا: **(ثُمَّ قَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ حَاجَتِهِ التَّوْبَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ)**؛ لأنه إذا تاب إلى الله واستغفر، ثم دعا بعد ذلك، فحريٌّ أن يُستجاب له.

تاسعًا: **(وَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَتَوْحِيدِهِ)** كذلك من أسباب قبول الدعاء أن يتوسل إلى الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه وصفاته، كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ

ﭐلۡأَسۡمَآءُ ﭐلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف:١٨٠]، فيتوسل إليه بها، يقول: يا أرحم الراحمين ارحمني، يا غفور اغفر لي، يا تواب تب علي، يا رزاق ارزقني، وهكذا يتوسل إليه بأسمائه وصفاته.

عاشرًا: **(وَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ دُعَائِهِ صَدَقَةً)** كذلك من أسباب القبول أنه يتصدق على المحتاجين قبل الدعاء.

فإن أتي بهذه الآداب في دعائه **(فَإِنَّ هَذَا الدُّعَاءَ لَا يَكَادُ يُرَدُّ أَبَدًا، وَلَا سِيَّمَا إِنْ صَادَفَ الْأَدْعِيَةَ الَّتِي أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا مَظَنَّةُ الْإِجَابَةِ)**، فالدعاء يختلف ويتفاضل، إذا دعا بدعاءٍ مشروع وارد عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فهذا مظنة الإجابة، فيدعو بالأدعية الواردة في القرآن، والأدعية الواردة في السنة، وإذا دعا بغيرها مما يوافقها فلا بأس.

فَمِنْهَا مَا فِي السُّنَنِ وَصَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، فَقَالَ: «لَقَدْ سَأَلَ اللَّهَ بِالِاسْمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ»(١).

وَفِي لَفْظٍ: «لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ»(٢).

وَفِي السُّنَنِ وَصَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا، وَرَجُلٌ يُصَلِّي، ثُمَّ دَعَا فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ دَعَا اللَّهَ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى»(٣).

أَخْرَجَ الْحَدِيثَيْنِ أَحْمَدُ فِي مَسْنَدِهِ.

وَفِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ، مِنْ حَدِيثِ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]، وَفَاتِحَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿الم ۞ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٣)، والترمذي (٣٤٧٥)، وابن ماجه (٣٨٥٧)، وأحمد (٥/ ٣٥٠)، وابن حبان (٣/ ١٧٣).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٩٤)، والنسائي في الكبرى (٧/ ١٢٦).

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٩٥)، والنسائي (١٣٠٠)، وابن ماجه (٣٨٥٨)، وأحمد (٣/ ١٢٠)، وابن حبان (٣/ ١٧٥).

هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾»(١). قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشرح:

إذا توسل إلى الله بالتوحيد، فقال -مثلًا-: **(اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)**، فهذا من أسباب الإجابة.

فعلى العبد أن يتعلم هذه الأدعية الواردة في السنن والآثار، ويدعو بها مع حضور قلبه.

فإذا صادف أنه دعا باسم الله الأعظم استُجيب له، ولكن الله جَلَّوَعَلَا أخفاه في أسمائه من أجل أن الإنسان يدعو الله بأسمائه كلها، فيدعو بما يحفظ منها وما يعرف حتى يصادف هذا الاسم، لكنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أخفاه مثلما أخفى ليلة القدر في رمضان، وأخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة، لأجل ألا يقتصر الإنسان على شيء واحد، بل يعبد الله في جميع الوقت، ويدعوه بجميع الأسماء التي يعرفها، ويجتهد في ذلك، ولكن أحراها ما جاء في سورة البقرة: **﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾**، وفاتحة آل عمران: **﴿الٓمٓ ۞ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾**.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٦)، وابن ماجه (٣٨٥٥)، وأحمد (٦/ ٤٦١).

وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ وَصَحِيحِ الْحَاكِمِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَرَبِيعَةَ بْنِ عَامِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «أَلِظُّوا بِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»(١). يَعْنِي: تَعَلَّقُوا بِهَا وَالْزَمُوهَا وَدَاوِمُوا عَلَيْهَا.

وَفِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أَهَمَّهُ الْأَمْرُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فقال: «سُبْحَانَ اللهِ العَظِيم»، وَإِذَا اجْتَهَدَ فِي الدُّعَاءِ، قَالَ: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ»(٢).

وَفِيهِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ قَالَ: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ»(٣).

وَفِي صَحِيحِ الْحَاكِمِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي ثَلَاثِ سُوَرٍ مِنَ الْقُرْآنِ: الْبَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرَانَ، وَطَه»، قَالَ الْقَاسِمُ: فَالْتَمَسْتُهَا فَإِذَا هِيَ آيَةُ ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾(٤).

الشرح:

قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلِظُّوا بِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**»؛ لأنها من ألفاظ الدعاء التي يُستحب الإكثار منها.

قوله: (**إِذَا أَهَمَّهُ الْأَمْرُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ**)، فيه أن رفع الرأس إلى السماء

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٧٧)، والحاكم (١/ ٦٧٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٣٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٢٤).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٣٨٥٦)، والحاكم (١/ ٦٨٤).

من أسباب الإجابة، وفيه إثبات أن الله جَلَّ وَعَلَا في السماء، ترتفع إليه الوجوه، وتتجه إليه القلوب في العلو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقد كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أهمه أمر يرفع رأسه إلى السماء ويقول: **«سُبْحَانَ اللهِ العَظِيم»**، ويجتهد في الدعاء ويقول: **«يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ»**؛ لأن هذان الاسمان يتضمنان كل الأسماء، فالحي يتضمن كل الصفات الذاتية، والقيوم يتضمن كل الصفات الفعلية، وهذا يدل على فضل هذا الاسم: الحي القيوم.

وقد ورد هذا الاسم في ثلاث سور من القرآن:

- في آية الكرسي من سورة البقرة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥].

- وفي سورة آل عمران: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران:٢].

- وفي سورة طه: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه:١١١].

وَفِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ وَصَحِيحِ الْحَاكِمِ مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ، إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]، إِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ»(١). قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وَفِي صَحِيحِ الْحَاكِمِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ سَعْدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا نَزَلَ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ كَرْبٌ أَوْ بَلَاءٌ مِنْ بَلَايَا الدُّنْيَا، فَدَعَا بِهِ يُفَرِّجُ اللَّهُ عَنْهُ؟ دُعَاءُ ذِي النُّونِ»(٢).

وَفِي صَحِيحِهِ أَيْضًا عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى اسْمِ اللَّهِ الْأَعْظَمِ؟ دُعَاءِ يُونُسَ»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ كَانَ لِيُونُسَ خَاصَّةً؟ فَقَالَ: «أَلَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٨]، فَأَيُّمَا مُسْلِمٍ دَعَا بِهَا فِي مَرَضِهِ أَرْبَعِينَ مَرَّةً، فَمَاتَ فِي مَرَضِهِ ذَلِكَ أُعْطِيَ، أَجْرَ شَهِيدٍ، وَإِنْ بَرَأَ بَرَأَ مَغْفُورًا لَهُ»(٣).

الشرح:

قوله: (ذِي النُّونِ) يعني: يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، والنون هو الحوت، فيُقال له: ذو النون، ويُقال: صاحب الحوت، كما في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم:٤٨]، أي: ذي النون عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٧٠)، والترمذي (٣٥٠٥)، والحاكم (١/ ٦٨٤).

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٦٨٥)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٦٦٠).

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٦٨٥).

وقد دعا يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ وتوسل إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بأنواع من التوسل؛ توسل إليه بالتوحيد فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، وتوسل إليه بالتنزيه، والتسبيح فقال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾، وتوسل إليه باعترافه بذنبه فقال: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وكل ذلك من أسباب الإجابة.

وهذا الدعاء ليس خاصًّا به عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فمن دعا بهذا الدعاء عن إخلاص وحضور قلب فإن الله جَلَّ وَعَلَا يستجيب له، ولاسيما إذا كان في شدة.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ»(١).

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا نَزَلَ بِي كَرْبٌ أَنْ أَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»(٢).

وَفِي مُسْنَدِهِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حُزْنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي؛ إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ قَالَ: «بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٩١)، وابن حبان (٣/ ١٤٧)، والحاكم (١/ ٦٨٨).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١)، وابن حبان (٣/ ٢٥٢)، والحاكم (١/ ٦٩٠).

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مَا كَرَبَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، إِلَّا اسْتَغَاثَ بِالتَّسْبِيحِ(١).

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ الْمُجَابِينَ فِي الدُّعَاءِ، عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْأَنْصَارِ يُكَنَّى أَبَا مُعَلَّقٍ، وَكَانَ تَاجِرًا يَتَّجِرُ بِمَالٍ لَهُ وَلِغَيْرِهِ، يَضْرِبُ بِهِ فِي الْآفَاقِ، وَكَانَ نَاسِكًا وَرِعًا، فَخَرَجَ مَرَّةً فَلَقِيَهُ لِصٌّ مُقَنَّعٌ فِي السِّلَاحِ، فَقَالَ لَهُ: ضَعْ مَا مَعَكَ فَإِنِّي قَاتِلُكَ. قَالَ: فَمَا تُرِيدُهُ مِنْ دَمِي؟ شَأْنُكَ بِالْمَالِ، قَالَ: أَمَّا الْمَالُ فَلِي، وَلَسْتُ أُرِيدُ إِلَّا دَمَكَ، قَالَ: أَمَّا إِذَا أَبَيْتَ فَذَرْنِي أُصَلِّي أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، قَالَ: صَلِّ مَا بَدَا لَكَ.

فَتَوَضَّأَ ثُمَّ صَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، فَكَانَ مِنْ دُعَائِهِ فِي آخِرِ سُجُودِهِ أَنْ قَالَ: يَا وَدُودُ، يَا ذَا الْعَرْشِ الْمَجِيدِ، يَا فَعَّالُ لِمَا تُرِيدُ، أَسْأَلُكَ بِعِزِّكَ الَّذِي لَا يُرَامُ، وَمُلْكِكَ الَّذِي لَا يُضَامُ، وَبِنُورِكَ الَّذِي مَلَأَ أَرْكَانَ عَرْشِكَ، أَنْ تَكْفِيَنِي شَرَّ هَذَا اللِّصِّ، يَا مُغِيثُ أَغِثْنِي، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

فَإِذَا هُوَ بِفَارِسٍ قَدْ أَقْبَلَ بِيَدِهِ حَرْبَةٌ قَدْ وَضَعَهَا بَيْنَ أُذُنَيْ فَرَسِهِ، فَلَمَّا بَصُرَ بِهِ اللِّصُّ أَقْبَلَ نَحْوَهُ، فَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: قُمْ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي؟ فَقَدْ أَغَاثَنِي اللَّهُ بِكَ الْيَوْمَ، فَقَالَ: أَنَا مَلَكٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، دَعَوْتَ بِدُعَائِكَ الْأَوَّلِ، فَسَمِعْتُ لِأَبْوَابِ السَّمَاءِ قَعْقَعَةً، ثُمَّ دَعَوْتَ بِدُعَائِكَ الثَّانِي، فَسَمِعْتُ لِأَهْلِ السَّمَاءِ ضَجَّةً، ثُمَّ دَعَوْتَ بِدُعَائِكَ الثَّالِثِ، فَقِيلَ لِي: دُعَاءُ مَكْرُوبٍ، فَسَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يُوَلِّيَنِي قَتْلَهُ.

قَالَ الْحَسَنُ: فَمَنْ تَوَضَّأَ، وَصَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، وَدَعَا بِهَذَا الدُّعَاءِ، اسْتُجِيبَ

---

(١) أخرجه ابن سمعون الواعظ في أماليه (ص١٨٧).

لَهُ، مَكْرُوبًا كَانَ أَوْ غَيْرَ مَكْرُوبٍ(١).

الشرح:

في هذا الأثر أن هذا الصحابي لما وقع في هذا الكرب، وتمكن منه عدوه وهدده، قام يصلي، ودعا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتوسل إليه بأسمائه وصفاته، فأجاب الله جَلَّ وَعَلَا دعاءه، وهذا كما في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل:٦٢]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦].

فهذا داخل في مدلول هذه الآيات: أن من وقع في كرب، ودعا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فإن الله يجيبه.

أما أنه يُشرع أنه يصلي -كما قال الحسن: **(فَمَنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، وَدَعَا بِهَذَا الدُّعَاءِ، اسْتُجِيبَ لَهُ)**- فهذا يحتاج إلى دليل من السنة.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «مجابو الدعوة»، مطبوع ضمن مجموعة رسائل ابن أبي الدنيا (ص٢٧)، وفي هواتف الجنان (ص٣١).

فَصْلٌ

وَكَثِيرًا مَا تَجِدُ أَدْعِيَةً دَعَا بِهَا قَوْمٌ فَاسْتُجِيبَ لَهُمْ، فَيَكُونُ قَدِ اقْتَرَنَ بِالدُّعَاءِ ضَرُورَةُ صَاحِبِهِ وَإِقْبَالُهُ عَلَى اللَّهِ، أَوْ حَسَنَةٌ تَقَدَّمَتْ مِنْهُ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِجَابَةَ دَعْوَتِهِ شُكْرًا لِحَسَنَتِهِ، أَوْ صَادَفَ وَقْتَ إِجَابَةٍ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، فَأُجِيبَتْ دَعْوَتُهُ. فَيَظُنُّ الظَّانُّ أَنَّ السِّرَّ فِي لَفْظِ ذَلِكَ الدُّعَاءِ، فَيَأْخُذُهُ مُجَرَّدًا عَنْ تِلْكَ الْأُمُورِ الَّتِي قَارَنَتْهُ مِنْ ذَلِكَ الدَّاعِي. وَهَذَا كَمَا إِذَا اسْتَعْمَلَ رَجُلٌ دَوَاءً نَافِعًا فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَنْبَغِي اسْتِعْمَالُهُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي، فَانْتَفَعَ بِهِ، فَظَنَّ غَيْرُهُ أَنَّ اسْتِعْمَالَ هَذَا الدَّوَاءِ بِمُجَرَّدِهِ كَافٍ فِي حُصُولِ الْمَطْلُوبِ، كَانَ غَالِطًا. وَهَذَا مَوْضِعٌ يَغْلَطُ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ.

وَمِنْ هَذَا أَنَّهُ قَدْ يَتَّفِقُ دُعَاؤُهُ بِاضْطِرَارٍ عِنْدَ قَبْرٍ فَيُجَابُ، فَيَظُنُّ الْجَاهِلُ أَنَّ السِّرَّ لِلْقَبْرِ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ السِّرَّ لِلاضْطِرَارِ وَصِدْقِ اللَّجْأِ إِلَى اللَّهِ، فَإِذَا حَصَلَ ذَلِكَ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، كَانَ أَفْضَلَ وَأَحَبَّ إِلَى اللَّهِ.

الشرح:

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض أسباب إجابة الدعاء، والتي قد تخفى على بعض الناس فيظن أن إجابة الدعاء كانت لسبب آخر، فذكر منها:

أولًا: قال: **(اقْتَرَنَ بِالدُّعَاءِ ضَرُورَةُ صَاحِبِهِ وَإِقْبَالُهُ عَلَى اللَّهِ)**، فإذا كان الدعاء مقترنًا بضرورة صاحبه وإخلاصه في الدعاء؛ كان ذلك سببًا من أسباب الإجابة، فالضرورة سبب من أسباب الإجابة، والإخلاص أيضًا من أسباب الإجابة؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ١٤].

ثانيًا: **(أَوْ حَسَنَةٌ تَقَدَّمَتْ مِنْهُ)** أي: كانت له أعمال صالحة تقدمت الدعاء،

فإذا وقع في شدة أنقذه الله لأجل هذه الأعمال الصالحة؛ كما قال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ**»[1]. وكما في قصة يونس عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ أي: من المصلين ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣، ١٤٤]، كانت له أعمال صالحة في حال الرخاء، فلما وقع في الشدة أنقذه الله منها.

ثالثًا: (**أَوْ صَادَفَ وَقْتَ إِجَابَةٍ**)، كذلك من أسباب الإجابة أن يصادف وقت إجابة، مثل ثلث الليل الآخر، أو الدعاء في ساعة يوم الجمعة، أو الدعاء في السجود، هذه كلها من أوقات الإجابة، إذا صادفها المسلم وهو يدعو استجاب الله له دعاءه.

قوله: (**فَيَظُنُّ الظَّانُّ أَنَّ السِّرَّ فِي لَفْظِ ذَلِكَ الدُّعَاءِ**)، أي: يظن أن لفظ الدعاء هو السبب، وليس الأمر كذلك، بل أمور أخرى كانت من أسباب الإجابة، وإلا فالدعاء هو هو يدعو به كل الناس، لكن بعضهم يستجاب له، وبعضهم لا يستجاب له، مع أن لفظ الدعاء واحد، وصيغته واحدة، لكن يحصل لبعض الناس أسباب يُستجاب فيها دعاؤهم، وبعضهم لا يكون عنده أسباب القبول، فلا يُجاب ولو دعا بالدعاء الذي دعا به الآخر، فليست العبرة بصيغة الدعاء، بل العبرة بالأحوال.

قوله: (**فَيَأْخُذُهُ مُجَرَّدًا عَنْ تِلْكَ الْأُمُورِ**)، فمن ترك النظر في أسباب إجابة الدعاء ظن أن مجرد لفظ الدعاء يكفي.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي (٢٥١٦)، والحاكم (٣/ ٦٢٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٧٤) من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

وهذا مثل استعمال الدواء الأمور المحسوسة، فبعض الناس يستعمله فيشفيه الله، ويستعمله آخر فلا يُشفى، والسبب في ذلك أن الذي استعمله وشفي به صادف محله، وأخذ المقدار الذي يحصل به العلاج، فحصل له الشفاء، يعني: هناك أسباب أخرى غير الدواء، فمن أخذه مع تخلف الأسباب فإنه لا يُشفى؛ لأنه لم يطبق الأحوال التي طبقها الأول.

قوله: **(وَمِنْ هَذَا أَنَّهُ قَدْ يَتَّفِقُ دُعَاؤُهُ بِاضْطِرَارٍ عِنْدَ قَبْرٍ فَيُجَابُ، فَيَظُنُّ الْجَاهِلُ أَنَّ السِّرَّ لِلْقَبْرِ)**، هذه شبهة عظيمة، فبعض القبوريين يقول:دعوت عند القبر فاستجيب لي، وفلان دعا عند القبر فاستجيب له. فيظن الناس أن الدعاء عند القبر مشروع، وأنه يحصل به المقصود، وهذه فتنة، فليس السبب هو الدعاء عند القبر، بل السبب أن الداعي كان مضطرًّا فأجاب الله دعاءه لضرورته، ولو لم يدع عند القبر، فهو مضطر، أو صادف وقت إجابة، أو حصلت الإجابة لا بسبب الدعاء، وإنما بسبب القضاء والقدر، فيظن بعض الناس أنها حصلت بسبب دعائه عند القبر، فيفتتنون بالمقبور، ويدعونه من دون الله.

وكونه إذا دعا عند القبر حصل له مقصوده ليس بحجة ولا دليل على جواز الدعاء عند القبر؛ لأن الأحاديث التي تنهى عن الدعاء عند القبور أحاديث صريحة وصحيحة تمنع من هذا.

وقوله: **(فَإِذَا حَصَلَ ذَلِكَ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، كَانَ أَفْضَلَ وَأَحَبَّ إِلَى اللَّهِ)**، أي: أن هذا الذي يدعو عند القبر لو أتى بهذا الدعاء في بيت من بيوت الله؛ لكان أحب عند الله من أن يدعو عند القبر.

فَصْلٌ

وَالْأَدْعِيَةُ وَالتَّعَوُّذَاتُ بِمَنْزِلَةِ السِّلَاحِ، وَالسِّلَاحُ بِضَارِبِهِ، لَا بِحَدِّهِ فَقَطْ، فَمَتَى كَانَ السِّلَاحُ سِلَاحًا تَامًّا لَا آفَةَ بِهِ، وَالسَّاعِدُ سَاعِدُ قَوِيٍّ، وَالْمَانِعُ مَفْقُودٌ؛ حَصَلَتْ بِهِ النِّكَايَةُ فِي الْعَدُوِّ، وَمَتَى تَخَلَّفَ وَاحِدٌ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ تَخَلَّفَ التَّأْثِيرُ.

فَإِذَا كَانَ الدُّعَاءُ فِي نَفْسِهِ غَيْرَ صَالِحٍ، أَوِ الدَّاعِي لَمْ يَجْمَعْ بَيْنَ قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ فِي الدُّعَاءِ، أَوْ كَانَ ثَمَّ مَانِعٌ مِنَ الْإِجَابَةِ، لَمْ يَحْصُلِ الْأَثَرُ.

الشرح:

الأدعية بمنزلة السلاح، لكن السلاح إذا كان بيد شجاع فإنه ينفع ويقتل العدو، أما إذا كان بيد جبان فإنه لا ينفع، ولو كان جيدًا وقويًّا، فالسلاح بضاربه لا بحده، وكذلك الدعاء بأحوال الداعي لا بلفظ الدعاء فقط.

فإذا كان السلاح غير حادٍّ، وإنما هو سلاح رديء، أو كان السلاح حادًّا ولكن الذي يضرب به جبان ولا يحسن الضرب، فهذا لا يحصل به المقصود، أو كان المحل الذي يضربه غير قابل للضرب، كالذي يضرب بالسيف حجرًا ولا يؤثر فيه الضرب، أو يضرب به شيئًا لا ينفع فيه السلاح الحاد. فلا بد من توفر الأسباب في السلاح، وكذلك لا بد من توفر الأسباب في الدعاء، فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح كان مثل السلاح الداثر الذي لاحد له.

فمن يدعو غير مخلص في دعائه، أو اقترف مانعًا من موانع الإجابة، مثل أكل الحرام، أو دعا بإثم أو قطيعة رحم، لم ينفعه الدعاء.

فَصْلٌ

وَهَاهُنَا سُؤَالٌ مَشْهُورٌ، وَهُوَ: أَنَّ الْمَدْعُوَّ بِهِ إِنْ كَانَ قَدْ قُدِّرَ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ وُقُوعِهِ، دَعَا بِهِ الْعَبْدُ أَوْ لَمْ يَدْعُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ قُدِّرَ لَمْ يَقَعْ، سَوَاءٌ سَأَلَهُ الْعَبْدُ أَوْ لَمْ يَسْأَلْهُ.

فَظَنَّتْ طَائِفَةٌ صِحَّةَ هَذَا السُّؤَالِ، فَتَرَكَتِ الدُّعَاءَ وَقَالَتْ: لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَهَؤُلَاءِ -مَعَ فَرْطِ جَهْلِهِمْ وَضَلَالِهِمْ- مُتَنَاقِضُونَ، فَإِنَّ طَرْدَ مَذْهَبِهِمْ يُوجِبُ تَعْطِيلَ جَمِيعِ الْأَسْبَابِ.

فَيُقَالُ لِأَحَدِهِمْ: إِنْ كَانَ الشِّبَعُ وَالرِّيُّ قَدْ قُدِّرَا لَكَ فَلَابُدَّ مِنْ وُقُوعِهِمَا، أَكَلْتَ أَوْ لَمْ تَأْكُلْ، وَإِنْ لَمْ يُقَدَّرَا لَمْ يَقَعَا، أَكَلْتَ أَوْ لَمْ تَأْكُلْ.

وَإِنْ كَانَ الْوَلَدُ قُدِّرَ لَكَ فَلَابُدَّ مِنْهُ، وَطِئْتَ الزَّوْجَةَ وَالْأَمَةَ أَوْ لَمْ تَطَأْ، وَإِنْ لَمْ يُقَدَّرْ لَمْ يَكُنْ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى التَّزْوِيجِ وَالتَّسَرِّي. وَهَلُمَّ جَرًّا.

فَهَلْ يَقُولُ هَذَا عَاقِلٌ أَوْ آدَمِيٌّ؟! بَلِ الْحَيَوَانُ الْبَهِيمُ مَفْطُورٌ عَلَى مُبَاشَرَةِ الْأَسْبَابِ الَّتِي بِهَا قِوَامُهُ وَحَيَاتُهُ. فَالْحَيَوَانَاتُ أَعْقَلُ وَأَفْهَمُ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هُمْ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا.

الشرح:

هذه شبهة عند أهل الضلال والمغالطين، يقولون: الدعاء ليس له فائدة، فإذا كان قُدِّر لك الشيء فإنه يحصل ولو لم تدع، وإذا لم يُقدر لك فليس بحاصل ولو دعوت ودعوت.

وهذه مغالطة، فلا شك أن الله عَزَّوَجَلَّ قدَّر الأشياء وقضاها، وهو

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمرنا بالدعاء، فالدعاء سبب من الأسباب، والله جَلَّ وَعَلَا أمرنا باتخاذ الأسباب، ولم ينهنا عن أخذ الأسباب، ولم يأمرنا بالاتكال على القضاء والقدر، بل قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«اعْمَلُوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»**(١).

وهذه المغالطة مما يجري على ألسنة الصوفية، فيقولون: لا فائدة من الدعاء؛ لأنه إن كان الأمر مقدرًا حصل، وإن لم يكن مقدرًا لم يحصل.

فنقول: هذا غلط، والله جَلَّ وَعَلَا أمرنا بالدعاء، وأمرنا باتخاذ الأسباب، وأما القضاء والقدر فهذا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونحن نفعل ما عندنا.

وهؤلاء الذين يروجون لهذه الشبهة متناقضون؛ لأنهم لو اعتدى عليهم أحدٌ واحتج بالقضاء والقدر ما قبلوا حجته، وراحوا يطالبونه بالقصاص، ويطالبون بأخذ الحق ممن ظلمهم، ولا يقولون: هذا قضاء وقدر.

وأيضًا هم يأكلون إذا جاعوا، ويشربون إذا عطشوا، ولا يقولون: إن كان الله قدر لنا الحياة سوف نحيا ولو ما أكلنا أو شربنا، فهم يأخذون بالأسباب في أمور حياتهم الدنيا، فلماذا يأخذون بها في بعض أمورهم ويتركونها في البعض الآخر؟!.

فيُقال لهؤلاء: يلزمكم أن تعطلوا الأسباب كلها على مذهبكم، فلا تأكلوا، ولا تشربوا، ولا تتزوج، ولا تذهبوا للطبيب إذا مرضتم؛ لأن ما قدره الله وقضاه سوف يحصل، ولو لم تفعلوا ذلك.

ولا يقول بهذا عاقل، لا يقوله إلا مخبول لا عقل له، بل إن البهائم مفطورة على طلب الأسباب والسعي إليها، والطيور ما تبقى في أوكارها تنتظر

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الطعام، بل تطلع بحثًا عن رزقها: «**تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا**»[١]، فهي طيور، ومع ذلك تعمل الأسباب، وتعلم أنه لن يحصل لها شيء إلا بالسبب.

وهكذا كل بهيمة تجدها تبحث عن رزقها؛ تبحث عن الماء، وتبحث عن الطعام، وهي بهيمة لا عقل لها، ولا تقف تنتظر الرزق وتقول: إن كان مقدرًا لي شيء فإنه سيأتيني.

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٤)، والنسائي في الكبرى (١٠/٣٨٩)، وابن ماجه (٤١٦٤)، وأحمد (١/ ٣٠)، والحاكم (٤/ ٣٥٤)، وابن حبان (٢/ ٥٠٩) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَتَكَايَسَ بَعْضُهُمْ وَقَالَ: الِاشْتِغَالُ بِالدُّعَاءِ مِنْ بَابِ التَّعَبُّدِ الْمَحْضِ، يُثِيبُ اللَّهُ عَلَيْهِ الدَّاعِيَ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ تَأْثِيرٌ فِي الْمَطْلُوبِ بِوَجْهٍ مَا. وَلَا فَرْقَ عِنْدَ هَذَا الْمُتَكَيِّسِ بَيْنَ الدُّعَاءِ وَالْإِمْسَاكِ عَنْهُ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ فِي التَّأْثِيرِ فِي حُصُولِ الْمَطْلُوبِ، وَارْتِبَاطُ الدُّعَاءِ عِنْدَهُمْ بِهِ كَارْتِبَاطِ السُّكُوتِ وَلَا فَرْقَ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى أَكْيَسُ مِنْ هَؤُلَاءِ: بَلِ الدُّعَاءُ عَلَامَةٌ مُجَرَّدَةٌ نَصَبَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَمَارَةً عَلَى قَضَاءِ الْحَاجَةِ. فَمَتَى وُفِّقَ الْعَبْدُ لِلدُّعَاءِ كَانَ ذَلِكَ عَلَامَةً لَهُ وَأَمَارَةً عَلَى أَنَّ حَاجَتَهُ قَدْ قُضِيَتْ. وَهَذَا كَمَا إِذَا رَأَيْنَا غَيْمًا أَسْوَدَ بَارِدًا فِي زَمَنِ الشِّتَاءِ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ وَعَلَامَةٌ عَلَى أَنَّهُ يُمْطِرُ.

قَالُوا: وَهَكَذَا حُكْمُ الطَّاعَاتِ مَعَ الثَّوَابِ، وَالْكُفْرُ وَالْمَعَاصِي مَعَ الْعِقَابِ، هِيَ أَمَارَاتٌ مَحْضَةٌ لِوُقُوعِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ لَا أَنَّهَا أَسْبَابٌ لَهُ.

وَهَكَذَا عِنْدَهُمُ الْكَسْرُ مَعَ الِانْكِسَارِ، وَالْحَرْقُ مَعَ الْإِحْرَاقِ، وَالْإِزْهَاقُ مَعَ الْقَتْلِ، لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ سَبَبًا الْبَتَّةَ، وَلَا ارْتِبَاطَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ، إِلَّا مُجَرَّدُ الِاقْتِرَانِ الْعَادِيِّ، لَا التَّأْثِيرُ السَّبَبِيُّ.

وَخَالَفُوا بِذَلِكَ الْحِسَّ، وَالْعَقْلَ، وَالشَّرْعَ، وَالْفِطْرَةَ، وَسَائِرَ طَوَائِفِ الْعُقَلَاءِ، بَلْ أَضْحَكُوا عَلَيْهِمُ الْعُقَلَاءَ.

وَالصَّوَابُ: أَنَّ هَاهُنَا قِسْمًا ثَالِثًا غَيْرَ مَا ذَكَرَهُ السَّائِلُ، وَهُوَ أَنَّ هَذَا الْمَقْدُورَ قُدِّرَ بِأَسْبَابٍ، وَمِنْ أَسْبَابِهِ الدُّعَاءُ، فَلَمْ يُقَدَّرْ مُجَرَّدًا عَنْ سَبَبِهِ، وَلَكِنْ قُدِّرَ بِسَبَبِهِ، فَمَتَى أَتَى الْعَبْدُ بِالسَّبَبِ وَقَعَ الْمَقْدُورُ، وَمَتَى لَمْ يَأْتِ بِالسَّبَبِ انْتَفَى الْمَقْدُورُ. وَهَذَا كَمَا قُدِّرَ الشِّبَعُ وَالرِّيُّ بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَقُدِّرَ الْوَلَدُ بِالْوَطْءِ، وَقُدِّرَ حُصُولُ الزَّرْعِ بِالْبَذْرِ، وَقُدِّرَ خُرُوجُ نَفْسِ الْحَيَوَانِ بِذَبْحِهِ، وَكَذَلِكَ قُدِّرَ دُخُولُ

الْجَنَّةِ بِالْأَعْمَالِ، وَدُخُولُ النَّارِ بِالْأَعْمَالِ.

وَهَذَا الْقِسْمُ هُوَ الْحَقُّ، وَهَذَا الَّذِي حُرِمَهُ السَّائِلُ وَلَمْ يُوَفَّقْ لَهُ.

وَحِينَئِذٍ فَالدُّعَاءُ مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ، فَإِذَا قُدِّرَ وُقُوعُ الْمَدْعُوِّ بِهِ بِالدُّعَاءِ لَمْ يَصِحَّ أَنْ يُقَالَ: لَا فَائِدَةَ فِي الدُّعَاءِ، كَمَا لَا يُقَالُ: لَا فَائِدَةَ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَجَمِيعِ الْحَرَكَاتِ وَالْأَعْمَالِ! وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْأَسْبَابِ أَنْفَعَ مِنَ الدُّعَاءِ، وَلَا أَبْلَغَ فِي حُصُولِ الْمَطْلُوبِ.

الشرح:

قوله: (**وَتَكَايَسَ**) يعني: أظهر الحذق (**وَقَالَ: الِاشْتِغَالُ بِالدُّعَاءِ مِنْ بَابِ التَّعَبُّدِ الْمَحْضِ**)، أي: ليس بسببه حصل المقصود، لكنه عبادة فقط يثاب الداعي على فعله.

فنقول: صحيح هو عبادة، بل هو من أعظم أنواع العبادة، ولكنه سبب أيضًا لحصول المطلوب، فهو عبادة وهو سبب لحصول المطلوب، فهو أخذ جانبًا وترك الجانب الآخر.

وقوله: (**وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى أَكْيَسُ مِنْ هَؤُلَاءِ: بَلِ الدُّعَاءُ عَلَامَةٌ مُجَرَّدَةٌ نَصَبَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَمَارَةً عَلَى قَضَاءِ الْحَاجَةِ**)، أي: ليس للدعاء فائدة في حصول المطلوب، بل المطلوب يحصل بالقضاء والقدر. وهؤلاء أقرب من الأولين، لكنهم لا يزال عندهم شيءٌ من الباطل، فليس الدعاء علامة على حصول المقصود، وإنما هو سبب، والله عَزَّوَجَلَّ أمر به فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى

﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، ربط الإجابة بالدعاء، فدل على أن الدعاء سبب وليس علامة فقط.

وقولهم: (**وَهَذَا كَمَا إِذَا رَأَيْتَ غَيْمًا أَسْوَدَ بَارِدًا فِي زَمَنِ الشِّتَاءِ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ وَعَلَامَةٌ عَلَى أَنَّهُ يُمْطِرُ**)، يعني: كما أن رؤية الغيوم في زمن الشتاء علامة نزول المطر، فكذلك الدعاء. فنقول: هذا تمثيل غير صحيح، فالسحاب وإن كان أسود وإن كان باردًا قد لا يحصل فيه مطر.

وقولهم عن المعاصي والطاعات: (**هِيَ أَمَارَاتٌ مَحْضَةٌ لِوُقُوعِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ لَا أَنَّهَا أَسْبَابٌ لَهُ**) هذا غلط، بل هي أسباب له، فالطاعات أسباب للثواب، والمعاصي أسباب للعقاب، وليست مجرد علامات، وبقولهم هذا (**خَالَفُوا بِذَلِكَ الْحِسَّ وَالْعَقْلَ**)، حتى إنهم يطردون هذا في المحسوسات، فيقولون: الكسر علامة على الانكسار، والمرض علامة على الألم وليس سببًا له، وكل هذا مغالطة ومغالاة في إثبات القضاء والقدر، ونفي الأسباب.

والصواب: أنه لا منافاة بين اتخاذ الأسباب وبين القضاء والقدر.

قوله: (**وَلِلصَّوَابِ أَنَّ هَاهُنَا قِسْمًا ثَالِثًا غَيْرَ مَا ذَكَرَهُ السَّائِلُ**)، وهو الأشياء التي قُدرت على حصول أسباب، فإن حصلت الأسباب حصل المقدر، وإن لم تحصل الأسباب لم يحصل المقدر، فهو قضاء وقدر مبني على حصول أسباب وانتفاء موانع، مثل: الوطء في الزواج سبب لحصول الولد، فالله قدر لك الذرية بسبب الزواج والوطء، ولو لم يطأ الزوج ولم تتزوج لم يحصل له أولاد، وكذلك قُدِّر دخول الجنة أو دخول النار بما يعمله العبد، فإذا حصلت الأسباب حصل المقدور، وإذا لم تحصل لم يحصل المقدور.

وَلَمَّا كَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَعْلَمَ الْأُمَّةِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَفْقَهَهُمْ فِي دِينِهِ، كَانُوا أَقْوَمَ بِهَذَا السَّبَبِ وَشُرُوطِهِ وَآدَابِهِ مِنْ غَيْرِهِمْ.

وَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَسْتَنْصِرُ بِهِ عَلَى عَدُوِّهِ، وَكَانَ أَعْظَمَ جُنْدَيْهِ، وَكَانَ يَقُولُ لِلصَّحَابَةِ: «لَسْتُمْ تُنْصَرُونَ بِكَثْرَةٍ، وَإِنَّمَا تُنْصَرُونَ مِنَ السَّمَاءِ»(١).

وَكَانَ يَقُولُ: «إِنِّي لَا أَحْمِلُ هَمَّ الْإِجَابَةِ، وَلَكِنْ هَمَّ الدُّعَاءِ، فَإِذَا أُلْهِمْتُ الدُّعَاءَ، فَإِنَّ الْإِجَابَةَ مَعَهُ»(٢).

وَأَخَذَ الشَّاعِرُ هَذَا الْمَعْنَى فَنَظَمَهُ فَقَالَ:

لَوْ لَمْ تُرِدْ نَيْلَ مَا أَرْجُو وَأَطْلُبُهُ ... مِنْ جُودِ كَفِّكَ مَا عَوَّدْتَنِي الطَّلَبَا

فَمَنْ أُلْهِمَ الدُّعَاءَ فَقَدْ أُرِيدَ بِهِ الْإِجَابَةُ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، وَقَالَ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦].

وَفِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»(٣).

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ رِضَاهُ فِي سُؤَالِهِ وَطَاعَتِهِ، وَإِذَا رَضِيَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَكُلُّ خَيْرٍ فِي رِضَاهُ، كَمَا أَنَّ كُلَّ بَلَاءٍ وَمُصِيبَةٍ فِي غَضَبِهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ أَثَرًا: «أَنَا اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، إِذَا

---

(١) لم أقف عليه مسندًا.

(٢) لم أقف عليه مسندًا، وقد ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في دقائق التفسير (٢/٥١٧)، وتبعه المصنف هنا، وفي مدارج السالكين (٣/١٠٣)، والفوائد (ص٩٧).

(٣) تقدم تخريجه (ص٣١).

رَضِيتُ بَارَكْتُ، وَلَيْسَ لِبَرَكَتِي مُنْتَهَى وَإِذَا غَضِبْتُ لَعَنْتُ، وَلَعْنَتِي تَبْلُغُ السَّابِعَ مِنَ الْوَلَدِ»(١).

وَقَدْ دَلَّ الْعَقْلُ وَالنَّقْلُ وَالْفِطْرَةُ وَتَجَارِبُ الْأُمَمِ -عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهَا وَمِلَلِهَا وَنِحَلِهَا- عَلَى أَنَّ التَّقَرُّبَ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَطَلَبِ مَرْضَاتِهِ، وَالْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ إِلَى خَلْقِهِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَأَضْدَادَهَا مِنْ أَكْبَرِ الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِكُلِّ شَرٍّ، فَمَا اسْتُجْلِبَتْ نِعَمُ اللهِ وَاسْتُدْفِعَتْ نِقَمُهُ بِمِثْلِ طَاعَتِهِ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى خَلْقِهِ.

الشرح:

كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يكثرون من الدعاء، وهم أعلم الأمة بعد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلو كان الدعاء لا فائدة له يكون الصحابة قد اجتمعوا على الخطأ، وهذا محال.

ومما يدل على فضل الدعاء وأنه سبب يُرجى من بعده الإجابة: قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«إِنِّي لَا أَحْمِلُ هَمَّ الْإِجَابَةِ»**؛ لأن الإجابة تكفّل الله بها **«وَلَكِنْ هَمَّ الدُّعَاءِ»**؛ لأنه أمر بالدعاء، فهو يحمل هم ما أمر به، وأما الإجابة فهي عند الله، تكفل الله بها: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، ما قال: أجيبه بدون دعاء، وإنما رتب الإجابة على حصول الدعاء، فدل على أن الدعاء سبب

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٢٨٩).

للإجابة، وبدون دعاء لا تحصل إجابة.

ويدل لأهمية الدعاء أيضًا، وأن له فائدة: قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»**، فلو كان كما يقولون: الدعاء لا فائدة له. ما غضب الله على من لا يسأل.

فالذي لا يدعو يغضب الله عليه، والذي يدعو يحبه الله عَزَّوَجَلَّ، فدل على أن الدعاء مطلوب، وأنه سبب لرضا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وإذا رضي الله عن العبد أعطاه كل ما يريد وفوق ما يريد.

وَقَدْ رَتَّبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ حُصُولَ الْخَيْرَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَحُصُولَ الشُّرُورِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي كِتَابِهِ عَلَى الْأَعْمَالِ، تَرْتِيبَ الْجَزَاءِ عَلَى الشَّرْطِ، وَالْمَعْلُولِ عَلَى الْعِلَّةِ، وَالْمُسَبَّبِ عَلَى السَّبَبِ.

وَهَذَا فِي الْقُرْآنِ يَزِيدُ عَلَى أَلْفِ مَوْضِعٍ.

فَتَارَةً يُرَتِّبُ الْحُكْمَ الْخَبَرِيَّ الْكَوْنِيَّ وَالْأَمْرِيَّ الشَّرْعِيَّ عَلَى الْوَصْفِ الْمُنَاسِبِ لَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف:١٦٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف:٥٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥]، وَهَذَا كَثِيرٌ جِدًّا.

الشرح:

الله جَلَّ وَعَلَا ربط الأشياء بأسبابها، فإذا حصل السبب حصل المُسبَّب بإذن الله، وإذا لم يحصل السبب لم يحصل المُسبَّب، فجعل دخول الجنة مربوطًا بالأعمال الصالحة، وجعل دخول النار مربوطًا بالأعمال السيئة، كل شيء له سبب، ولم يقدّر الأشياء بدون أسباب، ومن ذلك:

- قول الله عَزَّوَجَلَّ عن بني إسرائيل: ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ﴾، من قتل الصيد يوم السبت، احتالوا عليها وأمسكوها، ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾، مسخهم من آدميين إلى قردة عقوبةً لهم، وهذه العقوبة مربوطة

بفعلهم، حيث تمردوا على ما نهاهم الله -عز وجل-عنه، فدلّ على أن المعاصي والكفر سبب للعقوبة.

- قول الله جَلَّوَعَلَا في فرعون وقومه: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي: أغضبونا، ﴿ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾، فجعل السبب في الانتقام هو غضب الله عليهم، لـمّا كفروا بالله عَزَّوَجَلَّ.

- قول الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ في حد السرقة: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾، الفاء في قوله: ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ﴾ فاء السببية، فدل على أن السرقة سبب لقطع يد السارق.

- ما أعده الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ من المغفرة والأجر العظيم على هذه الصفات، التي ذكرها في هذه الآية العظيمة: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًا﴾، فدلّ على أن الأشياء لها أسباب، والثواب له أسباب، فلا تحصل المسببات بدون الأسباب.

وَتَارَةً يُرَتِّبُهُ عَلَيْهِ بِصِيغَةِ الشَّرْطِ وَالْجَزَاءِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[الأنفال:٢٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة:١١]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن:١٦]، وَنَظَائِرِهِ.

الشرح:

قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِن﴾ حرف شرط جازم ﴿تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا فعل الشرط، وجوابه: ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾، يعني: إن حصلت التقوى، حصل لكم الفرقان، وإن لم تحصل التقوى لم يحصل الفرقان.

وقوله: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ﴿إِن﴾ حرف شرط جازم، ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ رتب الأخوة في الدين على التوبة وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، أما إذا لم يتوبوا ولم يقيموا الصلاة ولم يؤتوا الزكاة، فليسوا إخواننا في الدين، وإنما هم كفار، فإذا انتفت هذه الأشياء انتفت الأخوة.

وقوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾، يقولون: ﴿لَو﴾ حرف امتناع، لو حصلت استقامتهم لحصلت لهم السقيا، فلما لم تحصل الاستقامة لم تحصل السقيا، امتنعت السقيا لامتناع الاستقامة.

وَتَارَةً يَأْتِي بِلَامِ التَّعْلِيلِ، كَقَوْلِهِ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

وَتَارَةً يَأْتِي بِأَدَاةِ (كَيْ) الَّتِي لِلتَّعْلِيلِ، كَقَوْلِهِ: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر:٧].

وَتَارَةً يَأْتِي بِبَاءِ السَّبَبِيَّةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران:١٨٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:٤٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:١٢٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [آل عمران:١٤٦].

الشرح:

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سورة (ص): ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ لأي شيء؟ ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، الله أنزل القرآن لأجل أن يتدبر، وليس لأجل أن يحفظ ويردد وتحسن به الأصوات ويجود، هذه كلها وسائل ليست هي المقصودة، وإنما المقصود تدبر آياته وتفهم معانيه.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، أي: عدولًا خيارًا، لأجل أي شيء؟ ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنه يُشترط في الشاهد العدالة، فهذه الأمة يوم القيامة تكون شاهدة على الأمم بأن رسلهم بلغوهم الرسالات.

ولما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تقسيم الفيء في سورة الحشر قال: ﴿كَيْ لَا

يَكُونَ دُولَةَۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾، يعني: أننا وزعناه على هذه الصفة وهذا النظام؛ لئلا يكون بأيدي الأغنية دون الفقراء، فيُحرم منه الفقراء.

ولما توعد الله عَزَّوَجَلَّ بني إسرائيل وقال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنْبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، ذكر سبب ذلك العذاب، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: ذلك العذاب بسبب ما قدمتم.

ولما أورث الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ المؤمنين الجنة، وقال: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾ بين سبب ذلك، فقال: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب أعمالكم.

وقال جَلَّ وَعَلَا في الظالمين: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾ ثم بيَّن السبب فقال: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، أي: بسبب كسبهم، والكسب هو العمل.

وقال عَزَّوَجَلَّ في بني إسرائيل: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: ذلك الذي حصل لبني إسرائيل من اللعن والغضب بسبب أنهم كانوا يكفرون بآيات الله، وأما لو آمنوا بآيات الله لحصل لهم الإكرام، فالباء هنا سببية.

كل ذلك يدل على أن الأسباب لها قيمة في الشرع، ولهذا يُقال: ترك الأسباب قدحٌ في الشريعة، والاعتماد على الأسباب شرك، فلا يُعتمد على الأسباب، ولا تُترك الأسباب، بل يفعل العبد ويعتمد على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَتَارَةً يَأْتِي بِالْمَفْعُولِ لِأَجْلِهِ ظَاهِرًا أَوْ مَحْذُوفًا، كَقَوْلِهِ: ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة:٢٨٢]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ [الأنعام:١٥٦]، أَيْ: كَرَاهَةَ أَنْ تَقُولُوا.

الشرح:

أمر الله جَلَّ وَعَلَا بالشهادة على الأموال برجلين، أو رجل وامرأتان، فجعل شهادة المرأتين مقابل شهادة الرجل؛ لأن المرأة عرضة للخطأ أكثر من الرجل وضعف الذاكرة، فإذا شهدت امرأتان تذكر إحداهما الأخرى لو نسيت.

وبين الله عَزَّوَجَلَّ أنه أرسل الرسل وأنزل الكتب؛ لئلا يقول الناس يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾، أي: ما درينا أن هناك بعث، وأن هناك جنة ونار، ولا درينا إن هناك جزاء.

وبين تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أنه أنزل القرآن على هذه الأمة؛ لئلا تقول: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾، أي: إنما أنزل الكتاب على اليهود والنصارى، أما نحن فما جاءنا من كتاب. فقطع الله هذه الحجة بأنه أنزل القرآن، وهو أعظم الكتب وأعظم الحجة؛ أعظم من التوراة التي بيد اليهود، وأعظم من الإنجيل الذي بيد النصارى.

وَتَارَةً يَأْتِي بِفَاءِ السَّبَبِيَّةِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس:١٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة:١٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون:٤٨].

وَتَارَةً يَأْتِي بِأَدَاةِ (لَمَّا) الدَّالَّةِ عَلَى الْجَزَاءِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف:٥٥]، وَنَظَائِرِهِ.

وَتَارَةً يَأْتِي بِإِنَّ وَمَا عَمِلَتْ فِيهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء:٩٠]، وَقَوْلِهِ فِي ضِدِّ هَؤُلَاءِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء:٧٧].

وَتَارَةً يَأْتِي بِأَدَاةِ (لَوْلَا) الدَّالَّةِ عَلَى ارْتِبَاطِ مَا قَبْلَهَا بِمَا بَعْدَهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣، ١٤٤].

وَتَارَةً يَأْتِي بِـ(لَوِ) الدَّالَّةِ عَلَى الشَّرْطِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [النساء:٦٦].

الشرح:

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمثلة مما ورد في القرآن من تعلق الجزاء بأفعال الناس، فذكر قصة ثمود -قوم صالح- لـمَّا أن الله نهاهم عن قتل الناقة التي جعلها آية لنبيه صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فدبروا لقتلها وانتدبوا لذلك رجلًا من أشقاهم: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر:٢٩]، تعاطى يعني قفز،

ثم عقر الناقة، فلما عقر الناقة حصلت لهم العقوبة. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة الشمس: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ أي: الرجل الذي قتل الناقة ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ يعني: صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ هذا منصوب على التحذير ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾ أي: اتركوها واتركوا يومها الذي تشرب فيه، فهي كانت تشرب الماء في يوم وتسقيهم اللبن، وتترك لهم الماء في يوم، كما في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥]، لكنهم -والعياذ بالله- حملهم الكفر على أن يعقروها: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾، الشاهد: أن الفاء في قوله: ﴿فَدَمْدَمَ﴾ فاء السببية.

وقال عَزَّوَجَلَّ في سورة الحاقة: ﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾، أي: بسبب معصية الرسول أخذهم الله جَلَّ وَعَلَا.

وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في قوم موسى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾، أي: كذبوا موسى وهارون عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ ﴿فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾، فالفاء هنا سببية.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾، يعني: أغضبونا ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، فسبب الانتقام أنهم أغضبوا الله بكفرهم.

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ﴾، يعني: الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾، (إن) هذه تعليلية، فالسبب: أنهم كانوا يسارعون في الخيرات، ويدعون الله ﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ يعني: خوفًا ورجاءً، فأكرمهم الله لهذا السبب.

وقال في ضد هؤلاء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ﴾، يعني: قوم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

﴿فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أغرقهم الله عَزَّوَجَلَّ بسبب أنهم كانوا قوم سوءٌ وكفر ومعاصي.

وقال في صاحب الحوت: ﴿فَلَـوْلَآ﴾ هذا حرف امتناع لوجود، ﴿أَنَّـهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ أي: من المصلين في حالة الرخاء ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِـهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُـونَ﴾، أنقذه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من بطن الحوت بسبب أنه كان عابدًا لله في حالة الرخاء، هذا هو السبب.

وَبِالْجُمْلَةِ فَالْقُرْآنُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ صَرِيحٌ فِي تُرَتُّبِ الْجَزَاءِ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالْأَحْكَامِ الْكَوْنِيَّةِ وَالْأَمْرِيَّةِ عَلَى الْأَسْبَابِ، بَلْ تَرْتِيبِ أَحْكَامِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَصَالِحِهِمَا وَمَفَاسِدِهِمَا عَلَى الْأَسْبَابِ وَالْأَعْمَالِ.

وَمَنْ تَفَقَّهَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَتَأَمَّلَهَا حَقَّ التَّأَمُّلِ انْتَفَعَ بِهَا غَايَةَ النَّفْعِ، وَلَمْ يَتَّكِلْ عَلَى على الْقَدَرِ جَهْلًا مِنْهُ وَعَجْزًا وَتَفْرِيطًا وَإِضَاعَةً، فَيَكُونُ تَوَكُّلُهُ عَجْزًا، وَعَجْزُهُ تَوَكُّلًا. بَلِ الْفَقِيهُ كُلَّ الْفَقِيهِ الَّذِي يَرُدُّ الْقَدَرَ بِالْقَدَرِ، وَيَدْفَعُ الْقَدَرَ بِالْقَدَرِ، وَيُعَارِضُ الْقَدَرَ بِالْقَدَرِ، بَلْ لَا يُمْكِنُ لِإِنْسَانٍ أَنْ يَعِيشَ إِلَّا بِذَلِكَ، فَإِنَّ الْجُوعَ وَالْعَطَشَ وَالْبَرْدَ وَأَنْوَاعَ الْمَخَاوِفِ وَالْمَحَاذِيرِ هِيَ مِنَ الْقَدَرِ، وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ سَاعُونَ فِي دَفْعِ هَذَا الْقَدَرِ بِالْقَدَرِ.

وَهَكَذَا مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ وَأَلْهَمَهُ رُشْدَهُ يَدْفَعُ قَدَرَ الْعُقُوبَةِ الْأُخْرَوِيَّةِ بِقَدَرِ التَّوْبَةِ وَالْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَهَذَا وِزَانُ الْقَدَرِ الْمُخَوِّفِ فِي الدُّنْيَا وَمَا يُضَادُّهُ سَوَاءٌ، فَرَبُّ الدَّارَيْنِ وَاحِدٌ، وَحِكْمَتُهُ وَاحِدَةٌ، لَا يُنَاقِضُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَلَا يُبْطِلُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

فَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مِنْ أَشْرَفِ الْمَسَائِلِ لِمَنْ عَرَفَ قَدْرَهَا وَرَعَاهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

لَكِنْ يَبْقَى عَلَيْهِ أَمْرَانِ بِهِمَا تَتِمُّ سَعَادَتُهُ وَفَلَاحُهُ.

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَعْرِفَ تَفَاصِيلَ أَسْبَابِ الشَّرِّ وَالْخَيْرِ، وَيَكُونَ لَهُ بَصِيرَةٌ فِي ذَلِكَ بِمَا يُشَاهِدُهُ فِي الْعَالَمِ، وَمَا جَرَّبَهُ فِي نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ، وَمَا سَمِعَهُ مِنْ أَخْبَارِ الْأُمَمِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا.

وَمِنْ أَنْفَعِ مَا فِي ذَلِكَ: تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ كَفِيلٌ بِذَلِكَ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ، وَفِيهِ أَسْبَابُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ جَمِيعًا مُفَصَّلَةً مُبَيَّنَةً، ثُمَّ السُّنَّةِ، فَإِنَّهَا شَقِيقَةُ الْقُرْآنِ،

وَهِيَ الْوَحْيُ الثَّانِي، وَمَنْ صَرَفَ إِلَيْهِمَا عِنَايَتَهُ اكْتَفَى بِهِمَا عَنْ غَيْرِهِمَا، وَهُمَا يُرِيَانِكَ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَأَسْبَابَهُمَا، حَتَّى كَأَنَّكَ تُعَايِنُ ذَلِكَ عِيَانًا.

وَبَعْدَ ذَلِكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ أَخْبَارَ الْأُمَمِ، وَأَيَّامَ اللَّهِ فِي أَهْلِ طَاعَتِهِ وَأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ، طَابَقَ ذَلِكَ مَا عَلِمْتَهُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَرَأَيْتَ تَفَاصِيلَ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ وَوَعَدَ بِهِ، وَعَلِمْتَ مِنْ آيَاتِهِ فِي الْآفَاقِ مَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ، وَأَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ، وَأَنَّ اللَّهَ يُنْجِزُ وَعْدَهُ لَا مَحَالَةَ. فَالتَّارِيخُ تَفْصِيلٌ لِجُزْئِيَّاتِ مَا عَرَّفَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْكُلِّيَّةِ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ.

الشرح:

تقدم كلام المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ على أن الدعاء من أعظم الأسباب لحصول المقصود، وأن الله جَلَّ وَعَلَا رتَّب الأشياء على أسبابها، وفي هذا رد على غلاة الصوفية الذين يعطلون الأسباب، ويغالون في القضاء والقدر، ويقولون: إذا كان الشيء مقدرًا فلا بد من حصوله ولو لم نعمل أسبابه، وإذا لم يقدر فإنه لا يحصل ولو عملنا السبب.

وهذه مغالطة بلا شك؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا كما أنه قدر المقادير فإنه أمر باتخاذ الأسباب، فالقضاء والقدر من شأن الله عَزَّ وَجَلَّ، وفعل الأسباب من شأننا نحن، وقد أمرنا باتخاذ الأسباب، ولا يحصل شيء بدون السبب، أما إذا فُعل السبب فقد يحصل الشيء وقد لا يحصل، أما حصول الشيء بدون سبب فهذا محال، فكل شيء له سبب، والدعاء من أعظم الأسباب لحصول الإجابة وحصول المقصود، والكتاب والسنة يدلان على أن الأخذ بالأسباب لا يمنع من الإيمان بالقضاء والقدر، ولا تنافي بينهما.

وقوله: **(بَلِ الْفَقِيهُ كُلَّ الْفَقِيهِ الَّذِي يَرُدُّ الْقَدَرَ بِالْقَدَرِ، وَيَدْفَعُ الْقَدَرَ بِالْقَدَرِ، وَيُعَارِضُ الْقَدَرَ بِالْقَدَرِ)**، يعني: يعتقد السبب، ويرد القدر بالقدر، كما جاء عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما بلغه وقوع الطاعون في الشام، فلم يدخل البلد، فقيل له: أتفر من قدر الله؟! قال: «نَعَمْ، نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ»[١]، فالأسباب من قدر الله أيضًا.

وقوله: **(مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ وَأَلْهَمَهُ رُشْدَهُ يَدْفَعُ قَدَرَ الْعُقُوبَةِ الْأُخْرَوِيَّةِ بِقَدَرِ التَّوْبَةِ وَالْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ)**، يعني: يدفع ما قدَّره الله جَلَّ وَعَلَا من مخاطر ومصائب وعقوبات بأضدادها، كما يدفع الجوع بالأكل، والعطش بالشرب، والبرد بالوقاية منه، فهذه كلها أسباب، واتخاذ الأسباب من القدر، ولولا أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى قدَّر الأخذ بالأسباب لما حصلت.

وهذه مسألة عظيمة حصل فيها مغالطة من القدرية.

فإذا تأملت في الكون، وتأملت في القرآن، وتأملت في السنة، عرفت أنه لا بد من اتخاذ الأسباب؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ ذكر للخير أسبابًا، وذكر للشر أسبابًا، وذكر للسعادة أسبابًا، وذكر للشقاوة أسبابًا، ورتب على هذه الأسباب نتائجها. وأيضًا إذا نظرت في الوقائع والحوادث تجد أنه ما من شيء يحدث إلا وله سبب، فإلغاء الأسباب هذا غلط، كما أن الاعتماد على الأسباب فقط غلط، فلا بد من الجمع بين الأمرين: فعل الأسباب والإيمان بالقضاء والقدر، ولا تناقض بينهما أبدًا عند أهل الإيمان وأرباب العقول.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩).

فصل

وَالْأَمْرُ الثَّانِي: أَنْ يَحْذَرَ مُغَالَطَةَ نَفْسِهِ عَلَى هَذِهِ الْأَسْبَابِ، وَهَذَا مِنْ أَهَمِّ الْأُمُورِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ يَعْرِفُ أَنَّ الْمَعْصِيَةَ وَالْغَفْلَةَ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُضِرَّةِ لَهُ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ وَلَا بُدَّ، وَلَكِنْ تُغَالِطُهُ نَفْسُهُ بِالِاتِّكَالِ عَلَى عَفْوِ اللَّهِ وَمَغْفِرَتِهِ تَارَةً، وَبِالتَّسْوِيفِ بِالتَّوْبَةِ تَارَةً، وَبِالِاسْتِغْفَارِ بِاللِّسَانِ تَارَةً، وَبِفِعْلِ الْمَنْدُوبَاتِ تَارَةً، وَبِالْعِلْمِ تَارَةً، وَبِالِاحْتِجَاجِ بِالْقَدَرِ تَارَةً، وَبِالِاحْتِجَاجِ بِالْأَشْبَاهِ وَالنُّظَرَاءِ تَارَةً، وَبِالِاقْتِدَاءِ بِالْأَكَابِرِ تَارَةً.

وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَظُنُّ أَنَّهُ لَوْ فَعَلَ مَا فَعَلَ ثُمَّ قَالَ: «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ»، زَالَ أَثَرُ الذَّنْبِ، وَرَاحَ هَذَا بِهَذَا.

وَقَالَ لِي رَجُلٌ مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْفِقْهِ: أَنَا أَفْعَلُ مَا أَفْعَلُ، ثُمَّ أَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، مِائَةَ مَرَّةٍ، وَقَدْ غُفِرَ ذَلِكَ أَجْمَعُهُ، كَمَا صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ فِي يَوْمٍ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»[(١)].

وَقَالَ لِي آخَرُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ: نَحْنُ إِذَا فَعَلَ أَحَدُنَا مَا فَعَلَ، اغْتَسَلَ وَطَافَ بِالْبَيْتِ أُسْبُوعًا، وَقَدْ مُحِيَ عَنْهُ ذَلِكَ.

وَقَالَ لِي آخَرُ: قَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ لِي، فَغَفَرَ لَهُ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا، فَاغْفِرْهُ لِي، فَغَفَرَهُ لَهُ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا، فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، فَلْيَصْنَعْ مَا شَاءَ»(١).

قَالَ: وَأَنَا لَا أَشُكُّ أَنَّ لِي رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ.

الشرح:

سبق الكلام على أن الإنسان إذا نظر في القرآن وفي السنة وفي الكون وجد أن لكل شيء سببًا، وأن الله ربط الأشياء بأسبابها.

ثم قال المصنف هنا: (**وَالْأَمْرُ الثَّانِي: أَنْ يَحْذَرَ مُغَالَطَةَ نَفْسِهِ عَلَى هَذِهِ الْأَسْبَابِ**) أي: يحذر أن يقع فيما وقع فيه المغالطون من غلاة الصوفية الذين ينكرون فعل الأسباب، ويعتمدون على القضاء والقدر فقط، مع أنهم لا يعملون بذلك في أنفسهم، فهم إذا جاعوا يأكلون، وإذا عطشوا يشربون، وإذا مرضوا يتداوون، فيعملون الأسباب في هذه الأمور ولا يقولون: إن كان الله قضى وقدر أن تحصل فلا بد أن تحصل بدون أن نفعل شيئًا.

وقوله: (**وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَظُنُّ أَنَّهُ لَوْ فَعَلَ مَا فَعَلَ ثُمَّ قَالَ: «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ»، زَالَ أَثَرُ الذَّنْبِ، وَرَاحَ هَذَا بِهَذَا**)، كل هذا من الآفات التي تحول بين العبد وبين معرفة الحق وإدراك الحكمة في هذا الخلق، فمن أعظم المعوقات أن يتكل الإنسان على عفو الله ولا يعمل الأسباب؛ لأن العفو له أسباب، والرحمة لها أسباب، والمغفرة لها أسباب، أما أن يعتمد على عفو الله وعلى رحمة الله، ولا يعمل الأسباب التي تسبب الرحمة والعفو والمغفرة، فهذا مغالطة، أو أن

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يقتدي بما لا يصلح للقدوة من الناس، ويعمل مثل عمله، ويقول: لو كان هذا العمل غير طيب ما عمله فلان. وكل هذا من المغالطة.

وبعضهم يقيم على الذنوب والمعاصي ويحتج بأحاديث المغفرة الثابتة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقول: (**أَنَا أَفْعَلُ مَا أَفْعَلُ، ثُمَّ أَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، مِائَةَ مَرَّةٍ، وَقَدْ غُفِرَ ذَلِكَ أَجْمَعُهُ**)، يعني: يفعل ما يفعل من المعاصي، ثم يسبح الله ويأتي بالذكر، ويظن أن هذا يغفر ذنوبه، بدون أن يتوب إلى الله، بل وهو مستمر على المعاصي.

والذنوب لا تُحط عن العبد بمجرد الذكر، وإنما تُحط مع التوبة، إذا تاب إلى الله واستغفر وسبح وأتى بالأذكار، فإن الله يغفر له، أما أن يُقيم على المعاصي ويقول: إن الذكر يمحوها. فهذا غلط، إنما يمحوها مع تركها.

ومن المغالطة أيضًا أن يحتج بعضهم بأن فضائل الأعمال من المكفرات وهو مقيم على المعاصي، ويظن أنه إذا طاف بالبيت غُفر له ولو كان مقيمًا على المعصية. وبعضهم يظن أن وجوده في مكة وعند الحرم يكفي لمغفرة ذنوبه، ولو فعل ما فعل، وبعضهم يظن أن صلاة الجمعة تكفر الذنوب ويترك الصلوات الخمس، ويحتج بحديث: «**الْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ**»، ولا يكمل الحديث: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ**»[1]، وترك الصلوات الخمس من أعظم الكبائر.

وبعضهم يظن أن صيام رمضان يكفي عن السنة كلها ويكفر الذنوب

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهو مقيم عليها، وبعضهم يظن أنه إذا حج غُفرت له ذنوبه كلها ولو كان مقيمًا عليها ولم يتركها، إلى غير ذلك من المغالطات.

وبعضهم يحتج بقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الحديث القدسي: «**عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، فَلْيَصْنَعْ مَا شَاءَ**»، لا شك أن لنا رب يغفر الذنب ويأخذ به، لكن مع التوبة، أما أنه يغفر الذنب والعبد مقيم على المعصية فلا يحصل، هذا لا يُغفر له حتى يترك المعصية.

فمن قال: رب اغفر لي. معناه أنه أقر بأنه مذنب، فترك الذنب، وندم على فعله، وعزم على ألا يعود إليه. لا أن يقول ذلك باللسان فقط وهو مقيم على الذنوب والمعاصي.

وَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ النَّاسِ قَدْ تَعَلَّقَ بِنُصُوصِ الرَّجَاءِ، وَاتَّكَلَ عَلَيْهَا، وَتَعَلَّقَ بِهَا بِكِلْتَا يَدَيْهِ، وَإِذَا عُوتِبَ عَلَى الْخَطَايَا وَالانْهِمَاكِ فِيهَا، سَرَدَ لَكَ مَا يَحْفَظُهُ مِنْ سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَمَغْفِرَتِهِ، وَنُصُوصِ الرَّجَاءِ.

وَلِلْجُهَّالِ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ مِنَ النَّاسِ فِي هَذَا الْبَابِ غَرَائِبُ وَعَجَائِبُ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ(١):

وَكَثِّرْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْخَطَايَا ... إِذَا كَانَ الْقُدُومُ عَلَى كَرِيمِ

وَقَوْلِ الْآخَرِ: التَّنَزُّهُ مِنَ الذُّنُوبِ جَهْلٌ بِسَعَةِ عَفْوِ اللَّهِ.

وَقَوْلِ الْآخَرُ: تَرْكُ الذُّنُوبِ جَرَاءَةٌ عَلَى مَغْفِرَةِ اللَّهِ، وَاسْتِصْغَارٌ لَهَا.

وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ ابْنُ حَزْمٍ: رَأَيْتُ بَعْضَ هَؤُلَاءِ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعِصْمَةِ(٢).

الشرح:

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أصنافًا من هؤلاء المغالطين الذين يعطلون الأسباب، فمنهم من يتعلق بنصوص الرجاء ولا يفقه معناها، وهذه هي المشكلة، فليس المقصود حفظ النصوص ومعرفة النصوص، وإنما المقصود التفقه في معانيها.

---

(١) البيت لأبي نواس الحسن بن هانئ، الشاعر الماجن، ذكره ابن خلكان في وفيات الأعيان (٢/ ٩٧). وفي ديوانه (٥/ ٢٠٤) مع عجز آخر:

تَكَثَّرَ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الخَطَايَا ... فَإِنَّكَ لَاقِيًا رَبًّا غَفُورَا

(٢) يُنظر: طوق الحمامة لابن حزم (ص ٢٨٠).

فتجد أحدهم يحفظ النصوص ويسردها، ويظن أن هذا يكفي في مغفرة الذنوب والمعاصي، بدون أن يحاسب نفسه ويتوب إلى الله بترك الذنوب والمعاصي، وهذا عدم الفقه.

وبعضهم يعنى يعتمد على رأيه، ويرى الإكثار من الخطايا لا بأس به ما دام هو قادم بعد الممات على الكريم تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهذا غلط، نعم الله عَزَّوَجَلَّ كريم، لكن مع التوبة، أما إذا أقدمت على الكريم وأنت مصر على المعاصي وباق عليها، فليس لك طمع في الكرم؛ لأنك لم تعمل الأسباب.

ومنهم من يقول: **(التَّنَزُّهُ مِنَ الذُّنُوبِ جَهْلٌ بِسَعَةِ عَفْوِ اللَّهِ)**، وهذا كلام باطل، بل التوسع في الذنوب سبب لغضب الله، لماذا لم يأت بالنصوص الأخرى التي تدل على غضب الله على من عصاه وخالف أمره؟! إنما يأخذ فقط بالنصوص التي تدل على عفو الله، ويترك النصوص التي تدل على غضب الله على العاصي.

ويقول غيره: **(تَرْكُ الذُّنُوبِ جَرَاءَةٌ عَلَى مَغْفِرَةِ اللَّهِ)**، وهذا من الفقه الخاطئ والعياذ بالله، بل إن مغفرة الله لا تحصل إلا بترك الذنوب، وليس مع الإصرار على الذنوب.

وهذا الذي يقول: **(اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعِصْمَةِ)**، يعني: لا تعصمني من الذنوب، اتركني أذنب لأجل أن تغفر لي، وهل تحصل المغفرة بدون توبة واستغفار؟!

وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْمَغْرُورِينَ مَنْ يَتَعَلَّقُ بِمَسْأَلَةِ الْجَبْرِ، وَأَنَّ الْعَبْدَ لَا فِعْلَ لَهُ الْبَتَّةَ وَلَا اخْتِيَارَ، وَإِنَّمَا هُوَ مَجْبُورٌ عَلَى فِعْلِ الْمَعَاصِي.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَغْتَرُّ بِمَسْأَلَةِ الْإِرْجَاءِ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ مُجَرَّدُ التَّصْدِيقِ، وَالْأَعْمَالَ لَيْسَتْ مِنَ الْإِيمَانِ، وَإِيمَانَ أَفْسَقِ النَّاسِ كَإِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَغْتَرُّ بِمَحَبَّةِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَشَايِخِ وَالصَّالِحِينَ، وَكَثْرَةِ التَّرَدُّدِ إِلَى قُبُورِهِمْ، وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِمْ، وَالِاسْتِشْفَاعِ بِهِمْ، وَالتَّوَسُّلِ إِلَى اللَّهِ بِهِمْ، وَسُؤَالِهِ بِحَقِّهِمْ عَلَيْهِ وَحُرْمَتِهِمْ عِنْدَهُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَغْتَرُّ بِآبَائِهِ وَأَسْلَافِهِ، وَأَنَّ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَكَانَةً وَصَلَاحًا، فَلَا يَدَعُونَ أَنْ يُخَلِّصُوهُ، كَمَا يُشَاهِدُ فِي حَضْرَةِ الْمُلُوكِ، فَإِنَّ الْمُلُوكَ تَهَبُ لِخَوَاصِّهِمْ ذُنُوبَ أَبْنَائِهِمْ وَأَقَارِبِهِمْ، وَإِذَا وَقَعَ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي أَمْرٍ مُفْظِعٍ خَلَّصَهُ أَبُوهُ وَجَدُّهُ بِجَاهِهِ وَمَنْزِلَتِهِ.

الشرح:

بعد أن ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذين يعطلون الأسباب ويتعلقون بنصوص الرجاء دون التفقه في معناها، قال: (**وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْمَغْرُورِينَ مَنْ يَتَعَلَّقُ بِمَسْأَلَةِ الْجَبْرِ**)، فيرتكبون الذنوب والمعاصي ويقولون: (**أَنَّ الْعَبْدَ لَا فِعْلَ لَهُ الْبَتَّةَ وَلَا اخْتِيَارَ**)، وهذه حجة شيطانية أخرى، حيث يقول أحدهم: ما دام إني مقدر علي هذا فلا بد أن يقع، وليس لي فرار منه. فيترك الأسباب ولا يترك الذنوب والمعاصي.

وهؤلاء على النقيض من المرجئة الذين يقولون: (**أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ مُجَرَّدُ**

التَّصْدِيقِ، وَالْأَعْمَالَ لَيْسَتْ مِنَ الْإِيمَانِ)، فإذا صدق بقلبه ولو يعمل ما يعمل من الكفر والمعاصي كان مؤمنًا عندهم، أي: يكفيه الإيمان بالقلب، وهذا أشد مذاهب المرجئة؛ لأن المرجئة فِرق بعضهم أشد من بعض.

فهؤلاء يقولون بأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص؛ لأنه في القلب، فإيمان جبريل وإيمان أفسق الناس سواء، كلهم يؤمنون بالله، ولا دخل للأعمال في الإيمان عندهم.

قال: **(وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَغْتَرُّ بِمَحَبَّةِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَشَايِخِ وَالصَّالِحِينَ)**، فهو لا ينكر الأسباب، لكنه يتخذ أسبابًا غير مشروعة، فيذهب إلى القبور وإلى الأموات، ويقول: هذه أسباب المغفرة، وأسباب لحصول المقصود!!. فيتعلق بالمخلوقين والأموات وينسى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يكون لله ذكر عنده، وإنما يدعو الولي الفلاني، وصاحب القبر الفلاني، وليس له هم إلا التعلق بالأموات، وطلب الشفاعة وقضاء الحوائج منهم، ولا يلجأ إلى الله جَلَّ وَعَلَا.

قال: **(وَمِنْهُمْ مَنْ يَغْتَرُّ بِآبَائِهِ وَأَسْلَافِهِ)**، فيقول: آبائي صالحين، وأنا من ذريتهم، ولا تضرني المعاصي لأني ولد فلان العالم العابد، وينسى أن كل واحد له عمله، وأنه لا ينفع أحدٌ أحدًا يوم القيامة: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة:٤٨].

وهؤلاء ما قدروا الله حق قدره، فيقيسون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على ملوك الدنيا، فالملوك في الدنيا يتسامحون عن بعض الناس نظرًا لمكانة أبائهم وأجدادهم ومنزلتهم عندهم.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَغْتَرُّ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ غَنِيٌّ عَنْ عَذَابِهِ، وَأَنَّ عَذَابَهُ لَا يَزِيدُ فِي مُلْكِهِ شَيْئًا، وَرَحْمَتَهُ لَهُ لَا تَنْقُصُ مِنْ مُلْكِهِ شَيْئًا، فَيَقُولُ: أَنَا مُضْطَرٌّ إِلَى رَحْمَتِهِ، وَهُوَ أَغْنَى الْأَغْنِيَاءِ، وَلَوْ أَنَّ فَقِيرًا مِسْكِينًا مُضْطَرًّا إِلَى شَرْبَةِ مَاءٍ عِنْدَ مَنْ فِي دَارِهِ شَطٌّ يَجْرِي، لَمَا مَنَعَهُ مِنْهَا، فَاللَّهُ أَكْرَمُ وَأَوْسَعُ، فَالْمَغْفِرَةُ لَا تَنْقُصُهُ شَيْئًا، وَالْعُقُوبَةُ لَا تَزِيدُ فِي مُلْكِهِ شَيْئًا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَغْتَرُّ بِفَهْمٍ فَاسِدٍ فَهِمَهُ هُوَ وَأَضْرَابُهُ مِنْ نُصُوصِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، فَاتَّكَلُوا عَلَيْهِ، كَاتِّكَالِ بَعْضِهِمْ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥]، قَالُوا: وَهُوَ لَا يَرْضَى أَنْ يَكُونَ فِي النَّارِ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِهِ.

وَهَذَا مِنْ أَقْبَحِ الْجَهْلِ وَأَبْيَنِ الْكَذِبِ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يَرْضَى بِمَا يَرْضَى بِهِ رَبُّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُرْضِيهِ تَعْذِيبُ الظَّلَمَةِ وَالْفَسَقَةِ وَالْخَوَنَةِ وَالْمُصِرِّينَ عَلَى الْكَبَائِرِ، فَحَاشَا رَسُولَهُ أَنْ يَرْضَى بِمَا لَا يَرْضَى بِهِ رَبُّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وَكَاتِّكَالِ بَعْضِهِمْ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣]، وَهَذَا أَيْضًا مِنْ أَقْبَحِ الْجَهْلِ، فَإِنَّ الشِّرْكَ دَاخِلٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، فَإِنَّهُ رَأْسُ الذُّنُوبِ وَأَسَاسُهَا، وَلَا خِلَافَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ فِي حَقِّ التَّائِبِينَ، فَإِنَّهُ يَغْفِرُ ذَنْبَ كُلِّ تَائِبٍ، أَيَّ ذَنْبٍ كَانَ. وَلَوْ كَانَتِ الْآيَةُ فِي حَقِّ غَيْرِ التَّائِبِينَ لَبَطَلَتْ نُصُوصُ الْوَعِيدِ كُلُّهَا، وَأَحَادِيثُ إِخْرَاجِ قَوْمٍ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ مِنَ النَّارِ بِالشَّفَاعَةِ.

وَهَذَا إِنَّمَا أُتِيَ صَاحِبُهُ مِنْ قِلَّةِ عِلْمِهِ وَفَهْمِهِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ هَاهُنَا عَمَّمَ وَأَطْلَقَ، فَعُلِمَ أَنَّهُ أَرَادَ التَّائِبِينَ، وَفِي سُورَةِ النِّسَاءِ خَصَّصَ وَقَيَّدَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الشِّرْكَ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَغْفِرُ مَا دُونَهُ، وَلَوْ كَانَ هَذَا فِي حَقِّ

التَّائِبِ لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ الشِّرْكِ وَغَيْرِهِ.

الشرح:

قوله: **(وَرَحْمَتُهُ لَهُ لَا تَنْقُصُ مِنْ مُلْكِهِ شَيْئًا)** أي: مع فعل الأسباب، فإذا أردت الرحمة من الله فاعمل أسبابها التي أمرك بها، وبدون فعل السبب لن تحصل على الرحمة، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]، ما قال: قريب من جميع الناس، والإحسان هو أعلى درجات الدين.

وقوله: **(فَالْمَغْفِرَةُ لَا تَنْقُصُهُ شَيْئًا، وَالْعُقُوبَةُ لَا تَزِيدُ فِي مُلْكِهِ شَيْئًا)**، وهذا حق يُراد به باطل، يقولون ذلك لإلغاء الأسباب والأعمال الصالحة، وعدم الاكتراث بالأعمال السيئة، ويرون أنها لا تضر فاعلها، وكل ذلك يرجع لمذهب الإرجاء.

ومنهم من يحتج بفهمه الخاطئ لقول الله جَلَّ وَعَلَا: **﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾**، ويقول: هذا خطاب لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والرسول لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار!

سبحان الله! الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهانا عن المعاصي، ونهانا عن السيئات، وقال لنا: «**خُذُوا مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ**»(١)، ولو كان أن الرسول يكفينا، وأنه

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٦١)، ومسلم (٧٨٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

لن يدخل أحد من أمته النار لأنه لا يرضى بذلك، فلسنا بحاجة إلى الأعمال، وما أمرنا بالأعمال الصالحات وترك الذنوب والمعاصي، ولقال: أنا أكفيكم ما عليكم.

قوله: **(وَاللَّهُ تَعَالَى يُرْضِيهِ تَعْذِيبُ الظَّلَمَةِ وَالْفَسَقَةِ)**؛ لأن تعذيب الفسقة والعصاة بأعمالهم هذا عدل الجزاء، وهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يرضى بالعدل، ويرضى على الطائعين، ويغضب على العصاة، والرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يرضى بما رضي الله به، ويسخط لما يسخط الله من الأعمال والأفعال.

وهذا الذي يحتج بقول الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ما أكمل الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾، يعني: توبوا ﴿وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ [الزمر:٥٣، ٥٤]، فأخذ بطرف، وترك الطرف الثاني.

أخذ بقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، وترك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة:٧٢]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، فالشرك لا يغفر إلَّا بالتوبة، أما غير الشرك، فقد يغفر الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ لمن يشاء.

وَكَاغْتِرَارِ بَعْضِ الْجُهَّالِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦]، فَيَقُولُ: كَرَمُهُ! وَقَدْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ لَقَّنَ الْمُغْتَرَّ حُجَّتَهُ، وَهَذَا جَهْلٌ قَبِيحٌ، وَإِنَّمَا غَرَّهُ بِرَبِّهِ الْغَرُورُ -وَهُوَ الشَّيْطَانُ- وَنَفْسُهُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، وَجَهْلُهُ وَهَوَاهُ.

وَأَتَى سُبْحَانَهُ بِلَفْظِ «الْكَرِيمِ»، وَهُوَ السَّيِّدُ الْعَظِيمُ الْمُطَاعُ الَّذِي لَا يَنْبَغِي الِاغْتِرَارُ بِهِ، وَلَا إِهْمَالُ حَقِّهِ، فَوَضَعَ هَذَا الْمُغْتَرُّ الْغَرُورَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَاغْتَرَّ بِمَنْ لَا يَنْبَغِي الِاغْتِرَارُ بِهِ.

وَكَاغْتِرَارِ بَعْضِهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي النَّارِ: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل:١٥، ١٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤]. وَلَمْ يَدْرِ هَذَا الْمُغْتَرُّ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل:١٤] هِيَ نَارٌ مَخْصُوصَةٌ مِنْ جُمْلَةِ دَرَكَاتِ جَهَنَّمَ، وَلَوْ كَانَتْ جَمِيعَ جَهَنَّمَ فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَقُلْ: «لَا يَدْخُلُهَا»، بَلْ قَالَ: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِ صَلْيِهَا، عَدَمُ دُخُولِهَا، فَإِنَّ الصَّلْيَ أَخَصُّ مِنَ الدُّخُولِ، وَنَفْيُ الْأَخَصِّ لَا يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الْأَعَمِّ.

ثُمَّ هَذَا الْمُغْتَرُّ لَوْ تَأَمَّلَ الْآيَةَ الَّتِي بَعْدَهَا؛ لَعَلِمَ أَنَّهُ غَيْرُ دَاخِلٍ فِيهَا، فَلَا يَكُونُ مَضْمُونًا لَهُ أَنْ يُجَنَّبَهَا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ فِي النَّارِ ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾، فَقَدْ قَالَ فِي الْجَنَّةِ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]، وَلَا يُنَافِي إِعْدَادُ النَّارِ لِلْكَافِرِينَ أَنْ يَدْخُلَهَا الْفُسَّاقُ وَالظَّلَمَةُ، وَلَا يُنَافِي إِعْدَادُ الْجَنَّةِ لِلْمُتَّقِينَ أَنْ يَدْخُلَهَا مَنْ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ، وَلَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ.

وَكَاتِّكَالِ بَعْضِهِمْ عَلَى صَوْمِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، أَوْ يَوْمِ عَرَفَةَ، حَتَّى يَقُولَ بَعْضُهُمْ: يَوْمُ عَاشُورَاءَ يُكَفِّرُ ذُنُوبَ الْعَامِ كُلَّهَا، وَيَبْقَى صَوْمُ عَرَفَةَ زِيَادَةً فِي الْأَجْرِ، وَلَمْ يَدْرِ هَذَا الْمُغْتَرُّ، أَنَّ صَوْمَ رَمَضَانَ، وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، أَعْظَمُ وَأَجَلُّ مِنْ صِيَامِ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَيَوْمِ عَاشُورَاءَ، وَهِيَ إِنَّمَا تُكَفِّرُ مَا بَيْنَهُمَا إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ.

فَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، لَا يَقْوَيَا عَلَى تَكْفِيرِ الصَّغَائِرِ، إِلَّا مَعَ انْضِمَامِ تَرْكِ الْكَبَائِرِ إِلَيْهَا، فَيَقْوَى مَجْمُوعُ الْأَمْرَيْنِ عَلَى تَكْفِيرِ الصَّغَائِرِ. فَكَيْفَ يُكَفِّرُ صَوْمُ يَوْمِ تَطَوُّعٍ كُلَّ كَبِيرَةٍ عَمِلَهَا الْعَبْدُ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَيْهَا، غَيْرُ تَائِبٍ مِنْهَا؟ هَذَا مُحَالٌ، عَلَى أَنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ صَوْمُ يَوْمِ عَرَفَةَ وَيَوْمِ عَاشُورَاءَ مُكَفِّرًا لِجَمِيعِ ذُنُوبِ الْعَامِ عَلَى عُمُومِهِ، وَيَكُونُ مِنْ نُصُوصِ الْوَعْدِ الَّتِي لَهَا شُرُوطٌ وَمَوَانِعُ، وَيَكُونُ إِصْرَارُهُ عَلَى الْكَبَائِرِ مَانِعًا مِنَ التَّكْفِيرِ. فَإِذَا لَمْ يُصِرَّ عَلَى الْكَبَائِرِ تَسَاعد الصَّوْمُ وَعَدَمُ الْإِصْرَارِ وَتَعَاوَنَا عَلَى عُمُومِ التَّكْفِيرِ، كَمَا كَانَ رَمَضَانُ وَالصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ مَعَ اجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ مُتَسَاعِدَيْنِ مُتَعَاوِنَيْنِ عَلَى تَكْفِيرِ الصَّغَائِرِ، مَعَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ قَالَ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

فَعُلِمَ أَنَّ جَعْلَ الشَّيْءِ سَبَبًا لِلتَّكْفِيرِ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَتَسَاعَدَ هُوَ وَسَبَبٌ آخَرُ عَلَى التَّكْفِيرِ، وَيَكُونُ التَّكْفِيرُ مَعَ اجْتِمَاعِ السَّبَبَيْنِ أَقْوَى وَأَتَمَّ مِنْهُ مَعَ انْفِرَادِ أَحَدِهِمَا، وَكُلَّمَا قَوِيَتْ أَسْبَابُ التَّكْفِيرِ كَانَ أَقْوَى وَأَتَمَّ وَأَشْمَلَ.

الشرح:

قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾، يعني: لم تعمل الأسباب التي تحصل

بها على كرم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهذا غرور.

وقوله: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى﴾، لا يعني أن الأشقى لا يدخل النار، ولو عمل ما عمل من الذنوب والمعاصي، هذا غرور واستدلال في غير محله، فإن النار دركات، منها شيء لا يدخله إلا الكفار، ومنها شيء قد يدخله المؤمنون العصاة، وقوله: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ﴾ هذه طبقة من النار مخصصة للكفار، والعصاة من المؤمنين يدخلون في قسم آخر من النار دون ذلك، فالنار دركات والعياذ بالله.

وقوله: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، الأشقى: هو الذي كذب بوعد الله وتولى عن طاعته، والذي يعمل المعاصي هذا أيضًا تولَّى، فيدخلها العصاة؛ لأن المعصية تولٍّ عن طاعة الله جَلَّ وَعَلَا.

وقوله: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، التقوى معروف أنها فعل الطاعات وترك المعاصي، فدل على أن الذي ليس من المتقين لا يكون من أهل الجنة.

قوله: (**وَكَاتِّكَالِ بَعْضِهِمْ عَلَى صَوْمِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ**)؛ لأنهم تمسكوا بقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَصَوْمُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ إِنِّي أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ**»[1]، وقالوا: ما دام إنه يكفر السنة فنصومه ويكفي!.

سبحان الله! يُكَفِّر السنة التي قبله لمن تاب وعمل الصالحات، أما الذي يترك الصلوات الخمس، فهذا يكفِّره صوم الدهر كله وليس صوم عاشوراء فقط، والتكفير إنما في صغائر الذنوب، أما الكبائر فلا تكفَّر إلَّا بالتوبة، قال

(١) أخرجه أبو داود (٢٤٢٥) من حديث أبي قتادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ»(١)، هذا هو الشرط، فترك الصلوات الخمس وفعل الفواحش، هذا من الكبائر، فلا يُغفر بصوم عرفة، ولا بصوم يوم عاشوراء، الكبائر لا تُغفر إلَّا بالتوبة.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٧٥).

وَكَاتِّكَالِ بَعْضِهِمْ عَلَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَاكِيًا عَنْ رَبِّهِ: «أَنَا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ»[١]، يَعْنِي: مَا كَانَ فِي ظَنِّهِ فَإِنِّي فَاعِلُهُ بِهِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ إِنَّمَا يَكُونُ مَعَ الْإِحْسَانِ، فَإِنَّ الْمُحْسِنَ حَسَنُ الظَّنِّ بِرَبِّهِ أَنْ يُجَازِيَهُ عَلَى إِحْسَانِهِ وَلَا يُخْلِفَ وَعْدَهُ، وَيَقْبَلَ تَوْبَتَهُ. وَأَمَّا الْمُسِيءُ الْمُصِرُّ عَلَى الْكَبَائِرِ وَالظُّلْمِ وَالْمُخَالَفَاتِ، فَإِنَّ وَحْشَةَ الْمَعَاصِي وَالظُّلْمِ وَالإِجْرَامِ تَمْنَعُهُ مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِرَبِّهِ، وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي الشَّاهِدِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ الْآبِقَ الْمُسِيءَ الْخَارِجَ عَنْ طَاعَةِ سَيِّدِهِ لَا يُحْسِنُ الظَّنَّ بِهِ. وَلَا يُجَامِعُ وَحْشَةَ الْإِسَاءَةِ إِحْسَانُ الظَّنِّ أَبَدًا، فَإِنَّ الْمُسِيءَ مُسْتَوْحِشٌ بِقَدْرِ إِسَاءَتِهِ، وَأَحْسَنُ النَّاسِ ظَنًّا بِرَبِّهِ أَطْوَعُهُمْ لَهُ. كَمَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ فَأَحْسَنَ الْعَمَلَ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ أَسَاءَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ فَأَسَاءَ الْعَمَلَ[٢].

الشرح:

الظن المحمود ما كان مع الإحسان وفعل الأسباب، أما أن يحسن الظن بربه وهو ما فعل الأسباب، فهذا غلط، والظن ينقسم إلى: محمود ومذموم، والرجاء المحمود والظن المحمود متساويان، فلا يكون هناك رجاء محمود ولا ظن محمود إلا مع فعل الأسباب، وبدون فعل الأسباب ما ينفع الظن. ومن أحسن الظن بربه أحسن العمل، وأتى بالأعمال الصالحات.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٤٩١)، والحاكم (٤/٢٦٨) من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأصله في البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وليس فيه: «فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ».

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (١٦٥٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/١٨٧).

وَكَيْفَ يَكُونُ مُحْسِنُ الظَّنِّ بِرَبِّهِ مَنْ هُوَ شَارِدٌ عَنْهُ، حَالٌّ مُرْتَحِلٌ فِي مَسَاخِطِهِ وَمَا يُغْضِبُهُ، مُتَعَرِّضٌ لِلَعْنَتِهِ، قَدْ هَانَ حَقُّهُ وَأَمْرُهُ عَلَيْهِ فَأَضَاعَهُ، وَهَانَ نَهْيُهُ عَلَيْهِ فَارْتَكَبَهُ وَأَصَرَّ عَلَيْهِ؟!

وَكَيْفَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِهِ مَنْ بَارَزَهُ بِالْمُحَارَبَةِ، وَعَادَى أَوْلِيَاءَهُ، وَوَالَى أَعْدَاءَهُ، وَجَحَدَ صِفَاتَ كَمَالِهِ، وَأَسَاءَ الظَّنَّ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَوَصَفَتْهُ بِهِ رُسُلُه، وَظَنَّ بِجَهْلِهِ أَنَّ ظَاهِرَ ذَلِكَ ضَلَالٌ وَكُفْرٌ؟

وَكَيْفَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ، وَلَا يَأْمُرُ، وَلَا يَنْهَى، وَلَا يَرْضَى وَلَا يَغْضَبُ؟

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ مَنْ شَكَّ فِي تَعَلُّقِ سَمْعِهِ بِبَعْضِ الْجُزْئِيَّاتِ، وَهُوَ السِّرُّ مِنَ الْقَوْلِ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٣].

فَهَؤُلَاءِ لَمَّا ظَنُّوا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا يَعْمَلُونَ، كَانَ هَذَا إِسَاءَةً لِظَنِّهِمْ بِرَبِّهِمْ، فَأَرْدَاهُمْ ذَلِكَ الظَّنُّ.

وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ مَنْ جَحَدَ صِفَاتِ كَمَالِهِ، وَنُعُوتَ جَلَالِهِ، وَوَصَفَهُ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ، فَإِذَا ظَنَّ هَذَا أَنَّهُ يُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ كَانَ هَذَا غُرُورًا وَخِدَاعًا مِنْ نَفْسِهِ، وَتَسْوِيلًا مِنَ الشَّيْطَانِ، لَا إِحْسَانَ ظَنٍّ بِرَبِّهِ.

فَتَأَمَّلْ هَذَا الْمَوْضِعَ، وَتَأَمَّلْ شِدَّةَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ!

وَكَيْفَ يَجْتَمِعُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ تَيَقُّنُهُ بِأَنَّهُ مُلَاقِ اللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ كَلَامَهُ، وَيَرَى مَكَانَهُ، وَيَعْلَمُ سِرَّهُ وَعَلَانِيَتَهُ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ أَمْرِهِ، وَأَنَّهُ مَوْقُوفٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمَسْئُولٌ عَنْ كُلِّ مَا عَمِلَ، وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَسَاخِطِهِ، مُضَيِّعٌ لِأَوَامِرِهِ،

مُعَطِّلٌ لِحُقُوقِهِ، وَهُوَ مَعَ هَذَا يُحْسِنُ الظَّنَّ بِهِ؟ وَهَلْ هَذَا إِلَّا مِنْ خِدَعِ النُّفُوسِ، وَغُرُورِ الْأَمَانِيِّ؟

وَقَدْ قَالَ أَبُو أُمَامَةَ بْنُ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ: دَخَلْتُ أَنَا وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَتْ: لَوْ رَأَيْتُمَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَرَضٍ لَهُ، وَكَانَتْ عِنْدِي سِتَّةُ دَنَانِيرَ -أَوْ سَبْعَةٌ- فَأَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ أُفَرِّقَهَا. قَالَتْ: فَشَغَلَنِي وَجَعُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى عَافَاهُ اللَّهُ، ثُمَّ سَأَلَنِي عَنْهَا فَقَالَ: «مَا فَعَلْتِ؟ أَكُنْتِ فَرَّقْتِ السِّتَّةَ الدَّنَانِيرَ؟» فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ، لَقَدْ شَغَلَنِي وَجَعُكَ، قَالَتْ: فَدَعَا بِهَا، فَوَضَعَهَا فِي كَفِّهِ، فَقَالَ: «مَا ظَنُّ نَبِيِّ اللَّهِ لَوْ لَقِيَ اللَّهَ وَهَذِهِ عِنْدَهُ؟».

وَفِي لَفْظٍ: «مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ بِرَبِّهِ لَوْ لَقِيَ اللَّهَ وَهَذِهِ عِنْدَهُ؟»(١).

فَيَا لَلَّهِ! مَا ظَنُّ أَصْحَابِ الْكَبَائِرِ وَالظَّلَمَةِ بِاللَّهِ إِذَا لَقُوهُ وَمَظَالِمُ الْعِبَادِ عِنْدَهُمْ؟ فَإِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ قَوْلُهُمْ: «حَسَّنَّا ظُنُونَنَا بِكَ»، لَمْ يُعَذَّبْ ظَالِمٌ وَلَا فَاسِقٌ. فَلْيَصْنَعِ الْعَبْدُ مَا شَاءَ، وَلْيَرْتَكِبْ كُلَّ مَا نَهَاهُ اللَّهُ عَنْهُ، وَلْيُحْسِنْ ظَنَّهُ بِاللَّهِ، فَإِنَّ النَّارَ لَا تَمَسُّهُ! فَسُبْحَانَ اللَّهِ! مَا يَبْلُغُ الْغُرُورُ بِالْعَبْدِ!

وَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِقَوْمِهِ: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٦، ٨٧]. أَيْ: فَمَا ظَنُّكُمْ بِهِ أَنْ يَفْعَلَ بِكُمْ إِذَا لَقِيتُمُوهُ وَقَدْ عَبَدْتُمْ غَيْرَهُ؟!

وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا الْمَوْضِعَ حَقَّ التَّأَمُّلِ عَلِمَ أَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ هُوَ حُسْنُ

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٠٤)، وابن حبان (٨/ ٨، ٩)، والبيهقي في الكبرى (٦/ ٥٨٠).

الْعَمَلِ نَفْسُهُ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَحْمِلُهُ عَلَى حُسْنِ الْعَمَلِ ظَنُّهُ بِرَبِّهِ أَنْ يُجَازِيَهُ عَلَى أَعْمَالِهِ، وَيُثِيبَهُ عَلَيْهَا، وَيَتَقَبَّلَهَا مِنْهُ. فَالَّذِي حَمَلَهُ عَلَى الْعَمَلِ حُسْنُ الظَّنِّ، فَكُلَّمَا حَسُنَ ظَنُّهُ حَسُنَ عَمَلُهُ، وَإِلَّا فَحُسْنُ الظَّنِّ مَعَ اتِّبَاعِ الْهَوَى عَجْزٌ. كَمَا فِي حَدِيثِ التِّرْمِذِيِّ وَالْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ»[1].

الشرح:

تقدم أن من أهل الضلال من يتركون الأعمال، ويرتكبون المعاصي، ويقولون: نحن نحسن الظن بالله أنه يغفر لنا. وهذا من المغالطة، فإن من أحسن الظن بالله فإنه يعمل الأعمال الصالحة؛ لأنه يعتقد أن الله لا يضيع أجره، وأنه يحفظ له أعماله، هذا هو الذي يحسن الظن بالله، الذي يعمل الأعمال الصالحة، ويتجنب المحرمات؛ لأنه يعتقد أن ذلك ينفعه عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن الله يتكرم عليه، فهو يعمل الأسباب.

وأمّا الذي يقول: إنه يحسن الظن بالله. ولا يحسن العمل، فهذا عجز مذموم، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْكَيِّسُ**» يعني: العاقل «**مَنْ دَانَ نَفْسَهُ**» يعني حاسبها «**وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ**»، فدل على أنه لا بد من عمل، «**وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ**»، فهو يحسن الظن بالله، ولكنه لا يعمل الأسباب التي تجعل له قربة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وهذا هو العجز الذي

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٤)، والترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، والحاكم (١/ ١٢٥).

استعاذ منه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ، وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالبُخْلِ وَالجُبْنِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ**»(١)، هذا هو العجز المذموم، أمّا العاجز الذي لا يستطيع فهذا معذور، وإنما الكلام عن الذي يترك العمل وهو يستطيعه، هذا هو العاجز المذموم.

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وَبِالْجُمْلَةِ فَحُسْنُ الظَّنِّ إِنَّمَا يَكُونُ مَعَ انْعِقَادِ أَسْبَابِ النَّجَاةِ، وَأَمَّا مَعَ انْعِقَادِ أَسْبَابِ الْهَلَاكِ فَلَا يَتَأَتَّى إِحْسَانُ الظَّنِّ.

فَإِنْ قِيلَ: بَلْ يَتَأَتَّى ذَلِكَ، وَيَكُونُ مُسْتَنَدُ حُسْنِ الظَّنِّ سَعَةَ مَغْفِرَةِ اللَّهِ، وَرَحْمَتِهِ وَعَفْوِهِ وَجُودِهِ، وَأَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ، وَأَنَّهُ لَا تَنْفَعُهُ الْعُقُوبَةُ، وَلَا يَضُرُّهُ الْعَفْوُ.

قِيلَ: الْأَمْرُ هَكَذَا، وَاللَّهُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَأَجَلُّ وَأَكْرَمُ وَأَجْوَدُ وَأَرْحَمُ. وَلَكِنْ إِنَّمَا يَضَعُ ذَلِكَ فِي مَحَلِّهِ اللَّائِقِ بِهِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مَوْصُوفٌ بِالْحِكْمَةِ، وَالْعِزَّةِ، وَالِانْتِقَامِ، وَشِدَّةِ الْبَطْشِ، وَعُقُوبَةِ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ. فَلَوْ كَانَ مُعَوَّلُ حُسْنِ الظَّنِّ عَلَى مُجَرَّدِ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ لَاشْتَرَكَ فِي ذَلِكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَالْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ، وَوَلِيُّهُ وَعَدُوُّهُ، فَمَا يَنْفَعُ الْمُجْرِمَ أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُهُ وَقَدْ بَاءَ بِسُخْطِهِ وَغَضَبِهِ، وَتَعَرَّضَ لِلَعْنَتِهِ، وَأَوْضَعَ فِي مَحَارِمِهِ، وَانْتَهَكَ حُرُمَاتِهِ؟ بَلْ حُسْنُ الظَّنِّ يَنْفَعُ مَنْ تَابَ وَنَدِمَ وَأَقْلَعَ، وَبَدَّلَ السَّيِّئَةَ بِالْحَسَنَةِ، وَاسْتَقْبَلَ بَقِيَّةَ عُمُرِهِ بِالْخَيْرِ وَالطَّاعَةِ، ثُمَّ أَحْسَنَ الظَّنَّ، فَهَذَا هُوَ حُسْنُ ظَنٍّ، وَالْأَوَّلُ غُرُورٌ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

الشرح:

قوله: (**وَأَمَّا مَعَ انْعِقَادِ أَسْبَابِ الْهَلَاكِ فَلَا يَتَأَتَّى إِحْسَانُ الظَّنِّ**)؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه:٨٢]، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غفار لمن تاب، أما من يصر على الذنوب والمعاصي ويقول: الله غفور رحيم. فهذا في الحقيقة مغالط، ولو أنه جلس في بيته ولم يطلب الرزق، ولم يأكل، ولم يشرب، وقال: أنا أحسن الظن بالله أنه سيأتيني

بكل حاجاتي وأنا جالس؟! فلا بد من فعل السبب، إذا أحسنت الظن بالله فاعمل الأسباب.

قوله: **(وَأَنَّهُ لَا تَنْفَعُهُ الْعُقُوبَةُ، وَلَا يَضُرُّهُ الْعَفْوُ)**، الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا تنفعه العقوبة ولا تنفعه الطاعة، وإنما العقوبة عدل منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيُجازي المحسن بإحسانه ويجازي المسيء بإساءته، وهذا عدل منه وفضل.

قوله: **(فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مَوْصُوفٌ بِالْحِكْمَةِ)**، ولهذا قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:**٣٥، ٣٦**]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية:٢٢]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨]، هذا لا يليق بحكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالحكيم: الذي يضع الأمور في مواضعها، فيضع العذاب فيمن يستحقه، ويضع الرحمة فيمن يستحقها.

وَلَا تَسْتَطِلْ هَذَا الْفَصْلَ، فَإِنَّ الْحَاجَةَ إِلَيْهِ شَدِيدَةٌ لِكُلِّ أَحَدٍ يُفَرِّقُ بَيْنَ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ وَبَيْنَ الْغُرُورِ بِهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة:٢١٨]، فَجَعَلَ هَؤُلَاءِ أَهْلَ الرَّجَاءِ، لَا الْبَطَّالِينَ وَالْفَاسِقِينَ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل:١١٠]، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ بَعْدَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِمَنْ فَعَلَهَا.

فَالْعَالِمُ يَضَعُ الرَّجَاءَ مَوَاضِعَهُ، وَالْجَاهِلُ الْمُغْتَرُّ يَضَعُهُ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهِ.

الشرح:

لا شك أن هذا فصل عظيم، ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أوله الدعاء، وأنه سبب من أعظم الأسباب للرحمة والنجاة، ثم تطرّق إلى الفرق الضالة التي تغالط في الدعاء، وتقول: إنه معوّل على القضاء والقدر، وأن الدعاء لا ينفع، وبعضهم يقول: الدعاء عبادة فقط، ولكنه لا ينفع، وهذه كلها أشياء باطلة.

قوله: **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾**، هؤلاء لم يقتصروا على الرجاء فقط، ولكنهم آمنوا وهاجروا وجاهدوا، وبعد ذلك يرجون رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فدل على أن الإنسان ينبغي له أن لا يركن إلى عمله، ولا يقطع في نفسه أنه سيكون من أهل الجنة، بل يخاف من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، ويرجو رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾، يعني: امتحنهم المشركون وآذوهم في دينهم، فهاجروا -والهجرة قرينة الجهاد- وتركوا أوطانهم وأموالهم، وخرجوا طاعة لله جَلَّ وَعَلَا، بذلوا السبب: ﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ﴾، جاهدوا الأعداء والكفار، جاهدوا في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ وفي نصرة الدين، وصبروا على طاعة الله، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، عملوا بالأسباب، فجاءتهم المغفرة والرحمة من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

فَصْلٌ

وَكَثِيرٌ مِنَ الْجُهَّالِ اعْتَمَدُوا عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ وَكَرَمِهِ، وَضَيَّعُوا أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، وَنَسُوا أَنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ، وَأَنَّهُ لَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ.

وَمَنِ اعْتَمَدَ عَلَى الْعَفْوِ مَعَ الْإِصْرَارِ فَهُوَ كَالْمُعَانِدِ.

قَالَ مَعْرُوفٌ: «رَجَاؤُكَ لِرَحْمَةِ مَنْ لَا تُطِيعُهُ مِنَ الْخِذْلَانِ وَالْحُمْقِ»(١).

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: مَنْ قَطَعَ عُضْوًا مِنْكَ فِي الدُّنْيَا بِسَرِقَةِ ثَلَاثَةِ دَرَاهِمَ، لَا تَأْمَنُ أَنْ تَكُونَ عُقُوبَتُهُ فِي الْآخِرَةِ عَلَى نَحْوِ هَذَا.

الشرح:

كثيرٌ من الجهال يأخذون طرفًا من الأدلة، ويتركون الطرف الآخر، والله جَلَّ وَعَلَا كما أنه غفور رحيم فهو شديد العقاب: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد:٦]، ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر:٣]، فلماذا يأخذون بأول الآية ويتركون آخرها؟! فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما أنه غفور فهو شديد العقاب، غفور لمن تاب وآمن، وشديد العقاب لمن كفر وأعرض وعاند.

قوله: (**رَجَاؤُكَ لِرَحْمَةِ مَنْ لَا تُطِيعُهُ مِنَ الْخِذْلَانِ وَالْحُمْقِ**)، فإذا رجوته فأطعه، أرأيت لو أنك ذهبت إلى رجل من أهل الأموال والمحسنين تتحرى

---

(١) أخرجه السلمي في طبقات الصوفية (ص٨٤)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٨/٣٦٧)، ولفظه: «طَلَبُ الْجَنَّةِ بِلَا عَمَلٍ ذَنْبٌ مِنَ الذُّنُوبِ، وَانْتِظَارُ الشَّفَاعَةِ بِلَا سَبَبٍ نَوْعٌ مِنَ الْغُرُورِ، وَارْتِجَاءُ رَحْمَةِ مَنْ لَا يُطَاعُ جَهْلٌ وَحُمْقٌ».

منه أنه يعطيك من المال، ثم سببته وشتمته وخالفت أمره؛ هل تظن أنه سيعطيك؟! فأنت إذا رجوت فاعمل عملًا يحقق لك رجاءك، أما أن تعمل ما يخالف رجاءك، فهذا غلط.

وإذا تأملت الحدود التي وضعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الدنيا؛ من قطع يد السارق، والقصاص من القاتل، وجلد الزاني البكر، ورجم الزاني المحصن، تجد أنها عقوبات شديدة، فإذا كان هذا في الدنيا فما في الآخرة أشد للمجرمين، ولن تشملهم رحمة الله؛ لأنهم لا يستحقونها. قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة:٣٨]، فالله عَزَّوَجَلَّ كما أنه رحيم فهو شديد العقاب، ولا يرضى لعباده الكفر، لكنه يغفر لمن تاب وآمن، وعمل الصالحات، فالذي يريد المغفرة يعمل أسبابها، والذي يتمنى على الله الأماني ويتبع نفسه هواها، هذا عاجز؛ كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ»**[1].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٩١).

وَقِيلَ لِلْحَسَنِ: نَرَاكَ طَوِيلَ الْبُكَاءِ! فَقَالَ: أَخَافُ أَنْ يَطْرَحَنِي فِي النَّارِ وَلَا يُبَالِي[١]. وَسَأَلَ رَجُلٌ الْحَسَنَ، فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، كَيْفَ نَصْنَعُ بِمُجَالَسَةِ أَقْوَامٍ يُخَوِّفُونَا حَتَّى تَكَادَ قُلُوبُنَا تَطِيرُ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأَنْ تَصْحَبَ أَقْوَامًا يُخَوِّفُونَكَ حَتَّى تُدْرِكَ أَمْنًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ أَقْوَامًا يُؤَمِّنُونَكَ حَتَّى تَلْحَقَكَ الْمَخَاوِفُ[٢].

الشرح:

هذا الحكم في دين الله أن الإنسان لا يغتر بعمله، فالحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أئمة التابعين، ومن أهل العلم والتقوى والورع، ولم يأخذه الرجاء، مع أنه يعمل الأعمال الصالحة، ويخاف أن يطرحه الله جَلَّ وَعَلَا في النار ولا يبالي، ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ من الأعمال الصالحة ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أي: ويخافون من الله عَزَّوَجَلَّ.

فعلى العبد أن يختار من يجالس، فلا يجلس مع الذين يتساهلون بالمعاصي، ويذهبون لهذا المذهب الخبيث، ويقولون: رحمة الله واسعة، ونحو ذلك.

نعم، رحمة الله واسعة، لكن لمن هذه الرحمة؟! يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]، والله لا يضع الرحمة إلا في موضعها، ولا يضع العقوبة إلا في موضعها، فما الذي يؤمنك من العقوبة وقد توعد الله جَلَّ وَعَلَا العصاة والمذنبين؟! فكما أنك ترجو ثواب الله ومغفرته، عليك أيضًا أن تخاف عقابه، فتجمع بين الخوف والرجاء.

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٧/ ١٣٧).

(٢) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على الزهد (١٤٥٩).

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ فِي النَّارِ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ: مَا أَصَابَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ»(١).

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي رَافِعٍ، قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْبَقِيعِ، فَقَالَ: «أُفٍّ لَكَ، أُفٍّ لَكَ!»، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يُرِيدُنِي، قَالَ: «لَا، وَلَكِنَّ هَذَا قَبْرُ فُلَانٍ، بَعَثْتُهُ سَاعِيًا إِلَى آلِ فُلَانٍ، فَغَلَّ نَمِرَةً، فَدُرِّعَ الْآنَ مِثْلَهَا مِنْ نَارٍ»(٢).

وَفِي مُسْنَدِهِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ، قَالُوا: خُطَبَاءُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ»(٣).

وَفِيهِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ بِهَا وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٩٢)، والنسائي (٨٦٢)، والطبراني في الكبير (٩٦٢).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٢٧٠).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٢٢٤)، وأبو داود (٤٨٧٨).

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْهُ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ شَاءَ»(١).

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِجِبْرِيلَ: «مَا لِي لَمْ أَرَ مِيكَائِيلَ ضَاحِكًا قَطُّ؟» قَالَ: مَا ضَحِكَ مُنْذُ خُلِقَتِ النَّارُ(٢).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ فِي الْجَنَّةِ صَبْغَةً، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»(٣).

الشرح:

قوله: (يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ...) هذه عقوبة؛ لأنه كان في الدنيا ينهى الناس عن المنكر ولا ينهى نفسه، ويأمر بالطاعة ولا يعملها، فدل ذلك على أن الله عَزَّوَجَلَّ رتب العقوبة على العمل السيئ، وأن مجرد الكلام

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١١٢)، والترمذي (٢١٤٠)، والحاكم (١/ ٧٠٧).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٢٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٠٧).

من غير عمل لا ينفع الإنسان، فهذا كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لكنه لم يعمل هو بما يأمر الناس به، فصار في النار فضيحةً والعياذ بالله؛ تتفتح فيها أمعاؤه، وتسيل على الأرض، ويدور فيها كما يدور الحمار برحاه، يعني: كما يدور الحمار بالرحى الذي يطحن به الحبوب كما هو معروف؛ عقوبة له؛ لأنه كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر باللسان، ولا يعمل بما يقول.

قوله: **(فَغَلَّ نَمِرَةً)** أي: أخذ شيئًا من اللباس، **(فَدُرِّعَ الْآنَ مِثْلَهَا مِنْ نَارٍ)**، هذا عقوبة؛ لأن الغلول من الكبائر، فالله جَلَّ وَعَلَا أطلع نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما فعله هذا الرجل، وأنه يُعذب في قبره بسبب هذا الفعل، ولذلك قال: **«أُفٍّ لَكَ»** -كلمة تضجر- بسبب النمرة التي أخذها، فدل على أن الله يجازي على الأعمال السيئة.

وقوله: **(كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ)** فيه دليل على أنه لا بد من العمل، ولا يكفي القول بغير عمل.

وقوله: **(لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ بِهَا وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ)** هذه عقوبات مرتبة على ما فعلوا من المعاصي، ما نفعهم حسن الظن بالله مع المبارزة بالذنوب والمعاصي.

وقوله: **(مَا ضَحِكَ مُنْذُ خُلِقَتِ النَّارُ)** هذا ميكائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ من سادات الملائكة ويخاف من النار، مع تقواه وطاعته لله عَزَّ وَجَلَّ.

وَفِي الْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «اسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» - مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا- ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ، فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: رُوحُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى».

قَالَ: «فَتُعَادُ رُوحُهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ،

فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَافْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ».

قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رُوحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ».

قَالَ: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ، رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي».

قَالَ: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ».

قَالَ: «فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمُبْتَلِّ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: رُوحُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ». ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]،

«فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١]، «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ عَبْدِي، فَافْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ. فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوؤُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: وَمَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ»(١).

وَفِي لَفْظٍ لِأَحْمَدَ أَيْضًا: «ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَصَمُّ أَبْكَمُ، فِي يَدِهِ مِرْزَبَّةٌ، لَوْ ضَرَبَ بِهَا جَبَلًا كَانَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً فَيَصِيرُ تُرَابًا، ثُمَّ يُعِيدُهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ كَمَا كَانَ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ». قَالَ الْبَرَاءُ: «ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ، وَيُمهدُ لَهُ مِنْ فِرَاشِ النَّارِ»(٢).

الشرح:

هذا الحديث المشهور، حديث البراء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهو حديث عظيم، فيه

---

(١) أخرجه أحمد (٤/٢٨٧)، وأبو داود (٣٢١٢)، والحاكم (١/٩٢).

(٢) أخرجه أحمد (٤/٢٩٥)، وأبو داود (٤٧٥٣)، والحاكم (١/٩٧).

أنه تشرع الموعظة عند الدفن في بعض الأحيان إذا حصل فرصة؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنّما وعظهم لما كان ينتظر أن ينتهوا من تجهيز القبر، أما إذا جاؤوا والقبر مجهز فإنهم يبادرون بدفن الميت ولا يجلسون.

فالذين اتخذوا من هذا الحديث دليلًا على الموعظة عند القبر دائمًا، ويخطبون في المقابر، هذا بدعة؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما كان يعمل هذا دائمًا، وإنّما عمله لسبب، وهو: أن القبر لم ينته، فإذا حصل مثل هذا فلا بأس.

وفي هذا الحديث: إثبات نعيم القبر وعذاب القبر، وفيه أن ذلك لأسباب، فالنعيم سببه العمل الصالح، والعذاب سببه العمل السيئ، وهذا هو المقصود من إيراد الحديث.

وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ بَصُرَ بِجَمَاعَةٍ، فَقَالَ: «عَلَامَ اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ؟» قِيلَ: عَلَى قَبْرٍ يَحْفِرُونَهُ، فَفَزِعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَدَرَ بَيْنَ يَدَيْ أَصْحَابِهِ مُسْرِعًا، حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْقَبْرِ، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فَاسْتَقْبَلْتُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِأَنْظُرَ مَا يَصْنَعُ، فَبَكَى حَتَّى بَلَّ الثَّرَى مِنْ دُمُوعِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: «أَيْ إِخْوَانِي، لِمِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ فَأَعِدُّوا»(١).

وَفِي الْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ بُرَيْدَةَ قَالَ: خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَنَادَى ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَتَدْرُونَ مَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ مَثَلُ قَوْمٍ خَافُوا عَدُوًّا يَأْتِيهِمْ، فَبَعَثُوا رَجُلًا يَتَرَاءَى لَهُمْ، فَأَبْصَرَ الْعَدُوَّ، فَأَقْبَلَ لِيُنْذِرَهُمْ، وَخَشِيَ أَنْ يُدْرِكَهُ الْعَدُوُّ قَبْلَ أَنْ يُنْذِرَ قَوْمَهُ، فَأَهْوَى بِثَوْبِهِ: أَيُّهَا النَّاسُ أُتِيتُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ أُتِيتُمْ»، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ(٢).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ مَا أَسْكَرَ حَرَامٌ، وَإِنَّ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَقْدًا لِمَنْ شَرِبَ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ»، قِيلَ: وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ؟ قَالَ: «عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ، أَوْ عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ»(٣).

وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٩٤)، وابن ماجه (٤١٩٥).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٠٢).

فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ»(١). قَالَ أَبُو ذَرٍّ: وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُعْضَدُ.

وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَنَازَةٍ، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ قَعَدَ عَلَى سَاقَيْهِ، فَجَعَلَ يُرَدِّدُ بَصَرَهُ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «يُضْغَطُ الْمُؤْمِنُ فِيهِ ضَغْطَةً تَزُولُ مِنْهَا حَمَائِلُهُ، وَيُمْلَأُ عَلَى الْكَافِرِ نَارًا»(٢). وَالْحَمَائِلُ عُرُوقُ الْأُنْثَيَيْنِ.

وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ حِينَ تُوُفِّيَ، فَلَمَّا صَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَوُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَسُوِّيَ عَلَيْهِ، سَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَبَّحْنَا طَوِيلًا، ثُمَّ كَبَّرَ، فَكَبَّرْنَا، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ سَبَّحْتَ ثُمَّ كَبَّرْتَ؟ فَقَالَ: «لَقَدْ تَضَايَقَ عَلَى هَذَا الْعَبْدِ الصَّالِحِ قَبْرُهُ حَتَّى فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ»(٣).

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا وُضِعَتِ الْجَنَازَةُ، وَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ: قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ: يَا وَيْلَهَا، أَيْنَ تَذْهَبُونَ بِهَا؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٣)، والترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٠٧).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٣٦٠).

الْإِنْسَانُ لَصُعِقَ»(١).

الشرح:

في هذه الأحاديث دليل على مشروعية زيارة القبور والنظر فيها، من أجل ترقيق القلوب، والتوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: **(وَإِنَّ عَلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ عَهْدًا لِمَنْ شَرِبَ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ)**؛ عقوبة له على شرب الخمر والعياذ بالله، فإن الله يسقيه من عصارة أهل النار أو طينة أهل النار، كما شرب الخمر في الدنيا.

وفي هذا دليل على العقوبات على المعاصي، وأن الإنسان لا يعتمد على الرجاء، ويطمع في رحمة الله، وهو مقيم على المعاصي.

وقوله: **(لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا)**، هذا خوف رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وخوف أصحابه رَضِيَاللَّهُعَنْهُمْ، وهم أفضل الأمة وأكثرها أعمالًا صالحة، ومع هذا يخافون هذا الخوف الشديد، فدل على أن الاعتماد على الرجاء من غير عمل أنه باطل.

وقوله: **(لَقَدْ تَضَايَقَ عَلَى هَذَا الْعَبْدِ الصَّالِحِ قَبْرُهُ حَتَّى فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ)**، فيه أن ضغطة القبر لا ينجو منها أحد، لكن المؤمن يفرج الله عنه، وأما غير المؤمن فيضيق الله عليه حتى تختلف أضلاعه.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣١٤).

وَفِي مُسْنَدِ الإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَدْنُو الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَدْرِ مِيلٍ، وَيُزَادُ فِي حَرِّهَا كَذَا وَكَذَا، تَغْلِي مِنْهَا الرُّءُوسُ كَمَا تَغْلِي الْقُدُورُ، يَعْرَقُونَ فِيهَا عَلَى قَدْرِ خَطَايَاهُمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ إِلَى كَعْبِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ إِلَى سَاقَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ إِلَى وَسَطِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ»(١).

وَفِيهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ يَسْمَعُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ؟» فَقَالَ أَصْحَابُهُ: كَيْفَ نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا»(٢).

وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عُمَرَ يَرْفَعُهُ: «مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ، أَوِ اخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ، لَقِيَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ»(٣).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمُصَوِّرِينَ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»(٤).

وَفِيهِمَا أَيْضًا عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٤)، والطبراني في الكبير (٧٧٧٩)، وأصله عند مسلم (٢٨٦٤) من حديث المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٢٦)، والطبراني في الكبير (١٢٦٧٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١١٨)، والحاكم (١/ ١٢٨).

(٤) أخرجه البخاري (٢١٠٥)، ومسلم (٢١٠٨).

يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

الشرح:

قوله: **(يَعْرَقُونَ فِيهَا عَلَى قَدْرِ خَطَايَاهُمْ)** هذا في عقوبات المعاصي، وأن العصاة في المحشر يحصل لهم بسببها العرق الشديد من الخوف، فلا يأمن الإنسان من المعاصي ويتساهل فيها ويقول: الله غفور رحيم، واسع المغفرة، وما أشبه ذلك. نعم، الله غفور رحيم لمن تاب وعمل الصالحات وعمل الأسباب، أما من بارز الله بالذنوب والمعاصي، فإن الله شديد العقاب.

وقوله: **(كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ)**، صاحب القرن: هو إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، والقرن: هو الصور، يأمره الله عَزَّوَجَلَّ فينفخ فيه نفخة الفزع، ثم يأمره فينفخ فيه نفخة الموت: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٦٨]، ثم يؤمر فينفخ فيه الثالثة فتطير الأرواح إلى أجسادها، ويقوم الناس من قبورهم، وهذه نفخة البعث.

وقوله: **(مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ، أَوِ اخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ)** هذه مظاهر الكبر، وهو خصلة ذميمة، والذي يترفع على الناس ويعجب بنفسه، هذا يكون هينًا على الله، وأما المتواضع فإنه يكون عند الله عزيزًا مرتفعًا.

وقوله: **(إِنَّ الْمُصَوِّرِينَ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)**، والتصوير الآن صار فنًّا من الفنون، ليس فيه بأس عند كثير من الناس، وبعضهم يتجرأ على الفتوى بأنه حلال، وما أشبه ذلك، وهو جريمة عظيمة، وعليه وعيد شديد.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).

وَفِيهِمَا أَيْضًا عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا صَارَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ، جِيءَ بِالْمَوْتِ حَتَّى يُوقَفَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُذْبَحُ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتٌ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتٌ، فَيَزْدَادُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ، وَيَزْدَادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ»(١).

وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْهُ قَالَ: «مَنِ اشْتَرَى ثَوْبًا بِعَشْرَةِ دَرَاهِمَ فِيهَا دِرْهَمٌ حَرَامٌ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ لَهُ صَلَاةً مَادَامَ عَلَيْهِ»، ثُمَّ أَدْخَلَ إِصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «صُمَّتَا إِنْ لَمْ أَكُنْ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُهُ»(٢).

وَفِيهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ سُكْرًا مَرَّةً وَاحِدَةً فَكَأَنَّمَا كَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا فَسُلِبَهَا، وَمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ سُكْرًا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ طِينَةَ الْخَبَالِ»، قِيلَ: وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «عُصَارَةُ أَهْلِ جَهَنَّمَ»(٣).

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ شَرْبَةً لَمْ تَقْبَلْ اللَّهُ لَهُ صَلَاةً أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَإِنْ عَادَ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ لَهُ صَلَاةً أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ»، فَلَا أَدْرِي فِي الثَّالِثَةِ أَوْ فِي الرَّابِعَةِ قَالَ: «فَإِنْ عَادَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ رَدْغَةِ الْخَبَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٤).

وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٤٨)، ومسلم (٢٨٥٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٩٨).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٧٨)، والحاكم (٤/ ١٦٢)، والبيهقي في الكبرى (٨/ ٢٨٧).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ١٧٦)، وابن ماجه (٣٣٧٧).

صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «مَنْ مَاتَ مُدْمِنًا لِلْخَمْرِ سَقَاهُ اللَّهُ مِنْ نَهْرِ الْغُوطَةِ»، قِيلَ: وَمَا نَهْرُ الْغُوطَةِ؟ قَالَ: «نَهْرٌ يَجْرِي مِنْ فُرُوجِ الْمُومِسَاتِ، يُؤْذِي أَهْلَ النَّارِ رِيحُ فُرُوجِهِنَّ»(١).

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «يُعْرَضُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَ عَرْضَاتٍ، فَأَمَّا عَرْضَتَانِ فَجِدَالٌ وَمَعَاذِيرُ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَطِيرُ الصُّحُفُ فِي الْأَيْدِي، فَآخِذٌ بِيَمِينِهِ، أَوْ آخِذٌ بِشِمَالِهِ»(٢).

وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ»، وَضَرَبَ لَهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مَثَلًا: «كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ، فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ، حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا وَأَجَّجُوا نَارًا، وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا»(٣).

الشرح:

قوله: **(جِيءَ بِالْمَوْتِ)** ليس هو بملك الموت، إنما الموت، وهو معنى من المعاني، لكن الله عَزَّوَجَلَّ يجعله جسمًا يوم القيامة، فيُذبح على مرأى من أهل الجنة، ومرأى من أهل النار، فأهل الجنة يفرحون أنهم لا يموتون وأنهم في نعيم، وأهل النار يحزنون؛ لأنهم يخلدون في النار، ولا مخرج لهم منها، يتمنون

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٩٩)، والحاكم (٤/ ١٦٣).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤١٤)، وابن ماجه (٤٢٧٧).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٢)، والطبراني في الكبير (١٠٥٠٠).

الموت: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧]، يتمنون الموت في النار ليستريحوا، لكنهم لا حاصل لهم موت: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه:٧٤].

وقوله: **(مَنِ اشْتَرَى ثَوْبًا بِعَشْرَةِ دَرَاهِمَ فِيهَا دِرْهَمٌ حَرَامٌ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ لَهُ صَلَاةً مَادَامَ عَلَيْهِ)**، فيه رد على الذين يقولون: إذا صار في المكاسب شيء يسير من الحرام، فلا يضر، وإذا صار في الشركة بعض الربا فلا يضر؛ لأنه يسير ويشترك فيها. وهذه عشرة دراهم منها واحد منها حرام لم يقبل الله منه صلاة، وهذا عيد شديد يدل على أن الحرام ولو قل فخطره عظيم، فيجب تجنب الحرام نهائيًّا وعدم التساهل فيه.

وبعض الناس إذا قيل لهم: هذه الشركات تتعامل بالربا، يقولون: تعاملهم بالربا خفيف، يعني: أكثر تعاملاتهم بالحلال وفيها ربا قليل، فيكون الربا مغتفر بزعمهم، وفي هذا الحديث عشرة دراهم كلها حلال إلا واحد، فكان سببًا أن لا يقبل الله من صاحبه صلاته ما دام الثوب عليه، فأين الذين يتساهلون في الحرام ويقولون: لا ضرر إذا كان الحرام يسيرًا.

وقول: **(نَهْرٌ يَجْرِي مِنْ فُرُوجِ الْمُومِسَاتِ)** يعني: الزانيات والعياذ بالله.

وقوله: **(فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ)**، يعني: تجتمع المعاصي ولو كانت صغائر، فتصير كبائر وتهلك صاحبها.

وغرض المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من إيراد هذه الأحاديث الرد على الذين يتساهلون في المعاصي، ويقولون:إن الله غفور رحيم، ويتركون التوبة، ويعتمدون على رحمة الله وعلى عفو الله، ولا يتوبون من الذنوب.

وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجِيزَ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَحَافَّتَيْهُ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمُ الْمُوبَقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمُ الْمُخَرْدَلُ، ثُمَّ يَنْجُو، حَتَّى إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ مِنَ النَّارِ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَرْحَمَ مِمَّنْ كَانَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوهُمْ، فَيَعْرِفُونَهُمْ بِعَلَامَةِ آثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ مِنِ ابْنِ آدَمَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيُخْرِجُونَهُمْ قَدِ امْتَحَشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مِنْ مَاءٍ يُقَالُ لَهُ: مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحَبَّةِ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ»(١).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى فِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: مَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى قُتِلْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنْ قَاتَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: مَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ فِيكَ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، فَقَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ: هُوَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: مَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ فَقَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٣)، ومسلم (١٨٢).

فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ، فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ»(١).

وَفِي لَفْظٍ: «فَهَؤُلَاءِ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٢).

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَةَ يَقُولُ: «كَمَا أَنَّ خَيْرَ النَّاسِ الْأَنْبِيَاءُ، فَشَرُّ النَّاسِ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ مِنَ الْكَذَّابِينَ، وَادَّعَى أَنَّهُ مِنْهُمْ، وَلَيْسَ مِنْهُمْ، فَخَيْرُ النَّاسِ بَعْدَهُمُ: الْعُلَمَاءُ وَالشُّهَدَاءُ وَالصِّدِّيقُونَ وَالْمُخْلِصُونَ، وَشَرُّ النَّاسِ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ، يُوهِمُ أَنَّهُ مِنْهُمْ، وَلَيْسَ مِنْهُمْ».

الشرح:

قوله: (**قَدِ امْتَحَشُوا**) مع أنهم مؤمنون موحدون، احترقوا في النار وصاروا فحمًا، فكيف يأمن العاصي ويعتمد على رحمة الله وعفوه من غير توبة؟!

قوله: (**فَهَؤُلَاءِ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**) يدل على أن العبرة ليست بصورة العمل، وإنما العبرة بالمقاصد، فهذه الأعمال الثلاثة في صورتها هي أفضل الأعمال: الجهاد في سبيل الله، والإنفاق في سبيل الله، وتعلم العلم والقرآن، ولكن لما كانت نية أصحابها غير خالصة لم تنفعهم هذه الأعمال، فدلَّ على أن المدار على النية وعلى القصد لا على صورة العمل، ودلَّ على أن الرياء يحبط العمل، ولو كان هذا العمل في صورته من أكبر الأعمال.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٨٢)، والنسائي في الكبرى (١٠/٣٩٥)، وابن حبان (٢/١٣٥).

ثم حكى ابن القيم عن شيخه -شيخ الإسلام ابن تيمية- أنه كان يقول: إن أفضل الناس الأنبياء، وشر الناس من تشبه بالأنبياء وهو ليس منهم، فليست العبرة بصورة الأعمال، فالتشبه بالأنبياء طيب في أصله، ولكن نظرًا لقصد صاحبه صار من شر الناس، مع أن ما عمله من خير الأعمال لو صدق فيه. كذلك من باب أولى بعد الأنبياء: الصديقون ثم الشهداء، وأولئك خير الناس بعد الأنبياء، وشر الناس من تشبه بهم وهو ليس منهم، وإنما يقصد الرياء.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ لِأَخِيهِ مَظْلَمَةٌ فِي مَالٍ أَوْ عِرْضٍ فَلْيَأْتِهِ، فَلْيَسْتَحِلَّهَا مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ وَلَيْسَ عِنْدَهُ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، فَإِنْ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَأُعْطِيهَا هَذَا، وَإِلَّا أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ هَذَا فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»(١).

وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ خُسِفَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ»(٢).

الشرح:

كذلك من مبطلات الأعمال بعد الرياء والشرك: الظلم، فالإنسان قد يأتي بأعمال صالحة كثيرة وخالصة لوجه الله ليس فيها رياء، لكن يأخذها المظلومون ولا يبقى له شيء، فبعد ما يخلص الإنسان نيته لله يترك ظلم الناس، وإلا فإن المظلومين يأخذون أعماله يوم القيامة في مقابل ظلمهم، لا بد من القصاص، والقصاص يوم القيامة لا يكون بالدراهم والدنانير، وإنما يكون بالأعمال.

فعلى المسلم أن يتخلص من المظالم في هذه الدنيا بأن يطلب المسامحة من المظلومين، ويعطيهم حقوقهم التي أخذها منهم؛ لأجل أن يسلم منهم في الآخرة، وتبقى له أعماله.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٥٤).

قوله: **(مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ)** كذلك من أنواع ظلم الناس: الغصب، وهو الاستيلاء على أموالهم قهرًا بغير حق، فمن غصب أرضًا جزاؤه يوم القيامة أنه يطوق هذه الأرض؛ تُجعل طوقًا في عنقه من سبع أرضين سبع طبقات، يوسع عنقه ويُطول حتى يتسع لهذا الطوق الذي يحمل إياه يوم القيامة.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ بَنُو آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ»، قَالُوا: وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةٌ، قَالَ: «فَإِنَّهَا قَدْ فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا»(١).

وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْ مُعَاذٍ قَالَ: أَوْصَانِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «لَا تُشْرِكْ بِاللهِ شَيْئًا، وَإِنْ قُتِلْتَ أَوْ حُرِّقْتَ، وَلَا تَعُقَّنَّ وَالِدَيْكَ، وَإِنْ أَمَرَاكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ، وَلَا تَتْرُكَنَّ صَلَاةً مَكْتُوبَةً مُتَعَمِّدًا، فَإِنَّ مَنْ تَرَكَ صَلَاةً مَكْتُوبَةً مُتَعَمِّدًا فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ، وَلَا تَشْرَبَنَّ خَمْرًا، فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ فَاحِشَةٍ، وَإِيَّاكَ وَالْمَعْصِيَةَ، فَإِنَّ الْمَعْصِيَةَ تُحِلُّ سَخَطَ اللهِ»(٢).

الشرح:

هذا يدل على شدة حر النار يوم القيامة، فهذه نار الدنيا لا أحد يطيقها مع أنها أخف بكثير من نار الآخرة، فهي جزء واحد من سبعين جزءًا، وفضلت عليها نار جهنم بتسع وستين مرة، فإذا كنا لا نطيق نار الدنيا فكيف نطيق نار الآخرة؟! ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:٨١]، فعلى المسلم أن يتذكر هذا، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾ أي: توقدون ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾، ففيها عبرة أنها تذكر بنار جهنم ﴿نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة:٧١ - ٧٣]، جعلناها تذكرة تُذكر بنار الآخرة. فإذا كنت لا تطيق أن تقرب من نار الدنيا مع أنها بالنسبة لنار

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (٥/٢٣٨).

الآخرة جزء يسير من سبعين جزء، فكيف تطيق نار الآخرة؟!.

قوله: **(لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَإِنْ قُتِلْتَ أَوْ حُرِّقْتَ...)** إلى آخره، كل هذه تحذيرات: أولًا: من الشرك وهو أكبر الذنوب، ثم يليه عقوق الوالدين، ثم يليه ترك الصلاة متعمدًا، فمن ترك صلاةً متعمدًا فقد برئت منه ذمة الله، هذه أشد عقوبة، لكن إذا تاب وحافظ على الصلاة تاب الله عليه.

وما أكثر من يتساهل بالصلاة اليوم ويتهاون بها وهو يعيش مع المسلمين، ويتسمى باسم المسلمين، ولكن الصلاة لا قيمة لها عنده، ولا يبالي بها، هذه خسارة عظيمة.

وهذه المعاصي من أكبر الذنوب، وما بعدها فهو دونها وهو معصية، فلا يتساهل الإنسان بالمعاصي عمومًا كبيرها وصغيرها؛ لأن صغار المعاصي تجر إلى كبارها، وصغار المعاصي تجتمع وتشكل خطرًا عظيمًا إذا تساهل الإنسان بها.

وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْبَابِ أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا ذَكَرْنَا، فَلَا يَنبُغِي لِمَنْ نَصَحَ نَفْسَهُ أَنْ يَتَعَامَى عَنْهَا، وَيُرْسِلَ نَفْسَهُ فِي الْمَعَاصِي، وَيَتَعَلَّقَ بِحَبْلِ الرَّجَاءِ وَحُسْنِ الظَّنِّ.

قَالَ أَبُو الْوَفَاءِ ابْنُ عَقِيلٍ: احْذَرْهُ وَلَا تَغْتَرَّ بِهِ، فَإِنَّهُ قَطَعَ الْيَدَ فِي ثَلَاثَةِ دَرَاهِمَ(١)، وَجَلَدَ الْحَدَّ فِي مِثْلِ رَأْسِ الْإِبْرَةِ مِنَ الْخَمْرِ(٢)، وَقَدْ دَخَلَتِ الْمَرْأَةُ النَّارَ فِي هِرَّةٍ(٣)، وَاشْتَعَلَتِ الشَّمْلَةُ نَارًا عَلَى مَنْ غَلَّهَا وَقَدْ قُتِلَ شَهِيدًا(٤).

الشرح:

في هذا رد على المرجئة الذين يتعلقون بحسن الرجاء ولا يبالون بالمعاصي، والرجاء الذي ليس معه عمل رجاء مذموم، وإنما الرجاء المحمود هو الرجاء الذي يكون معه عمل وترك للمحارم، كما أن الخوف المحمود الذي لا يكون معه قنوط من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: (**احْذَرْهُ وَلَا تَغْتَرَّ بِهِ**) أي: احذر الله جَلَّ وَعَلَا، ولا تغتر بعفوه

---

(١) قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تُقْطَعُ يَدُ السَّارِقِ إِلَّا فِي رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا**». أخرجه البخاري (٦٧٨٩)، ومسلم (١٦٨٤) واللفظ له، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) كما في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ، فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ**». أخرجه أبو داود (٣٦٨١)، والترمذي (١٨٦٥)، وابن ماجه (٣٣٩٣)، وأحمد (٣/٣٤٣).

(٣) كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ**». أخرجه البخاري (٢٣٦٥)، ومسلم (٢٢٤٢) واللفظ له.

(٤) سيأتي تخريجه قريبًا.

ورحمته، وتنسى غضبه وتنسى عقابه.

قوله: (**فَإِنَّهُ قَطَعَ الْيَدَ فِي ثَلَاثَةِ دَرَاهِمَ**) قطع اليد وهي عضو من الإنسان وفيها نصف الدية، تُقطع في ثلاثة دراهم، وهي: ثلاثة أرباع ريال من دراهمنا اليوم، فإذا كانت يد الإنسان تُقطع في عقوبة على ذنب في نظر الناس أنه يسير في الدنيا، فكيف بالعقوبة في الآخرة؟! لا شك أن العقوبة في الآخرة أشد على الذي عنده شرك أو كفر أو نفاق، أو عنده ظلم للناس ونحو ذلك، فإذا كانت تقطع يده في الدنيا بجريمة صغيرة في أعين الناس، فكيف بغيرها من الذنوب؟! ولهذا لما اعترض المعري الملحد فقال[1]:

يَدٌ بِخَمْسِ مِئِينَ عَسْجَدٍ فُدِيَتْ ... مَا بَالُهَا قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارِ

يعني: أن ديتها نصف الدية -خمسمئة دينار من الذهب- لو اعتُدي عليها، فكيف تُقطع في ثلاثة دراهم؟ وهي: ربع دينار كما في الحديث.

فأجابه علماء السنة، وقالوا[2]:

عِزُّ الأَمَانَةِ أَغْلاهَا وَأَرْخَصَهَا ... ذُلَّ الخِيَانَةِ فَافْهَمْ حِكْمَةَ البَارِي

لما كانت اليد أمينة كانت ثمينة، ولما خانت هانت، فالإنسان يهون عند الله بالذنوب والمعاصي، ويعظم عند الله بالطاعات.

قوله: (**وَجَلَدَ الْحَدَّ فِي مِثْلِ رَأْسِ الْإِبْرَةِ مِنَ الْخَمْرِ**) كذلك الإنسان يجلد ثمانين جلدة إذا شرب جرعة واحدة من الخمر، فكيف يأمن من عذاب الآخرة الذي هو أشد؟.

---

(١) يُنظر: اللزوميات لأبي العلاء المعري (١/ ٣٩١).

(٢) البيت للقاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكي. يُنظر: مغني المحتاج (٥/ ٤٦٥).

وقوله: **(وَقَدْ دَخَلَتِ الْمَرْأَةُ النَّارَ فِي هِرَّةٍ)** مع أن الهرة عند الناس ليس لها قيمة ولا لها حرمة، حبستها ومنعت عنها الطعام والشراب حتى ماتت، فدخلت النار، بينما دخلت امرأة بغيٌّ الجنة في كلب وجدته يلهث من شدة العطش فسقته، وهو كلب ليس عند الناس بشيء، فغفر الله لها جرمها العظيم -وهو الزنا- ودخلت الجنة(١).

فلا يُتهاون بالأعمال بالحسنات ويُقال: هذه سهلة ولا تساوي شيئًا، ولا يُتهاون بالسيئات ويُقال: هذه ليست بشيء. وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ»**(٢). فلا تحقرن من المعروف شيئًا، ولا تحقرن من الذنوب شيئًا.

قوله: **(وَاشْتَعَلَتِ الشَّمْلَةُ نَارًا عَلَى مَنْ غَلَّهَا وَقَدْ قُتِلَ شَهِيدًا)**، رجلٌ قاتل في سبيل الله على عهد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى قُتل، فغبطه الصحابة وقالوا: «هَنِيئًا لَهُ الشَّهَادَةُ»؛ لأنه في نظرهم وفيما يظهر لهم شهيد قتل في سبيل الله، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«كَلَّا»** يعني: ليس في الجنة **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَخَذَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ الْمَغَانِمِ، لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ، لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا»**(٣)، والشملة: نوع من الكساء يلتف به، أخذها من الغنائم بدون قسمة، فالتهبت عليه نارًا، مع أن ظاهر عمله أنه شهيد.

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«غُفِرَ لِامْرَأَةٍ مُومِسَةٍ، مَرَّتْ بِكَلْبٍ عَلَى رَأْسِ رَكِيٍّ يَلْهَثُ، كَادَ يَقْتُلُهُ العَطَشُ، فَنَزَعَتْ خُفَّهَا، فَأَوْثَقَتْهُ بِخِمَارِهَا، فَنَزَعَتْ لَهُ مِنَ المَاءِ، فَغُفِرَ لَهَا بِذَلِكَ»**. أخرجه البخاري (٣٣٢١) واللفظ له، ومسلم (٢٢٤٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٦) من حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٧٠٧)، ومسلم (١١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مَيْسَرَةَ، عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ يَرْفَعُهُ، قَالَ: «دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ رَجُلٌ النَّارَ فِي ذُبَابٍ»، قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا، فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ، فَقَالَ لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ، قَالُوا قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا، فَقَرَّب ذُبَابًا، فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ النَّارَ، وَقَالُوا لِلْآخَرِ: قَرِّبْ، فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ، فَدَخَلَ الْجَنَّةَ»(١).

وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ يَتَكَلَّمُ بِهَا الْعَبْدُ يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.

الشرح:

قوله: (دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ فِي ذُبَابٍ) يعني: بسبب ذباب، (وَدَخَلَ رَجُلٌ النَّارَ فِي ذُبَابٍ) يعني: بسبب ذباب، فالذي دخل الجنة لما طلبوا منه أن يذبح للصنم أبى، قالوا له: (قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا)، قال: (مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)، فدخل الجنة، أما الثاني فتساهل وقال: الذباب سهل، فقربه للصنم، فدخل النار؛ لأن هذا شرك، والشرك لا يُغفر منه شيء حتى يتوب منه صاحبه، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨]، ولو كان قليلاً، فكان الذباب شيئًا سهلًا في نظره، ومع هذا كان جزاؤه النار والعياذ

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٨٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٤٧٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٤٥٧).

بالله، ولو امتنع من تقديمه قربانًا لغير الله لدخل الجنة، فكيف بالذي يذبح المئات من الغنم والأنعام للقبور والأصنام والعياذ بالله؟!.

فتبين من ذلك أن العبرة ليست بصورة المذبوح، وإنما العبرة بالقصد والنية، فمن تساهل في الذبح لغير الله هلك والعياذ بالله.

أما الآخر الذي قال: **(مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)**، ولو كان شيئًا يسيرًا، فعظَّم الشرك، وخاف على نفسه من عاقبته، وجعل نفسه فداءً لعقيدته، فقُتل، وصار شهيدًا، فدخل الجنة.

قوله: **(وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ يَتَكَلَّمُ بِهَا الْعَبْدُ يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ)**، كالذي قال: «**وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ**»، فَقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: «**مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**»[(١)]. قال كلمة واحدة أحبطت أعماله، وفي الحديث: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ، مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**»[(٢)]، كلمة واحدة كانت من سخط الله، فكيف بالذي أكثر كلامه أو كل كلامه في سخط الله.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢١) من حديث جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَرُبَّمَا اتَّكَلَ بَعْضُ الْمُغْتَرِّينَ عَلَى مَا يَرَى مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِهِ، وَيَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ لَهُ، وَأَنَّهُ يُعْطِيهِ فِي الْآخِرَةِ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَهَذَا مِنَ الْغُرُورِ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ غَيْلَانَ، حَدَّثَنَا رِشْدِينُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ حَرْمَلَةَ بْنِ عِمْرَانَ التُّجِيبِيِّ، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ». ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤](١).

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعَمَهُ وَأَنْتَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ فَاحْذَرْهُ؛ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ مِنْهُ يَسْتَدْرِجُكَ بِهِ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

وَقَدْ رَدَّ سُبْحَانَهُ عَلَى مَنْ يَظُنُّ هَذَا الظَّنَّ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧]. أَيْ: لَيْسَ كُلُّ مَنْ نَعَّمْتُهُ وَوَسَّعْتُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ أَكُونُ قَدْ أَكْرَمْتُهُ، وَلَا كُلُّ مَنِ ابْتَلَيْتُهُ وَضَيَّقْتُ

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥).

عَلَيْهِ رِزْقَهُ أَكُونُ قَدْ أَهَنْتُهُ، بَلْ أَبْتَلِي هَذَا بِالنِّعْمَةِ، وَأُكْرِمُ هَذَا بِالِابْتِلَاءِ.

وَفِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ»(١).

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: رُبَّ مُسْتَدْرَجٍ بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، وَرُبَّ مَغْرُورٍ بِسَتْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، وَرُبَّ مَفْتُونٍ بِثَنَاءِ النَّاسِ عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ.

الشرح:

قوله: **(وَرُبَّمَا اتَّكَلَ بَعْضُ الْمُغْتَرِّينَ عَلَى مَا يَرَى مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا)**، كالذين قالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ:٣٥]، وصاحب الجنتين الذي قال: ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٥، ٣٦]، فاغتر بما عنده في الدنيا، وظن أنه إذا كان هذا عطاء الله له في الدنيا ففي الآخرة سيعطيه أكثر.

وهذا غرور -والعياذ بالله- فقد يعطي الله الدنيا للكافر والمشرك؛ لأنها لا تساوي عند الله شيئًا، و**«لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»**(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٢٣١)، والحاكم (٢/ ٤٨٥) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ولم أقف عليه في المطبوع من سنن الترمذي.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٤١١٠)، والطبراني في الكبير (٥٨٤٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣/ ٧٩) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، أما الآخرة فلا يعطيها إلا من يحب، فلا يغتر الإنسان بحاله في الدنيا والنعيم الذي هو فيه في الدنيا، ويظنّ أن الله سيكرمه في الآخرة، بدون عمل وبدون تقوى وبدون طاعة؛ لأن النجاة والإكرام في الآخرة لا تحصل إلا لأهل العمل الصالح: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ:٣٧].

فإذا رأيت الدنيا في يد من لا يخاف الله عَزَّوَجَلَّ فاعلم أنه استدراج، كما في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، وأما إذا كانت مع الطاعة والعبادة فهذه إعانة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فليست العبرة بما في يد الإنسان من الغنى والثروة، وإنما العبرة بحاله مع الله جَلَّ وَعَلَا، فإن كان عاصيًا لله فهذا استدراج له، وإن كان مطيعًا لله فهذه نعمة وإعانة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق:٦، ٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ﴾ يظن أن هذا لكرامته على الله ويغتر، ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ يعني: ضيقه وأفقره ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾، يظن أن هذا إهانة من الله، مع أنه من مصلحته، وليس بإهانة كرامة.

فهذا أفضل الخلق محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يربط الحجر على بطنه من

شدة الجوع[١]، وتمر عليه الشهور ولا يوقد في بيته نار[٢].

فليس الفقر وضيق الرزق بدليل على إهانة الله لعبده، بل هو حكمة من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فلا قبض الدنيا دليل على الإهانة، ولا بسطها دليل على الكرامة.

---

(١) كما في حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إِنَّا يَوْمَ الخَنْدَقِ نَحْفِرُ، فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ، فَجَاءُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الخَنْدَقِ، فَقَالَ: **«أَنَا نَازِلٌ»**. ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقًا. أخرجه البخاري (٤١٠١).

(٢) كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الهِلَالِ، ثُمَّ الهِلَالِ، ثُمَّ الهِلَالِ، ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَارٌ». أخرجه البخاري (٢٥٦٧)، ومسلم (٢٩٧٢).

فَصْلٌ

وَأَعْظَمُ الْخَلْقِ غُرُورًا مَنِ اغْتَرَّ بِالدُّنْيَا وَعَاجِلَهَا، فَآثَرَهَا عَلَى الْآخِرَةِ، وَرَضِيَ بِهَا مِنَ الْآخِرَةِ، حَتَّى يَقُولَ بَعْضُ هَؤُلَاءِ: الدُّنْيَا نَقْدٌ، وَالْآخِرَةُ نَسِيئَةٌ، وَالنَّقْدُ أَحْسَنُ مِنَ النَّسِيئَةِ!.

الشرح:

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [فاطر:٥]، رغَّب في الآخرة لأنها هي المقر وهي الدائمة، ونهى عن الاغترار بزهرة الدنيا لأنها زائلة وفاتنة، ونهى عن الغَرور وهو الشيطان ووساوسه.

فإذا سلِم العبد من هاتين الفتنتين -فتنة الدنيا وفتنة الشيطان- سلِم في الآخرة، فهما أخطر فتنة على الإنسان، وكم هلك بسبب الاغترار بالدنيا من أمم، وكم هلك بسبب الشيطان من أمم؟ فخطرهما خطر عظيم.

وبعض الناس -أو كثير منهم- يقول: الدنيا حاضرة، وأما الآخرة فهي وعد آجل، فلا نترك الشيء الحاضر لشيء آجل!. وهذا لأنهم لا يؤمنون بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلهذا قال: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾، فالذين آثروا الدنيا على الآخرة هؤلاء ليس عندهم إيمان، وإنما هم -كما يقال الآن- ماديون، وأما الذين آثروا الآخرة على الدنيا، فهؤلاء هم المتقون، وهم أرباب العقول، وأهل البصيرة، ولكنهم قليل بالنسبة للصنف الأول.

وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ: ذَرَّةٌ مَنْقُودَةٌ، وَلَا دُرَّةٌ مَوْعُودَةٌ.

وَيَقُولُ آخَرُ مِنهُمْ: لَذَّاتُ الدُّنْيَا مُتيَقَّنَةٌ، وَلَذَّاتُ الْآخِرَةِ مَشْكُوكٌ فِيهَا، وَلَا أَدَعُ الْيَقِينَ لِلشَّكِّ!

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ تَلْبِيسِ الشَّيْطَانِ وَتَسْوِيلِهِ، وَالْبَهَائِمُ الْعُجْمُ أَعْقَلُ مِنْ هَؤُلَاءِ؛ فَإِنَّ الْبَهِيمَةَ إِذَا خَافَتْ مَضَرَّةَ شَيْءٍ لَمْ تُقْدِمْ عَلَيْهِ وَلَوْ ضُرِبَتْ، وَهَؤُلَاءِ يُقْدِمُ أَحَدُهُمْ عَلَى مَا فِيهِ عَطَبُهُ، وَهُوَ بَيْنَ مُصَدِّقٍ وَمُكَذِّبٍ. فَهَذَا الضَّرْبُ إِنْ آمَنَ أَحَدُهُمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلِقَائِهِ وَالْجَزَاءِ، فَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ حَسْرَةً؛ لِأَنَّهُ أَقْدَمَ عَلَى عِلْمٍ، وَإِنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَأَبْعَدُ لَهُ.

وَقَوْلُ هَذَا الْقَائِلِ: النَّقْدُ خَيْرٌ مِنَ النَّسِيئَةِ.

فَجَوَابُهُ: أَنَّهُ إِذَا تَسَاوَى النَّقْدُ وَالنَّسِيئَةُ فَالنَّقْدُ خَيْرٌ، وَإِنْ تَفَاوَتَا وَكَانَتِ النَّسِيئَةُ أَكْثَرَ وَأَفْضَلَ فَهِيَ خَيْرٌ، فَكَيْفَ وَالدُّنْيَا كُلُّهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا كَنَفَسٍ وَاحِدٍ مِنْ أَنْفَاسِ الْآخِرَةِ؟! كَمَا فِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَالتِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّادٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يُدْخِلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ»(١).

فَإِيثَارُ هَذَا النَّقْدِ عَلَى هَذِهِ النَّسِيئَةِ مِنْ أَعْظَمِ الْغَبْنِ وَأَقْبَحِ الْجَهْلِ، وَإِذَا كَانَ هَذَا نِسْبَةَ الدُّنْيَا بِمَجْمُوعِهَا إِلَى الْآخِرَةِ، فَمَا مِقْدَارُ عُمُرِ الْإِنْسَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْآخِرَةِ؟ فَأَيُّمَا أَوْلَى بِالْعَاقِلِ: إِيثَارُ الْعَاجِلِ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ الْيَسِيرَةِ، وَحِرْمَانُ الْخَيْرِ الدَّائِمِ فِي الْآخِرَةِ، أَمْ تَرْكُ شَيْءٍ حَقِيرٍ صَغِيرٍ مُنْقَطِعٍ عَنْ قُرْبٍ؛ لِيَأْخُذَ مَا لَا قِيمَةَ لَهُ، وَلَا خَطَرَ لَهُ، وَلَا نِهَايَةَ لِعَدَدِهِ، وَلَا غَايَةَ لِأَمَدِهِ؟

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٨)، وأحمد (٤/ ٢٢٩)، والترمذي (٢٣٢٢).

وَأَمَّا قَوْلُ الْآخَرِ: لَا أَتْرُكُ مُتيَقَّنًا لِمَشْكُوكٍ فِيهِ.

فَيُقَالُ لَهُ: إِمَّا أَنْ تَكُونَ عَلَى شَكٍّ مِنْ وَعْدِ اللَّهِ وَوَعِيدِهِ وَصِدْقِ رُسُلِهِ، أَوْ تَكُونَ عَلَى يَقِينٍ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنْ كُنْتَ عَلَى الْيَقِينِ فَمَا تَرَكْتَ إِلَّا ذَرَّةً عَاجِلَةً مُنْقَطِعَةً فَانِيَةً عَنْ قُرْبٍ، لِأَمْرٍ مُتيَقَّنٍ لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا انْقِطَاعَ لَهُ.

وَإِنْ كُنْتَ عَلَى شَكٍّ فَرَاجِعْ آيَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى الدَّالَّةَ عَلَى وُجُودِهِ وَقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَصِدْقِ رُسُلِهِ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ عَنْهُ. وَتَجَرَّدْ وَقُمْ لِلَّهِ نَاظِرًا أَوْ مُنَاظِرًا، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَنِ اللَّهِ فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، وَأَنَّ خَالِقَ هَذَا الْعَالَمِ وَرَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَتَعَالَى وَيَتَقَدَّسُ وَيَتَنَزَّهُ عَنْ خِلَافِ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ رُسُلُهُ عَنْهُ. وَمَنْ نَسَبَهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ شَتَمَهُ وَكَذَّبَهُ، وَأَنْكَرَ رُبُوبِيَّتَهُ وَمُلْكَهُ؛ إِذْ مِنَ الْمُحَالِ الْمُمْتَنِعِ عِنْدَ كُلِّ ذِي فِطْرَةٍ سَلِيمَةٍ، أَنْ يَكُونَ الْمَلِكُ الْحَقُّ عَاجِزًا أَوْ جَاهِلًا، لَا يَعْلَمُ شَيْئًا، وَلَا يَسْمَعُ، وَلَا يُبْصِرُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ، وَلَا يَأْمُرُ وَلَا يَنْهَى، وَلَا يُثِيبُ وَلَا يُعَاقِبُ، وَلَا يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَلَا يُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَلَا يُرْسِلُ رُسُلَهُ إِلَى أَطْرَافِ مَمْلَكَتِهِ وَنَوَاحِيهَا، وَلَا يَعْتَنِي بِأَحْوَالِ رَعِيَّتِهِ، بَلْ يَتْرُكُهُمْ سُدًى، وَيُخَلِّيهِمْ هَمَلًا.

وَهَذَا يَقْدَحُ فِي مُلْكِ آحَادِ مُلُوكِ الْبَشَرِ وَلَا يَلِيقُ بِهِ، فَكَيْفَ يَجُوزُ نِسْبَةُ الْمَلِكِ الْحَقِّ الْمُبِينِ إِلَيْهِ؟!

الشرح:

هذا من عدم إيمانهم، يقولون: **(ذَرَّةٌ مَنْقُودَةٌ، وَلَا دُرَّةٌ مَوْعُودَةٌ)**، ويعنون بذلك الآخرة، فالآخرة بزعمهم وعد مؤجل، وأما الدنيا فهي حاضرة،

ويقولون: فلا تترك الحاضرة. والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [١٦، ١٧]، فلا يؤثر الآخرة على الدنيا إلا مؤمن، ولا يؤثر الدنيا على الآخرة إلا كافر أو منافق.

وقوله: **(لَذَّاتُ الدُّنْيَا مُتَيَقَّنَةٌ، وَلَذَّاتُ الْآخِرَةِ مَشْكُوكٌ فِيهَا)**، بل بالعكس، فإن لذَّات الآخرة هي المتيقنة؛ لأن الله وعد بها، ووعد الله حق، وأما لذَّات الدنيا فهي متاع: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد:٢٦]، لكن المؤمن يعتبر لذَّات الدنيا دليلًا على الآخرة، فالذي أعطى هذا الخير في الدنيا، وعجل هذه الأشياء في الدنيا، قادر على أن يجعل أكثر منها وأعظم منها في الآخرة، فيستدل بها لا أن يأخذها بدلًا عن الآخرة.

وقوله: **(فَإِنَّ الْبَهِيمَةَ إِذَا خَافَتْ مَضَرَّةَ شَيْءٍ لَمْ تُقْدِمْ عَلَيْهِ وَلَوْ ضُرِبَتْ)**، البهائم تتجنب الخطر فلا تقدم عليه، وهي بهائم لا عقل لها، بينما كثير من بني آدم يقدمون على الخطر والضرر، وينظرون إلى الدنيا بلذة عاجلة، ولا يفكرون في العقوبة الآجلة.

وقولهم: **(النَّقْدُ خَيْرٌ مِنَ النَّسِيئَةِ)** يعني: من المؤجل، وهذا ليس على إطلاقه، إذا تساوى النقد والمؤجل فلا شك أن النقد أحسن، وأما إذا كان المؤجل خير من العاجل فلا شك أن العقلاء يطلبون الخير، فلا يأخذون شيئًا عاجلًا قليلًا ويتركون آجلًا أكثر وأحسن وأبقى، كما أن الناس الآن يؤثرون بيع المؤجل على بيع النقد إذا كان المؤجل فيه زيادة، مما يدل على أن المؤجل إذا كان أحسن وأكثر فهو أولى عندهم.

وقوله: **(وَالدُّنْيَا كُلُّهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا كَنَفَسٍ وَاحِدٍ مِنْ أَنْفَاسِ**

الْآخِرَةِ)، الدنيا بالنسبة للآخرة لا شيء، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ﴾ [الرعد:٢٦]، متاع قليل، وضرب لها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثلًا كالذي يدخل إصبعه في البحر، هل ينقص البحر من شيءٍ؟ لا ينقص البحر ولا يخرج بشيء من البحر إلا بلل يسير.

هذا مثل الدنيا والآخرة، الآخرة كالبحر، والدنيا مثل البلل الذي يعلق بالإصبع إذا غمس في البحر.

فإذا كانت الدنيا كلها من أولها إلى آخرها بالنسبة للآخرة قليل، فكيف بعمر الإنسان وهو جزء من الدنيا؟! لا يساوي شيئًا.

فعلى الإنسان أن ينظر إلى مصيره ومثواه الذي لا خروج له منه، ولا ينظر إلى عاجل أمره الذي هو مؤقت وسريع الزوال، فما عمره في هذه الدنيا إلا يسير من يسير.

وَإِذَا تَأَمَّلَ الْإِنْسَانُ حَالَهُ مِنْ مَبْدَأِ كَوْنِهِ نُطْفَةً إِلَى حِينِ كَمَالِهِ وَاسْتِوَائِهِ، تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ مَنْ عُنِيَ بِهِ هَذِهِ الْعِنَايَةَ، وَنَقَلَهُ إِلَى هَذِهِ الْأَحْوَالِ، وَصَرَّفَهُ فِي هَذِهِ الْأَطْوَارِ، لَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يُهْمِلَهُ وَيَتْرُكَهُ سُدًى، لَا يَأْمُرُهُ وَلَا يَنْهَاهُ، وَلَا يُعَرِّفُهُ بِحُقُوقِهِ عَلَيْهِ، وَلَا يُثِيبُهُ وَلَا يُعَاقِبُهُ.

وَلَوْ تَأَمَّلَ الْعَبْدُ حَقَّ التَّأَمُّلِ لَكَانَ كُلُّ مَا يُبْصِرُهُ وَمَا لَا يُبْصِرُهُ دَلِيلًا لَهُ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْمَعَادِ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُهُ. وَقَدْ ذَكَرْنَا وَجْهَ الِاسْتِدْلَالِ بِذَلِكَ فِي كِتَابِ «أَيْمَانِ الْقُرْآنِ»[1] عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٤٠]، وَذَكَرْنَا طَرَفًا مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١]، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ دَلِيلُ نَفْسِهِ عَلَى وُجُودِ خَالِقِهِ، وَتَوْحِيدِهِ، وَصِدْقِ رُسُلِهِ، وَإِثْبَاتِ صِفَاتِ كَمَالِهِ.

فَقَدْ بَانَ أَنَّ الْمُضَيِّعَ مَغْرُورٌ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ: تَقْدِيرِ تَصْدِيقِهِ وَيَقِينِهِ، وَتَقْدِيرِ تَكْذِيبِهِ وَشَكِّهِ.

الشرح:

إذا تأمل الإنسان عناية الله بهذا الآدمي من حين كان نطفة في بطن أمه إلى أن يخرج إلى الدنيا، وسخَّر له من يعتني به وهو صغير، ثم لما كبر وأدرك أمره الله جَلَّوَعَلَا ونهاه، وبين له الخير والشر، كل ذلك مما يدل على أن الله تَبَارَكَوَتَعَالَى لطيف بعباده، لم يخلقهم عبثا ولم يتركهم سُدى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ

---

(١) يُنظر: التبيان في أقسام القرآن (ص١٧٥).

عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥]، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾، ثم قال: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة:٣٦ -٤٠].

فالذي قدر على بداية الإنسان، وتكوينه، وإنشائه، ورزقه، ودرجه في الحياة، قادر من باب أولى على أن يعيده، ويبعثه، ويجازيه على أعماله في هذه الدنيا. ما خلق الله هذا الخلق لأجل أن يفنى ويزول، بل خلقه لحكمة، وخلقه لغاية ونتيجة لا بد منها، ونتيجة الدنيا هي: الآخرة، كل ما يعمل في الدنيا من خير أو شر فجزاؤه في الآخرة، لا يترك الناس بدون جزاء، فيُجازى المحسن على إحسانه، ويجازى المسيء على إساءته ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢١].

قوله: **(وَقَدْ ذَكَرْنَا وَجْهَ الاِسْتِدْلَالِ بِذَلِكَ فِي كِتَابِ إِيمَانِ الْقُرْآنِ)**، لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب اسمه (أقسام القرآن) أو (أيمان القرآن)، ذكر فيه الآيات التي أقسم الله بها، وفسرها وبينها، وهو كتاب نفيس.

وقوله: **(فَقَدْ بَانَ أَنَّ الْمُضَيِّعَ مَغْرُورٌ)**، فإن كان يؤمن بالله واليوم الآخر وترك العمل وآثر الحياة الدنيا، فهذا دليل على عدم عقله، وخلل فكره؛ إذ كيف يؤمن بشيء ويتركه؟! وإن كان لا يؤمن فالخسارة أشد وأنكى.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَجْتَمِعُ التَّصْدِيقُ الْجَازِمُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ بِالْمَعَادِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَيَتَخَلَّفُ الْعَمَلُ؟ وَهَلْ فِي الطِّبَاعِ الْبَشَرِيَّةِ أَنْ يَعْلَمَ الْعَبْدُ أَنَّهُ مَطْلُوبٌ غَدًا إِلَى بَيْنِ يَدَيْ بَعْضِ الْمُلُوكِ لِيُعَاقِبَهُ أَشَدَّ عُقُوبَةٍ، أَوْ يُكْرِمَهُ أَتَمَّ كَرَامَةٍ، وَيَبِيتُ سَاهِيًا غَافِلًا، لَا يَتَذَكَّرُ مَوْقِفَهُ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ، وَلَا يَسْتَعِدُّ لَهُ، وَلَا يَأْخُذُ لَهُ أُهْبَتَهُ؟

قِيلَ: هَذَا -لَعَمْرُ اللَّهِ- سُؤَالٌ صَحِيحٌ وَارِدٌ عَلَى أَكْثَرِ هَذَا الْخَلْقِ، وَاجْتِمَاعُ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ مِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ.

وَهَذَا التَّخَلُّفُ لَهُ عِدَّةُ أَسْبَابٍ:

أَحَدُهَا: ضَعْفُ الْعِلْمِ، وَنُقْصَانُ الْيَقِينِ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْعِلْمَ لَا يَتَفَاوَتُ، فَقَوْلُهُ مِنْ أَفْسَدِ الْأَقْوَالِ وَأَبْطَلِهَا.

وَقَدْ سَأَلَ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ رَبَّهُ أَنْ يُرِيَهُ إِحْيَاءَ الْمَوْتَى عِيَانًا بَعْدَ عِلْمِهِ بِقُدْرَةِ الرَّبِّ عَلَى ذَلِكَ؛ لِيَزْدَادَ طُمَأْنِينَةً، وَيَصِيرَ الْمَعْلُومُ غَيْبًا شَهَادَةً.

وَقَدْ رَوَى أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ»(١).

فَإِذَا اجْتَمَعَ إِلَى ضَعْفِ الْعِلْمِ عَدَمُ اسْتِحْضَارِهِ، وَغَيْبَتُهُ عَنِ الْقَلْبِ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَوْقَاتِهِ أَوْ أَكْثَرِهَا؛ لِاشْتِغَالِهِ بِمَا يُضَادُّهُ، وَانْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ تَقَاضِي الطَّبْعِ، وَغَلَبَاتُ الْهَوَى، وَاسْتِيلَاءُ الشَّهْوَةِ، وَتَسْوِيلُ النَّفْسِ، وَغُرُورُ الشَّيْطَانِ، وَاسْتِبْطَاءُ الْوَعْدِ، وَطُولُ الْأَمَلِ، وَرَقْدَةُ الْغَفْلَةِ، وَحُبُّ الْعَاجِلَةِ، وَرُخَصُ التَّأْوِيلِ، وَإِلْفُ الْعَوَائِدِ؛ فَهُنَاكَ لَا يُمْسِكُ الْإِيمَانَ إِلَّا الَّذِي يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥)، وابن حبان (١٤/ ٩٦)، والحاكم (٢/ ٣٥١) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

تَزُولَا.

وَلِهَذَا السَّبَبِ يَتَفَاوَتُ النَّاسُ فِي الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْقَلْبِ.

وَجِمَاعُ هَذِهِ الْأَسْبَابِ يَرْجِعُ إِلَى ضَعْفِ الْبَصِيرَةِ وَالصَّبْرِ، وَلِهَذَا مَدَحَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَهْلَ الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ، وَجَعَلَهُمْ أَئِمَّةً فِي الدِّينِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

الشرح:

يقول -على التقدير الأول-: إذا كان الذي آثر الدنيا على الآخرة يؤمن بوعد الله، فكيف يتركه؟ كيف يترك الآجل ويأخذ العاجل مع أنه يؤمن بوعد الله؟

قال: نعم، هو يؤمن، لكن هناك عوائق، منها: فتنة الدنيا، ووساوس الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، وضعف العلم؛ كلها تحصل عند الإنسان ولو كان مؤمنًا، فيؤثر العاجل على الآجل وإن كان عنده إيمان بالآجل.

فَصْلٌ

فَقَدْ تَبَيَّنَ الْفَرْقُ بَيْنَ حُسْنِ الظَّنِّ وَالْغُرُورِ، وَأَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ إِنْ حَمَلَ عَلَى الْعَمَلِ، وَحَثَّ عَلَيْهِ، وَسَاقَ إِلَيْهِ، فَهُوَ صَحِيحٌ، وَإِنْ دَعَا إِلَى الْبِطَالَةِ وَالانْهِمَاكِ فِي الْمَعَاصِي، فَهُوَ غُرُورٌ.

وَحُسْنُ الظَّنِّ هُوَ الرَّجَاءُ، فَمَنْ كَانَ رَجَاؤُهُ حَادِيًا لَهُ إِلَى الطَّاعَةِ، زَاجِرًا لَهُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، فَهُوَ رَجَاءٌ صَحِيحٌ، وَمَنْ كَانَتْ بِطَالَتُهُ رَجَاءً، وَرَجَاؤُهُ بِطَالَةً وَتَفْرِيطًا، فَهُوَ الْمَغْرُورُ.

الشرح:

قوله: (**وَقَدْ تَبَيَّنَ الْفَرْقُ بَيْنَ حُسْنِ الظَّنِّ وَالْغُرُورِ**)، حسن الظن بالله جَلَّ وَعَلَا يكون مع عمل الأسباب، لا أن يحسن الظن فقط ويترك الأسباب، هذا هو الظن المحمود: أن تظن بربك خيرًا، وتعمل الأعمال الصالحة التي تنال بها رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ، أما الذي يحسن الظن بالله ولا يعمل، ويبارز الله بالمعاصي والمخالفات، فهذا ليس من حسن الظن وإنما من الغرور، ففرق بين الغرور وحسن الظن.

وقوله: (**فَمَنْ كَانَ رَجَاؤُهُ حَادِيًا لَهُ إِلَى الطَّاعَةِ، زَاجِرًا لَهُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، فَهُوَ رَجَاءٌ صَحِيحٌ**)، هذا ظنه صحيح ومحمود، أما الذي يعمل ما يشاء من المعاصي، ويقول: الله غفور رحيم. ولا يتوب ولا يترك المعاصي، ولا يعمل الطاعات، فهذا غرور بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فكما أنه غفور رحيم، فهو شديد العقاب: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ

لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد:٦]، ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر:٣]، فلا تأخذ جانبًا وتترك الجانب الآخر، أتأخذ المغفرة والرحمة، وتترك شدة العقاب؟! تأخذ هذا وهذا، فحسن الظن لا يقنطك من رحمة الله، والخوف من العقاب لا يتركك تعمل المعاصي وتتساهل فيها.

وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ يُؤَمِّلُ أَنْ يَعُودَ عَلَيْهِ مِنْ مُغْلِهَا مَا يَنْفَعُهُ فَأَهْمَلَهَا، وَلَمْ يَبْذُرْهَا وَلَمْ يَحْرُثْهَا، وَحَسُنَ ظَنُّهُ بِأَنَّهُ يَأْتِي مِنْ مُغْلِهَا مَا يَأْتِي مَنْ حَرَثَ وَبَذَرَ وَسَقَى وَتَعَاهَدَ الْأَرْضَ، لَعَدَّهُ النَّاسُ مِنْ أَسْفَهِ السُّفَهَاءِ.

وَكَذَلِكَ لَوْ حَسُنَ ظَنُّهُ وَقَوِيَ رَجَاؤُهُ بِأَنْ يَجِيئَهُ وَلَدٌ مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ، أَوْ يَصِيرَ أَعْلَمَ أَهْلِ زَمَانِهِ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ لِلْعِلْمِ، وَحِرْصٍ تَامٍّ عَلَيْهِ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

فَكَذَلِكَ مَنْ حَسَّنَ ظَنَّهُ وَقَوَّيَ رَجَاءَهُ فِي الْفَوْزِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَا وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، مِنْ غَيْرِ طَاعَةٍ وَلَا تَقَرُّبٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢١٨].

فَتَأَمَّلْ كَيْفَ جَعَلَ رَجَاءَهُمْ إِتْيَانَهُمْ بِهَذِهِ الطَّاعَاتِ! وَقَالَ الْمُغْتَرُّونَ: إِنَّ الْمُفَرِّطِينَ الْمُضَيِّعِينَ لِحُقُوقِ اللَّهِ، الْمُعَطِّلِينَ لِأَوَامِرِهِ، الْبَاغِينَ عَلَى عِبَادِهِ، الْمُتَجَرِّئِينَ عَلَى مَحَارِمِهِ؛ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ.

وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّ الرَّجَاءَ وَحُسْنَ الظَّنِّ إِنَّمَا يَكُونُ مَعَ الْإِتْيَانِ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي اقْتَضَتْهَا حِكْمَةُ اللَّهِ فِي شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ وَثَوَابِهِ وَكَرَامَتِهِ، فَيَأْتِي الْعَبْدُ بِهَا، ثُمَّ يُحْسِنُ ظَنَّهُ بِرَبِّهِ، وَيَرْجُوهُ أَنْ لَا يَكِلَهُ إِلَيْهَا، وَأَنْ يَجْعَلَهَا مُوصِلَةً إِلَى مَا يَنْفَعُهُ، وَيَصْرِفَ مَا يُعَارِضُهَا وَيُبْطِلَ أَثَرَهَا.

الشرح:

هذه أمثلة محسوسة: لو كان لرجل أرض زراعية، فتركها، ولم يصلحها،

ولم يبذر فيها بذرًا، ولم يغرس فيها غرسًا، وقال: هذه الأرض سوف تنبت تمرًا وحبوبًا وفواكه. وهو ما عمل فيها شيء، ماذا يعده الناس؟ لا شك أنهم يعدونه مجنونًا.

فمن أراد أن تنبت أرضه وتثمر فلابد أن يعمل الأسباب؛ فيصلحها، ويغرسها، ويرويها، ويواليها، ولا يتركها بدون عمل، وكذلك الإنسان في الحياة، حياته كأرضه، إذا أحسن الظن بالله وأخذ بالأسباب، فترك المعاصي، وعمل الطاعات، أثمرت رضا الله والجنة، أما أن يترك الأعمال الصالحات، ويقيم على المعاصي، ويقول: أنا أحسن الظن بالله، فهذا جنون وحمق.

كذلك من الأمثلة المحسوسة: الذي يرجو الذرية ولا يتزوج، كيف تأتيه الذرية وهو لم يتزوج؟! لأن الزواج سبب للذرية، فإذا أعرض عن الزواج وقال: إن كان الله قسم لي ذرية فستأتيني لا محالة. فهو أحمق، لا بد له أن يتزوج ويعمل السبب حتى تأتيه الذرية؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا ربط الأشياء بأسبابها.

فهذا مثل الآخرة، فلا يحصل العبد في الآخرة على الدرجات العلا والنعيم المقيم إلا بالعمل الصالح والإقلاع عن المعاصي، والتوبة إلى الله، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ دليل على أن حسن الظن لا يكفي، بل لا بد معه من العمل؛ لأن المؤمنين ما صاروا يرجون رحمة الله وتركوا الهجرة، وتركوا الجهاد، وتركوا العمل الصالح، بل لما رجوا الله لم يقتصروا على الرجاء، وإنما قدموا من الأعمال ما يحقق لهم رجاءهم.

أما المفرطون المضيعون لحقوق الله فيعملون بعكس الآية، فيزعمون أنهم يرجون رحمة الله، ولا يمنعهم ذلك من البغي، والعدوان، والكفر، وفعل الفواحش! وهذا غرور والعياذ بالله.لو كانوا يرجون رحمة الله لتركوا ما نهى الله عنه، وأتوا بأوامره تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

فالرجاء له أسباب، والعقوبة لها أسباب، فإذا كنت ترجو فاعمل الأسباب الصالحة، وتجنب الأسباب السيئة، وإلا مجرد الرجاء هذا لا يفيدك شيئًا. ولهذا رد الفقهاء والعلماء على المرجئة الذين يقولون: إن إيمان العبد يكفي ولو لم يعمل؛ لأن الأعمال ليست ضرورية، وليست سببًا في دخول الجنة! يا سبحان الله! الإيمان بدون عمل ليس إيمانًا، لا بد أن يكون الإيمان مصحوبًا بالعمل وإلا لم يكن إيمانًا، فلا إيمان بدون عمل، ولا عمل بدون إيمان، فهما متلازمان.

وقوله: **(فَيَأْتِي الْعَبْدُ بِهَا ثُمَّ يُحْسِنُ ظَنَّهُ بِرَبِّهِ، وَيَرْجُوهُ أَنْ لَا يَكِلَهُ إِلَيْهَا)** أي: يجمع بين الأسباب والتوكل على الله، وهذا هو الطريق الصحيح، أما الاقتصار على التوكل وترك الأسباب هذا غلط، كذلك العكس وهو الاعتماد على الأسباب وترك التوكل على الله هذا غلط أيضًا، فلا بد من الجمع بين التوكل على الله وفعل الأسباب.

فَصْلٌ

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ مَنْ رَجَا شَيْئًا اسْتَلْزَمَ رَجَاؤُهُ أُمُورًا:

أَحَدُهَا: مَحَبَّةُ مَا يَرْجُوهُ.

الثَّانِي: خَوْفُهُ مِنْ فَوَاتِهِ.

الثَّالِثُ: سَعْيُهُ فِي تَحْصِيلِهِ بِحَسْبِ الْإِمْكَانِ.

وَأَمَّا رَجَاءٌ لَا يُقَارِنُهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، فَهُوَ مِنْ بَابِ الْأَمَانِيِّ، وَالرَّجَاءُ شَيْءٌ وَالْأَمَانِيُّ شَيْءٌ آخَرُ، فَكُلُّ رَاجٍ خَائِفٌ، وَالسَّائِرُ عَلَى الطَّرِيقِ إِذَا خَافَ أَسْرَعَ السَّيْرَ مَخَافَةَ الْفَوَاتِ.

الشرح:

من رجا شيئًا لا بد له من ثلاثة أمور:

الأول: أن يحب هذا الشيء، فإذا كان لا يحبه فإنه لا يسعى في تحصيله.

الثاني: أن يخاف من فواته، فلذلك يبادر بطلبه.

الثالث: أن يسعى في تحصيله.

فإذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة مع الرجاء فهو على الطريق الصحيح، **(وَأَمَّا رَجَاءٌ لَا يُقَارِنُهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، فَهُوَ مِنْ بَابِ الْأَمَانِيِّ)**، والأماني لا قيمة لها، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ»** يعني: حاسب نفسه، **«وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ»**[1]. أي: يريد الجنة، ولا يعمل أعمالًا صالحة، ولا يترك الأعمال السيئة.

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٩١).

وَفِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ»(١).

وَهُوَ سُبْحَانَهُ كَمَا جَعَلَ الرَّجَاءَ لِأَهْلِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَكَذَلِكَ جَعَلَ الْخَوْفَ لِأَهْلِ الْأَعْمَالِ، فَعُلِمَ أَنَّ الرَّجَاءَ وَالْخَوْفَ النَّافِعَ مَا اقْتَرَنَ بِهِ الْعَمَلُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون:٥٧ - ٦١].

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقُلْتُ: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَزْنُونَ وَيَسْرِقُونَ؟ فَقَالَ: «لَا يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَيَخَافُونَ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ»(٢).

وَقَدْ رُوِيَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَيْضًا(٣).

الشرح:

الذي يرجو الجنة يخاف من فواتها، ولذلك يبادر بالأعمال الصالحة والموصلة إليها، ولا يتكاسل ويقول: أنا أريد الجنة. وهو لا يعمل شيئًا.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وأحمد (٦/ ١٥٩)، والحاكم (٢/ ٤٢٧).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ٣٣)، والطبراني في الأوسط (٤/ ١٩٨).

وأهل الإيمان يجمعون بين الخوف والرجاء، فيخافون الله ويرجونه، كما ذكر الله عن أنبيائه: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة:١٦]، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء:٥٧]، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠]، رغبًا: هذا الرجاء، ورهبًا: هذا الخوف، هؤلاء هم أهل الإيمان الذين يجمعون بين الخوف والرجاء.

أما الذي يأخذ الرجاء فقط فهذا مرجئ، والذي يأخذ الخوف فقط فهذا من الخوارج.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ من الطاعات وهم يخافون من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ لا يعتمدون على أعمالهم، بل يخافون من الله جَلَّ وَعَلَا، فهم يجمعون بين الخوف والرجاء، ولا يعطلون الأعمال، بل يعملون هذه الأعمال الجليلة.

وقد سألت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذه الآية، فقالت: «أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَزْنُونَ وَيَسْرِقُونَ؟»، فقال لها: **«لَا يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَيَخَافُونَ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْهُمْ»**، أي: يعملون الصالحات، ويخافون أن تُرد عليهم أعمالهم ولا تُقبل.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَصَفَ أَهْلَ السَّعَادَةِ بِالْإِحْسَانِ مَعَ الْخَوْفِ، وَوَصَفَ الْأَشْقِيَاءَ بِالْإِسَاءَةِ مَعَ الْأَمْنِ، وَمَنْ تَأَمَّلَ أَحْوَالَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَجَدَهُمْ فِي غَايَةِ الْعَمَلِ مَعَ غَايَةِ الْخَوْفِ، وَنَحْنُ جَمِيعًا بَيْنَ التَّقْصِيرِ -بَلِ التَّفْرِيطِ- وَالْأَمْنِ.

فَهَذَا الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «وَدِدْتُ أَنِّي شَعْرَةٌ فِي جَنْبِ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ»، ذَكَرَهُ أَحْمَدُ عَنْهُ[1].

وَذَكَرَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَمْسِكُ بِلِسَانِهِ وَيَقُولُ: «هَذَا أَوْرَدَنِي الْمَوَارِدَ»[2].

وَكَانَ يَبْكِي كَثِيرًا، وَيَقُولُ: «ابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكُوا»[3].

وَكَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ كَأَنَّهُ عُودٌ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ[4].

وَأُتِيَ بِطَائِرٍ فَقَلَبَهُ ثُمَّ قَالَ: «مَا صِيدَ مِنْ صَيْدٍ، وَلَا قُطِعَتْ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرَةٍ، إِلَّا بِمَا ضَيَّعَتْ مِنَ التَّسْبِيحِ»[5].

وَلَمَّا احْتَضَرَ قَالَ لِعَائِشَةَ: «يَا بُنَيَّةُ، إِنِّي أَصَبْتُ مِنْ مَالِ الْمُسْلِمِينَ هَذِهِ الْعَبَاءَةَ وَهَذِهِ الْحِلَابَ وَهَذَا الْعَبْدَ، فَأَسْرِعِي بِهِ إِلَى ابْنِ الْخَطَّابِ»[6].

وَقَالَ: «وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ هَذِهِ الشَّجَرَةَ، تُؤْكَلُ وَتُعْضَدُ»[7].

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٥٥٩).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (٥٦١).

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (٥٥٨).

(٤) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٢٠٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ١٢٥)، وابن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٩١).

(٥) أخرجه أحمد في الزهد (٥٦٦).

(٦) أخرجه أحمد في الزهد (٥٦٧).

(٧) أخرجه أحمد في الزهد (٥٨٠).

وَقَالَ قَتَادَةُ: بَلَغَنِي أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ: «لَيْتَنِي خُضْرَةٌ تَأْكُلُنِي الدَّوَابُّ»(١).

الشرح:

قوله: **(وَمَنْ تَأَمَّلَ أَحْوَالَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَجَدَهُمْ فِي غَايَةِ الْعَمَلِ مَعَ غَايَةِ الْخَوْفِ)** الصحابة كانوا على هذا المنوال، يخافون الله جَلَّ وَعَلَا، ويرجون رحمته، فلذلك قاموا بالهجرة، والجهاد، وإنفاق الأموال، وقاموا بالأعمال الصالحة الشاقة، ولم يقتصروا على صحبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقولون: نحن أفضل الأمة، ويتركون الأعمال، بل هم أسبق الناس إلى الأعمال الصالحة، وأشد الناس خوفًا من الله، وأكثر الناس رجاءً لرحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهذا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع صحبته لرسول الله وفضله، وسابقته في الإسلام، وأعماله الجليلة، يقول هذه المقالة من شدة الخوف، لم يعتمد على أعماله ويقول: أنا فعلت كذا وعملت كذا، بل يخاف الله عَزَّ وَجَلَّ ويرجو رحمته.

ومع أعماله الجليلة وفضله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان عند الموت أشد خوفًا، وبادر بأداء ما عنده من بيت المال؛ خشية أن يموت وعنده شيء من أموال المسلمين، وهذا من شدة خوفه من الله جَلَّ وَعَلَا.

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٥٨٢).

وَهَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَرَأَ سُورَةَ الطُّورِ إِلَى أَنْ بَلَغَ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور:٧]، فَبَكَى وَاشْتَدَّ بُكَاؤُهُ حَتَّى مَرِضَ وَعَادُوهُ(١).

وَقَالَ لِابْنِهِ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ: «وَيْحَكَ، ضَعْ خَدِّي عَلَى الْأَرْضِ عَسَاهُ أَنْ يَرْحَمَنِي»، ثُمَّ قَالَ: «وَيْلُ أُمِّي، إِنْ لَمْ يَغْفِرْ لِي» ثَلَاثًا، ثُمَّ قُضِيَ(٢).

وَكَانَ يَمُرُّ بِالْآيَةِ فِي وِرْدِهِ بِاللَّيْلِ فَتُخِيفُهُ، فَيَبْقَى فِي الْبَيْتِ أَيَّامًا يُعَادُ، يَحْسَبُونَهُ مَرِيضًا(٣).

وَكَانَ فِي وَجْهِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَطَّانِ أَسْوَدَانِ مِنَ الْبُكَاءِ(٤).

وَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَصَّرَ اللَّهُ بِكَ الْأَمْصَارَ، وَفَتَحَ بِكَ الْفُتُوحَ، وَفَعَلَ وَفَعَلَ، فَقَالَ: «وَدِدْتُ أَنِّي أَنْجُو لَا أَجْرَ وَلَا وِزْرَ»(٥).

وَهَذَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ إِذَا وَقَفَ عَلَى الْقَبْرِ يَبْكِي حَتَّى يَبِلَّ

---

(١) لم أقف عليه مسندًا.

وقد أخرج ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (ص٩٤): عَنِ الشَّعْبِيِّ، قَالَ: سَمِعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾، فَجَعَلَ يَبْكِي حَتَّى اشْتَدَّ بُكَاؤُهُ. ثُمَّ خَرَّ يَضْطَرِبُ. فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: «دَعُونِي، فَإِنِّي سَمِعْتُ قَسَمَ حَقٍّ مِنْ رَبِّي». وفي هذه الرواية نكارة، فلم يثبت عن أحد من الصحابة الصعق والسقوط والغشي عند سماع القرآن. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في منهاج السنة النبوية (٥/٣٥٦): «والسابقون الأولون هم أفضل، وما أصاب أحدًا منهم هذا الفناء، ولا صعق ولا موت عند سماع القرآن، وإنما تجد هذا الصعق في التابعين».

(٢) أخرجه أبو داود في الزهد (٤٤، ٤٦)، وابن أبي الدنيا في المحتضرين (ص٥٥).

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (٦٢٧).

(٤) أخرجه أحمد في الزهد (٦٣٦).

(٥) أخرجه أحمد في الزهد (٦٩٧).

لِحْيَتُهُ[(١)]، وَقَالَ: «لَوْ أَنَّنِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ لَا أَدْرِي إِلَى أَيَّتِهِمَا يُؤْمَرُ بِي، لَاخْتَرْتُ أَنْ أَكُونَ رَمَادًا قَبْلَ أَنْ أَعْلَمَ إِلَى أَيِّهِمَا أَصِيرُ»[(٢)].

وَهَذَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَبُكَاؤُهُ وَخَوْفُهُ، وَكَانَ يَشْتَدُّ خَوْفُهُ مِنِ اثْنَتَيْنِ: طُولِ الْأَمَلِ، وَاتِّبَاعِ الْهَوَى. قَالَ: «فَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ، وَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ مُدْبِرَةً، وَالْآخِرَةَ مُقْبِلَةٌ، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونُ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابٌ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ»[(٣)].

وَهَذَا أَبُو الدَّرْدَاءِ كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ أَشَدَّ مَا أَخَافُ عَلَى نَفْسِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يُقَالَ لِي: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ، قَدْ عَلِمْتَ، فَكَيْفَ عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟»[(٤)].

وَكَانَ يَقُولُ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَنْتُمْ لَاقُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ لَمَا أَكَلْتُمْ طَعَامًا عَلَى شَهْوَةٍ، وَلَا شَرِبْتُمْ شَرَابًا عَلَى شَهْوَةٍ، وَلَا دَخَلْتُمْ بَيْتًا تَسْتَظِلُّونَ فِيهِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَضْرِبُونَ صُدُورَكُمْ، وَتَبْكُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُعْضَدُ ثُمَّ تُؤْكَلُ»[(٥)].

وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ أَسْفَلُ عَيْنَيْهِ مِثْلُ الشِّرَاكِ الْبَالِي مِنَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٨)، وابن ماجه (٤٢٦٧)، وأحمد (١/ ٦٣).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (٦٨٥).

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (٦٩٢)، وأبو داود في الزهد (١١٣)، وابن المبارك في الزهد (٢٥٥)، وعلقه البخاري جازمًا به في صحيحه، كتاب الرقاق، باب: في الأمل وطوله، قبل حديث رقم (٦٤١٧).

(٤) أخرجه أحمد في الزهد (٧٣٠).

(٥) أخرجه أحمد في الزهد (٧٣٠).

الدُّمُوعِ(١).

وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ يَقُولُ: «يَا لَيْتَنِي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ، وَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أُخْلَقْ»(٢).

وَعُرِضَتْ عَلَيْهِ النَّفَقَةُ، فَقَالَ: «عِنْدَنَا عَنْزٌ نَحْلِبُهَا، وَأَحْمِرَةٌ نَنْقُلُ عَلَيْهَا، وَمُحَرَّرٌ يَخْدِمُنَا، وَفَضْلُ عَبَاءَةٍ، وَإِنِّي أَخَافُ الْحِسَابَ فِيهَا»(٣).

وَقَرَأَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ لَيْلَةً سُورَةَ الْجَاثِيَةِ، فَلَمَّا أَتَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١] جَعَلَ يُرَدِّدُهَا وَيَبْكِي حَتَّى أَصْبَحَ(٤).

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ عَامِرُ بْنُ الْجَرَّاحِ: «وَدِدْتُ أَنِّي كَبْشٌ فَذَبَحَنِي أَهْلِي، وَأَكَلُوا لَحْمِي، وَحَسُوا مَرَقِي»(٥).

وَهَذَا بَابٌ يَطُولُ تَتَبُّعُهُ.

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ: «بَابُ خَوْفِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يُحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ: مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذِّبًا. وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ

---

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على الزهد (٧٨٣).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (٧٨٧).

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (٧٨٦).

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣١)، وأبو داود في الزهد (١٥٠).

(٥) أخرجه أحمد في الزهد (١٠٢٥).

وَمِيكَائِيلَ. وَيُذْكَرُ عَنِ الْحَسَنِ: «مَا خَافَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا أَمِنَهُ إِلَّا مُنَافِقٌ»(١).

الشرح:

وهذا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال هذه المقالة عند الموت، وخوفه من الله عَزَّ وَجَلَّ، مع ما له من الفضل والمكانة، والجهاد في سبيل الله، والهجرة، والسابقة في الإسلام، وما قال: أنا قدمت من الأعمال ما قدمت، ولا أخاف أن ألقى الله وأقف بين يديه بعد الممات.

وهذا عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من فطنته يخاف على من بعده طول الأمل واتباع الهوى، ويوصيهم بهذه الوصية جليلة المعاني واضحة الألفاظ.

وهذه كلها نماذج من خوف الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لم يُعجبوا بأنفسهم وأعمالهم، وإنما مع رجاء أعمالهم الجليلة يخافون من الله عَزَّ وَجَلَّ.

فلا يأمن الإنسان ولو كانت أعماله جليلة، فكيف بالمقصر الذي أعماله قليلة، أو ليس عنده أعمال، ولا يخاف من الله عَزَّ وَجَلَّ؟!

وقد بوب البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه في مسألة خوف المؤمن، فقال: **(بَابُ خَوْفِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يُحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ)**، يعني: يبطل عمله وهو لا يدري، وهذا خطر عظيم؛ لأنه إذا كان يدري يتجنب المحبطات، لكن المشكلة إذا صار لا يدري.

وهذا مما يؤكد على المؤمن أن يتعلم وأن يتفقه في دين الله عَزَّ وَجَلَّ، ومحبطات العمل كثيرة؛ أخطرها وأعظمها: الشرك الأصغر، فالشرك الأكبر

---

(١) صحيح البخاري (١/١٨) قبل حديث رقم (٤٨).

يعرفه الناس ويتجنبه من هداه الله، لكن الشرك الأصغر الخفي هو أخوف ما يُخاف على المؤمن منه.

ولهذا خافه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أصحابه، وقال: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟**»، قَالوا: بَلَى، فَقَالَ: «**الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ**»(١). يعني: أنه يرائي بأعماله، ويحب أن يمدحه الناس على أعماله، وأن يثنوا عليه، وعلى صدقته وعلى تبرعاته. فهذا ليس له أجر عند الله ويحبط عمله؛ لأنه ما عمل لوجه الله وإنما عمل للرياء.

وهذا قلَّ من يسلم منه، الشرك الأكبر يسلم منه المؤمن، لكن الشرك الأصغر قل من يسلم منه؛ لأنه خفي، ومن محبطات العمل؛ كمن يتصدق ويمن في صدقته: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، يعني: يعطي الفقير أو السائل أو المحتاج ثم يتمنن عليه، أو يؤذيه ويتطاول عليه ويحتقره، وهذا من مبطلات الأعمال، أو أن يمن بعمله على الله، ويزكي نفسه ويرى أنه رجل صالح، فهذا أيضًا يبطل العمل.

كذلك مما يبطل العمل أو يذهب بثوابه لا يبطله: الظلم، إذا ظلمت الناس في أموالهم أو في أعراضهم أو في أنفسهم فإنهم يقتصون يوم القيامة من أعمالك الصالحة، فيأخذون ثوابها مقابل مظالمهم؛ فأنت تتعب والثواب لغيرك.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ومن ذلك أيضًا: الغيبة والنميمة التي يتساهل الناس فيها، فيُقتص من المغتاب يوم القيامة، وكذلك الحسد، «**فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ**»(١)، وكون الإنسان يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ويتمنى زوال النعم عنهم، فهذا قد يؤدي إلى ارتكاب المعاصي.

فالذي منع اليهود من الإيمان برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الحسد، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩]، وهم يعرفون أنه رسول الله، فالحسد منعهم من الإيمان وأبقاهم على الكفر، والحسد حمل ابن آدم على قتل أخيه، وقبل ذلك الحسد حمل إبليس على أن يتكبر على آدم، فطرده الله وأبعده.

فهذه أمور يبطل بها العمل، أو تذهب بثوابه، فعلى الإنسان وهو يحرص على أن يعمل ويتقرب إلى الله أن يتجنب مبطلات الأعمال.

كذلك ينبغي للإنسان أن يعرض قوله على عمله، ويكون حريصًا على أن يصدق عمله قوله، فلا يأمر الناس بالخير والبر وهو لا يعمل بما يأمرهم به، فهذا أيضًا مذموم، قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٤٤].

وقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يخافون على أنفسهم من النفاق، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ،**

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[١]. فكان أحدهم يخاف على نفسه من النفاق، أو أن يكون فيه خصلة من خصال المنافقين، وكانوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتهمون أنفسهم، ولا يدَّعون كمال الإيمان، كإيمان الملائكة، وإنما يخافون على إيمانهم من النقص، وإذا خاف الإنسان شيئًا حذر منه وتركه، أما إذا لم يخف وقع فيه، ولا يخاف النفاق إلا مؤمن، ولا يأمنه إلا منافق.

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَقُولُ لِحُذَيْفَةَ: «أَنْشُدُكَ اللَّهَ، هَلْ سَمَّانِي لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ»، يَعْنِي فِي الْمُنَافِقِينَ، فَيَقُولُ: لَا، وَلَا أُزَكِّي بَعْدَكَ أَحَدًا(١).

فَسَمِعْتُ شَيْخَنَا رَحِمَهُٱللَّهُ يَقُولُ: لَيْسَ مُرَادُهُ أَنِّي لَا أُبْرِئُ غَيْرَكَ مِنَ النِّفَاقِ، بَلِ الْمُرَادُ: لَا أَفْتَحُ عَلَى نَفْسِي هَذَا الْبَابَ، فَكُلُّ مَنْ سَأَلَنِي هَلْ سَمَّانِي لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَأُزَكِّيهِ.

قُلْتُ: وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لِلَّذِي سَأَلَهُ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ»(٢). وَلَمْ يُرِدْ أَنَّ عُكَاشَةَ وَحْدَهُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِمَّنْ عَدَاهُ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَلَكِنْ لَوْ دَعَا لَهُ لَقَامَ آخَرُ وَآخَرُ وَانْفَتَحَ الْبَابُ، وَرُبَّمَا قَامَ مَنْ لَمْ يَسْتَحِقَّ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ، فَكَانَ الْإِمْسَاكُ أَوْلَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الشرح:

حذيفة بن اليمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ صاحب سر رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، كان يفضي إليه بالأسرار ويخبره عن المنافقين.

وعمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ثاني الخلفاء الراشدين، سأل حذيفة: هل

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٤٨١)، وأبو بكر الخلال في السنة (٤/ ١١١) عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ، قَالَ: «مَاتَ رَجُلٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ حُذَيْفَةُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَمِنَ الْقَوْمِ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: بِاللَّهِ، مِنْهُمْ أَنَا؟ قَالَ: لَا، وَلَنْ أُخْبِرَ بِهِ أَحَدًا بَعْدَكَ».

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٤٢)، ومسلم (٢١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

عـدَّني رسـول الله مـن المنـافقين؟ خـاف عـلى نفسه مـن النفـاق، وهـو عمـر الفـاروق، صـاحب الفـضل والسبق في الإسـلام، فقـال: **(لَا، وَلَا أُزَكِّي بَعْدَكَ أَحَدًا)**، قـال شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لـيس معنـاه أن حذيفـة يـتهم الـصحابة كلـهم، وأنه لا يزكي أحدًا منهم غير عمر، ولكن المعنى أنه لـن يُخبر أحدًا غيره بسر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهـذا كـما في حـديث أبي هريـرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قـال: «يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ»، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ الأَسَدِيُّ يَرْفَعُ نَمِرَةً عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: **«اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ»**، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: **«سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»**. فأغلق صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الباب؛ لئلا يقوم من ليس أهلًا لأن يكون من الـسبعين، ولكـن بحسن عبـارة، مـا قـال لـه: لا تـستحق، أو لـست أهـلاً لـذلك؛ لئلاً يكسر خـاطره، وإنـما قـال: **«سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»**، فلـم يخدشـه، وإنـما أتـى بكلمة طيبت نفسه.

وليس المعنى أنه لن يكون من السبعين ألفًا إلا عكاشة، بل سيكون منهم غيره أيضًا، ولكـن الرسـول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يخبرهـم بـذلك لـئلا يحملهـم عـلى الاتكال، أو يخبر من ليس أهلًا لهذه المنزلة، فأغلق هذا الباب لأجل ذلك.

فَصْلٌ

فَلْنَرْجِعْ إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ مِنْ ذِكْرِ دَوَاءِ الدَّاءِ الَّذِي إِنِ اسْتَمَرَّ أَفْسَدَ دُنْيَا الْعَبْدِ وَآخِرَتَهُ.

فَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ الذُّنُوبَ وَالْمَعَاصِيَ تَضُرُّ وَلَا بُدَّ، وَأَنَّ ضَرَرَهَا فِي الْقَلْبِ كَضَرَرِ السُّمُومِ فِي الْأَبْدَانِ، عَلَى اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهَا فِي الضَّرَرِ، وَهَلْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ شَرٌّ وَدَاءٌ إِلَّا وَسَبَبُهُ الذُّنُوبُ وَالْمَعَاصِي؟.

فَمَا الَّذِي أَخْرَجَ الْأَبَوَيْنِ مِنَ الْجَنَّةِ دَارِ اللَّذَّةِ وَالنَّعِيمِ وَالْبَهْجَةِ وَالسُّرُورِ إِلَى دَارِ الْآلَامِ وَالْأَحْزَانِ وَالْمَصَائِبِ؟

وَمَا الَّذِي أَخْرَجَ إِبْلِيسَ مِنْ مَلَكُوتِ السَّمَاءِ، وَطَرَدَهُ وَلَعَنَهُ، وَمَسَخَ ظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ، فَجَعَلَ صُورَتَهُ أَقْبَحَ صُورَةٍ وَأَشْنَعَهَا، وَبَاطِنَهُ أَقْبَحَ مِنْ صُورَتِهِ وَأَشْنَعَ؟ وَبُدِّلَ بِالْقُرْبِ بُعْدًا، وَبِالرَّحْمَةِ لَعْنَةً، وَبِالْجَمَالِ قُبْحًا، وَبِالْجَنَّةِ نَارًا تَلَظَّى، وَبِالْإِيمَانِ كُفْرًا، وَبِمُوَالَاةِ الْوَلِيِّ الْحَمِيدِ أَعْظَمَ عَدَاوَةٍ وَمُشَاقَّةٍ، وَبِزَجَلِ التَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ وَالتَّهْلِيلِ زَجَلَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ وَالْكَذِبِ وَالزُّورِ وَالْفُحْشِ، وَبِلِبَاسِ الْإِيمَانِ لِبَاسَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، فَهَانَ عَلَى اللَّهِ غَايَةَ الْهَوَانِ، وَسَقَطَ مِنْ عَيْنِهِ غَايَةَ السُّقُوطِ، وَحَلَّ عَلَيْهِ غَضَبُ الرَّبِّ تَعَالَى فَأَهْوَاهُ، وَمَقَتَهُ أَكْبَرَ الْمَقْتِ فَأَرْدَاهُ، فَصَارَ قَوَّادًا لِكُلِّ فَاسِقٍ وَمُجْرِمٍ، رَضِيَ لِنَفْسِهِ بِالْقِيَادَةِ بَعْدَ تِلْكَ الْعِبَادَةِ وَالسِّيَادَةِ، فَعِيَاذًا بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِكَ وَارْتِكَابِ نَهْيِكَ.

الشرح:

الداء هو: الذنوب، فما هو دواؤه؟.

ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الذنوب لا بد أن تضر، وضررها على قسمين:

الأول: ضرر القلوب، وهذا أشد؛ لأنها تؤثر في القلوب بالنفاق والقسوة والغفلة، وقد يكفر الإنسان بسببها، فيفسد قلبه نهائيًّا بسبب الذنوب.

والثاني: ضرر في الأبدان والأموال، فما يقع في الأرض من مصيبة، ونقص في الأموال، ونقص في الأنفس، وانحباس الأمطار وقلة المياه، وفساد الثمار، إلا بسبب الذنوب والمعاصي، والدليل على ذلك أن الله أهلك الأمم السابقة بسبب الذنوب.

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقال عَزَّوَجَلَّ في الآية الأخرى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٩]، أي: بسبب نفسك.

قوله: **(فَمَا الَّذِي أَخْرَجَ الْأَبَوَيْنِ مِنَ الْجَنَّةِ)**، الذي أخرجهما ذنب واحد: لمَّا نهاهما الله عن الأكل من الشجرة أغواهم الشيطان فأكلا منها، فأخرجهما من الجنة، ثم تابا إلى الله فغفر الله لهما، ولكنه أخرجهما من الجنة بسبب هذا الذنب.

وقوله: **(وَمَا الَّذِي أَخْرَجَ إِبْلِيسَ مِنْ مَلَكُوتِ السَّمَاءِ)**، كان إبليس مع الملائكة من العباد في السماء، فلما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم حسده وامتنع من السجود، وعصى الله، فطرده الله ولعنه وأبعده وأهبطه إلى الأرض،

وجعل الذلة والصغار عليه بسبب أنه لم يمتثل أمر الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: **(فَجَعَلَ صُورَتَهُ أَقْبَحَ صُورَةٍ وَأَشْنَعَهَا، وَبَاطِنَهُ أَقْبَحَ مِنْ صُورَتِهِ وَأَشْنَعَ)** إلى آخره، هذه أوصاف إبليس، والسبب في ذلك معصيته لأمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، الملائكة امتثلت وسجدت، وهو أبى واستكبر وعصى، فأبعده الله وطرده من الجنة، فصار بهذه الصفات القبيحة والشنيعة، بل صار قوادًا يقود الناس إلى المعاصي.

وقوله: **(فَعِيَاذًا بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِكَ وَارْتِكَابِ نَهْيِكَ)**، وكم نخالف من أوامر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؟ فعلى الإنسان أن يفكر ويخشى على نفسه عاقبة مخالفة أوامر الله، وارتكاب ما نهى عنه جَلَّ وَعَلَا.

وَمَا الَّذِي غَرَّقَ أَهْلَ الْأَرْضِ كُلَّهُمْ حَتَّى عَلاَ الْمَاءُ فَوْقَ رَأْسِ الْجِبَالِ؟

وَمَا الَّذِي سَلَّطَ الرِّيحَ الْعَقِيمَ عَلَى قَوْمِ عَادٍ حَتَّى أَلْقَتْهُمْ مَوْتَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٌ، وَدَمَّرَتْ مَا مَرَّتْ عَلَيْهِ مِنْ دِيَارِهِمْ وَحُرُوثِهِمْ وَزُرُوعِهِمْ وَدَوَابِّهِمْ، حَتَّى صَارُوا عِبْرَةً لِلأُمَمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟

وَمَا الَّذِي أَرْسَلَ عَلَى قَوْمِ ثَمُودَ الصَّيْحَةَ حَتَّى قَطَعَتْ قُلُوبَهُمْ فِي أَجْوَافِهِمْ، وَمَاتُوا عَنْ آخِرِهِمْ؟

وَمَا الَّذِي رَفَعَ قُرَى اللُّوطِيَّةِ حَتَّى سَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ نَبِيحَ كِلَابِهِمْ، ثُمَّ قَلَبَهَا عَلَيْهِمْ، فَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا، فَأَهْلَكَهُمْ جَمِيعًا، ثُمَّ أَتْبَعَهُمْ حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَمْطَرَهَا عَلَيْهِمْ، فَجَمَعَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا لَمْ يَجْمَعْهُ عَلَى أُمَّةٍ غَيْرِهِمْ؟ وَلِإِخْوَانِهِمْ أَمْثَالُهَا، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ.

وَمَا الَّذِي أَرْسَلَ عَلَى قَوْمِ شُعَيْبٍ سَحَابَ الْعَذَابِ كَالظُّلَلِ، فَلَمَّا صَارَ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ أَمْطَرَ عَلَيْهِمْ نَارًا تَلَظَّى؟

وَمَا الَّذِي أَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ نُقِلَتْ أَرْوَاحُهُمْ إِلَى جَهَنَّمَ، فَالْأَجْسَادُ لِلْغَرَقِ، وَالْأَرْوَاحُ لِلْحَرْقِ؟

وَمَا الَّذِي خَسَفَ بِقَارُونَ وَدَارِهِ وَمَالِهِ وَأَهْلِهِ؟

وَمَا الَّذِي أَهْلَكَ الْقُرُونَ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ بِأَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ، وَدَمَّرَهَا تَدْمِيرًا؟

وَمَا الَّذِي أَهْلَكَ قَوْمَ صَاحِبِ يس بِالصَّيْحَةِ حَتَّى خَمَدُوا عَنْ آخِرِهِمْ؟

وَمَا الَّذِي بَعَثَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ قَوْمًا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وَقَتَلُوا الرِّجَالَ، وَسَبَوُا الذُّرِّيَّةَ وَالنِّسَاءَ، وَأَحْرَقُوا الدِّيَارَ، وَنَهَبُوا الْأَمْوَالَ، ثُمَّ بَعَثَهُمْ عَلَيْهِمْ مَرَّةً ثَانِيَةً، فَأَهْلَكُوا مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ، وَتَبَّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا؟

وَمَا الَّذِي سَلَّطَ عَلَيْهِمْ أَنْوَاعَ الْعُقُوبَاتِ، مَرَّةً بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَخَرَابِ الْبِلَادِ، وَمَرَّةً بِجَوْرِ الْمُلُوكِ، وَمَرَّةً بِمَسْخِهِمْ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ؟ وَآخِرُ ذَلِكَ أَقْسَمَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف:١٦٧].

الشرح:

قوله: **(وَمَا الَّذِي غَرَّقَ أَهْلَ الْأَرْضِ كُلَّهُمْ)**، هذا في قوم نوح.

وقوله: **(وَمَا الَّذِي سَلَّطَ الرِّيحَ الْعَقِيمَ عَلَى قَوْمِ عَادٍ)**، مع قوتهم وكبر أجسامهم: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، فسلط الله عليهم ريحًا أهلكتهم، ودمرت منازلهم، وحملتهم إلى الجو ثم ردتهم على رؤوسهم فدقت أعناقهم؛ حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية، بسبب كفرهم، واستكبارهم، وعصيانهم أمر الله.

وقوله: **(وَمَا الَّذِي أَرْسَلَ عَلَى قَوْمِ ثَمُودَ الصَّيْحَةَ)**، يعني: الصاعقة، صاح فيهم جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فهلكوا جميعًا: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾، صيحة واحدة ما هي بصيحات؛ لأنهم لا يتحملون، ﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر:٣١]، لم يمتثلوا لأمر الله فعاقبهم أشنع عقوبة.

وقوله: **(وَمَا الَّذِي رَفَعَ قُرَى اللُّوطِيَّةِ)** الذين كانوا يأتون الذكران ويذرون ما خلق لهم ربهم من أزواجهم **(حَتَّى سَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ نَبِيحَ كِلَابِهِمْ)**، عاقبهم بسبب هذه المعصية بأن رفع ديارهم إلى الجو، ثم قلبها عليهم، وأتبعهم بحجارة من سجيل.

وقوله: **(وَلِإِخْوَانِهِمْ أَمْثَالُهَا)**، يعني: إخوانهم من اللوطية الذين يأتون هذه الجريمة لهم أمثالها، ولهذا قال الله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٣]، وما يحصل الآن في العالم من الأمراض المستعصية مثل المرض الذي يسمونه (فقد المناعة) هذا بسبب جريمة اللواط والزنا والعياذ بالله.

وقوله: **(وَمَا الَّذِي أَرْسَلَ عَلَى قَوْمِ شُعَيْبٍ سَحَابَ الْعَذَابِ كَالظُّلَلِ)**، قوم شعيب أصحاب مدين عصوا نبيهم شعيبًا، فظللتهم سحابة ظنوا أن فيها مطرًا، فخرجوا إليها فأخذهم العذاب: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءِۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف:٢٤، ٢٥]، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٨٩].

وقوله: **(وَمَا الَّذِي أَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ فِي الْبَحْرِ)**، كذلك فرعون وقومه الذين تكبروا على موسى، ومن معه من بني إسرائيل، أغرقهم الله في البحر، دخلوا فيه وهو يابس: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٧، ٧٨]، فأطبقه الله عليهم، ونجى موسى وقومه، بسبب أنهم عصوا نبيهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصاروا مع فرعون الذي قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، فماذا كانت عاقبته؟ ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْأٓخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات:٢٤، ٢٥].

وقوله: **(وَمَا الَّذِي خَسَفَ بِقَارُونَ وَدَارِهِ وَمَالِهِ وَأَهْلِهِ)**، قارون أُعجب

بعطاء الله؛ وقد أعطاه الله من الكنوز الشيء الكثير، فنصحه قومه أن لا يتكبر وألا يغتر بهذه النعمة، وأن يعرف حق الله فيها، ولكنه جحد نعمة الله، وقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص:٧٨]، يعني: إنما حصلته بقوتي وكسبي ومهارتي، وجحد أنه من الله جَلَّوَعَلَا. وقيل: إن قوله: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ يعني: أن الله علم أنه يستحق هذا، وقيل: يعني: إنما اكتسبته عن خبرة بالمكاسب، فلم ينسبه إلى ربه ويقول: هذا من فضل الله؛ فعاقبه الله جَلَّوَعَلَا بهذه العقوبة: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١].

وقوله: **(وَمَا الَّذِي أَهْلَكَ الْقُرُونَ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ بِأَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ)**، أهلك الله جَلَّوَعَلَا قرونًا من بعد نوح لا يعلمهم إلا هو سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖ﴾، الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ذكر لنا بعض الأمم، ولكن كثيرًا من الأمم قبلنا لم يذكرهم، أهلكهم بسبب الذنوب والمعاصي، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ [الإسراء:١٧].

وقوله: **(وَمَا الَّذِي أَهْلَكَ قَوْمَ صَاحِبِ يس بِالصَّيْحَةِ)**، قيل: هم أهل أنطاكية على البحر، وقيل: غيرها، ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [يس:١٣]، ينذرونهم، فأبوا واستكبروا وقالوا: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ [يس:١٥]، كذبوا الرسل، فخرج منهم رجل ينصحهم: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [يس:٢٠]، ولكنهم أبوا، فماذا كان من عاقبتهم؟ ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ

ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾، يعني: ما جاءهم جنود، وإنما أهلكهم الله بالصيحة، والله قادر على كل شيء.

قوله: **(وَمَا الَّذِي بَعَثَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ قَوْمًا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ)**، سلط الله المجوس على بني إسرائيل، مع أن بني إسرائيل أهل كتاب وأهل علم، والمجوس عبدة النار كفرة ملاحدة، ولكن الله قد يسلط الكافر على المؤمن بسبب ذنوب المؤمن، فسلط الله المجوس عبدة النيران على بني إسرائيل أهل الكتاب وأهل العلم؛ لأنهم عصوا الله جَلَّ وَعَلَا.

وقوله: **(ثُمَّ بَعَثَهُمْ عَلَيْهِمْ مَرَّةً ثَانِيَةً، فَأَهْلَكُوا مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ)**، بعثهم الله عليهم مرتين كما في أول سورة الإسراء، وتوعدهم الله في الثالثة فقال: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء:٨].

كل هذه عقوبات حصلت على بني إسرائيل بسبب تمردهم وعنادهم مع الأنبياء؛ مع موسى وعيسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، ومع محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يزال اليهود متمردين، ولا يزال الله جَلَّ وَعَلَا يرسل عليهم العقوبات: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف:١٦٧]، فكلما تجمعوا وقويت شوكتهم أرسل الله عليهم من يهلكهم ويدمرهم، وهذا عبر التاريخ معروف.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنَا صَفْوَانُ بْنُ عَمْرٍو، حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «لَمَّا فُتِحَتْ قُبْرُسُ فُرِّقَ بَيْنَ أَهْلِهَا، فَبَكَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَرَأَيْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ جَالِسًا وَحْدَهُ يَبْكِي، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ مَا يُبْكِيكَ فِي يَوْمٍ أَعَزَّ اللَّهُ فِيهِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ؟ فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا جُبَيْرُ، مَا أَهْوَنُ الْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ إِذَا أَضَاعُوا أَمْرَهُ! بَيْنَمَا هِيَ أُمَّةٌ قَاهِرَةٌ ظَاهِرَةٌ لَهُمُ الْمُلْكُ، تَرَكُوا أَمْرَ اللَّهِ، فَصَارُوا إِلَى مَا تَرَى»(١).

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْجَعْدِ: أَنْبَأَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْبَخْتَرِيِّ يَقُولُ: أَخْبَرَنِي مَنْ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ»(٢).

الشرح:

القبرس: نصارى أهل كتاب، سلَّط الله عليهم المسلمين فانتصروا عليهم، وأخذوا ديارهم، بسبب كفرهم، فاعتبر أبو الدرداء بحالهم، وأنهم ما أصابهم هذا إلا بسبب ذنوبهم، وهو يخاف من الذنوب، فبكى.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ»**، يعني: إذا عصوا ونُهوا عن ذلك ولم يمتثلوا، أعذروا من أنفسهم، فأهلكهم الله، ولهذا يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، فإذا لم يتبعوا الرسول صار لله عذرٌ في إهلاكهم.

---

(١) أخرجه ابن الجعد في مسنده (١٢٨)، وأحمد في مسنده (٤/ ٢٦٠)، وأبو داود (٤٣٤٧).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (٧٦٣).

وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا ظَهَرَتِ الْمَعَاصِي فِي أُمَّتِي عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمَا فِيهِمْ يَوْمَئِذٍ أُنَاسٌ صَالِحُونَ؟ قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: كَيْفَ يُصْنَعُ بِأُولَئِكَ؟ قَالَ: «يُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ»(١).

وَفِي مَرَاسِيلِ الْحَسَنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ هَذِهِ الْأُمَّةُ تَحْتَ يَدِ اللَّهِ وَفِي كَنَفِهِ مَا لَمْ يُمَالِئْ قُرَّاؤُهَا أُمَرَاءَهَا، وَمَا لَمْ يُزَكِّ صُلَحَاؤُهَا فُجَّارَهَا، وَمَا لَمْ يُهِنْ خِيَارُهَا أَشْرَارَهَا، فَإِذَا هُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ رَفَعَ اللَّهُ يَدَهُ عَنْهُمْ، ثُمَّ سُلِّطَ عَلَيْهِمْ جَبَابِرَتُهُمْ فَسَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، ثُمَّ ضَرَبَهُمُ اللَّهُ بِالْفَاقَةِ وَالْفَقْرِ»(٢).

وَفِي الْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ»(٣).

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُوشِكُ أَنْ تَتَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ، كَمَا تَتَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنَ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، تُنْزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيُجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنُ»، قَالُوا وَمَا الْوَهَنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهَةُ الْمَوْتِ»(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٠٤)، والطبراني في الكبير (٧٤٧).

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٨٢١)، وابن أبي الدنيا في العقوبات (٤).

(٣) تقدم تخريجه (ص٢٩).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٨)، وأبو داود (٤٢٩٧).

وَفِي الْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»(١).

الشرح:

المعاصي موجودة ولا تزال، لكن إذا كانت خفيفة وتُنكر إذا ظهرت فإنها لا تضر إلا صاحبها، أما إذا ظهرت ولم تُنكر فإن العقوبة تعم الجميع: العاصي وغير العاصي؛ العاصي بذنبه، وغير العاصي بسكوته وعدم إنكاره، ثم يُبعثون يوم القيامة على نياتهم، هم يهلكون في الدنيا جميعًا الصالحون والفاسدون، ثم يبعث الله الصالحين يوم القيامة على نياتهم، وليس معناه أنهم إذا هلكوا صاروا كفارًا ومصيرهم إلى النار، بل يصيبهم العقوبة في الدنيا وهم مسلمون، لكن لا يضيع الله إيمانهم وأعمالهم في الآخرة، إنما هذه عقوبة عاجلة.

وقوله: **(لَا تَزَالُ هَذِهِ الْأُمَّةُ تَحْتَ يَدِ اللَّهِ وَفِي كَنَفِهِ)** يعني: في حفظه **(مَا لَمْ يُمَالِئْ قُرَّاؤُهَا أُمَرَاءَهَا)** ما لم يحصل مداهنة من العلماء مع الأمراء الضالين أو الظالمين، ولم يناصحوهم.

وقوله: **(ثُمَّ سُلِّطَ عَلَيْهِمْ جَبَابِرَتُهُمْ فَسَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ)** بسبب ترك إنكار المنكر. فلا بد من إنكار المنكر، والدعوة إلى الله، والمناصحة فيما بين المسلمين؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ رَأَى مِنكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ**

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٠٠).

يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»(١).

فترك إنكار المنكر يأتي بعذاب الله ويصيب صاحبه بالفاقة والفقر، وكذلك اقتراف الذنوب يمنع الرزق.

وقوله: **(وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ)**، يعني: كثرة لا فائدة فيها، **(تُنْزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ)** يوم أن كان المسلمون يجاهدون في سبيل الله، وينكرون المنكر كانت الهيبة في قلوب الكفار من المسلمين، وفي آخر الزمان ينعكس الأمر، تصير الذلة في قلوب المسلمين، وتُنزع الهيبة من قلوب الكفار، فلا يهابون المسلمين بسبب تخليهم عن دينهم.

وقوله: **(لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ)**، هذه عقوبة النميمة، وهذا من عذاب القبر؛ لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى هذا المشهد من عذاب القبر، وهو أن النمام يُجعل له أظفار من حديد يخمش بها نفسه. وجاء في الحديث أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر بقبرين، فقال: **«إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»**(٢)، فالنميمة سبب لعذاب القبر.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢١٨)، ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وَفِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ يَخْتِلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ، وَيَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ مُسُوكَ الضَّأْنِ مِنَ اللِّينِ، أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ السُّكَّرِ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئَابِ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَبِي يَغْتَرُّونَ؟ وَعَلَيَّ يَجْتَرِئُونَ؟ فَبِي حَلَفْتُ، لَأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولَئِكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الْحَلِيمَ فِيهَا حَيْرَانًا»(١).

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مِنْ حَدِيثِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قَالَ عَلِيٌّ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ، وَلَا مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ، مَسَاجِدُهُمْ يَوْمَئِذٍ عَامِرَةٌ، وَهِيَ خَرَابٌ مِنَ الْهُدَى، عُلَمَاؤُهُمْ شَرُّ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، مِنْهُمْ خَرَجَتِ الْفِتْنَةُ وَفِيهِمْ تَعُودُ»(٢).

وَذَكَرَ مِنْ حَدِيثِ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ أَذِنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَلَاكِهَا»(٣).

الشرح:

يخرج في آخر الزمان قوم يستعملون أمور الدين لأجل الحصول على الدنيا، وهذا انتكاس والعياذ بالله، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٠٤)، وابن المبارك في الزهد (٥٠)، وابن أبي الدنيا في العقوبات (٧).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٨).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٩).

يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٥، ١٦]. هذا من يعمل العبادات وهو لا يريد الأجر والثواب، وإنما يعملها لأجل أن ينال الدنيا.

والصواب: العكس، فيجعل الدنيا مطية للدين، ويستعين بالدنيا على الدين، لا أن يستعين بالدين على الدنيا!.

قوله: **(لَا يَبْقَى مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ)**، هذه المداهنة في أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والتصنع للناس.

وقوله: **(عُلَمَاؤُهُمْ شَرٌّ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ)**، وذلك إذا سكت العلماء عن القيام بما أوجب الله عليهم، ولكن ليس معنى هذا أن كل العلماء يفسدون؛ لقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ»**(١)، فليس معنى هذا أننا نذم العلماء جملة، ونقول: كلهم ليس فيهم خير.

ففيهم من لا نعلمه ولا ندري عنه، وهو قائم بأمر الله عَزَّوَجَلَّ، ولولا وجود بعض العلماء الناصحين الذين لا نعرفهم لخربت الدنيا، فإذا فقد الصالحون نهائيًّا خربت الدنيا في آخر الزمان، وإذا لم يبق في الأرض من يقول: الله الله. قامت القيامة، فما دام موجود من الصالحين، ومن العلماء الناصحين، فهذا ضمان لبقاء الأمة الإسلامية، وضمان لبقاء الدنيا.

وقوله: **(إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا)**، إذا ظهر ولم ينكر، أما إذا كان خفيًّا فإنه لا يضر إلا صاحبه، وهو لا يظهر إلا بسبب السكوت وعدم الإنكار.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وَفِي مَرَاسِيلِ الْحَسَنِ: «إِذَا أَظْهَرَ النَّاسُ الْعِلْمَ، وَضَيَّعُوا الْعَمَلَ، وَتَحَابُّوا بِالْأَلْسُنِ، وَتَبَاغَضُوا بِالْقُلُوبِ، وَتَقَاطَعُوا بِالْأَرْحَامِ؛ لَعَنَهُمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عِنْدَ ذَلِكَ، فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ»(١).

وَفِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: كُنْتُ عَاشِرَ عَشْرَةِ رَهْطٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسُ خِصَالٍ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: مَا ظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ حَتَّى أَعْلَنُوا بِهَا إِلَّا ابْتُلُوا بِالطَّوَاعِينِ وَالْأَوْجَاعِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَا نَقَصَ قَوْمٌ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا ابْتُلُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمُؤْنَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ، وَمَا مَنَعَ قَوْمٌ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ فَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَا خَفَرَ قَوْمٌ الْعَهْدَ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَعْمَلْ أَئِمَّتُهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»(٢).

الشرح:

قوله: (**لَعَنَهُمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عِنْدَ ذَلِكَ، فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ**)، كما في قوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد:٢٢، ٢٣].

وقوله: (**مَا ظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ**) من الزنا واللواط، (**فِي قَوْمٍ حَتَّى أَعْلَنُوا بِهَا**

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (١٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩).

(إِلَّا ابْتُلُوا) يعني: إن كانت خفية فإنها لا تضر إلا صاحبها، أما إن أعلنت وصارت ظاهرة ولم تنكر فإن العقوبة تعم المجتمع، **(بِالطَّوَاعِينِ وَالْأَوْجَاعِ)** وأمراضٍ لم تكن في الذين من قبلهم. ومصداق هذا ما هو واقع الآن من كثرة الآفات والأمراض المستعصية، وانتشار ما يسمى بمرض (نقص المناعة) الذي ليس له علاج، من أصيب به يعزل حتى يموت.

وقوله: **(وَلَا نَقَصَ قَوْمٌ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ)** هذه جريمة وظلم للناس، قد أهلك الله بها أمة من الأمم وهم قوم شعيب، **(إِلَّا ابْتُلُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمُئُونَةِ)** بانحباس الأمطار ونقص البركات، **(وَجَوْرِ السُّلْطَانِ)** وغير ذلك مما هو مشاهد في كثير من الناس اليوم، الذين لا يتورعون عن الغش والخديعة والمكر.

والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف:٨٥]. فالغش والخديعة والمكر في البيع والشراء، والحيل، والقمار، كل ذلك من بخس الناس أشيائهم وأكل أموالهم بالباطل، فمقابل ذلك يحبس الله عنهم المطر، فتنشف المياه، وتغور الآبار، وتجدب الأرض كما هو مشاهد.

وقوله: **(وَمَا مَنَعَ قَوْمٌ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ)**، يعني: انحباس المطر له سببان:

الأول: نقص المكاييل والموازين، وبخس الناس أشيائهم.

والثاني: منع الزكاة، وهذا أيضًا من بخس أشيائهم، فهو مثل تخفيف المكاييل والموازين؛ لأنه منع لحقوق الفقراء والمساكين.

وقوله: **(وَلَا خَفَرَ قَوْمٌ الْعَهْدَ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ)**، إذا عاهد السلطان، وتمت له البيعة، فإذا وفوا فإن الله جَلَّ وَعَلَا يوفي لهم أمورهم، وإذا خانوا وغدروا وخفروا العهد بينهم وبين السلطان، فإن الله يسلط عليهم عدوهم؛ لأن العدو إنما يهاب المسلمين إذا اجتمعوا تحت قيادة منهم، ولا يستطيع أن يتسلط عليهم، أما إذا غدروا بالبيعة، وغدروا بالسلطان، وصاروا يحتقرون السلطان، ويزدرونه، ويتكلمون في حقه، تتفرق الكلمة، ويحصل التباغض، وحينئذ يتسلط العدو، وتسنح له الفرصة، هذه ناحية.

والناحية الثانية: إذا خفروا العهد الذي بينهم وبين غيرهم من الدول، فإذا عاهدوا دولة من الكفار، وأعطوهم العهد والأمان، ثم غدروا بهم وصاروا يعتدون عليهم وهم معاهدون لهم، والمعاهد يحترم له حقوق، ويحقن دمه، ويحرم ماله بموجب العهد، فإذا اعتدوا عليه، وخانوا العهد الذي أعطوه، فإن الله جَلَّ وَعَلَا ينتقم منهم، ويسلط عليهم عدوهم.

والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»**(١)، الجنة عليه حرام عقوبة له. فالعهد أمره عظيم، سواء كان عهدًا مع السلطان، أو كان عهدًا مع غير المسلمين.

وقوله: **(وَمَا لَمْ تَعْمَلْ أَئِمَّتُهُمْ)** أي: ولاتهم **(بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ)** بل

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

حكَّموا غيره من نظم الجاهلية، ومن القوانين الوضعية، **﴿إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾**، وهذا واقع ومشاهد، لـمَّا عُطِّل في كثير من البلدان الإسلامية الحكم بالكتاب والسنة، وجُعِلت القوانين الوضعية بدلًا عنها؛ أشغلهم الله جَلَّوَعَلَا بأنفسهم، فجعل بأسهم بينهم، كلٌّ يتربص بالآخر، وانشغلوا عن جهاد الكفار.

وَفِي الْمُسْنَدِ وَالسُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانَ إِذَا عَمِلَ الْعَامِلُ فِيهِمْ بِالْخَطِيئَةِ جَاءَهُ النَّاهِي تَعْذِيرًا، فَإِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ جَالَسَهُ وَوَاكَلَهُ وَشَارَبَهُ، كَأَنَّهُ لَمْ يَرَهُ عَلَى خَطِيئَةٍ بِالْأَمْسِ، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَلِكَ مِنْهُمْ ضَرَبَ بِقُلُوبِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ السَّفِيهِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنَكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ»(١).

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَمْرٍو الصَّنْعَانِيِّ، قَالَ: «أَوْحَى اللَّهُ إِلَى يُوشَعَ بْنِ نُونٍ: إِنِّي مُهْلِكٌ مِنْ قَوْمِكَ أَرْبَعِينَ أَلْفًا مِنْ خِيَارِهِمْ، وَسِتِّينَ أَلْفًا مِنْ شِرَارِهِمْ، قَالَ: يَا رَبِّ، هَؤُلَاءِ الْأَشْرَارُ، فَمَا بَالُ الْأَخْيَارِ؟ قَالَ: لَمْ يَغْضَبُوا لِغَضَبِي، وَكَانُوا يُؤَاكِلُونَهُمْ وَيُشَارِبُونَهُمْ»(٢).

الشرح:

هذا يدل على وجوب إنكار المنكر، وأنه لا يجوز تركه، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٧) من طريق عمرو بن مرة عن سالم، وأخرجه من غير هذا الطريق: أبو داود (٤٣٣٦)، والترمذي (٣٠٤٧)، وابن ماجه (٤٠٠٦)، وأحمد (١/ ٣٩١).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (١٣)، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٧١).

وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ رَأَى مِنكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»**(١).

فلا بد من إنكار المنكر، فإذا ترك الناس إنكار المنكر سلّط الله عليهم أنفسهم، وخالف بين قلوبهم، وحقَّت عليهم اللعنة، كما حصلت لبني إسرائيل، فإن أحدهم كان يلقى أخاه على المعصية فينهاه في أول يوم، ثم يراه في اليوم الثاني فلا ينكر عليه، ويكون جليسه وأكيله وشريبه، فعند ذلك لعنهم الله ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة:٧٨]، كذلك هذه الأمة إذا فعلت مثل فعل بني إسرائيل لعنهم الله كما لعن بني إسرائيل.

وقد أهلك الله عَزَّوَجَلَّ أربعين ألفًا من بني إسرائيل، وهم صالحون، وأهلك ستين ألفًا؛ لأنهم أهل منكر، فتعجب الناس كيف يهلك الصالحين وهم من خيارهم؟! فبين السبب أنهم لـمَّا لم ينكروا عليهم صارت العقوبة تعمّهم، ولا ينجو إلا من أنكر المنكر، كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٥].

---

(١) تقدم تخريجه (ص ١٧٠).

وَذَكَرَ أَبُو عُمَرَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ، عَنْ أَبِي هِزَّانَ، قَالَ: «بَعَثَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مَلَكَيْنِ إِلَى قَرْيَةٍ، أَنْ دَمِّرَاهَا بِمَنْ فِيهَا، فَوَجَدَا رَجُلًا قَائِمًا يُصَلِّي فِي مَسْجِدٍ، فَقَالَا: يَا رَبِّ، إِنَّ فِيهَا عَبْدَكَ فُلَانًا يُصَلِّي، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: دَمِّرَاهَا وَدَمِّرَاهُ مَعَهُمْ، فَإِنَّهُ مَا تَمَعَّرَ وَجْهُهُ فِيَّ قَطُّ»(١).

وَذَكَرَ الْحُمَيْدِيُّ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، قَالَ: حَدَّثَنِي سُفْيَانُ بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ مِسْعَرٍ: «أَنَّ مَلَكًا أُمِرَ أَنْ يَخْسِفَ بِقَرْيَةٍ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، إِنَّ فِيهَا فُلَانًا الْعَابِدَ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ بِهِ فَابْدَأْ، فَإِنَّهُ لَمْ يَتَمَعَّرْ وَجْهُهُ فِيَّ سَاعَةً قَطُّ»(٢).

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ: «لَمَّا أَصَابَ دَاوُدُ الْخَطِيئَةَ قَالَ: يَا رَبِّ اغْفِرْ لِي، قَالَ: قَدْ غَفَرْتُ لَكَ، وَأَلْزَمْتُ عَارَهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ وَأَنْتَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا، أَنَا أَعْمَلُ الْخَطِيئَةَ وَتُلْزِمُ عَارَهَا غَيْرِي؟ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: إِنَّكَ لَمَّا عَمِلْتَ الْخَطِيئَةَ لَمْ يُعَجِّلُوا عَلَيْكَ بِالْإِنْكَارِ»(٣).

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ، هُوَ وَرَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ لَهَا الرَّجُلُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ حَدِّثِينَا عَنِ الزَّلْزَلَةِ، فَقَالَتْ: «إِذَا اسْتَبَاحُوا الزِّنَا، وَشَرِبُوا الْخَمْرَ، وَضَرَبُوا بِالْمَعَازِفِ، غَارَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي سَمَائِهِ، فَقَالَ لِلْأَرْضِ: تَزَلْزَلِي بِهِمْ، فَإِنْ تَابُوا وَنَزَعُوا، وَإِلَّا هَدَمَهَا عَلَيْهِمْ. قَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَعَذَابًا لَهُمْ؟ قَالَتْ: بَلْ مَوْعِظَةً وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، وَنَكَالًا وَعَذَابًا وَسُخْطًا عَلَى

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (١٤)، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٧٣)، وابن وضاح في البدع (٢٨٩). وأخرج نحوه الطبراني في الأوسط (٧/ ٣٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٧٤) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رفعه.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (١٦)، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٧٠).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (١٥)، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٧٦)

الْكَافِرِينَ». فَقَالَ أَنَسٌ: مَا سَمِعْتُ حَدِيثًا بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَا أَشَدُّ فَرَحًا مِنِّي بِهَذَا الْحَدِيثِ[١].

الشرح:

لا يكفي أن يكون الإنسان صالحًا في نفسه، بل لا بد إذا رأى منكرًا أن ينكره على حسب استطاعته ولو بقلبه، فإذا كان لا ينكر المنكر ولو كان يصلي ويصوم ويتصدق، فإنه تعمه العقوبة، ويوم القيامة يبعثه الله على نيته، لكنه في الدنيا تعمّه العقوبة؛ لأنه لم ينكر ولو بقلبه، فإذا أنكر المنكر نجا، وإذا لم ينكر هلك مع أصحاب المنكر.

وقوله: **(لَمْ يُعَجِّلُوا عَلَيْكَ بِالْإِنْكَارِ)**، هذا مثل الذي قبله، أنه إذا سُكت عن المنكر ولم ينكر فإن العقوبة تعم الساكت الذي لم يُنكر، ولا تختص بفاعل المعصية، فإذا تاب صاحب المعصية وتاب الله عليه فإن العقوبة لا تُرفع عن الذين لم ينكروا المنكر حتى يتوبوا إلى الله.

قوله: **(حَدِّثِينَا عَنِ الزَّلْزَلَةِ)** الزلازل: حركة الأرض واضطرابها، فإذا تفشى في الناس المجاهرة بالمعاصي والكفر، حدثت الزلازل، وهي تكثر في آخر الزمان لهذا السبب. وكما هو مشاهد الآن فإن الزلازل تدمر المدن والبلاد، وتهدم المباني، وهذه عقوبات، وليست بكوارث طبيعية كما يسمونها، إنما هي عقوبات من الله عَزَّوَجَلَّ كما يسميها أهل الإيمان.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (١٧).

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا حَدِيثًا مُرْسَلًا: إِنَّ الْأَرْضَ تَزَلْزَلَتْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا ثُمَّ قَالَ: «اسْكُنِي، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْنِ لَكِ بَعْدُ»، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «إِنَّ رَبَّكُمْ لَيَسْتَعْتِبُكُمْ فَأَعْتِبُوهُ»[١].

ثُمَّ تَزَلْزَلَتْ بِالنَّاسِ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مَا كَانَتْ هَذِهِ الزَّلْزَلَةُ إِلَّا عَنْ شَيْءٍ أَحْدَثْتُمُوهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَئِنْ عَادَتْ لَا أُسَاكِنُكُمْ فِيهَا أَبَدًا»[٢].

وَفِي مَنَاقِبِ عُمَرَ لِابْنِ أَبِي الدُّنْيَا: أَنَّ الْأَرْضَ تَزَلْزَلَتْ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ، فَضَرَبَ يَدَهُ عَلَيْهَا، وَقَالَ: مَا لَكِ؟ مَا لَكِ؟ أَمَا إِنَّهَا لَوْ كَانَتِ الْقِيَامَةُ حَدَّثَتْ أَخْبَارَهَا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَلَيْسَ فِيهَا ذِرَاعٌ وَلَا شِبْرٌ إِلَّا وَهُوَ يَنْطِقُ»[٣].

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ صَفِيَّةَ، قَالَتْ: زُلْزِلَتِ الْمَدِينَةُ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مَا هَذَا؟ وَمَا أَسْرَعَ مَا أَحْدَثْتُمْ؟ لَئِنْ عَادَتْ لَا أُسَاكِنُكُمْ فِيهَا»[٤].

وَقَالَ كَعْبٌ: «إِنَّمَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ إِذَا عُمِلَ فِيهَا بِالْمَعَاصِي، فَتُرْعِدُ فَرَقًا مِنَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهَا»[٥].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ٢٢١)، وابن أبي الدنيا في العقوبات (١٨).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (١٨).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (١٩).

(٤) لم أقف عليه عند أحمد. وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ٢٢٢)، وابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٠)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٤٢).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٢١).

وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى الْأَمْصَارِ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ هَذَا الرَّجْفَ شَيْءٌ يُعَاتِبُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِهِ الْعِبَادَ، وَقَدْ كَتَبْتُ إِلَى الْأَمْصَارِ أَنْ يُخْرِجُوا فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا فِي شَهْرِ كَذَا وَكَذَا، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ فَلْيَتَصَدَّقْ بِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤ - ١٥]، وَقُولُوا كَمَا قَالَ آدَمُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، وَقُولُوا كَمَا قَالَ نُوحٌ: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [هود:٤٧]، وَقُولُوا كَمَا قَالَ يُونُسُ: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]»(١).

الشرح:

هذه الأحاديث والآثار كالتي قبلها في أن الزلازل تحدث بسبب الذنوب والمعاصي، وترك إنكار المنكر، والإحداث والتغيير دين الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: (**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَلَيْسَ فِيهَا ذِرَاعٌ وَلَا شِبْرٌ إِلَّا وَهُوَ يَنْطِقُ**) تخبر عما فعل الناس على ظهرها، كما في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة:٤]، فتشهد على الناس بما عملوا من خير أو شر.

والله جَلَّ وَعَلَا جعل الأرض قرارًا وساكنة؛ حتى يعيش الناس على ظهرها، فإذا أحدثوا زلزلها عليهم تنبيهًا لهم وعقوبة وتحذيرًا.

والآن تحدث الحوادث ولا يعتبر الناس، وإنما يقولون: هذه كوارث

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٣).

طبيعية، ولا يقولون: هذه عقوبة، ونذير من الله للناس ليتوبوا!.

وقد كان الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إذا حصل شيء من العقوبات رجعوا إلى الله، وتابوا إلى الله، واستغفروا من ذنوبهم، فيستفيدون من هذه الحوادث بالرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

أمّا الأشقياء فإنهم ما تزيدهم هذه العقوبات إلا قسوة في القلوب، وإعراضًا عن الله عَزَّوَجَلَّ، ويفسرونها بأشياء ليست تفسيرًا لها، فيفسرونها بأنها حوادث عادية وكوارث طبيعية، ولا تجد لها أثرًا في قلوبهم ولا خوفًا ولا توبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما تمر عليهم وكأنها لم تمر.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَسْوَدُ بْنُ عَامِرٍ، ثَنَا أَبُو بَكْرٍ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا ضَنَّ النَّاسُ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ، وَتَبَايَعُوا بِالْعِينَةِ، وَاتَّبَعُوا أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَتَرَكُوا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ بَلَاءً لَا يَرْفَعُهُ عَنْهُمْ حَتَّى يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ»(١). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ.

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْنَا وَمَا أَحَدٌ أَحَقَّ بِدِينَارِهِ وَدِرْهَمِهِ مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا ضَنَّ النَّاسُ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ، وَتَبَايَعُوا بِالْعِينَةِ، وَتَرَكُوا الْجِهَادَ، وَأَخَذُوا أَذْنَابَ الْبَقَرِ؛ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ بَلَاءً، فَلَا يَرْفَعُهُ عَنْهُمْ حَتَّى يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ»(٢).

وَقَالَ الْحَسَنُ: «إِنَّ الْفِتْنَةَ وَاللَّهِ مَا هِيَ إِلَّا عُقُوبَةٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى النَّاسِ»(٣).

الشرح:

قوله: **(إِذَا ضَنَّ النَّاسُ)**، يعني: بخلوا **(بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ)** عن الصدقة وعن فعل الخير، وعن القرض الحسن للمحتاج، وهو أن يُعطى من المال ما يسد به حاجته على أن يرد بدله دون زيادة، هذا هو القرض الحسن، وأغلب

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٨)، وأبو داود (٣٤٦٢).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٤).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٥).

الناس الآن يعدلون عن القرض الحسن إلى الربا، لا يقرضون إلا بربا.

وقوله: **(وَتَبَايَعُوا بِالْعِينَةِ)**، العينة هي الربا، بمعنى: أن يبيع عليه سلعة بثمن مؤجل ثم يشتريها منه بثمن حال أقل من المؤجل، فيكون باع دراهم بدراهم أكثر منها مؤجلة، وجعل السلعة حيلة، ورجع إليه عين ماله، فسميت العِينة لأنه رجع إليه عين ماله.

وقد انتشرت هذه المعاملة كثيرًا بين الناس، فإذا جاء المحتاج إلى التاجر ما يقرضه قرضًا حسنًا، وإنما يقول له: أبيع لك سيارة أو شيئًا آخر بثمن مؤجل أزيد من ثمنه الحال، فإذا اشتراها وتم العقد باعها المشتري للدائن، فيعود إليه عين ماله وزيادة، وهذه المعاملة حرمها الله جَلَّ وَعَلَا.

أما إذا أخذها المشتري وباعها على غيره فلا إشكال في ذلك، فهذه تُسمى مسألة التورق، وقد أجازها كثير من العلماء، فإذا اشترى المحتاج السلعة ليبيعها ويتصرف في ثمنها ويسدد ثمنها إذا حل، هذه تسمى التورق، بشرط أن يبيعها لغيره، أما إذا باعها لمن اشتراها منه فهذه العينة، وهي حيلة إلى الربا.

وقوله: **(لَقَدْ رَأَيْنَا وَمَا أَحَدٌ أَحَقَّ بِدِينَارِهِ وَدِرْهَمِهِ مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ)** كانوا يتقارضون، فيجد المحتاج من يقرضه قرضًا حسنًا بدون ربا.

وقوله: **(وَتَرَكُوا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)**، ومن الجرائم التي توجب العقوبة: ترك الجهاد في سبيل الله، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ذُرْوَةُ سَنَامِ الْإِسْلَامِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»**[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٥) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه الطبراني في الكبير (٧٨٨٤) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإذا كان عند المسلمين قدرة وتركوا الجهاد حلت بهم العقوبة، أما إن تركوا الجهاد لأنهم لا يقدرون ولا يستطيعون، فهم معذورون، لكن إذا تركوه وهم يقدرون عليه خوفًا على حياتهم، **(وَأَخَذُوا أَذْنَابَ الْبَقَرِ)** يعني: بدلًا عن الجهاد وركوب الخيل في سبيل الله يشتغلون بالزراعة ويأخذون أذناب البقر؛ لأن العادة أن البقر يُستعمل في حرث الزرع، فيشتغلون بالزراعة، ويتركون الجهاد وهم قادرون عليه، فإذا فعلوا ذلك حلَّ وقت نزول العقوبة بهم.

وَنَظَرَ بَعْضُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى مَا يَصْنَعُ بِهِمْ بُخْتُنَصَّرُ، فَقَالَ: بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِينَا سَلَّطْتَ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَعْرِفُكَ وَلَا يَرْحَمُنَا[١].

وَقَالَ بُخْتُنَصَّرُ لِدَانْيَالَ: مَا الَّذِي سَلَّطَنِي عَلَى قَوْمِكَ؟ قَالَ: عِظَمُ خَطِيئَتِكَ، وَظُلْمُ قَوْمِي أَنْفُسَهُمْ[٢].

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مِنْ حَدِيثِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ وَحُذَيْفَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ إِذَا أَرَادَ بِالْعِبَادِ نِقْمَةً أَمَاتَ الْأَطْفَالَ، وَأَعْقَمَ أَرْحَامَ النِّسَاءِ، فَتَنْزِلُ النِّقْمَةُ، وَلَيْسَ فِيهِمْ مَرْحُومٌ»[٣].

وَذَكَرَ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ: «قَرَأْتُ فِي الْحِكْمَةِ: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: أَنَا اللَّهُ مَالِكُ الْمُلُوكِ، قُلُوبُ الْمُلُوكِ بِيَدَيَّ، فَمَنْ أَطَاعَنِي جَعَلْتُهُمْ عَلَيْهِ رَحْمَةً، وَمَنْ عَصَانِي جَعَلْتُهُمْ عَلَيْهِ نِقْمَةً، فَلَا تَشْغَلُوا أَنْفُسَكُمْ بِسَبِّ الْمُلُوكِ، وَلَكِنْ تُوبُوا إِلَيَّ أَعْطِفُهُمْ عَلَيْكُمْ»[٤].

وَفِي مَرَاسِيلِ الْحَسَنِ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ خَيْرًا جَعَلَ أَمْرَهُمْ إِلَى حُلَمَائِهِمْ، وَفَيْأَهُمْ عِنْدَ سُمَحَائِهِمْ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ شَرًّا جَعَلَ أَمْرَهُمْ إِلَى سُفَهَائِهِمْ، وَفَيْأَهُمْ عِنْدَ بُخَلَائِهِمْ»[٥].

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قَالَ مُوسَى: «يَا رَبِّ أَنْتَ فِي السَّمَاءِ

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٨).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٩).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٦).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٣٠).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٣١).

وَنَحْنُ فِي الْأَرْضِ، فَمَا عَلَامَةُ غَضَبِكَ مِنْ رِضَاكَ؟ قَالَ: إِذَا اسْتَعْمَلْتُ عَلَيْكُمْ خِيَارَكُمْ فَهُوَ مِنْ عَلَامَةِ رِضَائِي عَنْكُمْ، وَإِذَا اسْتَعْمَلْتُ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ فَهُوَ مِنْ عَلَامَةِ سُخْطِي عَلَيْكُمْ[(١)].

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنِ الْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ قَالَ: «أَوْحَى اللَّهُ إِلَى بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ: إِذَا عَصَانِي مَنْ يَعْرِفُنِي سَلَّطْتُ عَلَيْهِ مَنْ لَا يَعْرِفُنِي»[(٢)].

وَذَكَرَ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ يَرْفَعُهُ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ أُمَرَاءَ كَذَبَةً، وَوُزَرَاءَ فَجَرَةً، وَأَعْوَانًا خَوَنَةً، وَعُرَفَاءَ ظَلَمَةً، وَقُرَّاءَ فَسَقَةً، سِيمَاهُمْ سِيمَا الرُّهْبَانِ، وَقُلُوبُهُمْ أَنْتَنُ مِنَ الْجِيَفِ، أَهْوَاؤُهُمْ مُخْتَلِفَةٌ، فَيَفْتَحُ اللَّهُ لَهُمْ فِتْنَةً غَبْرَاءَ مُظْلِمَةً فَيَتَهَاوَكُونَ فِيهَا، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَيُنْقَضَنَّ الْإِسْلَامُ عُرْوَةً عُرْوَةً، حَتَّى لَا يُقَالَ: اللَّهُ اللَّهُ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُسَلِّطَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ أَشْرَارَكُمْ، فَيَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، ثُمَّ يَدْعُو خِيَارُكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ. لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيَبْعَثَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مَنْ لَا يَرْحَمُ صَغِيرَكُمْ، وَلَا يُوَقِّرُ كَبِيرَكُمْ»[(٣)].

الشرح:

(بُخْتُنَصَّرُ) هذا ملك الفرس، سلَّطه الله عَزَّوَجَلَّ على بني إسرائيل، مع

---

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على الزهد (١٥٨٢)، و ابن أبي الدنيا في العقوبات (٣٢).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٣٣).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٣٤).

أنهم أهل كتاب، وأهل علم، وفيهم إيمان، إلا أن الله سلط عليهم هذا المجوسي الذي لا يعرف الله؛ لأنهم تركوا أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فسلط الله عليهم عدوًا ملحدًا كافرًا، مع أنهم أهل إيمان وأهل دين، لكن لما تركوا أمر الله وتساهلوا؛ سلط الله عليهم هذا الكافر.

فإذا كان الناس على دين وصلاح؛ يسَّر الله لهم من الولاة من فيه خير وفيه صلاح، وإذا كان الناس على فساد ومعصية؛ سلط الله عليهم من الولاة من يسومونهم سوء العذاب، وقد جاء في الأثر: «كَمَا تَكُونُوا يُوَلَّى عَلَيْكُم»(١). ويقول الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:١٢٩].

فصلاح ولاة الأمور رحمة للرعية، وظلم ولاة الأمور عقوبة على الرعية. فالواجب على الناس أن يتضرعوا إلى الله، وأن يتوبوا إلى الله؛ حتى يصلح لهم ولاتهم ورعاتهم.

وقوله: **(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ شَرًّا جَعَلَ أَمْرَهُمْ إِلَى سُفَهَائِهِمْ)**، فيجعل أموالهم بأيدي السفهاء، الذين يبخلون بها، ويضنون بها على الخير، ويتشاغلون بالربا وأكل أموال الناس بالباطل، أما إذا أراد بهم خيرًا جعل الأموال بأيدي السمحاء الذين ينفقونها في سبيل الله، ويساعدون بها المحتاجين.

فالسلاطين يسلطهم الله على العباد بذنوبهم، فإذا منعوا الزكاة، وتعاملوا بالربا، وأكلوا أموال الناس بالباطل، ابتلوا بشدة المؤونة، وجور السلطان، ولو

---

(١) أخرجه ابن جميع في معجم الشيوخ (ص١٤٩)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/٣٣٦) عن أبي بكرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ رفعه. قال السخاوي في المقاصد الحسنة (ص٥٢٠): «في سنده مجاهيل».

كانوا أهل علم ودين وكتاب، كما سلط الله عَزَّوَجَلَّ المجوس على بني إسرائيل عقوبة لهم.

وما هو مشاهد في هذا الزمان في كثير من البلدان من الجور والظلم، وتشريد المسلمين، وتشريد الصالحين، وتولي الظلمة عليهم، إنما هو بسبب الذنوب والمعاصي، سلطهم الله عليهم عقوبةً لهم.

وَفِي مُعْجَمِ الطَّبَرَانِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا طَفَّفَ قَوْمٌ كَيْلًا، وَلَا بَخَسُوا مِيزَانًا، إِلَّا مَنَعَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْقَطْرَ، وَمَا ظَهَرَ فِي قَوْمٍ الزِّنَا إِلَّا ظَهَرَ فِيهِمُ الْمَوْتُ، وَمَا ظَهَرَ فِي قَوْمٍ الرِّبَا إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجُنُونَ، وَلَا ظَهَرَ فِي قَوْمٍ الْقَتْلُ -يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا- إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ، وَلَا ظَهَرَ فِي قَوْمٍ عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ إِلَّا ظَهَرَ فِيهِمُ الْخَسْفُ، وَمَا تَرَكَ قَوْمٌ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ إِلَّا لَمْ تُرْفَعْ أَعْمَالُهُمْ وَلَمْ يُسْمَعْ دُعَاؤُهُمْ»(١).

وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مِنْ حَدِيثِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَشْعَثِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سَعِيدٍ، بِهِ(٢).

وَفِي الْمُسْنَدِ وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ حَفَزَهُ النَّفَسُ، فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ أَنْ قَدْ حَفَزَهُ شَيْءٌ، فَمَا تَكَلَّمَ حَتَّى تَوَضَّأَ، وَخَرَجَ، فَلَصِقْتُ بِالْحُجْرَةِ، فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ: فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لَكُمْ: مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي فَلَا أُجِيبُكُمْ، وَتَسْتَنْصِرُونِي فَلَا أَنْصُرُكُمْ، وَتَسْأَلُونِي فَلَا أُعْطِيكُمْ»(٣).

---

(١) لم أقف عليه في المطبوع من معاجم الطبراني الثلاثة.

وأخرج الطبراني في الكبير (١٠٩٩٢) من طريق عبد الله بن كيسان، عن الضحاك بن مزاحم، عن مجاهد وطاوس، عن ابن عباس، فذكر نحوه.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٣٥).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ١٥٩)، وابن ماجه (٤٠٠٤).

وَقَالَ الْعُمَرِيُّ الزَّاهِدُ: إِنَّ مِنْ غَفْلَتِكَ عَنْ نَفْسِكَ وَإِعْرَاضِكَ عَنِ اللَّهِ أَنْ تَرَى مَا يُسْخِطُ اللَّهَ، فَتَتَجَاوَزَهُ، وَلَا تَأْمُرُ فِيهِ، وَلَا تَنْهَى عَنْهُ، خَوْفًا مِمَّنْ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضُرًّا وَلَا نَفْعًا.

وَقَالَ: مَنْ تَرَكَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ مَخَافَةً مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، نُزِعَتْ مِنْهُ الطَّاعَةُ، وَلَوْ أَمَرَ وَلَدَهُ أَوْ بَعْضَ مَوَالِيهِ لَاسْتَخَفَّ بِحَقِّهِ[(١)].

الشرح:

هذا يدل على أن كل جريمة لها عقوبة، وأن العقوبات إنما سببها الذنوب والمعاصي والكفر والفسق، وأن الناس إذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يُقبل دعائهم.

وكذلك من يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفًا من الناس تحل به العقوبة، وإنكار المنكر حسب الاستطاعة، وأقل شيء أن ينكره بقلبه، فيبغض المنكر وأهله، ويبتعد عنهم، وأعلى شيء أن يزيله بيده إن كان له سلطة، أو بلسانه إن لم يكن له سلطة ولكن عنده علم ومعرفة، فيعظ وينصح ويبين للناس. فإن كان بيده سلطة ويستطيع أن ينكره بيده، أو يستطيع أن ينكره بلسانه لأنه عنده معرفة وبيان، ولكنه ترك الإنكار خوفًا من الناس، فهذا تحل عليه العقوبة، أما إذا كان لا يقدر فيبقى الإنكار بالقلب، والإنكار بالقلب لا يقدر أحد أن يمنعه منه أبدًا؛ لأن الناس ما يدرون عن قلبه.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٣٨)، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١٤).

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ حَدِيثِ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَتْلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَإِنَّكُمْ تَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٥]. وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ -وَفِي لَفْظٍ: إِذَا رَأَوُا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ- أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِهِ»(١).

وَذَكَرَ الْأَوْزَاعِيُّ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أُخْفِيَتِ الْخَطِيئَةُ لَمْ تَضُرَّ إِلَّا صَاحِبَهَا، وَإِذَا ظَهَرَتْ فَلَمْ تُغَيَّرْ ضَرَّتِ الْعَامَّةَ»(٢).

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تُوشِكُ الْقُرَى أَنْ تَخْرَبَ وَهِيَ عَامِرَةٌ، قِيلَ: وَكَيْفَ تَخْرَبُ وَهِيَ عَامِرَةٌ؟ قَالَ: إِذَا عَلَا فُجَّارُهَا أَبْرَارَهَا، وَسَادَ الْقَبِيلَةَ مُنَافِقُهَا(٣).

وَذَكَرَ الْأَوْزَاعِيُّ عَنْ حَسَّانَ بْنِ عَطِيَّةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «سَيَظْهَرُ شِرَارُ أُمَّتِي عَلَى خِيَارِهَا، حَتَّى يَسْتَخْفِيَ الْمُؤْمِنُ فِيهِمْ كَمَا يَسْتَخْفِي الْمُنَافِقُ فِينَا الْيَوْمَ»(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢، ٧)، وأبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨)، وابن ماجه (٤٠٠٥).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٤٠)، والطبراني في الأوسط (٥/ ٩٤).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٤٤)، وأبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (٤/ ٧٩٩).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٤٥)، وأبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن =

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَرْفَعُهُ قَالَ: «يَأْتِي زَمَانٌ يَذُوبُ فِيهِ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ»، قِيلَ: مِمَّ ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مِمَّا يَرَى مِنَ الْمُنْكَرِ لَا يَسْتَطِيعُ تَغْيِيرَهُ»(١).

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ جَرِيرٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، وَهُمْ أَعَزُّ وَأَكْثَرُ مِمَّنْ يَعْمَلُهُ، فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ، إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ»(٢).

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ، مَا شَأْنُكَ؟ أَلَسْتَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: بَلَى، كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ»(٣).

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ: «كَانَ حَبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَغْشَى مَنْزِلَهُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، فَيَعِظُهُمْ وَيُذَكِّرُهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ، فَرَأَى بَعْضَ بَنِيهِ يَوْمًا يَغْمِزُ النِّسَاءَ، فَقَالَ: مَهْلًا يَا بُنَيَّ، مَهْلًا يَا بُنَيَّ. فَسَقَطَ مِنْ سَرِيرِهِ، فَانْقَطَعَ نُخَاعُهُ، وَأُسْقِطَتِ امْرَأَتُهُ، وَقُتِلَ بَنُوهُ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى نَبِيِّهِمْ: أَنْ أَخْبِرْ

=

(٤/٧٩٨).

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٤٦)، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢٥).

(٢) أخرجه أحمد (٤/٣٦٤)، وأبو داود (٤٣٣٩)، وابن ماجه (٤٠٠٩).

(٣) تقدم تخريجه (ص١٠٠).

فُلَانًا الْخَبَرَ: أَنِّي لَا أُخْرِجُ مِنْ صُلْبِكَ صِدِّيقًا أَبَدًا، مَا كَانَ غَضَبُكَ لِي إِلَّا أَنْ قُلْتَ مَهْلًا يَا بُنَيَّ»(١).

الشرح:

قد يترك بعض الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويستدل بقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾، ويقول: ما عليَّ إلا من نفسي، ولا عليَّ من الناس، ولن يضرني ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إن أصلحت نفسي!.

وهذا فهم للآية على غير معناها؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا لم يقل: لا تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر، بل قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: أصلحوا أنفسكم أولًا، ولا تنظروا إلى الناس، كأن يقول في المعاصي والذنوب: هذا شيء عليه الناس، وأنا أفعل مثل ما يفعل الناس!.

فكل واحد مأمور بأن يصلح نفسه ولا يغتر بما عليه الناس، لكن لا يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسب استطاعته؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾، ولا يكون مهتديًا إلا إذا كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب استطاعته.

فالآية ليس فيها ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما فيها أن الإنسان لا يغتر بأفعال الناس، ولا يجاريهم ويمشي معهم على ما هم عليه ما

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٥٢٤).

الذنوب والمعاصي، بل عليه أن يلزم نفسه ويصلحها، وينكر ما ظهر من المعاصي قدر استطاعته، أما إذا كانت المعاصي خفية فإنها لا تضر إلا أصحابها، فإذا جهروا بها ولم تُنكر؛ عمت عقوبتها العاصي والساكت عن الإنكار.

وقوله: **(مِمَّا يَرَى مِنَ الْمُنْكَرِ لَا يَسْتَطِيعُ تَغْيِيرَهُ)** إذا كان العبد يتحسر إذا رأى المنكر وهو لا يستطيع أن تغييره، فهذا دليل على الإيمان، لكن إذا صار لا يتحسر ولا يحرك فيه ساكنًا، فهذا دليل على الشقاء والعياذ بالله، ولذلك قال: **(يَذُوبُ فِيهِ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ)** أي: القلب الذي فيه إيمان.

أما الذي يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهذا قلبه ليس فيه إيمان؛ لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»**[1].

وقوله: **(وَهُمْ أَعَزُّ وَأَكْثَرُ مِمَّنْ يَعْمَلُهُ)**، يعني: لديهم القدرة على إنكار المنكر، **(فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ)** أي: تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهم يقدرون **(إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ)**.

وقوله: **(فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ)** يعني: أمعاؤه، وهذا وعيد للذي يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر وهو لا يعمل بذلك في نفسه، فلا بد أن يعمل بنفسه أولًا، فيترك المنكر ثم ينهى عنه، ويفعل الخير ويأمر به، ولا يكون كمن قال الله جَلَّ وَعَلَا فيهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]. بل يبدأ بنفسه قبل أن يأمر الناس

---

(١) أخرجه مسلم (٥٠) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وينهى الناس.

وقوله: **(أَنِّي لَا أُخْرِجُ مِنْ صُلْبِكَ صِدِّيقًا أَبَدًا)**، ذلك لأنه تساهل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ رأى ابنه على معصية فتساهل، وقال: **(مَهْلًا يَا بُنَيَّ)**، ولم يأخذ على يده ويمنعه، وهو يستطيع أن يغير بيده -لأن له سلطة التأديب على ولده- واقتصر على الكلام فقط.

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ». وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلًا: «كَمَثَلِ الْقَوْمِ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ، فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ، حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا، وَأَجَّجُوا نَارًا، وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا»(١).

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، وَإِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمُوبِقَاتِ»(٢).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتِ النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلَا سَقَتْهَا، وَلَا تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»(٣).

وَفِي الْحِلْيَةِ لِأَبِي نُعَيْمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ تَرَكَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ دِينَهُمْ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أُمِرُوا بِشَيْءٍ تَرَكُوهُ، وَإِذَا نُهُوا عَنْ شَيْءٍ رَكِبُوهُ، حَتَّى انْسَلَخُوا مِنْ دِينِهِمْ كَمَا يَنْسَلِخُ الرَّجُلُ مِنْ قَمِيصِهِ(٤).

وَمِنْ هَاهُنَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْمَعَاصِي بَرِيدُ الْكُفْرِ، كَمَا أَنَّ الْقُبْلَةَ بَرِيدُ الْجِمَاعِ، وَالْغِنَاءُ بَرِيدُ الزِّنَا، وَالنَّظَرُ بَرِيدُ الْعِشْقِ، وَالْمَرَضُ بَرِيدُ الْمَوْتِ.

---

(١) تقدم تخريجه (ص١١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٢).

(٣) تقدم تخريجه (ص١٢٢).

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢٧٩).

وَفِي الْحِلْيَةِ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: «يَا صَاحِبَ الذَّنْبِ، لَا تَأْمَنْ سُوءَ عَاقِبَتِهِ، وَلَمَّا يَتْبَعُ الذَّنْبَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ إِذَا عَمِلْتَهُ قِلَّةُ حَيَائِكَ مِمَّنْ عَلَى الْيَمِينِ وَعَلَى الشِّمَالِ -وَأَنْتَ عَلَى الذَّنْبِ- أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ. وَضَحِكُكَ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي مَا اللَّهُ صَانِعٌ بِكَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ. وَفَرَحُكَ بِالذَّنْبِ إِذَا ظَفِرْتَ بِهِ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ. وَحُزْنُكَ عَلَى الذَّنْبِ إِذَا فَاتَكَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ. وَخَوْفُكَ مِنَ الرِّيحِ إِذَا حَرَّكَتْ سِتْرَ بَابِكَ وَأَنْتَ عَلَى الذَّنْبِ وَلَا يَضْطَرِبُ فُؤَادُكَ مِنْ نَظَرِ اللَّهِ إِلَيْكَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ. وَيْحَكَ! هَلْ تَدْرِي مَا كَانَ ذَنْبُ أَيُّوبَ فَابْتَلَاهُ بِالْبَلَاءِ فِي جَسَدِهِ وَذَهَابِ مَالِهِ؟ اسْتَغَاثَ بِهِ مِسْكِينٌ عَلَى ظَالِمٍ يَدْرَؤُهُ عَنْهُ، فَلَمْ يُعِنْهُ، وَلَمْ يَنْهَ الظَّالِمَ عَنْ ظُلْمِهِ، فَابْتَلَاهُ اللَّهُ»(١).

الشرح:

هذه الأحاديث والآثار تدل على أنه لا يجوز التساهل في الذنوب، فإن الذنوب معصية ومخالفة لأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإذا اجتمعت على العبد -ولو كانت يسيرة وصغيرة- صارت كبيرة، فتهلكه وتجره إلى الكفر؛ لأنه إذا تساهل بالشيء اليسير تساهل بالشيء الكبير، وإذا عظَّم الشيء الصغير عظَّم الكبير.

فعلى العبد ألا يتساهل بالذنوب والمعاصي مثل ما نسمع عن بعض الناس ممن يتساهلون في الذنوب ويستخفون بها، ويظنون أنها شيء يسير، وهي عند الله كبير: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥]، فبنو

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٣٢٤).

إسرائيل إنما هلكوا بهذا السبب، كانوا يتساهلون في المخالفات والذنوب وما زالوا كذلك حتى وقعوا في الكفر؛ لأن المعاصي بريد الكفر، يعني: توصل إلى الكفر.

وتلك المرأة التي دخلت النار في هرة؛ كانت عندها شيئًا سهلًا، فحبستها حتى ماتت، لا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تطلب الرزق، فدخلت النار بذلك. وهذا في قتل هرة، فكيف بالذي يقتل نفسًا مؤمنة؟! ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣].

بينما المرأة البغي التي كانت تستعمل الزنا، لمَّا رأت كلبًا يلهث من شدة العطش، فسقته، فغفر الله لها.

فلا يُتساهل فيه المعاصي ومحقرات الذنوب، وكذلك الحسنة لا تُستصغر، فالحسنة -ولو كانت يسيرة- يضاعفها الله جَلَّ وَعَلَا، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾، يعني: ولو كان مثقال الذرة حسنة فإنه يضاعفها ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠].

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ قَالَ: سَمِعْتُ الْأَوْزَاعِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ بِلَالَ بْنَ سَعْدٍ يَقُولُ: «لَا تَنْظُرْ إِلَى صِغَرِ الْخَطِيئَةِ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى مَنْ عَصَيْتَ»(١).

وَقَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: بِقَدْرِ مَا يَصْغُرُ الذَّنْبُ عِنْدَكَ يَعْظُمُ عِنْدَ اللَّهِ، وَبِقَدْرِ مَا يَعْظُمُ عِنْدَكَ يَصْغُرُ عِنْدَ اللَّهِ(٢).

وَقِيلَ: أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى، يَا مُوسَى إِنَّ أَوَّلَ مَنْ مَاتَ مِنْ خَلْقِي إِبْلِيسُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَصَانِي، وَإِنَّمَا أَعُدُّ مَنْ عَصَانِي مِنَ الْأَمْوَاتِ(٣).

وَفِي الْمُسْنَدِ وَجَامِعِ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]»(٤). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وَقَالَ حُذَيْفَةُ: «إِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ حَتَّى يَصِيرَ قَلْبُهُ كَالشَّاةِ الرَّبْدَاءِ»(٥).

---

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على الزهد (٢٢٦٧)، وابن المبارك في الزهد (٧١)، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٤٠٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٤٥٨).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة (٦٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٣٥٠).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة (٤٢) عن مسروق بن سليمان.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٧)، والترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، والحاكم (٢/ ٥٦٢).

(٥) أخرجه أبو داود في الزهد (٢٧١)، وأبو بكر الخلال في السنة (٥/ ٥٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٣٧٤).

الشرح:

قوله: **(انْظُرْ إِلَى مَنْ عَصَيْتَ)**، هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فلا تنظر إلى أن هذه سهلة وهذه يسيرة، بل انظر إلى أنها مخالفة لله عَزَّوَجَلَّ.

فالواجب على المسلم أن يعظم أوامر الله ونواهيه: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج:٣٠]، ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [الحجر:٣٢]، فعلى المسلم أن يحترم ويعظم أوامر الله ونواهيه، ولا يتساهل.

وقوله: **(إِنَّ أَوَّلَ مَنْ مَاتَ مِنْ خَلْقِي إِبْلِيسُ)**، يعني: الذي يعصي الله يموت قلبه وإن لم يمت جسده، وموت القلب أعظم من موت الجسد، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [الأنعام:١٢٢]، كان ميتًا بالكفر، فأحياه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالإيمان، سمى الإيمان حياة، وسمى الكفر موتًا، فدل على أن الموت كما يكون بمفارقة الروح للبدن، يكون بموت القلب، وهو الأشد.

وقوله: **(نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ)**؛ لأن الذنوب تؤثر في القلب حتى يمرض، ثم تؤثر فيه حتى يزداد مرضًا ويموت، فأول شيء تنكت فيه نكتة فيمرض ويسود، ، ثم تعظم هذه النكتة حتى تغطي على القلب، وهذا هو الران الذي قال عنه الله جَلَّوَعَلَا: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

وقوله: **(كَالشَّاةِ الرَّبْدَاءِ)** يعني: السوداء.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ صَالِحٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، حَدَّثَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، فَإِنَّكُمْ أَهْلُ هَذَا الْأَمْرِ مَا لَمْ تَعْصُوا اللَّهَ، فَإِذَا عَصَيْتُمُوهُ بَعَثَ عَلَيْكُمْ مَنْ يَلْحَاكُمْ كَمَا يُلْحَى هَذَا الْقَضِيبُ» -لِقَضِيبٍ فِي يَدِهِ- ثُمَّ لَحَا قَضِيبَهُ فَإِذَا هُوَ أَبْيَضُ يَصْلِدُ[1].

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: عَنْ وَهْبٍ أَنَّ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ فِي بَعْضِ مَا يَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: «إِنِّي إِذَا أُطِعْتُ رَضِيتُ، وَإِذَا رَضِيتُ بَارَكْتُ، وَلَيْسَ لِبَرَكَتِي نِهَايَةٌ، وَإِذَا عُصِيتُ غَضِبْتُ، وَإِذَا غَضِبْتُ لَعَنْتُ، وَلَعْنَتِي تَبْلُغُ السَّابِعَ مِنَ الْوَلَدِ»[2].

الشرح:

قوله: **(بَعَثَ عَلَيْكُمْ مَنْ يَلْحَاكُمْ)**، أي: يغلب عليكم ويذلكم، فالإنسان لا يعتمد على نسبه وعلى شرفه، فإن الله يهلك الطغاة ولو كانوا من أشراف الناس، فهذه قريش قبيلة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم أشرف قبائل العرب، إذا عصوا الله فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ينتقم منهم ولا ينفعهم نسبهم.

وهذا أبو لهب أنزل الله فيه قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة، وما نفعه أنه من قريش، ولا أنه عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله: **(وَلَعْنَتِي تَبْلُغُ السَّابِعَ مِنَ الْوَلَدِ)**، هذا وعيد شديد، إن الله جَلَّ وَعَلَا يرضى إذا أطيع، ويغضب إذا عُصي، وأنّ اللعنة تؤثر حتى على ذرية العاصي، وهذا من شؤم المعاصي والعياذ بالله .

---

(١) أخرجه أحمد (١/٤٥٨).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (٢٨٩).

وَذَكَرَ أَيْضًا عَنْ وَكِيعٍ، حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا، عَنْ عَامِرٍ قَالَ: كَتَبَتْ عَائِشَةُ إِلَى مُعَاوِيَةَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَمِلَ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ عَدَّ حَامِدَهُ مِنَ النَّاسِ ذَامًّا»(١).

وَذَكَرَ أَبُو نُعَيْمٍ عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: «لِيَحْذَرِ امْرُؤٌ أَنْ تَلْعَنَهُ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ»، ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرِي مِمَّ هَذَا؟» قُلْتُ: لَا، قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ يَخْلُو بِمَعَاصِي اللَّهِ فَيُلْقِي اللَّهُ بُغْضَهُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ»(٢).

الشرح:

كذلك من أضرار المعاصي أن الله يلقي على أهلها البغضاء في قلوب الناس فيبغضونه؛ لأن الناس -كما هو معروف وظاهر- يحبون أهل الطاعة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦]؛ لأن الله يحبهم في السماء وتحبهم الملائكة، ثم ينزل لهم القبول في الأرض، وإن لم يكن عندهم مال ولا يعطون الناس شيئًا، لكن يحبونهم من أجل الطاعة، بخلاف العاصي، فإن الله يُلقي بغضه في قلوب الناس فيبغضونه ويصبح ذليلًا، ولذلك تجد العصاة ذليلين حتى وإن كانوا كبارًا في مناصبهم أو نسبهم، يجعل الله ذل المعصية على وجوههم.

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٩١٥).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢١٥). كما أخرجه أحمد في الزهد (٧٦٦) مختصرًا.

وَذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ لِأَبِيهِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ: أَنَّهُ لَمَّا رَكِبَهُ الدَّيْنُ اغْتَمَّ لِذَلِكَ، فَقَالَ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ هَذَا الْغَمَّ بِذَنْبٍ أَصَبْتُهُ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً»(١).

وَهَاهُنَا نُكْتَةٌ دَقِيقَةٌ يَغْلَطُ فِيهَا النَّاسُ فِي أَمْرِ الذَّنْبِ، وَهِيَ أَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ تَأْثِيرَهُ فِي الْحَالِ، وَقَدْ يَتَأَخَّرُ تَأْثِيرُهُ فَيُنْسَى، وَيَظُنُّ الْعَبْدُ أَنَّهُ لَا يُغَبِّرُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

إِذَا لَمْ يُغَبِّرْ حَائِطٌ فِي وُقُوعِهِ ... فَلَيْسَ لَهُ بَعْدَ الْوُقُوعِ غُبَارُ

وَسُبْحَانَ اللَّهِ! مَاذَا أَهْلَكَتْ هَذِهِ النُّكْتَةُ مِنَ الْخَلْقِ؟ وَكَمْ أَزَالَتْ مِنْ نِعْمَةٍ؟ وَكَمْ جَلَبَتْ مِنْ نِقْمَةٍ؟

وَمَا أَكْثَرَ الْمُغْتَرِّينَ بِهَا الْعُلَمَاءِ وَالْفُضَلَاءِ، فَضْلًا عَنِ الْجُهَّالِ! وَلَمْ يَعْلَمِ الْمُغْتَرُّ أَنَّ الذَّنْبَ يَنْقَضُّ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ، كَمَا يَنْقَضُّ السُّمُّ، وَكَمَا يَنْقَضُّ الْجُرْحُ الْمُنْدَمِلُ عَلَى الْغِشِّ وَالدَّغَلِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ: «اعْبُدُوا اللَّهَ كَأَنَّكُمْ تَرَوْنَهُ، وَعُدُّوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الْمَوْتَى، وَاعْلَمُوا أَنَّ قَلِيلًا يُغْنِيكُمْ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يُلْهِيكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْبِرَّ لَا يَبْلَى، وَأَنَّ الْإِثْمَ لَا يُنْسَى»(٢).

وَنَظَرَ بَعْضُ الْعُبَّادِ إِلَى صَبِيٍّ، فَتَأَمَّلَ مَحَاسِنَهُ، فَأُتِيَ فِي مَنَامِهِ، وَقِيلَ لَهُ: لَتَجِدَنَّ غِبَّهَا بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً(٣).

---

(١) لم أقف عليه في المطبوع من الزهد للإمام أحمد، وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٧١).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (٧١٦).

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦/ ٨٤) عن أبي عبد الله بن الجلاء، وأنه بسببها نسي =

هَذَا مَعَ أَنَّ لِلذَّنْبِ نَقْدًا مُعَجَّلًا لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ، قَالَ سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصِيبُ الذَّنْبَ فِي السِّرِّ فَيُصْبِحُ وَعَلَيْهِ مَذَلَّتُهُ»(١).

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِيُّ: «عَجِبْتُ مِنْ ذِي عَقْلٍ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ لَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ، ثُمَّ هُوَ يُشْمِتُ بِنَفْسِهِ كُلَّ عَدُوٍّ لَهُ»، قِيلَ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: «يَعْصِي اللَّهَ فَيُشْمِتُ بِهِ فِي الْقِيَامَةِ كُلَّ عَدُوٍّ»(٢).

الشرح:

قوله: (**وَيَظُنُّ الْعَبْدُ أَنَّهُ لَا يُغَيِّرُ بَعْدَ ذَلِكَ**)؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا قد يمهل العاصي، فيظن العاصي أنه قد غُفر له، وأن الله لن يعاجله بالعقوبة، وهذا من مكر الله به، من أجل أن يزداد من الذنوب. وبعض الناس إذا ما نزلت به العقوبة سريعة يتساهل في الذنب ويقول: لو كان شيئًا مهمًّا لصار له عقوبة، فالله جَلَّ وَعَلَا يُمهل العاصي، ثم يأخذه على غرة.

فلا يتساهل الإنسان بالذنب، ويستبطئ العقوبة، فإن العقوبة قد تتأخر وتصير أعظم مما لو عُجِّلت، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة:٦]، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يحصي عليهم أعمالهم، ولكنهم نسوها، فإذا نسي

=

القرآن.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا العقوبات (٦٧)، وفي التوبة (١٩٥).

(٢) لم أقف عليه مسندًا.

العبد الذنب فإن الله لا ينساه.

قوله: **(فَلَيْسَ لَهُ بَعْدَ الْوُقُوعِ غُبَارُ)**، فالغبار إنما يكون وقت السقوط، أما إذا سقط يروح الغبار.

وقوله: **(لَتَجِدَنَّ غِبَّهَا بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً)**، وهذا في نظرة واحدة إلى ما حرم الله، فكيف بمن يطيل النظر إلى الحرمات؟!.

وقوله: **(هُوَ يُشْمِتُ بِنَفْسِهِ كُلَّ عَدُوٍّ)** فرقٌ بين يُشْمتُ ويُشَمِّتُ، يُشَمِّت يعني: يشمت العاطس ويقول له: يرحمك الله، وأما يُشْمت فمعناها: أنه يشنع عليه.

فَصْلٌ

وَلِلْمَعَاصِي مِنَ الْآثَارِ الْقَبِيحَةِ الْمَذْمُومَةِ والْمُضِرَّةِ بِالْقَلْبِ وَالْبَدَنِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ.

فَمِنْهَا: حِرْمَانُ الْعِلْمِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي الْقَلْبِ، وَالْمَعْصِيَةُ تُطْفِئُ ذَلِكَ النُّورَ.

وَلَمَّا جَلَسَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ بَيْنَ يَدَيْ مَالِكٍ وَقَرَأَ عَلَيْهِ أَعْجَبَهُ مَا رَأَى مِنْ وُفُورِ فِطْنَتِهِ، وَتَوَقُّدِ ذَكَائِهِ، وَكَمَالِ فَهْمِهِ، فَقَالَ: إِنِّي أَرَى اللَّهَ قَدْ أَلْقَى عَلَى قَلْبِكَ نُورًا، فَلَا تُطْفِئْهُ بِظُلْمَةِ الْمَعْصِيَةِ(١).

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ(٢):

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي
وَقَالَ اعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ فَضْلٌ ... وَفَضْلُ اللَّهِ لَا يُؤْتَاهُ عَاصِ

الشرح:

لَمَّا ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ آثار المعاصي الكثيرة، وتحذير السلف منها؛ أجملها في هذه الكلمة، فقال: (وَلِلْمَعَاصِي) يعني: لها غير ذلك (مِنَ الْآثَارِ الْقَبِيحَةِ الْمَذْمُومَةِ)، فآثارها كثيرة على القلوب: فهي تقسي القلوب وتعميها وتمرضها،

---

(١) ذكره النووي في تهذيب الأسماء (١/ ٦٩)، ولم أقف عليه مسندًا.

وذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥١/ ٢٨٦) أنه قال له: «يا محمد، اتق الله واجتنب المعاصي، فإنه سيكون لك شأن من الشأن».

(٢) يُنظر: ديوانه (ص٨٧).

وعلى الأبدان: بالأمراض والأسقام والآفات، وعلى الأوطان: في شح المياه، وانحباس الأمطار، وإصابة الثمار بالآفات، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

قوله: **(فَمِنْهَا: حِرْمَانُ الْعِلْمِ)**، بسبب المعاصي يحرم صاحبها من العلم النافع؛ لأن العلم نور، وهذا النور إنما يحصل لأهل الإيمان وأهل الطاعة، فلا يحصل لأهل المعاصي، وإن تعلموا بألسنتهم فإنهم يحرمون من العلم في القلوب؛ لأن العلم قسمان: قسم على الألسنة، وهذا يكون مع المنافقين وأهل الضلال، بل ويكون مع الكفار أيضًا. وعلم بالقلوب، وهذا لا يُعطاه إلا أهل الإيمان، وأهل اليقين، وأهل الخشية، الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]. هذا هو العلم النافع.

ومن ذلك هذه الأبيات المذكورة عن الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: **(شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي)** وكيع هو شيخ من مشايخ الإمام الشافعي.

وقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يجلس يتلقى العلم على الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويروي عنه الموطأ، فكان يحفظ ما يسمع بسرعة، وكان شابًّا صغيرًا، فتعجب منه شيخه الإمام مالك، فأوصاه بهذه الوصية، وقال له: **(إِنِّي أَرَى اللَّهَ قَدْ أَلْقَى عَلَى قَلْبِكَ نُورًا، فَلَا تُطْفِئْهُ بِظُلْمَةِ الْمَعْصِيَةِ)**.

وَمِنْهَا: حِرْمَانُ الرِّزْقِ. وَفِي الْمُسْنَدِ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ»[(١)]، وَقَدْ تَقَدَّمَ.

وَكَمَا أَنَّ تَقْوَى اللَّهِ مَجْلَبَةٌ لِلرِّزْقِ، فَتَرْكُ التَّقْوَى مَجْلَبَةٌ لِلْفَقْرِ، فَمَا اسْتُجْلِبَ رِزْقُ اللَّهِ بِمِثْلِ تَرْكِ الْمَعَاصِي.

وَمِنْهَا: وَحْشَةٌ يَجِدُهَا الْعَاصِي فِي قَلْبِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ، لَا تُوَازِنُهَا وَلَا تُقَارِنُهَا لَذَّةٌ أَصْلًا، وَلَوِ اجْتَمَعَتْ لَهُ لَذَّاتُ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا لَمْ تَفِ بِتِلْكَ الْوَحْشَةِ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَحِسُّ بِهِ إِلَّا مَنْ فِي قَلْبِهِ حَيَاةٌ، وَمَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامٌ.

فَلَوْ لَمْ تُتْرَكِ الذُّنُوبُ إِلَّا حَذَرًا مِنْ وُقُوعِ تِلْكَ الْوَحْشَةِ، لَكَانَ الْعَاقِلُ حَرِيًّا بِتَرْكِهَا.

وَشَكَا رَجُلٌ إِلَى بَعْضِ الْعَارِفِينَ وَحْشَةً يَجِدُهَا فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ لَهُ[(٢)]:

إِذَا كُنْتَ قَدْ أَوْحَشَتْكَ الذُّنُوبُ ... فَدَعْهَا إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنِسِ

وَلَيْسَ عَلَى الْقَلْبِ أَمَرُّ مِنْ وَحْشَةِ الذَّنْبِ عَلَى الذَّنْبِ، فَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَمِنْهَا: الْوَحْشَةُ الَّتِي تَحْصُلُ لَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَلَا سِيَّمَا أَهْلُ الْخَيْرِ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُ يَجِدُ وَحْشَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَكُلَّمَا قَوِيَتْ تِلْكَ الْوَحْشَةُ بَعُدَ مِنْهُمْ وَمِنْ مُجَالَسَتِهِمْ، وَحُرِمَ بَرَكَةَ الِانْتِفَاعِ بِهِمْ، وَقَرُبَ مِنْ حِزْبِ الشَّيْطَانِ بِقَدْرِ مَا بَعُدَ مِنْ حِزْبِ الرَّحْمَنِ، وَتَقْوَى هَذِهِ الْوَحْشَةُ حَتَّى تَسْتَحْكِمَ، فَتَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٩).

(٢) يُشبه قول سمنون بن حمزة:

أَمُسْتَوْحِشٌ أَنْتَ مِمَّا جَنَيْتَ ... فَأَحْسِنْ إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنِسِ

ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (٢/٤٢٨).

وَوَلَدِهِ وَأَقَارِبِهِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ، فَتَرَاهُ مُسْتَوْحِشًا مِنْ نَفْسِهِ.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «إِنِّي لَأَعْصِي اللَّهَ فَأَرَى ذَلِكَ فِي خُلُقِ دَابَّتِي وَامْرَأَتِي»(١).

الشرح:

ومن آثار المعاصي أن يُحرم العاصي الرزق، كما في الحديث: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ**»، وهذا في قوله تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٦].

وقوله: (**تَقْوَى اللَّهِ مَجْلَبَةٌ لِلرِّزْقِ**) كما في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢، ٣]، فتقوى الله سبب للخروج من الشدائد، وسبب لجلب الرزق، والمعصية بالعكس.

وقوله: (**فَتَرْكُ التَّقْوَى مَجْلَبَةٌ لِلْفَقْرِ**)، فإن قيل: أنتم تقولون هذا، فما بال الكفار بأيديهم أموال وقوة وهم كفار؟! فنقول لهم: الكفار يستدرجون، وهذا استدراج من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لهم، وأما ما يُعطاه أهل الإيمان فإنما هو إعانة لهم على طاعة الله، وجزاء لهم على تقواهم وإحسانهم، ففرقٌ بين

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٠٩) من كلام الفضيل بن عياض، ولفظه: «فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي».

العطائين: عطاء أهل الإيمان، وعطاء أهل الكفر.

كذلك العاصي يجد وحشة في قلبه بينه وبين الله، ووحشة بينه وبين الناس، وتكون عليه ذلة واضحة، فلا يستطيع أن يداوم على مجالسة أهل العلم، ولا يستطيع إنه يمشي معهم، وأشدُّ من ذلك أنه لـمَّا استوحش قلبه من الله استوحش من الناس.

ولذلك يقول الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في العصاة: «إِنَّهُمْ وَإِنْ طَقْطَقَتْ بِهِمُ الْبِغَالُ، وَهَمْلَجَتْ بِهِمُ الْبَرَاذِينُ، فَإِنَّ ذُلَّ الْمَعْصِيَةِ لَا يُفَارِقُ قُلُوبَهُمْ، أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُذِلَّ مَنْ عَصَاهُ»(١)، فهم في الظاهر في عز وفي نعيم، ولكن في قلوبهم ذلة ووحشة، لا يستأنسون بما أعطوا، ولا يتلذذون بما رُزِقوا.

قوله: **(وَمَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامُ)**، يقول الشاعر(٢):

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوَانُ عَلَيْهِ ... وَمَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامُ

لو يُضرب الميت لا يحس ولا يدري، فكذلك العاصي لا يتأثر بالمواعظ، ولا يتأثر بالذكر؛ لأنه ميت القلب.

قوله: **(وَكُلَّمَا قَوِيَتْ تِلْكَ الْوَحْشَةُ بَعُدَ مِنْهُمْ وَمِنْ مُجَالَسَتِهِمْ)**، فلا يحب الجلوس معهم ولا يحب سماع كلامهم، ولا يحب مصاحبتهم، وإنما يصحب أمثاله من العصاة، ويأنس بهم؛ لأنه -كما قيل-: الطيور على أشباهها تقع.

وقوله: **(وَقَرُبَ مِنْ حِزْبِ الشَّيْطَانِ بِقَدْرِ مَا بَعُدَ مِنْ حِزْبِ الرَّحْمَنِ)**؛ لأنه لا يستطيع أن يعيش وحده، لا بد له من جلساء ومرافقين، فإما أن يرافق أهل

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ١٤٩) بنحوه، وسيأتي في كلام المصنف.

(٢) البيت لأبي الطيب المتنبي، يُنظر: ديوانه (ص١٦٤).

الخير، وإما أن يرافق أهل الشر لابد، **(وَتَقْوَى هَذِهِ الْوَحْشَةُ حَتَّى تَسْتَحْكِمَ)** حتى إنه يستوحش من زوجته ومن أقاربه بسبب المعصية.

ولهذا يقول بعضهم: **(إِنِّي لَأَعْصِي اللَّهَ فَأَرَى ذَلِكَ فِي خُلُقِ دَابَّتِي، وَامْرَأَتِي)**، تنفر منه دابته، وتنفر منه زوجته؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦]، أي: يجعل لهم محبة في قلوب الناس، بخلاف العاصي فإن الناس -ولو كانوا يتظاهرون بصداقته- يبغضونه في قلوبهم، وينفرون منه في قلوبهم.

وَمِنْهَا: تَعْسِيرُ أُمُورِهِ عَلَيْهِ، فَلَا يَتَوَجَّهُ لِأَمْرٍ إِلَّا يَجِدُهُ مُغْلَقًا دُونَهُ أَوْ مُتَعَسِّرًا عَلَيْهِ. وَهَذَا كَمَا أَنَّ مَنْ اتَّقَى اللَّهَ جَعَلَ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا، فَمَنْ عَطَّلَ التَّقْوَى جَعَلَ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ عُسْرًا.

وَيَاللَّهِ الْعَجَبُ! كَيْفَ يَجِدُ الْعَبْدُ أَبْوَابَ الْخَيْرِ وَالْمَصَالِحِ مَسْدُودَةً عَنْهُ وَطُرُقَهَا مُعَسَّرَةً عَلَيْهِ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ أُتِيَ؟

وَمِنْهَا: ظُلْمَةٌ يَجِدُهَا فِي قَلْبِهِ حَقِيقَةً، يَحِسُّ بِهَا كَمَا يَحِسُّ بِظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ إِذَا ادْلَهَمَّ، فَتَصِيرُ ظُلْمَةُ الْمَعْصِيَةِ لِقَلْبِهِ كَالظُّلْمَةِ الْحِسِّيَّةِ لِبَصَرِهِ، فَإِنَّ الطَّاعَةَ نُورٌ، وَالْمَعْصِيَةَ ظُلْمَةٌ، وَكُلَّمَا قَوِيَتِ الظُّلْمَةُ ازْدَادَتْ حَيْرَتُهُ، حَتَّى يَقَعَ فِي الْبِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ وَالْأُمُورِ الْمُهْلِكَةِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، كَأَعْمَى أُخْرِجَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ يَمْشِي وَحْدَهُ، وَتَقْوَى هَذِهِ الظُّلْمَةُ حَتَّى تَظْهَرَ فِي الْعَيْنِ، ثُمَّ تَقْوَى حَتَّى تَعْلُوَ الْوَجْهَ وَتَصِيرُ سَوَادًا فِيهِ حَتَّى يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ: «إِنَّ لِلْحَسَنَةِ ضِيَاءً فِي الْوَجْهِ، وَنُورًا فِي الْقَلْبِ، وَسَعَةً فِي الرِّزْقِ، وَقُوَّةً فِي الْبَدَنِ، وَمَحَبَّةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَإِنَّ لِلسَّيِّئَةِ سَوَادًا فِي الْوَجْهِ، وَظُلْمَةً فِي الْقَبْرِ وَالْقَلْبِ، وَوَهْنًا فِي الْبَدَنِ، وَنَقْصًا فِي الرِّزْقِ، وَبُغْضَةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ»[١].

الشرح:

قوله: (**وَهَذَا كَمَا أَنَّ مَنْ اتَّقَى اللَّهَ جَعَلَ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا**)، كما في قوله الله

---

(١) لم أقف عليه مسندًا، وقد أخرج نحوه ابن أبي الدنيا في التوبة (١٩٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٨٧/٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٤٦/٥) عن الحسن البصري.

تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢، ٣]. ومفهوم الآية: أن من لا يتق الله لا يجعل له مخرجًا من الشدائد والعسر والكربات.

وقوله: **(فَمَنْ عَطَّلَ التَّقْوَى جَعَلَ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ عُسْرًا)**، والأشد من ذلك أنه ما يدري ما سبب تعسر الأمور عليه، وقد يلقي باللوم على غيره ويقول: هو الذي تسبب لي في ذلك العسر، ولا يفكر أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي عسر أموره بسبب سلوكه ومعاصيه.

وقوله: **(فَتَصِيرُ ظُلْمَةُ الْمَعْصِيَةِ لِقَلْبِهِ كَالظُّلْمَةِ الْحِسِّيَّةِ لِبَصَرِهِ)**، بخلاف أهل التقوى فإنهم يجدون في قلوبهم نورًا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد:٢٨]. فتجد صاحب الطاعة على وجهه النور، والأنس في قلبه، والانشراح في صدره من آثار الطاعة، أما العاصي فإنه يجد ظلمة في قلبه، وظلمة في تصرفاته، وهذه الظلمة تظهر حتى على لون جسمه، فتجد وجهه أسود مكفهر مقطب.

وَمِنْهَا: أَنَّ الْمَعَاصِيَ تُوهِنُ الْقَلْبَ وَالْبَدَنَ.

أَمَّا وَهْنُهَا لِلْقَلْبِ فَأَمْرٌ ظَاهِرٌ، بَلْ لَا تَزَالُ تُوهِنُهُ حَتَّى تُزِيلَ حَيَاتَهُ بِالْكُلِّيَّةِ.

وَأَمَّا وَهْنُهَا لِلْبَدَنِ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ قُوَّتُهُ مِنْ قَلْبِهِ، وَكُلَّمَا قَوِيَ قَلْبُهُ قَوِيَ بَدَنُهُ، وَأَمَّا الْفَاجِرُ فَإِنَّهُ -وَإِنْ كَانَ قَوِيَّ الْبَدَنِ- فَهُوَ أَضْعَفُ شَيْءٍ عِنْدَ الْحَاجَةِ، فَتَخُونُهُ قُوَّتُهُ عِنْدَ أَحْوَجِ مَا يَكُونُ إِلَى نَفْسِهِ. وَتَأَمَّلْ قُوَّةَ أَبْدَانِ فَارِسَ وَالرُّومِ، كَيْفَ خَانَتْهُمْ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهَا، وَقَهَرَهُمْ أَهْلُ الْإِيمَانِ بِقُوَّةِ أَبْدَانِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ؟

وَمِنْهَا: حِرْمَانُ الطَّاعَةِ. فَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِلذَّنْبِ عُقُوبَةٌ إِلَّا أَنْ يَصُدَّ عَنْ طَاعَةٍ تَكُونُ بَدَلَهُ، وَيَقْطَعَ طَرِيقَ طَاعَةٍ أُخْرَى، فَيَنْقَطِعَ عَلَيْهِ بِالذَّنْبِ طَرِيقٌ ثَالِثَةٌ، ثُمَّ رَابِعَةٌ، وَهَلُمَّ جَرًّا، فَيَنْقَطِعُ عَلَيْهِ بِالذَّنْبِ طَاعَاتٌ كَثِيرَةٌ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا. وَهَذَا كَرَجُلٍ أَكَلَ أَكْلَةً أَوْجَبَتْ لَهُ مِرْضَةً طَوِيلَةً مَنَعَتْهُ مِنْ عِدَّةِ أَكَلَاتٍ أَطْيَبَ مِنْهَا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

الشرح:

من آثار المعاصي على العصاة أنها تضعف القلب والبدن، فتجد أهل الطاعات عندهم قوة في أبدانهم، وقوة في قلوبهم وعزائمهم.

وقوله: (**وَأَمَّا الْفَاجِرُ فَإِنَّهُ -وَإِنْ كَانَ قَوِيَّ الْبَدَنِ- فَهُوَ أَضْعَفُ شَيْءٍ عِنْدَ الْحَاجَةِ**)، القوة الإيمانية هي التي تنفع، أما قوة البدن فهذه قوة حيوانية لا قيمة لها، فما كان هناك أقوى من أبدان فارس والروم، ومع هذا كانوا أضعف في الحروب وعند اللقاء، بينما أهل الإيمان أقوى الناس عند اللقاء وعند القتال، ولذلك تغلب المسلمون على فارس والروم مع ضعف أبدان المسلمين وقتئذٍ

وقوة الروم والفرس، لكن ما نفعتهم قوتهم.

ومن عقوبات المعاصي أن الإنسان يحرم الطاعة، فتجد العصاة أثقل شيء عليهم الصلاة، بل هي عندهم أثقل من الجبال، في حين أنها خفيفة على أهل الإيمان، ويجدون لها لذة وحلاوة، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥]. أما الذي ليس في قلبه خشوع فهذا تصعب الصلاة، ويتكاسل عنها، ولا يقوم لها، وتكون ثقيلة عليه.

وكما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]، تصبح الطاعة ثقيلة عليه، وبغيضة إليه، وينفر عنها غاية النفر، مثل المريض لا يستطيع أن يأكل أو يشرب، مع أن الطعام والشراب ألذ شيء، لكنه يكون مرًّا في ذوقه لأنه مريض، كذلك العاصي تكون الطاعة عليه شاقة.

فالإنسان -إن كان له عقل- بين أمرين: إما أن يكون مطيعًا، وإما أن يكون عاصيًا، أما المجنون فليس له طاعة ولا معصية.

وَمِنْهَا: أَنَّ الْمَعَاصِيَ تُقَصِّرُ الْعُمُرَ وَتَمْحَقُ بَرَكَتَهُ وَلَا بُدَّ، فَإِنَّ الْبِرَّ كَمَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ، فَالْفُجُورُ يُقَصِّرُ الْعُمُرَ.

وَقَدِ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: نُقْصَانُ عُمُرِ الْعَاصِي هُوَ ذَهَابُ بَرَكَةِ عُمُرِهِ وَمَحْقُهَا عَلَيْهِ. وَهَذَا حَقٌّ، وَهُوَ بَعْضُ تَأْثِيرِ الْمَعَاصِي.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: بَلْ تُنْقِصُهُ حَقِيقَةً، كَمَا تُنْقِصُ الرِّزْقَ، فَجَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِلْبَرَكَةِ فِي الرِّزْقِ أَسْبَابًا كَثِيرَةً تُكَثِّرُهُ وَتَزِيدُهُ، وَلِلْبَرَكَةِ فِي الْعُمُرِ أَسْبَابًا تُكَثِّرُهُ وَتَزِيدُهُ. قَالُوا: وَلَا يَمْتَنِعُ زِيَادَةُ الْعُمُرِ بِأَسْبَابٍ كَمَا يُنْقَصُ بِأَسْبَابٍ، فَالْأَرْزَاقُ وَالْآجَالُ، وَالسَّعَادَةُ وَالشَّقَاوَةُ، وَالصِّحَّةُ وَالْمَرَضُ، وَالْغِنَى وَالْفَقْرُ، وَإِنْ كَانَتْ بِقَضَاءِ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ، فَهُوَ يَقْضِي مَا يَشَاءُ بِأَسْبَابٍ جَعَلَهَا مُوجِبَةً لِمُسَبَّبَاتِهَا مُقْتَضِيَةً لَهَا.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى: تَأْثِيرُ الْمَعَاصِي فِي مَحْقِ الْعُمُرِ إِنَّمَا هُوَ بِأَنَّ حَقِيقَةَ الْحَيَاةِ هِيَ حَيَاةُ الْقَلْبِ، وَلِهَذَا جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْكَافِرَ مَيِّتًا غَيْرَ حَيٍّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى، ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل:٢١].

فَالْحَيَاةُ فِي الْحَقِيقَةِ حَيَاةُ الْقَلْبِ، وَعُمُرُ الْإِنْسَانِ مُدَّةُ حَيَاتِهِ، فَلَيْسَ عُمُرُهُ إِلَّا أَوْقَاتَ حَيَاتِهِ بِاللَّهِ، فَتِلْكَ سَاعَاتُ عُمُرِهِ، فَالْبِرُّ وَالتَّقْوَى وَالطَّاعَةُ تَزِيدُ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الَّتِي هِيَ حَقِيقَةُ عُمُرِهِ، وَلَا عُمُرَ لَهُ سِوَاهَا.

وَبِالْجُمْلَةِ، فَالْعَبْدُ إِذَا أَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ وَاشْتَغَلَ بِالْمَعَاصِي ضَاعَتْ عَلَيْهِ أَيَّامُ حَيَاتِهِ الْحَقِيقِيَّةُ، الَّتِي يَجِدُ غِبَّ إِضَاعَتِهَا يَوْمَ يَقُولُ: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر:٢٤]. فَلَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ مَعَ ذَلِكَ تَطَلُّعٌ إِلَى مَصَالِحِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْأُخْرَوِيَّةِ أَوْ لَا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ تَطَلُّعٌ إِلَى ذَلِكَ فَقَدْ ضَاعَ عَلَيْهِ عُمُرُهُ كُلُّهُ، وَذَهَبَتْ حَيَاتُهُ بَاطِلًا، وَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَلُّعٌ إِلَى ذَلِكَ طَالَتْ عَلَيْهِ الطَّرِيقُ بِسَبَبِ

الْعَوَائِقِ، وَتَعَسَّرَتْ عَلَيْهِ أَسْبَابُ الْخَيْرِ بِحَسْبِ اشْتِغَالِهِ بِأَضْدَادِهَا، وَذَلِكَ نُقْصَانٌ حَقِيقِيٌّ مِنْ عُمُرِهِ.

وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ أَنَّ عُمُرَ الْإِنْسَانِ مُدَّةُ حَيَاتِهِ، وَلَا حَيَاةَ لَهُ إِلَّا بِإِقْبَالِهِ عَلَى رَبِّهِ، وَالتَّنَعُّمِ بِحُبِّهِ وَذِكْرِهِ، وَإِيثَارِ مَرْضَاتِهِ.

الشرح:

ومن آثار المعاصي أنها **(تُقَصِّرُ الْعُمُرَ وَتَمْحَقُ بَرَكَتَهُ)** إما قصرًا حسيًّا، وإما قصرًا معنويًّا، فلا يجد العاصي في عمره بركة، فيكون طوله وقصره سواء.

وقوله: **(نُقْصَانُ عُمُرِ الْعَاصِي هُوَ ذَهَابُ بَرَكَةِ عُمُرِهِ وَمَحْقُهَا عَلَيْهِ)** هذا واضح أن العمر الذي يُستعمل في الطاعة -ولو كان قصيرًا- فيه البركة وفيه خير، وأما العمر الذي يستعمل في المعاصي فلا خير فيه ولو كان طويلًا، ولو عمر صاحبه مئة سنة، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ [البقرة:٩٦]، فطول العمر أو قصره لا ينفع ولا يضر إلا اقترن بالطاعة أو المعصية.

وفرقٌ بين من يسهر الليل على الطاعة؛ من صلاة وتلاوة القرآن واستغفار، ومن يسهر الليل على لهو ولعب ومشاهدة الفضائيات والإنترنت، فهذا يكون منهك البدن، ميت القلب كسلان، وينام عن صلاة الفجر التي هي فرض، وذاك يقوم إلى عبادته نشيطًا، منشرح الصدر، مسرورًا، ويسهل عليه القيام لصلاة الفجر، وتسهل عليه الطاعة، ففرقٌ بين هذا وهذا، هذا استعمل عمره في الخير، وهذا استعمل عمره في الشر.

فَصْلٌ

وَمِنْهَا: أَنَّ الْمَعَاصِيَ تَزْرَعُ أَمْثَالَهَا، وَيُولِدُ بَعْضُهَا بَعْضًا، حَتَّى يَعِزَّ عَلَى الْعَبْدِ مُفَارَقَتُهَا وَالْخُرُوجُ مِنْهَا، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «إِنَّ مِنْ عُقُوبَةِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةُ بَعْدَهَا، وَإِنَّ مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةُ بَعْدَهَا»(١).

فَالْعَبْدُ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً قَالَتْ أُخْرَى إِلَى جَنْبِهَا: اعْمَلْنِي أَيْضًا، فَإِذَا عَمِلَهَا، قَالَتِ الثَّالِثَةُ كَذَلِكَ، وَهَلُمَّ جَرًّا، فَتَضَاعَفُ الرِّبْحُ، وَتَزَايَدَتِ الْحَسَنَاتُ.

وَكَذَلِكَ كَانَتِ السَّيِّئَاتُ أَيْضًا، حَتَّى تَصِيرَ الطَّاعَاتُ وَالْمَعَاصِي هَيْئَاتٍ رَاسِخَةً، وَصِفَاتٍ لَازِمَةً، وَمَلَكَاتٍ ثَابِتَةً، فَلَوْ عَطَّلَ الْمُحْسِنُ الطَّاعَةَ لَضَاقَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَأَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ بِأَنَّهُ كَالْحُوتِ إِذَا فَارَقَ الْمَاءَ، حَتَّى يُعَاوِدَهَا، فَتَسْكُنَ نَفْسُهُ، وَتَقَرَّ عَيْنُهُ.

وَلَوْ عَطَّلَ الْمُجْرِمُ الْمَعْصِيَةَ وَأَقْبَلَ عَلَى الطَّاعَةِ؛ لَضَاقَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَضَاقَ صَدْرُهُ، وَأَعْيَتْ عَلَيْهِ مَذَاهِبُهُ، حَتَّى يُعَاوِدَهَا، حَتَّى إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْفُسَّاقِ لَيُوَاقِعُ الْمَعْصِيَةَ مِنْ غَيْرِ لَذَّةٍ يَجِدُهَا، وَلَا دَاعِيَةٍ إِلَيْهَا، إِلَّا بِمَا يَجِدُ مِنَ الْأَلَمِ بِمُفَارَقَتِهَا.

كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ شَيْخُ الْقَوْمِ الْحَسَنُ بْنُ هَانِئٍ، حَيْثُ يَقُولُ(٢):

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ ... وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

---

(١) ذكره ابن تيمية في أمراض القلوب (ص٣٩)، ونسبه إلى سعيد بن جبير.

(٢) البيت منسوب للأعشى ميمون بن قيس الشاعر الجاهلي. يُنظر: ديوانه (١٢/٢).

ولأبي نواس الحسن بن هانئ بيت في معناه، يقول فيه:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء ... وداوني بالتي كانت هي الداء

يُنظر: ديوانه (ص٥٣).

وَقَالَ الْآخَرُ(١):

فَكَانَتْ دَوَائِي وَهْيَ دَائِي بِعَيْنِهِ كَمَا يَتَدَاوَى شَارِبُ الْخَمْرِ بِالْخَمْرِ

وَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ يُعَانِي الطَّاعَةَ وَيَأْلَفُهَا وَيُحِبُّهَا وَيُؤْثِرُهَا حَتَّى يُرْسِلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِرَحْمَتِهِ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةَ تَؤُزُّهُ إِلَيْهَا أَزًّا، وَتُحَرِّضُهُ عَلَيْهَا، وَتُزْعِجُهُ عَنْ فِرَاشِهِ وَمَجْلِسِهِ إِلَيْهَا. وَلَا يَزَالُ يَأْلَفُ الْمَعَاصِيَ وَيُحِبُّهَا وَيُؤْثِرُهَا، حَتَّى يُرْسِلَ اللَّهُ إِلَيْهِ الشَّيَاطِينَ، فَتَؤُزُّهُ إِلَيْهَا أَزًّا. فَالْأَوَّلُ قَوَّيَ جُنْدَ الطَّاعَةِ بِالْمَدَدِ، فَصَارُوا مِنْ أَكْبَرِ أَعْوَانِهِ، وَهَذَا قَوَّى جُنْدَ الْمَعْصِيَةِ بِالْمَدَدِ فَكَانُوا أَعْوَانًا عَلَيْهِ.

الشرح:

من آفات الذنوب أنها تجر إلى مثلها، فالمعصية تجر إلى معصية، كذلك فإن الطاعة تقرب إلى طاعة أخرى. فالعبد المحسن إذا ترك الطاعة ضاقت عليه الدنيا، وما تلذذ إلا بالطاعات، ولو منع منها فإنه يتحسر على فقدها؛ لأن الطاعة تجر إلى الطاعة، بينما العاصي لا يرتاح إلا مع المعاصي، ولو أنه عمل طاعة لضاقت نفسه؛ لأن المعصية تجر إلى المعصية وتنفر من الطاعة، وهذا مثل الذي يشرب الخمر فيصاب بالإدمان، والذي يشرب الدخان فيصاب بالإدمان ولا يستطيع أن يتركه.

وقوله: **(شَيْخُ الْقَوْمِ الْحَسَنُ بْنُ هَانِئٍ)**، يعني: شيخ الصوفية.

---

(١) عجز البيت من بيت مشهور لابن نباتة المصري في ديوانه (ص١٩٩)، وصدره: «تداويت من ألحاظه برضا به». ومن بيت مشهور لمجنون ليلى في ديوانه (ص١٢٢)، وصدره: «تداويت من ليلي بليلى عن الهوى».

فَصْلٌ

وَمِنْهَا -وَهُوَ مِنْ أَخْوَفِهَا عَلَى الْعَبْدِ-: أَنَّهَا تُضْعِفُ الْقَلْبَ عَنْ إِرَادَتِهِ، فَتُقَوِّي إِرَادَةَ الْمَعْصِيَةِ، وَتُضْعِفُ إِرَادَةَ التَّوْبَةِ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ تَنْسَلِخَ مِنْ قَلْبِهِ إِرَادَةُ التَّوْبَةِ بِالْكُلِّيَّةِ، فَلَوْ مَاتَ نِصْفُهُ لَمَا تَابَ إِلَى اللَّهِ، فَيَأْتِي بِالِاسْتِغْفَارِ وَتَوْبَةِ الْكَذَّابِينَ بِاللِّسَانِ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ، وَقَلْبُهُ مَعْقُودٌ بِالْمَعْصِيَةِ، مُصِرٌّ عَلَيْهَا، عَازِمٌ عَلَى مُوَاقَعَتِهَا مَتَى أَمْكَنَهُ.

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْأَمْرَاضِ وَأَقْرَبِهَا إِلَى الْهَلَاكِ.

الشرح:

ومن عقوبات المعاصي أنها تؤثر في القلب فتضعف فيه إرادة الخير وتقوي فيه إرادة الشر، وهذا شيء معروف، فإن العصاة أثقل شيء عليهم الطاعات، وأخف شيء عليهم المعاصي؛ يألفونها ولا يستريحون إلا بها وبمجالسها، وينفرون من مجالس الخير، وتثقل عليهم الطاعات، هذا شيء واضح فيهم، وهذه عقوبة لهم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حرمهم لذة الطاعة، وجعل فيهم شهوة المعصية، وذلك بسبب الذنوب بلا شك.

وكذلك يُحرمون الصدق في التوبة، فتضعف إرادة التوبة لديهم شيئًا فشيئًا، حتى إن أحدهم يستغفر الله بلسانه، ويكثر من الاستغفار والتوبة، وهو مقيم على المعصية ومصر عليها، وهذا لا تكون توبته صحيحة، إنما هي توبة باللسان فقط، وهذه لا تنفع؛ لأنها توبة الكذابين.

فَصْلٌ

وَمِنْهَا: أَنَّهُ يَنْسَلِخُ مِنَ الْقَلْبِ اسْتِقْبَاحُهَا، فَتَصِيرُ لَهُ عَادَةً، فَلَا يَسْتَقْبِحُ مِنْ نَفْسِهِ رُؤْيَةَ النَّاسِ لَهُ، وَلَا كَلَامَهُمْ فِيهِ.

وَهَذَا عِنْدَ أَرْبَابِ الْفُسُوقِ هُوَ غَايَةُ التَّهَتُّكِ وَتَمَامُ اللَّذَّةِ، حَتَّى يَفْتَخِرَ أَحَدُهُمْ بِالْمَعْصِيَةِ، وَيُحَدِّثَ بِهَا مَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ عَمِلَهَا، فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ كَذَا وَكَذَا.

وَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ النَّاسِ لَا يُعَافَوْنَ، وَتُسَدُّ عَلَيْهِمْ طَرِيقُ التَّوْبَةِ، وَتُغْلَقُ عَنْهُمْ أَبْوَابُهَا فِي الْغَالِبِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرُونَ، وَإِنَّ مِنَ الْإِجْهَارِ أَنْ يَسْتُرَ اللَّهُ عَلَى الْعَبْدِ ثُمَّ يُصْبِحُ يَفْضَحُ نَفْسَهُ وَيَقُولُ: يَا فُلَانُ عَمِلْتُ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا، فَهَتَكَ نَفْسَهُ، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ»(١).

وَمِنْهَا: أَنَّ كُلَّ مَعْصِيَةٍ مِنَ الْمَعَاصِي فَهِيَ مِيرَاثٌ عَنْ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي أَهْلَكَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. فَاللُّوطِيَّةُ مِيرَاثٌ عَنْ قَوْمِ لُوطٍ، وَأَخْذُ الْحَقِّ بِالزَّائِدِ وَدَفْعُهُ بِالنَّاقِصِ مِيرَاثٌ عَنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ، وَالْعُلُوُّ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ مِيرَاثٌ عَنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ، وَالتَّكَبُّرُ وَالتَّجَبُّرُ مِيرَاثٌ عَنْ قَوْمِ هُودٍ.

فَالْعَاصِي لَابِسٌ ثِيَابَ بَعْضِ هَذِهِ الْأُمَمِ، وَهُمْ أَعْدَاءُ اللَّهِ.

وَقَدْ رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ لِأَبِيهِ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ: «أَوْحَى اللَّهُ إِلَى نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ قُلْ لِقَوْمِكَ: لَا تَدْخُلُوا مَدَاخِلَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَعْدَائِي، وَلَا تَلْبَسُوا مَلَابِسَ أَعْدَائِي، وَلَا تَرْكَبُوا مَرَاكِبَ أَعْدَائِي، وَلَا تَطْعَمُوا مَطَاعِمَ أَعْدَائِي، فَتَكُونُوا أَعْدَائِي كَمَا هُمْ أَعْدَائِي»(١).

وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ، حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»(٢).

الشرح:

كذلك من عقوبات المعاصي: أنها تسلب الحياء من الإنسان، فلا يستحي من فعل المعاصي، ولا يعتبرها شيئًا يُشان عليه، خلافًا للمؤمن فهو يستحي، وفي الحد يث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**»(٣).

فالحياء يمنع الإنسان من فعل الأشياء القبيحة، ومن لم يكن عنده حياء فإنه لا يأنف من قبحها ولا يراها شيئًا.

وقوله (**حَتَّى يَفْتَخِرَ أَحَدُهُمْ بِالْمَعْصِيَةِ**) يفتخرون بالمعاصي، ويعتبرونها رجولة وتقدمًا، وفهمًا للحياة، إلى غير ذلك من الأمور، ولا يعتبرونها معاصي؛

---

(١) لم أقف عليه في المطبوع من الزهد للإمام أحمد، والذي فيه برقم (٥٢٣) من قول عقيل بن مدرك السلمي. وأخرجه ابن أبي الدنيا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٧٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠) واللفظ له، وأبو داود (٤٠٣١) مختصرًا، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٨٤) من حديث أبي مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لأنهم ليس في قلوبهم أنفة وكراهية للمعاصي، أُخذت منها هذه الأشياء بسبب كثرة الذنوب.

وقوله: (**وَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ النَّاسِ لَا يُعَافَوْنَ**)، إذا بلغوا هذا الحد فإنهم لا يعافون من المعاصي، كما قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرُونَ**»، فالذين لا يستحيون من المعاصي لا يعافون منها، أما الذي يستحي فإنه يُعافى بإذن الله.

ومعنى المجاهرة: أن يتحدث الإنسان بالمعاصي التي فعلها؛ مفتخرًا بها وإن لم يفعلها علانية، لكن حديثه عنها وذكره لها فيه مجاهرة بالمعصية.

وقوله: (**أَنَّ كُلَّ مَعْصِيَةٍ مِنَ الْمَعَاصِي فَهِيَ مِيرَاثٌ عَنْ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ**)، كما يقال: لكل قوم وارث، فالذين يبخسون المكاييل ويغشون الناس في المعاملات وارثون لقوم شعيب أصحاب مدين، والذين يقعون في جريمة اللواط وارثون لقوم لوط، والذين يتكبرون على الناس ويتجبرون وارثون لفرعون وقوم عاد.

وقوله: (**لَا تَدْخُلُوا مَدَاخِلَ أَعْدَائِي**) فيه النهي عن التشبه بالكفار والأشقياء في ملابسهم ومجالسهم وعاداتهم، وهذا كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»، فمن علامات محبة المعصية التشبه بأهلها.

وقوله: (**بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ**) يعني: الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، (**بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ**) أي: قبل الساعة؛ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو آخر الرسل، وليس من بعده رسول حتى تقوم الساعة، وبعثته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من علامات الساعة، (**حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**) هذا هو الغرض من الجهاد: عبادة

الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله خلق الناس لعبادته، فإذا تركوها وجب جهادهم حتى يرجعوا إليها.

وقوله: **(وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي)**، وهو الغنائم، فالغنائم حلال لهذه الأمة، وهي أحل شيء: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال:٦٩]؛ لأنها أموال أعداء الله رجعت إلى أولياء الله، والله إنما خلق هذه الأموال لأهل الإيمان.

وقوله: **(وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي)** هذا شيء واضح أن المعصية فيها ذل، فكل من خالف الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذليل وإن كان يُرى أنه عزيز ويتظاهر بالعزة، إلا أنه ذليل في قلبه. فالأمور ليست بالمظاهر، وإنما هي بما في القلوب، فالعاصي ذليل في قلبه وإن ترفع وأظهر للناس أنه قوي، والمؤمن وإن ظهر للناس أنه فقير ومستضعف إلا إنه قويٌ عند الله، وقويٌ في قلبه بقوة إيمانه.

فَصْلٌ

وَمِنْهَا: أَنَّ الْمَعْصِيَةَ سَبَبٌ لِهَوَانِ الْعَبْدِ عَلَى رَبِّهِ وَسُقُوطِهِ مِنْ عَيْنِهِ.

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: «هَانُوا عَلَيْهِ فَعَصَوْهُ، وَلَوْ عَزُّوا عَلَيْهِ لَعَصَمَهُمْ»(١).

وَإِذَا هَانَ الْعَبْدُ عَلَى اللَّهِ لَمْ يُكْرِمْهُ أَحَدٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج:١٨]، وَإِنْ عَظَّمَهُمُ النَّاسُ فِي الظَّاهِرِ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهِمْ أَوْ خَوْفًا مِنْ شَرِّهِمْ، فَهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ أَحْقَرُ شَيْءٍ وَأَهْوَنُهُ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَزَالُ يَرْتَكِبُ الذَّنْبَ حَتَّى يَهُونَ عَلَيْهِ وَيَصْغُرَ فِي قَلْبِهِ، وَذَلِكَ عَلَامَةُ الْهَلَاكِ، فَإِنَّ الذَّنْبَ كُلَّمَا صَغُرَ فِي عَيْنِ الْعَبْدِ عَظُمَ عِنْدَ اللَّهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ فِي أَصْلِ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ وَقَعَ عَلَى أَنْفِهِ، فَقَالَ بِهِ هَكَذَا فَطَارَ»(٢).

الشرح:

قد يفتخر العاصي بمعصيته، ويعتز بنفسه، ويرى أنه بلغ من الرقي والحضارة والتقدم الشيء الكثير، ولكنه هينٌ عند الله جَلَّ وَعَلَا، ومن هوانه أن الله تركه في المعصية، ولو كان كريمًا على الله لكرَّه إليه المعصية، كما قال الله

---

(١) ذكره ابن الجوزي في ذم الهوى (ص١٨٤) عن الحسن البصري، وأخرجه الآجري في الشريعة (٢/ ٩٦٩)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٦١)، والبيهقي في الشعب (٥/ ٤٤٧) من كلام أبي سليمان الداراني.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٨).

تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾ [الحجرات:٧]. فأهل الإيمان يحبب الله إليهم الطاعات، ويكره إليهم ضدها، وأهل الشقاء بالعكس يحبب الله إليهم المعاصي، ويكره إليهم الطاعات، ولو أكرمهم لمنعهم من المعاصي، وشغلهم بالطاعات؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، أما هذا الدين فلا يعطيه إلا لمن يحب.

وقوله: **(وَإِنْ عَظَّمَهُمُ النَّاسُ فِي الظَّاهِرِ)**؛ لأن الناس قد يعظمون صاحب المعصية لغرض من الأغراض، إما لطمع فيما عنده، أو خوفًا منه لجبروته، فهم يعظمونه في الظاهر لكنهم في قلوبهم يلعنونه ويحتقرونه، فليس تعظيم الناس للشخص دليلًا على أنه عظيمٌ عند الله عَزَّوَجَلَّ إلا إذا كان على طاعة، وقد جاء في الحديث أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ العَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ**»(١).

فإذا كان هذا الشخص على طاعة فتعظيم الناس له في مكانه؛ لأن الله أحبه فهم يحبونه، وأما إذا كان على معصية فتعظيمهم إنما هو في الظاهر، وأما في الباطن فهم يحتقرونه.

وقوله: **(أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَزَالُ يَرْتَكِبُ الذَّنْبَ حَتَّى يَهُونَ عَلَيْهِ وَيَصْغُرَ فِي قَلْبِهِ)**، هذا كما سبق أنه يتهاون بالمعاصي، وتصير عليه سهلة ولا يستعيبها، قال الله

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥]. فقد يستصغر الإنسان الذنب والمعصية، وهي عظيمة عند الله جَلَّ وَعَلَا.

وقوله: **(إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ فِي أَصْلِ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ)**، المؤمن يخاف من المعاصي، وإذا فعل معصية ثقلت عليه، وتاب إلى الله، ويرى كأنها جبل يخاف أن ينقض عليه، وأما الفاجر فعلى العكس يستخف المعاصي، ولا يراها شيئًا، كأنها ذباب وقع على أنفه فطار، لا يلقي لها بالًا.

فَصْلٌ

وَمِنْهَا: أَنَّ غَيْرَهُ مِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ يَعُودُ عَلَيْهِ شُؤْمُ ذَنْبِهِ، فَيَحْتَرِقُ هُوَ وَغَيْرُهُ بِشُؤْمِ الذُّنُوبِ وَالظُّلْمِ.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «إِنَّ الْحُبَارَى لَتَمُوتَ فِي وَكْرِهَا مِنْ ظُلْمِ الظَّالِمِ»(١).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «إِنَّ الْبَهَائِمَ تَلْعَنُ عُصَاةَ بَنِي آدَمَ إِذَا اشْتَدَّتِ السَّنَةُ، وَأُمْسِكَ الْمَطَرُ، وَتَقُولُ: هَذَا بِشُؤْمِ مَعْصِيَةِ ابْنِ آدَمَ»(٢).

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: «دَوَابُّ الْأَرْضِ وَهَوَامُّهَا حَتَّى الْخَنَافِسُ وَالْعَقَارِبُ، يَقُولُونَ: مُنِعْنَا الْقَطْرَ بِذُنُوبِ بَنِي آدَمَ»(٣).

فَلَا يَكْفِيهِ عِقَابُ ذَنْبِهِ، حَتَّى يَلْعَنَهُ مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ.

الشرح:

الحبارى طائر معروف، قد تموت في وكرها من الجوع بسبب ظلم الظالم، فهي لم تفعل شيئًا، لكن ظلم الظالم كان سببًا في هلاكها، ولهذا يقول العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩]: إن اللاعنين هي الدواب والطيور، تقول: إنما حُرمنا الرزق بسبب ذنوب بني آدم.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/ ١٢٦)، والبيهقي في الشعب (٩/ ٥٤٤).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٥٤)، وابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٧١).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٥٥).

فَصْلٌ

وَمِنْهَا: أَنَّ الْمَعْصِيَةَ تُورِثُ الذُّلَّ وَلَا بُدَّ؛ فَإِنَّ الْعِزَّ كُلَّ الْعِزِّ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، أَيْ: فَلْيَطْلُبْهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يَجِدُهَا إِلَّا فِي طَاعَةِ اللَّهِ.

وَكَانَ مِنْ دُعَاءِ بَعْضِ السَّلَفِ: «اللَّهُمَّ أَعِزَّنِي بِطَاعَتِكَ وَلَا تُذِلَّنِي بِمَعْصِيَتِكَ»(١).

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: «إِنَّهُمْ وَإِنْ طَقْطَقَتْ بِهِمُ الْبِغَالُ، وَهَمْلَجَتْ بِهِمُ الْبَرَاذِينُ، إِنَّ ذُلَّ الْمَعْصِيَةِ لَا يُفَارِقُ قُلُوبَهُمْ، أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُذِلَّ مَنْ عَصَاهُ»(٢).

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ(٣):

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ ... وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِدْمَانُهَا
وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ ... وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا
وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ ... وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا

الشرح:

ومن آثار المعاصي: أنها تورث المعصية، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُ﴾، فمن أراد العزة فعليه بالعمل الصالح والقول الطيب، لا تُطلب

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٥٥) من كلام جعفر الصادق.

(٢) تقدم تخريجه (ص٢١٢).

(٣) ذكره ابن عبد البر في بهجة المجالس (ص ٢٤٦).

العزة بغير طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، فالطاعة عز، والمعصية ذل، وإن كان أصحابها يرون أنها عز، ولو كانت مظاهرهم قوية، ويركبون المراكب الفخمة، ويلبسون الملابس الراقية، ويسكنون القصور، لكن قلوبهم ذليلة؛ أذلهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فهانوا حتى عند أنفسهم، فصاروا في هوان وذل، وإن كانوا عندهم مظاهر فلا تنفعهم.

وقوله: **(وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ)**، يعني: الظلمة منهم، وليس كل ملك ظالم، فسليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من الملوك، ويوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من الملوك، فليس كل ملك يكون مفسدًا للدين، ولكن الملوك الفجرة هم الذين يفسدون الدين، أما الملوك الصالحون فإنهم يصلحون الدين.

وقوله: **(وَأَحْبَارُ سُوءٍ)**، يعني: علماء السوء الذين يفتون الناس بالهوى والشهوات، فيفسدون الدين بهذا، خلاف علماء الحق، فهؤلاء يصلحون الدين.

فَصْلٌ

وَمِنْهَا: أَنَّ الْمَعَاصِيَ تُفْسِدُ الْعَقْلَ، فَإِنَّ لِلْعَقْلِ نُورًا، وَالْمَعْصِيَةُ تُطْفِئُ نُورَ الْعَقْلِ وَلَا بُدَّ، وَإِذَا طُفِئَ نُورُهُ ضَعُفَ وَنَقَصَ.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا عَصَى اللَّهَ أَحَدٌ حَتَّى يَغِيبَ عَقْلُهُ.

وَهَذَا ظَاهِرٌ، فَإِنَّهُ لَوْ حَضَرَ عَقْلُهُ لَحَجَزَهُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَهُوَ فِي قَبْضَةِ الرَّبِّ تَعَالَى، أَوْ تَحْتَ قَهْرِهِ، وَهُوَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ، وَفِي دَارِهِ عَلَى بِسَاطِهِ، وَمَلَائِكَتُهُ شُهُودٌ عَلَيْهِ نَاظِرُونَ إِلَيْهِ، وَوَاعِظُ الْقُرْآنِ يَنْهَاهُ، وَوَاعِظُ الإِيمَانِ يَنْهَاهُ، وَوَاعِظُ الْمَوْتِ يَنْهَاهُ، وَوَاعِظُ النَّارِ يَنْهَاهُ، وَالَّذِي يَفُوتُهُ بِالْمَعْصِيَةِ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَضْعَافُ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ السُّرُورِ وَاللَّذَّةِ بِهَا، فَهَلْ يُقْدِمُ عَلَى الاِسْتِهَانَةِ بِذَلِكَ كُلِّهِ وَالاِسْتِخْفَافِ بِهِ ذُو عَقْلٍ سَلِيمٍ؟!

الشرح:

ومن آثار المعاصي أيضًا: أنها تفسد العقل الذي ميَّز الله به الإنسان على غيره، فإذا فسد العقل أصبح يرى الحق باطلًا والباطل حقًّا، وتنعكس عليه الأمور.

فالعصاة لديهم عقول ولكنها فاسدة، فتكون مثل عقول البهائم، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤]، فعندهم عقول بهيمية، وليس عندهم عقول نيِّرة وبصيرة.

وقوله: (**فَإِنَّهُ لَوْ حَضَرَ عَقْلُهُ لَحَجَزَهُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ**)، أو يندم على فعلها

ويتوب إلى الله منها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧]، فليس المراد بالجهالة هنا عدم العلم؛ لأن الذي لا يعلم هذا معذور، لكن المراد بالجهالة أنه لا يميز بين الطيب والخبيث.

وقوله: (**وَوَاعِظُ الْقُرْآنِ يَنْهَاهُ، وَوَاعِظُ الْمَوْتِ يَنْهَاهُ**)، والعاصي ينسى كل هذه الأمور؛ لا يتذكر الموت، ولا يتدبر القرآن، ولا يؤثر فيه الملك الذي معه يأمره بالطاعة، ولا تنفعه النذر: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر:٤، ٥].

فَصْلٌ

وَمِنْهَا: أَنَّ الذُّنُوبَ إِذَا تَكَاثَرَتْ طُبِعَ عَلَى قَلْبِ صَاحِبِهَا، فَكَانَ مِنَ الْغَافِلِينَ. كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤] ، قَالَ: «هُوَ الذَّنْبُ بَعْدَ الذَّنْبِ»(١).

وَقَالَ الْحَسَنُ: «هُوَ الذَّنْبُ عَلَى الذَّنْبِ، حَتَّى يُعْمِيَ الْقَلْبَ»(٢).

وَقَالَ غَيْرُهُ: «لَمَّا كَثُرَتْ ذُنُوبُهُمْ وَمَعَاصِيهِمْ أَحَاطَتْ بِقُلُوبِهِمْ»(٣).

وَأَصْلُ هَذَا: أَنَّ الْقَلْبَ يَصْدَأُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، فَإِذَا زَادَتْ غَلَبَ الصَّدَأُ حَتَّى يَصِيرَ رَانًا، ثُمَّ يَغْلِبُ حَتَّى يَصِيرَ طَبْعًا وَقُفْلًا وَخَتْمًا، فَيَصِيرُ الْقَلْبُ فِي غِشَاوَةٍ وَغِلَافٍ، فَإِنْ حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ بَعْدَ الْهُدَى وَالْبَصِيرَةِ انْعَكَسَ فَصَارَ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ، فَحِينَئِذٍ يَتَوَلَّاهُ عَدُوُّهُ، وَيَسُوقُهُ حَيْثُ أَرَادَ.

الشرح:

الطبع على القلب هذا هو أشد العقوبات: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:٩٣]، فصارت لا تقبل الخير أبدًا، ولا يصل إليها نور الإيمان ونور القرآن ونور العلم؛ لأنها مطبوع عليها بالخاتم: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة:٧]، فهي مغلقة.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٣٧٥) عن إبراهيم بن أدهم.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٠/ ٨٩)، وأخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة (١٩٦) عن الحسن، قال: «تَدْرُونَ مَا الْإِرَانَةُ؟ الذَّنْبُ بَعْدَ الذَّنْبِ، وَالذَّنْبُ بَعْدَ الذَّنْبِ، حَتَّى يَمُوتَ الْقَلْبُ».

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٣٧٦) عن يحيى بن زياد القرافي.

والذنب بعد الذنب يسبب الران، وهو الغلاف الذي يكون على القلب فيحجب عنه نور الإيمان.

وقوله: **(وَأَصْلُ هَذَا أَنَّ الْقَلْبَ يَصْدَأُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ)** أول شيء أن يتأثر القلب ويمرض، ثم يزيد به المرض حتى يموت، وإذا مات قلبه صار ما فيه فائدة، وإن كان جسمه حي وقوي، لكن قلبه ميت.

فَصْلٌ

وَمِنْهَا: أَنَّ الذُّنُوبَ تُدْخِلُ الْعَبْدَ تَحْتَ لَعْنَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّهُ لَعَنَ عَلَى مَعَاصٍ، وَالَّتِي غَيْرُهَا أَكْبَرُ مِنْهَا، فَهِيَ أَوْلَى بِدُخُولِ فَاعِلِهَا تَحْتَ اللَّعْنَةِ.

فَلَعَنَ الْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ، وَالْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ، وَالنَّامِصَةَ وَالْمُتَنَمِّصَةَ، وَالْوَاشِرَةَ وَالْمُسْتَوْشِرَةَ(١).

وَلَعَنَ آكِلَ الرِّبَا وَمُؤْكِلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدَيْهِ(٢).

الشرح:

هناك معاص لعن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من فعلها، يعني: دعا عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باللعنة، وهي: الطرد والإبعاد من رحمة الله، فكل من وقع في هذه المعاصي التي عليها اللعن أصابته هذه اللعنة.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن على معاصٍ معروفة، **(فَلَعَنَ الْوَاشِمَةَ**

---

(١) كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَعَنَ اللهُ الوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ، وَالوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ**». أخرجه البخاري (٥٩٣٧)، ومسلم (٢١٢٤).
وحديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَعَنَ اللَّهُ الوَاشِمَاتِ وَالمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالمُتَنَمِّصَاتِ وَالمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، المُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ، مَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ». أخرجه البخاري (٤٨٨٦)، ومسلم (٢١٢٥). وفي رواية عند أحمد (١/ ٤١٥): «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ النَّامِصَةِ وَالْوَاشِرَةِ وَالْوَاصِلَةِ وَالْوَاشِمَةِ إِلَّا مِنْ دَاءٍ».

(٢) كما في حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آكِلَ الرِّبَا، وَمُؤْكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدَيْهِ». أخرجه مسلم (١٥٩٨).

وَالْمُسْتَوْشِمَةَ)، وهي التي تعمل الوشم أو تطلب من يعمله بها. والوشم معناه أنها تأتي بالمبضع لتشق الجلد، فإذا ظهر الدم تضع فيه شيئًا من الكحل أو من المواد السوداء، ثم يصبح رسمًا في جلدها، ويبقى هذا الوشم ولا يزول، فهذا ملعونة من فعلته؛ لأنه تغيير لخلق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهو كبيرة من كبائر الذنوب، وهي ترى أنه زينة وهو في الواقع قبح ولعنة.

وكذلك لعن (**الْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ**)، التي تصل شعرها بشعر غيره؛ لِمَا في ذلك من التصنع والغش بما لم يعطها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولعن كذلك (**النَّامِصَةَ وَالْمُتَنَمِّصَةَ**)، وهي التي تأخذ شعر حواجبها، أو تطلب من يأخذه، هذه ملعونة، وكثير من النساء اليوم لا تتزين إلا بالنمص، مثلما يتزين كثير من الرجل اليوم بحلق اللحية، ولأن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن ذلك فالشيطان يؤزهم عليه.

ولعن أيضًا (**الْوَاشِرَةَ وَالْمُسْتَوْشِرَةَ**)، وهي التي توشر أسنانها بالمبرد، تظن أن هذا يزيد في جمالها، ولا تدري أنها تجلب به لعنة الله جَلَّ وَعَلَا ورسوله.

ولعن آكل الربا والذي يعينه على ذلك: (**آكِلَ الرِّبَا وَمُؤْكِلَهُ**) وهو الذي يدفع الربا، (**وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدَهُ**)؛ لأنهما أعانوا عليه ووثقوه.

وَلَعَنَ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ[١]، وَلَعَنَ السَّارِقَ[٢]، وَلَعَنَ شَارِبَ الْخَمْرِ وَسَاقِيهَا وَعَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا، وَبَائِعَهَا وَمُشْتَرِيهَا، وَآكِلَ ثَمَنِهَا، وَحَامِلَهَا وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ[٣]. وَلَعَنَ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ وَهِيَ أَعْلَامُهَا وَحُدُودُهَا[٤].

الشرح:

قوله: **(وَلَعَنَ الْمُحَلِّلَ)**، وهو الذي يحلل المطلقة ثلاثًا لزوجها، فإذا طلق الرجل زوجته وتكاملت ثلاث طلقات حرُمت عليه، إلا من بعد أن تنكح زوجًا غيره ويطؤها ثم يطلقها، فإذا جاء أحد لا يريد الزواج بها وإنما يريد أن يحللها للأول فقط، فهذا هو التيس المستعار، كما سماه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو ملعون؛ لأنه احتال على ما حرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وإنما المطلوب أن يتزوجها غيره زواج رغبة فيها، أي: يريدها زوجة، فإن

---

(١) كما في حديث عقبة بن نافع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالتَّيْسِ الْمُسْتَعَارِ؟»**، قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: **«هُوَ الْمُحَلِّلُ، لَعَنَ اللهُ الْمُحَلِّلَ، وَالْمُحَلَّلَ لَهُ»**. أخرجه ابن ماجه (١٩٣٦).

(٢) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ، يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ، وَيَسْرِقُ الْحَبْلَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ»**. أخرجه البخاري (٦٧٨٣)، ومسلم (١٦٨٧).

(٣) كما في حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الخَمْرِ عَشَرَةً: عَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَشَارِبَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالمَحْمُولَةُ إِلَيْهِ، وَسَاقِيَهَا، وَبَائِعَهَا، وَآكِلَ ثَمَنِهَا، وَالْمُشْتَرِي لَهَا، وَالْمُشْتَرَاةُ لَهُ». أخرجه الترمذي (١٢٩٥)، وابن ماجه (٣٣٨١).

(٤) كما في حديث علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ». أخرجه مسلم (١٩٧٨).

طلقها بعد ذلك لسبب ما من غير قصد أن تحل للأول، يجوز للأول أن يتزوجها، ولا إشكال في ذلك؛ لأن هذه طريقة صحيحة.

أما المحلل الذي فعل هذا فهو ملعون، وكذلك المحلَّل له، وهو المطلِّق الذي علم ورضي بهذا، وربما اتفق معه، أو أعطاه مالًا ليفعل ذلك، كلاهما ملعونان: المحلِّل والمحلَّل له إذا علم بذلك، أما إذا لم يعلم فليس عليه شيء.

وقوله: (**وَلَعَنَ السَّارِقَ**)؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ، يَسْرِقُ البَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ، وَيَسْرِقُ الحَبْلَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ**». وترد على ظاهرها؛ لأنه تساهل في أخذ الشيء اليسير الذي يجره إلى الكثير، فالبيضة ليس فيها قطع، لكنها تجره إلى أن يتمادى في السرقة حتى تُقطع يده.

وقوله: (**وَلَعَنَ شَارِبَ الْخَمْرِ ...**) إلى آخره، لعنهم رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنهم تعاونوا عليها: الذي يصنعها، والذي يبيعها، والذي يأكل ثمنها، والذي يحملها وينقلها بالسيارات والشاحنات، ويروج لها، والمحمولة إليه، والذي يطلبها وتحمل إليه، وعاصرها من الفواكه، ومعتصرها وهو الذي طلب أن تُعصر له، كلهم عشرة ملعونون في الخمر مما يدل على خبثها.

وقوله: (**وَلَعَنَ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ**)، وهي المراسيل التي تفرز حقوق الناس، فيجيء هذا ويقدم ويؤخر فيها، وقيل: المراد بها أنصاب الحرم المكي التي جُعلت عليه، وقيل: العلامات التي على الطرق لهداية الناس، فيجيء من يغيرها ليضل الناس الطريق، ومنها مثلًا: اللوحات التي على الطرق اليوم، هذه من منار الأرض، فمن غيرها أصابته اللعنة؛ لأنه أضر بالناس. والأظهر العموم، وأن منار الأرض هي العلامات التي توضع في الأرض.

وَلَعَنَ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ[١]، وَلَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا يَرْمِيهِ بِالسِّهَامِ[٢]، وَلَعَنَ الْمُخَنَّثِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالْمُتَرَجِّلَاتِ مِنَ النِّسَاءِ[٣]، وَلَعَنَ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَعَنَ مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا.

وَلَعَنَ الْمُصَوِّرِينَ[٤]، وَلَعَنَ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، وَلَعَنَ مَنْ سَبَّ أَبَاهُ وَأُمَّهُ، وَلَعَنَ مَنْ كَمَّهَ أَعْمَى عَنِ الطَّرِيقِ[٥].

الشرح:

وكيف يلعن والديه؟! سُئِل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك فقيل له: كيف يلعن الرجل أباه؟ قال: «**يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ**»[٦]، أي: يلعن أبا الرجل، فيلعن الرجل الملعون أبا اللاعن وأمه، فيكون

---

(١) كما في حديث علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَهُ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا**». أخرجه مسلم (١٩٧٨).

(٢) كما في الحديث عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: مَرَّ ابْنُ عُمَرَ بِنَفَرٍ قَدْ نَصَبُوا دَجَاجَةً يَتَرَامَوْنَهَا، فَلَمَّا رَأَوْا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا عَنْهَا، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: «مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ مَنْ فَعَلَ هَذَا». أخرجه البخاري (٥٥١٩)، ومسلم (١٩٥٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٨٦) حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٥) كما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ تُخُومَ الْأَرْضِ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ كَمَّهَ الْأَعْمَى عَنِ السَّبِيلِ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ سَبَّ وَالِدَهُ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ**». أخرجه أحمد (١/ ٣٠٩).

(٦) أخرجه البخاري (٥٣٤٧) من حديث أبي جحيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

متسببًا في لعن والديه.

وقوله: **(وَلَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا)**، أي: الذي يجعل الحيوان الحي هدفًا يتعلم عليه الرماية؛ لأن في ذلك تعذيبًا للحيوان.

وقوله: **(وَلَعَنَ الْمُخَنَّثِينَ مِنَ الرِّجَالِ)**، أي: المتشبهين بالنساء، وليس معناه الذي يعمل الفاحشة، هذا لا يقال: مخنث، إنما هو لوطي، أما المخنث فهو الذي يتشبه بالنساء، في مشيهن وفي كلامهن، ويزين نفسه ويصبغ نفسه كما تفعل المرأة، ويحلق لحيته ويصير مثل المرأة، هذا متشبه بالنساء.

وقوله: **(وَلَعَنَ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ)**؛ لأن هذا شرك.

وقوله: **(وَلَعَنَ مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا)**، يعني: أحدث بدعة في الدين، **(أَوْ آوَى مُحْدِثًا)**، يعني: حماه ومنعه من أن يُقام عليه الحد بعد أن وجب عليه.

وقوله: **(وَلَعَنَ الْمُصَوِّرِينَ)** الذين يأخذون الصورة؛ سواء رسموها أو نحتوها، أو التقطوها، الحديث عام، فالذين يقولون: إن التصوير الفوتوغرافي حلال. هؤلاء كذبوا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الرسول ما خصص، بل لعن المصورين عمومًا بأي وسيلة، والتصوير هو: إيجاد الصورة على شكل الحيوان بأي وسيلة عملها.

وقوله: **(وَلَعَنَ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ)** وهو اللواط.

وقوله: **(وَلَعَنَ مَنْ كَمَّهَ)**، يعني: أضل **(أَعْمَى عَنِ الطَّرِيقِ)**.

وَلَعَنَ مَنْ أَتَى بَهِيمَةً(١).

وَلَعَنَ مَنْ وَسَمَ دَابَّةً فِي وَجْهِهَا(٢).

وَلَعَنَ مَنْ ضَارَّ مُسْلِمًا أَوْ مَكَرَ بِهِ(٣).

وَلَعَنَ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ(٤).

وَلَعَنَ مَنْ أَفْسَدَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا أَوْ مَمْلُوكًا عَلَى سَيِّدِهِ(٥).

وَلَعَنَ مَنْ أَتَى امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا(٦).

وَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ بَاتَتْ مُهَاجِرَةً لِفِرَاشِ زَوْجِهَا لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ(٧).

وَلَعَنَ مَنِ انْتَسَبَ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ(٨).

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨/ ٢٣٤)، والحاكم (٤/ ٣٩٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٣٣٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) كما في حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَيْهِ حِمَارٌ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: «**لَعَنَ اللهُ الَّذِي وَسَمَهُ**». أخرجه مسلم (٢١١٧).

(٣) أخرجه البزار في مسنده (١/ ١٠٥)، وأبو يعلى (١/ ٩٦)، والطبراني في الأوسط (٩/ ١٢٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١١/ ٨١) من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، والنسائي (٢٠٤٣)، وأحمد (١/ ٢٢٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) أخرجه أبو داود (٢١٧٥)، والنسائي في الكبرى (٨/ ٢٨٢)، وأحمد (٢/ ٣٩٧)، والحاكم (٢/ ٢١٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) أخرجه أبو داود (٢١٦٢)، والنسائي في الكبرى (٨/ ٢٠٠)، وأحمد (٢/ ٤٤٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٧) أخرجه البخاري (٣٢٣٧)، ومسلم (١٤٣٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٨) أخرجه مسلم (١٣٧٠) من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ(١).
وَلَعَنَ مَنْ سَبَّ الصَّحَابَةَ(٢).

الشرح:

قوله: **(أَتَى بَهِيمَةً)**، يعني: واقعها.

وقوله: **(وَسَمَ دَابَّةً فِي وَجْهِهَا)**، يعني: بالكي؛ يكوي الدابة في وجهها، ويقول: أنا أريد الوسم! والوسم لا يجوز في الوجه، ولا الضرب على الوجه.

قوله: **(وَلَعَنَ مَنْ ضَارَّ مُسْلِمًا أَوْ مَكَرَ بِهِ)**؛ لأنه لا يجوز المكر بالمسلم ولا الضرر به؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ»**(٣).

وقوله: **(زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ)**، وهي النساء؛ لأن زيارة القبور خاصة بالرجال، وأما النساء فممنوعات من زيارة القبور، بل عليهن اللعنة: **«لَعَنَ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ»**، وفي رواية: **«زَائِرَاتِ الْقُبُورِ»**؛ لأن المرأة ضعيفة ولا تتحمل زيارة القبور ورؤية الأموات، لاسيما إذا رأت قبر قريبها، فإنها تجزع وتسخط.

وقوله: **(وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ)**، كذلك الذين يصلون عند القبور، أو يبنون عليها، هؤلاء اتخذوها مساجد، أو أسرجوها ووضعوا عليها قناديل مثل ما يوضع على الأضرحة الآن من القناديل والأنوار؛ لأنهم سهلوا الشرك للناس، ودعوا إليه بهذه الأمور.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (١/٣١٣)، وابن ماجه (٢٣٤١) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقوله: **(وَلَعَنَ مَنْ أَفْسَدَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا)** الذي يخبب الزوجة على زوجها، فيقول مثلًا: ماذا تأملين من فلان وهو فقير وفيه كذا وكذا! حتى تعافه، والمرأة ضعيفة إذا قيل لها أدني كلمة تأثرت بها، فالذي يفسد ما بين الزوجين هذا ملعون.

وقوله: **(وَلَعَنَ مَنْ أَتَى امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا)**؛ لأن هذا لواط.

وقوله: **(مَنْ بَاتَتْ مُهَاجِرَةً لِفِرَاشِ زَوْجِهَا)** وهي الناشز التي تنشز بغير حق وتمنع حقوق زوجها من إتيانها، هذه ملعونة.

وقوله: **(وَلَعَنَ مَنِ انْتَسَبَ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ)** كذلك لو قال: أنا ابن فلان، وترك والده، أو أنا من القبيلة الفلانية وما هو منها، هذا حرام، وكبيرة من كبائر الذنوب، لا يجوز للإنسان ينتسب إلى غير أبيه، ولا يجوز للعبد أن ينتسب إلى غير مواليه الذين أعتقوه.

وقوله: **(مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ)** لا يجوز للمسلم أن يشير بالسلاح إلى أخيه المسلم وإن كان يمزح؛ لأن هذا يروعه، وقد يكون فيه قتل، فقد يلعب بالسلاح وفي السلاح نار فتنطلق وتقتله، أو ينطلق السيف من يده فيصيبه أو يقتله.

وقوله: **(وَلَعَنَ مَنْ سَبَّ الصَّحَابَةَ)**؛ لأن الصحابة لهم حرمة، ولهم حق، ومن يلعنهم أو يتهمهم بما برأهم الله منه، فهو ملعون، وقد يكفر إذا كان يسبهم من أجل دينهم، ومن أجل مقامهم في الإسلام، أما إذا سبهم من أجل أشخاصهم فهذا كبيرة من كبائر الذنوب، ولكنه لا يكفر.

وَقَدْ لَعَنَ اللَّهُ مَنْ أَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ وَقَطَعَ رَحِمَهُ، وَآذَاهُ وَآذَى رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَلَعَنَ مَنْ كَتَمَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى.

وَلَعَنَ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ بِالْفَاحِشَةِ.

وَلَعَنَ مَنْ جَعَلَ سَبِيلَ الْكَافِرِ أَهْدَى مِنْ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِ.

وَلَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ الْمَرْأَةِ، وَالْمَرْأَةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ(١).

وَلَعَنَ الرَّاشِي وَالْمُرْتَشِي وَالرَّائِشَ(٢)، وَهُوَ: الْوَاسِطَةُ فِي الرِّشْوَةِ.

وَلَعَنَ عَلَى أَشْيَاءَ أُخْرَى غَيْرِ هَذِهِ.

فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي فِعْلِ ذَلِكَ إِلَّا رِضَا فَاعِلِهِ بِأَنْ يَكُونَ مِمَّنْ يَلْعَنُهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَلَائِكَتُهُ، لَكَانَ فِي ذَلِكَ مَا يَدْعُو إِلَى تَرْكِهِ.

الشرح:

قوله: (**لَعَنَ اللَّهُ مَنْ أَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ**)، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [محمد:٢١، ٢٢]، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأحزاب:٥٧]، ومنهم

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٢٥)، وأبو داود (٤٠٩٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٥/٢٧٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٤/٤٤٤)، والطبراني في الكبير (١٤١٥)، والحاكم (٤/١١٥) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المصورون، فقد جاء في تفسير الآية أن الذين يؤذون الله ورسوله هم المصورون(١)، وكذلك الذي يؤذي الناس بغير حق.

وقوله: **(وَلَعَنَ مَنْ كَتَمَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ)**، كما في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، **(وَلَعَنَ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ)**، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ٢٣].

وقوله: **(وَلَعَنَ مَنْ جَعَلَ سَبِيلَ الْكَافِرِ أَهْدَى مِنْ سَبِيلِ الْمُسْلِمِ)**، كما في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١، ٥٢]، فالذي يقول: إن الكفار أهدى سبيلًا من المسلمين هذا يستحق اللعنة من الله عَزَّوَجَلَّ، وكثيرٌ من يعيشون بيننا ويمدحون الكفار ويقولون: هم أحسن من المسلمين.

وقوله: **(وَلَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ الْمَرْأَةِ، وَالْمَرْأَةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ)**، كذلك من تشبه من أحد الجنسين بالآخر فهو ملعون.

وقوله: **(وَلَعَنَ الرَّاشِي وَالْمُرْتَشِي وَالرَّائِشَ)**، والرشوة: هي ما يُدفع إلى الحكام أو الموظفين من أجل أن يقدموا الراشي على غيره، أو يعطوه حق غيره،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣١٢٥)، والطبري في تفسيره (٢٢/ ٤٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٢٠٠) عن عكرمة.

والراشي: الذي يدفع الرشوة، والمرتشي: الذي يقبلها، والرائش: الذي يمشي بينهما. والآن بعض الموظفين لا يقولون للناس: أعطونا رشوة. ولكن يوكلون سمسارًا ليقول لصاحب الحاجة: أستطيع أن أتوسط لك وأقضي حاجتك بشرط أن تعطيني كذا وكذا من المال، وهو متفق مع الموظف على أن يتقاسما الرشوة، فهذا الرائش ملعون أيضًا، وقد يتحايل بعضهم ولا يسميها رشوة، وإنما يقول: هذه أتعاب، أو هذا سعي، وما شابه ذلك، وهو متفق مع الظلمة إذا جاءهم أن يقتسم معهم المال ويحصل مطلوبه.

وقوله: **(وَلَعَنَ عَلَى أَشْيَاءَ أُخْرَى غَيْرِ هَذِهِ)**، اللعن على المعصية يدل على أنها كبيرة، وهذا من ضوابط الكبيرة أنها تتبع باللعنة.

فَصْلٌ

وَمِنْهَا: حِرْمَانُ دَعْوَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدَعْوَةِ الْمَلَائِكَةِ. فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ نَبِيَّهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ [غافر:٧ - ٩].

فَهَذَا دُعَاءُ الْمَلَائِكَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ التَّائِبِينَ الْمُتَّبِعِينَ لِكِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ الَّذِينَ، لَا سَبِيلَ لَهُمْ غَيْرُهُمَا، فَلَا يَطْمَعُ غَيْرُ هَؤُلَاءِ بِإِجَابَةِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ؛ إِذْ لَمْ يَتَّصِفْ بِصِفَاتِ الْمَدْعُوِّ لَهُ بِهَا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

الشرح:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وَمِنْهَا: حِرْمَانُ دَعْوَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدَعْوَةِ الْمَلَائِكَةِ)**، ثم ساق الآيات الدالة على ذلك، وفي آخرها: **﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾**، فالذي لا يترك السيئات لا يحصل على هذا الدعاء من الملائكة.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِ الْمَعَاصِي: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لِأَصْحَابِهِ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنكُمُ الْبَارِحَةَ رُؤْيَا؟»، فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُصَّ، وَأَنَّهُ قَالَ لَنَا ذَاتَ غَدَاةٍ: «إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي، وَإِنَّهُمَا قَالَا لِي: انْطَلِقْ وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ، فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ، فَيَتَدَهْدَهُ الْحَجَرُ هَاهُنَا، فَيَتْبَعُ الْحَجَرَ، فَيَأْخُذُهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يُصْبِحَ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الْأُولَى». قَالَ: «قُلْتُ لَهُمَا: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا هَذَانِ؟ قَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الْأَوَّلِ، فَمَا يَفْرَغُ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الْجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى»، قَالَ: «قُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا هَذَانِ؟ فَقَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ، وَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ»، قَالَ: «فَاطَّلَعْنَا فِيهِ، فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا»، فَقَالَ: «قُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟» قَالَ: «فَقَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ، فَإِذَا فِي النَّهْرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ مَا

يَسْبَحَ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الْحِجَارَةَ، فَيَفْغَرُ لَهُ فَاهُ، فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا، فَيَنْطَلِقُ فَيَسْبَحُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَغَرَ لَهُ فَاهُ فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا، قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَانِ؟ قَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِ الْمَرْآةِ، أَوْ كَأَكْرَهِ مَا أَنْتَ رَاءٍ رَجُلًا مَرْأَىً، وَإِذَا هُوَ عِنْدَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا»، قَالَ: «قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟» قَالَ: «قَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا عَلَى رَوْضَةٍ مُعْتَمَّةٍ فِيهَا مِنْ كُلِّ نُورِ الرَّبِيعِ، وَإِذَا بَيْنَ ظَهْرَانَيِ الرَّوْضَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ، لَا أَكَادُ أَرَى رَأْسَهُ طُولًا فِي السَّمَاءِ، وَإِذَا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرِ وِلْدَانٍ رَأَيْتُهُمْ قَطُّ»، قَالَ: «قُلْتُ: مَا هَذَا؟ وَمَا هَؤُلَاءِ؟» قَالَ: «قَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا إِلَى دَوْحَةٍ عَظِيمَةٍ لَمْ أَرَ دَوْحَةً قَطُّ أَعْظَمَ مِنْهَا، وَلَا أَحْسَنَ»، قَالَ: «قَالَا لِي: ارْقَ فِيهَا، فَارْتَقَيْنَا فِيهَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ، وَلَبِنِ فِضَّةٍ»، قَالَ: «فَأَتَيْنَا بَابَ الْمَدِينَةِ، فَاسْتَفْتَحْنَا، فَفُتِحَ لَنَا، فَدَخَلْنَاهَا، فَتَلَقَّانَا رِجَالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، وَشَطْرٌ مِنْهُمْ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءٍ»، قَالَ: «قَالَا لَهُمْ: اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهَرِ»، قَالَ: «وَإِذَا نَهَرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْرِي كَأَنَّ مَاءَهُ الْمَحْضُ فِي الْبَيَاضِ، فَذَهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا، قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ»، قَالَ: «قَالَا لِي: هَذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ وَهَا ذَاكَ مَنْزِلُكَ».

قَالَ: «فَسَمَا بَصَرِي صُعُدًا، فَإِذَا قَصْرٌ مِثْلُ الرَّبَابَةِ الْبَيْضَاءِ»، قَالَ: «قَالَا لِي: هَذَا مَنْزِلُكَ، قُلْتُ لَهُمَا: بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمَا، فَذَرَانِي فَأَدْخُلَهُ، قَالَا: أَمَّا الْآنَ فَلَا، وَأَنْتَ دَاخِلُهُ».

قال: «قُلْتُ لَهُمَا: فَإِنِّي رَأَيْتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَبًا، فَمَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ؟»، قَالَ: «قَالَا لِي: أَمَا إِنَّا سَنُخْبِرُكَ:

أَمَّا الرَّجُلُ الْأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ، وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ.

وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ تَبْلُغُ الْآفَاقَ.

وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ الْعُرَاةُ الَّذِينَ هُمْ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ، فَإِنَّهُمُ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي.

وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبَحُ فِي النَّهْرِ وَيُلْقَمُ الْحِجَارَةَ، فَإِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا.

وَأَمَّا الرَّجُلُ الْكَرِيهُ الْمَرْآةِ الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ.

وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي فِي الرَّوْضَةِ، فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ.

وَأَمَّا الْوِلْدَانُ الَّذِينَ حَوْلَهُ، فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الْفِطْرَةِ». وَفِي رِوَايَةِ الْبَرْقَانِيِّ: «وُلِدَ عَلَى الْفِطْرَةِ».

فَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ.

وَأَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنٌ وَشَطْرٌ مِنْهُمْ قَبِيحٌ، فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ»(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤٧).

الشرح:

هذا الحديث حديث عظيم، وهو رؤيا رآها النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ورؤيا الأنبياء حق، أما رؤيا غيرهم فمنها ما هو صحيح، ومنها ما هو غير صحيح.

فما كان صحيحًا منها فهي حق، وهي من المبشرات وجزء من النبوة، أما إذا كانت أضغاث أحلام، أو كانت رؤى من الشيطان فهذه لا قيمة لها، فليس كلُّ رؤيا تكون رؤيا صحيحة.

وفي هذا الوقت انشغل الناس بالأحلام، وتفسير الأحلام، وصار كلٌّ يأتي برؤيا، وصار كلٌّ يعبر الرؤى، ولا شك أن هذا عمل غير صحيح، فهو يشغل الناس، ويكثر معه الكذب، ويكثر معه التخرص في التعبير، فلا ينبغي الإفراط في هذا الأمر والمبالغة في الانشغال الأحلام بتعبيرها، فقد يتصدى لها أناسٌ لا يحسنون التعبير وإنما يتخرصون، أو يكون معهم من معهم من الجن والشياطين فيوسوسون لهم ويخبرونهم بأشياء قد يغتر بعض الناس بها، وهي من عمل الشياطين.

أما الرؤيا الصحيحة فهي رؤيا حق، والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ رأى هذه الرؤيا التي فيها عجائب، وفيها أشياء مزعجة، وفيها أشياء طيبة، وهي تدور على الحسنات والسيئات، فأناس يعذبون بذنوبهم وهذا من عذاب البرزخ، وأناس ينعمون بحسناتهم وطاعاتهم. فهي رؤيا عظيمة وصحيحة، فيها عبرة وعظة، وفيها زجرٌ عن الذنوب والمعاصي، وزجر عن ترك العمل بالقرآن، وعن سهر الليل وترك صلاة الفجر الذي عليه كثير من الناس الآن، والنهي

عن الربا، والنهي عن الكذب، والنهي عن الزنا، كل هذه جرائم -والعياذ بالله- رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابها وهم يعذبون.

وفيها أشياء طيبة؛ رؤية الجنة وما فيها من النعيم، وما فيها من الخضرة والأنهار، وما فيها من المباهج، والأطفال الذين يموتون على الفطرة -يعني وهم صغار قبل التكليف- وأنهم يكونون في كفالة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ففيها أشياء عجيبة.

ولكن الشاهد منها: هؤلاء العصاة، وما يجري عليهم من التعذيب في قبورهم؛ ليكون ذلك زاجرًا عن هذه الجرائم، ففيه ما تسببه الذنوب من عذاب القبر، وعذاب البرزخ، فإن عذاب القبر إنما يكون بسبب الذنوب والمعاصي؛ لأن هذا قبل يوم القيامة، وما كان من العذاب قبل يوم القيامة وهو ليس في الدنيا فإنه من البرزخ.

فَصْلٌ

وَمِنْ آثَارِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي: أَنَّهَا تُحْدِثُ فِي الْأَرْضِ أَنْوَاعًا مِنَ الْفَسَادِ فِي الْمِيَاهِ، وَالْهَوَاءِ، وَالزَّرْعِ، وَالثِّمَارِ، وَالْمَسَاكِنِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

قَالَ مُجَاهِدٌ: «إِذَا وَلِيَ الظَّالِمُ سَعَى بِالظُّلْمِ وَالْفَسَادِ، فَيَحْبِسُ اللَّهُ بِذَلِكَ الْقَطْرَ، فَيَهْلِكُ الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. ثُمَّ قَالَ: «أَمَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بَحْرُكُمْ هَذَا، وَلَكِنْ كُلُّ قَرْيَةٍ عَلَى مَاءٍ جَارٍ فَهُوَ بَحْرٌ»(١). وَقَالَ عِكْرِمَةُ: «﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ لَكُمْ: بَحْرُكُمْ هَذَا، وَلَكِنْ كُلُّ قَرْيَةٍ عَلَى مَاءٍ»(٢). وَقَالَ قَتَادَةُ: «أَمَّا الْبَرُّ فَأَهْلُ الْعَمُودِ، وَأَمَّا الْبَحْرُ فَأَهْلُ الْقُرَى وَالرِّيفِ»(٣).

قُلْتُ: وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الْمَاءَ الْعَذْبَ بَحْرًا، فَقَالَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان:٥٣]. وَلَيْسَ فِي الْعَالَمِ بَحْرٌ حُلْوٌ وَاقِفٌ، وَإِنَّمَا هِيَ الْأَنْهَارُ الْجَارِيَةُ، وَالْبَحْرُ الْمَالِحُ هُوَ السَّاكِنُ، فَسَمَّى الْقُرَى الَّتِي عَلَيْهَا الْمِيَاهُ الْجَارِيَةُ بِاسْمِ تِلْكَ الْمِيَاهِ.

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، قَالَ: الذُّنُوبُ(٤).

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ٥٨٣).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ٥١٠).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ٥١١).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ٥١١).

قُلْتُ: أَرَادَ أَنَّ الذُّنُوبَ سَبَبُ الْفَسَادِ الَّذِي ظَهَرَ، وَإِنْ أَرَادَ أَنَّ الْفَسَادَ الَّذِي ظَهَرَ هُوَ الذُّنُوبُ نَفْسُهَا،فتكُونُ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ لَامَ الْعَاقِبَةِ وَالتَّعْلِيلِ.

وَعَلَى الْأَوَّلِ فَالْمُرَادُ بِالْفَسَادِ: النَّقْصُ وَالشَّرُّ وَالْآلَامُ الَّتِي يُحْدِثُهَا اللَّهُ فِي الْأَرْضِ عِنْدَ مَعَاصِي الْعِبَادِ، فَكُلَّمَا أَحْدَثُوا ذَنْبًا أَحْدَثَ اللَّهُ لَهُمْ عُقُوبَةً، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «كُلَّمَا أَحْدَثْتُمْ ذَنْبًا أَحْدَثَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ سُلْطَانِهِ عُقُوبَةً»[١].

وَالظَّاهِرُ -وَاللَّهُ أَعْلَمُ- أَنَّ الْفَسَادَ الْمُرَادَ بِهِ الذُّنُوبُ وَمُوجِبَاتُهَا، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾، فَهَذَا حَالُنَا، وَإِنَّمَا أَذَاقَنَا الشَّيْءَ الْيَسِيرَ مِنْ أَعْمَالِنَا، وَلَوْ أَذَاقَنَا كُلَّ أَعْمَالِنَا لَمَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ.

الشرح:

هذا واضح أن ما يصيب الناس في البر والبحر هو بسبب الذنوب والمعاصي، في البر: فساد الزروع والثمار، وغور الآبار، وانحباس الأمطار، كل ذلك بسبب الذنوب، وفي البحر: ما يصيب المراكب والسفن، وتلف الأموال، وتلف الأنفس، كل ذلك بسبب الذنوب. ولو أن الناس صلحوا لصلحت لهم دنياهم وآخرتهم: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٥٠) عن مالك بن دينار عن الحجاج.

وَمِنْ تَأْثِيرِ مَعَاصِي اللَّهِ فِي الْأَرْضِ: مَا يَحِلُّ بِهَا مِنَ الْخَسْفِ وَالزَّلَازِلِ، وَيَمْحَقُ بَرَكَتَهَا. وَقَدْ مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى دِيَارِ ثَمُودَ، فَمَنَعَهُمْ مِنْ دُخُولِ دِيَارِهِمْ، وَمِنْ شُرْبِ مِيَاهِهِمْ، وَمِنَ الِاسْتِسْقَاءِ مِنْ آبَارِهِمْ، حَتَّى أَمَرَ أَنْ يُعْلَفَ الْعَجِينُ الَّذِي عُجِنَ بِمِيَاهِهِمْ لِلنَّوَاضِحِ[١]؛ لِتَأْثِيرِ شُؤْمِ الْمَعْصِيَةِ فِي الْمَاءِ.

وَكَذَلِكَ شُؤْمُ تَأْثِيرِ الذُّنُوبِ فِي نَقْصِ الثِّمَارِ وَمَا تُرْمَى بِهِ مِنَ الْآفَاتِ. وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ فِي ضِمْنِ حَدِيثٍ قَالَ: «وُجِدَتْ فِي خَزَائِنَ بَعْضِ بَنِي أُمَيَّةَ حِنْطَةٌ، الْحَبَّةُ بِقَدْرِ نَوَاةِ التَّمْرَةِ، وَهِيَ فِي صُرَّةٍ مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا: كَانَ هَذَا يَنْبُتُ فِي زَمَنٍ مِنَ الْعَدْلِ»[٢].

وَكَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْآفَاتِ أَحْدَثَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَا أَحْدَثَ الْعِبَادُ مِنَ الذُّنُوبِ. وَأَخْبَرَنِي جَمَاعَةٌ مِنْ شُيُوخِ الصَّحْرَاءِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْهَدُونَ الثِّمَارَ أَكْبَرَ مِمَّا هِيَ الْآنَ، وَكَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْآفَاتِ الَّتِي تُصِيبُهَا لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَهَا، وَإِنَّمَا حَدَثَتْ مِنْ قُرْبٍ.

وَأَمَّا تَأْثِيرُ الذُّنُوبِ فِي الصُّوَرِ وَالْخَلْقِ، فَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَطُولُهُ فِي السَّمَاءِ سِتُّونَ ذِرَاعًا، وَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ»[٣].

وَلَمَّا يُطَهِّرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْأَرْضَ مِنَ الظَّلَمَةِ وَالْخَوَنَةِ وَالْفَجَرَةِ، يُخْرِجُ عَبْدًا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٩)، ومسلم (٢٩٨١) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد (٢/٢٩٦) عن أبي قحذم، ولفظه: «وُجِدَ فِي زَمَنِ زِيَادٍ أَوِ ابن زِيَادٍ حفرة فيها حَبٌّ أَمْثَالُ الثُّومِ، عليه مَكْتُوبٌ: هذا نَبَتَ فِي زَمَانٍ كان يُعْمَلُ فيه بِالْعَدْلِ».

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مِنْ عِبَادِهِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا، وَيَقْتُلُ الْمَسِيحُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، وَيُقِيمُ الدِّينَ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ؛ تُخْرِجَ الْأَرْضُ بَرَكَاتِهَا، وَتَعُودُ كَمَا كَانَتْ، حَتَّى إِنَّ الْعِصَابَةَ مِنَ النَّاسِ لَيَأْكُلُونَ الرُّمَّانَةَ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا، وَيَكُونُ الْعُنْقُودُ مِنَ الْعِنَبِ وَقْرَ بَعِيرٍ، وَإِنَّ اللِّقْحَةَ الْوَاحِدَةَ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ(١).

وَهَذَا لِأَنَّ الْأَرْضَ لَمَّا طَهُرَتْ مِنَ الْمَعَاصِي ظَهَرَتْ فِيهَا آثَارُ الْبَرَكَةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي مَحَقَتْهَا الذُّنُوبُ وَالْكُفْرُ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ فِي الْأَرْضِ بَقِيَتْ آثَارُهَا سَارِيَةً فِي الْأَرْضِ تَطْلُبُ مَا يُشَاكِلُهَا مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي هِيَ آثَارُ تِلْكَ الْجَرَائِمِ الَّتِي عُذِّبَتْ بِهَا الْأُمَمُ. فَهَذِهِ الْآثَارُ فِي الْأَرْضِ مِنْ آثَارِ تِلْكَ الْعُقُوبَاتِ، كَمَا أَنَّ هَذِهِ الْمَعَاصِي مِنْ آثَارِ تِلْكَ الْجَرَائِمِ، فَتَنَاسَبَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ وَحُكْمُهُ الْكَوْنِيُّ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَكَانَ الْعَظِيمُ مِنَ الْعُقُوبَةِ لِلْعَظِيمِ مِنَ الْجِنَايَةِ، وَالْأَخَفُّ لِلْأَخَفِّ، وَهَكَذَا يَحْكُمُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ خَلْقِهِ فِي دَارِ الْبَرْزَخِ وَدَارِ الْجَزَاءِ.

وَتَأَمَّلْ مُقَارَنَةَ الشَّيْطَانِ وَمَحَلَّهُ وَدَارَهُ، فَإِنَّهُ لَمَّا قَارَنَ الْعَبْدَ وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِ؛ نُزِعَتِ الْبَرَكَةُ مِنْ عُمُرِهِ، وَعَمَلِهِ، وَقَوْلِهِ، وَرِزْقِهِ. وَلَمَّا أَثَّرَتْ طَاعَتُهُ فِي الْأَرْضِ مَا أَثَّرَتْ نُزِعَتِ الْبَرَكَةُ مِنْ كُلِّ مَحِلٍّ ظَهَرَتْ فِيهِ طَاعَتُهُ، وَكَذَلِكَ مَسْكَنُهُ لَمَّا كَانَ الْجَحِيمَ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنَ الرُّوحِ وَالرَّحْمَةِ وَالْبَرَكَةِ.

---

(١) كما في حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخرجه مسلم (٢٩٣٧).

الشرح:

هذا كله في معنى قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وهل المراد بالفساد المعاصي، أو المراد آثار المعاصي؟

المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ رجَّح أن المراد المعاصي، وأن قوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾ يعني: ظهرت المعاصي، وتكون اللام في قوله: ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ لام العاقبة، أي: ليؤول بهم ذلك إلى العقوبة، فدل على أن الفساد غير العقوبة، أي: الفساد هو المعاصي، فأذاقهم العقوبة عليها.

ثم ذكر أنواعًا من العقوبات التي تُصيب الناس، وأن بعضها تبقى آثارها في الأرض بعد أهلها، مثل ما حصل لثمود، فإن أرضهم فيها آثار العذاب وآثار شؤم المعصية، ولذلك نهى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن دخولها إلا لمن كان خائفًا من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، وأمر أصحابه ألا يستقوا من آبارها، حتى الماء الذي في الآبار من ديار ثمود فيه آثار العذاب، إلا البئر الذي كانت ناقة ثمود تشرب منه. فهذا يدل على أن المعاصي تؤثر في الأرض، وأن ضررها يبقى بعد مُضي أهل تلك الديار، وأن ديار المعذَّبين تُجتنب، ولا ينبسط الإنسان فيها؛ لأنها أرض عذاب، وأن السفر إليها من أجل زيارتها لا يجوز، أما إذا مر الإنسان بها في طريقه، فدخلها من أجل الاعتبار -لا من أجل الإعجاب بها وأن يُقال: هذه حضارة ورُقِيّ ويفتخر بها- فهذا لا بأس به.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ: أَنَّهَا تُطْفِئُ مِنَ الْقَلْبِ نَارَ الْغَيْرَةِ الَّتِي هِيَ لِحَيَاتِهِ وَصَلَاحِهِ كَالْحَرَارَةِ الْغَرِيزِيَّةِ لِحَيَاةِ جَمِيعِ الْبَدَنِ، فَالْغَيْرَةُ حَرَارَتُهُ وَنَارُهُ الَّتِي تُخْرِجُ مَا فِيهِ مِنَ الْخُبْثِ وَالصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ، كَمَا يُخْرِجُ الْكِيرُ خُبْثَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ، وَأَشْرَفُ النَّاسِ وَأَعْلَاهُمْ هِمَّةً أَشَدُّهُمْ غَيْرَةً عَلَى نَفْسِهِ وَخَاصَّتِهِ وَعُمُومِ النَّاسِ.

وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَغْيَرَ الْخَلْقِ عَلَى الْأُمَّةِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَشَدُّ غَيْرَةً مِنْهُ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي»[(١)].

وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ فِي خُطْبَةِ الْكُسُوفِ: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، مَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ»[(٢)].

وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ»[(٣)].

فَجَمَعَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ بَيْنَ الْغَيْرَةِ الَّتِي أَصْلُهَا كَرَاهَةُ الْقَبَائِحِ وَبُغْضُهَا، وَمَحَبَّةِ الْعُذْرِ الَّذِي يُوجِبُ كَمَالَ الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ مَعَ شِدَّةِ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩) من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٣٤)، ومسلم (٢٧٦٠) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

غَيْرَتِهِ يُحِبُّ أَنْ يَعْتَذِرَ إِلَيْهِ عَبْدُهُ، وَيَقْبَلُ عُذْرَ مَنِ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَا يُؤَاخِذُ عَبِيدَهُ بِارْتِكَابِ مَا يَغَارُ مِنَ ارْتِكَابِهِ حَتَّى يُعْذِرَ إِلَيْهِمْ، وَلِأَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ؛ إِعْذَارًا وَإِنْذَارًا.

وَهَذَا غَايَةُ الْمَجْدِ وَالْإِحْسَانِ، وَنِهَايَةُ الْكَمَالِ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ تَشْتَدُّ غَيْرَتُهُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ تَحْمِلُهُ شِدَّةُ الْغَيْرَةِ عَلَى سُرْعَةِ الْإِيقَاعِ وَالْعُقُوبَةِ مِنْ غَيْرِ إِعْذَارٍ مِنْهُ، وَمِنْ غَيْرِ قَبُولٍ لِعُذْرِ مَنِ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ، بَلْ يَكُونُ لَهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ عُذْرٌ وَلَا تَدَعُهُ شِدَّةُ الْغَيْرَةِ أَنْ يَقْبَلَ عُذْرَهُ. وَكَثِيرٌ مِمَّنْ يَقْبَلُ الْمَعَاذِيرَ يَحْمِلُهُ عَلَى قَبُولِهَا قِلَّةُ الْغَيْرَةِ حَتَّى يَتَوَسَّعَ فِي طُرُقِ الْمَعَاذِيرِ، وَيَرَى عُذْرًا مَا لَيْسَ بِعُذْرٍ، حَتَّى يَعْتَذِرَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ بِالْقَدَرِ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا غَيْرُ مَمْدُوحٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ.

وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ مِنَ الْغَيْرَةِ مَا يُحِبُّهَا اللَّهُ، وَمِنْهَا مَا يَبْغَضُهُ اللَّهُ، فَالَّتِي يَبْغَضُهَا اللَّهُ الْغَيْرَةُ مِنْ غَيْرِ رِيبَةٍ»[1]، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

وَإِنَّمَا الْمَمْدُوحُ اقْتِرَانُ الْغَيْرَةِ بِالْعُذْرِ، فَيَغَارُ فِي مَحِلِّ الْغَيْرَةِ، وَيُعْذِرُ فِي مَوْضِعِ الْعُذْرِ، وَمَنْ كَانَ هَكَذَا فَهُوَ الْمَمْدُوحُ حَقًّا.

الشرح:

ومن عقوبات المعاصي أيضًا: أنها تُطفئ الغيرة، يعني: استنكار الذنوب، فلا يبالي العاصي بذنوبه أو ذنوب غيره، ويألف المعاصي ويأنس بها وبأهلها.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٥٩)، والنسائي (٢٥٥٨)، وأحمد (٥/ ٤٤٥)، والطبراني في الكبير (١٧٧٢) من حديث جابر بن عتيك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه ابن ماجه (١٩٩٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أما أهل الطاعة فإن طاعتهم تنمي الغيرة في قلوبهم، فيستنكرون المعاصي، ويتجنبونها، ويستنكرونها من غيرهم.

وانطفاء الغيرة في قلب الإنسان من أعظم العقوبات وأشدها؛ فتراه لا يأنف من المعاصي وأهلها المعاصي، بل يألفهم ويألفونه، وسبب ذلك: كثرة ما وقع منه من الذنوب، فأذهبت غيرته.

وأما مسألة قبول العذر: فالعذر مقبول إذا كان صحيحًا، فينبغي للإنسان أنه يقبل العذر، ولا يحمله شدة الغيرة على ألا يقبل توبة التائب، فهذا مذموم.

وهنا مسألة عجيبة يقع فيها الكثير من الناس اليوم، وهي: أنهم يغتابون العصاة ويقولون: فلان فعل كذا، وفلان فعل كذا، ويظنون أن ذلك من الغيرة، وهو ليس كذلك، وليس من إنكار المنكر، بل هو من الغيبة المحرمة، فمن أراد أن ينكر المنكر فله طرقه، وليس منها أن يعدد ذنوب الناس ويغتاب العصاة، فهذا من الغيبة، وقد وقع فيه كثير من الناس اليوم بحجة أن هذا من الغيرة ومن الإنكار، وإنما هو منكر في الحقيقة، والمنكر لا يُزال بالمنكر، ،إنما يُزال المنكر بالمعروف، فاغتياب الناس والوقوع في أعراضهم في غيبتهم وذكر مساوئهم في المجالس هذا ليس من إنكار المنكر، بل يزيد المنكر شرًا، ويزيده منكرًا آخر.

أما إذا رفع أمر العاصي إلى السلطان أو إلى ولي الأمر، وذكر ذنوبه ومعاصيه؛ ليأخذ على يده، فلا بأس بذلك؛ لتحصيل مصلحة راجحة، بشرط أن يكون عند السلطان، أو عند من له قدرة على معاقبته. فإذا ذكر معاصيه عند إنسان ليس له قدرة فهذا من الغيبة المحضة.

وَلَمَّا جَمَعَ سُبْحَانَهُ صِفَاتِ الْكَمَالِ كُلَّهَا كَانَ أَحَقَّ بِالْمَدْحِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، وَلَا يَبْلُغُ أَحَدٌ أَنْ يَمْدَحَهُ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ، بَلْ هُوَ كَمَا مَدَحَ نَفْسَهُ وَأَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ.

فَالْغَيُورُ قَدْ وَافَقَ رَبَّهُ سُبْحَانَهُ فِي صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ، وَمَنْ وَافَقَ اللَّهَ فِي صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ قَادَتْهُ تِلْكَ الصِّفَةُ إِلَيْهِ بِزِمَامِهِ، وَأَدْخَلَتْهُ عَلَى رَبِّهِ، وَأَدْنَتْهُ مِنْهُ، وَقَرَّبَتْهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَصَيَّرَتْهُ مَحْبُوبًا، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ رَحِيمٌ يُحِبُّ الرُّحَمَاءَ، كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكُرَمَاءَ، عَلِيمٌ يُحِبُّ الْعُلَمَاءَ، قَوِيٌّ يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ الْقَوِيَّ، وَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ[١]، حَيِيٌّ يُحِبُّ أَهْلَ الْحَيَاءِ[٢]، جَمِيلٌ يُحِبُّ أَهْلَ الْجَمَالِ[٣]، وِتْرٌ يُحِبُّ أَهْلَ الْوَتْرِ[٤].

الشرح:

الله جَلَّ وَعَلَا يحب الأعمال التي توافق صفاته، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كريمٌ يحب الكرم، عليمٌ يحب العلماء العاملين بعلمهم، رحيمٌ يحب الرحماء.. وهكذا كل الأعمال الطَّيبة فإن الله يحبها؛ لأنها توافق صفاته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**». أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) كما في حديث يعلى بن أمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ**». أخرجه أبو داود (٤٠١٢)، والنسائي (٤٠٦)، وأحمد (٤/ ٢٢٤)، والبيهقي في الكبرى (١/ ٣٠٥).

(٣) كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخرجه مسلم (٩١).

(٤) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخرجه البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧).

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي إِلَّا أَنَّهَا تُوجِبُ لِصَاحِبِهَا ضِدَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ، وَتَمْنَعُهُ مِنَ الِاتِّصَافِ بِهَا، لَكَفَى بِهَا عُقُوبَةً. فَإِنَّ الْخَطْرَةَ تَنْقَلِبُ وَسْوَسَةً، وَالْوَسْوَسَةُ تَصِيرُ إِرَادَةً، وَالْإِرَادَةُ تَقْوَى فَتَصِيرُ عَزِيمَةً، ثُمَّ تَصِيرُ فِعْلًا، ثُمَّ تَصِيرُ صِفَةً لَازِمَةً وَهَيْئَةً ثَابِتَةً رَاسِخَةً، وَحِينَئِذٍ يَتَعَذَّرُ الْخُرُوجُ مِنْهَا كَمَا يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ الْخُرُوجُ مِنْ صِفَاتِهِ الْقَائِمَةِ بِهِ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّهُ كُلَّمَا اشْتَدَّتْ مُلَابَسَتُهُ لِلذُّنُوبِ أَخْرَجَتْ مِنْ قَلْبِهِ الْغَيْرَةَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَعُمُومِ النَّاسِ، وَقَدْ تَضْعُفُ فِي الْقَلْبِ جِدًّا حَتَّى لَا يَسْتَقْبِحَ بَعْدَ ذَلِكَ الْقَبِيحَ لَا مِنْ نَفْسِهِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ، وَإِذَا وَصَلَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ فَقَدْ دَخَلَ فِي بَابِ الْهَلَاكِ.

وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى عَدَمِ الِاسْتِقْبَاحِ، بَلْ يُحَسِّنُ الْفَوَاحِشَ وَالظُّلْمَ لِغَيْرِهِ، وَيُزَيِّنُهُ لَهُ، وَيَدْعُوهُ إِلَيْهِ، وَيَحُثُّهُ عَلَيْهِ، وَيَسْعَى لَهُ فِي تَحْصِيلِهِ، وَلِهَذَا كَانَ الدَّيُّوثُ أَخْبَثَ خَلْقِ اللَّهِ، وَالْجَنَّةُ حَرَامٌ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ مُحَلِّلُ الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ لِغَيْرِهِ وَمُزَيِّنُهُ لَهُ، فَانْظُرْ مَا الَّذِي حَمَلَتْ عَلَيْهِ قِلَّةُ الْغَيْرَةِ.

وَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ أَصْلَ الدِّينِ الْغَيْرَةُ، وَمَنْ لَا غَيْرَةَ لَهُ لَا دِينَ لَهُ، فَالْغَيْرَةُ تَحْمِي الْقَلْبَ فَتَحْمِي لَهُ الْجَوَارِحَ، فَتَدْفَعُ السُّوءَ وَالْفَوَاحِشَ، وَعَدَمُ الْغَيْرَةِ تُمِيتُ الْقَلْبَ، فَتَمُوتُ لَهُ الْجَوَارِحُ؛ فَلَا يَبْقَى عِنْدَهَا دَفْعٌ الْبَتَّةَ.

وَمَثَلُ الْغَيْرَةِ فِي الْقَلْبِ كَمَثَلِ الْقُوَّةِ الَّتِي تَدْفَعُ الْمَرَضَ وَتُقَاوِمُهُ، فَإِذَا ذَهَبَتِ الْقُوَّةُ وَجَدَ الدَّاءُ الْمَحِلَّ قَابِلًا، وَلَمْ يَجِدْ دَافِعًا، فَتَمَكَّنَ، فَكَانَ الْهَلَاكُ. وَمَثَلُهَا مِثْلُ صَيَاصِيِّ الْجَامُوسِ الَّتِي يَدْفَعُ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ، فَإِنْ كُسِرَتْ طَمِعَ فِيهِ عَدُوُّهُ.

الشرح:

المقصود من الكلام الذي مرَّ كله وخلاصته: أن الغيرة إذا فُقدت من القلب صار صاحب هذا القلب لا ينكر منكرًا ولا يعرف معروفًا، بل يدعو إلى المنكر والعياذ بالله، كما قال تعالى في المنافقين: ﴿ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة:٦٧]؛ لأنهم ليس عندهم غيرة مثل المؤمنين الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؛ فالمؤمنون ما صاروا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر إلا لوجود الغيرة في قلوبهم، والمنافقون على العكس من الأمر ما صاروا يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف إلا لفقدهم الغيرة في قلوبهم.

وهذا واقع في الناس اليوم، فإن الذين يدعون إلى الإباحية والسفور، ويدعون إلى تحكيم القوانين الوضعية والأنظمة الكافرة هم من هذا النوع يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف؛ يأمرون بالعُري، وينهون عن الحجاب، ويأمرون بالربا، وينهون عن المكاسب المباحة، ويقولون: هذه لا تكفي، والاقتصاد العالمي لا يقوم إلا على الربا، وما أشبه ذلك.

فهؤلاء يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف؛ لأنهم ليس في قلوبهم غيرة تحميهم من ذلك، فجمعوا بين إساءتين:

الأولى: أنهم هم في أنفسهم يعملون السيئات.

الثانية: أنهم يأمرون الناس بفعل السيئات.

وقوله: **(وَلِهَذَا كَانَ الدَّيُّوثُ أَخْبَثَ خَلْقِ اللَّهِ)**، الديوث: هو الذي يُقر السوء في أهله؛ لأنه ليس عنده غيرة، والغيرة: هي استنكار المنكر.

وقوله: **(صَيَاصِيِّ الجْامُوسِ)** أي: قرونه، خلق الله القرون للدواب لتدافع بها عن نفسها، فإذا انكسرت صارت الدابة ضعيفة ليس عندها شيء تدافع به عن نفسها وولدها، فكذلك الغيرة للإنسان مثل الصياصي يدفع بها المعاصي، فإذا فُقدت الغيرة تسلطت عليه الذنوب والمعاصي.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: ذَهَابُ الْحَيَاءِ الَّذِي هُوَ مَادَّةُ حَيَاةِ الْقَلْبِ، وَهُوَ أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ، وَذَهَابُهُ ذَهَابُ الْخَيْرِ أَجْمَعِهِ.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ»(١).

وَقَالَ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسَ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»(٢). وَفِيهِ تَفْسِيرَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ عَلَى التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ، وَالْمَعْنَى: مَنْ لَمْ يَسْتَحِ فَإِنَّهُ يَصْنَعُ مَا شَاءَ مِنَ الْقَبَائِحِ؛ إِذِ الْحَامِلُ عَلَى تَرْكِهَا الْحَيَاءُ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ حَيَاءٌ يَرْدَعُهُ عَنِ الْقَبَائِحِ، فَإِنَّهُ يُوَاقِعُهَا، وَهَذَا تَفْسِيرُ أَبِي عُبَيْدَةَ(٣).

وَالثَّانِي: أَنَّ الْفِعْلَ إِذَا لَمْ تَسْتَحِ مِنْهُ مِنَ اللهِ فَافْعَلْهُ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَنْبَغِي تَرْكُهُ هُوَ مَا يُسْتَحَى مِنْهُ مِنَ اللهِ، وَهَذَا تَفْسِيرُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ فِي رِوَايَةِ ابْنِ هَانِئٍ(٤).

فَعَلَى الْأَوَّلِ: يَكُونُ تَهْدِيدًا، كَقَوْلِهِ: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤٠].

وَعَلَى الثَّانِي: يَكُونُ إِذْنًا وَإِبَاحَةً.

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى حَمْلِهِ عَلَى الْمَعْنَيَيْنِ؟

قُلْتُ: لَا، وَلَا عَلَى قَوْلِ مَنْ يَحْمِلُ الْمُشْتَرَكَ عَلَى جَمِيعِ مَعَانِيهِ؛ لِمَا بَيْنَ الْإِبَاحَةِ وَالتَّهْدِيدِ مِنَ الْمُنَافَاةِ، وَلَكِنَّ اعْتِبَارَ أَحَدِ الْمَعْنَيَيْنِ يُوجِبُ اعْتِبَارَ الْآخَرِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٧) من حديث عمران بن حصين رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٢٤).

(٣) يُنظر: غريب الحديث للقاسم بن سلام (٣/ ٣١).

(٤) لم أقف عليه في المطبوع من مسائل ابن هانئ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الذُّنُوبَ تُضْعِفُ الْحَيَاءَ مِنَ الْعَبْدِ، حَتَّى رُبَّمَا انْسَلَخَ مِنْهُ بِالْكُلِّيَّةِ، حَتَّى إِنَّهُ رُبَّمَا لَا يَتَأَثَّرُ بِعِلْمِ النَّاسِ بِسُوءِ حَالِهِ وَلَا بِاطِّلَاعِهِمْ عَلَيْهِ، بَلْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يُخْبِرُ عَنْ حَالِهِ وَقُبْحِ مَا يَفْعَلُ، وَالْحَامِلُ لَهُ عَلَى ذَلِكَ انْسِلَاخُهُ مِنَ الْحَيَاءِ. وَإِذَا وَصَلَ الْعَبْدُ إِلَى هَذِهِ الْحَالَةِ لَمْ يَبْقَ فِي صَلَاحِهِ مَطْمَعٌ، كَمَا قِيلَ[1]:

وَإِذَا رَأَى إِبْلِيسُ طَلْعَةَ وَجْهِهِ ... حَيَّا وَقَالَ فَدَيْتُ مَنْ لَا يُفْلِحُ

وَالْحَيَاءُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْحَيَاةِ، وَالْغَيْثُ يُسَمَّى (حَيَا) بِالْقَصْرِ؛ لِأَنَّ بِهِ حَيَاةَ الْأَرْضِ وَالنَّبَاتِ وَالدَّوَابِّ، وَكَذَلِكَ سُمِّيَتْ بِالْحَيَاءِ حَيَاةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَمَنْ لَا حَيَاءَ فِيهِ فَهُوَ مَيِّتٌ فِي الدُّنْيَا شَقِيٌّ فِي الْآخِرَةِ.

وَبَيْنَ الذُّنُوبِ وَبَيْنَ قِلَّةِ الْحَيَاءِ وَعَدَمِ الْغَيْرَةِ تَلَازُمٌ مِنَ الطَّرَفَيْنِ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَسْتَدْعِي الْآخَرَ وَيَطْلُبُهُ حَثِيثًا، وَمَنِ اسْتَحَى مِنَ اللَّهِ عِنْدَ مَعْصِيَتِهِ، اسْتَحَى اللَّهُ مِنْ عُقُوبَتِهِ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَحِ مِنْ مَعْصِيَتِهِ، لَمْ يَسْتَحِ اللَّهُ مِنْ عُقُوبَتِهِ.

---

(١) البيت للبحتري، يُنظر: ديوانه (١/ ٤٨٢).

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ: أَنَّهَا تُضْعِفُ فِي الْقَلْبِ تَعْظِيمَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، وَتُضْعِفُ وَقَارَهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ وَلَا بُدَّ، شَاءَ أَمْ أَبَى، وَلَوْ تَمَكَّنَ وَقَارُ اللَّهِ وَعَظَمَتُهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ لَمَا تَجَرَّأَ عَلَى مَعَاصِيهِ.

وَرُبَّمَا اغْتَرَّ الْمُغْتَرُّ، وَقَالَ: إِنَّمَا يَحْمِلُنِي عَلَى الْمَعَاصِي حُسْنُ الرَّجَاءِ، وَطَمَعِي فِي عَفْوِهِ، لَا ضَعْفُ عَظَمَتِهِ فِي قَلْبِي.

وَهَذَا مِنْ مُغَالَطَةِ النَّفْسِ؛ فَإِنَّ عَظَمَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَجَلَالَهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ تَقْتَضِي تَعْظِيمَ حُرُمَاتِهِ، وَتَعْظِيمُ حُرُمَاتِهِ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الذُّنُوبِ، فَالْمُتَجَرِّئُونَ عَلَى مَعَاصِيهِ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَكَيْفَ يَقْدِرُهُ حَقَّ قَدْرِهِ، أَوْ يُعَظِّمُهُ وَيُكَبِّرُهُ، وَيَرْجُو وَقَارَهُ وَيُجِلُّهُ، مَنْ يَهُونُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ؟ هَذَا مِنْ أَمْحَلِ الْمُحَالِ، وَأَبْيَنِ الْبَاطِلِ!

وَكَفَى بِالْعَاصِي عُقُوبَةً أَنْ يَضْمَحِلَّ مِنْ قَلْبِهِ تَعْظِيمُ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَتَعْظِيمُ حُرُمَاتِهِ، وَيَهُونُ عَلَيْهِ حَقُّهُ.

وَمِنْ بَعْضِ عُقُوبَةِ هَذَا: أَنْ يَرْفَعَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مَهَابَتَهُ مِنْ قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَيَهُونُ عَلَيْهِمْ، وَيَسْتَخِفُّونَ بِهِ، كَمَا هَانَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَاسْتَخَفَّ بِهِ، فَعَلَى قَدْرِ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ لِلَّهِ يُحِبُّهُ النَّاسُ، وَعَلَى قَدْرِ خَوْفِهِ مِنَ اللَّهِ يَخَافُهُ النَّاسُ، وَعَلَى قَدْرِ تَعْظِيمِهِ لِلَّهِ وَحُرُمَاتِهِ يُعَظِّمُ النَّاسُ حُرُمَاتِهِ.

وَكَيْفَ يَنْتَهِكُ عَبْدٌ حُرُمَاتِ اللَّهِ، وَيَطْمَعُ أَنْ لَا يَنْتَهِكَ النَّاسُ حُرُمَاتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَهُونُ عَلَيْهِ حَقُّ اللَّهِ وَلَا يُهَوِّنُهُ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ؟ أَمْ كَيْفَ يَسْتَخِفُّ بِمَعَاصِي اللَّهِ وَلَا يَسْتَخِفُّ بِهِ الْخَلْقُ؟

وَقَدْ أَشَارَ سُبْحَانَهُ إِلَى هَذَا فِي كِتَابِهِ عِنْدَ ذِكْرِ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ، وَأَنَّهُ أَرْكَسَ أَرْبَابَهَا بِمَا كَسَبُوا، وَغَطَّى عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَطَبَعَ عَلَيْهَا بِذُنُوبِهِمْ، وَأَنَّهُ نَسِيَهُمْ كَمَا نَسُوهُ، وَأَهَانَهُمْ كَمَا أَهَانُوا دِينَهُ، وَضَيَّعَهُمْ كَمَا ضَيَّعُوا أَمْرَهُ.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي آيَةِ سُجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ لَهُ: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج:١٨]، فَإِنَّهُمْ لَمَّا هَانَ عَلَيْهِمُ السُّجُودُ لَهُ وَاسْتَخَفُّوا بِهِ وَلَمْ يَفْعَلُوهُ أَهَانَهُمْ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ مُكْرِمٍ بَعْدَ أَنْ أَهَانَهُمْ، وَمَنْ ذَا يُكْرِمُ مَنْ أَهَانَهُ اللَّهُ؟ أَوْ يُهِنْ مَنْ أَكْرَمَهُ اللَّهُ؟

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تَسْتَدْعِي نِسْيَانَ اللَّهِ لِعَبْدِهِ، وَتَرْكَهُ وَتَخْلِيَتَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ وَشَيْطَانِهِ، وَهُنَالِكَ الْهَلَاكُ الَّذِي لَا يُرْجَى مَعَهُ نَجَاةٌ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [الحشر:١٨ - ١٩].

فَأَمَرَ بِتَقْوَاهُ، وَنَهَى أَنْ يَتَشَبَّهَ عِبَادُهُ الْمُؤْمِنُونَ بِمَنْ نَسِيَهُ بِتَرْكِ تَقْوَاهُ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ عَاقَبَ مَنْ تَرَكَ التَّقْوَى بِأَنْ أَنْسَاهُ نَفْسَهُ، أَيْ: أَنْسَاهُ مَصَالِحَهَا، وَمَا يُنْجِيهَا مِنْ عَذَابِهِ، وَمَا يُوجِبُ لَهُ الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ وَكَمَالَ لَذَّتِهَا وَسُرُورِهَا وَنَعِيمِهَا، فَأَنْسَاهُ اللَّهُ ذَلِكَ كُلَّهُ جَزَاءً لِمَا نَسِيَهُ مِنْ عَظَمَتِهِ وَخَوْفِهِ، وَالْقِيَامِ بِأَمْرِهِ، فَتَرَى الْعَاصِيَ مُهْمِلًا لِمَصَالِحِ نَفْسِهِ مُضَيِّعًا لَهَا، قَدْ أَغْفَلَ اللَّهُ قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِهِ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا، قَدِ انْفَرَطَتْ عَلَيْهِ مَصَالِحُ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ، وَقَدْ فَرَّطَ فِي سَعَادَتِهِ الْأَبَدِيَّةِ، وَاسْتَبْدَلَ بِهَا أَدْنَى مَا يَكُونُ مِنْ لَذَّةٍ إِنَّمَا هِيَ سَحَابَةُ صَيْفٍ أَوْ خَيَالُ طَيْفٍ!

كَمَا قِيلَ:

أَحْلَامُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زَائِلٍ ... إِنَّ اللَّبِيبَ بِمِثْلِهَا لَا يُخْدَعُ

وَأَعْظَمُ الْعُقُوبَاتِ نِسْيَانُ الْعَبْدِ لِنَفْسِهِ، وَإِهْمَالُهُ لَهَا، وَإِضَاعَتُهُ حَظَّهَا وَنَصِيبَهَا مِنَ اللَّهِ، وَبَيْعُهَا ذَلِكَ بِالْغَبْنِ وَالْهَوَانِ وَأَبْخَسِ الثَّمَنِ، فَضَيَّعَ مَنْ لَا غِنَى لَهُ عَنْهُ، وَلَا عِوَضَ لَهُ مِنْهُ، وَاسْتَبْدَلَ بِهِ مَنْ عَنْهُ كُلُّ الْغِنَى أَوْ مِنْهُ كُلُّ الْعِوَضِ.

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِذَا ضَيَّعْتَهُ عِوَضٌ ... وَمَا مِنَ اللَّهِ إِنْ ضَيَّعْتَهُ عِوَضُ

فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يُعَوِّضُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مَا سِوَاهُ وَلَا يُعَوِّضُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَيُغْنِي

عَنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يُغْنِي عَنْهُ شَيْءٌ، وَيُجِيرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يُجِيرُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَيَمْنَعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يَمْنَعُ مِنْهُ شَيْءٌ.

فَكَيْفَ يَسْتَغْنِي الْعَبْدُ عَنْ طَاعَةِ مَنْ هَذَا شَأْنُهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ؟

وَكَيْفَ يَنْسَى ذِكْرَهُ وَيُضَيِّعُ أَمْرَهُ حَتَّى يُنْسِيَهُ نَفْسَهُ، فَيَخْسَرُهَا وَيَظْلِمُهَا أَعْظَمَ الظُّلْمِ؟

فَمَا ظَلَمَ الْعَبْدُ رَبَّهُ وَلَكِنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَمَا ظَلَمَهُ رَبُّهُ وَلَكِنْ هُوَ الَّذِي ظَلَمَ نَفْسَهُ!.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تُخْرِجُ الْعَبْدَ مِنْ دَائِرَةِ الْإِحْسَانِ، وَتَمْنَعُهُ مِنْ ثَوَابِ الْمُحْسِنِينَ، فَإِنَّ الْإِحْسَانَ إِذَا بَاشَرَ الْقَلْبَ مَنَعَهُ عَنِ الْمَعَاصِي، فَإِنَّ مَنْ عَبَدَ اللَّهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ، لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ إِلَّا لِاسْتِيلَاءِ ذِكْرِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ عَلَى قَلْبِهِ، بِحَيْثُ يَصِيرُ كَأَنَّهُ يُشَاهِدُهُ، وَذَلِكَ سَيَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِرَادَةِ الْمَعْصِيَةِ، فَضْلًا عَنْ مُوَاقَعَتِهَا، فَإِذَا خَرَجَ مِنْ دَائِرَةِ الْإِحْسَانِ، فَاتَهُ صُحْبَةُ رُفْقِهِ الْخَاصَّةِ، وَعَيْشُهُمُ الْهَنِيءُ، وَنَعِيمُهُمُ التَّامُّ.

فَإِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا أَقَرَّهُ فِي دَائِرَةِ عُمُومِ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنْ عَصَاهُ بِالْمَعَاصِي الَّتِي تُخْرِجُهُ مِنْ دَائِرَةِ الْإِيمَانِ -كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ إِلَيْهِ فِيهَا النَّاسُ أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَإِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ، وَالتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ»(١)- خرج من دائرة الإيمان، وَفَاتَهُ رُفْقَةُ الْمُؤْمِنِينَ، وَحُسْنُ دِفَاعِ اللَّهِ عَنْهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا، وَفَاتَهُ كُلُّ خَيْرٍ رَتَّبَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ عَلَى الْإِيمَانِ، وَهُوَ نَحْوُ مِائَةِ خَصْلَةٍ، كُلُّ خَصْلَةٍ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.

فَمِنْهَا: الْأَجْرُ الْعَظِيمُ: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٤٦].

وَمِنْهَا: الدَّفْعُ عَنْهُمْ شُرُورَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج:٣٨].

وَمِنْهَا: اسْتِغْفَارُ حَمَلَةِ الْعَرْشِ لَهُمْ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر:٧].

وَمِنْهَا: مُوَالَاةُ اللَّهِ لَهُمْ، وَلَا يَذِلُّ مَنْ وَالَاهُ اللَّهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة:٢٥٧].

وَمِنْهَا: أَمْرُهُ مَلَائِكَتَهُ بِتَثْبِيتِهِمْ: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال:١٢].

وَمِنْهَا: أَنَّ لَهُمُ الدَّرَجَاتِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَالْمَغْفِرَةَ وَالرِّزْقَ الْكَرِيمَ(١).

وَمِنْهَا: الْعِزَّةُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

وَمِنْهَا: مَعِيَّةُ اللَّهِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال:١٩].

وَمِنْهَا: الرِّفْعَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة:١١].

وَمِنْهَا: إِعْطَاؤُهُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَإِعْطَاؤُهُمْ نُورًا يَمْشُونَ بِهِ وَمَغْفِرَةُ ذُنُوبِهِمْ(٢).

وَمِنْهَا: الْوُدُّ الَّذِي يَجْعَلُهُ سُبْحَانَهُ لَهُمْ(٣)، وَهُوَ أَنَّهُ يُحِبُّهُمْ وَيُحَبِّبُهُمْ إِلَى

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الأنفال:٤].

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ [الحديد:٢٨].

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم:٩٦].

مَلَائِكَتِهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ.

وَمِنْهَا: أَمَانُهُمْ مِنَ الْخَوْفِ يَوْمَ يَشْتَدُّ الْخَوْفُ: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام:٤٨].

وَمِنْهَا: أَنَّهُمُ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمُ الَّذِينَ أُمِرْنَا أَنْ نَسْأَلَهُ أَنْ يَهْدِيَنَا إِلَى صِرَاطِهِمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ سَبْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً.

وَمِنْهَا: أَنَّ الْقُرْآنَ إِنَّمَا هُوَ هُدًى لَهُمْ وَشِفَاءٌ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤].

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الْإِيمَانَ سَبَبٌ جَالِبٌ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَكُلُّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَسَبَبُهُ الْإِيمَانُ، وَكُلُّ شَرٍّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَسَبَبُهُ عَدَمُ الْإِيمَانِ. فَكَيْفَ يَهُونُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَرْتَكِبَ شَيْئًا يُخْرِجُهُ مِنْ دَائِرَةِ الْإِيمَانِ، وَيَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَلَكِنْ لَا يَخْرُجُ مِنْ دَائِرَةِ عُمُومِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنِ اسْتَمَرَّ عَلَى الذُّنُوبِ وَأَصَرَّ عَلَيْهَا خِيفَ عَلَيْهِ أَنْ يَرِينَ عَلَى قَلْبِهِ، فَيُخْرِجُهُ عَنِ الْإِسْلَامِ بِالْكُلِّيَّةِ. وَمِنْ هَاهُنَا اشْتَدَّ خَوْفُ السَّلَفِ، كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: «أَنْتُمْ تَخَافُونَ الذُّنُوبَ، وَأَنَا أَخَافُ الْكُفْرَ»(١).

---

(١) ذكر نحوه مكي في قوت القلوب (١/ ٣٧٩) عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «يا معشر الحواريين أنتم تخافون المعاصي ونحن معشر الأنبياء نخاف الكفر». وذكر عن سهل التستري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه كان يقول: «المريد يخاف أن يبتلي بالمعاصي، والعارف يخاف أن يبتلي بالكفر».

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تُضْعِفُ سَيْرَ الْقَلْبِ إِلَى اللَّهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ، أَوْ تَعُوقُهُ أَوْ تُوقِفُهُ وَتَقْطَعُهُ عَنِ السَّيْرِ، فَلَا تَدَعُهُ يَخْطُو إِلَى اللَّهِ خُطْوَةً. هَذَا إِنْ لَمْ تَرُدَّهُ عَنْ وُجْهَتِهِ إِلَى وَرَائِهِ، فَالذَّنْبُ يَحْجِبُ الْوَاصِلَ، وَيَقْطَعُ السَّائِرَ، وَيُنَكِّسُ الطَّالِبَ، وَالْقَلْبُ إِنَّمَا يَسِيرُ إِلَى اللَّهِ بِقُوَّتِهِ، فَإِذَا مَرِضَ بِالذُّنُوبِ ضَعُفَتْ تِلْكَ الْقُوَّةُ الَّتِي تُسَيِّرُهُ، فَإِنْ زَالَتْ بِالْكُلِّيَّةِ انْقَطَعَ عَنِ اللَّهِ انْقِطَاعًا يَبْعُدُ تَدَارُكُهُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

الشرح:

ومن عقوبات المعاصي: (أَنَّهَا تُضْعِفُ سَيْرَ الْقَلْبِ إِلَى اللَّهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ)، فإذا تعطل القلب عن تذكر الآخرة والعمل لها فهذه عقوبة عظيمة من أعظم عقوبات المعاصي؛ فالمعاصي لا تذهب سُدى يفعلها الإنسان وتنتهي وتروح! بل تؤثر في قلبه الذي هو أعظم شيءٍ في بدنه، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وعمى القلب أشد من عمى البصر؛ لأن أعمى البصر قد يكون من أعظم عباد الله عبادة وعلمًا وورعًا؛ لأن قلبه حيٌّ ومبصرٌ، وكم من أعمى من خواص أولياء الله، ومن أكابر العلماء ما ضره فقد البصر؛ كابن عباس، وابن عمر في آخر حياتهما.

وكثيرٌ من علماء المسلمين ما ضرَّهم عمى البصر، بينما كثيرٌ من الناس أبصارهم قوية وعيونهم سليمة، لكن في قلوبهم عمى، وهو عمى البصيرة.

فَالذَّنْبُ إِمَّا أَنْ يُمِيتَ الْقَلْبَ، أَوْ يُمْرِضَهُ مَرَضًا مُخَوِّفًا، أَوْ يُضْعِفَ قُوَّتَهُ وَلَا بُدَّ حَتَّى يَنْتَهِيَ ضَعْفُهُ إِلَى الْأَشْيَاءِ الثَّمَانِيَةِ الَّتِي اسْتَعَاذَ مِنْهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهِيَ: الْهَمُّ، وَالْحَزَنُ، وَالْعَجْزُ، وَالْكَسَلُ، وَالْجُبْنُ، وَالْبُخْلُ، وَضَلَعُ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةُ الرِّجَالِ(١).

وَكُلُّ اثْنَيْنِ مِنْهَا قَرِينَانِ: فَالْهَمُّ وَالْحَزَنُ قَرِينَانِ، فَإِنَّ الْمَكْرُوهَ الْوَارِدَ عَلَى الْقَلْبِ إِنْ كَانَ مِنْ أَمْرٍ مُسْتَقْبَلٍ يَتَوَقَّعُهُ أَحْدَثَ الْهَمَّ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَمْرٍ مَاضٍ قَدْ وَقَعَ أَحْدَثَ الْحَزَنَ.

وَالْعَجْزُ وَالْكَسَلُ قَرِينَانِ: فَإِنْ تَخَلَّفَ الْعَبْدُ عَنْ أَسْبَابِ الْخَيْرِ وَالْفَلَاحِ إِنْ كَانَ لِعَدَمِ قُدْرَتِهِ فَهُوَ الْعَجْزُ، وَإِنْ كَانَ لِعَدَمِ إِرَادَتِهِ فَهُوَ الْكَسَلُ.

وَالْجُبْنُ وَالْبُخْلُ قَرِينَانِ: فَإِنَّ عَدَمَ النَّفْعِ مِنْهُ إِنْ كَانَ بِبَدَنِهِ فَهُوَ الْجُبْنُ، وَإِنْ كَانَ بِمَالِهِ فَهُوَ الْبُخْلُ.

وَضَلَعُ الدَّيْنِ وَقَهْرُ الرِّجَالِ قَرِينَانِ: فَإِنَّ اسْتِعْلَاءَ الْغَيْرِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ بِحَقٍّ فَهُوَ مِنْ ضَلَعِ الدَّيْنِ، وَإِنْ كَانَ بِبَاطِلٍ فَهُوَ مِنْ قَهْرِ الرِّجَالِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الذُّنُوبَ مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِهَذِهِ الثَّمَانِيَةِ، كَمَا أَنَّهَا مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِجَهْدِ الْبَلَاءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ، وَمِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِزَوَالِ نِعَمِ اللَّهِ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِهِ إِلَى نِقْمَتِهِ، وَتَجْلِبُ جَمِيعَ سُخْطِهِ.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٩٢).

الشرح:

مرض القلب على قسمين:

مرضٌ عضوي: وهو الذي يعالجه الأطباء.

ومرضٌ معنوي: وهو أشد من المرض العُضوي، وهذا علاجه بذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وهو ميسور لمن وفقه الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

وأما من غفل عن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ فإن قلبه يمرض، ثم يزيد المرض، ثم يزيد حتى يموت الموت المعنوي.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ: أَنَّهَا تُزِيلُ النِّعَمَ، وَتُحِلُّ النِّقَمَ.

فَمَا زَالَتْ عَنِ الْعَبْدِ نِعْمَةٌ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَلَا حَلَّتْ بِهِ نِقْمَةٌ إِلَّا بِذَنْبٍ، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا نَزَلَ بَلَاءٌ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَلَا رُفِعَ إِلَّا بِتَوْبَةٍ»(١).

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

الشرح:

ومن عقوبات الذنوب والمعاصي أيضًا: أنها تزيل النعم الموجودة، وتحل النِقم، فما أصاب الناس من نقم إلا بسبب ذنوبهم ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، فتزيل النعم، وتحل محلها النِقم، كما قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ وهؤلاء أهل مكة ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢]، لَـمَّا أبوا أن يستجيبوا للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقبلوا ما جاء به، سلبهم الله تلك النعم، وأزالهم وجعل مكانهم من المؤمنين.

---

(١) أخرجه أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (١٠٣/٣)، وابن بشكوال في المستغيثين بالله تعالى عند المهمات والحاجات (ص٢٢) من قول العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرج الترمذي (٣٢٥٢) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«لَا يُصِيبُ عَبْدًا نَكْبَةٌ فما فَوْقَهَا أو دُونَهَا إلا بِذَنْبٍ، وما يَعْفُو الله عنه أَكْثَرُ»**.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال:٥٣].

فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يُغَيِّرُ نِعَمَهُ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَى أَحَدٍ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يُغَيِّرُ مَا بِنَفْسِهِ، فَيُغَيِّرُ طَاعَةَ اللَّهِ بِمَعْصِيَتِهِ، وَشُكْرَهُ بِكُفْرِهِ، وَأَسْبَابَ رِضَاهُ بِأَسْبَابِ سُخْطِهِ، فَإِذَا غَيَّرَ غُيِّرَ عَلَيْهِ، جَزَاءً وِفَاقًا، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ. فَإِنْ غَيَّرَ الْمَعْصِيَةَ بِالطَّاعَةِ، غَيَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ بِالْعَافِيَةِ، وَالذُّلَّ بِالْعِزِّ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١].

وَفِي بَعْضِ الْآثَارِ الْإِلَهِيَّةِ، عَنِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَا يَكُونُ عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِي عَلَى مَا أُحِبُّ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ عَنْهُ إِلَى مَا أَكْرَهُ، إِلَّا انْتَقَلْتُ لَهُ مِمَّا يُحِبُّ إِلَى مَا يَكْرَهُ، وَلَا يَكُونُ عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِي عَلَى مَا أَكْرَهُ، فَيَنْتَقِلُ عَنْهُ إِلَى مَا أُحِبُّ، إِلَّا انْتَقَلْتُ لَهُ مِمَّا يَكْرَهُ إِلَى مَا يُحِبُّ»(١).

وَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ(٢):

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا ... فَإِنَّ الْمَعَاصِيَ تُزِيلُ النِّعَمْ
وَحُطْهَا بِطَاعَةِ رَبِّ الْعِبَادِ ... فَرَبُّ الْعِبَادِ سَرِيعُ النِّقَمْ
وَإِيَّاكَ وَالظُّلْمَ مَهْمَا اسْتَطَعْتَ ... فَظُلْمُ الْعِبَادِ شَدِيدُ الْوَخَمْ
وَسَافِرْ بِقَلْبِكَ بَيْنَ الْوَرَى ... لِتُبْصِرَ آثَارَ مَنْ قَدْ ظَلَمْ

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/١١٨) عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رفعه.

(٢) بعض هذه الأبيات يُنسب لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يُنظر: ديوانه (ص١٧٥، ١٧٦). وذكر بعضها الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص٢٤٥)، ولم يذكر قائلها.

فَتِلْــكَ مَــسَاكِنُهُمْ بَعْــدَهُمْ   شُــهُودٌ عَلَــيْهِمْ وَلَا تَــتَّهِمْ
وَمَــا كَــانَ شَيْءٌ عَلَــيْهِمْ أَضَرَّ   مِنَ الظُّلْـمِ وَهُـوَ الَّذِي قَدْ قَصَمْ
فَكَـمْ تَرَكُـوا مِـنْ جِنَـانٍ وَمِـنْ   قُـصُورٍ وَأُخْـرَى عَلَـيْهِمْ أُطُـمْ
صَـلُوْا بِـالْجَحِيمِ وَفَـاتَ النَّعِـيمُ   وَكَـانَ الَّـذِي نَـالَهُمْ كَـالْحُلُمْ

الشرح:

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ يعني: ما يزيل الخير عن الناس إلا بسبب ذنوبهم، تغييرهم، وكذلك قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الآية الثانية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، هذا يشمل حالتين:

الأول: أن يغيروا ما بأنفسهم من المعصية إلى الطاعة، فيغير الله ما بهم من البؤس والشقاء إلى الخير.

الثانية: أن يغيروا ما بأنفسهم من نعمةٍ وخيرٍ بالمعاصي، فيغير الله ما هم عليه، بإزالة النعمة وحلول النقمة.

فقوله: **(ثُمَّ يَنتَقِلُ عَنْهُ إِلَى مَا أَكْرَهُ، إِلَّا انْتَقَلْتُ لَهُ مِمَّا يُحِبُّ إِلَى مَا يَكْرَهُ)**، وقوله: **(فَيَنْتَقِلُ عَنْهُ إِلَى مَا أُحِبُّ، إِلَّا انْتَقَلْتُ لَهُ مِمَّا يَكْرَهُ إِلَى مَا يُحِبُّ)** هذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، يشمل المعنيين: تغيير من الخير إلى الشر، وتغيير من الشر إلى الخير.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: مَا يُلْقِيهِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنَ الرُّعْبِ وَالْخَوْفِ فِي قَلْبِ الْعَاصِي، فَلَا تَرَاهُ إِلَّا خَائِفًا مَرْعُوبًا. فَإِنَّ الطَّاعَةَ حِصْنُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ، مَنْ دَخَلَهُ كَانَ مِنَ الْآمِنِينَ مِنْ عُقُوبَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ خَرَجَ عَنْهُ أَحَاطَتْ بِهِ الْمَخَاوِفُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ انْقَلَبَتِ الْمَخَاوِفُ فِي حَقِّهِ أَمَانًا، وَمَنْ عَصَاهُ انْقَلَبَتْ مَآمِنُهُ مَخَاوِفَ، فَلَا تَجِدُ الْعَاصِيَ إِلَّا وَقَلْبُهُ كَأَنَّهُ بَيْنَ جَنَاحَيْ طَائِرٍ، إِنْ حَرَّكَتِ الرِّيحُ الْبَابَ قَالَ: جَاءَ الطَّلَبُ، وَإِنْ سَمِعَ وَقْعَ قَدَمٍ خَافَ أَنْ يَكُونَ نَذِيرًا بِالْعَطَبِ، يَحْسَبُ أَنَّ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِ، وَكُلَّ مَكْرُوهٍ قَاصِدٌ إِلَيْهِ، فَمَنْ خَافَ اللَّهَ آمَنَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْ لَمْ يَخَفِ اللَّهَ أَخَافَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

بِذَا قَضَى اللَّهُ بَيْنَ الْخَلْقِ مُذْ خُلِقُوا ... أَنَّ الْمَخَاوِفَ وَالْإِجْرَامَ فِي قَرَنِ

الشرح:

ومن عقوبات المعاصي أن صاحبها يكون ذليلًا خائفًا مُنكسرًا، خائفًا من كل شيء؛ يخاف الناس، ويخاف من الآفات والأمراض، ويخاف من العدو، خلافًا لصاحب الطاعة فإنه يكون قويًّا جريئًا، ويكون مرتفع النفس والرأس؛ لأن الله أعزَّه بطاعته، وأما الأول فإن الله أذله بمعصيته؛ فالمعصية ذل والطاعة عز، وهذا فرقٌ واضح بين أهل الطاعة وأهل المعصية.

وقوله: (**يَحْسَبُ أَنَّ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِ**)، كما قال تعالى في المنافقين: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، دائمًا عندهم خوف، كلما تحرك شيء خافوا أن يصيبهم؛ لهذا يقولون: من خاف الله خاف منه كل شيء، ومن عصى الله خاف من كل شيء.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تُوقِعُ الْوَحْشَةَ الْعَظِيمَةَ فِي الْقَلْبِ، فَيَجِدُ الْمُذْنِبُ نَفْسَهُ مُسْتَوْحِشًا، قَدْ وَقَعَتِ الْوَحْشَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، وَبَيْنَ الْخَلْقِ وَبَيْنَ نَفْسِهِ. وَكُلَّمَا كَثُرَتِ الذُّنُوبُ اشْتَدَّتِ الْوَحْشَةُ، وَأَمَرُّ الْعَيْشِ عَيْشُ الْمُسْتَوْحِشِينَ الْخَائِفِينَ، وَأَطْيَبُ الْعَيْشِ عَيْشُ الْمُسْتَأْنِسِينَ، فَلَوْ نَظَرَ الْعَاقِلُ وَوَازَنَ لَذَّةَ الْمَعْصِيَةِ وَمَا تُوقِعُهُ مِنَ الْخَوْفِ وَالْوَحْشَةِ، لَعَلِمَ سُوءَ حَالِهِ، وَعَظِيمَ غَبْنِهِ؛ إِذْ بَاعَ أُنْسَ الطَّاعَةِ وَأَمْنَهَا وَحَلَاوَتَهَا بِوَحْشَةِ الْمَعْصِيَةِ وَمَا تُوجِبُهُ مِنَ الْخَوْفِ.

فَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَوْحَشَتْكَ الذُّنُوبُ ... فَدَعْهَا إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنِسِ

وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّ الطَّاعَةَ تُوجِبُ الْقُرْبَ مِنَ الرَّبِّ، وَكُلَّمَا اشْتَدَّ الْقُرْبُ قَوِيَ الْأُنْسُ، وَالْمَعْصِيَةُ تُوجِبُ الْبُعْدَ مِنَ الرَّبِّ، وَكُلَّمَا زَادَ الْبُعْدُ قَوِيَتِ الْوَحْشَةُ. وَلِهَذَا يَجِدُ الْعَبْدُ وَحْشَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ لِلْبُعْدِ الَّذِي بَيْنَهُمَا، وَإِنْ كَانَ مُلَابِسًا لَهُ، قَرِيبًا مِنْهُ، وَيَجِدُ أُنْسًا قَوِيًّا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ يُحِبُّ، وَإِنْ كَانَ بَعِيدًا عَنْهُ.

وَالْوَحْشَةُ سَبَبُهَا الْحِجَابُ، وَكُلَّمَا غَلُظَ الْحِجَابُ زَادَتِ الْوَحْشَةُ، فَالْغَفْلَةُ تُوجِبُ الْوَحْشَةَ، وَأَشَدُّ مِنْهَا وَحْشَةُ الْمَعْصِيَةِ، وَأَشَدُّ مِنْهَا وَحْشَةُ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ، وَلَا تَجِدُ أَحَدًا مُلَابِسًا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ إِلَّا وَيَعْلُوهُ مِنَ الْوَحْشَةِ بِحَسْبِ مَا لَابَسَهُ مِنْهُ، فَتَعْلُو الْوَحْشَةُ وَجْهَهُ وَقَلْبَهُ، فَيَسْتَوْحِشُ وَيُسْتَوْحَشُ مِنْهُ.

الشرح:

ولذلك تجد العصاة منعزلين خجولين من الناس، لا يأنسون إلا مع أمثالهم، ولا يأنسون مع أهل الخير والطيبين، ولو جلسوا معهم تجدهم لا

ينبسطون.

وقوله: **(فَالْغَفْلَةُ تُوجِبُ الْوَحْشَةَ)**، كما في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، فالمؤمن الذي يذكر الله بالطاعة يكون عنده طمأنينة، ويكون عنده شجاعة، ويكون عنده إقدام، وكرم نفس؛ خلافًا للذي يغفل عن ذكر الله، فإنه يكون في ذلٍ وضعف وخوف وانقباض، وتجده لا يأنس بشيء، ولا يطمئن لشيء، ويفر من الناس ومن الطيبين.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تَصْرِفُ الْقَلْبَ عَنْ صِحَّتِهِ وَاسْتِقَامَتِهِ إِلَى مَرَضِهِ وَانْحِرَافِهِ، فَلَا يَزَالُ مَرِيضًا مَعْلُولًا لَا يَنْتَفِعُ بِالْأَغْذِيَةِ الَّتِي بِهَا حَيَاتُهُ وَصَلَاحُهُ، فَإِنَّ تَأْثِيرَ الذُّنُوبِ فِي الْقُلُوبِ كَتَأْثِيرِ الْأَمْرَاضِ فِي الْأَبْدَانِ، بَلِ الذُّنُوبُ أَمْرَاضُ الْقُلُوبِ وَدَاؤُهَا، وَلَا دَوَاءَ لَهَا إِلَّا تَرْكُهَا.

وَقَدْ أَجْمَعَ السَّائِرُونَ إِلَى اللهِ أَنَّ الْقُلُوبَ لَا تُعْطَى مُنَاهَا حَتَّى تَصِلَ إِلَى مَوْلَاهَا، وَلَا تَصِلُ إِلَى مَوْلَاهَا حَتَّى تَكُونَ صَحِيحَةً سَلِيمَةً، وَلَا تَكُونُ صَحِيحَةً سَلِيمَةً حَتَّى يَنْقَلِبَ دَاؤُهَا، فَيَصِيرَ نَفْسَ دَوَائِهَا، وَلَا يَصِحُّ لَهَا ذَلِكَ إِلَّا بِمُخَالَفَةِ هَوَاهَا، فَهَوَاهَا مَرَضُهَا، وَشِفَاؤُهَا مُخَالَفَتُهُ، فَإِنِ اسْتَحْكَمَ الْمَرَضُ قَتَلَ أَوْ كَادَ.

وَكَمَا أَنَّ مَنْ نَهَى نَفْسَهُ عَنِ الْهَوَى كَانَتِ الْجَنَّةُ مَأْوَاهُ، فَكَذَا يَكُونُ قَلْبُهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ فِي جَنَّةٍ عَاجِلَةٍ، لَا يُشْبِهُ نَعِيمُ أَهْلِهَا نَعِيمًا الْبَتَّةَ، بَلِ التَّفَاوُتُ الَّذِي بَيْنَ النَّعِيمَيْنِ كَالتَّفَاوُتِ الَّذِي بَيْنَ نَعِيمِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يُصَدِّقُ بِهِ إِلَّا مَنْ بَاشَرَ قَلْبُهُ هَذَا وَهَذَا.

الشرح:

ولذلك تجد العاصي ذليلًا منقبضًا ولو كان عنده ملذات الدنيا، والأموال الكثيرة، وتجد صاحب الطاعة منبسطًا مسرورًا ولو كان فقيرًا ليس عنده شيء من الدنيا، أغناه الله بالقرب منه، وذكره، والاستئناس به.

وقوله: **(فَكَذَا يَكُونُ قَلْبُهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ فِي جَنَّةٍ عَاجِلَةٍ)**، وهذا كقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن لله جنةً في الدنيا من لم يدخلها لم يدخل جنة

الآخرة»[١]. وجنة الدنيا هي ذكر الله ولذة الطاعة؛ فإذا دخل العبد في جنة الدنيا -وهي ذكر الله، ولذة الطاعة، والأُنس بالله- دخل جنة الآخرة، وإذا لم يدخل جنة الدنيا لم يدخل جنة الآخرة؛ فأهل الطاعة يجدون في لذة الطاعة ما يغنيهم عن الدنيا كلها، فيتلذذون بقيام الليل، ويتلذذون بالصيام، ويتلذذون بتلاوة القرآن، ويتلذذون بفعل الخيرات.

خلافًا لأهل المعاصي فإنهم في همٍّ وغمٍّ وانقباض، ولا يتلذذون بشيء ولو كان عندهم شهواتهم، وعندهم متطلباتهم؛ لكن الأمر في القلب هو الذي يكون متلذذًا أو يكون منقبضًا.

(١) ذكر ابن القيم في الوابل الصيب (ص٤٨) أنه سمعه من شيخه، ثم قال: «فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها».

وَلَا تَحْسَبُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] مَقْصُورٌ عَلَى نَعِيمِ الْآخِرَةِ وَجَحِيمِهَا فَقَطْ، بَلْ فِي دُورِهِمُ الثَّلَاثَةِ هُمْ كَذَلِكَ، أَعْنِي: دَارَ الدُّنْيَا، وَدَارَ الْبَرْزَخِ، وَدَارَ الْقَرَارِ، فَهَؤُلَاءِ فِي نَعِيمٍ، وَهَؤُلَاءِ فِي جَحِيمٍ. وَهَلِ النَّعِيمُ إِلَّا نَعِيمُ الْقَلْبِ؟ وَهَلِ الْعَذَابُ إِلَّا عَذَابُ الْقَلْبِ؟

وَأَيُّ عَذَابٍ أَشَدُّ مِنَ الْخَوْفِ، وَالْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَضِيقِ الصَّدْرِ، وَإِعْرَاضِهِ عَنِ اللَّهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ، وَتَعَلُّقِهِ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَانْقِطَاعِهِ عَنِ اللَّهِ، بِكُلِّ وَادٍ مِنْهُ شُعْبَةٌ؟ وَكُلُّ شَيْءٍ تَعَلَّقَ بِهِ وَأَحَبَّهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يَسُومُهُ سُوءَ الْعَذَابِ.

فَكُلُّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا غَيْرَ اللَّهِ عُذِّبَ بِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَهُوَ يُعَذَّبُ بِهِ قَبْلَ حُصُولِهِ حَتَّى يَحْصُلَ، فَإِذَا حَصَلَ عُذِّبَ بِهِ حَالَ حُصُولِهِ بِالْخَوْفِ مِنْ سَلْبِهِ وَفَوَاتِهِ، وَالتَّنْغِيصِ وَالتَّنْكِيدِ عَلَيْهِ، وَأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ فِي هَذِهِ الْمُعَارَضَاتِ، فَإِذَا سُلِبَهُ اشْتَدَّ عَلَيْهِ عَذَابُهُ، فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ فِي هَذِهِ الدَّارِ.

الشرح:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ يعني: نعيم في الدنيا والآخرة، أو جحيم في الدنيا والآخرة.

وقوله: (**بَلْ فِي دُورِهِمُ الثَّلَاثَةِ كَذَلِكَ**) التي هي: الدنيا، والقبر، والآخرة، فالأبرار في نعيم في الحياة الدنيا، وفي نعيم القبر، وفي نعيم الجنة في الآخرة، والفجار في جحيم في الدنيا، وجحيم في القبر، وجحيم في الآخرة.

وَأَمَّا فِي الْبَرْزَخِ: فَعَذَابٌ يُقَارِنُهُ أَلَمُ الْفِرَاقِ الَّذِي لَا يَرْجُو عَوْدَةً، وَأَلَمُ فَوَاتِ مَا فَاتَهُ مِنَ النَّعِيمِ الْعَظِيمِ بِاشْتِغَالِهِ بِضِدِّهِ، وَأَلَمُ الْحِجَابِ عَنِ اللَّهِ، وَأَلَمُ الْحَسْرَةِ الَّتِي تَقْطَعُ الْأَكْبَادَ، فَالْهَمُّ وَالْغَمُّ وَالْحَزَنُ تَعْمَلُ فِي نُفُوسِهِمْ نَظِيرَ مَا يَعْمَلُ الْهَوَامُّ وَالدِّيدَانُ فِي أَبْدَانِهِمْ، بَلْ عَمَلُهَا فِي النُّفُوسِ دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ، حَتَّى يَرُدَّهَا اللَّهُ إِلَى أَجْسَادِهَا، فَحِينَئِذٍ يَنْتَقِلُ الْعَذَابُ إِلَى نَوْعٍ هُوَ أَدْهَى وَأَمَرُّ.

فَأَيْنَ هَذَا مِنْ نَعِيمِ مَنْ يَرْقُصُ قَلْبُهُ طَرَبًا وَفَرَحًا وَأُنْسًا بِرَبِّهِ، وَاشْتِيَاقًا إِلَيْهِ، وَارْتِيَاحًا بِحُبِّهِ، وَطُمَأْنِينَةً بِذِكْرِهِ؟ حَتَّى يَقُولَ بَعْضُهُمْ فِي حَالِ نَزْعِهِ: «وَاطَرَبَاهُ»(١).

وَيَقُولُ الْآخَرُ: «إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ، إِنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ»(٢).

وَيَقُولُ الْآخَرُ: «مَسَاكِينُ أَهْلُ الدُّنْيَا، خَرَجُوا مِنْهَا وَمَا ذَاقُوا لَذِيذَ الْعَيْشِ فِيهَا، وَمَا ذَاقُوا أَطْيَبَ مَا فِيهَا»(٣).

وَيَقُولُ الْآخَرُ: «لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ لَجَالَدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ»(٤).

وَيَقُولُ الْآخَرُ: «إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةً مَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا لَمْ يَدْخُلْ جَنَّةَ الْآخِرَةِ»(٥).

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في المحتضرين (٢٩٤) عن بلال بن رباح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ذكر ابن الجوزي نحوه في صفة الصفوة (٢/ ٤٢٣) عن أبي سليمان المغربي، أنه قال: «إن كان أهل الجنة بهذا القلب الذي لي فهم والله في شيء طيب، وما كنت آنس بكلام الناس».

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٧٦) من قول عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٣٧٠) من قول إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٥) تقدم قريبًا أنه من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

فَيَا مَنْ بَاعَ حَظَّهُ الْغَالِي بِأَبْخَسِ الثَّمَنِ، وَغُبِنَ كُلَّ الْغَبْنِ فِي هَذَا الْعَقْدِ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ قَدْ غُبِنَ، إِذَا لَمْ يَكُنْ لَكَ خِبْرَةٌ بِقِيمَةِ السِّلْعَةِ فَسَلِ الْمُقَوِّمِينَ.

فَيَا عَجَبًا مِنْ بِضَاعَةٍ مَعَكَ، اللَّهُ مُشْتَرِيهَا، وَثَمَنُهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى، وَالسَّفِيرُ الَّذِي جَرَى عَلَى يَدِهِ عَقْدُ التَّبَايُعِ وَضَمِنَ الثَّمَنَ عَنِ الْمُشْتَرِي هُوَ الرَّسُولُ، وَقَدْ بِعْتَهَا بِغَايَةِ الْهَوَانِ!

إِذَا كَانَ هَذَا فِعْلُ عَبْدٍ بِنَفْسِهِ ... فَمَنْ ذَا لَهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ يُكْرِمُ

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[الحج:١٨].

الشرح:

قوله: (**فَالْهَمُّ وَالْغَمُّ وَالْحَزَنُ تَعْمَلُ فِي نُفُوسِهِمْ**)، ولهذا قال الله جَلَّ وَعَلَا في المؤمنين: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، أي: لا خوفٌ عليهم فيما فاتهم وتركوه، ولا خوفٌ عليهم في المستقبل، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا.

وقوله: (**فَحِينَئِذٍ يَنْتَقِلُ الْعَذَابُ إِلَى نَوْعٍ هُوَ أَدْهَى وَأَمَرُّ**)، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد:٣٤].

وقوله: (**وَمَا ذَاقُوا أَطْيَبَ مَا فِيهَا**)، أطيب ما في الدنيا: ذكر الله، ولذة العبادة، وليس أطيب ما فيها ملذات الأكل الشرب، هذه قد يكون الإنسان في حَزَن ولو هي عنده؛ لكن اللذة الحقيقية في الدنيا هي لذة العبادة والطاعة.

فقد يكون الإنسان له أُبهة، ومراكب فخمة، وقصور، لكن قلبه مُعذَّب،

فلا تنفعه هذه الأشياء، وقد يكون الإنسان في كهف أو في كشك من الأكشاك، وقلبه مُنَّعم مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: **(فَيَا عَجَبًا مِنْ بِضَاعَةٍ مَعَكَ اللَّهُ مُشْتَرِيهَا)**؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾، فالمشتري هو: الله، والبائع هو: المؤمن، والمبيع هو: نفسه وماله، والثمن هو: الجنة، والواسطة بين البائع والمشتري هو: الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وكيف يحصلون على هذا؟ ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾، والوثيقة -لأن العادة أن البيع يُوثَّق ويُكتب-: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ [التوبة: ١١١].

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تُعْمِي بَصِيرَةَ الْقَلْبِ، وَتَطْمِسُ نُورَهُ، وَتَسُدُّ طُرُقَ الْعِلْمِ، وَتَحْجُبُ مَوَادَّ الْهِدَايَةِ.

وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ لِلشَّافِعِيِّ لَمَّا اجْتَمَعَ بِهِ وَرَأَى تِلْكَ الْمَخَايِلَ: «إِنِّي أَرَى اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَلْقَى عَلَى قَلْبِكَ نُورًا، فَلَا تُطْفِئْهُ بِظُلْمَةِ الْمَعْصِيَةِ»(١).

وَلَا يَزَالُ هَذَا النُّورُ يَضْعُفُ وَيَضْمَحِلُّ، وَظَلَامُ الْمَعْصِيَةِ يَقْوَى، حَتَّى يَصِيرَ الْقَلْبُ فِي مِثْلِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ، فَكَمْ مِنْ مُهْلَكٍ يَسْقُطُ فِيهِ وَلَا يُبْصِرُ، كَأَعْمَى خَرَجَ بِاللَّيْلِ فِي طَرِيقٍ ذَاتِ مَهَالِكَ وَمَعَاطِبَ، فَيَا عِزَّةَ السَّلَامَةِ، وَيَا سُرْعَةَ الْعَطَبِ!

ثُمَّ تَقْوَى تِلْكَ الظُّلُمَاتُ، وَتَفِيضُ مِنَ الْقَلْبِ إِلَى الْجَوَارِحِ، فَيَغْشَى الْوَجْهَ مِنْهَا سَوَادٌ، بِحَسَبِ قُوَّتِهَا وَتَزَايُدِهَا، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْمَوْتِ ظَهَرَتْ فِي الْبَرْزَخِ، فَامْتَلَأَ الْقَبْرُ ظُلْمَةً، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مُمْتَلِئَةٌ عَلَى أَهْلِهَا ظُلْمَةً، وَإِنَّ اللَّهَ يُنَوِّرُهَا بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ»(٢).

فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْمَعَادِ، وَحُشِرَ الْعِبَادُ، عَلَتِ الظُّلْمَةُ الْوُجُوهَ عُلُوًّا ظَاهِرًا يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ، حَتَّى يَصِيرَ الْوَجْهُ أَسْوَدَ مِثْلَ الْحُمَمَةِ. فَيَالَهَا مِنْ عُقُوبَةٍ لَا تُوَازَنُ لَذَّاتِ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا! فَكَيْفَ بِقِسْطِ الْعَبْدِ الْمُنَغَّصِ الْمُنَكَّدِ الْمُتْعَبِ فِي زَمَنٍ إِنَّمَا هُوَ سَاعَةٌ مِنْ حُلْمٍ؟! فَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

---

(١) تقدم (ص٢٠٨).

(٢) أخرجه مسلم (٩٥٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشرح:

ومن عقوبات الذنوب والمعاصي: **(أَنَّهَا تُعْمِي بَصِيرَةَ الْقَلْبِ، وَتَطْمِسُ نُورَهُ)**، وهذا سبق **(وَتَسُدُّ طُرُقَ الْعِلْمِ، وَتَحْجُبُ مَوَادَّ الْهِدَايَةِ)** هذا هو الجديد، والمقصود بالعلم هو علم القلب، وليس علم اللسان؛ لأن علم اللسان يكون مع المنافقين، بينما علم القلب، هو العلم الصحيح الذي مع المؤمنين.

وقد جاء الشافعي إلى حلقة الإمام مالك رَحِمَهُمَاٱللَّهُ، فجلس فيها وهو صغير، فرأى منه الإمام مالك حرصه وحفظه لِمَا يقول، فإذا قال شيئًا أو حدَّث بحديث، أو فسَّر بتفسير، يحفظه مباشرة، فلما رأى هذه النجابة، وهذا الذكاء، وهذا الحفظ، وهذا الإقبال في هذا الطفل، قال له: **(إِنِّي أَرَى اللهَ تَعَالَى قَدْ أَلْقَى عَلَى قَلْبِكَ نُورًا، فَلَا تُطْفِئْهُ بِظُلْمَةِ الْمَعْصِيَةِ)**؛ لأن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]، فإذا أقبل العبد على الله واشتغل بالطاعة؛ زاده الله علمًا وبصيرةً.

وقوله: **(فَيَغْشَى الْوَجْهَ مِنْهَا سَوَادٌ، بِحَسَبِ قُوَّتِهَا وَتَزَايُدِهَا)**، وهذا شيء واضح، تجد العصاة وجوههم مسودة، عليها ظلمة، وتجد أهل الطاعة على وجوههم النور.

فإذا رأيت النور على وجه أحد فاعلم أنه صاحب طاعة، وإذا رأيت الظلمة في وجه أحد فاعلم أنه صاحب معصية، هذا شيء يظهر على الوجوه.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تُصَغِّرُ النَّفْسَ، وَتَقْمَعُهَا، وَتُدَسِّيهَا، وَتَحْقِرُهَا، حَتَّى تَكُونَ أَصْغَرَ كُلِّ شَيْءٍ وَأَحْقَرَهُ، كَمَا أَنَّ الطَّاعَةَ تُنَمِّيهَا وَتُزَكِّيهَا وَتُكَبِّرُهَا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩، ١٠]، وَالْمَعْنَى: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ كَبَّرَهَا وَأَعْلَاهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ وَأَظْهَرَهَا، وَقَدْ خَسِرَ مَنْ أَخْفَاهَا وَحَقَّرَهَا وَصَغَّرَهَا بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ.

وَأَصْلُ التَّدْسِيَةِ: الْإِخْفَاءُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل:٥٩]. فَالْعَاصِي يَدُسُّ نَفْسَهُ فِي الْمَعْصِيَةِ، وَيُخْفِي مَكَانَهَا، وَيَتَوَارَى مِنَ الْخَلْقِ مِنْ سُوءِ مَا يَأْتِي بِهِ، وَقَدِ انْقَمَعَ عِنْدَ نَفْسِهِ، وَانْقَمَعَ عِنْدَ اللَّهِ، وَانْقَمَعَ عِنْدَ الْخَلْقِ.

فَالطَّاعَةُ وَالْبِرُّ تُكَبِّرُ النَّفْسَ وَتُعِزُّهَا وَتُعْلِيهَا، حَتَّى تَصِيرَ أَشْرَفَ شَيْءٍ وَأَكْبَرَهُ، وَأَزْكَاهُ وَأَعْلَاهُ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهِيَ أَذَلُّ شَيْءٍ وَأَحْقَرُهُ وَأَصْغَرُهُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَبِهَذَا الذُّلِّ حَصَلَ لَهَا هَذَا الْعِزُّ وَالشَّرَفُ وَالنُّمُوُّ، فَمَا صَغَّرَ النُّفُوسَ مِثْلُ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَمَا كَبَّرَهَا وَشَرَّفَهَا وَرَفَعَهَا مِثْلُ طَاعَةِ اللَّهِ.

الشرح:

ومن عقوبات المعاصي: (**أَنَّهَا تُصَغِّرُ النَّفْسَ، وَتَقْمَعُهَا، وَتُدَسِّيهَا، وَتَحْقِرُهَا**)، والتدسية هي: هوان النفس، وتغطيتها كالذي يغطيها بالتراب، بدل أن يرفعها يخذلها.

فالمذنب يكون ذليلًا بسبب معصيته، وهذا شيء واضح أن أهل المعاصي

يكونون أذلاء بين الناس؛ يُذلهم الله بمعاصيهم، فيكون عندهم انكسار أمام الناس؛ لأنهم يعرفون أفعالهم.

أما أهل الطاعات فإن الله جَلَّوَعَلَا يرفعهم بها، ويُكرمهم بها، ويكون لهم بسببها قدر عند الله ومكانة عند الناس، وهذا شيء واضح أن هناك فرق بين أهل الطاعة وأهل المعصية، فتجد عند أهل الطاعة رِفعة، وعِزة، وكرامة، وطِيب نفس، وتجد أهل المعاصي على العكس من ذلك.

والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ [الجاثية: ٢١]، لا يكونون مثلهم في كل الوجوه، لا في الجزاء، ولا في القدر، ولا في المكانة، ولا في الدنيا، ولا في الآخرة.

فالطاعة تُنمي النفس وتزكيها، والمعصية تُصغر النفس وتقللها وتُحقرها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾، زكاها بأي شيء؟ زكاها بالطاعات، فكما أن المال يُزكى بالصدقة فإن النفس تُزكى بالطاعة، ففي هذه الآية أمر بتزكية النفس، أما قول تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، ففيه نهي أن يمدح المسلم نفسه، وأن يعجب بنفسه، فهذا منهي عنه، وأما تزكيتها بالطاعة فهذا مأمورٌ به.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّ الْعَاصِيَ دَائِمًا فِي أَسْرِ شَيْطَانِهِ، وَسِجْنِ شَهَوَاتِهِ، وَقُيُودِ هَوَاهُ، فَهُوَ أَسِيرٌ مَسْجُونٌ مُقَيَّدٌ، وَلَا أَسِيرَ أَسْوَأُ حَالًا مِنْ أَسِيرٍ أَسَرَهُ أَعْدَى عَدُوٍّ لَهُ، وَلَا سِجْنَ أَضْيَقُ مِنْ سِجْنِ الْهَوَى، وَلَا قَيْدَ أَصْعَبُ مِنْ قَيْدِ الشَّهْوَةِ، فَكَيْفَ يَسِيرُ إِلَى اللهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ قَلْبٌ مَأْسُورٌ مَسْجُونٌ مُقَيَّدٌ؟ وَكَيْفَ يَخْطُو خُطْوَةً وَاحِدَةً؟

وَإِذَا قُيِّدَ الْقَلْبُ طَرَقَتْهُ الْآفَاتُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ بِحَسَبِ قُيُودِهِ، وَمَثَلُ الْقَلْبِ مَثَلُ الطَّائِرِ، كُلَّمَا عَلَا بَعُدَ عَنِ الْآفَاتِ، وَكُلَّمَا نَزَلَ اسْتَوْحَشَتْهُ الْآفَاتُ.

وَفِي الْحَدِيثِ: «الشَّيْطَانُ ذِئْبُ الْإِنْسَانِ»(١).

وَكَمَا أَنَّ الشَّاةَ الَّتِي لَا حَافِظَ لَهَا وَهِيَ بَيْنَ الذِّئَابِ سَرِيعَةُ الْعَطَبِ، فَكَذَا الْعَبْدُ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ حَافِظٌ مِنَ اللهِ فَذِئْبُهُ مُفْتَرِسُهُ وَلَا بُدَّ، وَإِنَّمَا يَكُونُ عَلَيْهِ حَافِظٌ مِنَ اللهِ بِالتَّقْوَى، فَهِيَ وِقَايَةٌ وَجُنَّةٌ، حَصِينَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذِئْبِهِ، كَمَا هِيَ وِقَايَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عُقُوبَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَكُلَّمَا كَانَتِ الشَّاةُ أَقْرَبَ مِنَ الرَّاعِي كَانَتْ أَسْلَمَ مِنَ الذِّئْبِ، وَكُلَّمَا بَعُدَتْ عَنِ الرَّاعِي كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى الْهَلَاكِ، فَأَسْلَمُ مَا تَكُونُ الشَّاةُ إِذَا قَرُبَتْ مِنَ الرَّاعِي، وَإِنَّمَا يَأْخُذُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ مِنَ الْغَنَمِ، وَهِيَ أَبْعَدُ مِنَ الرَّاعِي.

وَأَصْلُ هَذَا كُلِّهِ: أَنَّ الْقَلْبَ كُلَّمَا كَانَ أَبْعَدَ مِنَ اللهِ كَانَتِ الْآفَاتُ إِلَيْهِ أَسْرَعَ، وَكُلَّمَا قَرُبَ مِنَ اللهِ بَعُدَتْ عَنْهُ الْآفَاتُ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٣)، والطبراني في الكبير (٣٤٤) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالْبُعْدُ مِنَ اللَّهِ مَرَاتِبُ بَعْضُهَا أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ، فَالْغَفْلَةُ تُبْعِدُ العَبْدَ عَنِ اللَّهِ، وَبُعْدُ الْمَعْصِيَةِ أَعْظَمُ مِنْ بُعْدِ الْغَفْلَةِ، وَبُعْدُ الْبِدْعَةِ أَعْظَمُ مِنْ بُعْدِ الْمَعْصِيَةِ، وَبُعْدُ النِّفَاقِ وَالشِّرْكِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

الشرح:

كذلك من آثار المعاصي وعقوباتها على النفوس: أنها تجعلها في أسر الشيطان، فالعاصي يكون أسيرًا للشيطان، ولا يخلص من معصية إلا ويقع في أخرى، فلا يستطيع النهوض ولا الإفلات من العدو.

أما الطاعة فإنها تفك الإنسان من أسر الشيطان، وتُبعده عنه، فيكون طليقًا في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، متجنبًا للمعاصي.

فالمعاصي في الحقيقة: سجن، وذلة، ومهانة، والطاعات معزة ورِفعة، وكرامة، فبدل أن تكون في أسر الشيطان ادخل في حفظ الله عَزَّوَجَلَّ وكنفه بطاعته، يتولاك الله جَلَّوَعَلَا كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة:٢٥٧].

وقوله: **(الشَّيْطَانُ ذِئْبُ الْإِنْسَانِ)** يفترسه إذا لم يتحفظ منه، كما أن الذئب المعروف يفترس الغنم إذا لم يكن معها راعٍ يحفظها ويطرده عنها، فكذلك النفس بين أعدائها كالشاة بين الذئاب، تحتاج إلى من يحفظها، فكلما كانت قريبة من الله سلمت من الشيطان، كما أن الشاة كلما كانت قريبة من الراعي سلمت من الذئب، وكلما كانت بعيدة من الراعي وقعت في الخطر.

وقوله: (**وَإِنَّمَا يَأْخُذُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ مِنَ الْغَنَمِ**) لأجل ذلك شرع الله صلاة الجماعة؛ لأن الاجتماع رحمة، والإنسان إذا صلى مع الجماعة ابتعد من الشيطان، أما إذا صلى وحده تسلط عليه الشيطان.

ولهذا حث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الجماعة وقال: «**مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ لَا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ إِلَّا قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ**»(١)، وقال: «**الشَّيْطَانُ ذِئْبُ الْإِنْسَانِ**». فأنت ما تسلم منه إلا إذا صرت مع جماعة المسلمين في المسجد، ففرقٌ بين الذي يصلي في المسجد والذي يصلي في بيته.

وقوله: (**وَبُعْدُ الْبِدْعَةِ أَعْظَمُ مِنْ بُعْدِ الْمَعْصِيَةِ**) ولذلك الشيطان يحرص على البدعة أكثر مما يحرص على المعصية، فالبدعة أشد من المعصية؛ لأن المبتدع قلَّ أن يتوب لأنه يرى أنه على حق، أما العاصي فإنه قد يخجل ويرى أنه مخالف، لذلك سرعان ما يتوب العاصي؛ لأنه يرى أنه مخالف، بخلاف المبتدع فيرى أنه مصيب، فلذلك صارت البدعة أحب إلى الشيطان من المعصية.

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٤٧)، والنسائي (٨٤٧)، وأحمد (٥/ ١٩٦)، والحاكم (١/ ٣٣٠) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: سُقُوطُ الْجَاهِ وَالْمَنْزِلَةِ وَالْكَرَامَةِ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ. فَإِنَّ أَكْرَمَ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاهُمْ، وَأَقْرَبُهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَطْوَعُهُمْ لَهُ، وَعَلَى قَدْرِ طَاعَةِ الْعَبْدِ تَكُونُ لَهُ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَهُ، فَإِذَا عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ سَقَطَ مِنْ عَيْنِهِ، فَأَسْقَطَهُ مِنْ قُلُوبِ عِبَادِهِ. وَإِذَا لَمْ يَبْقَ لَهُ جَاهٌ عِنْدَ الْخَلْقِ وَهَانَ عَلَيْهِمْ عَامَلُوهُ عَلَى حَسْبِ ذَلِكَ، فَعَاشَ بَيْنَهُمْ أَسْوَأَ عَيْشٍ، خَامِلَ الذِّكْرِ، سَاقِطَ الْقَدْرِ، زَرِيَّ الْحَالِ، لَا حُرْمَةَ لَهُ وَلَا فَرَحَ لَهُ وَلَا سُرُورَ، فَإِنَّ خُمُولَ الذِّكْرِ وَسُقُوطَ الْقَدْرِ وَالْجَاهِ مَعَهُ كُلُّ غَمٍّ وَهَمٍّ وَحَزَنٍ، وَلَا سُرُورَ مَعَهُ وَلَا فَرَحَ. وَأَيْنَ هَذَا الْأَلَمُ مِنْ لَذَّةِ الْمَعْصِيَةِ، لَوْلَا سُكْرُ الشَّهْوَةِ؟

وَمِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللهِ عَلَى الْعَبْدِ: أَنْ يَرْفَعَ لَهُ بَيْنَ الْعَالَمِينَ ذِكْرَهُ، وَيُعْلِي قَدْرَهُ، وَلِهَذَا خَصَّ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ مِنْ ذَلِكَ بِمَا لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ [ص:٤٥، ٤٦]. أَيْ: خَصَصْنَاهُمْ بِخِصِّيصَةٍ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْجَمِيلُ الَّذِي يُذْكَرُونَ بِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ. وَهُوَ لِسَانُ الصِّدْقِ الَّذِي سَأَلَهُ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ، حَيْثُ قَالَ: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء:٨٤]. وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْهُ وَعَنْ بَنِيهِ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم:٥٠]. وَقَالَ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤].

فَأَتْبَاعُ الرُّسُلِ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ مِيرَاثِهِمْ مِنْ طَاعَتِهِمْ وَمُتَابَعَتِهِمْ، وَكُلُّ مَنْ خَالَفَهُمْ فَإِنَّهُ بَعِيدٌ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ مُخَالَفَتِهِمْ وَمَعْصِيَتِهِمْ.

الشرح:

الله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات:١٣]؛ فالكرم عند الله ليس هو بالنسب وإنما هو بالتقوى، فالإنسان مكرم عند الله إذا كان تقيًّا ولو كان نسبه ليس مرتفعًا بين الناس، وأما إذا كان رفيع النسب لكنه لا يتقي الله عَزَّوَجَلَّ فهو وضيعٌ عند الله.

وانظر إلى بلال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان عبدًا حبشيًّا، وانظر إلى أبي جهل وهو عربي مخزومي من كبار قبائل العرب، وأشد من هذا انظر إلى أبي لهب عم الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ القرشي الهاشمي، ومع هذا فرقٌ بينه وبين بلال كبير جدًّا: أبو جهل وأبو لهب لم ينفعهما نسبهما، وبلال لم يضره نسبه؛ فالنظر عند الله ليس إلى الأنساب ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١]. فلا ينفع الإنسان شيء إلا عمله فقط، إن كان معه عمل صالح فهو قريب من الله، وإن لم يكن معه عمل صالح فهو بعيد من الله.

وقوله: **(وَهُوَ لِسَانُ الصِّدْقِ الَّذِي سَأَلَهُ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ)** لسان الصدق: هو الذكر الحسن، فالإنسان يُذكر عند الناس إما بخير، وإما بشر.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تَسْلُبُ صَاحِبَهَا أَسْمَاءَ الْمَدْحِ وَالشَّرَفِ، وَتَكْسُوهُ أَسْمَاءَ الذَّمِّ وَالصَّغَارِ. فَتَسْلُبُهُ اسْمَ الْمُؤْمِنِ، وَالْبَرِّ، وَالْمُحْسِنِ، وَالْمُتَّقِي، وَالْمُطِيعِ، وَالْمُنِيبِ، وَالْوَلِيِّ، وَالْوَرِعِ، وَالصَّالِحِ، وَالْعَابِدِ، وَالْخَائِفِ، وَالْأَوَّابِ، وَالطَّيِّبِ، وَالْمَرْضِيِّ وَنَحْوِهَا.

وَتَكْسُوهُ اسْمَ الْفَاجِرِ، وَالْعَاصِي، وَالْمُخَالِفِ، وَالْمُسِيءِ، وَالْمُفْسِدِ، وَالْخَبِيثِ، وَالْمَسْخُوطِ، وَالزَّانِي، وَالسَّارِقِ، وَالْقَاتِلِ، وَالْكَاذِبِ، وَالْخَائِنِ، وَاللُّوطِيِّ، وَقَاطِعِ الرَّحِمِ، وَالْغَادِرِ وَأَمْثَالِهَا.

فَهَذِهِ أَسْمَاءُ الْفُسُوقِ، وَ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات:١١] الَّذِي يُوجِبُ غَضَبَ الدَّيَّانِ، وَدُخُولَ النِّيرَانِ، وَعَيْشَ الْخِزْيِ وَالْهَوَانِ. وَتِلْكَ أَسْمَاءٌ تُوجِبُ رِضَاءَ الرَّحْمَنِ، وَدُخُولَ الْجِنَانِ، وَتُوجِبُ شَرَفَ الْمُسَمَّى بِهَا عَلَى سَائِرِ أَنْوَاعِ الْإِنْسَانِ.

فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي عُقُوبَةِ الْمَعْصِيَةِ إِلَّا اسْتِحْقَاقُ تِلْكَ الْأَسْمَاءِ وَمُوجِبَاتِهَا لَكَانَ فِي الْعَقْلِ نَاهٍ عَنْهَا، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ثَوَابِ الطَّاعَةِ إِلَّا الْفَوْزُ بِتِلْكَ الْأَسْمَاءِ وَمُوجِبَاتِهَا لَكَانَ فِي الْعَقْلِ آمِرٌ بِهَا، وَلَكِنْ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى اللَّهُ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ، وَلَا مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدَ، وَلَا مُبْعِدَ لِمَنْ قَرَّبَ، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج:١٨].

الشرح:

كذلك من آثار الذنوب أن أهل المعاصي ينالون ألقاب السوء؛ كالفاجر،

والفاسق، والعاصي، والخبيث، ونحو ذلك، بينما أهل التقوى ينالون هذه الأسماء الشريفة: التقي، والبرّ، والمطيع، والولي، ونحوها.

ولهذا يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة:١٨]، فكون الإنسان يُلقب بأنه فاسق، أو يُلقب بأنه مؤمن أيهما خير؟ لا شك أن المؤمن هو القريب والكريم عند الله وعند خلقه؛ بخلاف الفاسق؛ لأن الفاسق معناها: الخارج عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، والفسوق: هو الخروج عن طاعة الله.

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر:٢]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ»**(١).

فالأمر كله بيد الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولكن على العبد فعل الأسباب، والتوفيق بيد الله، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يظلم الناس شيئًا، فمن عمل صالحًا فإن الله لا يضيع عمله، فليفعل السبب والنتيجة من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تُؤَثِّرُ بِالْخَاصِّيَّةِ فِي نُقْصَانِ الْعَقْلِ. فَلَا تَجِدُ عَاقِلَيْنِ أَحَدُهُمَا مُطِيعٌ لِلَّهِ وَالْآخَرُ عَاصٍ، إِلَّا وَعَقْلُ الْمُطِيعِ مِنْهُمَا أَوْفَرُ وَأَكْمَلُ، وَفِكْرُهُ أَصَحُّ، وَرَأْيُهُ أَسَدُّ، وَالصَّوَابُ قَرِينُهُ.

وَلِهَذَا تَجِدُ خِطَابَ الْقُرْآنِ إِنَّمَا هُوَ مَعَ أُولِي الْعُقُولِ وَالْأَلْبَابِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:١٩٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:١٠٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:٢٦٩]، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

وَكَيْفَ يَكُونُ عَاقِلًا وَافِرَ الْعَقْلِ مَنْ يَعْصِي مَنْ هُوَ فِي قَبْضَتِهِ وَفِي دَارِهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَرَاهُ وَيُشَاهِدُهُ، فَيَعْصِيهِ، وَهُوَ بِعَيْنِهِ غَيْرُ مُتَوَارٍ عَنْهُ، وَيَسْتَعِينُ بِنِعَمِهِ عَلَى مَسَاخِطِهِ، وَيَسْتَدْعِي كُلَّ وَقْتٍ غَضَبَهُ عَلَيْهِ، وَلَعْنَتَهُ لَهُ، وَإِبْعَادَهُ مِنْ قُرْبِهِ، وَطَرْدَهُ عَنْ بَابِهِ، وَإِعْرَاضَهُ عَنْهُ، وَخِذْلَانَهُ لَهُ، وَالتَّخْلِيَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ وَعَدُوِّهِ، وَسُقُوطَهُ مِنْ عَيْنِهِ، وَحِرْمَانَهُ رُوحَ رِضَاهُ وَحُبَّهُ، وَقُرَّةَ الْعَيْنِ بِقُرْبِهِ، وَالْفَوْزَ بِجِوَارِهِ، وَالنَّظَرَ إِلَى وَجْهِهِ فِي زُمْرَةِ أَوْلِيَائِهِ، إِلَى أَضْعَافِ أَضْعَافِ ذَلِكَ مِنْ كَرَامَةِ أَهْلِ الطَّاعَةِ، وَأَضْعَافِ أَضْعَافِ ذَلِكَ مِنْ عُقُوبَةِ أَهْلِ الْمَعْصِيَةِ؟

فَأَيُّ عَقْلٍ لِمَنْ آثَرَ لَذَّةَ سَاعَةٍ أَوْ يَوْمٍ أَوْ دَهْرٍ، ثُمَّ تَنْقَضِي كَأَنَّهَا حُلْمٌ لَمْ يَكُنْ، عَلَى هَذَا النَّعِيمِ الْمُقِيمِ وَالْفَوْزِ الْعَظِيمِ؟ بَلْ هُوَ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَوْلَا الْعَقْلُ الَّذِي تَقُومُ بِهِ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ لَكَانَ بِمَنْزِلَةِ الْمَجَانِينِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ الْمَجَانِينُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُ وَأَسْلَمَ عَاقِبَةً، فَهَذَا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَأَمَّا تَأْثِيرُهَا فِي نُقْصَانِ الْعَقْلِ الْمَعِيشِي، فَلَوْلَا الِاشْتِرَاكُ فِي هَذَا النُّقْصَانِ،

لَظَهَرَ لِمُطِيعِنَا نُقْصَانُ عَقْلِ عَاصِينَا، وَلَكِنَّ الْجَائِحَةَ عَامَّةٌ، وَالْجُنُونَ فُنُونٌ!

وَيَا عَجَبًا! لَوْ صَحَّتِ الْعُقُولُ لَعَلِمَتْ أَنَّ طَرِيقَ تَحْصِيلِ اللَّذَّةِ وَالْفَرْحَةِ وَالسُّرُورِ وَطِيبِ الْعَيْشِ، إِنَّمَا هُوَ فِي رِضَى مَنِ النَّعِيمُ كُلُّهُ فِي رِضَاهُ، وَالْأَلَمُ وَالْعَذَابُ كُلُّهُ فِي سُخْطِهِ وَغَضَبِهِ.

فَفِي رِضَاهُ قُرَّةُ الْعُيُونِ، وَسُرُورُ النُّفُوسِ، وَحَيَاةُ الْقُلُوبِ، وَلَذَّةُ الْأَرْوَاحِ، وَطِيبُ الْحَيَاةِ، وَلَذَّةُ الْعَيْشِ، وَأَطْيَبُ النَّعِيمِ، مِمَّا لَوْ وُزِنَ مِنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ بِنَعِيمِ الدُّنْيَا لَمْ يَفِ بِهِ، بَلْ إِذَا حَصَلَ لِلْقَلْبِ مِنْ ذَلِكَ أَيْسَرُ نَصِيبٍ لَمْ يَرْضَ بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا عِوَضًا مِنْهُ، وَمَعَ هَذَا فَهُوَ يَتَنَعَّمُ بِنَصِيبِهِ مِنَ الدُّنْيَا أَعْظَمَ مِنْ تَنَعُّمِ الْمُتْرَفِينَ فِيهَا، وَلَا يَشُوبُ تَنَعُّمَهُ بِذَلِكَ الْحَظِّ الْيَسِيرِ مَا يَشُوبُ تَنَعُّمَ الْمُتْرَفِينَ مِنَ الْهُمُومِ وَالْغُمُومِ وَالْأَحْزَانِ الْمُعَارِضَاتِ، بَلْ قَدْ حَصَلَ لَهُ عَلَى النَّعِيمَيْنِ وَهُوَ يَنْتَظِرُ نَعِيمَيْنِ آخَرَيْنِ أَعْظَمَ مِنْهُمَا، وَمَا يَحْصُلُ لَهُ فِي خِلَالِ ذَلِكَ مِنَ الْآلَامِ، فَالْأَمْرُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء:١٠٤].

فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مَا أَنْقَصَ عَقْلَ مَنْ بَاعَ الدُّرَّ بِالْبَعْرِ، وَالْمِسْكَ بِالرَّجِيعِ، وَمُرَافَقَةَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، بِمُرَافَقَةِ الَّذِينَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا .

الشرح:

ومن عقوبات الذنوب أيضًا: (**أَنَّهَا تُؤَثِّرُ بِالْخَاصَّةِ فِي نُقْصَانِ الْعَقْلِ**)، ولذلك فإن الطاعة عقل ورفعة، والمعصية جهل.

وقوله: **(وَمَعَ هَذَا فَهُوَ يَتَنَعَّمُ بِنَصِيبِهِ مِنَ الدُّنْيَا أَعْظَمَ مِنْ تَنَعُّمِ الْمُتْرَفِينَ فِيهَا)** أهل الطاعة والذكر لله عَزَّوَجَلَّ هم الذين يتنعمون في الدنيا في طاعة الله، بخلاف أهل الشهوات فإنهم لا يتنعمون فيها، وإن نالوا شهواتهم لكن هم في ذلة، وفي خمول؛ فاللذة إنما تكون في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، ولذلك المتهجدون يتلذذون بقيام الليل ألذ من الطعام والشراب، ويتلذذون بتلاوة القرآن، ويتلذذون بالطاعات؛ فلذة الدنيا إنما هي بالطاعة.

وقوله: **(مَا أَنْقَصَ عَقْلَ مَنْ بَاعَ الدُّرَّ بِالْبَعْرِ، وَالْمِسْكَ بِالرَّجِيعِ)** وهذا كما في المثل: «الطيور على أشباهها تقع»، فتجد أهل الطاعة وأهل العبادة بعضهم مع بعض، يألف بعضهم بعضًا، بينما تجد أهل المعاصي بعضهم مع بعض منعزلين، يأنفون من مجالسة الطيبين، كما أن أهل الطاعة لا يأنسون بمجالسة أهل المعاصي والانبساط معهم، فكلٌ يجلس مع نظيره وكفئه ومثيله.

فَصْلٌ

وَمِنْ أَعْظَمِ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تُوجِبُ الْقَطِيعَةَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَإِذَا وَقَعَتِ الْقَطِيعَةُ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَسْبَابُ الْخَيْرِ وَاتَّصَلَتْ بِهِ أَسْبَابُ الشَّرِّ، فَأَيُّ فَلَاحٍ، وَأَيُّ رَجَاءٍ، وَأَيُّ عَيْشٍ لِمَنِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَسْبَابُ الْخَيْرِ، وَقَطَعَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَلِيِّهِ وَمَوْلَاهُ الَّذِي لَا غِنَى عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَلَا بَدَلَ لَهُ مِنْهُ، وَلَا عِوَضَ لَهُ عَنْهُ، وَاتَّصَلَتْ بِهِ أَسْبَابُ الشَّرِّ، وَوَصَلَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَعْدَى عَدُوٍّ لَهُ، فَتَوَلَّاهُ عَدُوُّهُ وَتَخَلَّى عَنْهُ وَلِيُّهُ؟ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا فِي هَذَا الِانْقِطَاعِ وَالِاتِّصَالِ مِنْ أَنْوَاعِ الْآلَامِ وَأَنْوَاعِ الْعَذَابِ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «رَأَيْتُ الْعَبْدَ مُلْقًى بَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَبَيْنَ الشَّيْطَانِ، فَإِنْ أَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ تَوَلَّاهُ الشَّيْطَانُ، وَإِنْ تَوَلَّاهُ اللَّهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ»[(١)].

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

يَقُولُ سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ: أَنَا أَكْرَمْتُ أَبَاكُمْ، وَرَفَعْتُ قَدْرَهُ، وَفَضَّلْتُهُ عَلَى غَيْرِهِ، فَأَمَرْتُ مَلَائِكَتِي كُلَّهُمْ أَنْ يَسْجُدُوا لَهُ، تَكْرِيمًا لَهُ وَتَشْرِيفًا، فَأَطَاعُونِي، وَأَبَى عَدُوِّي وَعَدُوُّهُ، فَعَصَى أَمْرِي، وَخَرَجَ عَنْ طَاعَتِي، فَكَيْفَ يَحْسُنُ بِكُمْ بَعْدَ هَذَا أَنْ تَتَّخِذُوهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي، فَتُطِيعُونَهُ فِي مَعْصِيَتِي، وَتُوَالُونَهُ فِي خِلَافِ مَرْضَاتِي، وَهُمْ أَعْدَى عَدُوٍّ لَكُمْ؟ فَوَالَيْتُمْ عَدُوِّي وَقَدْ أَمَرْتُكُمْ بِمُعَادَاتِهِ.

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (١٣٥٣)، وابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان (٢٥) عن مطرف بن الشخير.

وَمَنْ وَالَى أَعْدَاءَ الْمَلِكِ كَانَ هُوَ وَأَعْدَاؤُهُ عِنْدَهُ سَوَاءً، فَإِنَّ الْمَحَبَّةَ وَالطَّاعَةَ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِمُعَادَاةِ أَعْدَاءِ الْمُطَاعِ وَمُوَالَاةِ أَوْلِيَائِهِ، وَأَمَّا أَنْ تُوَالِيَ أَعْدَاءَ الْمَلِكِ ثُمَّ تَدَّعِي أَنَّكَ مُوَالٍ لَهُ، فَهَذَا مُحَالٌ. هَذَا لَوْ لَمْ يَكُنْ عَدُوُّ الْمَلِكِ عَدُوًّا لَكُمْ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ عَدُوَّكُمْ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَالْعَدَاوَةُ الَّتِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ أَعْظَمُ مِنَ الْعَدَاوَةِ الَّتِي بَيْنَ الشَّاةِ وَبَيْنَ الذِّئْبِ؟ فَكَيْفَ يَلِيقُ بِالْعَاقِلِ أَنْ يُوَالِيَ عَدُوَّهُ عَدُوَّ وَلِيِّهِ وَمَوْلَاهُ الَّذِي لَا مَوْلَى لَهُ سِوَاهُ؟

وَنَبَّهَ سُبْحَانَهُ عَلَى قُبْحِ هَذِهِ الْمُوَالَاةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾، كَمَا نَبَّهَ عَلَى قُبْحِهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾، فَتَبَيَّنَ أَنَّ عَدَاوَتَهُ لِرَبِّهِ وَعَدَاوَتَهُ لَنَا، كُلٌّ مِنْهُمَا سَبَبٌ يَدْعُو إِلَى مُعَادَاتِهِ، فَمَا هَذِهِ الْمُوَالَاةُ؟ وَمَا هَذَا الِاسْتِبْدَالُ؟ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا!.

وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ تَحْتَ هَذَا الْخِطَابِ نَوْعٌ مِنَ الْعِتَابِ لَطِيفٌ عَجِيبٌ، وَهُوَ أَنِّي عَادَيْتُ إِبْلِيسَ إِذْ لَمْ يَسْجُدْ لِأَبِيكُمْ آدَمَ مَعَ مَلَائِكَتِي، فَكَانَتْ مُعَادَاتُهُ لِأَجْلِكُمْ، ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ هَذِهِ الْمُعَادَاةِ أَنْ عَقَدْتُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ عَقْدَ الْمُصَالَحَةِ!.

الشرح:

الصلة بين الله وبين عباده بالطاعة، والقطيعة بالمعصية؛ فإذا عصيت الله فقد قاطعته، وإذا أطعته فقد واصلته، وكونك تواصل ربك لا شك أن هذا أحسن لك من أنك تقاطع الله عَزَّوَجَلَّ.

وجاء في الحديث: «**احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ**»(١)،

---

(١) أخرجه أحمد (١/٢٩٣)، والترمذي (٢٥١٦)، والحاكم (٣/٦٢٣)، والبيهقي في شعب =

يعني: احفظ طاعة الله يحفظك الله؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

وقوله: **(وَمَنْ وَالَى أَعْدَاءَ الْمَلِكِ كَانَ هُوَ وَأَعْدَاؤُهُ عِنْدَهُ سَوَاءً)**، ذِكر المِلك هنا من ضرب المثل ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]، فأنت إذا عاديت أعداء الملك فقد عاديت الملك، هذا شيء واضح، لا يمكن أنك توالي الملك وأنت تُوالي أعداءه، هذا مثال.

ولهذا قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة:١]، فيجب عليك أن تُعادي أعداء الله، وأن تحب أولياء الله.

وقوله: **(وَالْعَدَاوَةُ الَّتِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ)** أي: بين بني آدم والشيطان **(أَعْظَمُ مِنَ الْعَدَاوَةِ الَّتِي بَيْنَ الشَّاةِ وَبَيْنَ الذِّئْبِ)**؛ لأن الذئب يفترسها، والشيطان يفترس ابن آدم أيضًا.

=

الإيمان (١/ ٣٧٤) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تَمْحَقُ بَرَكَةَ الْعُمُرِ، وَبَرَكَةَ الرِّزْقِ، وَبَرَكَةَ الْعِلْمِ، وَبَرَكَةَ الْعَمَلِ، وَبَرَكَةَ الطَّاعَةِ، وَبِالْجُمْلَةِ تَمْحَقُ بَرَكَةَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا.

فَلَا تَجِدُ أَقَلَّ بَرَكَةٍ فِي عُمُرِهِ وَدِينِهِ وَدُنْيَاهُ مِمَّنْ عَصَى اللَّهَ، وَمَا مُحِقَتِ الْبَرَكَةُ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا بِمَعَاصِي الْخَلْقِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن:١٦، ١٧]، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ(١).

وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّهُ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِطَاعَتِهِ»(٢)، وَ«إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالْفَرَحَ فِي الرِّضَى وَالْيَقِينِ، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحَزَنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ»(٣). وَقَدْ تَقَدَّمَ الْأَثَرُ الَّذِي ذَكَرَهُ أَحْمَدُ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ: «أَنَا اللَّهُ، إِذَا رَضِيتُ بَارَكْتُ، وَلَيْسَ لِبَرَكَتِي مُنْتَهَى، وَإِذَا غَضِبْتُ لَعَنْتُ، وَلَعْنَتِي تُدْرِكُ السَّابِعَ مِنَ الْوَلَدِ»(٤).

---

(١) كما في حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، تقدم تخريجه (ص٢٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٧٩)، وابن أبي الدنيا في القناعة والتعفف (٥٧)، والحاكم (٢/ ٥)، والبيهقي في الشعب (١٣/ ١٩) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٥١٤)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٢١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه ابن أبي الدنيا في الرضا عن الله بقضائه (٩٤)، والبيهقي في الشعب (١/ ٣٨٤) موقوفًا على ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(٤) تقدم تخريجه (ص٥٩).

وَلَيْسَتْ سَعَةُ الرِّزْقِ وَالْعَمَلِ بِكَثْرَتِهِ، وَلَا طُولُ الْعُمُرِ بِكَثْرَةِ الشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ، وَلَكِنَّ سَعَةَ الرِّزْقِ وَطُولَ الْعُمُرِ بِالْبَرَكَةِ فِيهِ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ عُمْرَ الْعَبْدِ هُوَ مُدَّةُ حَيَاتِهِ، وَلَا حَيَاةَ لِمَنْ أَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ وَاشْتَغَلَ بِغَيْرِهِ، بَلْ حَيَاةُ الْبَهَائِمِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاتِهِ، فَإِنَّ حَيَاةَ الْإِنْسَانِ بِحَيَاةِ قَلْبِهِ وَرُوحِهِ، وَلَا حَيَاةَ لِقَلْبِهِ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ فَاطِرِهِ، وَمَحَبَّتِهِ، وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَالطُّمَأْنِينَةِ بِذِكْرِهِ، وَالْأُنْسِ بِقُرْبِهِ، وَمَنْ فَقَدَ هَذِهِ الْحَيَاةَ فَقَدَ الْخَيْرَ كُلَّهُ، وَلَوْ تَعَرَّضَ عَنْهَا بِمَا تَعَوَّضَ مِمَّا فِي الدُّنْيَا، بَلْ لَيْسَتِ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا عِوَضًا عَنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ، فَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَفُوتُ الْعَبْدَ عِوَضٌ، وَإِذَا فَاتَهُ اللَّهُ لَمْ يُعَوِّضْ عَنْهُ شَيْءٌ الْبَتَّةَ.

الشرح:

قد يكون الإنسان عمره طويل، وعنده مالٌ كثير؛ ولكنه لا بركة في هذا العمر، ولا بركة في هذا المال، فماذا ينفع؟ لا يستفيد منه بشيء، فالطاعة تُبارك العمر، والمعصية تنقص بركة العمر، فلا يستفيد منه صاحبه ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧]، فليس المدار على طول العمر أو كثرة المال، إنما المدار على البركة وكون العمر والمال مباركًا. فإن كان المال مباركًا ففيه الخير ولو كان قليلًا، كذلك العمر إذا كان مباركًا ففيه الخير ولو كان قصيرًا، فالمدار على حصول البركة، والبركة إنما تحصل بطاعة الله، إذا أردت أن يُبارك في عمرك ومالك فعليك بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ.

وَكَيْفَ يُعَوَّضُ الْفَقِيرُ بِالذَّاتِ عَنِ الْغَنِيِّ بِالذَّاتِ، وَالْعَاجِزُ بِالذَّاتِ عَنِ الْقَادِرِ بِالذَّاتِ، وَالْمَيِّتُ عَنِ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْمَخْلُوقُ عَنِ الْخَالِقِ، وَمَنْ لَا وُجُودَ لَهُ وَلَا شَيْءَ لَهُ مِنْ ذَاتِهِ الْبَتَّةَ عَمَّنْ غِنَاهُ وَحَيَاتُهُ وَكَمَالُهُ وَوُجُودُهُ وَرَحْمَتُهُ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ؟ وَكَيْفَ يُعَوَّضُ مَنْ لَا يَمْلِكُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ عَمَّنْ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؟

وَإِنَّمَا كَانَتْ مَعْصِيَةُ اللَّهِ سَبَبًا لِمَحْقِ بَرَكَةِ الرِّزْقِ وَالْأَجَلِ؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ مُوَكَّلٌ بِهَا وَبِأَصْحَابِهَا، فَسُلْطَانُهُ عَلَيْهِمْ، وَحَوَالَتُهُ عَلَى هَذَا الدِّيوَانِ وَأَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَتَّصِلُ بِهِ الشَّيْطَانُ وَيُقَارِنُهُ فَبَرَكَتُهُ مَمْحُوقَةٌ، وَلِهَذَا شُرِعَ ذِكْرُ اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَاللُّبْسِ وَالرُّكُوبِ وَالْجِمَاعِ لِمَا فِي مُقَارَنَةِ اسْمِ اللَّهِ مِنَ الْبَرَكَةِ، وَذِكْرُ اسْمِهِ يَطْرُدُ الشَّيْطَانَ، فَتَحْصُلُ الْبَرَكَةُ، وَلَا مُعَارِضَ لَهَا.

وَكُلُّ شَيْءٍ لَا يَكُونُ لِلَّهِ فَبَرَكَتُهُ مَنْزُوعَةٌ، فَإِنَّ الرَّبَّ هُوَ الَّذِي يُبَارِكُ وَحْدَهُ، وَالْبَرَكَةُ كُلُّهَا مِنْهُ، وَكُلُّ مَا نُسِبَ إِلَيْهِ مُبَارَكٌ، فَكَلَامُهُ مُبَارَكٌ، وَرَسُولُهُ مُبَارَكٌ، وَعَبْدُهُ الْمُؤْمِنُ النَّافِعُ لِخَلْقِهِ مُبَارَكٌ، وَبَيْتُهُ الْحَرَامُ مُبَارَكٌ، وَكِنَانَتُهُ مِنْ أَرْضِهِ -وَهِيَ الشَّامُ- أَرْضُ الْبَرَكَةِ، وَصَفَهَا بِالْبَرَكَةِ فِي سِتِّ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِهِ.

الشرح:

وصف الشام بأنها أرض البركة؛ لأنها بلاد الأنبياء وبلاد الخير، وفيها المسجد الأقصى الذي قال الله فيه: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء:١]، فالعلماء أكثرهم من الشام، وفي آخر الزمان ينحاز الإسلام إلى الشام، ويكون المحشر في الشام، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يختار ما يشاء: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨].

فَلَا مُبَارِكَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ، وَلَا مُبَارَكَ إِلَّا مَا نُسِبَ إِلَيْهِ، أَعْنِي إِلَى أُلُوهِيَّتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ، وَإِلَّا فَالْكَوْنُ كُلُّهُ مَنْسُوبٌ إِلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَخَلْقِهِ، وَكُلُّ مَا بَاعَدَهُ مِنْ نَفْسِهِ مِنَ الْأَعْيَانِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ فَلَا بَرَكَةَ فِيهِ، وَلَا خَيْرَ فِيهِ، وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْهُ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ فَفِيهِ مِنَ الْبَرَكَةِ عَلَى حَسَبِ قُرْبِهِ مِنْهُ.

وَضِدُّ الْبَرَكَةِ: اللَّعْنَةُ، فَأَرْضٌ لَعَنَهَا اللَّهُ، أَوْ شَخْصٌ لَعَنَهُ اللَّهُ، أَوْ عَمَلٌ لَعَنَهُ اللَّهُ؛ أَبْعَدُ شَيْءٍ مِنَ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ، وَكُلَّمَا اتَّصَلَ بِذَلِكَ وَارْتَبَطَ بِهِ وَكَانَ مِنْهُ بِسَبِيلٍ فَلَا بَرَكَةَ فِيهِ الْبَتَّةَ. وَقَدْ لَعَنَ عَدُوَّهُ إِبْلِيسَ وَجَعَلَهُ أَبْعَدَ خَلْقِهِ مِنْهُ، فَكُلُّ مَا كَانَ جِهَتَهُ فَلَهُ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ بِقَدْرِ قُرْبِهِ وَاتِّصَالِهِ بِهِ.

فَمِنْ هَاهُنَا كَانَ لِلْمَعَاصِي أَعْظَمُ تَأْثِيرٍ فِي مَحْقِ بَرَكَةِ الْعُمُرِ وَالرِّزْقِ وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَكُلُّ وَقْتٍ عَصَيْتَ اللَّهَ فِيهِ، أَوْ مَالٍ عُصِيَ اللَّهُ بِهِ، أَوْ بَدَنٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ فَهُوَ عَلَى صَاحِبِهِ لَيْسَ لَهُ، فَلَيْسَ لَهُ مِنْ عُمُرِهِ وَمَالِهِ وَقُوَّتِهِ وَجَاهِهِ وَعِلْمِهِ وَعَمَلِهِ إِلَّا مَا أَطَاعَ اللَّهَ بِهِ.

وَلِهَذَا مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعِيشُ فِي هَذِهِ الدَّارِ مِائَةَ سَنَةٍ أَوْ نَحْوَهَا، وَيَكُونُ عُمُرُهُ لَا يَبْلُغُ عِشْرِينَ سَنَةً أَوْ نَحْوَهَا، كَمَا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَمْلِكُ الْقَنَاطِيرَ الْمُقَنْطَرَةَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَيَكُونُ مَالُهُ فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَبْلُغُ أَلْفَ دِرْهَمٍ أَوْ نَحْوَهَا، وَهَكَذَا الْجَاهُ وَالْعِلْمُ.

وَفِي التِّرْمِذِيِّ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ، أَوْ عَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢) حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَفِي أَثَرٍ آخَرَ: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا مَا كَانَ لِلَّهِ»(١).

فَهَذَا هُوَ الَّذِي فِيهِ الْبَرَكَةُ خَاصَّةً، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٥٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣/ ١٠٩) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تَجْعَلُ صَاحِبَهَا مِنَ السَّفَلَةِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُهَيَّئًا لِأَنْ يَكُونَ مِنَ الْعِلْيَةِ. فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ قِسْمَيْنِ: عِلْيَةً، وَسَفَلَةً، وَجَعَلَ عِلِّيِّينَ مُسْتَقَرَّ الْعِلْيَةِ، وَأَسْفَلَ سَافِلِينَ مُسْتَقَرَّ السَّفَلَةِ، وَجَعَلَ أَهْلَ طَاعَتِهِ الْأَعْلَيْنَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَهْلَ مَعْصِيَتِهِ الْأَسْفَلِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا جَعَلَ أَهْلَ طَاعَتِهِ أَكْرَمَ خَلْقِهِ عَلَيْهِ، وَأَهْلَ مَعْصِيَتِهِ أَهْوَنَ خَلْقِهِ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ الْعِزَّةَ لِهَؤُلَاءِ، وَالذِّلَّةَ وَالصَّغَارَ لِهَؤُلَاءِ، كَمَا فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «جُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي»[١].

فَكُلَّمَا عَمِلَ الْعَبْدُ مَعْصِيَةً نَزَلَ إِلَى أَسْفَلَ، دَرَجَةً، وَلَا يَزَالُ فِي نُزُولٍ حَتَّى يَكُونَ مِنَ الْأَسْفَلِينَ، وَكُلَّمَا عَمِلَ طَاعَةً ارْتَفَعَ بِهَا دَرَجَةً، وَلَا يَزَالُ فِي ارْتِفَاعٍ حَتَّى يَكُونَ مِنَ الْأَعْلَيْنَ.

وَقَدْ يَجْتَمِعُ لِلْعَبْدِ فِي أَيَّامِ حَيَاتِهِ الصُّعُودُ مِنْ وَجْهٍ، وَالنُّزُولُ مِنْ وَجْهٍ، وَأَيُّهُمَا كَانَ أَغْلَبَ عَلَيْهِ كَانَ مِنْ أَهْلِهِ، فَلَيْسَ مَنْ صَعِدَ مِائَةَ دَرَجَةٍ وَنَزَلَ دَرَجَةً وَاحِدَةً، كَمَنْ كَانَ بِالْعَكْسِ.

الشرح:

ومن عقوبات المعاصي: أنها تُخرج صاحبها عن دائرة المتقين والمؤمنين، وتجعله في دائرة السفلة والمنحطين؛ لأن الطاعة عز ورِفعة، والمعصية ذِلة

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٢٤).

وانحطاط، فكيف يرضى الإنسان بأن يُخرج نفسه من أهل الطاعة وأهل الرفعة والمنزلة العالية في الدنيا والآخرة إلى منزلة السفلة والأذلاء والمهانين في الدنيا والآخرة؟ وهذا فيه آياتٌ كثيرة تدل على أن أهل الطاعة هم أولياء الله، وأهل المعصية هم أولياء الشيطان: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، فكيف يرضى الإنسان لنفسه هذه المنزلة؟!

وإذا أردت أن تعرف هذا فانظر إلى ما حصل لإبليس بسبب المعصية من الذِلة والمهانة والطرد والإبعاد، وانظر إلى ما حصل لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من الرفعة والكرامة لَمَّا تاب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا شيء واضح، الله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، ويقول تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، ويقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، وجعل الجنة -وهي أعلى عليين- لأهل الطاعة، وجعل النار -وهي أسفل سافلين- لأهل المعصية.

وَلَكِنْ يَعْرِضُ هَاهُنَا لِلنُّفُوسِ غَلَطٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ أَنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَنْزِلُ نُزُولًا بَعِيدًا أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَمِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَلَا يَفِي صُعُودُهُ أَلْفَ دَرَجَةٍ بِهَذَا النُّزُولِ الْوَاحِدِ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»[1]. فَأَيُّ صُعُودٍ يُوَازِنُ هَذِهِ النَّزْلَةَ؟

وَالنُّزُولُ أَمْرٌ لَازِمٌ لِلْإِنْسَانِ، وَلَكِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ نُزُولُهُ إِلَى غَفْلَةٍ، فَهَذَا مَتَى اسْتَيْقَظَ مِنْ غَفْلَتِهِ عَادَ إِلَى دَرَجَتِهِ، أَوْ إِلَى أَرْفَعَ مِنْهَا بِحَسَبِ يَقَظَتِهِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ نُزُولُهُ إِلَى مُبَاحٍ لَا يَنْوِي بِهِ الِاسْتِعَانَةَ عَلَى الطَّاعَةِ، فَهَذَا مَتَى رَجَعَ إِلَى الطَّاعَةِ فَقَدْ يَعُودُ إِلَى دَرَجَتِهِ، وَقَدْ لَا يَصِلُ إِلَيْهَا، وَقَدْ يَرْتَفِعُ عَنْهَا، فَإِنَّهُ قَدْ يَعُودُ أَعْلَى هِمَّةً مِمَّا كَانَ، وَقَدْ يَكُونُ أَضْعَفَ هِمَّةً، وَقَدْ تَعُودُ هِمَّتُهُ كَمَا كَانَتْ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ نُزُولُهُ إِلَى مَعْصِيَةٍ، إِمَّا صَغِيرَةٍ أَوْ كَبِيرَةٍ، فَهَذَا يَحْتَاجُ فِي عَوْدِهِ إِلَى دَرَجَتِهِ إِلَى تَوْبَةٍ نَصُوحٍ، وَإِنَابَةٍ صَادِقَةٍ.

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ هَلْ يَعُودُ بَعْدَ التَّوْبَةِ إِلَى دَرَجَتِهِ الَّتِي كَانَ فِيهَا، بِنَاءً عَلَى أَنَّ التَّوْبَةَ تَمْحُو أَثَرَ الذَّنْبِ، وَتَجْعَلُ وُجُودَهُ كَعَدَمِهِ، فَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ، أَوْ لَا يَعُودُ، بِنَاءً عَلَى أَنَّ التَّوْبَةَ تَأْثِيرُهَا فِي إِسْقَاطِ الْعُقُوبَةِ، وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الَّتِي فَاتَتْهُ فَإِنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَيْهَا؟.

قَالُوا: وَتَقْرِيرُ ذَلِكَ: أَنَّهُ كَانَ مُسْتَعِدًّا بِاشْتِغَالِهِ بِالطَّاعَةِ فِي الزَّمَنِ الَّذِي عَصَى فِيهِ لِصُعُودٍ آخَرَ وَارْتِقَاءٍ تَحْمِلُهُ أَعْمَالُهُ السَّالِفَةُ، بِمَنْزِلَةِ كَسْبِ الرَّجُلِ كُلَّ يَوْمٍ بِجُمْلَةِ مَالِهِ الَّذِي يَمْلِكُهُ، وَكُلَّمَا تَضَاعَفَ الْمَالُ تَضَاعَفَ الرِّبْحُ، فَقَدْ رَاحَ

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٢٦).

عَلَيْهِ فِي زَمَنِ الْمَعْصِيَةِ ارْتِفَاعٌ وَرِبْحٌ بِجُمْلَةِ أَعْمَالِهِ، فَإِذَا اسْتَأْنَفَ الْعَمَلَ اسْتَأْنَفَ صُعُودًا مِنْ نُزُولٍ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ صَاعِدًا مِنْ نُزُولٍ، وَبَيْنَهُمَا بَوْنٌ عَظِيمٌ.

قَالُوا: وَمَثَلُ ذَلِكَ رَجُلَانِ مُرْتَقِيَانِ فِي سُلَّمَيْنِ لَا نِهَايَةَ لَهُمَا، وَهُمَا سَوَاءٌ، فَنَزَلَ أَحَدُهُمَا إِلَى أَسْفَلَ، وَلَوْ دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ الصُّعُودَ، فَإِنَّ الَّذِي لَمْ يَنْزِلْ يَعْلُو عَلَيْهِ وَلَا بُدَّ.

وَحَكَمَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ حُكْمًا مَقْبُولًا فَقَالَ: «التَّحْقِيقُ أَنَّ مِنَ التَّائِبِينَ مَنْ يَعُودُ إِلَى أَرْفَعَ مِنْ دَرَجَتِهِ، وَمِنْهُمْ مِنْ يَعُودُ إِلَى مِثْلِ دَرَجَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَى دَرَجَتِهِ».

قُلْتُ: وَهَذَا بِحَسْبِ قُوَّةِ التَّوْبَةِ وَكَمَالِهَا، وَمَا أَحْدَثَتْهُ الْمَعْصِيَةُ لِلْعَبْدِ مِنَ الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ وَالْإِنَابَةِ، وَالْحَذَرِ وَالْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ، وَالْبُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، فَقَدْ تَقْوَى هَذِهِ الْأُمُورُ، حَتَّى يَعُودَ التَّائِبُ إِلَى أَرْفَعَ مِنْ دَرَجَتِهِ، وَيَصِيرَ بَعْدَ التَّوْبَةِ خَيْرًا مِنْهُ قَبْلَ الْخَطِيئَةِ، فَهَذَا قَدْ تَكُونُ الْخَطِيئَةُ فِي حَقِّهِ رَحْمَةً، فَإِنَّهَا نَفَتْ عَنْهُ دَاءَ الْعُجْبِ، وَخَلَّصَتْهُ مِنْ ثِقَتِهِ بِنَفْسِهِ وَإِدْلَالِهِ بِأَعْمَالِهِ، وَوَضَعَتْ خَدَّ ضَرَاعَتِهِ وَذُلَّهُ وَانْكِسَارَهُ عَلَى عَتَبَةِ بَابِ سَيِّدِهِ وَمَوْلَاهُ، وَعَرَّفَتْهُ قَدْرَهُ، وَأَشْهَدَتْهُ فَقْرَهُ وَضَرُورَتَهُ إِلَى حِفْظِ مَوْلَاهُ لَهُ، وَإِلَى عَفْوِهِ عَنْهُ وَمَغْفِرَتِهِ لَهُ، وَأَخْرَجَتْ مِنْ قَلْبِهِ صَوْلَةَ الطَّاعَةِ، وَكَسَرَتْ أَنْفَهُ مِنْ أَنْ يَشْمَخَ بِهَا أَوْ يَتَكَبَّرَ بِهَا، أَوْ يَرَى نَفْسَهُ بِهَا خَيْرًا مِنْ غَيْرِهِ، وَأَوْقَفَتْهُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ مَوْقِفَ الْخَطَّائِينَ الْمُذْنِبِينَ، نَاكِسَ الرَّأْسِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ، مُسْتَحِيًا خَائِفًا مِنْهُ وَجِلًا، مُحْتَقِرًا لِطَاعَتِهِ مُسْتَعْظِمًا لِمَعْصِيَتِهِ، عَرَفَ نَفْسَهُ بِالنَّقْصِ وَالذَّمِّ، وَرَبَّهُ مُنْفَرِدًا بِالْكَمَالِ وَالْحَمْدِ وَالْوَفَاءِ، كَمَا قِيلَ:

اسْــتَأْثَرَ اللَّهُ بِالْوَفَــاءِ وَبِالْـــ ـــحَمْدِ وَوَلَّى الْمَلَامَــةَ الـرَّجُلَا

فَأَيُّ نِعْمَةٍ وَصَلَتْ مِنَ اللهِ إِلَيْهِ اسْتَكْثَرَهَا عَلَى نَفْسِهِ وَرَأَى نَفْسَهُ دُونَهَا وَلَمْ يَرَهَا أَهْلًا لَهَا؟ وَأَيُّ نِقْمَةٍ أَوْ بَلِيَّةٍ وَصَلَتْ إِلَيْهِ رَأَى نَفْسَهُ أَهْلًا لِمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا، وَرَأَى مَوْلَاهُ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ، إِذْ لَمْ يُعَاقِبْهُ عَلَى قَدْرِ جُرْمِهِ وَلَا شَطْرِهِ، وَلَا أَدْنَى جُزْءٍ مِنْهُ؟! فَإِنَّ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْعُقُوبَةِ لَا تَحْمِلُهُ الْجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ، فَضْلًا عَنْ هَذَا الْعَبْدِ الضَّعِيفِ الْعَاجِزِ.

فَإِنَّ الذَّنْبَ وَإِنْ صَغُرَ -فَإِنَّ مُقَابَلَةَ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا شَيْءَ أَعْظَمُ مِنْهُ، الْكَبِيرِ الَّذِي لَا شَيْءَ أَكْبَرُ مِنْهُ، الْجَلِيلِ الَّذِي لَا أَجَلَّ مِنْهُ وَلَا أَجْمَلَ، الْمُنْعِمِ بِجَمِيعِ أَصْنَافِ النِّعَمِ دَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا- مِنْ أَقْبَحِ الْأُمُورِ وَأَفْظَعِهَا وَأَشْنَعِهَا، فَإِنَّ مُقَابَلَةَ الْعُظَمَاءِ وَالْأَجِلَّاءِ وَسَادَاتِ النَّاسِ بِمِثْلِ ذَلِكَ يَسْتَقْبِحُهُ كُلُّ أَحَدٍ مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ. وَأَرْذَلُ النَّاسِ وَأَسْقَطُهُمْ مُرُوءَةً مَنْ قَابَلَهُمْ بِالرَّذَائِلِ، فَكَيْفَ بِعَظِيمِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَلِكِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَإِلَهِ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؟

وَلَوْلَا أَنَّ رَحْمَتَهُ غَلَبَتْ غَضَبَهُ، وَمَغْفِرَتَهُ سَبَقَتْ عُقُوبَتَهُ، وَإِلَّا لَتَدَكْدَكَتِ الْأَرْضُ بِمَنْ قَابَلَهُ بِمَا لَا تَلِيقُ مُقَابَلَتُهُ بِهِ. وَلَوْلَا حِلْمُهُ وَمَغْفِرَتُهُ لَزُلْزِلَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ مِنْ مَعَاصِي الْعِبَادِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

فَتَأَمَّلْ خَتْمَ هَذِهِ الْآيَةِ بِاسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَائِهِ -وَهُمَا: «الْحَلِيمُ»، وَ«الْغَفُورُ»- كَيْفَ تَجِدُ تَحْتَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَوْلَا حِلْمُهُ عَنِ الْجُنَاةِ وَمَغْفِرَتُهُ لِلْعُصَاةِ لَمَا اسْتَقَرَّتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟

وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ كُفْرِ بَعْضِ عِبَادِهِ أَنَّهُ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ

مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠].

وَقَدْ أَخْرَجَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْأَبَوَيْنِ مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ ارْتَكَبَاهُ وَخَالَفَا فِيهِ نَهْيَهُ، وَلَعَنَ إِبْلِيسَ وَطَرَدَهُ وَأَخْرَجَهُ مِنْ مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ ارْتَكَبَهُ وَخَالَفَ فِيهِ أَمْرَهُ، وَنَحْنُ مَعَاشِرُ الْحَمْقَى كَمَا قِيلَ:

نَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَنَرْتَجِي ... دَرَكَ الْجِنَانِ لِذِي النَّعِيمِ الْخَالِدِ
وَلَقَدْ عَلِمْنَا أَخْرَجَ الْأَبَوَيْنِ مِنْ ... مَلَكُوتِهِ الْأَعْلَى بِذَنْبٍ وَاحِدِ

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَكُونُ بَعْدَ التَّوْبَةِ خَيْرًا مِمَّا كَانَ قَبْلَ الْخَطِيئَةِ وَأَرْفَعَ دَرَجَةً، وَقَدْ تُضْعِفُ الْخَطِيئَةُ هِمَّتَهُ وَتُوهِنُ عَزْمَهُ، وَتُمْرِضُ قَلْبَهُ، فَلَا يَقْوَى دَوَاءُ التَّوْبَةِ عَلَى إِعَادَتِهِ إِلَى الصِّحَّةِ الْأُولَى، فَلَا يَعُودُ إِلَى دَرَجَتِهِ، وَقَدْ يَزُولُ الْمَرَضُ بِحَيْثُ تَعُودُ الصِّحَّةُ كَمَا كَانَتْ وَيَعُودُ إِلَى مِثْلِ عَمَلِهِ، فَيَعُودُ إِلَى دَرَجَتِهِ.

هَذَا كُلُّهُ إِذَا كَانَ نُزُولُهُ إِلَى مَعْصِيَةٍ، فَإِنْ كَانَ نُزُولُهُ إِلَى أَمْرٍ يَقْدَحُ فِي أَصْلِ إِيمَانِهِ، مِثْلِ الشُّكُوكِ وَالرِّيَبِ وَالنِّفَاقِ، فَذَاكَ نُزُولٌ لَا يُرْجَى لِصَاحِبِهِ صُعُودٌ إِلَّا بِتَجْدِيدِ إِسْلَامِهِ مِنْ رَأْسٍ.

الشرح:

النفس تحتاج إلى من يأخذ بذمامها؛ لأنها تريد الشهوات، وتميل إلى الكسل، فالطاعة ليست بالأمر الهين، وإنما تحتاج إلى صبر، وإلى مداومة، ولذلك قلَّ أهل التقوى، وكثُر أهل المعاصي؛ لأن المعاصي تميل إليها النفوس، وأما الطاعة فالنفوس لا تريدها؛ لما فيها من مشقة ومخالفة للهوى، وأيضًا هي صعود، والصعود صعب إلا على أهل الصبر، أما المعاصي فهي نزول

وانحدار، وهذا سهل على النفوس.

وقد يجتمع للإنسان طاعة ومعصية، فيكون فيه ارتفاع من ناحية وفيه هبوط من ناحيةٍ أخرى، يعني: الناس على ثلاثة أقسام:

الأول: أهل صعود وعلو دائمًا، وهم السابقون المقربون.

الثاني: أهل سفولٍ ونزولٍ دائم، وهم الكفار والمنافقون: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء:١٤٥].

الثالث: من يجتمع فيه هذا وهذا، وهو المؤمن الذي فيه بعض المعاصي، فهذا فيه ارتفاع من ناحية الطاعات، وفيه هبوطٌ وانخفاض من ناحية المعصية.

مسألة في آخر هذا البحث وهي: هل من حصل منه ذنبٌ ثم تاب منه يعود إلى منزلته قبل أن يفعل المعصية؟

فيه خلاف، ولكن الصواب -والله أعلم- أن هذا بحسب التوبة، إذا كانت توبته قوية، وشعوره بالذنب كبير، وندمه على ما حصل كبير، فهذا يرجع إلى منزلته أو أعلى منها، و«**التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ، كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ**»(١)، والتوبة تجبُ ما قبلها.

ولذلك الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ منهم من كان قبل إسلامه كافرًا عابدًا للأصنام، ثم تاب وصار أفضل الناس بعد الأنبياء؛ لصدق توبته، وقوة إيمانه(٢).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠)، والطبراني في الكبير (١٠٢٨١)، والبيهقي في الكبرى (١٠/٢٥٩) من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) وفي الحديث عن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: لَـمَّا أَلْقَى اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي قَلْبِي الْإِسْلَامَ، =

ومن التائبين من لا تعود لـه درجاته؛ لأن توبته ضعيفة، ولم يأت بأعمالٍ قوية تقاوم أثر المعصية، غايته أنه ترك الذنب ورجع عنه، لكن لم يأت بأشياء تُعوض النقص الذي حصل، فهذا لا شك أنه لا يرجع إلى درجته التي كانت قبل فعل المعصية؛ لأنه لم يأت بأسبابٍ ترَّجعه إليها.

ومن الناس من يسلم من المعصية نهائيًّا، لكنهم قليل، لكن إذا وُجد هذا فلا شك أنه أفضل وأكمل.

=
أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لِيُبَايِعَنِي، فَبَسَطَ يَدَهُ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: لَا أُبَايِعُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَتَّى تَغْفِرَ لِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِي، قَالَ: فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«يَا عَمْرُو، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْهِجْرَةَ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ، يَا عَمْرُو، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الذُّنُوبِ»**.
أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٤)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٢٣).

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تُجَرِّئُ عَلَى الْعَبْدِ مَا لَمْ يَكُنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ مِنْ أَصْنَافِ الْمَخْلُوقَاتِ. فَتَجْتَرِئُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينَ بِالْأَذَى وَالْإِغْوَاءِ وَالْوَسْوَسَةِ وَالتَّخْوِيفِ وَالتَّحْزِينِ، وَإِنْسَائِهِ مَا بِهِ مَصْلَحَتُهُ فِي ذِكْرِهِ، وَمَضَرَّتُهُ فِي نِسْيَانِهِ، فَتَجْتَرِئُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ حَتَّى تَؤُزَّهُ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ أَزًّا.

وَيَجْتَرِئُ عَلَيْهِ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ بِمَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَذَى فِي غَيْبَتِهِ وَحُضُورِهِ، وَيَجْتَرِئُ عَلَيْهِ أَهْلُهُ وَخَدَمُهُ وَأَوْلَادُهُ وَجِيرَانُهُ، حَتَّى الْحَيَوَانُ الْبَهِيمُ! قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «إِنِّي لَأَعْصِي اللَّهَ، فَأَعْرِفُ ذَلِكَ فِي خُلُقِ امْرَأَتِي وَدَابَّتِي»[(١)].

وَكَذَلِكَ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ أَوْلِيَاءُ الْأَمْرِ بِالْعُقُوبَةِ الَّتِي إِنْ عَدَلُوا فِيهَا أَقَامُوا عَلَيْهِ حُدُودَ اللَّهِ، وَتَجْتَرِئُ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فَتَتَأَسَّدُ عَلَيْهِ وَتَصْعُبُ عَلَيْهِ، فَلَوْ أَرَادَهَا لِخَيْرٍ لَمْ تُطَاوِعْهُ وَلَمْ تَنْقَدْ لَهُ، وَتَسُوقُهُ إِلَى مَا فِيهِ هَلَاكُهُ، شَاءَ أَمْ أَبَى.

وَذَلِكَ لِأَنَّ الطَّاعَةَ حِصْنُ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الَّذِي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ مِنَ الْآمِنِينَ، فَإِذَا فَارَقَ الْحِصْنَ اجْتَرَأَ عَلَيْهِ قُطَّاعُ الطَّرِيقِ وَغَيْرُهُمْ، وَعَلَى حَسَبِ اجْتِرَائِهِ عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ يَكُونُ اجْتِرَاءُ هَذِهِ الْآفَاتِ وَالنُّفُوسِ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ لَهُ شَيْءٌ يَرُدُّ عَنْهُ. فَإِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ وَطَاعَتَهُ وَالصَّدَقَةَ وَإِرْشَادَ الْجَاهِلِ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ وِقَايَةٌ تَرُدُّ عَنِ الْعَبْدِ، بِمَنْزِلَةِ الْقُوَّةِ الَّتِي تَرُدُّ الْمَرَضَ وَتُقَاوِمُهُ، فَإِذَا سَقَطَتِ الْقُوَّةُ غَلَبَ وَارِدُ الْمَرَضِ فَكَانَ الْهَلَاكُ.

فَلَابُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْ شَيْءٍ يَرُدُّ عَنْهُ، فَإِنَّ مُوجِبَ السَّيِّئَاتِ وَالْحَسَنَاتِ تَتَدَافَعُ

---

(١) من كلام الفضيل بن عياض، تقدم تخريجه (ص ٢١١).

وَيَكُونُ الْحُكْمُ لِلْغَالِبِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَكُلَّمَا قَوِيَ جَانِبُ الْحَسَنَاتِ كَانَ الرَّدُّ أَقْوَى، فَإِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا، وَالْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، فَبِحَسَبِ قُوَّةِ الْإِيمَانِ يَكُونُ الدَّفْعُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

الشرح:

ومن عقوبات المعصية وآثارها على العاصي: أنها تُجرئُ عليه السفلة، وتُجرئ عليه الأعداء؛ لأنه لما كان من أهل الطاعة كان في رفعة ومنزلة وحصنٍ حصين، والمخلوقات تُجله وتعظمه، حتى الكفار والعصاة يعظمون صاحب الطاعة ويُجلونه، وهذا شيء في قلوبهم رغمًا عنهم، أما إذا وقع في المعصية فإن هذا يُسهل على الأعداء وعلى السفلة التعدي عليه والنيل منه، حتى الدواب والبهائم.

وقوله: **(فَتَجْتَرِئُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينَ بِالْأَذَى وَالْإِغْوَاءِ)**، يعني: يفتح على نفسه بابًا للشيطان، فإذا عصى الله صار الشيطان يوسوس له ويزين له الإكثار من المعاصي والشهوات، أما قبل أن يحصل منه ذنب فإن الباب كان موصدًا في وجه الشيطان.

وقوله: **(حَتَّى تَؤُزَّهُ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ أَزًّا)**، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم:٨٣]، تدفعهم إلى المعاصي والكفر والشرك؛ لأنهم ليس عندهم منعة.

وقوله: **(وَيَجْتَرِئُ عَلَيْهِ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ)**، فلذلك لا تجد شياطين الإنس يأتون إلى أهل الطاعة المستقيمين بل ينفرون منهم، فتجد السفلة والعصاة

والفسقة يأتون إلى العصاة، ولا يأتون إلى أهل الطاعات.

وقوله: **(وَيَجْتَرِئُ عَلَيْهِ أَهْلُهُ وَخَدَمُهُ وَأَوْلَادُهُ وَجِيرَانُهُ، حَتَّى الْحَيَوَانُ الْبَهِيمُ)**، تستعصي عليه امرأته، وتستعصي عليه الدابة التي يركبها.

وقوله: **(فَإِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)**، يدفع عنهم العدو، ويدفع عنهم أيضًا المعاصي والمخالفات وكل ما يضرهم، ويدافع عنهم بإيمانهم، والإيمان قولٌ وعمل واعتقاد هذه الأمور.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تَخُونُ الْعَبْدَ أَحْوَجَ مَا يَكُونُ إِلَى نَفْسِهِ. فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا يَنْفَعُهُ وَمَا يَضُرُّهُ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، وَأَعْلَمُ النَّاسِ أَعْرَفُهُمْ بِذَلِكَ عَلَى التَّفْصِيلِ، وَأَقْوَاهُمْ وَأَكْيَسُهُمْ مَنْ قَوِيَ عَلَى نَفْسِهِ وَإِرَادَتِهِ، فَاسْتَعْمَلَهَا فِيمَا يَنْفَعُهُ، وَكَفَّهَا عَمَّا يَضُرُّهُ.

وَفِي ذَلِكَ تَتَفَاوَتُ مَعَارِفُ النَّاسِ وَهِمَمُهُمْ وَمَنَازِلُهُمْ، فَأَعْرَفُهُمْ مَنْ كَانَ عَارِفًا بِأَسْبَابِ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ، وَأَرْشَدُهُمْ مَنْ آثَرَ هَذِهِ عَلَى هَذِهِ، كَمَا أَنَّ أَسْفَهَهُمْ مَنْ عَكَسَ الْأَمْرَ.

وَالْمَعَاصِي تَخُونُ الْعَبْدَ أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَى نَفْسِهِ فِي تَحْصِيلِ هَذَا الْعِلْمِ، وَإِيثَارِ الْحَظِّ الْأَشْرَفِ الْعَالِي الدَّائِمِ عَلَى الْحَظِّ الْخَسِيسِ الْأَدْنَى الْمُنْقَطِعِ، فَتَحْجُبُهُ الذُّنُوبُ عَنْ كَمَالِ هَذَا الْعِلْمِ، وَعَنْ الِاشْتِغَالِ بِمَا هُوَ أَوْلَى بِهِ وَأَنْفَعُ لَهُ فِي الدَّارَيْنِ.

فَإِذَا وَقَعَ مَكْرُوهٌ وَاحْتَاجَ إِلَى التَّخَلُّصِ مِنْهُ، خَانَهُ قَلْبُهُ وَنَفْسُهُ وَجَوَارِحُهُ، وَكَانَ بِمَنْزِلَةِ رَجُلٍ مَعَهُ سَيْفٌ قَدْ غَشِيَهُ الصَّدَأُ وَلَزِمَ قِرَابَهُ، بِحَيْثُ لَا يَنْجَذِبُ مَعَ صَاحِبِهِ إِذَا جَذَبَهُ، فَعَرَضَ لَهُ عَدُوٌّ يُرِيدُ قَتْلَهُ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى قَائِمِ سَيْفِهِ وَاجْتَهَدَ لِيُخْرِجَهُ، فَلَمْ يَخْرُجْ مَعَهُ، فَدَهَمَهُ الْعَدُوُّ وَظَفِرَ بِهِ.

كَذَلِكَ الْقَلْبُ يَصْدَأُ بِالذُّنُوبِ، وَيَصِيرُ مُثْخَنًا بِالْمَرَضِ، فَإِذَا احْتَاجَ إِلَى مُحَارَبَةِ الْعَدُوِّ لَمْ يَجِدْ مَعَهُ مِنْهُ شَيْئًا، وَالْعَبْدُ إِنَّمَا يُحَارِبُ وَيُصَاوِلُ وَيُقْدِمُ بِقَلْبِهِ، وَالْجَوَارِحُ تَبَعٌ لِلْقَلْبِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ مَلِكِهَا قُوَّةٌ يَدْفَعُ بِهَا، فَمَا الظَّنُّ بِهَا؟!

وَكَذَلِكَ النَّفْسُ فَإِنَّهَا تَخْبُثُ بِالشَّهَوَاتِ وَالْمَعَاصِي وَتَضْعُفُ، أَعْنِي النَّفْسَ الْمُطْمَئِنَّةَ، وَإِنْ كَانَتِ الْأَمَّارَةُ تَقْوَى وَتَتَأَسَّدُ، وَكُلَّمَا قَوِيَتْ هَذِهِ ضَعُفَتْ تِلْكَ،

فَيَبْقَى الْحُكْمُ وَالتَّصَرُّفُ لِلأَمَّارَةِ. وَرُبَّمَا مَاتَتْ نَفْسُهُ الْمُطْمَئِنَّةُ مَوْتًا لَا يُرْتَجَى مَعَهُ حَيَاةٌ يَنْتَفِعُ بِهَا، بَلْ حَيَاتُهُ حَيَاةٌ يُدْرِكُ بِهَا الْأَلَمَ فَقَطْ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا وَقَعَ فِي شِدَّةٍ أَوْ كُرْبَةٍ أَوْ بَلِيَّةٍ خَانَهُ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ وَجَوَارِحُهُ عَمَّا هُوَ أَنْفَعُ شَيْءٍ لَهُ، فَلَا يَنْجَذِبُ قَلْبُهُ لِلتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَالْجَمْعِيَّةِ عَلَيْهِ، وَالتَّضَرُّعِ وَالتَّذَلُّلِ وَالِانْكِسَارِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَا يُطَاوِعُهُ لِسَانُهُ لِذِكْرِهِ، وَإِنْ ذَكَرَهُ بِلِسَانِهِ لَمْ يَجْمَعْ بَيْنَ قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ، فَيَنْحَبِسُ الْقَلْبُ عَلَى اللِّسَانِ بِحَيْثُ يُؤَثِّرُ الذِّكْرُ، وَلَا يَنْحَبِسُ الْقَلْبُ وَاللِّسَانُ عَلَى الذِّكْرِ، بَلْ إِنْ ذَكَرَ أَوْ دَعَا ذَكَرَ بِقَلْبٍ لَاهٍ سَاهٍ غَافِلٍ، وَلَوْ أَرَادَ مِنْ جَوَارِحِهِ أَنْ تُعِينَهُ بِطَاعَةٍ تَدْفَعُ عَنْهُ لَمْ تَنْقَدْ لَهُ وَلَمْ تُطَاوِعْهُ.

وَهَذَا كُلُّهُ أَثَرُ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، كَمَنْ لَهُ جُنْدٌ يَدْفَعُ عَنْهُ الْأَعْدَاءَ، فَأَهْمَلَ جُنْدَهُ، وَضَيَّعَهُمْ، وَأَضْعَفَهُمْ، وَقَطَعَ أَخْبَارَهُمْ، ثُمَّ أَرَادَ مِنْهُمْ عِنْدَ هُجُومِ الْعَدُوِّ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَفْرِغُوا وُسْعَهُمْ فِي الدَّفْعِ عَنْهُ بِغَيْرِ قُوَّةٍ!

الشرح:

النفوس ثلاثة -كما في القرآن-: نفسٌ أمارة بالسوء، ونفسٌ لوامة، ونفسٌ مطمئنة. والنفس المطمئنة هي أعلاها، يليها النفس اللوامة التي تلوم صاحبها على المعصية، وأحطها النفس الأمارة بالسوء.

فلينظر الإنسان في نفسه من أي هذه الأنواع، هل هي أمارة، أو لوامة، أو مطمئنة؟.

هَذَا، وَثَمَّ أَمْرٌ أَخْوَفُ مِنْ ذَلِكَ وَأَدْهَى مِنْهُ وَأَمَرُّ، وَهُوَ أَنْ يَخُونَهُ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ عِنْدَ الِاحْتِضَارِ وَالِانْتِقَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، فَرُبَّمَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ النُّطْقُ بِالشَّهَادَةِ، كَمَا شَاهَدَ النَّاسُ كَثِيرًا مِنَ الْمُحْتَضَرِينَ أَصَابَهُمْ ذَلِكَ، حَتَّى قِيلَ لِبَعْضِهِمْ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ: آهْ! آهْ! لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَهَا!.

وَقِيلَ لِآخَرَ: قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ: شَاهْ، رُخْ، غَلَبْتُكَ. ثُمَّ قَضَى.

وَقِيلَ لِآخَرَ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ:

يَا رُبَّ قَائِلَةٍ يَوْمًا وَقَدْ تَعِبَتْ ... أَيْنَ الطَّرِيقُ إِلَى حَمَّامِ مِنْجَابِ

ثُمَّ قَضَى(١).

وَقِيلَ لِآخَرَ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. فَجَعَلَ يَهْذِي بِالْغِنَاءِ وَيَقُولُ: تَاتِنَا تِنِنْتَا. حَتَّى قَضَى.

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ، فَقَالَ: وَمَا يَنْفَعُنِي مَا تَقُولُ وَلَمْ أَدَعْ مَعْصِيَةً إِلَّا رَكِبْتُهَا؟ ثُمَّ قَضَى وَلَمْ يَقُلْهَا.

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ، فَقَالَ: وَمَا يُغْنِي عَنِّي، وَمَا أَعْرِفُ أَنِّي صَلَّيْتُ لِلَّهِ صَلَاةً؟ ثُمَّ قَضَى وَلَمْ يَقُلْهَا.

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ، فَقَالَ: هُوَ كَافِرٌ بِمَا تَقُولُ. وَقَضَى.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في المحتضرين (١٧٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨/ ٤٨٥) عن الربيع بن برة أنه قال: «رَأَيْتُ بِالْأَهْوَازِ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ: يَا فُلَانُ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. قَالَ: ده دوازده، ده شازده، ده جهارده. قَالَ: وَرَأَيْتُ بِالشَّامِ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَقَالَ: اشْرَبْ وَاسْقِهِ. وَقَدْ قِيلَ لِرَجُلٍ هَا هُنَا بِالْمَعَرَّةِ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ: ...» وساق البيت المذكور.

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ، فَقَالَ: كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَهَا لِسَانِي يُمْسِكُ عَنْهَا.

وَأَخْبَرَنِي مَنْ حَضَرَ بَعْضَ الشَّحَّاذِينَ عِنْدَ مَوْتِهِ، فَجَعَلَ يَقُولُ: لِلَّهِ، فِلْسٌ لِلَّهِ. حَتَّى قَضَى.

وَأَخْبَرَنِي بَعْضُ التُّجَّارِ عَنْ قَرَابَةٍ لَهُ أَنَّهُ احْتُضِرَ وَهُوَ عِنْدَهُ، وَجَعَلُوا يُلَقِّنُونَهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَهُوَ يَقُولُ: هَذِهِ الْقِطْعَةُ رَخِيصَةٌ، هَذَا مُشْتَرٍ جَيِّدٌ، هَذِهِ كَذَا. حَتَّى قَضَى.

وَسُبْحَانَ اللَّهِ! كَمْ شَاهَدَ النَّاسُ مِنْ هَذَا عِبَرًا؟ وَالَّذِي يَخْفَى عَلَيْهِمْ مِنْ أَحْوَالِ الْمُحْتَضَرِينَ أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ.

فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ فِي حَالِ حُضُورِ ذِهْنِهِ وَقُوَّتِهِ وَكَمَالِ إِدْرَاكِهِ قَدْ تَمَكَّنَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ، وَاسْتَعْمَلَهُ فِيمَا يُرِيدُهُ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ، وَقَدْ أَغْفَلَ قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَطَّلَ لِسَانَهُ عَنْ ذِكْرِهِ وَجَوَارِحَهُ عَنْ طَاعَتِهِ، فَكَيْفَ الظَّنُّ بِهِ عِنْدَ سُقُوطِ قُوَاهُ، وَاشْتِغَالِ قَلْبِهِ وَنَفْسِهِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنْ أَلَمِ النَّزْعِ، وَجَمَعَ الشَّيْطَانُ لَهُ كُلَّ قُوَّتِهِ وَهِمَّتِهِ، وَحَشَدَ عَلَيْهِ بِجَمِيعِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ لِيَنَالَ مِنْهُ فُرْصَتَهُ؟ فَإِنَّ ذَلِكَ آخِرُ الْعَمَلِ، فَأَقْوَى مَا يَكُونُ عَلَيْهِ شَيْطَانُهُ ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَأَضْعَفُ مَا يَكُونُ هُوَ فِي تِلْكَ الْحَالِ، فَمَنْ تُرَى يَسْلَمُ عَلَى ذَلِكَ؟

فَهُنَاكَ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٢٧].

فَكَيْفَ يُوَفَّقُ بِحُسْنِ الْخَاتِمَةِ مَنْ أَغْفَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِهِ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا؟ فَبَعِيدٌ مَنْ قَلْبُهُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، غَافِلٌ عَنْهُ، مُتَعَبِّدٌ لِهَوَاهُ، أَسِيرٌ لِشَهَوَاتِهِ، وَلِسَانُهُ يَابِسٌ مِنْ ذِكْرِهِ، وَجَوَارِحُهُ مُعَطَّلَةٌ مِنْ طَاعَتِهِ

مُشْتَغِلَةٌ بِمَعْصِيَتِهِ؛ أَنْ يُوَفَّقَ لِلْخَاتِمَةِ بِالْحُسْنَى.

وَلَقَدْ قَطَعَ خَوْفُ الْخَاتِمَةِ ظُهُورَ الْمُتَّقِينَ، وَكَأَنَّ الْمُسِيئِينَ الظَّالِمِينَ قَدْ أَخَذُوا تَوْقِيعًا بِالْأَمَانِ ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ۝ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم:٣٩، ٤٠].

يَا آمِنًا مِنْ قَبِيحِ الْفِعْلِ مِنْهُ أَهَلْ ... أَتَاكَ تَوْقِيعُ أَمْنٍ أَنْتَ تَمْلِكُهُ
جَمَعْتَ شَيْئَيْنِ أَمْنًا وَاتِّبَاعَ هَوًى ... هَذَا وَإِحْدَاهُمَا فِي الْمَرْءِ تُهْلِكُهُ
وَالْمُحْسِنُونَ عَلَى دَرْبِ الْمَخَاوِفِ قَدْ ... سَارُوا وَذَلِكَ دَرْبٌ لَسْتَ تَسْلُكُهُ
فَرَّطْتَ فِي الزَّرْعِ وَقْتَ الْبَذْرِ مِنْ سَفَهٍ ... فَكَيْفَ عِنْدَ حَصَادِ النَّاسِ تُدْرِكُهُ
هَذَا وَأَعْجَبُ شَيْءٍ مِنْكَ زُهْدُكَ فِي ... دَارِ الْبَقَاءِ بِعَيْشٍ سَوْفَ تَتْرُكُهُ
مَنِ السَّفِيهُ إِذَا بِاللَّهِ أَنْتَ أَمِ الْـ ... ـمَغْبُونُ فِي الْبَيْعِ غَبْنًا سَوْفَ يُدْرِكُهُ

الشرح:

قوله: (**فَقَالَ: شَاهْ، رُخْ، غَلَبْتُكَ**)، يعني: يلعب الشطرنج والنرد؛ فعند الموت غلب عليه ذلك، بدل أن يقول: (**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**). صار يذكر اللعبة التي كان يلعبها.

وقوله: (**يَا رُبَّ قَائِلَةٍ يَوْمًا وَقَدْ تَعِبَتْ**)، هذا مشغولٌ بالشهوات وملاحقة النساء والنظر إليهن، فلم يستطع أن يقول: (**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**) عند الموت، بل صار يُردد الشعر الغزلي.

وقوله: (**وَيَقُولُ: تَاتِنَا تِنِتَّا**)، هذا مشغولٌ بالغناء واللهو والطرب، فعند الموت صار يهذي به؛ خُتم له بما كان ديدنه في حياته.

أما المؤمنون الذين أمضوا أعمارهم في طاعة الله، فهؤلاء يثبتهم الله

جَلَّ وَعَلَا ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِـرَةِ﴾، فيثبتهم عند الوفاة بأن يقولوا: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، وبالقول الثابت في القبر عند سؤال الملكين.

أما أهل المعاصي فلا يستطيعون أن يقولوا: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) عند الموت، ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولا ستطيعون أن يُجيبوا الملكين عند السؤال، بل يقول أحدهم: **«لَا أَدْرِي، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ»**[1].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تُعْمِي الْقَلْبَ، فَإِنْ لَمْ تُعْمِهِ أَضْعَفَتْ بَصِيرَتَهُ وَلَابُدَّ. وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ أَنَّهَا تُضْعِفُهُ وَلَابُدَّ، فَإِذَا عَمِيَ الْقَلْبُ وَضَعُفَ، فَاتَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْهُدَى وَقُوَّتِهِ عَلَى تَنْفِيذِهِ فِي نَفْسِهِ وَفِي غَيْرِهِ، بِحَسَبِ ضَعْفِ بَصِيرَتِهِ وَقُوَّتِهِ.

فَإِنَّ الْكَمَالَ الْإِنْسَانِيَّ مَدَارُهُ عَلَى أَصْلَيْنِ: مَعْرِفَةِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَإِيثَارِهِ عَلَيْهِ. وَمَا تَفَاوَتَتْ مَنَازِلُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا بِقَدْرِ تَفَاوُتِ مَنَازِلِهِمْ فِي هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ، وَهُمَا اللَّذَانِ أَثْنَى اللَّهُ بِهِمَا سُبْحَانَهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ بِهِمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص:٤٥]. فَالْأَيْدِي: الْقُوَّةُ فِي تَنْفِيذِ الْحَقِّ، وَالْأَبْصَارُ: الْبَصَائِرُ فِي الدِّينِ، فَوَصَفَهُمْ بِكَمَالِ إِدْرَاكِ الْحَقِّ وَكَمَالِ تَنْفِيذِهِ.

وَانْقَسَمَ النَّاسُ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ، فَهَؤُلَاءِ أَشْرَفُ الْأَقْسَامِ مِنَ الْخَلْقِ وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ.

الْقِسْمُ الثَّانِي: عَكْسُ هَؤُلَاءِ، مَنْ لَا بَصِيرَةَ لَهُ فِي الدِّينِ، وَلَا قُوَّةَ عَلَى تَنْفِيذِ الْحَقِّ، وَهُمْ أَكْثَرُ هَذَا الْخَلْقِ، وَهُمُ الَّذِينَ رُؤْيَتُهُمْ قَذَى الْعُيُونِ، وَحُمَّى الْأَرْوَاحِ، وَسَقَمُ الْقُلُوبِ، يُضَيِّقُونَ الدِّيَارَ، وَيُغْلُونَ الْأَسْعَارَ، وَلَا يُسْتَفَادُ مِنْ صُحْبَتِهِمْ إِلَّا الْعَارُ وَالشَّنَارُ!

الْقِسْمُ الثَّالِثُ: مَنْ لَهُ بَصِيرَةٌ بِالْحَقِّ وَمَعْرِفَةٌ بِهِ، لَكِنَّهُ ضَعِيفٌ لَا قُوَّةَ لَهُ عَلَى تَنْفِيذِهِ وَلَا الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَهَذَا حَالُ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَالْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْهُ[١].

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، تقدم تخريجه (ص٢٦٣).

الْقِسْمُ الرَّابِعُ: مَنْ لَهُ قُوَّةٌ وَهِمَّةٌ وَعَزِيمَةٌ، لَكِنَّهُ ضَعِيفُ الْبَصِيرَةِ فِي الدِّينِ، لَا يَكَادُ يُمَيِّزُ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، بَلْ يَحْسَبُ كُلَّ سَوْدَاءَ تَمْرَةً، وَكُلَّ بَيْضَاءَ شَحْمَةً، يَحْسَبُ الْوَرَمَ شَحْمًا وَالدَّوَاءَ النَّافِعَ سُمًّا.

وَلَيْسَ فِي هَؤُلَاءِ مَنْ يَصْلُحُ لِلْإِمَامَةِ فِي الدِّينِ، وَلَا هُوَ مَوْضِعٌ لَهَا سِوَى الْقِسْمِ الْأَوَّلِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤]. فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ نَالُوا الْإِمَامَةَ فِي الدِّينِ.

وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ اسْتَثْنَاهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ جُمْلَةِ الْخَاسِرِينَ، وَأَقْسَمَ بِالْعَصْرِ -الَّذِي هُوَ زَمَنُ سَعْيِ الْخَاسِرِينَ وَالرَّابِحِينَ- عَلَى أَنَّ مَنْ عَدَاهُمْ فَهُوَ مِنَ الْخَاسِرِينَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣].

الشرح:

ومن عقوبات المعاصي: أنها تؤثر في القلوب، وهذا دل عليه الكتاب والسنة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]، يعني: ما كانوا يكسبونه من المعاصي جعله الله على قلوبهم رانًا -وهو: الغلاف الذي يكون على القلب- فلا يصل إليها النور عقوبة لهم بسبب المعصية.

وفي الحديث: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ

الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»(١).

فهذا من أعظم عقوبات المعاصي: أنها تؤثر في القلوب إما بأن تُضعفها وتُمرضها، وإما بأن تُميتها: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩].

وقوله: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾، يعني: أولي قوة، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص:١٧]، يعني: ذي القوة، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ [الذاريات:٤٧]، يعني: بقوة. وقوله: ﴿وَٱلْأَبْصَـٰرِ﴾، يعني: البصائر والقلوب.

فعندهم قوة، وعندهم بصائر في الحق.

وقوله: (**فَهَؤُلَاءِ أَشْرَفُ الْأَقْسَامِ مِنَ الْخَلْقِ وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى**)، هم الأنبياء، الذين عندهم بصيرة، وعندهم قوة.

والقسم الثاني: من لا بصيرة له ولا قوة، وهؤلاء هم شر الخلق.

والقسم الثالث: من عنده قوة وليس عنده بصيرة.

والقسم الرابع: من عنده بصيرة وليس عنده قوة، وهذا مؤمن لكنه مؤمن ضعيف.

وقوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾، يعني: كل الناس خاسر إلا من اتصف بأربع صفات: الإيمان، والعمل الصالح، والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٠١).

وَلَمْ يَكْتَفِ مِنْهُمْ بِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ، حَتَّى يُوصِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِهِ وَيُرْشِدَهُ إِلَيْهِ وَيَحُضَّهُ عَلَيْهِ.

وَإِذَا كَانَ مَنْ عَدَا هَؤُلَاءِ خَاسِرًا، فَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَعَاصِيَ وَالذُّنُوبَ تُعْمِي بَصِيرَةَ الْقَلْبِ فَلَا يُدْرِكُ الْحَقَّ كَمَا يَنْبَغِي، وَتُضْعِفُ قُوَّتَهُ وَعَزِيمَتَهُ فَلَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ، بَلْ قَدْ يَتَوَارَدُ عَلَى الْقَلْبِ حَتَّى يَنْعَكِسَ إِدْرَاكُهُ كَمَا يَنْعَكِسُ سَيْرُهُ، فَيُدْرِكُ الْبَاطِلَ حَقًّا وَالْحَقَّ بَاطِلًا، وَالْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا، فَيَنْتَكِسُ فِي سَيْرِهِ، وَيَرْجِعُ عَنْ سَفَرِهِ إِلَى اللهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ، إِلَى سَفَرِهِ إِلَى مُسْتَقَرِّ النُّفُوسِ الْمُبْطِلَةِ الَّتِي رَضِيَتْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَاطْمَأَنَّتْ بِهَا، وَغَفَلَتْ عَنِ اللهِ وَآيَاتِهِ، وَتَرَكَتْ الِاسْتِعْدَادَ لِلِقَائِهِ.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي عُقُوبَةِ الذُّنُوبِ إِلَّا هَذِهِ وَحْدَهَا لَكَانَتْ دَاعِيَةً إِلَى تَرْكِهَا وَالْبُعْدِ مِنْهَا، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَهَذَا كَمَا أَنَّ الطَّاعَةَ تُنَوِّرُ الْقَلْبَ، وَتَجْلُوهُ وَتَصْقُلُهُ، وَتُقَوِّيهِ وَتُثَبِّتُهُ؛ حَتَّى يَصِيرَ كَالْمِرْآةِ الْمَجْلُوَّةِ فِي جَلَائِهَا وَصَفَائِهَا فَيَمْتَلِئَ نُورًا، فَإِذَا دَنَا الشَّيْطَانُ مِنْهُ أَصَابَهُ مِنْ نُورِهِ مَا يُصِيبُ مُسْتَرِقَ السَّمْعِ مِنَ الشُّهُبِ الثَّوَاقِبِ. فَالشَّيْطَانُ يَفْرَقُ مِنْ هَذَا الْقَلْبِ أَشَدَّ مِنْ فَرَقِ الذِّئْبِ مِنَ الْأَسَدِ، حَتَّى إِنَّ صَاحِبَهُ لَيَصْرَعُ الشَّيْطَانَ فَيَخِرُّ صَرِيعًا، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا شَأْنُهُ؟ فَيُقَالُ: أَصَابَهُ إِنْسِيٌّ، وَبِهِ نَظْرَةٌ مِنَ الْإِنْسِ:

فَيَا نَظْرَةً مِنْ قَلْبِ حُرٍّ مُنَوَّرٍ ... يَكَادُ لَهَا الشَّيْطَانُ بِالنُّورِ يُحْرَقُ

أَفَيَسْتَوِي هَذَا الْقَلْبُ وَقَلْبٌ مُظْلِمَةٌ أَرْجَاؤُهُ، مُخْتَلِفَةٌ أَهْوَاؤُهُ، قَدِ اتَّخَذَهُ الشَّيْطَانُ وَطَنَهُ وَأَعَدَّهُ مَسْكَنَهُ، إِذَا تَصَبَّحَ بِطَلْعَتِهِ حَيَّاهُ، وَقَالَ: فَدَيْتُ مَنْ لَا يُفْلِحُ

فِي دُنْيَاهُ وَلَا فِي أُخْرَاهُ؟

قَرِينُكَ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْحَشْرِ بَعْدَهَا ... فَأَنْتَ قَرِينٌ لِي بِكُلِّ مَكَانِ
فَإِنْ كُنْتَ فِي دَارِ الشَّقَاءِ فَإِنَّنِي ... وَأَنْتَ جَمِيعًا فِي شَقًا وَهَوَانِ

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ۝٣٨ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:٣٦ - ٣٩].

فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَنْ عَشَا عَنْ ذِكْرِهِ -وَهُوَ كِتَابُهُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ- فَأَعْرَضَ عَنْهُ، وَعَمِيَ عَنْهُ، وَعَشَتْ بَصِيرَتُهُ عَنْ فَهْمِهِ وَتَدَبُّرِهِ وَمَعْرِفَةِ مُرَادِ اللَّهِ مِنْهُ؛ قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ شَيْطَانًا عُقُوبَةً لَهُ بِإِعْرَاضِهِ عَنْ كِتَابِهِ، فَهُوَ قَرِينُهُ الَّذِي لَا يُفَارِقُهُ فِي الْإِقَامَةِ وَلَا فِي الْمَسِيرِ، وَمَوْلَاهُ وَعَشِيرُهُ الَّذِي هُوَ بِئْسَ الْمَوْلَى وَبِئْسَ الْعَشِيرُ.

رَضِيعَي لِبَانٍ ثَدْيَ أُمٍّ تَقَاسَمَا ... بِأَسْحَمَ دَاجٍ عَوْضُ لَا نَتَفَرَّقُ(١)

ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الشَّيْطَانَ يَصُدُّ قَرِينَهُ وَوَلِيَّهُ عَنْ سَبِيلِهِ الْمُوَصِّلِ إِلَيْهِ وَإِلَى جَنَّتِهِ، وَيَحْسَبُ هَذَا الضَّالُّ الْمَصْدُودُ أَنَّهُ عَلَى طَرِيقِ هُدًى، حَتَّى إِذَا جَاءَ الْقَرِينَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ: يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ، فَبِئْسَ الْقَرِينُ كُنْتَ لِي فِي الدُّنْيَا، أَضْلَلْتَنِي عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي، وَصَدَدْتَنِي عَنِ الْحَقِّ وَأَغْوَيْتَنِي حَتَّى هَلَكْتُ، وَبِئْسَ الْقَرِينُ أَنْتَ لِي الْيَوْمَ!.

وَلَمَّا كَانَ الْمُصَابُ إِذَا شَارَكَهُ غَيْرُهُ فِي مُصِيبَةٍ، حَصَلَ لَهُ بِالتَّأَسِّي نَوْعُ تَخْفِيفٍ وَتَسْلِيَةٍ، أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ وَغَيْرُ حَاصِلٍ فِي حَقِّ الْمُشْتَرِكِينَ

---

(١) يُنسب البيت للأعشى، يُنظر: ديوانه (ص٢٧٥).

فِي الْعَذَابِ، وَأَنَّ الْقَرِينَ لَا يَجِدُ رَاحَةً وَلَا أَدْنَى فَرَحٍ بِعَذَابِ قَرِينِهِ مَعَهُ، وَإِنْ كَانَتِ الْمَصَائِبُ فِي الدُّنْيَا إِذَا عَمَّتْ صَارَتْ مَسْلَاةً، كَمَا قَالَتِ الْخَنْسَاءُ فِي أَخِيهَا صَخْرٍ(١):

فَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي ... عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ ... أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي

فَمَنَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ هَذَا الْقَدْرَ مِنَ الرَّاحَةِ عَلَى أَهْلِ النَّارِ فَقَالَ: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:٣٩].

الشرح:

قوله: (**حَتَّى يُوصِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِهِ وَيُرْشِدَهُ إِلَيْهِ وَيَحُضَّهُ عَلَيْهِ**)، لا يكفي أن يكون الإنسان صالحًا في نفسه، بل لابد أن يسعى في إصلاح الآخرين، ولا يقتصر على نفسه.

فكل الناس يعمل، لا أحد مُعطل في هذه الدنيا، لكن هناك من يعمل للخير ويسير إلى الدار الآخرة والجنة، وهناك من يعمل الشر ويسير إلى النار، فلا أحد مُعطل في هذه الدنيا إلا من ليس له عقل كالمجانين والمعتوهين الذين ليس لهم عقول، فهؤلاء ليس لهم حسنات ولا لهم سيئات مثل البهائم.

وقوله: (**قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ شَيْطَانًا عُقُوبَةً لَهُ بِإِعْرَاضِهِ عَنْ كِتَابِهِ، فَهُوَ قَرِينُهُ الَّذِي لَا يُفَارِقُهُ فِي الْإِقَامَةِ وَلَا فِي الْمَسِيرِ**)، ولذلك الشيطان لا يأتي مع طريق يمشي

---

(١) يُنظر: ديوان الخنساء (ص٣٢٦).

فيه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ»**(١)؛ لقوة إيمان عمر، ونور بصيرته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُحرقه.

وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾، فالإنسان إذا ترك ذكر الله جَلَّ وَعَلَا، وهجر القرآن، فإن الشيطان يقارنه، أي: يكون له قرينًا عقوبة له، خلافًا للمؤمن الذي يذكر الله فإنه يكون معه ملك من الملائكة يُسدده ويُعينه.

وقوله: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ هذه المشكلة، فلو أنه حين يخطئ يعرف أنه مُخطئ ربما بادر إلى التوبة، لكن المشكلة أنه يحسب أنه مهتدٍ فلا يتوب إلى الله، وهذا من العقوبة والعياذ بالله.

وقوله: **(وَعَشَتْ بَصِيرَتُهُ عَنْ فَهْمِهِ وَتَدَبُّرِهِ)**، العشا: ذهاب البصيرة، والأعشى: هو الذي يبصر بالنهار ولا يُبصر بالليل، فمن عمي عن تدبر القرآن والعمل بما فيه، فإنه يُبتلى بمقارنة الشيطان.

وقوله: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ كل واحد يرى أنه أشد الناس عذابًا، ولا يُخفف عنه كون معه ناس آخرين، كما أن الناس في الدنيا إذا أصابتهم مصائب، ورأى الإنسان غيره مصابًا مثله يهون

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٩٤)، ومسلم (٢٣٩٦) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عليه هذا الشيء، لكن في الآخرة أهل النار لا يُخفف عنهم الاشتراك في العذاب.

مثل: الخنساء لما قُتل أخوها صخر بكته وحزنت عليه أشد الحزن، وقالت فيه الأشعار الكثيرة، لكن لمَّا رأت الناس مثلها مصابين بإخوانهم هان عليها ذلك، فقالت:

فَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي　　عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ　　أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا مَدَدٌ مِنَ الْإِنْسَانِ يَمُدُّ بِهِ عَدُوَّهُ عَلَيْهِ، وَجَيْشٌ يُقَوِّيهِ بِهِ عَلَى حَرْبِهِ.

وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ ابْتَلَى هَذَا الْإِنْسَانَ بِعَدُوٍّ لَا يُفَارِقُهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، يَنَامُ وَلَا يَنَامُ عَنْهُ، وَيَغْفُلُ وَلَا يَغْفُلُ عَنْهُ، يَرَاهُ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَاهُ، يَبْذُلُ جَهْدَهُ فِي مُعَادَاتِهِ فِي كُلِّ حَالٍ، وَلَا يَدَعُ أَمْرًا يَكِيدُهُ بِهِ يَقْدِرُ عَلَى إِيصَالِهِ إِلَيْهِ إِلَّا أَوْصَلَهُ إِلَيْهِ، وَيَسْتَعِينُ عَلَيْهِ بِبَنِي جِنْسِهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ، فَقَدْ نَصَبَ لَهُ الْحَبَائِلَ، وَبَغَى لَهُ الْغَوَائِلَ، وَمَدَّ حَوْلَهُ الْأَشْرَاكَ، وَنَصَبَ لَهُ الْفِخَاخَ وَالشِّبَاكَ، وَقَالَ لِأَعْوَانِهِ: دُونَكُمْ عَدُوَّكُمْ وَعَدُوَّ أَبِيكُمْ، لَا يَفُوتُكُمْ، وَلَا يَكُونُ حَظُّهُ الْجَنَّةَ وَحَظُّكُمُ النَّارَ، وَنَصِيبُهُ الرَّحْمَةَ وَنَصِيبُكُمُ اللَّعْنَةَ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ مَا جَرَى عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ مِنَ الْخِزْيِ وَالْإِبْعَادِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِسَبَبِهِ وَمِنْ أَجْلِهِ، فَابْذُلُوا جَهْدَكُمْ أَنْ يَكُونُوا شُرَكَاءَنَا فِي هَذِهِ الْبَلِيَّةِ؛ إِذْ قَدْ فَاتَنَا شَرِكَةُ صَالِحِيهِمْ فِي الْجَنَّةِ.

وَقَدْ أَعْلَمَنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِذَلِكَ كُلِّهِ مِنْ عَدُوِّنَا، وَأَمَرَنَا أَنْ نَأْخُذَ لَهُ أُهْبَتَهُ، وَنُعِدَّ لَهُ عُدَّتَهُ.

وَلَمَّا عَلِمَ سُبْحَانَهُ أَنَّ آدَمَ وَبَنِيهِ قَدْ بُلُوا بِهَذَا الْعَدُوِّ، وَأَنَّهُ قَدْ سُلِّطَ عَلَيْهِمْ؛ أَمَدَّهُمْ بِعَسَاكِرَ وَجُنْدٍ يَلْقَوْنَهُمْ بِهَا، وَأَمَدَّ عَدُوَّهُمْ أَيْضًا بِجُنْدٍ وَعَسَاكِرَ يَلْقَاهُمْ بِهَا، وَأَقَامَ سُوقَ الْجِهَادِ فِي هَذِهِ الدَّارِ فِي مُدَّةِ الْعُمُرِ الَّتِي هِيَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْآخِرَةِ كَنَفَسٍ وَاحِدٍ مِنْ أَنْفَاسِهَا، وَاشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَأَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ وَعْدٌ مُؤَكَّدٌ عَلَيْهِ فِي

أَشْرَفِ كُتُبِهِ، وَهِيَ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ وَالْقُرْآنُ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْهُ سُبْحَانَهُ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَبْشِرُوا بِهَذِهِ الصَّفْقَةِ الَّتِي مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَهَا فَلْيَنْظُرْ إِلَى الْمُشْتَرِي مَنْ هُوَ؟ وَإِلَى الثَّمَنِ الْمَبْذُولِ فِي هَذِهِ السِّلْعَةِ، وَإِلَى مَنْ جَرَى عَلَى يَدَيْهِ هَذَا الْعَقْدُ، فَأَيُّ فَوْزٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا؟ وَأَيُّ تِجَارَةٍ أَرْبَحُ مِنْهُ؟

ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ هَذَا الْأَمْرَ بِقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ - ١٣].

الشرح:

من عقوبات المعاصي: أنها تساعد أعداءه من شياطين الإنس والجن عليه، فإذا عصى الله فرح عدوه بذلك وتسلط عليه.

لو أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يُهلك إبليس وجنده، ويهلك الكفار لفعل؛ لأنه قادر على ذلك، ولكنه أبقاهم للابتلاء والامتحان، والجهاد في سبيل الله؛ إذ لولا وجود الشيطان وجنده ما حصل الجهاد في سبيل الله، ولا تميز المؤمن الصادق من المنافق والكاذب، فلله حكمة سبحانه في بقاء إبليس وجنده، وبقاء الكفار، مع أنهم أعداء الله وأعداء رسله، لكن الله أبقاهم للابتلاء والامتحان: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، هذه حكمة عظيمة.

وقوله: **(وَأَقَامَ سُوقَ الْجِهَادِ فِي هَذِهِ الدَّارِ)**، يبيع فيه المؤمنون أنفسهم وأموالهم، ويشترون الجنة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ ما هم يحصلون عليها عفوًا ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ [التوبة: ١١١]، في هذه البيعة: المشتري هو الله، والبائع هو المؤمن، والوسيط هو رسول الله، والثمن هو الجنة، والوثيقة المكتوب فيها: التوراة والإنجيل والقرآن، فما أعظمه من بيع.

والإنسان يحب التجارة، ويسعى في البيع والشراء لتحصيل التجارة في الدنيا، وهذه التجارة وإن حصلت فهي فانية، وهي ابتلاء وامتحان، وتضر صاحبها أكثر مما تنفعه، لكن التجارة الرابحة المضمونة هي تجارة الآخرة، قال تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٠-١٣].

هذه هي التجارة الباقية، وإن كان كثير من الخلق يغفلون عنها، ويشتغلون بتجارة الدنيا.

وَلَمْ يُسَلِّطْ سُبْحَانَهُ هَذَا الْعَدُوَّ عَلَى عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي هُوَ أَحَبُّ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَيْهِ، إِلَّا لِأَنَّ الْجِهَادَ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ، وَأَهْلَهُ أَرْفَعُ الْخَلْقِ عِنْدَهُ دَرَجَاتٍ، وَأَقْرَبُهُمْ إِلَيْهِ وَسِيلَةً، فَعَقَدَ سُبْحَانَهُ لِوَاءَ هَذِهِ الْحَرْبِ لِخُلَاصَةِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ الْقَلْبُ الَّذِي مَحَلُّ مَعْرِفَتِهِ، وَمَحَبَّتِهِ، وَعُبُودِيَّتِهِ، وَالْإِخْلَاصِ لَهُ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، فَوَلَّاهُ أَمْرَ هَذِهِ الْحَرْبِ، وَأَيَّدَهُ بِجُنْدٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَا يُفَارِقُونَهُ، مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ يَعْقُبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، كُلَّمَا ذَهَبَ بَدَلٌ جَاءَ بَدَلٌ آخَرُ يُثَبِّتُونَهُ، وَيَأْمُرُونَهُ بِالْخَيْرِ وَيَحُضُّونَهُ عَلَيْهِ، وَيَعِدُونَهُ بِكَرَامَةِ اللَّهِ، وَيُصَبِّرُونَهُ، وَيَقُولُونَ: إِنَّمَا هُوَ صَبْرُ سَاعَةٍ، وَقَدِ اسْتَرَحْتَ رَاحَةَ الْأَبَدِ.

ثُمَّ أَمَدَّهُ سُبْحَانَهُ بِجُنْدٍ آخَرَ مِنْ وَحْيِهِ وَكَلَامِهِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنْزَلَ إِلَيْهِ كِتَابَهُ، فَازْدَادَ قُوَّةً إِلَى قُوتِهِ، وَمَدَدًا إِلَى مَدَدِهِ، وَعُدَّةً إِلَى عُدَّتِهِ. وَأَمَدَّهُ مَعَ ذَلِكَ بِالْعَقْلِ وَزِيرًا لَهُ وَمُدَبِّرًا، وَبِالْمَعْرِفَةِ مُشِيرَةً عَلَيْهِ نَاصِحَةً لَهُ، وَبِالْإِيمَانِ مُثَبِّتًا لَهُ وَمُؤَيِّدًا وَنَاصِرًا، وَبِالْيَقِينِ كَاشِفًا لَهُ عَنْ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، حَتَّى كَأَنَّهُ يُعَايِنُ مَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ وَحِزْبَهُ عَلَى جِهَادِ أَعْدَائِهِ، فَالْعَقْلُ يُدَبِّرُ أَمْرَ جَيْشِهِ، وَالْمَعْرِفَةُ تَضَعُ لَهُ أُمُورَ الْحَرْبِ وَأَسْبَابَهَا وَمَوَاضِعَهَا اللَّائِقَةَ بِهَا، وَالْإِيمَانُ يُثَبِّتُهُ وَيُقَوِّيهِ وَيُصَبِّرُهُ، وَالْيَقِينُ يُقْدِمُ بِهِ وَيَحْمِلُ بِهِ الْحَمَلَاتِ الصَّادِقَةَ.

ثُمَّ أَمَدَّ سُبْحَانَهُ الْقَائِمَ بِهَذِهِ الْحَرْبِ بِالْقُوَى الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، فَجَعَلَ الْعَيْنَ طَلِيعَتَهُ، وَالْأُذُنَ صَاحِبَ خَبَرِهِ، وَاللِّسَانَ تُرْجُمَانَهُ، وَالْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ أَعْوَانَهُ، وَأَقَامَ مَلَائِكَتَهُ وَحَمَلَةَ عَرْشِهِ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَيَسْأَلُونَ لَهُ أَنْ يَقِيَهُ السَّيِّئَاتِ وَيُدْخِلَهُ الْجَنَّاتِ.

وَتَوَلَّى سُبْحَانَهُ الدَّفْعَ وَالدِّفَاعَ عَنْهُ بِنَفْسِهِ، وَقَالَ: هَؤُلَاءِ حِزْبِي، وَحِزْبُ اللَّهِ

هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَهَؤُلَاءِ جُنْدِي ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣].
وَعَلَّمَ عِبَادَهُ كَيْفِيَّةَ هَذِهِ الْحَرْبِ وَالْجِهَادِ، فَجَمَعَهَا لَهُمْ فِي أَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وَلَا يَتِمُّ أَمْرُ هَذَا الْجِهَادِ إِلَّا بِهَذِهِ الْأُمُورِ الْأَرْبَعَةِ، فَلَا يَتِمُّ الصَّبْرُ إِلَّا بِمُصَابَرَةِ الْعَدُوِّ، وَهُوَ مُقَاوَمَتُهُ وَمُنَازَلَتُهُ، فَإِذَا صَابَرَ عَدُوَّهُ احْتَاجَ إِلَى أَمْرٍ آخَرَ وَهِيَ الْمُرَابَطَةُ، وَهِيَ لُزُومُ ثَغْرِ الْقَلْبِ وَحِرَاسَتُهُ لِئَلَّا يَدْخُلَ مِنْهُ الْعَدُوُّ، وَلُزُومُ ثَغْرِ الْعَيْنِ وَالْأُذُنِ وَاللِّسَانِ وَالْبَطْنِ وَالْيَدِ وَالرِّجْلِ، فَهَذِهِ الثُّغُورُ يَدْخُلُ مِنْهَا الْعَدُوُّ، فَيَجُوسُ خِلَالَ الدِّيَارِ، وَيُفْسِدُ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ، فَالْمُرَابَطَةُ لُزُومُ هَذِهِ الثُّغُورِ، وَلَا يُخَلِّي مَكَانَهَا فَيُصَادِفَ الْعَدُوُّ الثَّغْرَ خَالِيًا فَيَدْخُلَ مِنْهُ.

فَهَؤُلَاءِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، وَأَعْظَمُهُمْ حِمَايَةً وَحِرَاسَةً مِنَ الشَّيْطَانِ، وَقَدْ أَخْلَوُا الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرُوا بِلُزُومِهِ يَوْمَ أُحُدٍ، فَدَخَلَ مِنْهُ الْعَدُوُّ، فَكَانَ مَا كَانَ.

وَجِمَاعُ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ وَعَمُودُهَا الَّذِي تَقُومُ بِهِ هُوَ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى، فَلَا يَنْفَعُ الصَّبْرُ وَلَا الْمُصَابَرَةُ وَلَا الْمُرَابَطَةُ إِلَّا بِالتَّقْوَى، وَلَا تَقُومُ التَّقْوَى إِلَّا عَلَى سَاقِ الصَّبْرِ.

فَانْظُرِ الْآنَ فِيكَ إِلَى الْتِقَاءِ الْجَيْشَيْنِ، وَاصْطِدَامِ الْعَسْكَرَيْنِ، وَكَيْفَ تُدَالُ مَرَّةً، وَيُدَالُ عَلَيْكَ أُخْرَى؟

أَقْبَلَ مَلِكُ الْكَفَرَةِ بِجُنُودِهِ وَعَسَاكِرِهِ، فَوَجَدَ الْقَلْبَ فِي حِصْنِهِ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيِّ مَمْلَكَتِهِ، أَمْرُهُ نَافِذٌ فِي أَعْوَانِهِ، وَجُنْدُهُ قَدْ حَفُّوا بِهِ، يُقَاتِلُونَ عَنْهُ وَيُدَافِعُونَ

عَنْ حَوْزَتِهِ، فَلَمْ يُمْكِنْهُمُ الْهُجُومُ عَلَيْهِ إِلَّا بِمُخَامَرَةِ بَعْضِ أُمَرَائِهِ وَجُنْدِهِ عَلَيْهِ، فَسَأَلَ عَنْ أَخَصِّ الْجُنْدِ بِهِ وَأَقْرَبِهِمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً، فَقِيلَ لَهُ: هِيَ النَّفْسُ، فَقَالَ لِأَعْوَانِهِ: ادْخُلُوا عَلَيْهَا مِنْ مُرَادِهَا، وَانْظُرُوا مَوَاقِعَ مَحَبَّتِهَا وَمَا هُوَ مَحْبُوبُهَا، فَعِدُوهَا بِهِ، وَمَنُّوهَا إِيَّاهُ، وَانْقُشُوا صُورَةَ الْمَحْبُوبِ فِيهَا فِي يَقَظَتِهَا وَمَنَامِهَا، فَإِذَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ وَسَكَنَتْ عِنْدَهُ فَاطْرَحُوا عَلَيْهَا كَلَالِيبَ الشَّهْوَةِ وَخَطَاطِيفَهَا، ثُمَّ جُرُّوهَا بِهَا إِلَيْكُمْ.

فَإِذَا خَامَرَتْ عَلَى الْقَلْبِ وَصَارَتْ مَعَكُمْ عَلَيْهِ؛ مَلَكْتُمْ ثَغْرَ الْعَيْنِ وَالْأُذُنِ وَاللِّسَانِ وَالْفَمِ وَالْيَدِ وَالرِّجْلِ، فَرَابِطُوا عَلَى هَذَا الثُّغُورِ كُلَّ الْمُرَابَطَةِ، فَمَتَى دَخَلْتُمْ مِنْهَا إِلَى الْقَلْبِ فَهُوَ قَتِيلٌ، أَوْ أَسِيرٌ، أَوْ جَرِيحٌ مُثْخَنٌ بِالْجِرَاحَاتِ، وَلَا تُخْلُوا هَذِهِ الثُّغُورَ، وَلَا تُمَكِّنُوا سَرِيَّةً تَدْخُلُ فِيهَا إِلَى الْقَلْبِ فَتُخْرِجَكُمْ مِنْهَا، وَإِنْ غُلِبْتُمْ فَاجْتَهِدُوا فِي إِضْعَافِ السَّرِيَّةِ وَوَهَنِهَا حَتَّى لَا تَصِلَ إِلَى الْقَلْبِ، فَإِنْ وَصَلَتْ إِلَيْهِ وَصَلَتْ ضَعِيفَةً لَا تُغْنِي عَنْهُ شَيْئًا.

فَإِذَا اسْتَوْلَيْتُمْ عَلَى هَذِهِ الثُّغُورِ فَامْنَعُوا ثَغْرَ الْعَيْنِ أَنْ يَكُونَ نَظَرُهُ اعْتِبَارًا، بَلِ اجْعَلُوا نَظَرَهُ تَفَرُّجًا وَاسْتِحْسَانًا وَتَلَهِّيًا، فَإِنِ اسْتَرَقَ نَظْرَةً عِبْرَةً فَأَفْسِدُوهَا عَلَيْهِ بِنَظَرِ الْغَفْلَةِ وَالِاسْتِحْسَانِ وَالشَّهْوَةِ، فَإِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ وَأَعْلَقُ بِنَفْسِهِ وَأَخَفُّ عَلَيْهِ. وَدُونَكُمْ ثَغْرَ الْعَيْنِ، فَإِنَّ مِنْهُ تَنَالُونَ بُغْيَتَكُمْ، فَإِنِّي مَا أَفْسَدْتُ بَنِي آدَمَ بِشَيْءٍ مِثْلِ النَّظَرِ، فَإِنِّي أَبْذُرُ بِهِ فِي الْقَلْبِ بَذْرَ الشَّهْوَةِ، ثُمَّ أَسْقِيهِ بِمَاءِ الْأُمْنِيَّةِ، ثُمَّ لَا أَزَالُ أَعِدُهُ وَأُمَنِّيهِ حَتَّى أُقَوِّيَ عَزِيمَتَهُ وَأَقُودَهُ بِزِمَامِ الشَّهْوَةِ إِلَى الِانْخِلَاعِ مِنَ الْعِصْمَةِ.

فَلَا تُهْمِلُوا أَمْرَ هَذَا الثَّغْرِ، وَأَفْسِدُوهُ بِحَسَبِ اسْتِطَاعَتِكُمْ، وَهَوِّنُوا عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَقُولُوا لَهُ: مِقْدَارُ نَظْرَةٍ تَدْعُوكَ إِلَى تَسْبِيحِ الْخَالِقِ وَالتَّأَمُّلِ لِبَدِيعِ صَنِيعِهِ،

وَحُسْنِ هَذِهِ الصُّورَةِ الَّتِي إِنَّمَا خُلِقَتْ لِيَسْتَدِلَّ بِهَا النَّاظِرُ عَلَيْهِ، وَمَا خَلَقَ اللَّهُ لَكَ الْعَيْنَيْنِ سُدًى، وَمَا خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ الصُّورَةَ لِيَحْجُبَهَا عَنِ النَّظَرِ!

وَإِنْ ظَفِرْتُمْ بِهِ قَلِيلَ الْعِلْمِ فَاسِدَ الْعَقْلِ، فَقُولُوا لَهُ: هَذِهِ الصُّورَةُ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الْحَقِّ، وَمَجْلًى مِنْ مَجَالِيهِ، فَادْعُوهُ إِلَى الْقَوْلِ بِالاتِّحَادِ، فَإِنْ لَمْ يَقْبَلْ فَالْقَوْلُ بِالْحُلُولِ الْعَامِّ أَوِ الْخَاصِّ، وَلَا تَقْنَعُوا مِنْهُ بِدُونِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَصِيرُ بِهِ مِنْ إِخْوَانِ النَّصَارَى، فَمُرُوهُ حِينَئِذٍ بِالْعِفَّةِ وَالصِّيَانَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، وَاصْطَادُوا عَلَيْهِ وَبِهِ الْجُهَّالَ، فَهَذَا مِنْ أَقْرَبِ خُلَفَائِي وَأَكْبَرِ جُنْدِي، بَلْ أَنَا مِنْ جُنْدِهِ وَأَعْوَانِهِ.

الشرح:

المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الكلام الطويل يصور عمل الشيطان مع بني آدم، وهو تصوير دقيق يُظهر الكثير من الحقائق.

وقوله: (**وَهِيَ لُزُومُ ثَغْرِ الْقَلْبِ وَحِرَاسَتُهُ لِئَلَّا يَدْخُلَ مِنْهُ الْعَدُوُّ، وَلُزُومُ ثَغْرِ الْعَيْنِ وَالْأُذُنِ وَاللِّسَانِ وَالْبَطْنِ وَالْيَدِ وَالرِّجْلِ**)، الله جَلَّ وَعَلَا نهى عن النظر المحرم؛ لأنه يورث الشهوة في القلب ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، يأتيه الشيطان ويقول: انظر إلى النساء وإلى الفتنة، فإن هذا فيه اعتبار لخلق الله، وفيه تدبر لخلق الله! ولذلك الصوفية يقولون: إن النظر إلى النساء وإلى المردان ليس من أجل الشهوة، وإنما من أجل الاعتبار بآيات الله، وهو يفيد القلب معرفة بالله عَزَّوَجَلَّ! فيزين لهم الشيطان الشهوات بهذه الطريقة، ويعكس ما قاله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومنهم من يصل به الأمر إلى أن يقول: إن هذا الجمال الذي في بعض الصور هو الله!. وهذا مذهب الحلولية الذين يقولون: إن الله حالٌّ في مخلوقاته، وهذا الجمال الذي فيها هذا بسبب حلول الله فيها.

ثم يتدرج بهم فيقول: هذه المخلوقات هي الله! وهذا مذهب الاتحادية، كابن عربي، والتلمساني، وأشكالهم من أهل الاتحاد الذين يقولون: ليس هناك انقسام في المخلوقات، بل هي كلها الله عَزَّوَجَلَّ!

والذي يقول: إن هناك خالق ومخلوق. هذا مشرك عندهم، والتوحيد عندهم: أنك تعتقد أن هذا الكون كله هو الله! نسأل الله العافية، هكذا يتدرج الشيطان بهم إلى هذه المراحل الخبيثة.

فَصْلٌ

ثُمَّ امْنَعُوا ثَغْرَ الْأُذُنِ أَنْ يُدْخِلَ عَلَيْهِ مَا يُفْسِدُ عَلَيْكُمُ الْأَمْرَ، فَاجْتَهِدُوا أَنْ لَا تُدْخِلُوا مِنْهُ إِلَّا الْبَاطِلَ، فَإِنَّهُ خَفِيفٌ عَلَى النَّفْسِ تَسْتَحْلِيهِ وَتَسْتَحْسِنُهُ، وَتَخَيَّرُوا لَهُ أَعْذَبَ الْأَلْفَاظِ وَأَسْحَرَهَا لِلْأَلْبَابِ، وَامْزِجُوهُ بِمَا تَهْوَى النَّفْسُ مَزْجًا. وَأَلْقُوا الْكَلِمَةَ، فَإِنْ رَأَيْتُمْ مِنْهُ إِصْغَاءً إِلَيْهَا فَزُجُّوهُ بِأَخَوَاتِهَا، وَكُلَّمَا صَادَفْتُمْ مِنْهُ اسْتِحْسَانَ شَيْءٍ فَالْهَجُوا لَهُ بِذِكْرِهِ.

وَإِيَّاكُمْ أَنْ يَدْخُلَ مِنْ هَذَا الثَّغْرِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ، أَوْ كَلَامِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ كَلَامِ النُّصَحَاءِ، فَإِنْ غُلِبْتُمْ عَلَى ذَلِكَ وَدَخَلَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، فَحُولُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ فَهْمِهِ وَتَدَبُّرِهِ وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ وَالْعِظَةِ بِهِ، إِمَّا بِإِدْخَالِ ضِدِّهِ عَلَيْهِ، وَإِمَّا بِتَهْوِيلِ ذَلِكَ وَتَعْظِيمِهِ، وَأَنَّ هَذَا أَمْرٌ قَدْ حِيلَ بَيْنَ النُّفُوسِ وَبَيْنَهُ فَلَا سَبِيلَ لَهَا إِلَيْهِ، وَهُوَ حِمْلٌ يَثْقُلُ عَلَيْهَا لَا تَسْتَقِلُّ بِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَإِمَّا بِإِرْخَاصِهِ عَلَى النُّفُوسِ، وَأَنَّ الِاشْتِغَالَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِمَا هُوَ أَعْلَى عِنْدَ النَّاسِ، وَأَعَزُّ عَلَيْهِمْ، وَأَغْرَبُ عِنْدَهُمْ، وَزُبُونُهُ الْقَابِلُونَ لَهُ أَكْثَرُ. وَأَمَّا الْحَقُّ فَهُوَ مَهْجُورٌ، وَقَائِلُهُ مُعَرِّضٌ نَفْسَهُ لِلْعَدَاوَةِ، وَالرَّابِحُ بَيْنَ النَّاسِ أَوْلَى بِالْإِيثَارِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَتُدْخِلُونَ الْبَاطِلَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ قَالَبٍ يَقْبَلُهُ وَيَخِفُّ عَلَيْهِ، وَتُخْرِجُونَ لَهُ الْحَقَّ فِي كُلِّ قَالَبٍ يَكْرَهُهُ وَيَثْقُلُ عَلَيْهِ.

الشرح:

الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكر ما يوصي به الشيطان جنوده مع ابن آدم، وأنهم يُمسكون الثغور التي يصل الخير منها إليه، ويحولونها إلى مداخل

للباطل، ومنها ثغر الأذن والسماع، فلا يدعونه يسمع حقًّا، وإنما يُغرونه بسماع الباطل؛ لأن هذا يؤثر على قلبه، ولأن السمع والبصر من أهم الثغور.

ولهذا قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦]. فإذا أمسك جنود إبليس هذه الثغور على الإنسان، جعلوه لا يُبصر إلا فتنة وشرًّا، ولا يسمع إلا باطلًا، وهذا حال كثير من الناس -إلا من رحم الله عَزَّوَجَلَّ- فلذلك تفسد قلوبهم؛ لأن القلوب تتأثر بما يصل إليها من هذه المنافذ.

فيمنعونه من سماع الخير ابتداءً، ولا يسمع إلا شرًّا كالأغاني والمزامير، والغيبة والنميمة، والكلام المحرم، وإن غُلب الشياطين ودخل شيء من الخير، فإنهم يحولون بينه وبين فهمه، فهو يسمعه لكن لا يفهمه، وإذا لم يفهمه فلا فائدة. يعني: وسوسوا له بهذه الوساوس: أن هذا لا يمكن أن تفهمه، ولو فهمته فهو ثقيلٌ عليك، فلا تشق على نفسك، وروِّح عن نفسك.. إلى آخره.

أو يقولون له: إن هذا الذي تسمعه لا قيمة له، والناس الآن تقدموا، وصاروا يطيرون في الجو، وأنت لازلت مع قال الله وقال رسوله! فيزهدونه في سماع العلم وسماع الذكر، ويقولون له: هذا تأخر، وهذا رجعية، وإن عملت به ستكون غريبًا بين الناس، وستكون مضحكة للناس، فدعك منه وكن مع الناس؛ لئلا يسخر منك أو يستهزئ بك أحد.

أو يقولون له: هذه أدلة سمعية لا تفيد العلم واليقين، وإنما تفيد الظن، فدع الظن إلى اليقين .. إلى آخر ما يقوله شياطين الجن والإنس.

وَإِذَا شِئْتَ أَنْ تَعْرِفَ ذَلِكَ فَانْظُرْ إِلَى إِخْوَانِهِمْ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ، كَيْفَ يُخْرِجُونَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فِي قَالَبِ كَثْرَةِ الْفُضُولِ، وَتَتَبُّعِ عَثَرَاتِ النَّاسِ، وَالتَّعَرُّضِ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ، وَإِلْقَاءِ الْفِتَنِ بَيْنَ النَّاسِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَيُخْرِجُونَ اتِّبَاعَ السُّنَّةِ وَوَصْفَ الرَّبِّ تَعَالَى بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَالَبِ التَّجْسِيمِ وَالتَّشْبِيهِ وَالتَّكْيِيفِ.

وَيُسَمُّونَ عُلُوَّ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَاسْتِوَاءَهُ عَلَى عَرْشِهِ، وَمُبَايَنَتَهُ لِمَخْلُوقَاتِهِ: تَحَيُّزًا، وَيُسَمُّونَ نُزُولَهُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، وَقَوْلَهُ: «مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ»[١]: تَحَرُّكًا وَانْتِقَالًا، وَيُسَمُّونَ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الْيَدِ وَالْوَجْهِ: أَعْضَاءَ وَجَوَارِحَ، وَيُسَمُّونَ مَا يَقُومُ بِهِ مِنْ أَفْعَالِهِ: حَوَادِثَ، وَمَا يَقُومُ مِنْ صِفَاتِهِ: أَعْرَاضًا.

ثُمَّ يَتَوَصَّلُونَ إِلَى نَفْيِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ بِهَذِهِ الْأُمُورِ.

الشرح:

شرع المصنف في بيان ما يلقي به شياطين الإنس في روع الناس حتى يردوهم عن الحق، فقال: (**يُخْرِجُونَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فِي قَالَبِ كَثْرَةِ الْفُضُولِ...**) **إلى آخره**، فيقولون: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تدخل في أمور الناس، وتتبع لعوراتهم، وحبس للحريات، ومصادرة للرأي الآخر.. إلى آخر ما يقولون.

وهذا مشاهد ومسموع بين الناس الآن، وموجود في كتاباتهم، يقولون: إن الناس أحرار، وكلٌّ له رأيه، وليس بلازم مصادرة رأي الناس، ولا تلزموا

(١) تقدم تخريجه (ص٣٦).

النساء بالحجاب لأن هذا حبس للحرية، ولا تلزموا الناس بالصلاة، ولا تلزموهم بكذا وكذا.. لأن هذا حبس للحريات ومصادرة للقول الآخر، وباب الحوار مفتوح.. إلى آخر ما يقولون.

وفي باب إثبات السماء والصفات يقولون: هذا يلزم منه التجسيم والتشبيه، أو يلزم منه حلول الحوادث بالله.. إلى آخره. فيأتون بهذه الشبهات؛ لأنهم إما أنهم مُلبسون يريدون التزوير، وإما أنهم جهلة لا يفرقون بين صفات الخالق وصفات المخلوق، ولا يميزون بين هذا وهذا، ولا يفهمون من صفات الله إلا ما هو في صفات المخلوقين. والحقيقة أنهم هم المُمثلة؛ لأنهم مثَّلوا أولًا، ثم عطَّلوا ثانيًا، وما عطَّلوا إلا لمَّا مثَّلوا.

ويقولون: إن إثبات العلو معناه إثبات الجهة لله، والله ليس في جهة، أو إثبات الحيِّز -وهو المكان- لله، والله مُنزَّه عن المكان.. إلى آخر ما يقولون من هذه الشبهات.

ويسمون النزول تحركًا، والله مُنزَّه عن الحركة، ما فهموا من النزول إلا نزول الآدمي، والله جَلَّ وَعَلَا ينزل كيف يشاء، فليس نزوله مثل نزول الآدميين، ولا نفسره بأنه حركة ولا غير حركة، بل نقول: ينزل كما يشاء وكيف يشاء تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ لأن الكيفية مجهولة لنا، فلا نقول: نزوله مثل نزول المخلوق من حركة وانتقال؛ لأن هذا تدخلٌ في ما لا نعلم.

ويسمون الصفات الذاتية أعضاء، والله مُنزّه عن الأعضاء والأبعاض والجوارح، فيقيسون صفات الله على صفات خلقه، تعالى الله عن ذلك.

ويُنزهون الله بزعمهم عن الأفعال، كالخلق، والرزق، والإحياء،

والإماتة، ويقولون: لأنها حوادث، والحوادث لا تحل إلا بجسم، والأجسام متشابهة.. وكل هذه الشبهات باطلة، زينها لهم شياطين الإنس والجن.

وينفون الصفات المعنوية، ويقولون: لأنها أعراض، والله منزه عن الأعراض، وينزهونه عن الحكمة، ويقولون: يفعل لا لحكمة؛ لأن الحكمة غرض، والله منزه عن الأغراض.. إلى آخر ما يموهون به على الناس، وما هذا إلا قولٌ على الله بغير علم.

والله جَلَّ وَعَلَا لا يُشبهه أحد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، في جميع أسمائه وصفاته، ولا يُقاس بخلقه سبحانه وتعالى.

النهاية: أنهم ينفون عن الله الأسماء والصفات بهذه الشبهات الشيطانية، ولو أنهم سلَّموا لله ولرسوله، وآمنوا بالله وقالوا: نثبت ما جاء عن الله ورسوله دون تدخل في تفسيره، ودون تدخل في تكييفه وقياسه على صفات خلقه؛ لكان خيرًا لهم وأسلم لهم. ولكنهم يأتون بهذه الشبهات ويقولون: هذا تنزيه لله! وهل تنزيه الله يكون بنفي أسمائه وصفاته؟!! هذا تنقص لله عَزَّوَجَلَّ وليس تنزيهًا، وإنما التنزيه في مثل قول الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، فإذا أردت أن تُنزه الله فقل ما قاله الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:١ - ٤]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، هذا هو التنزيه.

وَيُوهِمُونَ الْأَغْمَارَ وَضُعَفَاءَ الْبَصَائِرِ أَنَّ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ الَّتِي نَطَقَ بِهَا كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْتَلْزِمُ هَذِهِ الْأُمُورَ، وَيُخْرِجُونَ هَذَا التَّعْطِيلَ فِي قَالَبِ التَّنْزِيهِ وَالتَّعْظِيمِ.

وَأَكْثَرُ النَّاسِ ضُعَفَاءُ الْعُقُولِ يَقْبَلُونَ الشَّيْءَ بِلَفْظٍ وَيَرُدُّونَهُ بِعَيْنِهِ بِلَفْظٍ آخَرَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]، فَسَمَّاهُ زُخْرُفًا، وَهُوَ بَاطِلٌ؛ لِأَنَّ صَاحِبَهُ يُزَخْرِفُهُ وَيُزَيِّنُهُ مَا اسْتَطَاعَ، وَيُلْقِيهِ إِلَى سَمْعِ الْمَغْرُورِ فَيَغْتَرُّ بِهِ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ لَزِمَ ثَغْرَ الْأُذُنِ، أَنْ يُدْخِلَ فِيهَا مَا يَضُرُّ الْعَبْدَ وَلَا يَنْفَعُهُ، وَيَمْنَعَ أَنْ يَدْخُلَ إِلَيْهَا مَا يَنْفَعُهُ، وَإِنْ دَخَلَ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ أَفْسَدَهُ عَلَيْهِ.

الشرح:

يوهمون الجهال من الناس بهذه الشبهات الشيطانية، ويدَّعون (**أَنَّ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ الَّتِي نَطَقَ بِهَا كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْتَلْزِمُ هَذِهِ الْأُمُورَ**)، فنقول: حاشا وكلَّا لا تستلزم هذه الأمور؛ لأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا يُقاس بخلقه، ولا يُشبه أحدًا من خلقه.

وقوله: (**وَيُخْرِجُونَ هَذَا التَّعْطِيلَ فِي قَالَبِ التَّنْزِيهِ وَالتَّعْظِيمِ**)، هذا الذي غرروا به الناس أنهم يدَّعون التنزيه والتعظيم، وهو في الحقيقة تنقص وتشبيه؛ لأنهم ما عطَّلوا إلا بعد ما شبَّهوا ومثَّلوا، ولم يظهر لهم من أسماء الله وصفاته إلا ما يظهر في المخلوقين، وهذا هو التشبيه، فنقول: أنتم المُشبِّهة.

وأكثر الناس يقبلون هذا الباطل، ويروج عليهم هذا الشيء، ويقولون:

نعم هذا تنزيه، فيتابعون هؤلاء على هذا الباطل بحجة أنه تنزيه لله جَلَّوَعَلَا، ولم يعلموا أنه تنقص وتشبيه؛ لأنهم ما عطَّلوا إلا بعد ما شبَّهوا.

وحكمةٌ من الله جَلَّوَعَلَا أنه يجعل هؤلاء يعادون الرسل؛ ليتميز أهل الحق من أهل الباطل، فهم فتنة، خلقهم الله فتنة، وإلا فإن الله قادر على أن ينتقم منهم، وألا يُوجدهم، لكنه سبحانه له حكمة في هذا، ليتميز أهل الحق من أهل الباطل، وأهل الهدى من أهل الضلال، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ من هو هذا العدو؟ ﴿شَيَاطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني: يُلقي بعضهم إلى بعضٍ ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾، والزخرف: هو الشيء المزوق الذي ظاهره أنه حسن وباطنه قبيح، ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ لأجل أن يغروا من ينخدع بهم، ولا يسلم إلا من عارضهم ووقف في وجوههم.

فالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يرسل الرسل لهداية الخلق، ويجعل لهم أعداء؛ ليمتحن الناس، وليعلم من هو الذي يتبع الرسل، ومن الذي لا يتبع الرسل.

وهذا كله يؤكد أن على الإنسان أن يحفظ أذنه من سماع الباطل، وسماع الساقط من القول؛ لأنه يؤثر على قلبه، وليس هو كلام يمر ويذهب، بل له تأثير على القلب أشد من تأثير المرض على الجسم.

فَصْلٌ

ثُمَّ يَقُولُ: قُومُوا عَلَى ثَغْرِ اللِّسَانِ، فَإِنَّهُ الثَّغْرُ الْأَعْظَمُ، وَهُوَ قُبَالَةُ الْمَلِكِ، فَأَجْرُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَضُرُّهُ وَلَا يَنْفَعُهُ، وَامْنَعُوهُ أَنْ يَجْرِيَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يَنْفَعُهُ؛ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَاسْتِغْفَارِهِ، وَتِلَاوَةِ كِتَابِهِ، وَنَصِيحَةِ عِبَادِهِ، وَالتَّكَلُّمِ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ.

وَيَكُونُ لَكُمْ فِي هَذَا الثَّغْرِ أَمْرَانِ عَظِيمَانِ، لَا تُبَالُونَ بِأَيِّهِمَا ظَفِرْتُمْ:

أَحَدُهُمَا: التَّكَلُّمُ بِالْبَاطِلِ، فَإِنَّمَا الْمُتَكَلِّمُ بِالْبَاطِلِ أَخٌ مِنْ إِخْوَانِكُمْ، وَمِنْ أَكْبَرِ جُنْدِكِمْ وَأَعْوَانِكِمْ.

الثَّانِي: السُّكُوتُ عَنِ الْحَقِّ، فَإِنَّ السَّاكِتَ عَنِ الْحَقِّ أَخٌ لَكُمْ أَخْرَسُ، كَمَا أَنَّ الْأَوَّلَ أَخٌ نَاطِقٌ، وَرُبَّمَا كَانَ الْأَخُ الثَّانِي أَنْفَعَ أَخَوَيْكُمْ لَكُمْ، أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ النَّاصِحِ: الْمُتَكَلِّمُ بِالْبَاطِلِ شَيْطَانٌ نَاطِقٌ، وَالسَّاكِتُ عَنِ الْحَقِّ شَيْطَانٌ أَخْرَسُ؟

فَالرِّبَاطَ الرِّبَاطَ عَلَى هَذَا الثَّغْرِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِحَقٍّ أَوْ يُمْسِكَ عَنْ بَاطِلٍ، وَزَيِّنُوا لَهُ التَّكَلُّمَ بِالْبَاطِلِ بِكُلِّ طَرِيقٍ، وَخَوِّفُوهُ مِنَ التَّكَلُّمِ بِالْحَقِّ بِكُلِّ طَرِيقٍ.

وَاعْلَمُوا يَا بَنِيَّ أَنَّ ثَغْرَ اللِّسَانِ هُوَ الَّذِي أُهْلِكُ مِنْهُ بَنِي آدَمَ، وَأَكُبُّهُمْ مِنْهُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ[١].

فَكَمْ لِي مِنْ قَتِيلٍ وَأَسِيرٍ وَجَرِيحٍ أَخَذْتُهُ مِنْ هَذَا الثَّغْرِ؟

---

(١) كما في حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ -أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ- إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟**». أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٢١٤)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٥/ ٢٣١).

الشرح:

هذا الثغر الثالث: ثغر اللسان، وهذا إبليس ينصح جنده وأتباعه أن يشغلوا الإنسان بالكلام الباطل عن الكلام الحق؛ لأن الكلام الحق يحيي القلب، ويصفي القلب، ويُلقي فيه الخوف والخشية من الله.

فإذا أشغلوه بالباطل والكلام السيئ، تأثر به قلبه حتى يمرض، فإن نطق بالباطل فهو شيطانٌ ناطق، وإن سكت عن الحق فهو شيطان أخرس.

فيقول لهم: حاولوا أن يسكت ولا يتكلم بالحق، وإن كان لابد أن يتكلم اجعلوه يتكلم بالباطل، ولا يتكلم بالحق.

وهذا هو شغل الشياطين مع بني آدم، ولذلك تجد أكثر الناس يدعو إلى الباطل بأسماء مزيفة، فيتكلم ويكتب ودائمًا ما يصدر عنه إلا كلام باطل.

والكلام الباطل كثير، كالأغاني والملهيات، وأهل الباطل يسمونه فنًّا من الفنون، ويصير كل حياته مُغنيًّا ولا يذكر الله إلا قليلًا، أو لا يذكر الله أصلًا.

وكذلك الدعوى إلى الباطل، وتزيين الباطل للناس، وتلبيسه لباس الغرور بأنه تقدم وحضارة، وفهم وتنوير، وإذا رأوا فلانًا على طاعة وصلاح قالوا: ما هو إلا ببغاء يُردد ألفاظًا من القرآن أو من السنة، أو مقلدٌ لشيوخه، أو هو يحفظ فقط ولا يفهم ولا يُعمل عقله.. إلى آخر ما يدَّعون.

وَأُوصِيكُمْ بِوَصِيَّةٍ فَاحْفَظُوهَا: لِيَنْطِقْ أَحَدُكُمْ عَلَى لِسَانِ أَخِيهِ مِنَ الْإِنْسِ بِالْكَلِمَةِ، وَيَكُونُ الْآخَرُ عَلَى لِسَانِ السَّامِعِ، فَيَنْطِقُ بِاسْتِحْسَانِهَا وَتَعْظِيمِهَا وَالتَّعَجُّبِ مِنْهَا، وَيَطْلُبُ مِنْ أَخِيهِ إِعَادَتَهَا.

وَكُونُوا أَعْوَانًا عَلَى الْإِنْسِ بِكُلِّ طَرِيقٍ، وَادْخُلُوا عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ، وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ، أَمَا سَمِعْتُمْ قَسَمِي الَّذِي أَقْسَمْتُ بِهِ لِرَبِّهِمْ حَيْثُ قُلْتُ: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٦، ١٧].

أَوَمَا تَرَوْنِي قَدْ قَعَدْتُ لِابْنِ آدَمَ بِطُرُقِهِ كُلِّهَا، فَلَا يَفُوتُنِي مِنْ طَرِيقٍ إِلَّا قَعَدْتُ لَهُ بِطَرِيقٍ غَيْرِهِ، حَتَّى أُصِيبَ مِنْهُ حَاجَتِي أَوْ بَعْضَهَا؟ وَقَدْ حَذَّرَهُمْ ذَلِكَ رَسُولُهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِطُرُقِهِ كُلِّهَا، وَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ لَهُ: أَتُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ؟ فَخَالَفَهُ وَأَسْلَمَ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: أَتُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؟ فَخَالَفَهُ وَهَاجَرَ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: أَتُجَاهِدُ، فَتُقْتَلَ، فَيُقْسَمُ الْمَالُ وَتُنْكَحَ الزَّوْجَةُ؟»[1].

فَهَكَذَا فَاقْعُدُوا لَهُمْ بِكُلِّ طُرُقِ الْخَيْرِ، فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَتَصَدَّقَ فَاقْعُدُوا لَهُ عَلَى طَرِيقِ الصَّدَقَةِ، وَقُولُوا لَهُ فِي نَفْسِهِ: أَتُخْرِجُ الْمَالَ، فَتَبْقَى مِثْلَ هَذَا السَّائِلِ، وَتَصِيرَ بِمَنْزِلَتِهِ أَنْتَ وَهُوَ سَوَاءٌ؟ أَوَ مَا سَمِعْتُمْ مَا أَلْقَيْتُ عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ سَأَلَهُ آخَرُ أَنْ يَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، قَالَ: هِيَ أَمْوَالُنَا، إِنْ أَعْطَيْنَاكُمُوهَا صِرْنَا مِثْلَكُمْ.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٤٨٣)، والنسائي (٣١٣٤)، وابن حبان (١٠/٤٥٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/١٠٨) من حديث سبرة بن أبي فاكه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَاقْعُدُوا لَهُ بِطَرِيقِ الْحَجِّ، فَقُولُوا: طَرِيقُهُ مَخُوفَةٌ مُشِقَّةٌ، يَتَعَرَّضُ سَالِكُهَا لِتَلَفِ النَّفْسِ وَالْمَالِ. وَهَكَذَا فَاقْعُدُوا لَهُ عَلَى سَائِرِ طُرُقِ الْخَيْرِ بِالتَّنْفِيرِ عَنْهَا وَذِكْرِ صُعُوبَتِهَا وَآفَاتِهَا.

ثُمَّ اقْعُدُوا لَهُمْ عَلَى طُرُقِ الْمَعَاصِي فَحَسِّنُوهَا فِي أَعْيُنِ بَنِي آدَمَ، وَزَيِّنُوهَا فِي قُلُوبِهِمْ، وَاجْعَلُوا أَكْبَرَ أَعْوَانِكِمْ عَلَى ذَلِكَ النِّسَاءَ، فَمِنْ أَبْوَابِهِنَّ فَادْخُلُوا عَلَيْهِمْ، فَنِعْمَ الْعَوْنُ هُنَّ لَكُمْ. ثُمَّ الْزَمُوا ثَغْرَ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ، فَامْنَعُوهَا أَنْ تَبْطِشَ بِمَا يَضُرُّكُمْ وَتَمْشِي فِيهِ.

الشرح:

قوله تعالى عن الشيطان: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾، يدل على أن الشيطان جبري، حيث قال: ﴿أَغۡوَيۡتَنِي﴾، ولم يقل: (غويت)، لم ينسب الفعل إلى نفسه، وإنما نسبه إلى الله جَلَّوَعَلَا، وهذا مذهب الجبرية.

وقوله: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، هذا الذي يتعهد به انتقامًا من بني آدم؛ لأن الله فضَّل آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فحسده إبليس وأبى أن يسجد له، فلما حصلت عليه اللعنة والعقوبة تعهد أنه يهلك بني آدم انتقامًا لنفسه. ثم قال: ﴿لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾، ولم يقل: (من فوقهم)؛ لأنه لا يقدر أن يمنع نزول الخير من الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: (**هِيَ أَمْوَالُنَا إِذَا أَعْطَيْنَاكُمُوهَا صِرْنَا مِثْلَكُمْ**)؛ لأنه لا يثق بأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سيُخلف له ما أنفق، ويعطيه أكثر مما تصدق؛ فأمثال هذا لا يعلمون أن المنفق يُنفق عليه، وينسون أن الله جَلَّوَعَلَا يرزقهم ويُعطيهم أكثر مما أنفقوا، ويظنون أنهم إذا أنفقوا فلن يأتي محل ما أنفقوه شيء، فيصيرون فقراء.

وهـذا مـن سـوء الظـن بـالله عَزَّوَجَلَّ، وإلا فالإنفـاق سـبب للـرزق، وفي الحديث: «**قَالَ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: **يَا ابْنَ آدَمَ، أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ**»[1].

وقولـه: (**وَاقْعُدُوا لَـهُ بِطَرِيقِ الْحَجِّ، فَقُولُـوا: طَرِيقُهُ مُخُوفَةٌ مُشِقَّةٌ**)، نعـم شياطين الإنس والجن يأتون على كل طريق فينفرون منه بأن فيه كذا وفيه كذا، فإذا أراد الحج قالوا له: أنت بعافية، لماذا تحج؟ اقعد بدارك، أو عندك المسجد وصلي، والحج فيه خطر وفيه سفر ومشقة، وفيه وفيه. وهكذا يقعدوا له (**عَلَى سَائِرِ طُرُقِ الْخَيْرِ بِالتَّنْفِيرِ**)، فيقولـون: روِّح على نفسك ولا تـضيق عليهـا، لا تصير متشددًا.. إلى آخر ما تقوله شياطين الإنس والجن.

وأعظـم سلاح للشيطان: النساء وزينتهن، ولـذلك يجتهـد الآن شـياطين الإنس والجن في إبرازهن، ويدافعون عنهن بزعمهم، وأنهن مظلومات، وأنهن مكبوتـات، وأنهـن مـا لهـن مـشاركة في الـسياسة، ولا لهـن مـشاركة في الأعـمال، وأنهن معطلات .. ونحو ذلك. يريدون أن يصيدوا بني آدم بهذا السلاح، أن تـترك المـرأة أنوثتهـا وتخرج كأنهـا رجـل، وتـسافر وتخـالط الرجـال، فتحـصل الفتنـة؛ لأن المـرأة فتنـة، والـشهوة مركبـة في الإنـسان، والـشيطان يتخـذ المـرأة سلاحًا فتَّاكًا في المجتمعات، وما هلكت الأمم إلا بسبب النساء إذا تُركت.

وقوله: (**ثُمَّ الْزَمُوا ثَغْرَ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ**)، فامنعوا ابن آدم من أنه يتحرك في الخير، أو يمشي إلى الخير.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ أَكْبَرَ عَوْنِكُمْ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ الثُّغُورِ مُصَالَحَةُ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ، فَأَعِينُوهَا وَاسْتَعِينُوا بِهَا، وَأَمِدُّوهَا وَاسْتَمِدُّوا مِنْهَا، وَكُونُوا مَعَهَا عَلَى حَرْبِ النَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّةِ، فَاجْتَهِدُوا فِي كَسْرِهَا وَإِبْطَالِ قُوَاهَا، وَلَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا بِقَطْعِ مَوَادِّهَا عَنْهَا، فَإِذَا انْقَطَعَتْ مَوَادُّهَا وَقَوِيَتْ مَوَادُّ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ، وَأَطَاعَتْ لَكُمْ أَعْوَانُهَا، فَاسْتَنْزِلُوا الْقَلْبَ مِنْ حِصْنِهِ، وَاعْزِلُوهُ عَنْ مَمْلَكَتِهِ، وَوَلُّوا مَكَانَهُ النَّفْسَ، فَإِنَّهَا لَا تَأْمُرُ إِلَّا بِمَا تَهْوَوْنَهُ وَتُحِبُّونَهُ، وَلَا تَجِيئُكُمْ بِمَا تَكْرَهُونَهُ أَلْبَتَّةَ، مَعَ أَنَّهَا لَا تُخَالِفُكُمْ فِي شَيْءٍ تُشِيرُونَ بِهِ عَلَيْهَا، بَلْ إِذَا أَشَرْتُمْ عَلَيْهَا بِشَيْءٍ بَادَرَتْ إِلَى فِعْلِهِ.

فَإِنْ أَحْسَسْتُمْ مِنَ الْقَلْبِ مُنَازَعَةً إِلَى مَمْلَكَتِهِ، وَأَرَدْتُمُ الْأَمْنَ مِنْ ذَلِكَ، فَاعْقِدُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّفْسِ عَقْدَ النِّكَاحِ، فَزَيِّنُوهَا وَجَمِّلُوهَا، وَأَرُوهَا إِيَّاهُ فِي أَحْسَنِ صُورَةِ عَرُوسٍ تُوجَدُ، وَقُولُوا لَهُ: ذُقْ طَعْمَ هَذَا الْوِصَالِ وَالتَّمَتُّعِ بِهَذِهِ الْعَرُوسِ، كَمَا ذُقْتَ طَعْمَ الْحَرْبِ، وَبَاشَرْتَ مَرَارَةَ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ، ثُمَّ وَازِنْ بَيْنَ لَذَّةِ هَذِهِ الْمُسَالَمَةِ، وَمَرَارَةِ تِلْكَ الْمُحَارَبَةِ، فَدَعِ الْحَرْبَ تَضَعُ أَوْزَارَهَا، فَلَيْسَتْ بِيَوْمٍ وَيَنْقَضِي، وَإِنَّمَا هُوَ حَرْبٌ مُتَّصِلٌ بِالْمَوْتِ، وَقُوَاكَ تَضْعُفُ عَنْ حَرْبٍ دَائِمٍ.

وَاسْتَعِينُوا يَا بَنِيَّ بِجُنْدَيْنِ عَظِيمَيْنِ لَنْ تُغْلَبُوا مَعَهُمَا:

أَحَدُهُمَا: جُنْدُ الْغَفْلَةِ، فَأَغْفِلُوا قُلُوبَ بَنِي آدَمَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَالدَّارِ الْآخِرَةِ بِكُلِّ طَرِيقٍ، فَلَيْسَ لَكُمْ شَيْءٌ أَبْلَغَ فِي تَحْصِيلِ غَرَضِكُمْ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا غَفَلَ عَنِ اللَّهِ تَمَكَّنْتُمْ مِنْهُ وَمِنْ أَعْوَانِهِ.

الثَّانِي: جُنْدُ الشَّهَوَاتِ، فَزَيِّنُوهَا فِي قُلُوبِهِمْ، وَحَسِّنُوهَا فِي أَعْيُنِهِمْ.

وَصُولُوا عَلَيْهِمْ بِهَذَيْنِ الْعَسْكَرَيْنِ، فَلَيْسَ لَكُمْ فِي بَنِي آدَمَ أَبْلَغُ مِنْهُمَا،

وَاسْتَعِينُوا عَلَى الْغَفْلَةِ بِالشَّهَوَاتِ، وَعَلَى الشَّهَوَاتِ بِالْغَفْلَةِ، وَاقْرِنُوا بَيْنَ الْغَافِلِينَ، ثُمَّ اسْتَعِينُوا بِهِمَا عَلَى الذَّاكِرِ، وَلَا يَغْلِبُ وَاحِدٌ خَمْسَةً، فَإِنَّ مَعَ الْغَافِلَيْنِ شَيْطَانَيْنِ صَارُوا أَرْبَعَةً، وَشَيْطَانُ الذَّاكِرِ مَعَهُمْ.

وَإِذَا رَأَيْتُمْ جَمَاعَةً مُجْتَمِعِينَ عَلَى مَا يَضُرُّكُمْ -مِنْ ذِكْرِ اللهِ وَمُذَاكَرَةِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَدِينِهِ- وَلَمْ تَقْدِرُوا عَلَى تَفْرِيقِهِمْ، فَاسْتَعِينُوا عَلَيْهِمْ بِبَنِي جِنْسِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ الْبَطَّالِينَ، فَقَرِّبُوهُمْ مِنْهُمْ، وَشَوِّشُوا عَلَيْهِمْ بِهِمْ.

وَبِالْجُمْلَةِ فَأَعِدُّوا لِلْأُمُورِ أَقْرَانَهَا، وَادْخُلُوا عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ بَابِ إِرَادَتِهِ وَشَهْوَتِهِ، فَسَاعِدُوهُ عَلَيْهَا، وَكُونُوا عَوْنًا لَهُ عَلَى تَحْصِيلِهَا، وَإِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ أَمَرَهُمْ أَنْ يَصْبِرُوا لَكُمْ وَيُصَابِرُوكُمْ وَيُرَابِطُوا عَلَيْكُمُ الثُّغُورَ، فَاصْبِرُوا أَنْتُمْ وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا عَلَيْهِمُ الثُّغُورَ، وَانْتَهِزُوا فُرَصَكُمْ فِيهِمْ عِنْدَ الشَّهْوَةِ وَالْغَضَبِ، فَلَا تَصْطَادُون بَنِي آدَمَ فِي أَعْظَمَ مِنْ هَذَيْنِ الْمَوْطِنَيْنِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ سُلْطَانُ الشَّهْوَةِ عَلَيْهِ أَغْلَبَ، وَسُلْطَانُ غَضَبِهِ ضَعِيفٌ مَقْهُورٌ، فَخُذُوا عَلَيْهِ طَرِيقَ الشَّهْوَةِ، وَدَعُوا طَرِيقَ الْغَضَبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ سُلْطَانُ الْغَضَبِ عَلَيْهِ أَغْلَبَ، فَلَا تُخْلُوا طَرِيقَ الشَّهْوَةِ عَلَيْهِ، وَلَا تُعَطِّلُوا ثَغْرَهَا، فَإِنْ لَمْ يَمْلِكْ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ، فَإِنَّهُ الْحَرِيُّ أَنْ لَا يَمْلِكَ نَفْسَهُ عِنْدَ الشَّهْوَةِ، فَزَوِّجُوا بَيْنَ غَضَبِهِ وَشَهْوَتِهِ، وَامْزِجُوا أَحَدَهُمَا بِالْآخَرِ، وَادْعُوهُ إِلَى الشَّهْوَةِ مِنْ بَابِ الْغَضَبِ، وَإِلَى الْغَضَبِ مِنْ طَرِيقِ الشَّهْوَةِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لَكُمْ فِي بَنِي آدَمَ سِلَاحٌ أَبْلَغُ مِنْ هَذَيْنِ السِّلَاحَيْنِ، وَإِنَّمَا أَخْرَجْتُ أَبَوَيْهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ بِالشَّهْوَةِ، وَإِنَّمَا أَلْقَيْتُ الْعَدَاوَةَ بَيْنَ أَوْلَادِهِمْ بِالْغَضَبِ، فَبِهِ قَطَّعْتُ أَرْحَامَهُمْ، وَسَفَكْتُ دِمَاءَهُمْ، وَبِهِ قَتَلَ أَحَدُ ابْنَيْ آدَمَ أَخَاهُ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، وَالشَّهْوَةَ نَارٌ تَثُورُ مِنْ قَلْبِهِ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ وَالصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ وَالتَّكْبِيرِ، فَإِيَّاكُمْ أَنْ تُمَكِّنُوا ابْنَ آدَمَ عِنْدَ غَضَبِهِ وَشَهْوَتِهِ مِنْ قُرْبَانِ الْوُضُوءِ وَالصَّلَاةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطْفِئُ عَنْهُمْ نَارَ الْغَضَبِ وَالشَّهْوَةِ، وَقَدْ أَمَرَهُمْ نَبِيُّهُمْ بِذَلِكَ فَقَالَ: «إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، أَمَا رَأَيْتُمْ مِنِ احْمِرَارِ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ، فَمَنْ أَحَسَّ بِذَلِكَ فَلْيَتَوَضَّأْ»(١). وَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ»(٢).

وَقَدْ أَوْصَاهُمُ اللَّهُ أَنْ يَسْتَعِينُوا عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، فَحُولُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَأَنْسُوهُمْ إِيَّاهُ، وَاسْتَعِينُوا عَلَيْهِمْ بِالشَّهْوَةِ وَالْغَضَبِ، وَأَبْلَغُ أَسْلِحَتِكُمْ فِيهِمْ وَأَنْكَاهَا: الْغَفْلَةُ وَاتِّبَاعُ الْهَوَى. وَأَعْظَمُ أَسْلِحَتِهِمْ فِيكُمْ وَأَمْنَعُ حُصُونِهِمْ ذِكْرُ اللَّهِ وَمُخَالَفَةُ الْهَوَى، فَإِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ مُخَالِفًا لِهَوَاهُ فَاهْرَبُوا مِنْ ظِلِّهِ وَلَا تَدْنُوا مِنْهُ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الذُّنُوبَ وَالْمَعَاصِيَ سِلَاحٌ وَمَدَدٌ؛ يَمُدُّ بِهَا الْعَبْدُ أَعْدَاءَهُ، وَيُعِينُهُمْ بِهَا عَلَى نَفْسِهِ، فَيُقَاتِلُونَ بِسِلَاحِهِ، وَيَكُونُ مَعَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ، وَهَذَا غَايَةُ الْجَهْلِ.

مَا يَبْلُغُ الْأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ مَا يَبْلُغُ الْجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ

وَمِنَ الْعَجَائِبِ: أَنَّ الْعَبْدَ يَسْعَى بِجُهْدِهِ فِي هَوَانِ نَفْسِهِ، وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَهَا مُكْرِمٌ، وَيَجْتَهِدُ فِي حِرْمَانِهَا أَعْلَى حُظُوظِهَا وَأَشْرَفَهَا، وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَسْعَى فِي

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٩١)، وابن ماجه (٤٠٠٠)، وأحمد (١٩/٣)، والحاكم (٤/٥٥١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٤/٢٢٦)، وأبو داود (٤٧٨٤) من حديث عطية بن سعد السعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حَظِّهَا، وَيَبْذُلُ جُهْدَهُ فِي تَحْقِيرِهَا وَتَصْغِيرِهَا وَتَدْسِيَتِهَا، وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُعْلِيهَا وَيَرْفَعُهَا وَيُكَبِّرُهَا.

وَكَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: «أَلَا رُبَّ مُهِينٍ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَهَا مُكْرِمٌ، وَمُذِلٌّ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَهَا مُعِزٌّ، وَمُصَغِّرٌ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَهَا مُكَبِّرٌ، وَمُضِيعٌ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ مُرَاعٍ لِحَقِّهَا»(١). وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَنْ يَكُونَ مَعَ عَدُوِّهِ عَلَى نَفْسِهِ، يَبْلُغُ مِنْهَا بِفِعْلِهِ مَا لَا يَبْلُغُهُ عَدُوُّهُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

الشرح:

قوله: **(وَاعْلَمُوا أَنَّ أَكْبَرَ أَعْوَانِكُمْ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ الثُّغُورِ مُصَالَحَةُ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ)**، النفس الأمارة بالسوء هذه أكبر أعوان الشيطان، وهي عدو للإنسان؛ فإذا لم ينتبه لنفسه ويمسكها ويُلزمها بطاعة الله أهلكته بهواها وشهواتها.

وأغلب نفوس بني آدم أمارة بالسوء، وهناك نفسٌ لوامة لا تزال تلوم صاحبها بعدما يقع في المعصية، حتى يتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ففرق بينها وبين

---

(١) لم أقف عليه مسندًا.

وأخرج ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥/ ١٦٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٥٧) عَنْ أَبِي الْبُجَيْرِ -وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: أَصَابَ يَوْمًا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْجُوعُ، فَوَضَعَ عَلَى بَطْنِهِ حَجَرًا، ثُمَّ قَالَ: **«أَلَا يَا رُبَّ نَفْسٍ طَاعِمَةٌ نَاعِمَةٌ فِي الدُّنْيَا جَائِعَةٌ عَارِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلَا يَا رُبَّ نَفْسٍ جَائِعَةٌ عَارِيَةٌ فِي الدُّنْيَا طَاعِمَةٌ نَاعِمَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلَا يَا رُبَّ مُكْرِمٍ لِنَفْسِهِ وَهُوَ لَهَا مُهِينٌ، أَلَا يَا رُبَّ مُهِينٍ لِنَفْسِهِ وَهُوَ لَهَا مُكْرِمٌ، أَلَا يَا رُبَّ مُتَخَوِّضٍ وُمَتَنَعِّمٍ فِيمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ، مَا لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ»**.

الأمارة بالسوء التي كل ما وقع صاحبها في معصية تقول له: زِد، وتأمره بالسوء. ثم أعلى من النفس اللوامة: النفس المطمئنة.

وقوله: (**فَإِنْ أَحْسَسْتُمْ مِنَ الْقَلْبِ مُنَازَعَةً إِلَى مَمْلَكَتِهِ، وَأَرَدْتُمُ الْأَمْنَ مِنْ ذَلِكَ، فَاعْقِدُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّفْسِ عَقْدَ النِّكَاحِ، فَزَيِّنُوهَا وَجَمِّلُوهَا**)، ولذلك النفس أخطر شيء على الإنسان؛ لأنها عدو داخلي لا يشعر به الإنسان، ولهذا يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نَعُوذُ بِاللَّه مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا**»[1].

فإذا وُقي الإنسان شر نفسه فإنه قد سلِم من كثير من الشرور.

وقوله: (**فَدَعِ الْحَرْبَ تَضَعُ أَوْزَارَهَا، فَلَيْسَتْ بِيَوْمٍ وَيَنْقَضِي، وَإِنَّمَا هُوَ حَرْبٌ مُتَّصِلٌ بِالْمَوْتِ، وَقُوَاكَ تَضْعُفُ عَنْ حَرْبٍ دَائِمٍ**)، أي: يزين له الراحة، ويقول له: لا تكلف نفسك، ولا تشق على نفسك .. إلى آخره.

---

(١) هذا جزء من خطبة الحاجة التي كان يقولها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين يدي حاجته، أخرجها مسلم مختصرة من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٨٦٧)، ومن حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (٨٦٨)، ووردت مطولة ومختصرة من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند أبي داود (١٠٩٧)، والترمذي (١١٠٥)، والنسائي (١٤٠٤)، وابن ماجه (١٨٩٢)، وأحمد (١/ ٣٩٢، ٣٩٣)، ولشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ شرح لها في جزء لطيف.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تُنْسِي الْعَبْدَ نَفْسَهُ، وَإِذَا نَسِيَ نَفْسَهُ أَهْمَلَهَا وَأَفْسَدَهَا وَأَهْلَكَهَا.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَنْسَى الْعَبْدُ نَفْسَهُ؟ وَإِذَا نَسِيَ نَفْسَهُ فَأَيُّ شَيْءٍ يَذْكُرُ؟ وَمَا مَعْنَى نِسْيَانِهِ نَفْسَهُ؟

قِيلَ: نَعَمْ يَنْسَى نَفْسَهُ أَعْظَمَ نِسْيَانٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [الحشر:١٩].

فَلَمَّا نَسُوا رَبَّهُمْ سُبْحَانَهُ نَسِيَهُمْ وَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ، كَمَا قَالَ: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، فَعَاقَبَ سُبْحَانَهُ مَنْ نَسِيَهُ عُقُوبَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ نَسِيَهُ. وَالثَّانِيَةُ: أَنَّهُ أَنْسَاهُ نَفْسَهُ.

وَنِسْيَانُهُ سُبْحَانَهُ لِلْعَبْدِ: إِهْمَالُهُ، وَتَرْكُهُ، وَتَخَلِّيهِ عَنْهُ، وَإِضَاعَتُهُ، فَالْهَلَاكُ أَدْنَى إِلَيْهِ مِنَ الْيَدِ لِلْفَمِ! وَأَمَّا إِنْسَاؤُهُ نَفْسَهُ، فَهُوَ: إِنْسَاؤُهُ لِحُظُوظِهَا الْعَالِيَةِ، وَأَسْبَابِ سَعَادَتِهَا وَفَلَاحِهَا وَإِصْلَاحِهَا، وَمَا تَكْمُلُ بِهِ، يُنْسِيهِ ذَلِكَ جَمِيعَهُ، فَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ، وَلَا يَجْعَلُهُ عَلَى ذِكْرِهِ، وَلَا يَصْرِفُ إِلَيْهِ هِمَّتَهُ فَيَرْغَبُ فِيهِ، فَإِنَّهُ لَا يَمُرُّ بِبَالِهِ حَتَّى يَقْصِدَهُ وَيُؤْثِرَهُ.

وَأَيْضًا فَيُنْسِيهِ عُيُوبَ نَفْسِهِ وَنَقْصَهَا وَآفَاتِهَا، فَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ إِزَالَتُهَا وَإِصْلَاحُهَا. وَأَيْضًا يُنْسِيهِ أَمْرَاضَ نَفْسِهِ وَقَلْبِهِ وَآلَامَهَا، فَلَا يَخْطُرُ بِقَلْبِهِ مُدَاوَاتُهَا، وَلَا السَّعْيُ فِي إِزَالَةِ عِلَلِهَا وَأَمْرَاضِهَا الَّتِي تَؤُولُ بِهِ إِلَى الْفَسَادِ وَالْهَلَاكِ، فَهُوَ مَرِيضٌ مُثْخَنٌ بِالْمَرَضِ، وَمَرَضُهُ مُتَرَامٍ بِهِ إِلَى التَّلَفِ، وَلَا يَشْعُرُ بِمَرَضِهِ، وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ مُدَاوَاتُهُ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعُقُوبَةِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ.

فَأَيُّ عُقُوبَةٍ أَعْظَمُ مِنْ عُقُوبَةِ مَنْ أَهْمَلَ نَفْسَهُ وَضَيَّعَهَا، وَنَسِيَ مَصَالِحَهَا، وَدَاءَهَا وَدَوَاءَهَا، وَأَسْبَابَ سَعَادَتِهَا وَفَلَاحِهَا وَصَلَاحِهَا وَحَيَاتِهَا الْأَبَدِيَّةِ فِي النَّعِيمِ الْمُقِيمِ؟!

الشرح:

ومن عقوبات المعاصي: أنها تُنسي العبد نفسه، فإذا نسي نفسه أهلكها ولم يأخذ بزمام ما يضرها، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠]، فقوله: ﴿زَكَّىٰهَا﴾ أي: بالطاعات، وقوله: ﴿دَسَّىٰهَا﴾ أي: دسها في التراب، وأهانها بالمعاصي.

والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ يعني: عصوا الله، وتركوا طاعته ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ هذه هي عقوبتهم، أنهم لما نسوا الله أنساهم أنفسهم، فالجزاء من جنس العمل، ولو أنهم ذكروا الله لذكَّرهم أنفسهم، فلما نسوا ذكره وطاعته نسيهم، وليس معنى ذلك: أنه ذهل عنهم سبحانه وغفل عنهم، فإن الله جَلَّ وَعَلَا لا يغفل ولا ينسى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُنزَّهٌ عن النسيان الذي هو الذهول وعدم تذكر الشيء، كما يحصل لبني آدم، هذا الله منزّهٌ عنه، وإنما معنى ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أنه تركهم ولم يعبأ بهم، كما في قوله تعالى: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ [السجدة:١٤]، أي: تركناكم وأهملناكم، وليس معناه أنه نسيهم بمعنى الذهول الذي يصيب الإنسان.

وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا الْمَوْضِعَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ أَكْثَرَ هَذَا الْخَلْقِ قَدْ نَسُوا حَقِيقَةَ أَنْفُسِهِمْ، وَضَيَّعُوهَا وَأَضَاعُوا حَظَّهَا مِنَ اللَّهِ، وَبَاعُوهَا رَخِيصَةً بِثَمَنٍ بَخْسٍ بَيْعَ الْغَبْنِ، وَإِنَّمَا يَظْهَرُ لَهُمْ هَذَا عِنْدَ الْمَوْتِ، وَيَظْهَرُ كُلَّ الظُّهُورِ يَوْمَ التَّغَابُنِ، يَوْمَ يَظْهَرُ لِلْعَبْدِ أَنَّهُ غُبِنَ فِي الْعَقْدِ الَّذِي عَقَدَهُ لِنَفْسِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَالتِّجَارَةِ الَّتِي اتَّجَرَ فِيهَا لِمَعَادِهِ، فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَتَّجِرُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِآخِرَتِهِ.

فَالْخَاسِرُونَ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ أَهْلُ الرِّبْحِ وَالْكَسْبِ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَحَظَّهُمْ فِيهَا وَلَذَّاتِهِمْ، بِالْآخِرَةِ وَحَظِّهِمْ فِيهَا، فَأَذْهَبُوا طَيِّبَاتِهِمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا، وَاسْتَمْتَعُوا بِهَا، وَرَضُوا بِهَا، وَاطْمَأَنُّوا إِلَيْهَا، وَكَانَ سَعْيُهُمْ لِتَحْصِيلِهَا، فَبَاعُوا وَاشْتَرَوْا وَاتَّجَرُوا، وَبَاعُوا آجِلًا بِعَاجِلٍ، وَنَسِيئَةً بِنَقْدٍ، وَغَائِبًا بِنَاجِزٍ، وَقَالُوا: هَذَا هُوَ الْحَزْمُ، وَيَقُولُ أَحَدُهُمْ: خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ بِهِ[1].

وَكَيْفَ أَبِيعُ حَاضِرًا نَقْدًا مُشَاهَدًا فِي هَذِهِ الدَّارِ بِغَائِبٍ نَسِيئَةً فِي دَارٍ أُخْرَى غَيْرِ هَذِهِ؟ وَيَنْضَمُّ إِلَى ذَلِكَ ضَعْفُ الْإِيمَانِ وَقُوَّةُ دَاعِي الشَّهْوَةِ، وَمَحَبَّةُ الْعَاجِلَةِ وَالتَّشَبُّهُ بِبَنِي الْجِنْسِ.

فَأَكْثَرُ الْخَلْقِ فِي هَذِهِ التِّجَارَةِ الْخَاسِرَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي أَهْلِهَا: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:٨٦]، وَقَالَ فِيهِمْ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٦]، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ظَهَرَ لَهُمُ الْغَبْنُ فِي هَذِهِ التِّجَارَةِ، فَتَتَقَطَّعُ عَلَيْهِمُ النُّفُوسُ حَسَرَاتٍ.

---

(١) صدر بيت للمتنبي، يُنظر: ديوانه (٣٣٨)، وتمام البيت:

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ بِهِ ... فِي طَلْعَةِ البَدْرِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ

وَأَمَّا الرَّابِحُونَ فَإِنَّهُمْ بَاعُوا فَانِيًا بِبَاقٍ، وَخَسِيسًا بِنَفِيسٍ، وَحَقِيرًا بِعَظِيمٍ، وَقَالُوا: مَا مِقْدَارُ هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، حَتَّى نَبِيعَ حَظَّنَا مِنَ اللهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ بِهَا؟ فَكَيْفَ بِمَا يَنَالُ الْعَبْدُ مِنْهَا فِي هَذَا الزَّمَنِ الْقَصِيرِ الَّذِي هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَغَفْوَةِ حُلْمٍ، لَا نِسْبَةَ لَهُ إِلَى دَّارِ الْقَرَارِ أَلْبَتَّةَ؟.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس:٤٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٢ - ٤٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ﴾ [الأحقاف:٣٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝١١٢ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ۝١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون:١١٢ - ١١٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝١٠٢ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝١٠٣ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه:١٠٢ - ١٠٤].

فَهَذَا حَقِيقَةُ الدُّنْيَا عِنْدَ مُوَافَاةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. فَلَمَّا عَلِمُوا قِلَّةَ لُبْثِهِمْ فِيهَا، وَأَنَّ لَهُمْ دَارًا غَيْرَ هَذِهِ الدَّارِ، هِيَ دَارُ الْحَيَوَانِ وَدَارُ الْبَقَاءِ؛ رَأَوْا مِنْ أَعْظَمِ الْغَبْنِ بَيْعَ دَارِ الْبَقَاءِ بِدَارِ الْفَنَاءِ، فَاتَّجَرُوا تِجَارَةَ الْأَكْيَاسِ، وَلَمْ يَغْتَرُّوا بِتِجَارَةِ السُّفَهَاءِ مِنَ النَّاسِ، فَظَهَرَ لَهُمْ يَوْمَ التَّغَابُنِ رِبْحُ تِجَارَتِهِمْ وَمِقْدَارُ مَا اشْتَرَوْهُ. وَكُلُّ أَحَدٍ فِي هَذِهِ

الدُّنْيَا بَائِعٌ مُشْتَرٍ مُتَّجِرٌ، وَكُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوْبِقُهَا، أَوْ مُبْتَاعُهَا فَمُعْتِقُهَا(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

فَهَذَا أَوَّلُ نَقْدِهِ مِنْ ثَمَنِ هَذِهِ التِّجَارَةِ، فَتَاجِرُوا أَيُّهَا الْمُفْلِسُونَ! وَيَا مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى هَذَا الثَّمَنِ، هَاهُنَا ثَمَنٌ آخَرُ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ التِّجَارَةِ فَأَعْطِ هَذَا الثَّمَنَ: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠، ١١].

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الذُّنُوبَ تُنْسِي الْعَبْدَ حَظَّهُ مِنْ هَذِهِ التِّجَارَةِ الرَّابِحَةِ، وَتَشْغَلُهُ بِالتِّجَارَةِ الْخَاسِرَةِ، وَكَفَى بِذَلِكَ عُقُوبَةً، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

الشرح:

التجارة تجارتان: تجارة دنيوية في البيع والشراء وطلب المال، وهذا لا

---

(١) كما في حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه مسلم (٢٢٣).

بأس به، الله أمر به، ولكن بشرط: ألا يشغل عن التجارة الحقيقية وهي: التقوى، وطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾، هذه هي التجارة.

فإذا كان الإنسان يتجر في الدنيا ويتجر للآخرة وجمع بين التجارتين، فهذا شيء طيب، أما إذا أخذ تجارة الدنيا فقط ونسي تجارة الآخرة، فهذا في خسارة ولو اجتمعت له الدنيا كلها ولم يبق منها شيء لغيره، وتكونت عنده الأموال الضخمة والأرصدة الكبيرة، فما دام أنه مُضيع لتجارة الآخرة فهو خاسر، وأما إذا يسر الله له وتاجر في الدنيا في حدود المباح وتاجر للآخرة، فهذا هو الرابح بإذن الله.

وقوله: (**فَكَيْفَ أَبِيعُ حَاضِرًا نَقْدًا مُشَاهَدًا فِي هَذِهِ الدَّارِ بِغَائِبٍ نَسِيئَةً فِي دَارٍ أُخْرَى غَيْرِ هَذِهِ؟**)، إذا قامت القيامة كأن الدنيا لحظة أو ساعة من أولها إلى آخرها، والناس الآن يستبعدونها، ويقول أحدهم: متى هذا؟ إنه بعيد، وهل أترك شيئًا حاضرًا بشيءٍ بعيد؟! فيأخذ العاجل ويترك الآخرة.

وأما الموفق فإنه ينظر إلى الآجل ويعلم أنه خيرٌ من العاجل، فيشتغل له، وهذا هو الذي يربح عند قيام الساعة.

وأما معرفة وقت قيام الساعة فهذا ليس للإنسان فيه مصلحة، ولو كان له مصلحة لبينه الله عَزَّوَجَلَّ، إنما المصلحة في العمل.

وقوله: (**هِيَ دَارُ الْحَيَوَانِ**)، يعني: الحياة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت:٦٤]، أي: الحياة الكاملة.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تُزِيلُ النِّعَمَ الْحَاضِرَةَ، وَتَقْطَعُ النِّعَمَ الْوَاصِلَةَ، فَتُزِيلُ الْحَاصِلَ، وَتَمْنَعُ الْوَاصِلَ. فَإِنَّ نِعَمَ اللَّهِ مَا حُفِظَ مَوْجُودُهَا بِمِثْلِ طَاعَتِهِ، وَلَا اسْتُجْلِبَ مَفْقُودُهَا بِمِثْلِ طَاعَتِهِ، فَإِنَّ مَا عِنْدَهُ لَا يُنَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ.

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا وَآفَةً؛ سَبَبًا يَجْلِبُهُ، وَآفَةً تُبْطِلُهُ، فَجَعَلَ أَسْبَابَ نِعَمِهِ الْجَالِبَةِ لَهَا طَاعَتَهُ، وَآفَاتِهَا الْمَانِعَةَ مِنْهَا مَعْصِيَتَهُ، فَإِذَا أَرَادَ حِفْظَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ أَلْهَمَهُ رِعَايَتَهَا بِطَاعَتِهِ فِيهَا، وَإِذَا أَرَادَ زَوَالَهَا عَنْهُ خَذَلَهُ حَتَّى عَصَاهُ بِهَا.

وَمِنَ الْعَجَبِ عِلْمُ الْعَبْدِ بِذَلِكَ مُشَاهَدَةً فِي نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ، وَسَمَاعًا لِمَا غَابَ عَنْهُ مِنْ أَخْبَارِ مَنْ أُزِيلَتْ نِعَمُ اللَّهِ عَنْهُمْ بِمَعَاصِيهِ، وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ، كَأَنَّهُ مُسْتَثْنًى مِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ، أَوْ مَخْصُوصٌ مِنْ هَذَا الْعُمُومِ، وَكَأَنَّ هَذَا أَمْرٌ جَارٍ عَلَى النَّاسِ لَا عَلَيْهِ، وَوَاصِلٌ إِلَى الْخَلْقِ لَا إِلَيْهِ!

فَأَيُّ جَهْلٍ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا؟ وَأَيُّ ظُلْمٍ لِلنَّفْسِ فَوْقَ هَذَا؟

فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ.

الشرح:

من عقوبات المعاصي: أنها تزيل النعم الحاضرة، وتمنع حصول النعم القادمة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال جلَّ وَعَلَا: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ [الروم: ٤١].

فما يحصل من نقص في الأرزاق، أو انحباسٍ للأمطار، أو غلاءٍ للأسعار إلا بسبب الذنوب والمعاصي: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦]، فالمعاصي لها عقوبات عاجلة وعقوبات آجلة.

وقوله: **(فَجَعَلَ أَسْبَابَ نِعَمِهِ الْجَالِبَةِ لَهَا طَاعَتَهُ)**، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٦٥ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٥، ٦٦]، فالطاعات تجلب الخير عاجلًا وآجلًا، والذنوب تُسبب حصول الشر عاجلًا وآجلًا.

وقوله: **(وَمِنَ الْعَجَبِ عِلْمُ الْعَبْدِ بِذَلِكَ مُشَاهَدَةً فِي نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ)**، فالإنسان يشاهد النقمات التي تحل بالناس والأفراد، ولكن لا يعتبر ولا يتعظ، وكأنه غير معني، ولا يخشى أن يصيبه ما أصاب هؤلاء، والسعيد من وُعظ بغيره، والإنسان العاقل ينظر إلى ما يحل بالعصاة، والمكذبين، والمجرمين، والكافرين، فيرتدع عن الذنوب والمعاصي؛ لئلا يحل به ما حل بهم.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تُبَاعِدُ عَنِ الْعَبْدِ وَلِيَّهُ، وَأَنْفَعَ الْخَلْقِ لَهُ وَأَنْصَحَهُمْ لَهُ، وَمَنْ سَعَادَتُهُ فِي قُرْبِهِ مِنْهُ، وَهُوَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ، وَتُدْنِي مِنْهُ عَدُوَّهُ، وَأَغَشَّ الْخَلْقِ لَهُ، وَأَعْظَمَهُمْ ضَرَرًا لَهُ، وَهُوَ الشَّيْطَانُ. فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَصَى اللَّهَ تَبَاعَدَ مِنْهُ الْمَلَكُ بِقَدْرِ تِلْكَ الْمَعْصِيَةِ، حَتَّى إِنَّهُ يَتَبَاعَدُ مِنْهُ بِالْكِذْبَةِ الْوَاحِدَةِ مَسَافَةً بَعِيدَةً.

وَفِي بَعْضِ الْآثَارِ: «إِذَا كَذَبَ الْعَبْدُ تَبَاعَدَ مِنْهُ الْمَلَكُ مِيلًا مِنْ نَتَنِ رِيحِهِ»(١).

فَإِذَا كَانَ هَذَا تَبَاعُدَ الْمَلَكِ مِنْهُ مِنْ كِذْبَةٍ وَاحِدَةٍ، فَمَاذَا يَكُونُ مِقْدَارُ بُعْدِهِ مِنْهُ مِمَّا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ، وَأَفْحَشُ مِنْهُ؟

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِذَا رَكِبَ الذَّكَرُ الذَّكَرَ عَجَّتِ الْأَرْضُ إِلَى اللَّهِ، وَهَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ إِلَى رَبِّهَا، وَشَكَتْ إِلَيْهِ عَظِيمَ مَا رَأَتْ(٢).

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ ابْتَدَرَهُ الْمَلَكُ وَالشَّيْطَانُ، فَإِنْ ذَكَرَ اللَّهَ وَكَبَّرَهُ وَحَمِدَهُ وَهَلَّلَهُ، طَرَدَ الْمَلَكُ الشَّيْطَانَ وَتَوَلَّاهُ، وَإِنِ افْتَتَحَ بِغَيْرِ ذَلِكَ، ذَهَبَ الْمَلَكُ عَنْهُ، وَتَوَلَّاهُ الشَّيْطَانُ.

وَلَا يَزَالُ الْمَلَكُ يَقْرُبُ مِنَ الْعَبْدِ حَتَّى يَصِيرَ الْحُكْمُ وَالْغَلَبَةُ وَالطَّاعَةُ لَهُ، فَتَتَوَلَّاهُ الْمَلَائِكَةُ فِي حَيَاتِهِ وَعِنْدَ مَوْتِهِ وَعِنْدَ بَعْثِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٧٢)، وابن أبي الدنيا في الصمت (٨٥٣)، والطبراني في الأوسط (٧/ ٢٤٥) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا. وفيه عبد الرحيم بن هارون، متهم بالكذب. يُنظر: المجروحين (٢/ ١٣٧)، والكامل في ضعفاء الرجال (٥/ ٢٨٣).

(٢) أخرج الآجري في ذم اللواط (٢) عن عباس الدوري أنه قال: « بَلَغَنِي أَنَّ الْأَرْضَ تَعُجُّ مِنْ ذَكَرٍ عَلَى ذَكَرٍ».

رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١].

وَإِذَا تَوَلَّاهُ الْمَلَكُ تَوَلَّاهُ أَنْصَحُ الْخَلْقِ وَأَنْفَعُهُمْ وَأَبَرُّهُمْ، فَثَبَّتَهُ وَعَلَّمَهُ، وَقَوَّى جَنَانَهُ، وَأَيَّدَهُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال: ١٢]. وَيَقُولُ لَهُ الْمَلَكُ عِنْدَ الْمَوْتِ: لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ وَأَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ[١]. وَيُثَبِّتُهُ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ أَحْوَجَ مَا يَكُونُ إِلَيْهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَعِنْدَ الْمَوْتِ، وَفِي الْقَبْرِ عِنْدَ الْمُسَاءَلَةِ.

فَلَيْسَ أَحَدٌ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ مِنْ صُحْبَةِ الْمَلَكِ لَهُ، وَهُوَ وَلِيُّهُ فِي يَقَظَتِهِ، وَمَنَامِهِ، وَحَيَاتِهِ، وَعِنْدَ مَوْتِهِ، وَفِي قَبْرِهِ، وَمُؤْنِسُهُ فِي وَحْشَتِهِ، وَصَاحِبُهُ فِي خَلْوَتِهِ، وَمُحَدِّثُهُ فِي سِرِّهِ، وَيُحَارِبُ عَنْهُ عَدُوَّهُ، وَيُدَافِعُ عَنْهُ وَيُعِينُهُ عَلَيْهِ، وَيَعِدُهُ بِالْخَيْرِ وَيُبَشِّرُهُ بِهِ، وَيَحُثُّهُ عَلَى التَّصْدِيقِ بِالْحَقِّ، كَمَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ الَّذِي يُرْوَى مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا: «إِنَّ لِلْمَلَكِ بِقَلْبِ ابْنِ آدَمَ لَمَّةً، وَلِلشَّيْطَانِ لَمَّةً، فَلَمَّةُ الْمَلَكِ: إِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْوَعْدِ، وَلَمَّةُ الشَّيْطَانِ: إِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ»[٢].

وَإِذَا اشْتَدَّ قُرْبُ الْمَلَكِ مِنَ الْعَبْدِ تَكَلَّمَ عَلَى لِسَانِهِ، وَأَلْقَى عَلَى لِسَانِهِ الْقَوْلَ السَّدِيدَ، وَإِذَا بَعُدَ مِنْهُ وَقَرُبَ الشَّيْطَانُ، تَكَلَّمَ عَلَى لِسَانِهِ، وَأَلْقَى عَلَيْهِ قَوْلَ الزُّورِ

---

(١) كما في حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، تقدم تخريجه (ص١٠٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٨٨)، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٣٧)، وابن حبان (٣/ ٢٧٨) والبيهقي في الدعوات الكبير (٢/ ٢٥٩)، وفي شعب الإيمان (٦/ ٢٨٤) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالْفُحْشِ، حَتَّى تَرَى الرَّجُلَ يَتَكَلَّمُ عَلَى لِسَانِهِ الْمَلَكُ، وَالرَّجُلَ يَتَكَلَّمُ عَلَى لِسَانِهِ الشَّيْطَانُ.

وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ السَّكِينَةَ تَنْطِقُ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ»(١).

وَكَانَ أَحَدُهُمْ يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ الصَّالِحَةَ مِنَ الرَّجُلِ، فَيَقُولُ: مَا أَلْقَاهَا عَلَى لِسَانِكَ إِلَّا الْمَلَكُ، وَيَسْمَعُ ضِدَّهَا فَيَقُولُ: مَا أَلْقَاهَا عَلَى لِسَانِكَ إِلَّا الشَّيْطَانُ. فَالْمَلَكُ يُلْقِي بِالْقَلْبِ الْحَقَّ وَيُلْقِيهِ عَلَى اللِّسَانِ، وَالشَّيْطَانُ يُلْقِي الْبَاطِلَ فِي الْقَلْبِ وَيُجْرِيهِ عَلَى اللِّسَانِ.

فَمِنْ عُقُوبَةِ الْمَعَاصِي: أَنَّهَا تُبْعِدُ مِنَ الْعَبْدِ وَلِيَّهُ الَّذِي سَعَادَتُهُ فِي قُرْبِهِ وَمُجَاوَرَتِهِ وَمُوَالَاتِهِ، وَتُدْنِي مِنْهُ عَدُوَّهُ الَّذِي شَقَاؤُهُ وَهَلَاكُهُ وَفَسَادُهُ فِي قُرْبِهِ وَمُوَالَاتِهِ، حَتَّى إِنَّ الْمَلَكَ لَيُنَافِحُ عَنِ الْعَبْدِ، وَيَرُدُّ عَنْهُ إِذَا سَفِهَ عَلَيْهِ السَّفِيهُ وَسَبَّهُ، كَمَا اخْتَصَمَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلَانِ، فَجَعَلَ أَحَدُهُمَا يَسُبُّ الْآخَرَ وَهُوَ سَاكِتٌ، فَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ يَرُدُّ بِهَا عَلَى صَاحِبِهِ، فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمَّا رَدَدْتُ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ قُمْتَ، فَقَالَ: «كَانَ الْمَلَكُ يُنَافِحُ عَنْكَ، فَلَمَّا رَدَدْتَ عَلَيْهِ جَاءَ الشَّيْطَانُ، فَلَمْ أَكُنْ لِأَجْلِسَ»(٢).

وَإِذَا دَعَا الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ أَمَّنَ الْمَلَكُ عَلَى دُعَائِهِ، وَقَالَ:

---

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على المسند (١/١٠٦)، والطبراني في الأوسط (٥/٣٥٩)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٤٢) موقوفًا على علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢/٤٣٦)، والطبراني في الأوسط (٧/١٨٩)، ومن حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه أبو داود (٤٨٩٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩/٤٩) عن سعيد بن المسيب مرسلًا.

«وَلَكَ بِمِثْلِهِ»(١). وَإِذَا فَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ أَمَّنَتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَى دُعَائِهِ(٢).

وَإِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ الْمُوَحِّدُ الْمُتَّبِعُ لِسَبِيلِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ اسْتَغْفَرَ لَهُ حَمَلَةُ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ(٣).

وَإِذَا نَامَ الْعَبْدُ عَلَى وُضُوءٍ بَاتَ فِي شِعَارِهِ مَلَكٌ(٤).

فَمَلَكُ الْمُؤْمِنِ يَرُدُّ عَنْهُ وَيُحَارِبُ وَيُدَافِعُ عَنْهُ، وَيُعَلِّمُهُ وَيُثَبِّتُهُ وَيُشَجِّعُهُ، فَلَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يُسِيءَ جِوَارَهُ وَيُبَالِغَ فِي أَذَاهُ وَطَرْدِهِ عَنْهُ وَإِبْعَادِهِ، فَإِنَّهُ ضَيْفُهُ وَجَارُهُ. وَإِذَا كَانَ إِكْرَامُ الضَّيْفِ مِنَ الْآدَمِيِّينَ وَالْإِحْسَانُ إِلَى الْجَارِ مِنْ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ وَمُوجِبَاتِهِ، فَمَا الظَّنُّ بِإِكْرَامِ أَكْرَمِ الْأَضْيَافِ، وَخَيْرِ الْجِيرَانِ وَأَبَرِّهِمْ؟

وَإِذَا آذَى الْعَبْدُ الْمَلَكَ بِأَنْوَاعِ الْمَعَاصِي وَالظُّلْمِ وَالْفَوَاحِشِ دَعَا عَلَيْهِ رَبَّهُ، وَقَالَ: لَا جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، كَمَا يَدْعُو لَهُ إِذَا أَكْرَمَهُ بِالطَّاعَةِ وَالْإِحْسَانِ.

قَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ: «إِنَّ مَعَكُمْ مَنْ لَا يُفَارِقُكُمْ، فَاسْتَحْيُوا مِنْهُمْ وَأَكْرِمُوهُمْ»(٥).

وَلَا أَلْأَمَ مِمَّنْ لَا يَسْتَحِي مِنَ الْكَرِيمِ الْعَظِيمِ الْقَدْرِ، وَلَا يُجِلُّهُ وَلَا يُوَقِّرُهُ،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٢) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٧٨٠)، ومسلم (٤١٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما في قول الله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر:٧].

(٤) كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أخرجه ابن حبان (٣/٣٢٨)، والطبراني في الكبير (١٣٦٢١).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٨٠٠) مرفوعًا، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠/١٧٨) من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَدْ نَبَّهَ سُبْحَانَهُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢]، أَيِ: اسْتَحْيُوا مِنْ هَؤُلَاءِ الْحَافِظِينَ الْكِرَامِ، وَأَكْرِمُوهُمْ، وَأَجِلُّوهُمْ أَنْ يَرَوْا مِنْكُمْ مَا تَسْتَحْيُوا أَنْ يَرَاكُمْ عَلَيْهِ مَنْ هُوَ مِثْلُكُمْ.

وَالْمَلَائِكَةُ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ[١]، فَإِذَا كَانَ ابْنُ آدَمَ يَتَأَذَّى مِمَّنْ يَفْجُرُ وَيَعْصِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَإِنْ كَانَ يَعْمَلُ مِثْلَ عَمَلِهِ، فَمَا الظَّنُّ بِأَذَى الْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ؟ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

الشرح:

يعني: أن الإنسان معه ملَك ومعه شيطان، فهو لمن غلب، فإن استعمل الطاعة قَرُب منه الملك الذي يدله على الخير، ويُعينه عليه، ويُرغبه فيه، وإن عمل السيئة قرُب منه الشيطان، الذي هو عدوه.

فالملَك صديقه وحميمه الذي يريد له الخير، والشيطان عدوه الذي يريد له الشر والهلاك، فهو لمن غلب عليه منهما.

---

(١) كما في حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أخرجه مسلم (٥٦٤).

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تَسْتَجْلِبُ مَوَادَّ هَلَاكِ الْعَبْدِ مِنْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ.

فَإِنَّ الذُّنُوبَ هِيَ أَمْرَاضٌ، مَتَى اسْتَحْكَمَتْ قَتَلَتْ وَلَابُدَّ، وَكَمَا أَنَّ الْبَدَنَ لَا يَكُونُ صَحِيحًا إِلَّا بِغِذَاءٍ يَحْفَظُ قُوَّتَهُ، وَاسْتِفْرَاغٍ يَسْتَفْرِغُ الْمَوَادَّ الْفَاسِدَةَ وَالْأَخْلَاطَ الرَّدِيَّةَ، الَّتِي مَتَى غَلَبَتْ أَفْسَدَتْهُ، وَحِمْيَةٍ يَمْتَنِعُ بِهَا مِمَّا يُؤْذِيهِ وَيَخْشَى ضَرَرَهُ، فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ لَا تَتِمُّ حَيَاتُهُ إِلَّا بِغِذَاءٍ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ تَحْفَظُ قُوَّتَهُ، وَاسْتِفْرَاغٍ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ تَسْتَفْرِغُ الْمَوَادَّ الْفَاسِدَةَ وَالْأَخْلَاطَ الرَّدِيَّةَ مِنْهُ، وَحِمْيَةٍ تُوجِبُ لَهُ حِفْظَ الصِّحَّةِ وَتَجَنُّبَ مَا يُضَادُّهَا، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ اسْتِعْمَالِ مَا يُضَادُّ الصِّحَّةَ. وَالتَّقْوَى: اسْمٌ مُتَنَاوِلٌ لِهَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ، فَمَا فَاتَ مِنْهَا فَاتَ مِنَ التَّقْوَى بِقَدْرِهِ.

وَإِذَا تَبَيَّنَ هَذَا فَالذُّنُوبُ مُضَادَّةٌ لِهَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ، فَإِنَّهَا تَسْتَجْلِبُ الْمَوَادَّ الْمُؤْذِيَةَ، وَتُوجِبُ التَّخْطِيطَ الْمُضَادَّ لِلْحِمْيَةِ، وَتَمْنَعُ الِاسْتِفْرَاغَ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ.

فَانْظُرْ إِلَى بَدَنٍ عَلِيلٍ قَدْ تَرَاكَمَتْ عَلَيْهِ الْأَخْلَاطُ وَمَوَادُّ الْمَرَضِ، وَهُوَ لَا يَسْتَفْرِغُهَا، وَلَا يَحْتَمِي لَهَا، كَيْفَ تَكُونُ صِحَّتُهُ وَبَقَاؤُهُ؟! وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ:

جِسْمُكَ بِالْحِمْيَةِ حَصَّنْتَهُ ... مَخَافَةً مِنْ أَلَمٍ طَارِي
وَكَانَ أَوْلَى بِكَ أَنْ تَحْتَمِي ... مِنَ الْمَعَاصِي خَشْيَةَ النَّارِ

فَمَنْ حَفِظَ الْقُوَّةَ بِامْتِثَالِ الْأَوَامِرِ، وَاسْتَعْمَلَ الْحِمْيَةَ بِاجْتِنَابِ النَّوَاهِي، وَاسْتَفْرَغَ التَّخْطِيطَ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ؛ لَمْ يَدَعْ لِلْخَيْرِ مَطْلَبًا، وَلَا مِنَ الشَّرِّ مَهْرَبًا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

فَصْلٌ

فَـإِنْ لَمْ تَرُعْـكَ هَـذِهِ الْعُقُوبَـاتُ، وَلَمْ تَجِـدْ لَهَـا تَـأْثِيرًا فِي قَلْبِـكَ، فَأَحْـضِرْهُ الْعُقُوبَاتِ الشَّرْعِيَّةَ الَّتِي شَرَعَهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَلَى الْجَرَائِمِ، كَمَا قَطَعَ الْيَدَ فِي سَرِقَةِ ثَلَاثَةِ دَرَاهِمَ، وَقَطَعَ الْيَدَ وَالرِّجْلَ فِي قَطْعِ الطَّرِيقِ عَلَى مَعْصُومِ الْمَالِ وَالنَّفْسِ، وَشَقَّ الْجِلْدَ بِالسَّوْطِ عَلَى كَلِمَةِ قَذْفٍ لِمُحْصَنٍ، أَوْ قَطْرَةِ خَمْرٍ يُدْخِلُهَا جَوْفَهُ، وَقَتَلَ بِالْحِجَارَةِ أَشْنَعَ قِتْلَةٍ فِي إِيلَاجِ الْحَشَفَةِ فِي فَرْجٍ حَرَامٍ، وَخَفَّفَ هَذِهِ الْعُقُوبَةَ عَمَّنْ لَمْ يُتِمَّ عَلَيْهِ نِعْمَةَ الْإِحْصَانِ بِمِائَةِ جَلْدَةٍ، وَنَفْيِ سَنَةٍ عَنْ وَطَنِهِ وَبَلَدِهِ إِلَى بَلَدِ الْغُرْبَةِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ رَأْسِ الْعَبْدِ وَبَدَنِهِ إِذَا وَقَعَ عَلَى ذَاتِ رَحِمٍ مِنْهُ، أَوْ تَرَكَ الصَّلَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، أَوْ تَكَلَّمَ بِكَلِمَةِ كُفْرٍ، وَأَمَرَ بِقَتْلِ مَنْ وَطِئَ ذَكَرًا مِثْلَهُ وَقَتْلِ الْمَفْعُولِ بِهِ، وَأَمَرَ بِقَتْلِ مَنْ أَتَى بَهِيمَةً وَقَتْلِ الْبَهِيمَةِ مَعَهُ، وَعَزَمَ عَلَى تَحْرِيقِ بُيُوتِ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الصَّلَاةِ فِي الْجَمَاعَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي رَتَّبَهَا اللَّهُ عَلَى الْجَرَائِمِ، وَجَعَلَهَا بِحِكْمَتِهِ عَلَى حَسَبِ الدَّوَاعِي إِلَى تِلْكَ الْجَرَائِمِ، وَحَسَبِ الْوَازِعِ عَنْهَا.

فَمَا كَانَ الْوَازِعُ عَنْهُ طَبِيعِيًّا وَمَا لَيْسَ فِي الطِّبَاعِ دَاعٍ إِلَيْهِ اكْتُفِيَ بِالتَّحْرِيمِ مَعَ التَّعْزِيرِ، وَلَمْ يُرَتِّبْ عَلَيْهِ حَدًّا، كَأَكْلِ الرَّجِيعِ، وَشُرْبِ الدَّمِ، وَأَكْلِ الْمَيْتَةِ. وَمَا كَانَ فِي الطِّبَاعِ دَاعٍ إِلَيْهِ رَتَّبَ عَلَيْهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ بِقَدْرِ مَفْسَدَتِهِ، وَبِقَدْرِ دَاعِي الطَّبْعِ إِلَيْهِ.

وَلِهَذَا لَـمَّا كَـانَ دَاعِي الطِّبَاعِ إِلَى الزِّنَا مِنْ أَقْوَى الدَّوَاعِي كَانَتْ عُقُوبَتُهُ الْعُظْمَى مِنْ أَشْنَعِ الْقِتْلَاتِ وَأَعْظَمِهَا، وَعُقُوبَتُهُ السَّهْلَةُ أَعْلَى أَنْوَاعِ الْجَلْدِ مَعَ زِيَادَةِ التَّغْرِيبِ. وَلَـمَّا كَانَتْ جَرِيمَةُ اللِّوَاطِ فِيهَا الْأَمْرَانِ، كَانَ حَدُّهُ الْقَتْلُ بِكُلِّ حَالٍ، وَلَمَّا كَانَ دَاعِي السَّرِقَةِ قَوِيًّا وَمَفْسَدَتُهَا كَذَلِكَ، قَطَعَ فِيهَا الْيَدَ.

وَتَأَمَّلْ حِكْمَتَهُ فِي إِفْسَادِ الْعُضْوِ الَّذِي بَاشَرَ بِهِ الْجِنَايَةَ، كَمَا أَفْسَدَ عَلَى قَاطِعِ

الطَّرِيقِ يَدَهُ وَرِجْلَهُ اللَّتَيْنِ هُمَا آلَةُ قَطْعِهِ، وَلَمْ يُفْسِدْ عَلَى الْقَاذِفِ لِسَانَهُ الَّذِي جَنَى بِهِ؛ إِذْ مَفْسَدَتُهُ تَزِيدُ عَلَى مَفْسَدَةِ الْجِنَايَةِ وَلَا يَبْلُغُهَا، فَاكْتَفَى مِنْ ذَلِكَ بِإِيلَامِ جَمِيعِ بَدَنِهِ بِالْجَلْدِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلَّا أَفْسَدَ عَلَى الزَّانِي فَرْجَهُ الَّذِي بَاشَرَ بِهِ الْمَعْصِيَةَ؟

قِيلَ: لِوُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ مَفْسَدَةَ ذَلِكَ تَزِيدُ عَلَى مَفْسَدَةِ الْجِنَايَةِ؛ إِذْ فِيهِ قَطْعُ النَّسْلِ وَتَعْرِيضُهُ لِلْهَلَاكِ.

الثَّانِي: أَنَّ الْفَرْجَ عُضْوٌ مَسْتُورٌ، لَا يَحْصُلُ بِقَطْعِهِ مَقْصُودُ الْحَدِّ مِنَ الرَّدْعِ وَالزَّجْرِ لِأَمْثَالِهِ مِنَ الْجُنَاةِ، بِخِلَافِ قَطْعِ الْيَدِ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ إِذَا قَطَعَ يَدَهُ أَبْقَى لَهُ يَدًا أُخْرَى تُعَوِّضُ عَنْهَا، بِخِلَافِ الْفَرْجِ.

الرَّابِعُ: أَنَّ لَذَّةَ الزِّنَا عَمَّتْ جَمِيعَ الْبَدَنِ، فَكَانَ الْأَحْسَنُ أَنْ تَعُمَّ الْعُقُوبَةُ جَمِيعَ الْبَدَنِ، وَذَلِكَ أَوْلَى مِنْ تَخْصِيصِهَا بِبُضْعَةٍ مِنْهُ.

فَعُقُوبَاتُ الشَّارِعِ جَاءَتْ عَلَى أَتَمِّ الْوُجُوهِ، وَأَوْفَقِهَا لِلْعَقْلِ، وَأَقْوَمِهَا بِالْمَصْلَحَةِ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الذُّنُوبَ إِنَّمَا تَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا الْعُقُوبَاتُ الشَّرْعِيَّةُ أَوِ الْقَدَرِيَّةُ أَوْ يَجْمَعُهَا اللَّهُ لِلْعَبْدِ، وَقَدْ يَرْفَعُهُمَا عَمَّنْ تَابَ وَأَحْسَنَ.

الشرح:

يعني: إذا غابت عنك العقوبات الآجلة في الآخرة تذكر العقوبات العاجلة في الدنيا، فأنت تشاهد الذي تُقطع يده حدًّا في السرقة، والذي يُقتل

قصاصًا، والذي يُرجم بالحجارة، والذي يُجلد، هذه عقوبات أنت تشاهدها حاضرة، فالذي أوجبها في الدنيا أوجب أشد منها في الآخرة.

فعليك أن تتذكر أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يعاقب على الذنوب عقوبات عاجلة، وعقوباتٍ آجلة، والآجلة أشد.

وإذا كان الناس ينفرون من قطع اليد في الدنيا، وينفرون من القتل في القصاص، ومن الرجم بالزنا للمحصن، ومن الجلد، فلماذا لا ينفرون من عقوبات الآخرة، وهي أشد وأنكى وأدوم؟! هذه أمور الدنيا ساعة وتروح، لكن عقوبات الآخرة دائمة والعياذ بالله.

فَصْلٌ

وَعُقُوبَاتُ الذُّنُوبِ نَوْعَانِ: شَرْعِيَّةٌ، وَقَدَرِيَّةٌ. فَإِذَا أُقِيمَتِ الشَّرْعِيَّةُ رُفِعَتِ الْعُقُوبَاتِ الْقَدَرِيَّةُ أَوْخَفَّفَتْهَا، وَلَا يَكَادُ الرَّبُّ تَعَالَى يَجْمَعُ عَلَى الْعَبْدِ بَيْنَ الْعُقُوبَتَيْنِ إِلَّا إِذَا لَمْ تَفِ إِحْدَاهُمَا بِرَفْعِ مُوجَبِ الذَّنْبِ، وَلَمْ تَكْفِ فِي زَوَالِ دَائِهِ.

وَإِذَا عُطِّلَتِ الْعُقُوبَاتُ الشَّرْعِيَّةُ اسْتَحَالَتْ قَدَرِيَّةً، وَرُبَّمَا كَانَتْ أَشَدَّ مِنَ الشَّرْعِيَّةِ، وَرُبَّمَا كَانَتْ دُونَهَا، وَلَكِنَّهَا تَعُمُّ، وَالشَّرْعِيَّةُ تَخُصُّ، فَإِنَّ الرَّبَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُعَاقِبُ شَرْعًا إِلَّا مَنْ بَاشَرَ الْجِنَايَةَ أَوْ تَسَبَّبَ إِلَيْهَا.

وَأَمَّا الْعُقُوبَةُ الْقَدَرِيَّةُ فَإِنَّهَا تَقَعُ عَامَّةً وَخَاصَّةً، فَإِنَّ الْمَعْصِيَةَ إِذَا خَفِيَتْ لَمْ تَضُرَّ إِلَّا صَاحِبَهَا، وَإِذَا أُعْلِنَتْ ضَرَّتِ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ، وَإِذَا رَأَى النَّاسُ الْمُنْكَرَ فَتَرَكُوا إِنْكَارَهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْعُقُوبَةَ الشَّرْعِيَّةَ شَرَعَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ مَفْسَدَةِ الذَّنْبِ وَتَقَاضِي الطَّبْعِ لَهَا، وَجَعَلَهَا سُبْحَانَهُ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ: الْقَتْلَ وَالْقَطْعَ وَالْجَلْدَ، وَجَعَلَ الْقَتْلَ بِإِزَاءِ الْكُفْرِ وَمَا يَلِيهِ وَيَقْرُبُ مِنْهُ، وَهُوَ الزِّنَا وَاللِّوَاطُ، فَإِنَّ هَذَا يُفْسِدُ الْأَدْيَانَ، وَهَذَا يُفْسِدُ الْأَنْسَابَ وَنَوْعَ الْإِنْسَانِ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: لَا أَعْلَمُ بَعْدَ الْقَتْلِ ذَنْبًا أَعْظَمَ مِنَ الزِّنَا، وَاحْتَجَّ بِحَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ تَصْدِيقَهَا: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي

حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨][(١)].

وَالنَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ أَعْلَاهُ لِيُطَابِقَ جَوَابُهُ سُؤَالَ السَّائِلِ، فَإِنَّهُ سَأَلَهُ عَنْ أَعْظَمِ الذَّنْبِ، فَأَجَابَهُ بِمَا تَضَمَّنَ ذِكْرَ أَعْظَمِ أَنْوَاعِهَا، وَمَا هُوَ أَعْظَمُ كُلِّ نَوْعٍ. فَأَعْظَمُ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ: أَنْ يَجْعَلَ الْعَبْدُ لِلَّهِ نِدًّا، وَأَعْظَمُ أَنْوَاعِ الْقَتْلِ: أَنْ يَقْتُلَ وَلَدَهُ خَشْيَةَ أَنْ يُشَارِكَهُ فِي طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ.

الشرح:

المعاصي لابد لها من عقوبات، إلا أن يعفو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهي على نوعين: عقوبات في الدنيا؛ كإقامة الحدود والتعزير، وهي عقوبات شرعية؛ لأنها أحكامٌ شرعية. وعقوباتٌ في الآخرة؛ كالتعذيب بالنار، وهي عقوبات قدرية. وإذا أقيمت العقوبات الشرعية في الدنيا قد لا تحصل العقوبات في الآخرة؛ لأن الله لا يجمع على العبد المسلم بين عقوبتين، إلا إذا اعترى تطبيق العقوبات الشرعية في الدنيا قصور، أو لم يتب صاحبها إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فإنه قد يُجمع له بين العقوبتين.

وإذا لم تقم الحدود في الدنيا فإنه لابد من إقامتها في الآخرة عقوبة، وهذا من فوائد إقامة الحدود، ، فهي تطهير للعاصي، وتخفف عنه العقوبة في الآخرة، وهي أيضًا ردع للمجتمع؛ لئلا يقعوا في مثل ما وقع فيه هذا العاصي، وفيها أيضًا حفظٌ للأمن، ففيها فوائد عظيمة، ولذلك جاء في الحديث: «**حَدٌّ يُقَامُ فِي**

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٦١).

الْأَرْضِ، خَيْرٌ لِلنَّاسِ مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا»(١).

وقوله: (فَإِنَّ الْمَعْصِيَةَ إِذَا خَفِيَتْ لَمْ تَضُرَّ إِلَّا صَاحِبَهَا، وَإِذَا أُعْلِنَتْ ضَرَّتِ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ)، إذا أُعلنت ولم تُنكر ضرت في الجملة، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥]، وأما إذا أُخفيت ولم تظهر، أو ظهرت فأُنكرت، فإن إثمها يكون على صاحبها فقط.

وقوله: (وَأَعْظَمُ أَنْوَاعِ الْقَتْلِ: أَنْ يَقْتُلَ وَلَدَهُ خَشْيَةَ أَنْ يُشَارِكَهُ فِي طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ)، كما كانوا في الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الفقر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء:٣١]، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:١٥١]، فالرزق بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكما أنكم لا ترزقون أنفسكم كذلك لا ترزقون أولادكم، بل الله هو الذي يرزق الجميع.

ومن هذا ما يُبث الآن من الدعاية الخبيثة لتحديد النسل خشية الفقر، يقولون: لئلا يكثر الناس فتقل الموارد فيحصل الفقر والمجاعة! يُسيئون الظن بالله عَزَّوَجَلَّ، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ما خلق نفسًا إلا وقدر رزقها وأجلها، فهو سبحانه: ﴿ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨]، وليس كثرة النسل يسبب الفقر كما يقول أهل الجاهلية، بل ربما كانت سببًا في كثرة الأرزاق؛ لأن الله يُقدر لكل نفسٍ رزقها، ولأن به تكثر الأيدي العاملة، ويزيد الإنتاج.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٦٢)، وأبو يعلى (١٠/٤٩٦)، وابن حبان (١٠/٢٤٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩/٤٨٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وَأَعْظَمُ أَنْوَاعِ الزِّنَا: أَنْ يَزْنِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِهِ، فَإِنَّ مَفْسَدَةَ الزِّنَا تَتَضَاعَفُ بِتَضَاعُفِ مَا انْتَهَكَهُ مِنَ الْحَقِّ.

فَالزِّنَا بِالْمَرْأَةِ الَّتِي لَهَا زَوْجٌ أَعْظَمُ إِثْمًا وَعُقُوبَةً مِنَ الَّتِي لَا زَوْجَ لَهَا؛ إِذْ فِيهِ انْتِهَاكُ حُرْمَةِ الزَّوْجِ، وَإِفْسَادُ فِرَاشِهِ، وَتَعْلِيقُ نَسَبٍ عَلَيْهِ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ أَذَاهُ، فَهُوَ أَعْظَمُ إِثْمًا وَجُرْمًا مِنَ الزِّنَا بِغَيْرِ ذَاتِ الْبَعْلِ.

فَإِنْ كَانَ زَوْجُهَا جَارًا لَهُ انْضَافَ إِلَى ذَلِكَ سُوءُ الْجِوَارِ، وَأَذَى جَارِهِ بِأَعْلَى أَنْوَاعِ الْأَذَى، وَذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الْبَوَائِقِ. وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»[(١)]، وَلَا بَائِقَةَ أَعْظَمُ مِنَ الزِّنَا بِامْرَأَتِهِ، فَالزِّنَا بِمِائَةِ امْرَأَةٍ لَا زَوْجَ لَهَا أَيْسَرُ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الزِّنَا بِامْرَأَةِ الْجَارِ.

فَإِنْ كَانَ الْجَارُ أَخًا لَهُ أَوْ قَرِيبًا مِنْ أَقَارِبِهِ انْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ قَطِيعَةُ الرَّحِمِ، فَيَتَضَاعَفُ الْإِثْمُ.

فَإِنْ كَانَ الْجَارُ غَائِبًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ كَالصَّلَاةِ وَطَلَبِ الْعِلْمِ وَالْجِهَادِ تَضَاعَفَ لَهُ الْإِثْمُ، حَتَّى إِنَّ الزَّانِيَ بِامْرَأَةِ الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوقَفُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُقَالُ: خُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شِئْتَ. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَمَا ظَنُّكُمْ؟»[(٢)]. أَيْ: مَا ظَنُّكُمْ أَنَّهُ يَتْرُكُ لَهُ حَسَنَاتٍ، قَدْ حُكِّمَ فِي أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا مَا شَاءَ؟ عَلَى شِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَى حَسَنَةٍ وَاحِدَةٍ، حَيْثُ لَا يَتْرُكُ الْأَبُ لِابْنِهِ وَلَا الصَّدِيقُ لِصَدِيقِهِ حَقًّا يَجِبُ لَهُ عَلَيْهِ.

فَإِنِ اتَّفَقَ أَنْ تَكُونَ الْمَرْأَةُ رَحِمًا مِنْهُ انْضَافَ إِلَى ذَلِكَ قَطِيعَةُ رَحِمِهَا.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٩٧) من حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَإِنِ اتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ الزَّانِي مُحْصَنًا كَانَ الْإِثْمُ أَعْظَمَ، فَإِنْ كَانَ شَيْخًا كَانَ أَعْظَمَ إِثْمًا، وَهُوَ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

فَإِنِ اقْتَرَنَ بِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ فِي شَهْرٍ حَرَامٍ أَوْ بَلَدٍ حَرَامٍ أَوْ وَقْتٍ مُعَظَّمٍ عِنْدَ اللَّهِ -كَأَوْقَاتِ الصَّلَاةِ وَأَوْقَاتِ الْإِجَابَةِ- تَضَاعَفَ الْإِثْمُ.

وَعَلَى هَذَا فَاعْتَبِرْ مَفَاسِدَ الذُّنُوبِ وَتَضَاعُفَ دَرَجَاتِهَا فِي الْإِثْمِ وَالْعُقُوبَةِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

الشرح:

قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢]، فالزنا شديدٌ عقوبته، وشديدٌ أثره على الناس؛ لأنه يُفسد المجتمع، ويخلط الأنساب، ويسبب الأمراض الفتاكة، فهو أشد الذنوب بعد قتل النفس بغير حق.

ومن الزنا المُغلظ: أن يزني بامرأة لها زوج، فيُدخل عليه أولادًا ليسوا منه، ويُفسد زوجته عليه.

وقوله: (**وَأَعْظَمُ أَنْوَاعِ الزِّنَا: أَنْ يَزْنِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِهِ**)، الزنا شديد التحريم عمومًا، لكن خيانته لجاره هذه أشد، فأعظم الزنا أن يزني بزوجة جاره، فيخون جاره الذي ائتمنه وجاوره، والجار له حقٌّ عظيم، فلا يجوز الإساءة إليه، أو أن يُطَّلع على أسراره، أو على عوراته؛ لأن له حُرمةً أشد من حرمة بقية الناس، فإذا خانه كان هذا أشد الزنا.

وقوله: **(فَإِنِ اتَّفَقَ أَنْ تَكُونَ الْمَرْأَةُ رَحِمًا مِنْهُ انْضَافَ إِلَى ذَلِكَ قَطِيعَةُ رَحِمِهَا)**، كذلك الزنا بذوات محارمه أشد من الزنا بالأجنبية.

وقوله: **(فَإِنْ كَانَ شَيْخًا كَانَ أَعْظَمَ إِثْمًا)**؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ**»[١]، وفي رواية: «**أُشَيْمِطٌ زَانٍ**»[٢]، والأُشيمط هو: الذي فيه شيب؛ لأن داعي الشهوة في الشباب أقوى من داعي الشهوة في الكبير؛ وكونه يزني وهو كبير هذا دليل على خُبثه؛ لأنه ليس عنده داعٍ للزنا لكِبره، فصار زنا الكبير أشد من زنا الصغير.

وقوله: **(فَإِنِ اقْتَرَنَ بِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ فِي شَهْرٍ حَرَامٍ أَوْ بَلَدٍ حَرَامٍ أَوْ وَقْتٍ مُعَظَّمٍ عِنْدَ اللَّهِ -كَأَوْقَاتِ الصَّلَاةِ وَأَوْقَاتِ الْإِجَابَةِ- تَضَاعَفَ الْإِثْمُ)**، قد يُضاف إلى إثم العقوبة آثامٌ أخرى؛ كأن يزني في البلد الحرام، أو في الشهر الحرام، أو يزني في الأوقات التي هي مُعظمة عند الله عَزَّوَجَلَّ، فينتهك الحرمة، فينضاف هذا إلى حرمة الزنا.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٦١١١) من حديث سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَصْلٌ

وَجَعَلَ سُبْحَانَهُ الْقَطْعَ بِإِزَاءِ فَسَادِ الْأَمْوَالِ الَّذِي لَا يُمْكِنُ الِاحْتِرَازُ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ يَأْخُذُ الْأَمْوَالَ فِي الِاخْتِفَاءِ، وَيُنَقِّبُ الدُّورَ، وَيَتَسَوَّرُ مِنْ غَيْرِ الْأَبْوَابِ، فَهُوَ كَالسِّنَّوْرِ وَالْحَيَّةِ الَّتِي تَدْخُلُ عَلَيْكَ مِنْ حَيْثُ لَا تَعْلَمُ، فَلَمْ تَرْتَفِعْ مَفْسَدَةُ سَرِقَتِهِ إِلَى الْقَتْلِ، وَلَا تَنْدَفِعُ بِالْجَلْدِ، فَأَحْسَنُ مَا دُفِعَتْ بِهِ مَفْسَدَتُهُ إِبَانَةُ الْعُضْوِ الَّذِي يَتَسَلَّطُ بِهِ عَلَى الْجِنَايَةِ.

وَجُعِلَ الْجَلْدُ بِإِزَاءِ إِفْسَادِ الْعُقُولِ وَتَمْزِيقِ الْأَعْرَاضِ بِالْقَذْفِ.

فَدَارَتْ عُقُوبَاتُهُ سُبْحَانَهُ الشَّرْعِيَّةُ عَلَى هَذِهِ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ، كَمَا دَارَتِ الْكَفَّارَاتُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ: الْعِتْقِ، وَهُوَ أَعْلَاهَا، وَالْإِطْعَامِ، وَالصِّيَامِ.

ثُمَّ إِنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الذُّنُوبَ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ:

قِسْمًا فِيهِ الْحَدُّ، فَهَذَا لَمْ يَشْرَعْ فِيهِ كَفَّارَةً اكْتِفَاءً بِالْحَدِّ.

وَقِسْمًا لَمْ يُرَتِّبْ عَلَيْهِ حَدًّا، فَشَرَعَ فِيهِ الْكَفَّارَةَ، كَالْوَطْءِ فِي نَهَارِ رَمَضَانَ، وَالْوَطْءِ فِي الْإِحْرَامِ، وَالظِّهَارِ، وَقَتْلِ الْخَطَأِ، وَالْحِنْثِ فِي الْيَمِينِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَقِسْمًا لَمْ يُرَتِّبْ عَلَيْهِ حَدًّا وَلَا كَفَّارَةً، وَهُوَ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: مَا كَانَ الْوَازِعُ عَنْهُ طَبِيعِيًّا، كَأَكْلِ الْعَذِرَةِ، وَشُرْبِ الْبَوْلِ وَالدَّمِ.

وَالثَّانِي: مَا كَانَتْ مَفْسَدَتُهُ أَدْنَى مِنْ مَفْسَدَةِ مَا رُتِّبَ عَلَيْهِ الْحَدُّ، كَالنَّظَرِ وَالْقُبْلَةِ وَاللَّمْسِ وَالْمُحَادَثَةِ، وَسَرِقَةِ فِلْسٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَشَرَعَ الْكَفَّارَاتِ فِي ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ:

أَحَدُهَا: مَا كَانَ مُبَاحَ الْأَصْلِ، ثُمَّ عَرَضَ تَحْرِيمُهُ، فَبَاشَرَهُ فِي الْحَالَةِ الَّتِي عَرَضَ فِيهَا التَّحْرِيمُ، كَالْوَطْءِ فِي الْإِحْرَامِ وَالصِّيَامِ، وَطَرْدُهُ: الْوَطْءُ فِي الْحَيْضِ وَالنِّفَاسِ، بِخِلَافِ الْوَطْءِ فِي الدُّبُرِ، وَلِهَذَا كَانَ إِلْحَاقُ بَعْضِ الْفُقَهَاءِ لَهُ بِالْوَطْءِ فِي

الْحَيْضِ لَا يَصِحُّ، فَإِنَّهُ لَا يُبَاحُ فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ التَّلَوُّطِ، وَشُرْبِ الْمُسْكِرِ.

النَّوْعُ الثَّانِي: مَا عُقِدَ لِلَّهِ مِنْ نَذْرٍ أَوْ بِاللَّهِ مِنْ يَمِينٍ، أَوْ حَرَّمَهُ اللَّهُ ثُمَّ أَرَادَ حِلَّهُ، فَشَرَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ حِلَّهُ بِالْكَفَّارَةِ وَسَمَّاهَا نِحْلَةً، وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْكَفَّارَةُ مَاحِيَةً لِهَتْكِ حُرْمَةِ الِاسْمِ بِالْحِنْثِ، كَمَا ظَنَّهُ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ، فَإِنَّ الْحِنْثَ قَدْ يَكُونُ وَاجِبًا، وَقَدْ يَكُونُ مُسْتَحَبًّا، وَقَدْ يَكُونُ مُبَاحًا، وَإِنَّمَا الْكَفَّارَةُ حِلٌّ لِمَا عَقَدَهُ.

النَّوْعُ الثَّالِثُ: مَا تَكُونُ فِيهِ جَابِرَةً لِمَا فَاتَ، كَكَفَّارَةِ قَتْلِ الْخَطَأِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِثْمٌ، وَكَفَّارَةِ قَتْلِ الصَّيْدِ خَطَأً، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ بَابِ الْجَوَابِرِ، وَالنَّوْعُ الْأَوَّلُ مِنْ بَابِ الزَّوَاجِرِ، وَالنَّوْعُ الْوَسَطُ مِنْ بَابِ التَّحِلَّةِ لِمَا مِنْهُ الْعَقْدُ.

وَلَا يَجْتَمِعُ الْحَدُّ وَالتَّعْزِيرُ فِي مَعْصِيَةٍ، بَلْ إِنْ كَانَ فِيهَا حَدٌّ اكْتُفِيَ بِهِ وَإِلَّا اكْتُفِيَ بِالتَّعْزِيرِ، وَلَا يَجْتَمِعُ الْحَدُّ وَالْكَفَّارَةُ فِي مَعْصِيَةٍ، بَلْ كُلُّ مَعْصِيَةٍ فِيهَا حَدٌّ فَلَا كَفَّارَةَ فِيهَا، وَمَا فِيهِ كَفَّارَةٌ فَلَا حَدَّ فِيهِ.

وَهَلْ يَجْتَمِعُ التَّعْزِيرُ وَالْكَفَّارَةُ فِي الْمَعْصِيَةِ الَّتِي لَا حَدَّ فِيهَا؟

فِيهِ وَجْهَانِ: وَهَذَا كَالْوَطْءِ فِي الْإِحْرَامِ وَالصِّيَامِ، وَوَطْءِ الْحَائِضِ، وَإِذَا أَوْجَبْنَا فِيهِ الْكَفَّارَةَ، فَقِيلَ: يَجِبُ فِيهِ التَّعْزِيرُ؛ لِمَا انْتَهَكَ مِنَ الْحُرْمَةِ بِرُكُوبِ الْجِنَايَةِ، وَقِيلَ: لَا تَعْزِيرَ فِي ذَلِكَ، اكْتِفَاءً بِالْكَفَّارَةِ؛ لِأَنَّهَا جَابِرَةٌ وَمَاحِيَةٌ.

الشرح:

عقوبة السرقة قطع اليد، مع أنها عضو ثمين، لكن لـمَّا اعتدت وأخذت مال الإنسان الغافل الآمن الذي أحرز ماله، فجاء صاحبها وهتك الحرز، وصاحب المال لم يُفرط، فهذا دليل على جرأته على حرمات الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه لا

يمنع منه حرزٌ ولا يمنع منه حفظٌ، فلذلك اشتدت عقوبته، وإن كان أخذ أموال الناس بالباطل حرامًا عمومًا، ولكن هذا نوعٌ من الباطل أشد، وهو الإخلال بالأمن، وترويع الآمنين، وأخذ أموالهم، وانتهاك بيوتهم ومحلاتهم، فلذلك حكم الله بقطع يده التي امتدت إلى هتك الحرمات، فتُهدر عليه ويُصبح بين الناس مقطوع اليد، فاقدًا لعضو من أعضائه، فهذه عقوبته في الدنيا وتكون في الآخرة أشد.

كذلك الذي يعتدي على الناس بالقوة والسلاح وهم آمنون، فيأخذ أموالهم، أو يهتك حرماتهم، زاد الله جَلَّوَعَلَا في عقوبته على عقوبة السارق فقال: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣]، فقطع الطريق أشد من السرقة الخفية؛ لأنه يقطع السُبل، ويُعطل التجارة، ويُعطل الاتصال بين الناس، ويُخوف الناس، فتُقطع يده ورجله إذا أخذ المال فقط، وإذا أخذ المال وقَتَل فإنه يُقتل حتمًا ويُصلب عقوبةً له،وإذا خوّف الناس ولم يقتل ولم يأخذ مالًا فإنه يُنفى من الأرض، فيُطرد ولا يُترك في البلد، ويُطارد ولا يُترك يأوي إلى بلد أبدًا حتى يتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: **(بِخِلَافِ الْوَطْءِ فِي الدُّبُرِ)**؛ لأن هذا **(بِمَنْزِلَةِ التَّلَوُّطِ)**، واللوطية حدها القتل، سواء كان محصنًا أو غير محصن.

فَصْلٌ

وَأَمَّا الْعُقُوبَاتُ الْقَدَرِيَّةُ فَهِيَ نَوْعَانِ: نَوْعٌ عَلَى الْقُلُوبِ وَالنُّفُوسِ، وَنَوْعٌ عَلَى الْأَبْدَانِ وَالْأَمْوَالِ.

وَالَّتِي عَلَى الْقُلُوبِ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: آلَامٌ وُجُودِيَّةٌ يُضْرَبُ بِهَا الْقَلْبُ.

وَالثَّانِي: قَطْعُ الْمَوَادِ الَّتِي بِهَا حَيَاتُهُ وَصَلَاحُهُ عَنْهُ. وَإِذَا قُطِعَتْ عَنْهُ حَصَلَ لَهُ أَضْدَادُهَا.

وَعُقُوبَةُ الْقُلُوبِ أَشَدُّ الْعُقُوبَتَيْنِ، وَهِيَ أَصْلُ عُقُوبَةِ الْأَبْدَانِ. وَهَذِهِ الْعُقُوبَةُ تَقْوَى وَتَتَزَايَدُ، حَتَّى تَسْرِيَ مِنَ الْقَلْبِ إِلَى الْبَدَنِ، كَمَا يَسْرِي أَلَمُ الْبَدَنِ إِلَى الْقَلْبِ، فَإِذَا فَارَقَتِ النَّفْسُ الْبَدَنَ صَارَ الْحُكْمُ مُتَعَلِّقًا بِهَا، فَظَهَرَتْ عُقُوبَةُ الْقَلْبِ حِينَئِذٍ، وَصَارَتْ عِيَانِيَّةً ظَاهِرَةً، وَهِيَ الْمُسَمَّاةُ بِعَذَابِ الْقَبْرِ، وَنِسْبَتُهُ إِلَى الْبَرْزَخِ كَنِسْبَةِ عَذَابِ الْأَبْدَانِ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ.

فَصْلٌ

وَالَّتِي عَلَى الْأَبْدَانِ أَيْضًا نَوْعَانِ: نَوْعٌ فِي الدُّنْيَا، وَنَوْعٌ فِي الْأُخْرَى، وَشِدَّتُهَا وَدَوَامُهَا بِحَسَبِ مَفَاسِدِ مَا رُتِّبَتْ عَلَيْهِ فِي الشِّدَّةِ وَالخِفَّةِ.

فَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ شَرٌّ أَصْلًا إِلَّا الذُّنُوبَ وَعُقُوبَاتِهَا، فَالشَّرُّ اسْمٌ لِذَلِكَ كُلِّهِ، وَأَصْلُهُ مِنْ شَرِّ النَّفْسِ وَسَيِّئَاتِ الْأَعْمَالِ، وَهُمَا الْأَصْلَانِ اللَّذَانِ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَعِيذُ مِنْهُمَا فِي خُطْبَتِهِ بِقَوْلِهِ: «وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا»(١).

وَسَيِّئَاتُ الْأَعْمَالِ مِنْ شُرُورِ النَّفْسِ، فَعَادَ الشَّرُّ كُلُّهُ إِلَى شَرِّ النَّفْسِ، فَإِنَّ سَيِّئَاتِ الْأَعْمَالِ مِنْ فُرُوعِهِ وَثَمَرَاتِهِ.

وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: «وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا»، هَلْ مَعْنَاهُ: السَّيِّئُ مِنْ أَعْمَالِنَا، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ إِضَافَةِ النَّوْعِ إِلَى جِنْسِهِ، أَوْ تَكُونُ «مِنْ» بَيَانِيَّةً؟ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: مِنْ عُقُوبَاتِهَا الَّتِي تَسُوءُ، فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ: وَمِنْ عُقُوبَاتِ أَعْمَالِنَا الَّتِي تَسُوءُنَا.

وَيُرَجِّحُ هَذَا الْقَوْلَ: أَنَّ الِاسْتِعَاذَةَ تَكُونُ قَدْ تَضَمَّنَتْ جَمِيعَ الشَّرِّ، فَإِنَّ شُرُورَ الْأَنْفُسِ تَسْتَلْزِمُ الْأَعْمَالَ السَّيِّئَةَ، وَهِيَ تَسْتَلْزِمُ الْعُقُوبَاتِ السَّيِّئَةَ، فَنَبَّهَ بِشُرُورِ الْأَنْفُسِ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ مِنْ قُبْحِ الْأَعْمَالِ، وَاكْتَفَى بِذِكْرِهَا مِنْهُ إِذْ هِيَ أَصْلُهُ، ثُمَّ ذَكَرَ غَايَةَ الشَّرِّ وَمُنْتَهَاهُ، وَهُوَ السَّيِّئَاتُ الَّتِي تَسُوءُ الْعَبْدَ مِنْ عَمَلِهِ، مِنَ الْعُقُوبَاتِ وَالْآلَامِ، فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الِاسْتِعَاذَةُ أَصْلَ الشَّرِّ وَفُرُوعَهُ وَغَايَتَهُ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٦٢).

وَمُقْتَضَاهُ.

وَمِنْ دُعَاءِ الْمَلَائِكَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ قَوْلُهُمْ: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ [غافر:٩]، فَهَذَا يَتَضَمَّنُ طَلَبَ وِقَايَتِهِمْ مِنْ سَيِّئَاتِ الْأَعْمَالِ وَعُقُوبَاتِهَا الَّتِي تَسُوءُ صَاحِبَهَا، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مَتَى وَقَاهُمْ عَمَلَ السَّيِّئِ وَقَاهُمْ جَزَاءَ السَّيِّئِ، وَإِنْ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ أَظْهَرَ فِي عُقُوبَاتِ الْأَعْمَالِ الْمَطْلُوبِ وِقَايَتُهَا يَوْمَئِذٍ.

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ سَأَلُوهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَقِيَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، وَهَذَا هُوَ وِقَايَةُ الْعُقُوبَاتِ السَّيِّئَةِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالسَّيِّئَةِ الَّتِي سَأَلُوا وِقَايَتَهَا: الْأَعْمَالُ السَّيِّئَةُ، يَكُونُ الَّذِي سَأَلَهُ الْمَلَائِكَةُ نَظِيرَ مَا اسْتَعَاذَ مِنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَلَا يَرِدُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، فَإِنَّ الْمَطْلُوبَ وِقَايَةُ شُرُورِ سَيِّئَاتِ الْأَعْمَالِ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَهِيَ سَيِّئَاتٌ فِي أَنْفُسِهَا.

قِيلَ: وِقَايَةُ السَّيِّئَاتِ نَوْعَانِ.

أَحَدُهُمَا: وِقَايَةُ فِعْلِهَا بِالتَّوْفِيقِ فَلَا تَصْدُرُ مِنْهُ.

وَالثَّانِي: وِقَايَةُ جَزَائِهَا بِالْمَغْفِرَةِ، فَلَا يُعَاقَبُ عَلَيْهَا، فَتَضَمَّنَتِ الْآيَةُ سُؤَالَ الْأَمْرَيْنِ، وَالظَّرْفُ تَقْيِيدٌ لِلْجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ لَا لِلْجُمْلَةِ الطَّلَبِيَّةِ.

وَتَأَمَّلْ مَا تَضَمَّنَهُ هَذَا الْخَبَرُ عَنِ الْمَلَائِكَةِ مِنْ مَدْحِهِمْ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ، وَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اسْتِغْفَارِهِمْ تَوَسُّلَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِسَعَةِ عِلْمِهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ.

فَسَعَةُ عِلْمِهِ تَتَضَمَّنُ عِلْمَهُ بِذُنُوبِهِمْ وَأَسْبَابِهَا وَضَعْفِهِمْ عَنِ الْعِصْمَةِ، وَاسْتِيلَاءِ عَدُوِّهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَهَوَاهُمْ وَطِبَاعِهِمْ وَمَا زُيِّنَ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا،

وَعِلْمَهُ بِهِمْ إِذْ أَنْشَأَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَإِذْ هُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَعِلْمَهُ السَّابِقَ بِأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَعْصُوهُ، وَأَنَّهُ يُحِبُّ الْعَفْوَ وَالْمَغْفِرَةَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ سَعَةِ عِلْمِهِ الَّذِي لَا يُحِيطُ بِهِ أَحَدٌ سِوَاهُ.

وَسَعَةُ رَحْمَتِهِ تَتَضَمَّنُ أَنَّهُ لَا يَهْلَكُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ أَهْلِ تَوْحِيدِهِ وَمَحَبَّتِهِ، فَإِنَّهُ وَاسِعُ الرَّحْمَةِ، لَا يُخْرِجُ عَنْ دَائِرَةِ رَحْمَتِهِ إِلَّا الْأَشْقِيَاءَ، وَلَا أَشْقَى مِمَّنْ لَمْ تَسَعْهُ رَحْمَتُهُ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ.

ثُمَّ سَأَلُوهُ أَنْ يَغْفِرَ لِلتَّائِبِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا سَبِيلَهُ -وَهُوَ صِرَاطُهُ الْمُوَصِّلُ إِلَيْهِ الَّذِي هُوَ مَعْرِفَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ وَطَاعَتُهُ- فَتَابُوا مِمَّا يَكْرَهُ، وَاتَّبَعُوا السَّبِيلَ الَّتِي يُحِبُّهَا.

ثُمَّ سَأَلُوهُ أَنْ يَقِيَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، وَأَنْ يُدْخِلَهُمْ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أُصُولِهِمْ وَفُرُوعِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَهُمْ بِهَا، وَهُوَ سُبْحَانَهُ، وَإِنْ كَانَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ، فَإِنَّهُ وَعَدَهُمْ بِهَا بِأَسْبَابٍ، مِنْ جُمْلَتِهَا: دُعَاءُ مَلَائِكَتِهِ لَهُمْ أَنْ يُدْخِلَهُمْ إِيَّاهَا بِرَحْمَتِهِ، فَدَخَلُوهَا بِرَحْمَتِهِ الَّتِي مِنْهَا أَنْ وَفَّقَهُمْ لِأَعْمَالِهِمْ، وَأَقَامَ مَلَائِكَتَهُ يَدْعُونَ لَهُمْ بِدُخُولِهَا.

ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ مَلَائِكَتِهِ أَنَّهُمْ قَالُوا عَقِيبَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [غافر:٨]، أَيْ: مَصْدَرُ ذَلِكَ وَسَبَبُهُ وَغَايَتُهُ صَادِرٌ عَنْ كَمَالِ قُدْرَتِكَ وَكَمَالِ عِلْمِكَ. فَالْعِزَّةُ كَمَالُ الْقُدْرَةِ، وَالْحِكْمَةُ كَمَالُ الْعِلْمِ، وَبِهَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ يَقْضِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَا شَاءَ، وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيُثِيبُ وَيُعَاقِبُ، فَهَاتَانِ الصِّفَتَانِ مَصْدَرُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ عُقُوبَاتِ السَّيِّئَاتِ تَتَنَوَّعُ إِلَى: عُقُوبَاتٍ شَرْعِيَّةٍ، وَعُقُوبَاتٍ قَدَرِيَّةٍ، وَهِيَ إِمَّا فِي الْقَلْبِ، وَإِمَّا فِي الْبَدَنِ، وَإِمَّا فِيهِمَا، وَعُقُوبَاتٍ فِي دَارِ الْبَرْزَخِ

بَعْدَ الْمَوْتِ، وَعُقُوبَاتٍ يَوْمَ عَوْدِ الْأَجْسَادِ.

فَالذَّنْبُ لَا يَخْلُو مِنْ عُقُوبَةٍ أَلْبَتَّةَ، وَلَكِنْ لِجَهْلِ الْعَبْدِ لَا يَشْعُرُ بِمَا فِيهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ؛ لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ السَّكْرَانِ وَالْمُخَدَّرِ وَالنَّائِمِ الَّذِي لَا يَشْعُرُ بِالْأَلَمِ، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ وَصَحَا أَحَسَّ بِالْمُؤْلِمِ. فَتَرَتُّبُ الْعُقُوبَاتِ عَلَى الذُّنُوبِ كَتَرَتُّبِ الْإِحْرَاقِ عَلَى النَّارِ، وَالْكَسْرِ عَلَى الِانْكِسَارِ، وَالْغَرَقِ عَلَى الْمَاءِ، وَفَسَادِ الْبَدَنِ عَلَى السُّمُومِ، وَالْأَمْرَاضِ عَلَى الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لَهَا.

وَقَدْ تُقَارِنُ الْمَضَرَّةُ للذَّنْبِ، وَقَدْ تَتَأَخَّرُ عَنْهُ إِمَّا يَسِيرًا وَإِمَّا مُدَّةً، كَمَا يَتَأَخَّرُ الْمَرَضُ عَنْ سَبَبِهِ أَنْ يُقَارِنَهُ، وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ الْغَلَطُ لِلْعَبْدِ فِي هَذَا الْمَقَامِ وَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَلَا يَرَى أَثَرَهُ عَقِبَهُ، وَلَا يَدْرِي أَنَّهُ يَعْمَلُ عَمَلَهُ عَلَى التَّدْرِيجِ شَيْئًا فَشَيْئًا، كَمَا تَعْمَلُ السُّمُومُ وَالْأَشْيَاءُ الضَّارَّةُ حَذْوَ الْقَذَّةِ بِالْقَذَّةِ، فَإِنْ تَدَارَكَ الْعَبْدُ بِالْأَدْوِيَةِ وَالِاسْتِفْرَاغِ وَالْحِمْيَةِ، وَإِلَّا فَهُوَ صَائِرٌ إِلَى الْهَلَاكِ.

هَذَا إِذَا كَانَ ذَنْبًا وَاحِدًا لَمْ يَتَدَارَكْهُ بِمَا يُزِيلُ أَثَرَهُ، فَكَيْفَ بِالذَّنْبِ عَلَى الذَّنْبِ كُلَّ يَوْمٍ وَكُلَّ سَاعَةٍ؟ فَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

فَصْلٌ

فَاسْتَحْضِرْ بَعْضَ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي رَتَّبَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى الذُّنُوبِ، وَجَوِّزْ وَصُولَ بَعْضِهَا إِلَيْكَ، وَاجْعَلْ ذَلِكَ دَاعِيًا لِلنَّفْسِ إِلَى هِجْرَانِهَا، وَأَنَا أَسُوقُ إِلَيْكَ مِنْهَا طَرَفًا يَكْفِي الْعَاقِلَ مَعَ التَّصْدِيقِ بِبَعْضِهِ.

فَمِنْهَا: الْخَتْمُ عَلَى الْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ، وَالْغِشَاوَةُ عَلَى الْأَبْصَارِ، وَالْأَقْفَالُ عَلَى الْقُلُوبِ، وَجَعْلُ الْأَكِنَّةِ عَلَيْهَا، وَالرَّيْنُ عَلَيْهَا، وَالطَّبْعُ، وَتَقْلِيبُ الْأَفْئِدَةِ وَالْأَبْصَارِ، وَالْحَيْلُولَةُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ، وَإِغْفَالُ الْقَلْبِ عَنْ ذِكْرِ الرَّبِّ، وَإِنْسَاءُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ، وَتَرْكُ إِرَادَةِ اللَّهِ تَطْهِيرَ الْقَلْبِ، وَجَعْلُ الصَّدْرِ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ، وَصَرْفُ الْقُلُوبِ عَنِ الْحَقِّ، وَزِيَادَتُهَا مَرَضًا عَلَى مَرَضِهَا، وَإِرْكَاسُهَا وَإِنْكَاسُهَا بِحَيْثُ تَبْقَى مَنْكُوسَةً.

كَمَا ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: فَقَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ سِرَاجٌ يُزْهِرُ، فَذَلِكَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ، فَذَلِكَ قَلْبُ الْكَافِرِ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ، فَذَلِكَ قَلْبُ الْمُنَافِقِ، وَقَلْبٌ تَمُدُّهُ مَادَّتَانِ: مَادَّةُ إِيمَانٍ وَمَادَّةُ نِفَاقٍ، وَهُوَ لِمَا غَلَبَ عَلَيْهِ مِنْهُمَا»(١).

الشرح:

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فاستحضر عقوبات المعاصي قبل أن تقع فيها، أي: فكر أيها العاقل بالعواقب، ولا تنظر إلى اللذة العاجلة، فإذا كان فيها لذة فلا تنظر

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١٧) مرفوعًا عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه ابن المبارك في الزهد (١٤٣٩)، وأبو نعيم في الحلية (١/٢٧٦) موقوفًا على حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

إليها دون النظر إلى عاقبتها، فإن الإنسان العاقل إذا تذكر عقوبات المعاصي تجنبها، وإنما يقع فيها إذا غفل عن عقوباتها وعما تؤول إليه، والله جَلَّوَعَلَا بيَّن عقوبات المعاصي؛ لينفر منها العاقل.

قوله: **(فَمِنْهَا: الْخَتْمُ عَلَى الْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ، وَالْغِشَاوَةُ عَلَى الْأَبْصَارِ)**، وهذه أعظم العقوبات: أن يطمس الله على القلب بسبب المعصية، ويسلب فائدة السمع والبصر، فيصبح الإنسان كالحيوان ينظر لكنه لا يُبصر، ويسمع لكنه لا يعقل، إنما تكون حواسه مثل حواس البهائم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وليس معناه أنهم لا يبصرون ولا يسمعون ولا يفكرون، وإنما هم لا يسمعون سماعًا ينفعهم، ولا ينظرون نظرًا ينفعهم، ولا يتفكرون تفكيرًا ينفعهم؛ لأن هذه الحواس سُلبت منافعها العظيمة، فأصبحت مثل حواس البهائم؛ يُبصر الطريق، يُبصر الفتن والشرور، ويسمع الأغاني والمعازف والمزامير، لكن لا يسمع القرآن، ولا تؤثر فيه المواعظ.

وإذا فكَّر إنما يُفكر في شهواته العاجلة، ولا يفكر بالعاقبة، وما يؤول إليه؛ لأنه خُتم على قلبه وسمعه وسُلب منافعها، فلا يستفيد منها، وجُعل على نظره غشاوة، وهو الغطاء الذي يحجب عنه نور الإيمان.

قوله: **(وَالْأَقْفَالُ عَلَى الْقُلُوبِ، وَجَعْلُ الْأَكِنَّةِ عَلَيْهَا وَالرَّيْنُ عَلَيْهَا)**، كل هذه الآفات -الأقفال، والأكنة، والختم، والران- من آفات القلوب، وهي درجات بعضها أشد من بعض، **(وَالطَّبْعُ)** كذلك الطبع عليها، كما في قوله تعالى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النحل:١٠٨].

وقوله: **(وَتَقْلِيبُ الْأَفْئِدَةِ وَالْأَبْصَارِ)**، يعني: ينظر إلى الأشياء ولا يستفيد منها، ويأتي على قلبه بعض الأشياء، لكن لا يفكر فيها التفكير النافع.

وقوله: **(وَالْحَيْلُولَةُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ)**، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤]، فلا يستفيد من قلبه، ولا يُفكر في التفكير النافع.

وقوله: **(وَإِغْفَالُ الْقَلْبِ عَنْ ذِكْرِ الرَّبِّ)**، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف:٢٨]، فلا يلتفت لذكر الله أبدًا، ولا يأتي على باله، وإنما هذيانه وكلامه كله فيما يضره.

وقوله: **(وَإِنْسَاءُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ)**، كما في قوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، وقوله: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩]، فإذا نسي العبد نفسه ماذا يبقى له؟!

وقوله: **(وَتَرْكُ إِرَادَةِ اللهِ تَطْهِيرَ الْقَلْبِ)**، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة:٤١]، هذه عقوبة.

وقوله: **(وَجَعْلُ الصَّدْرِ ضَيِّقًا حَرَجًا)**، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ -وفي قراءة: ﴿حَرِجًا﴾- ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥]؛ لأن الذي يرتفع إلى الأجواء يضيق صدره من الهواء، فلا يكون الهواء مناسبًا ولا مطابقًا مثل الهواء القريب من الأرض، وهذا من باب التشبيه.

وقوله: **(وَصَرْفُ الْقُلُوبِ عَنِ الْحَقِّ)**، فلا تريد الحق، وإنما دائمًا تريد الباطل، وتميل إلى الباطل، وهذه عقوبة، **(وَزِيَادَتُهَا مَرَضًا عَلَى مَرَضِهَا)** كما في

قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠]، يعني: يزداد المرض في قلبه، وهو مرض معنوي وليس مرضًا حسيًّا، فقد يكون قلبه من الناحية الصحية من أقوى القلوب صحةً، ولكنه من ناحية البصيرة لا فائدة فيه: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩].

وقوله: **(وَإِرْكَاسُهَا وَإِنْكَاسُهَا)**، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ [النساء:٨٨]، يعني: أن الله جَلَّ وَعَلَا عاقبهم بالركس والإركاس، والإركاس: أن يُقلب القلب فيصير منكوسًا، يا مقلب القلوب.

وقوله: **(فَقَلْبٌ أَجْرَدُ)** هذا قلب المؤمن، **(وَقَلْبٌ أَغْلَفُ)** هذا قلب الكافر، لا يأتيه نور ولا وهداية، **(وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ)** هذا قلب المنافق الذي يدعي الإيمان ولكنه يُبطن الكفر، **(وَقَلْبٌ تَمُدُّهُ مَادَّتَانِ: مَادَّةُ إِيمَانٍ وَمَادَّةُ نِفَاقٍ)** هذا المؤمن الذي فيه نفاق، فليس هو منافقًا خالصًا، وإنما هو مؤمن لكن عنده شيء من صفات المنافقين، ففيه مرض، وفيه صحة، **(وَهُوَ لِمَا غَلَبَ عَلَيْهِ مِنْهُمَا)** فإن غلبت عليه الصحة والإيمان سلم، وإن غلب عليه النفاق هلك.

وَمِنْهَا: التَّثْبِيطُ عَنِ الطَّاعَةِ، وَالْإِقْعَادُ عَنْهَا.

وَمِنْهَا: جَعْلُ الْقَلْبِ أَصَمَّ لَا يَسْمَعُ الْحَقَّ، أَبْكَمَ لَا يَنْطِقُ بِهِ، أَعْمَى لَا يَرَاهُ، فَتَصِيرُ النِّسْبَةُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ الْحَقِّ الَّذِي لَا يَنْفَعُهُ غَيْرُهُ، كَالنِّسْبَةِ بَيْنَ أُذُنِ الْأَصَمِّ وَالْأَصْوَاتِ، وَعَيْنِ الْأَعْمَى وَالْأَلْوَانِ، وَلِسَانِ الْأَخْرَسِ وَالْكَلَامِ.

وَبِهَذَا يُعْلَمُ أَنَّ الصَّمَمَ وَالْبَكَمَ وَالْعَمَى لِلْقَلْبِ بِالذَّاتِ والْحَقِيقَةِ، وَلِلْجَوَارِحِ بِالْعَرَضِ وَالتَّبَعِيَّةِ، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

وَلَيْسَ الْمُرَادُ نَفْيَ الْعَمَى الْحِسِّيِّ عَنِ الْبَصَرِ، كَيْفَ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ [النور:٦١]، وَقَالَ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس:١، ٢]، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ: أَنَّ الْعَمَى التَّامَّ فِي الْحَقِيقَةِ: عَمَى الْقَلْبِ، حَتَّى إِنَّ عَمَى الْبَصَرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ كَلَا عَمًى، حَتَّى إِنَّهُ يَصِحُّ نَفْيُهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كَمَالِهِ وَقُوَّتِهِ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»(١)، وَقَوْلِهِ: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِالطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ الَّذِي لَا يَسْأَلُ النَّاسَ، وَلَا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ»(٢). وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ مِنْ عُقُوبَاتِ الْمَعَاصِي جَعْلَ الْقَلْبِ أَعْمَى أَصَمَّ أَبْكَمَ.

وَمِنْهَا: الْخَسْفُ بِالْقَلْبِ كَمَا يُخْسَفُ بِالْمَكَانِ وَمَا فِيهِ، فَيُخْسَفُ بِهِ إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ وَصَاحِبُهُ لَا يَشْعُرُ، وَعَلَامَةُ الْخَسْفِ بِهِ أَنَّهُ لَا يَزَالُ جَوَّالًا حَوْلَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

السُّفْلِيَّاتِ وَالْقَاذُورَاتِ وَالرَّذَائِلِ، كَمَا أَنَّ الْقَلْبَ الَّذِي رَفَعَهُ اللَّهُ وَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ لَا يَزَالُ جَوَّالًا حَوْلَ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ وَمَعَالِيَ الأَعْمَالِ وَالأَقْوَالِ وَالأَخْلَاقِ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ جَوَّالَةٌ، فَمِنْهَا مَا يَجُولُ حَوْلَ الْعَرْشِ، وَمِنْهَا مَا يَجُولُ حَوْلَ الْحُشِّ»(١).

الشرح:

قوله: **(وَمِنْهَا) أي:** من عقوبات المعاصي **(التَّثْبِيطُ عَنِ الطَّاعَةِ)** فيثبط الله الإنسان عن الطاعة عقوبةً له، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في المنافقين: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة:٤٦]، عاقبهم لتأخرهم عن الخروج مع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة تبوك، وهذا قضاء وقدر من الله لحكمة: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ﴾ [التوبة:٤٧].

هذه هي الحكمة في أن الله ثبَّطهم: لئلا يضروا المسلمين بالإيقاع بينهم، والنميمة، والغيبة، وتثبيط المسلمين عن قتال العدو، وإلقاء الشبهات، فالله حبسهم رحمةً بالمسلمين، وعقوبةً لهم؛ لـمَّا علم الله جَلَّ وَعَلَا ذلك منهم كره انبعاثهم، فثبطهم عن الخروج مع المؤمنين.

وقوله: **(جَعْلُ الْقَلْبِ أَصَمَّ لَا يَسْمَعُ الْحَقَّ)** كما في قوله تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]، ثلاث آفات: الصمم: فلا يسمع

---

(١) أخرجه أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية (ص٩٦)، وابن الجوزي في ذم الهوى (ص٧٤) من كلام أحمد بن خضرويه.

الحق، والبكم: فلا ينطق بالحق، وإنما كلامه في الباطل، والعمى: فلا يُبصر البصيرة النافعة؛ كالتفكر في مخلوقات الله، والاتعاظ، والاعتبار، كما أن الأعمى لا يستفيد من الألوان والمناظر الجميلة، وكله واحد عنده لأنه في ظُلمة.

وقوله: **(وَبِهَذَا يُعْلَمُ أَنَّ الصَّمَمَ وَالْبَكَمَ وَالْعَمَى لِلْقَلْبِ بِالذَّاتِ وَالْحَقِيقَةُ، وَلِلْجَوَارِحِ بِالْعَرَضِ وَالتَّبَعِيَّةِ)** إذا عمي القلب عميت الجوارح؛ لأن الجوارح تابعة للقلب، وهو الأصل الذي يحركها. قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، يمرون على مواطن الكفرة -كديار ثمود وغيرهم- ولا يتعظون بما حل بهم.

وأغلب الناس لا يذهبون إليها إلا من باب التعظيم والافتخار بها، ويقولون: هذه حضارة ورُقي عندهم، ولا يقولون: هؤلاء كفار، وأن الله أخلى مساكنهم عقوبة لهم: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ﴾ [النمل:٥٢]، ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [القصص:٥٨]. لا يعتبرون هذا الاعتبار، وإنما ينظرون إليها نظرة تعظيم، وأنها حضارة ورقي.

وقوله: **(وَلَيْسَ الْمُرَادُ نَفْيَ الْعَمَى الْحِسِّيِّ عَنِ الْبَصَرِ)**، فقد يكون بصره قويًّا يرى الهلال، لكن قلبه ليس فيه بصيرة: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾، فعمى البصر يحصل للمؤمن والكافر، والتقي والفاجر، أما عمى البصيرة فهذا لا يحصل إلا للأشقياء والعياذ بالله.

ولذلك أسقط الله عَزَّوَجَلَّ الجهاد عن الأعمى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ

حَرَجٞ﴾؛ لأنه يبصر، فليس عليه حرج أن لا يخرج إلى الغزو، وكذلك الأعرج والمريض: ﴿وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ﴾؛ لما فيهم من الآفات البدنية التي تمنعهم من الخروج إلى الجهاد، فليس عليهم حرج.

وعاتب نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أعرض عن الأعمى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾، هو: عبد الله بن أم مكتوم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ما ضره عمى بصره؛ لأن عنده بصيرة وقلب حي. وقد كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مشغولًا بأكابر قريش، حرصًا على إيمانهم وتألفهم، فجاءه ابن أم مكتوم يسأله، فأعرض عنه، فعاتبه الله على ذلك: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ② وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ④ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ يعني: كفار قريش ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ تستقبله ﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ⑦ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ⑧ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ⑨ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ١-١٠].

هذا عتاب من الله عَزَّ وَجَلَّ لنبيه فيما جرى لعبد الله بن أم مكتوم الأعمى، والذي جاء راغبًا ومقبلًا، فليس هو كالمعرض المستكبر، ولو كان أعمى.

فالعمى التام هو عمى القلب، أما عمى البصر فلا يضر، فقد يكون الإنسان أعمى البصر لكنه أحذق من المبصر، وهذا شيء معروف، فكثير ممن أصيبوا بالعمى نجدهم أحذق من المبصرين، وما ضرهم عمى البصر، إنما الذي يضر هو عمى القلب؛ لأنه لا يكون عنده بصيرة.

وقوله: **(لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ)**، الذي يصرع الناس بقوة بدنه، هذا ليس هو القوي في الحقيقة، وإنما القوي الذي يقوى على نفسه فيصرعها عن هواها، ويردها عن غيها، ويتغلب عليها.

وقوله: (**لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِالطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ**)، المسكين حقيقةً هو الفقير الذي يستحي أن يسأل الناس، ولا أحد يفطن له، أما الذي يسأل الناس فيأخذ من هذا فلسًا، ومن هذا لقمة، ومن ثوبًا، فهذا ترده اللقمة واللقمتان، لكن المشكلة في المحتاج الذي يتعفف من سؤال الناس، ولا أحد يدري عنه، هذا هو الذي ينبغي أنه يُحرص عليه ويُبحث عنه في الصدقة.

قوله: (**لَا يَزَالُ جَوَّالًا حَوْلَ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ وَمَعَالِيَ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَخْلَاقِ**)، هذا هو الفرق، فقلب المؤمن البصير يرتفع إلى معالي الأمور، ويبحث عن الأمور الشريفة والطيبة، وأما القلب المخسوف فهذا يبحث عن القاذورات، والمفاسد، والشهوات المحرمة.

وقوله: (**فَمِنْهَا مَا يَجُولُ حَوْلَ الْعَرْشِ**) يعني: يرتفع، ويطلب الأمور الطيبة، (**وَمِنْهَا مَا يَجُولُ حَوْلَ الْحُشِّ**) يعني: محل قضاء الحاجة، والحمامات، والقاذورات.

وَمِنْهَا: مَسْخُ الْقَلْبِ، فَيُمْسَخُ كَمَا تُمْسَخُ الصُّورَةُ، فَيَصِيرُ الْقَلْبُ عَلَى قَلْبِ الْحَيَوَانِ الَّذِي شَابَهَهُ فِي أَخْلَاقِهِ وَأَعْمَالِهِ وَطَبِيعَتِهِ. فَمِنَ الْقُلُوبِ مَا يُمْسَخُ عَلَى خُلُقِ خِنْزِيرٍ لِشِدَّةِ شَبَهِ صَاحِبِهِ بِهِ، وَمِنْهَا مَا يُمْسَخُ عَلَى خُلُقِ كَلْبٍ أَوْ حِمَارٍ أَوْ حَيَّةٍ أَوْ عَقْرَبٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَهَذَا تَأْوِيلُ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]. قَالَ: «مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ عَلَى أَخْلَاقِ السِّبَاعِ الْعَادِيَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ عَلَى أَخْلَاقِ الْكِلَابِ وَأَخْلَاقِ الْخِنْزِيرِ وَأَخْلَاقِ الْحِمَارِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَطَوَّسُ فِي ثِيَابِهِ كَمَا يَتَطَوَّسُ الطَّاوُوسُ فِي رِيشِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ بَلِيدًا كَالْحِمَارِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْثِرُ عَلَى نَفْسِهِ كَالدِّيكِ، وَمِنْهُمْ مِنْ يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ كَالْحَمَامِ، وَمِنْهُمُ الْحَقُودُ كَالْجَمَلِ، وَمِنْهُمُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ كُلُّهُ كَالْغَنَمِ، وَمِنْهُمْ أَشْبَاهُ الذِّئَابِ، وَمِنْهُمْ أَشْبَاهُ الثَّعَالِبِ الَّتِي تَرُوغُ كَرَوَغَانِهَا»[(١)].

وَقَدْ شَبَّهَ اللَّهُ تَعَالَى أَهْلَ الْجَهْلِ وَالْغَيِّ بِالْحُمُرِ تَارَةً، وَبِالْكَلْبِ تَارَةً، وَبِالْأَنْعَامِ تَارَةً، وَتَقْوَى هَذِهِ الْمُشَابَهَةُ بَاطِنًا حَتَّى تَظْهَرَ فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ ظُهُورًا خَفِيًّا، يَرَاهُ الْمُتَفَرِّسُونَ، وَتَظْهَرُ فِي الْأَعْمَالِ ظُهُورًا يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ، وَلَا يَزَالُ يَقْوَى حَتَّى يَسْتَتْبِعَ الصُّورَةُ، فَتَنْقَلِبُ لَهُ الصُّورَةُ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَهُوَ الْمَسْخُ التَّامُّ، فَيَقْلِبُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الصُّورَةَ الظَّاهِرَةَ عَلَى صُورَةِ ذَلِكَ الْحَيَوَانِ، كَمَا فَعَلَ بِالْيَهُودِ وَأَشْبَاهِهِمْ، وَيَفْعَلُ بِقَوْمٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَمْسَخُهُمْ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ.

---

(١) أخرج نحوه أبو سليمان الخطابي في العزلة (ص٥٥).

الشرح:

قوله: **(وَمِنْهَا: مَسْخُ الْقَلْبِ، فَيُمْسَخُ كَمَا تُمْسَخُ الصُّورَةُ)**، بمعنى: أنه تتغير حالته، لا أن تُمسخ صورته، وإنما يُمسخ إدراكه ويصبح لا يُدرك.

وقوله: **(مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ عَلَى أَخْلَاقِ السِّبَاعِ الْعَادِيَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ عَلَى أَخْلَاقِ الْكِلَابِ وَأَخْلَاقِ الْخِنْزِيرِ وَأَخْلَاقِ الْحِمَارِ)** يعني: وإن لم تُمسخ صورهم الظاهرة، لكن تُمسخ صورهم المعنوية، فتكون طباعهم كطباع الخنازير، وطباع الحمير، وطباع الكلاب، وطباع السِباع العادية، **(وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَطَوَّسُ فِي ثِيَابِهِ كَمَا يَتَطَوَّسُ الطَّاوُوسُ فِي رِيشِهِ)** يعني: يكون فيه كِبر.

فَسُبْحَانَ اللَّهِ! كَمْ مِنْ قَلْبٍ مَنْكُوسٍ وَصَاحِبُهُ لَا يَشْعُرُ؟ وَقَلْبٍ مَمْسُوخٍ وَقَلْبٍ مَخْسُوفٍ بِهِ؟ وَكَمْ مِنْ مَفْتُونٍ بِثَنَاءِ النَّاسِ عَلَيْهِ وَمَغْرُورٍ بِسِتْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ؟ وَمُسْتَدْرَجٍ بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ؟!

وَكُلُّ هَذِهِ عُقُوبَاتٌ وَإِهَانَةٌ، وَيَظُنُّ الْجَاهِلُ أَنَّهَا كَرَامَةٌ.

وَمِنْهَا: مَكْرُ اللَّهِ بِالْمَاكِرِ، وَمُخَادَعَتُهُ لِلْمُخَادِعِ، وَاسْتِهْزَاؤُهُ بِالْمُسْتَهْزِئِ، وَإِزَاغَتُهُ لِلْقَلْبِ الزَّائِغِ عَنِ الْحَقِّ.

وَمِنْهَا: نَكْسُ الْقَلْبِ حَتَّى يَرَى الْبَاطِلَ حَقًّا وَالْحَقَّ بَاطِلًا، وَالْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا، وَيُفْسِدُ وَيَرَى أَنَّهُ يُصْلِحُ، وَيَصُدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ يَدْعُو إِلَيْهَا، وَيَشْتَرِي الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى، وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ عَلَى الْهُدَى، وَيَتَّبِعُ هَوَاهُ وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ مُطِيعٌ لِمَوْلَاهُ. وَكُلُّ هَذَا مِنْ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ الْجَارِيَةِ عَلَى الْقُلُوبِ.

وَمِنْهَا: حِجَابُ الْقَلْبِ عَنِ الرَّبِّ فِي الدُّنْيَا، وَالْحِجَابُ الْأَكْبَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٤، ١٥]. فَمَنَعَتْهُمُ الذُّنُوبُ أَنْ يَقْطَعُوا الْمَسَافَةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قُلُوبِهِمْ، فَيَصِلُوا إِلَيْهَا، فَيَرَوْا مَا يُصْلِحُهَا وَيُزَكِّيهَا، وَمَا يُفْسِدُهَا وَيُشْقِيهَا، وَأَنْ يَقْطَعُوا الْمَسَافَةَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ، فَتَصِلَ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ، فَتَفُوزَ بِقُرْبِهِ وَكَرَامَتِهِ، وَتَقَرَّ بِهِ عَيْنًا، وَتَطِيبَ بِهِ نَفْسًا، بَلْ كَانَتِ الذُّنُوبُ حِجَابًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَحِجَابًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ وَخَالِقِهِمْ.

الشرح:

قوله: (وَكَمْ مِنْ مَفْتُونٍ بِثَنَاءِ النَّاسِ عَلَيْهِ وَمَغْرُورٍ بِسِتْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ)، كما في

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٥، ٥٦]. وقوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف:١٨٢، ١٨٣].

وقوله: **(وَمِنْهَا: مَكْرُ اللَّهِ بِالْمَاكِرِ، وَمُخَادَعَتُهُ لِلْمُخَادِعِ)** كما في قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال:٣٠]، وقوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢]، **(وَاسْتِهْزَاؤُهُ بِالْمُسْتَهْزِئِ)** كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة:١٤، ١٥]، وقوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة:٧٩]، **(وَإِزَاغَتُهُ لِلْقَلْبِ الزَّائِغِ عَنِ الْحَقِّ)** كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، وهذه كلها مقابلات من باب الجزاء، والجزاء من جنس العمل.

وقوله: **(وَمِنْهَا: نَكْسُ الْقَلْبِ)** فلا يستطيع أن يميز، **(حَتَّى يَرَى الْبَاطِلَ حَقًّا وَالْحَقَّ بَاطِلًا)**؛ لأن قلبه منكوس.

وقوله: **(وَيُفْسِدُ وَيَرَى أَنَّهُ يُصْلِحُ)**، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١١، ١٢]، فهم يسمون الإفساد إصلاحًا؛ لانتكاس قلوبهم.

وقوله: **(وَمِنْهَا: حِجَابُ الْقَلْبِ عَنِ الرَّبِّ فِي الدُّنْيَا، وَالْحِجَابُ الْأَكْبَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)**، يحجب القلب حجابان:

الأول: حجاب في الدنيا، فلا يذكر الله، ولا يحب الله عَزَّوَجَلَّ، وينصرف

عن الله كليًّا، ويكون همه في شهواته ورغباته وما يحصل له من مطامعه، فهذا حُجِب عن الله عَزَّوَجَلَّ في الدنيا.

الثاني: حجاب في الآخرة، وهو أشد، حيث يرى المؤمنون ربهم، ويتلذذون برؤيته، وهذا محجوب عن ربه لا يراه، فكما حُجب عنه في الدنيا حُجب عنه في الآخرة. وكما رأى المؤمنون ربهم في الدنيا بالبصيرة لا بعين البصر، وعرفوه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وآمنوا به، كذلك يرونه يوم القيامة عِيانًا بأبصارهم.

وَمِنْهَا: الْمَعِيشَةُ الضَّنْكُ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْبَرْزَخِ، وَالْعَذَابُ فِي الْآخِرَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤].

وَفُسِّرَتِ الْمَعِيشَةُ الضَّنْكُ بِعَذَابِ الْقَبْرِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ مِنَ الْمَعِيشَةِ الضَّنْكِ، وَالْآيَةُ تَتَنَاوَلُ مَا هُوَ أَعَمُّ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَتْ نَكِرَةً فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ، فَإِنَّ عُمُومَهَا مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ رَتَّبَ الْمَعِيشَةَ الضَّنْكَ عَلَى الْإِعْرَاضِ عَنْ ذِكْرِهِ.

فَالْمُعْرِضُ عَنْهُ لَهُ مِنْ ضَنْكِ الْمَعِيشَةِ بِحَسَبِ إِعْرَاضِهِ، وَإِنْ تَنَعَّمَ فِي الدُّنْيَا بِأَصْنَافِ النِّعَمِ، فَفِي قَلْبِهِ مِنَ الْوَحْشَةِ وَالذُّلِّ وَالْحَسَرَاتِ الَّتِي تَقْطَعُ الْقُلُوبَ، وَالْأَمَانِي الْبَاطِلَةِ وَالْعَذَابِ الْحَاضِرِ مَا فِيهِ، وَإِنَّمَا يُوَارِيهِ عَنْهُ سَكَرَاتُ الشَّهَوَاتِ وَالْعِشْقِ وَحُبِّ الدُّنْيَا وَالرِّيَاسَةِ، وَإِنْ لَمْ يَنْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ سُكْرُ الْخَمْرِ، فَسُكْرُ هَذِهِ الْأُمُورِ أَعْظَمُ مِنْ سُكْرِ الْخَمْرِ، فَإِنَّهُ يَفِيقُ صَاحِبُهُ وَيَصْحُو، وَسُكْرُ الْهَوَى وَحُبِّ الدُّنْيَا لَا يَصْحُو صَاحِبُهُ إِلَّا إِذَا كَانَ صَاحِبُهُ فِي عَسْكَرِ الْأَمْوَاتِ.

فَالْمَعِيشَةُ الضَّنْكُ لَازِمَةٌ لِمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دُنْيَاهُ، وَفِي الْبَرْزَخِ، وَيَوْمَ مَعَادِهِ.

وَلَا تَقَرُّ الْعَيْنُ، وَلَا يَهْدَأُ الْقَلْبُ، وَلَا تَطْمَئِنُّ النَّفْسُ إِلَّا بِإِلَهِهَا وَمَعْبُودِهَا الَّذِي هُوَ حَقٌّ، وَكُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ بَاطِلٌ، فَمَنْ قَرَّتْ عَيْنُهُ بِاللَّهِ قَرَّتْ بِهِ كُلُّ عَيْنٍ، وَمَنْ لَمْ تَقَرَّ عَيْنُهُ بِاللَّهِ تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ عَلَى الدُّنْيَا حَسَرَاتٍ. وَاللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا جَعَلَ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَعَمِلَ صَالِحًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]. فَضَمِنَ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ الْجَزَاءَ

فِي الدُّنْيَا بِالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ، وَالْحُسْنَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَهُمْ أَطْيَبُ الْحَيَاتَيْنِ، وَهُمْ أَحْيَاءٌ فِي الدَّارَيْنِ.

وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل:٣٠].

وَنَظِيرُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود:٣].

الشرح:

قوله: (وَمِنْهَا: الْمَعِيشَةُ الضَّنْكُ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْبَرْزَخِ)، كما قال سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾، له معيشة ضنك في الدنيا، وضنك في القبر، وضنك في الآخرة، فهو دائمًا في ضنك، فما هو السبب؟ ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه:١٢٤-١٢٧].

وقوله: (فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ رَتَّبَ الْمَعِيشَةَ الضَّنْكَ عَلَى الْإِعْرَاضِ عَنْ ذِكْرِهِ) ولذلك تجد الذي لا يذكر الله ضيق الصدر، مقطب الجبين، يكره من حوله، ودائمًا في ضنك لا يرتاح أبدًا، أما الذي يذكر الله فتجده في راحة، وفي لذة بطاعة الله، وفي انبساط بسبب ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا في الدنيا.

أما في القبر -والعياذ بالله- فتجد المعرض عن ذكر الله في الدنيا يُضيق

عليه القبر حتى تختلف أضلاعه، ويُفتح له باب إلى النار ويأتيه من سَمومها وحرِّها، أما المؤمن فإنه يُوسع له في قبره مد بصره، ويُفتح له بابٌ إلى الجنة، ويُفرش من الجنة، ويأتيه من ريحها.

فهو وإن كان عنده أموال الدنيا كلها فإن قلبه في ضنك، ولهذا تجد الكفار الآن عندهم من أمور الدنيا الشيء الكثير، لكنهم في ضنك، وكثيرٌ منهم ينتحرون بسبب هذا الضنك، فلا يتلذذون بما أعطاهم الله من متاع الدنيا؛ لأن المتعة متعة القلب وليست متعة البدن، فتجد أحدهم عنده أموال عظيمة، وأرصدة ضخمة، لكنه لا يتلذذ، ولا ينشرح صدره، ولا يطمئن، ودائمًا في قلق، بينما هذا الفقير الذي ليس عنده شيء، لكنه مُقبل على الله، تجده في راحة وفي لذة ونعمة، ورضا بما أعطاه الله جَلَّ وَعَلَا.

ولذلك يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في المنافقين: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

فَفَازَ الْمُتَّقُونَ الْمُحْسِنُونَ بِنَعِيمِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَحَصَلُوا عَلَى الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ فِي الدَّارَيْنِ، فَإِنَّ طِيبَ النَّفْسِ، وَسُرُورَ الْقَلْبِ وَفَرَحَهُ وَلَذَّتَهُ وَابْتِهَاجَهُ وَطُمَأْنِينَتَهُ وَانْشِرَاحَهُ وَنُورَهُ وَسَعَتَهُ وَعَافِيَتَهُ مِنْ تَرْكِ الشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَةِ وَالشُّبُهَاتِ الْبَاطِلَةِ؛ هُوَ النَّعِيمُ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَلَا نِسْبَةَ لِنَعِيمِ الْبَدَنِ إِلَيْهِ.

فَقَدْ كَانَ يَقُولُ بَعْضُ مَنْ ذَاقَ هَذِهِ اللَّذَّةَ: «لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ لَجَالَدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ»(١).

وَقَالَ آخَرُ: «إِنَّهُ لَيَمُرُّ بِالْقَلْبِ أَوْقَاتٌ أَقُولُ فِيهَا: إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا، إِنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ»(٢).

وَقَالَ آخَرُ: «إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةً هِيَ فِي الدُّنْيَا كَالْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ، فَمَنْ دَخَلَهَا دَخَلَ تِلْكَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا لَمْ يَدْخُلْ جَنَّةَ الْآخِرَةِ»(٣).

وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى هَذِهِ الْجَنَّةِ بِقَوْلِهِ: «إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا»، قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «حِلَقُ الذِّكْرِ»(٤).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٣٧٠) من قول إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) ذكر ابن الجوزي نحوه في صفة الصفوة (٢/ ٤٢٣) عن أبي سليمان المغربي، أنه قال: «إن كان أهل الجنة بهذا القلب الذي لي فهم والله في شيء طيب، وما كنت آنس بكلام الناس».

(٣) ذكر ابن القيم في الوابل الصيب (ص٤٨) أنه سمعه من شيخه، ثم قال: «فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها».

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٠)، والترمذي (٣٥١٠)، والبزار (١٣/ ١١٩)، وأبو يعلى الموصلي (٦/ ١٥٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٦٦) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَالَ: «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ»(١).

الشرح:

قوله: (وَحَصَلُوا عَلَى الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ فِي الدَّارَيْنِ)، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]، الحياة الطيبة في الدنيا راحة ولذة ونعيم وسرور وبهجة، وإن لم يكن عنده شيء من الدنيا، فليس النعيم أن تحصل على ما تريد من الشهوات، وإنما النعيم أن يكون قلبك في راحة وطمأنينة وبهجة وسرور.

وقوله: (لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ لَجَالَدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ)، الملوك على كَراسٍ، وعلى خيلٍ، وعلى مراكب فخمة، لكن قلوبهم في ضنك إلا من شرح الله قلبه بالطاعة وذكر الله؛ لأنهم يريدون أن ينالوا حظَّهم، ولمَّا يذوقوا ثمرة الذكر، وليس عندهم بصائر، وأما المؤمن التقي فهذا هو الملك في الحقيقة، وهو الذي استفاد من دنياه وآخرته.

وقوله: (إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةً هِيَ فِي الدُّنْيَا كَالْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ) جنة الدنيا: طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وجنة الآخرة: جنة النعيم.

وقوله: (حِلَقُ الذِّكْرِ)، ذكر الله هو القرآن، والعمل به، وتدبره.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٩٦)، ومسلم (١٣٩١) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وَلَا تَظُنَّ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣، ١٤] مُخْتَصٌّ بِيَوْمِ الْمَعَادِ فَقَطْ، بَلْ هَؤُلَاءِ فِي نَعِيمٍ فِي دُورِهِمُ الثَّلَاثَةِ، وَهَؤُلَاءِ فِي جَحِيمٍ فِي دُورِهِمُ الثَّلَاثَةِ. وَأَيُّ لَذَّةٍ وَنَعِيمٍ فِي الدُّنْيَا أَطْيَبُ مِنْ بِرِّ الْقَلْبِ، وَسَلَامَةِ الصَّدْرِ، وَمَعْرِفَةِ الرَّبِّ تَعَالَى وَمَحَبَّتِهِ، وَالْعَمَلِ عَلَى مُوَافَقَتِهِ؟ وَهَلِ الْعَيْشُ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا عَيْشُ الْقَلْبِ السَّلِيمِ؟

وَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ تَعَالَى عَلَى خَلِيلِهِ بِسَلَامَةِ قَلْبِهِ، فَقَالَ: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۝ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات:٨٣، ٨٤]. وَقَالَ حَاكِيًا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩].

وَالْقَلْبُ السَّلِيمُ هُوَ الَّذِي سَلِمَ مِنَ الشِّرْكِ وَالْغِلِّ وَالْحِقْدِ وَالْحَسَدِ وَالشُّحِّ وَالْكِبْرِ وَحُبِّ الدُّنْيَا وَالرِّيَاسَةِ، فَسَلِمَ مِنْ كُلِّ آفَةٍ تُبْعِدُهُ عَنِ اللَّهِ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ تُعَارِضُ خَبَرَهُ، وَمِنْ كُلِّ شَهْوَةٍ تُعَارِضُ أَمْرَهُ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ إِرَادَةٍ تُزَاحِمُ مُرَادَهُ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ قَاطِعٍ يَقْطَعُ عَنِ اللَّهِ، فَهَذَا الْقَلْبُ السَّلِيمُ فِي جَنَّةٍ مُعَجَّلَةٍ فِي الدُّنْيَا، وَفِي جَنَّةٍ فِي الْبَرْزَخِ، وَفِي جَنَّةٍ يَوْمَ الْمَعَادِ.

وَلَا تَتِمُّ لَهُ سَلَامَتُهُ مُطْلَقًا حَتَّى يَسْلَمَ مِنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ: مِنْ شِرْكٍ يُنَاقِضُ التَّوْحِيدَ، وَبِدْعَةٍ تُخَالِفُ السُّنَّةَ، وَشَهْوَةٍ تُخَالِفُ الْأَمْرَ، وَغَفْلَةٍ تُنَاقِضُ الذِّكْرَ، وَهَوًى يُنَاقِضُ التَّجْرِيدَ وَالْإِخْلَاصَ. وَهَذِهِ الْخَمْسَةُ حُجُبٌ عَنِ اللَّهِ، وَتَحْتَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ، تَتَضَمَّنُ أَفْرَادًا لَا تَنْحَصِرُ.

وَلِذَلِكَ اشْتَدَّتْ حَاجَةُ الْعَبْدِ بَلْ ضَرُورَتُهُ إِلَى أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَهُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، فَلَيْسَ الْعَبْدُ أَحْوَجَ مِنْهُ إِلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لَهُ

مِنْهَا. فَإِنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ يَتَضَمَّنُ عُلُومًا وَإِرَادَاتٍ وَأَعْمَالًا وَتُرُوكًا ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً تَجْرِي عَلَيْهِ كُلَّ وَقْتٍ، فَتَفَاصِيلُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ قَدْ يَعْلَمُهَا الْعَبْدُ وَقَدْ لَا يَعْلَمُهَا، وَقَدْ يَكُونُ مَا لَا يَعْلَمُهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْلَمُهُ، وَمَا يَعْلَمُهُ قَدْ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَقَدْ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَهُوَ مِنَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَإِنْ عَجَزَ عَنْهُ، وَمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ قَدْ تُرِيدُهُ نَفْسُهُ وَقَدْ لَا تُرِيدُهُ كَسَلًا وَتَهَاوُنًا، أَوْ لِقِيَامِ مَانِعٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمَا تُرِيدُهُ قَدْ يَفْعَلُهُ وَقَدْ لَا يَفْعَلُهُ، وَمَا يَفْعَلُهُ قَدْ يَقُومُ فِيهِ بِشُرُوطِ الْإِخْلَاصِ وَقَدْ لَا يَقُومُ، وَمَا يَقُومُ فِيهِ بِشُرُوطِ الْإِخْلَاصِ قَدْ يَقُومُ فِيهِ بِكَمَالِ الْمُتَابَعَةِ وَقَدْ لَا يَقُومُ، وَمَا يَقُومُ فِيهِ بِالْمُتَابَعَةِ قَدْ يَثْبُتُ عَلَيْهِ وَقَدْ يُصْرَفُ قَلْبُهُ عَنْهُ.

وَهَذَا كُلُّهُ وَاقِعٌ سَارٍ فِي الْخَلْقِ، فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ.

وَلَيْسَ فِي طِبَاعِ الْعَبْدِ الْهِدَايَةُ إِلَى ذَلِكَ، بَلْ مَتَى وُكِلَ إِلَى طِبَاعِهِ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَهَذَا هُوَ الْإِرْكَاسُ الَّذِي أَرْكَسَ اللَّهُ بِهِ الْمُنَافِقِينَ بِذُنُوبِهِمْ، فَأَعَادَهُمْ إِلَى طِبَاعِهِمْ وَمَا خُلِقَتْ عَلَيْهِ نُفُوسُهُمْ مِنَ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ.

الشرح:

قوله: (وَلَا تَظُنَّ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ مُخْتَصٌّ بِيَوْمِ الْمَعَادِ فَقَطْ)، يعني: ما تظن أن هذا في الآخرة فقط، بل الأبرار في نعيم في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة، وكذلك الفجار في جحيم في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة؛ لأن الدور ثلاثة: دار الدنيا، ودار القبر، والدار الآخرة. فإذا صلح العبد في الدنيا أصلح الله له البرزخ والدار الآخرة،

ولهذا يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَهْ**»(١).

وقوله: (**وَهَلِ الْعَيْشُ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا عَيْشُ الْقَلْبِ السَّلِيمِ؟**)، وقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، وقال جَلَّ وَعَلَا في حق إبراهيم: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، والقلب السليم: هو الذي سلم من الآفات؛ من الحقد، والغل، والحسد، وكان خالصًا لله عَزَّ وَجَلَّ، محبًا لله ورسوله، ومُحبًّا لعباده المؤمنين، ومُحبًّا للأعمال الصالحة، هذا هو القلب السليم.

وقوله: (**وَلِذَلِكَ اشْتَدَّتْ حَاجَةُ الْعَبْدِ بَلْ ضَرُورَتُهُ، إِلَى أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَهُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**)، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]، والصراط: هو الطريق، والمستقيم: هو المعتدل، والمراد بالصراط المستقيم: الطريق الموصل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وإلى جنته، فإذا هداك الله للصراط المستقيم وصلت إلى الجنة، وإذا أخطأت الصراط المستقيم فإنك إما تكون مع المغضوب عليهم وإما مع الضالين. وهذا مطلبٌ عزيز أن تُلح على الله جَلَّ وَعَلَا أن يهديك صراطه المستقيم؛ لأن أكثر الخلق ليسوا على الصراط المستقيم، وإنما عليه الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، فمن أنعم الله عليه فهو على الصراط المستقيم.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٦١)، ومسلم (١٨٠٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَنَهْيِهِ وَأَمْرِهِ، فَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَجَعْلِهِ الْهِدَايَةَ حَيْثُ تَصْلُحُ، وَيَصْرِفُ مَنْ يَشَاءُ عَنْ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ بِعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ؛ لِعَدَمِ صَلَاحِيَةِ الْمَحَلِّ، وَذَلِكَ مُوجِبُ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ.

فَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَنَصَبَ لِعِبَادِهِ مِنْ أَمْرِهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا دَعَاهُمْ جَمِيعًا إِلَيْهِ حُجَّةً مِنْهُ وَعَدْلًا، وَهَدَى مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ إِلَى سُلُوكِهِ نِعْمَةً مِنْهُ وَفَضْلًا، وَلَمْ يَخْرُجْ بِهَذَا الْعَدْلِ وَهَذَا الْفَضْلِ عَنْ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ.

فَإِذَا كَانَ يَوْمُ لِقَائِهِ نَصَبَ لِخَلْقِهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا يُوصِلُهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ، ثُمَّ صَرَفَ عَنْهُ مَنْ صَرَفَ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا، وَأَقَامَ عَلَيْهِ مَنْ أَقَامَهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، وَجَعَلَ نُورَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ وَمَا جَاءَ بِهِ الذِي كَانَ فِي قُلُوبِهِمْ فِي الدُّنْيَا نُورًا ظَاهِرًا يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ فِي ظُلْمَةِ الْجِسْرِ، وَحَفِظَ عَلَيْهِمْ نُورَهُمْ حَتَّى قَطَعُوهُ، كَمَا حَفِظَ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانَ حَتَّى لَقَوْهُ. وَأَطْفَأَ نُورَ الْمُنَافِقِينَ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِ، كَمَا أَطْفَأَهُ مِنْ قُلُوبِهِمْ فِي الدُّنْيَا.

وَأَقَامَ أَعْمَالَ الْعُصَاةِ بِجَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ كَلَالِيبَ وَحَسَكًا تَخْطِفُهُمْ كَمَا خَطَفَتْهُمْ فِي الدُّنْيَا عَنِ الِاسْتِقَامَةِ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ قُوَّةَ سَيْرِهِمْ وَسُرْعَتَهُمْ عَلَى قَدْرِ قُوَّةِ سَيْرِهِمْ وَسُرْعَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا[1].

وَنَصَبَ لِلْمُؤْمِنِينَ حَوْضًا يَشْرَبُونَ مِنْهُ بِإِزَاءِ شُرْبِهِمْ مِنْ شَرْعِهِ فِي الدُّنْيَا، وَحَرَمَ مِنَ الشُّرْبِ مِنْهُ هُنَاكَ مَنْ حَرَمَهُ مِنَ الشُّرْبِ مِنْ شَرْعِهِ وَدِينِهِ هَاهُنَا[2].

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، تقدم تخريجه (ص١١٥).

(٢) قال القاضي عياض في إكمال المعلم (٧/ ٢٦٠): «وحديث الحوض صحيح، والإيمان به
=

فَانظُرْ إِلَى الْآخِرَةِ كَأَنَّهَا رَأْيُ عَيْنٍ، وَتَأَمَّلْ حِكْمَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ فِي الدَّارَيْنِ، تَعْلَمْ حِينَئِذٍ عِلْمًا يَقِينًا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَةِ وَعُنْوَانُهَا وَأُنْمُوذَجُهَا، وَأَنَّ مَنَازِلَ النَّاسِ فِيهَا فِي السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ عَلَى حَسَبِ مَنَازِلِهِمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ فِي الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَضِدِّهِمَا، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

فَمِنْ أَعْظَمِ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ الْخُرُوجُ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

الشرح:

قوله: (وَالرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَنَهْيِهِ وَأَمْرِهِ) يعني: أن الإنسان في هذه الدنيا مُعرض للآفات القلبية، والآفات البدنية، لكن الآفات التي تُصيب قلبه وتصرفه عن الله عَزَّوَجَلَّ، أو تُمرضه أو تُميته؛ أشد من الآفات الجسمية التي تصيب جسمه فتعيبه أو تفسده.

=

واجب، والتصديق به من الإيمان، وهو على وجهه عند أهل السنة والجماعة، لا يتأول ولا يحال عن ظاهره، خلافًا لمن لم يقل من المبتدعة الباقين له، والمحرفين له بالتأويل عن ظاهره. وهو حديث ثابت متواتر النقل، رواه جماعة من الصحابة. فذكره مسلم من رواية ابن عمر، وأبي سعيد، وسهل بن سعد، وجندب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وحارثة بن وهب الخزاعي، والمستورد، وأبي ذر، وثوبان، وأبي هريرة، وأنس بن مالك، وجابر بن سمرة. وذكره غير واحد عن أسماء بنت أبي بكر، وأبي برزة الأسلمى، وأبي أمامة، وزيد بن أرقم، وعبد الله بن زيد، وسويد بن جبلة، وعبد الله الصنابحي، والبراء، وأبي بكر، وخولة بنت قيس، وغيرهم. وفى بعض هذا ما يخرج هذا الحديث عن خبر الواحد إلى حديث الاستفاضة والتواتر».

والعبد لا يستطيع الثبات على الهداية إلا بإعانة الله، فلا حول ولا قوة له إلا بالله عَزَّوَجَلَّ، ولو أراد فإنه لا يستطيع إذا لم يساعده الله ويعينه، ولذلك نقول في صلاتنا كل يوم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، وقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف:١٢٨]، فلابد من العون من الله جَلَّوَعَلَا، ولو أنك وكلت إلى نفسك لم تستطع.

وقوله: **(فَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)** كما في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦]، أي: طريق واضح.

والهداية إلى الصراط المستقيم تتضمن الدلالة عليه، والتثبيت عليه، فقد يعرف الإنسان الصراط المستقيم، لكنه لا يسير عليه، بل تميل به شهواته ورغباته فلا يسير عليه وإن كان يعرفه، وهذا من المغضوب عليه، وقد لا يعرف الصراط المستقيم فيعمل على جهل وهذا هو الضال، فلابد من أمرين: معرفة الصراط المستقيم، ثم الثبات عليه، وهذا هو معنى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: دُلنا وأرشدنا وثبتنا على الصراط المستقيم.

وقوله: **(فَإِذَا كَانَ يَوْمُ لِقَائِهِ نَصَبَ لِخَلْقِهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا يُوَصِّلُهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ)** كما أن في الدنيا صراطًا مستقيمًا، كذلك في الآخرة صراطٌ يُنصب على متن جهنم يمر عليه العباد على قدر أعمالهم، فمن كان في هذه الدنيا على الصراط المستقيم فإنه يعبر على الصراط الذي في الآخرة، ومن كان على غير الصراط المستقيم في هذه الدنيا فإنه يزل على الصراط الذي في الآخرة.

فهذه الدنيا دار العمل، إذا فاتت فاتت السعادة كلها، من ضيعها بالغفلة واللهو والمعاصي والغفلات ضاع في الآخرة، ومن حفظها واستعملها في

طاعة الله سعد في الآخرة.

فهذه الدنيا ليست سهلة، وإن كان عمر الإنسان فيها قصيرًا، فإنها لها أهميةٌ عظيمة، حياتك في هذه الدنيا هي مناط سعادتك أو شقاوتك، فإذا ضيعت الدنيا ضاعت الآخرة، وإذا حفظت الدنيا حُفظت لك الآخرة، وإذا انتهى أجلك فلن تعود إلى الدنيا، «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ**»(١)، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون:٩، ١١]، فعند الموت يتمنى الإنسان إن كان مُحسنًا لو زاد من الحسنات، وإن كان مسيئًا يطلب الرجوع إلى الدنيا، ولن يرجع.

فهذه الحياة التي تعيشها هي فرصتك، فاحتفظ بها، احتفظ بعمرك، واحتفظ بحياتك، ولا تضيعها في الغفلة والإعراض، ونسيان الموت، ونسيان الآخرة.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٦٥١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَصْلٌ

وَلَمَّا كَانَتِ الذُّنُوبُ مُتَفَاوِتَةً فِي دَرَجَاتِهَا وَمَفَاسِدِهَا تَفَاوَتَتْ عُقُوبَاتُهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِحَسَبِ تَفَاوُتِهَا.

وَنَحْنُ نَذْكُرُ فِيهَا بِعَوْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ فَصْلًا وَجِيزًا جَامِعًا، فَنَقُولُ:

أَصْلُهَا نَوْعَانِ: تَرْكُ مَأْمُورٍ، وَفِعْلُ مَحْظُورٍ، وَهُمَا الذَّنْبَانِ اللَّذَانِ ابْتَلَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهِمَا أَبَوَيِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ.

وَكِلَاهُمَا يَنْقَسِمُ بِاعْتِبَارِ مَحِلِّهِ إِلَى ظَاهِرٍ عَلَى الْجَوَارِحِ، وَبَاطِنٍ فِي الْقَلْبِ.

وَبِاعْتِبَارِ مُتَعَلَّقِهِ إِلَى حَقٍّ لِلَّهِ وَحَقٍّ لِخَلْقِهِ. وَإِنْ كَانَ كُلُّ حَقٍّ لِخَلْقِهِ فَهُوَ مُتَضَمِّنٌ لِحَقِّهِ، لَكِنْ سُمِّيَ حَقًّا لِلْخَلْقِ لِأَنَّهُ يَجِبُ بِمُطَالَبَتِهِمْ وَيَسْقُطُ بِإِسْقَاطِهِمْ.

ثُمَّ هَذِهِ الذُّنُوبُ تَنْقَسِمُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ: مَلَكِيَّةٍ، وَشَيْطَانِيَّةٍ، وَسَبُعِيَّةٍ، وَبَهِيمِيَّةٍ، وَلَا تَخْرُجُ عَنْ ذَلِكَ.

فَالذُّنُوبُ الْمَلَكِيَّةُ أَنْ يَتَعَاطَى مَا لَا يَصِحُّ لَهُ مِنْ صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ، كَالْعَظَمَةِ، وَالْكِبْرِيَاءِ، وَالْجَبَرُوتِ، وَالْقَهْرِ، وَالْعُلُوِّ، وَاسْتِعْبَادِ الْخَلْقِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا: الشِّرْكُ بِالرَّبِّ تَعَالَى، وَهُوَ نَوْعَانِ: شِرْكٌ بِهِ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَجَعْلُ آلِهَةٍ أُخْرَى مَعَهُ، وَشِرْكٌ بِهِ فِي مُعَامَلَتِهِ، وَهَذَا الثَّانِي قَدْ لَا يُوجِبُ دُخُولَ النَّارِ، وَإِنْ أَحْبَطَ الْعَمَلَ الَّذِي أُشْرِكَ فِيهِ مَعَ اللَّهِ غَيْرُهُ.

وَهَذَا الْقِسْمُ أَعْظَمُ أَنْوَاعِ الذُّنُوبِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ.

فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الذُّنُوبِ فَقَدْ نَازَعَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَمُلْكِهِ، وَجَعَلَ لَهُ نِدًّا. وَهَذَا أَعْظَمُ الذُّنُوبِ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَا يَنْفَعُ مَعَهُ عَمَلٌ.

الشرح:

المعاصي تتفاوت بعضها كبائر، وبعضها صغائر، بعضها مُوبقة، وبعضها إثم، وهي تتكون من شيئين: إما ترك واجب، وإما فعل محرم، لا تخرج عن هذا التقسيم.

وقوله في تقسيم الذنوب: **(مَلَكِيَّةٍ)** يعني: ذنوب ملوك الدنيا؛ لأن الإنسان إذا صار له سُلطة نازع الله جَلَّ وَعَلَا في صفاته، فيستكبر ويتجبر على الناس، ويظلمهم، هذه الذنوب الملكية.

وقوله: **(وَشِرْكٌ بِهِ فِي مُعَامَلَتِهِ)** وهو الرياء والسمعة.

والشرك بالله هو أعظم أنواع الذنوب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وأعظم ذنب عُصي الله به هو الشرك، ولذلك قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة:٧٢]، وأكثر الناس لا يهتمون بالشرك، ولا يسألون عنه، ولا يبحثون عنه؛ لأنه لا يهمهم، فيقعون فيه وهم ما يدرون أو يدرون.

وكذلك القول على الله بغير علم أعظم من الشرك، قال تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣]، وذلك بأن يقول: هذا حلال وهذا حرام، فيحلل أشياء ويُحرم أشياء بغير دليل من الكتاب أو السنة.

فَصْلٌ

وَأَمَّا الشَّيْطَانِيَّةُ: فَالتَّشَبُّهُ بِالشَّيْطَانِ فِي الْحَسَدِ وَالْبَغْيِ وَالْغِشِّ وَالْغِلِّ وَالْخِدَاعِ وَالْمَكْرِ، وَالْأَمْرِ بِمَعَاصِي اللَّهِ وَتَحْسِينِهَا، وَالنَّهْيِ عَنْ طَاعَتِهِ وَتَهْجِينِهَا، وَالِابْتِدَاعِ فِي دِينِهِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى الْبِدَعِ وَالضَّلَالِ.

وَهَذَا النَّوْعُ يَلِي النَّوْعَ الْأَوَّلَ فِي الْمَفْسَدَةِ، وَإِنْ كَانَتْ مَفْسَدَتُهُ دُونَهُ.

الشرح:

كل من دعا إلى ضلال ونهى عن الحق فهو شيطان من شياطين الإنس؛ لأن الشياطين على قسمين: شياطين الجن، وشياطين الإنس.

فالذي يدعو إلى الضلال، ويدعو إلى الكفر والشرك والإلحاد، ويزين المعاصي للناس، هذا شيطان من شياطين الإنس.

فَصْلٌ

وَأَمَّا السَّبُعِيَّةُ: فَذُنُوبُ الْعُدْوَانِ، وَالْغَضَبِ، وَسَفْكِ الدِّمَاءِ، وَالتَّوَثُّبِ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَالْعَاجِزِينَ. وَيَتَوَلَّدُ مِنْهَا أَنْوَاعُ أَذَى النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ، وَالْجُرْأَةِ عَلَى الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ.

وَأَمَّا الذُّنُوبُ الْبَهِيمِيَّةُ: فَمِثْلُ الشَّرَهِ وَالْحِرْصِ عَلَى قَضَاءِ شَهْوَةِ الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ، وَمِنْهَا يَتَوَلَّدُ الزِّنَا، وَالسَّرِقَةُ، وَأَكْلُ أَمْوَالِ الْيَتَامَى، وَالْبُخْلُ، وَالشُّحُّ، وَالْجُبْنُ، وَالْهَلَعُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ.

وَهَذَا الْقِسْمُ أَكْثَرُ ذُنُوبِ الْخَلْقِ لِعَجْزِهِمْ عَنِ الذُّنُوبِ السَّبُعِيَّةِ وَالْمَلَكِيَّةِ، وَمِنْهُ يَدْخُلُونَ إِلَى سَائِرِ الْأَقْسَامِ، فَهُوَ يَجُرُّهُمْ إِلَيْهَا بِالزِّمَامِ، فَيَدْخُلُونَ مِنْهُ إِلَى الذُّنُوبِ السَّبُعِيَّةِ، ثُمَّ إِلَى الشَّيْطَانِيَّةِ، ثُمَّ مُنَازَعَةِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالشِّرْكِ فِي الْوَحْدَانِيَّةِ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا حَقَّ التَّأَمُّلِ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ الذُّنُوبَ دِهْلِيزُ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ وَمُنَازَعَةِ اللَّهِ رُبُوبِيَّتَهُ.

الشرح:

الذنوب السبُعية هي العُدوانية، فالذي يعتدي على الناس هذا فيه من صفات السِباع التي تفترس الحيوانات والناس، فهو يفترس الخلق بظلمه واعتدائه، إما بالقتل أو الضرب، وإما بأخذ المال، وإما بإفساد الأعراض.

والذنوب الشهوانية هي البهيمية؛ لأن البهائم لا يهمها إلا أن تأكل وتشرب، فالذي ما همه إلا أكله وشربه وشهواته هذا مثل البهائم، قال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]؛ لأن الأنعام ليس

عليها حساب، والبهائم لم تؤمر ولم تُنه، وليس عليها تكاليف، وهذا مكلفٌ ومأمور ومنهي.

وقوله: **(وَمِنْهُ يَدْخُلُونَ إِلَى سَائِرِ الْأَقْسَامِ، فَهُوَ يَجُرُّهُمْ إِلَيْهَا بِالزِّمَامِ)**، فالذنوب يجر بعضها إلى بعض، ويسهل بعضها بعضًا.

وقوله: **(دِهْلِيزُ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ)** يعني: وسيلة وطريق إلى الشرك، فإذا تعود الإنسان المعاصي جرَّته إلى أعظم منها، وهكذا.

فَصْلٌ

وَقَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ بَعْدَهُمْ وَالْأَئِمَّةِ، عَلَى أَنَّ مِنَ الذُّنُوبِ كَبَائِرَ وَصَغَائِرَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء:٣١]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم:٣٢].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ».

وَهَذِهِ الْأَعْمَالُ الْمُكَفِّرَةُ لَهَا ثَلَاثُ دَرَجَاتٍ:

إِحْدَاهَا: أَنْ تَقْصُرَ عَنْ تَكْفِيرِ الصَّغَائِرِ؛ لِضَعْفِهَا وَضَعْفِ الْإِخْلَاصِ فِيهَا وَالْقِيَامِ بِحُقُوقِهَا، بِمَنْزِلَةِ الدَّوَاءِ الضَّعِيفِ الَّذِي يَنْقُصُ عَنْ مُقَاوَمَةِ الدَّاءِ كَمِّيَّةً وَكَيْفِيَّةً.

الثَّانِيَةُ: أَنْ تُقَاوِمَ الصَّغَائِرَ وَلَا تَرْتَقِي إِلَى تَكْفِيرِ شَيْءٍ مِنَ الْكَبَائِرِ.

الثَّالِثَةُ: أَنْ تَقْوَى عَلَى تَكْفِيرِ الصَّغَائِرِ وَتَبْقَى فِيهَا قُوَّةٌ تُكَفِّرُ بِهَا بَعْضَ الْكَبَائِرِ. فَتَأَمَّلْ هَذَا فَإِنَّهُ يُزِيلُ عَنْكَ إِشْكَالَاتٍ كَثِيرَةً.

الشرح:

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، فدل على أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر، فقوله: ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ هذا غير الكبائر، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ واللمم: هو صغار الذنوب، وقال الله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات:٧]، فذكر ثلاثة أنواع: الكفر والشرك وهو أعظم الذنوب، والفسوق وهو من كبائر الذنوب، والعصيان وهو صغائر الذنوب.

فالكفر والشرك والفسوق من كبائر الذنوب، والمشهور عند جمهور أهل العلم أن الذنوب ليست على حدٍّ سواء، بل بعضها أشد من بعض، وهذا معلوم من الكتاب والسنة، فأعظمها الشرك بالله، وبعده بقية الكبائر.

والكبيرة: هي التي رُتِّب عليها حدٌّ في الدنيا؛ كحد السرقة، وحد الزنا، وحد الخمر، أو رُتِّب عليها وعيدٌ في الآخرة: كالربا، وأكل أموال الناس بالباطل، والغيبة، والنميمة، أو تُوعد فاعلها باللعنة؛ كصاحب الذنب الذي لعن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فاعله، أو لعن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاعله، أو تبرأ ممن فعله، كقوله: «ليس منا من فعل كذا».

فما قُرن به شيءٌ من هذه الأمور فهو من الكبائر، وما نُهي عنه ولم يُقرن بشيءٍ من هذه الأمور وإنما مجرد النهي فقط، فهذا من الصغائر.

والدليل على ذلك: قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾.

والكبائر لا تُكفَّر إلا بالتوبة، أو أن يعفو الله عنها، وأما الصغائر فإنها تُكفَّر بعدة أشياء، منها: تجنب الكبائر، فمن تجنب الكبائر غفر الله له الصغائر ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، وتُكفَّر أيضًا بأداء الفرائض: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ

ﭐلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ﭐلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]، والصلوات الخمس يُكفر الله بها الصغائر: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ**»(١). هذا هو الفرق بين الكبائر والصغائر.

والكبائر أيضًا يُحكم على صاحبها بالفِسق ونُقصان الإيمان، وأما الصغائر فتُنقص كمال الإيمان المستحب، ولا يُحكم على صاحبها بالفسق.

والكبائر بعضها أشد من بعض؛ أشدها: الكفر والشرك بالله، وهذا لا يغفره الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ﭐللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، والزنا وقتل النفس أيضًا من أشد الكبائر، كما في قوله تعالى: ﴿وَﭐلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ﭐللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ﭐلنَّفۡسَ ﭐلَّتِي حَرَّمَ ﭐللَّهُ إِلَّا بِﭑلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨] فهذه من أكبر الكبائر.

كذلك من أكبر الكبائر: السبع الموبقات، وهي: الشرك، والسحر، وقتل النفس، وقذف المحصنات، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف. هذه من كبائر الذنوب، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَلَٰكِنَّ ﭐللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ﭐلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ﭐلۡكُفۡرَ وَﭐلۡفُسُوقَ وَﭐلۡعِصۡيَانَ﴾ [الحجرات:٧]، فقسَّم المعاصي: إلى كفر وفسوق وهو الكبائر، وإلى عصيان وهو الصغائر.

ويرى بعض العلماء أن كل الذنوب كبائر ليس فيها صغائر، ولكن الراجح الأول، وقوله تعالى: ﴿ﭐلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ﭐلۡإِثۡمِ وَﭐلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا

---

(١) تقدم تخريجه (ص٧٥).

ٱللَّمَمَ﴾ يدل على أن هناك كبائر، وهناك سيئات دونها؛ حيث قسَّم الذنوب إلى كبائر، وإلى لمم، والكبائر معروفة، واللمم هو: الصغائر.

وكذلك قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ**»، دليل على أن هناك كبائر وصغائر، فالكفر والشرك لا يُغفر إلا بالتوبة، وأما الكبائر التي دون الشرك والكفر فهذه تحت المشيئة، إن شاء الله غفرها وإن شاء عذب بها، وأما صغائر الذنوب فإنها تُكفَّر باجتناب الكبائر، وتُكفَّر بالصلوات الخمس، والجمعة، وصيام رمضان، وتُكفَّر أيضًا بالمصائب التي تصيب الإنسان.

فإذا أدى الإنسان الواجبات والفرائض كفَّر الله بها له صغائر الذنوب، بشرط أن يؤديها على الوجه المشروع، أما إذا نقصت الفرائض فإنها لا تقوى على تكفير الصغائر، وهذه مشكلة أن يأتي الإنسان بالفرائض فلا تقوى على تكفير الصغائر؛ لأنها ضعيفة منقوصة، لأنه لم يؤدها على الوجه المطلوب.

وكذلك الحج من المكفرات، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ حَجَّ هَذَا البَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**»[(١)]، فالحج يُكفر الله به الكبائر والصغائر؛ لعِظم مكانته وقدره عند الله سبحانه وتعالى.

وقوله: (**فَتَأَمَّلْ هَذَا فَإِنَّهُ يُزِيلُ عَنْكَ إِشْكَالَاتٍ كَثِيرَةً**) إذا تأملت هذا الكلام وجمعت بين النصوص زالت عنك إشكالات في مسألة الذنوب وتقسيماتها.

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٢٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟»، قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ»(١).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»، قِيلَ: وَمَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ»(٢).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ سُئِلَ: أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»، قِيلَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»، قِيلَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تَزْنِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ»(٣).

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى تَصْدِيقَهَا: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨].

الشرح:

في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟»، وقوله: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» دليل على أن الكبائر ليست سواء، بل بعضها أشد من بعض، وأن هذه السبع هي أشدها، والموبقات: يعني المهلكات.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٣)، ومسلم (٨٧) من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) تقدم تخريجه (ص٣٨١).

وهذه السبع هي أكبر الكبائر، وأكبرها: الشرك، ثم قتل النفس، ثم الزنا.

فأولها الشرك بالله، هو أكبر الذنوب جميعًا، وأعظم ما نهى الله عنه.

والثاني: قتل النفس بغير حق، وهو محرم، وهذه أيضًا بعضها أشد من بعض، ففي قتل القريب قتل وقطيعة رحم، كمن يقتل ولده مثلًا، هذا أقرب الناس إليه، فهو من أكبر الكبائر.

والثالث: الزنا، والزنا محرم، ولكن الزنا بامرأة الجار أشد؛ لأنه ائتمنك على الجوار، وائتمنك على أهله، وربما يسافر أو يكون غائبًا وأنت جاره ومحارمه أمانة عندك، فإذا خان الجار الجوار وزنا بامرأة جاره فهذا أشد أنواع الزنا. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾، فدلت الآية على أن هذه الثلاثة هي أكبر الكبائر.

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْكَبَائِرِ: هَلْ لَهَا عَدَدٌ يَحْصُرُهَا؟ عَلَى قَوْلَيْنِ. ثُمَّ الَّذِينَ قَالُوا بِحَصْرِهَا اخْتَلَفُوا فِي عَدَدِهَا:

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: هِيَ أَرْبَعٌ(١).

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: هِيَ سَبْعٌ(٢).

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: هِيَ تِسْعَةٌ(٣).

وَقَالَ غَيْرُهُ: هِيَ إِحْدَى عَشْرَةَ(٤).

وَقَالَ آخَرُ: هِيَ سَبْعُونَ(٥).

وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ الْمَكِّيُّ: «جَمَعْتُهَا مِنْ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ، فَوَجَدْتُهَا:

أَرْبَعَةً فِي الْقَلْبِ، وَهِيَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالْإِصْرَارُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ.

وَأَرْبَعَةٌ فِي اللِّسَانِ، وَهِيَ: شَهَادَةُ الزُّورِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ، وَالْيَمِينُ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٥/ ٤٠).

(٢) أخرج الطبري في تفسيره (٥/ ٣٩) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه عدها تسعًا.

وأخرج في تفسيره (٥/ ٣٧) عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه عدها سبعًا.

(٣) لم أقف عليه، وقد تقدم قريبًا أنه قول ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وأخرج البخاري (٦٦٧٥) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله قال: **«الكَبَائِرُ: الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَاليَمِينُ الغَمُوسُ»**. فعدها أربعًا.

(٤) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٦٦) ونسبه لابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ولم أقف عليه مسندًا.

(٥) أخرج الطبري في تفسير (٥/ ٤١) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سُئل عن الكبائر: سبع هي؟ فقال: «هي إلى السبعين أقرب». وفي رواية: «إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار».

الْغَمُوسُ، وَالسِّحْرُ.

وَثَلَاثٌ فِي الْبَطْنِ: شُرْبُ الْخَمْرِ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا.

وَاثْنَتَانِ فِي الْفَرْجِ، وَهُمَا: الزِّنَا، وَاللِّوَاطُ.

وَاثْنَتَانِ فِي الْيَدَيْنِ، وَهُمَا: الْقَتْلُ، وَالسَّرِقَةُ.

وَوَاحِدَةٌ فِي الرِّجْلَيْنِ، وَهِيَ: الْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ.

وَوَاحِدٌ يَتَعَلَّقُ بِجَمِيعِ الْجَسَدِ، وَهُوَ: عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ»(١).

وَالَّذِينَ لَمْ يَحْصُرُوهَا بِعَدَدٍ، مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: كُلُّ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ كَبِيرَةٌ، وَمَا نَهَى عَنْهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ صَغِيرَةٌ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: مَا اقْتَرَنَ بِالنَّهْيِ عَنْهُ وَعِيدٌ مِنْ لَعْنٍ أَوْ غَضَبٍ أَوْ عُقُوبَةٍ فَهُوَ كَبِيرَةٌ، وَمَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ صَغِيرَةٌ.

وَقِيلَ: كُلُّ مَا رُتِّبَ عَلَيْهِ حَدٌّ فِي الدُّنْيَا أَوْ وَعِيدٌ فِي الْآخِرَةِ فَهُوَ كَبِيرَةٌ، وَمَا لَمْ يُرَتَّبْ عَلَيْهِ لَا هَذَا وَلَا هَذَا فَهُوَ صَغِيرَةٌ.

وَقِيلَ: كُلُّ مَا اتَّفَقَتِ الشَّرَائِعُ عَلَى تَحْرِيمِهِ فَهُوَ مِنَ الْكَبَائِرِ، وَمَا كَانَ تَحْرِيمُهُ فِي شَرِيعَةٍ دُونَ شَرِيعَةٍ فَهُوَ صَغِيرَةٌ.

وَقِيلَ: كُلُّ مَا لَعَنَ اللَّهُ أَوْ رَسُولُهُ فَاعِلَهُ فَهُوَ كَبِيرَةٌ(٢).

وَقِيلَ: كُلُّ مَا ذُكِرَ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ النِّسَاءِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾

---

(١) يُنظر: قوت القلوب (٢/ ٢٤٩، ٢٥٠).

(٢) يُنظر تفصيل هذه الأقوال في تفسير الطبري (٢/ ٣٨ - ٤٣)، وقوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ٢٤٩ - ٢٥١).

[النساء: ٣١] (١).

وَالَّذِينَ لَمْ يُقَسِّمُوهَا إِلَى كَبَائِرَ وَصَغَائِرَ، قَالُوا: الذُّنُوبُ كُلُّهَا -بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْجَرَاءَةِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَمَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ- كَبَائِرُ، فَالنَّظَرُ إِلَى مَنْ عُصِيَ أَمْرُهُ وَانْتُهِكَتْ مَحَارِمُهُ يُوجِبُ أَنْ تَكُونَ الذُّنُوبُ كُلُّهَا كَبَائِرَ، وَهِيَ مُسْتَوِيَةٌ فِي هَذِهِ الْمَفْسَدَةِ.

قَالُوا: وَيُوَضِّحُ هَذَا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَا تَضُرُّهُ الذُّنُوبُ وَلَا يَتَأَثَّرُ بِهَا، فَلَا يَكُونُ بَعْضُهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ أَكْبَرَ مِنْ بَعْضٍ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مُجَرَّدُ مَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ، وَلَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ ذَنْبٍ وَذَنْبٍ.

قَالُوا: وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ مَفْسَدَةَ الذُّنُوبِ إِنَّمَا هِيَ تَابِعَةٌ لِلْجَرَاءَةِ وَالتَّوَثُّبِ عَلَى حَقِّ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلِهَذَا لَوْ شَرِبَ رَجُلٌ خَمْرًا، أَوْ وَطِئَ فَرْجًا حَرَامًا، وَهُوَ لَا يَعْتَقِدُ تَحْرِيمَهُ، لَكَانَ قَدْ جَمَعَ بَيْنَ الْجَهْلِ وَبَيْنَ مَفْسَدَةِ ارْتِكَابِ الْحَرَامِ، وَلَوْ فَعَلَ ذَلِكَ مَنْ يَعْتَقِدُ تَحْرِيمَهُ، لَكَانَ آتِيًا بِإِحْدَى الْمَفْسَدَتَيْنِ، وَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ دُونَ الْأَوَّلِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَفْسَدَةَ الذَّنْبِ تَابِعَةٌ لِلْجَرَاءَةِ وَالتَّوَثُّبِ.

قَالُوا: وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا أَنَّ الْمَعْصِيَةَ تَتَضَمَّنُ الِاسْتِهَانَةَ بِأَمْرِ الْمُطَاعِ وَنَهْيِهِ وَانْتِهَاكِ حُرْمَتِهِ، وَهَذَا لَا فَرْقَ فِيهِ بَيْنَ ذَنْبٍ وَذَنْبٍ.

قَالُوا: فَلَا يَنْظُرُ الْعَبْدُ إِلَى كِبَرِ الذَّنْبِ وَصِغَرِهِ فِي نَفْسِهِ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قَدْرِ مَنْ عَصَاهُ وَعَظَمَتِهِ، وَانْتِهَاكِ حُرْمَتِهِ بِالْمَعْصِيَةِ، وَهَذَا لَا يَفْتَرِقُ فِيهِ الْحَالُ بَيْنَ مَعْصِيَةٍ وَمَعْصِيَةٍ، فَإِنَّ مَلِكًا مُطَاعًا عَظِيمًا لَوْ أَمَرَ أَحَدَ مَمْلُوكَيْهِ أَنْ يَذْهَبَ فِي مُهِمٍّ

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٥/ ٣٧) عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لَهُ إِلَى بَلَدٍ بَعِيدٍ، وَأَمَرَ آخَرَ أَنْ يَذْهَبَ فِي شُغْلٍ لَهُ إِلَى جَانِبِ الدَّارِ، فَعَصَيَاهُ وَخَالَفَا أَمْرَهُ، لَكَانَا فِي مَقْتِهِ وَالسُّقُوطِ مِنْ عَيْنِهِ سَوَاءً.

قَالُوا: وَلِهَذَا كَانَتْ مَعْصِيَةُ مَنْ تَرَكَ الْحَجَّ مِنْ مَكَّةَ وَتَرَكَ الْجُمُعَةَ وَهُوَ جَارُ الْمَسْجِدِ، أَقْبَحَ عِنْدَ اللهِ مِنْ مَعْصِيَةِ مَنْ تَرَكَ مِنَ الْمَكَانِ الْبَعِيدِ، وَالْوَاجِبُ عَلَى هَذَا أَكْثَرُ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى هَذَا، وَلَوْ كَانَ مَعَ رَجُلٍ مِائَتَا دِرْهَمٍ وَمَنَعَ زَكَاتَهَا، وَمَعَ آخَرَ مِائَتَا أَلْفِ دِرْهَمٍ فَمَنَعَ مِنْ زَكَاتِهَا؛ لَاسْتَوَيَا فِي مَنْعِ مَا وَجَبَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، وَلَا يَبْعُدُ اسْتِوَاؤُهُمَا فِي الْعُقُوبَةِ، إِذَا كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا مُصِرًّا عَلَى مَنْعِ زَكَاةِ مَالِهِ، قَلِيلًا كَانَ الْمَالُ أَوْ كَثِيرًا.

الشرح:

قوله: **(وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْكَبَائِرِ: هَلْ لَهَا عَدَدٌ يَحْصُرُهَا؟)** الكبائر لها ضوابط معروفة، أما أنها تُعد وتُحصى أولا تُحصى؟ فهي كثيرة، لكن إذا عُرفت الضوابط حصل المقصود، وإلا فقد جاء أنها سبع، وجاء أنها سبعين، وجاء أنها سبعمائة، وقيل: إنها لا يحصرها عدد.

والحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ له كتاب اسمه «الكبائر» قد بلغ به أكثر من سبعين كبيرة، وكذلك ابن حجر الهيتمي المكي له كتاب «الزواجر عن اقتراف الكبائر» أظن أنه أوصلها إلى حوالي أربعمائة كبيرة.

وتعدد أقوال العلماء في عدد الكبائر دليل على أنها لا حصر لها، وأن كل واحد منهم يقول بما بلغه من النصوص.

وقوله: **(وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: مَا اقْتَرَنَ بِالنَّهْيِ عَنْهُ وَعِيدٌ مِنْ لَعْنٍ أَوْ غَضَبٍ أَوْ**

عُقُوبَةٍ فَهُوَ كَبِيرَةٌ) وهذا هو أصح الأقوال، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية[١]، **(وَمَا لَمْ يُرَتَّبْ عَلَيْهِ لَا هَذَا وَلَا هَذَا فَهُوَ صَغِيرَةٌ)** يعني: ما نُهي عنه ولم يقترن به لعن ولا غضب ولا حدٌّ فهو صغيرة.

وقوله: **(وَقِيلَ: كُلُّ مَا اتَّفَقَتِ الشَّرَائِعُ عَلَى تَحْرِيمِهِ فَهُوَ مِنَ الْكَبَائِرِ)** مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ﴾ هذه محرمات في جميع الشرائع، وهي عشرة في سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣].

وقوله: **(وَقِيلَ: كُلُّ مَا لَعَنَ اللَّهُ أَوْ رَسُولُهُ فَاعِلَهُ فَهُوَ كَبِيرَةٌ)** هذا أيضًا من ضوابط الكبائر.

وكذلك ما جاء في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٣٨] هذه كبائر أيضًا.

وهنا فائدة أخرى، وهي: أن الإصرار على الصغيرة والمداومة عليها يحولها إلى كبيرة، ولهذا قالوا: «لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار»، فإذا كرر الصغيرة وداوم عليها وتساهل بها صارت كبيرة.

فإذا تساهل بالمعصية وتساهل بالله عَزَّوَجَلَّ الذي نهى عنها صارت كبيرة، وليس ذلك من ناحية ذاتها، وإنما من ناحية ما اقترن بها من عدم الحياء من الله،

---

(١) يُنظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٦٥١).

والاستخفاف بأوامره جَلَّوَعَلَا، يعني: نظر إليها على أنها ليست بشيء، وأنها سهلة، ونحو ذلك، فصارت كبيرة والعياذ بالله.

وقوله: **(فَالنَّظَرُ إِلَى مَنْ عَصَى أَمْرَهُ وَانْتَهَكَ مَحَارِمَهُ يُوجِبُ أَنْ تَكُونَ الذُّنُوبُ كُلُّهَا كَبَائِرَ)** هذا توجيه الذين لا يقسمون الذنوب، ويقولون: كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة، وذلك من ناحية الاستخفاف بأوامر الله والمجاهرة بالمعصية، وعدم المبالاة، وعدم الحياء من الله عَزَّوَجَلَّ، هذه كلها أمور تُشدد المعصية وتجعلها كبيرة.

وقالوا: من هذه الناحية لا فرق بين الاستخفاف بحق الله، والتهاون بالمعاصي، وعدم المبالاة؛ لأنها سبب في تحول المعاصي كلها إلى كبائر.

فَصْلٌ

وَكَشْفُ الْغِطَاءِ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَرْسَلَ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيُعْرَفَ وَيُعْبَدَ وَيُوَحَّدَ، وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ، وَالطَّاعَةُ كُلُّهَا لَهُ، وَالدَّعْوَةُ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر:٨٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:٩٧].

فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْقَصْدَ بِالْخَلْقِ وَالْأَمْرِ: أَنْ يُعْرَفَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَيُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ، وَأَنْ يَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ، وَهُوَ الْعَدْلُ الَّذِي قَامَتْ بِهِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥]. فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ أَرْسَلَ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَهُوَ الْعَدْلُ.

وَمِنْ أَعْظَمِ الْقِسْطِ: التَّوْحِيدُ، بَلْ هُوَ رَأْسُ الْعَدْلِ وَقِوَامُهُ، وَ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، فَالشِّرْكُ أَظْلَمُ الظُّلْمِ، وَالتَّوْحِيدُ أَعْدَلُ الْعَدْلِ، فَمَا

كَانَ أَشَدَّ مُنَافَاةً لِهَذَا الْمَقْصُودِ فَهُوَ أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ، وَتَفَاوُتُهَا فِي دَرَجَاتِهَا بِحَسَبِ مُنَافَاتِهَا لَهُ، وَمَا كَانَ أَشَدَّ مُوَافَقَةً لِهَذَا الْمَقْصُودِ فَهُوَ أَوْجَبُ الْوَاجِبَاتِ وَأَفْرَضُ الطَّاعَاتِ.

فَتَأَمَّلْ هَذَا الْأَصْلَ حَقَّ التَّأَمُّلِ، وَاعْتَبِرْ تَفَاصِيلَهُ تَعْرِفْ بِهِ حِكْمَةَ أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ، وَأَعْلَمِ الْعَالِمِينَ فِيمَا فَرَضَهُ عَلَى عِبَادِهِ، وَحَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ، وَتَفَاوُتَ مَرَاتِبِ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي.

فَلَمَّا كَانَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ مُنَافِيًا بِالذَّاتِ لِهَذَا الْمَقْصُودِ كَانَ أَكْبَرَ الْكَبَائِرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَحَرَّمَ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى كُلِّ مُشْرِكٍ، وَأَبَاحَ دَمَهُ وَمَالَهُ وَأَهْلَهُ لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ، وَأَنْ يَتَّخِذُوهُمْ عَبِيدًا لَهُمْ لَمَّا تَرَكُوا الْقِيَامَ بِعُبُودِيَّتِهِ، وَأَبَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَقْبَلَ مِنْ مُشْرِكٍ عَمَلًا، أَوْ يَقْبَلَ فِيهِ شَفَاعَةً، أَوْ يَسْتَجِيبَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ دَعْوَةً، أَوْ يُقِيلَ لَهُ عَثْرَةً، فَإِنَّ الْمُشْرِكَ أَجْهَلُ الْجَاهِلِينَ بِاللَّهِ، حَيْثُ جَعَلَ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ نِدًّا، وَذَلِكَ غَايَةُ الْجَهْلِ بِهِ، كَمَا أَنَّهُ غَايَةُ الظُّلْمِ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ الْمُشْرِكُ لَمْ يَظْلِمْ رَبَّهُ وَإِنَّمَا ظَلَمَ نَفْسَهُ.

الشرح:

هذا يُؤخذ منه أن الإنسان لا يتساهل بالذنوب والمعاصي ويقول: ما دامت أنها صغائر فالأمر سهل. فإذا تساهل بها صارت كبيرة؛ نظرًا لأنه استخف بأوامر الله عَزَّوَجَلَّ. فلا يُؤخذ من هذا التقسيم أن المعاصي بعضها أهون من بعض ويتساهل في بعضها؛ لأنه إذا تساهل فيها صارت كبائر كلها.

وقوله: (فَلَمَّا كَانَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ مُنَافِيًا بِالذَّاتِ لِهَذَا الْمَقْصُودِ كَانَ أَكْبَرَ الْكَبَائِرِ

عَلَى الْإِطْلَاقِ) الشرك هو أعظم الذنوب من نواحٍ:

أولًا: أن الله لا يغفره، بينما ما دون الشرك يغفره الله لمن يشاء.

ثانيًا: أن الله حرم على صاحبه الجنة، بينما أصحاب غيره من الكبائر لا تحرم عليهم الجنة، ولو عُذبوا فإنهم يدخلون الجنة، إذا كان معهم التوحيد.

ثالثًا: أن الكافر والمشرك حلال الدم والمال.

كل هذا يدل على أن هذا الشرك والكفر أشد وأكبر الكبائر.

والآن نسمع ونرى من يقول: إن الناس أحرار في دينهم، فدعهم ولا تحجر عليهم؛ اليهودي، والنصراني، والوثني كلهم أحرار في دينهم، ويقولون: حرية الدين وحرية العقيدة مكفولة للجميع!.

هذا إلحاد والعياذ بالله، ليس فيه حرية، والله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ خلق الخلق لعبادته، فإذا تركوا عبادته وأشركوا معه أباح الله دمائهم وأموالهم، وشرع للمؤمنين قتالهم وسبيهم، وتوعدهم بالخلود في النار، ولو كانت هناك حرية ما رُتبت هذه العقوبات على الكفار والمشركين والعصاة.

وَوَقَعَتْ مَسْأَلَةٌ، وَهِيَ: أَنَّ الْمُشْرِكَ إِنَّمَا قَصْدُهُ تَعْظِيمُ جَنَابِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَأَنَّهُ لِعَظَمَتِهِ لَا يَنْبَغِي الدُّخُولُ عَلَيْهِ إِلَّا بِالْوَسَائِطِ وَالشُّفَعَاءِ كَحَالِ الْمُلُوكِ، فَالْمُشْرِكُ لَمْ يَقْصِدْ الِاسْتِهَانَةَ بِجَنَابِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَإِنَّمَا قَصَدَ تَعْظِيمَهُ، وَقَالَ: إِنَّمَا أَعْبُدُ هَذِهِ الْوَسَائِطَ لِتُقَرِّبَنِي إِلَيْهِ وَتَدُلَّنِي وَتُدْخِلَنِي عَلَيْهِ، فَهُوَ الْمَقْصُودُ وَهَذِهِ وَسَائِلُ وَشُفَعَاءُ. فَلِمَ كَانَ هَذَا الْقَدْرُ مُوجِبًا لِسُخْطِهِ وَغَضَبِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَمُخَلِّدًا فِي النَّارِ، وَمُوجِبًا لِسَفْكِ دِمَاءِ أَصْحَابِهِ، وَاسْتِبَاحَةِ حَرِيمِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ؟

وَتَرَتَّبَ عَلَى هَذَا سُؤَالٌ آخَرُ، وَهُوَ أَنَّهُ هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَشْرَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ التَّقَرُّبَ إِلَيْهِ بِالشُّفَعَاءِ وَالْوَسَائِطِ، فَيَكُونَ تَحْرِيمُ هَذَا إِنَّمَا اسْتُفِيدَ مِنَ الشَّرْعِ، أَمْ ذَلِكَ قَبِيحٌ فِي الْفِطَرِ وَالْعُقُولِ، يَمْتَنِعُ أَنْ تَأْتِيَ بِهِ شَرِيعَةٌ، بَلْ جَاءَتِ الشَّرَائِعُ بِتَقْرِيرِ مَا فِي الْفِطَرِ وَالْعُقُولِ مِنْ قُبْحِهِ الَّذِي هُوَ أَقْبَحُ مِنْ كُلِّ قَبِيحٍ؟ وَمَا السِّرُّ فِي كَوْنِهِ لَا يَغْفِرُهُ مِنْ دُونِ سَائِرِ الذُّنُوبِ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

فَتَأَمَّلْ هَذَا السُّؤَالَ، وَاجْمَعْ قَلْبَكَ وَذِهْنَكَ عَلَى جَوَابِهِ وَلَا تَسْتَهْوِنْهُ، فَإِنَّ بِهِ يَحْصُلُ الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُوَحِّدِينَ، وَالْعَالِمِينَ بِاللَّهِ وَالْجَاهِلِينَ بِهِ، وَأَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ.

فَنَقُولُ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ وَالتَّأْيِيدُ، وَمِنْهُ نَسْتَمِدُّ الْمَعُونَةَ وَالتَّسْدِيدَ، فَإِنَّهُ مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ:

الشِّرْكُ شِرْكَانِ:

شِرْكٌ يَتَعَلَّقُ بِذَاتِ الْمَعْبُودِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ.

وَشِرْكٌ فِي عِبَادَتِهِ وَمُعَامَلَتِهِ، وَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَاتِهِ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ.

وَالشِّرْكُ الْأَوَّلُ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: شِرْكُ التَّعْطِيلِ: وَهُوَ أَقْبَحُ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ، كَشِرْكِ فِرْعَوْنَ؛ إِذْ قَالَ: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣]، وَقَالَ لِهَامَانَ: ﴿فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص:٣٨].

وَالشِّرْكُ وَالتَّعْطِيلُ مُتَلَازِمَانِ: فَكُلُّ مُشْرِكٍ مُعَطِّلٌ وَكُلُّ مُعَطِّلٍ مُشْرِكٌ، لَكِنَّ الشِّرْكَ لَا يَسْتَلْزِمُ أَصْلَ التَّعْطِيلِ، بَلْ يَكُونُ الْمُشْرِكُ مُقِرًّا بِالْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَصِفَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ مُعَطِّلٌ حَقَّ التَّوْحِيدِ.

وَأَصْلُ الشِّرْكِ وَقَاعِدَتُهُ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا هُوَ التَّعْطِيلُ، وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

تَعْطِيلُ الْمَصْنُوعِ عَنْ صَانِعِهِ وَخَالِقِهِ.

وَتَعْطِيلُ الصَّانِعِ سُبْحَانَهُ عَنْ كَمَالِهِ الْمُقَدَّسِ، بِتَعْطِيلِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ.

وَتَعْطِيلُ مُعَامَلَتِهِ عَمَّا يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ مِنْ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ.

وَمِنْ هَذَا: شِرْكُ طَائِفَةِ أَهْلِ وَحْدَةِ الْوُجُودِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: مَا ثَمَّ خَالِقٌ وَمَخْلُوقٌ، وَلَا هَاهُنَا شَيْئَانِ، بَلِ الْحَقُّ الْمُنَزَّهُ هُوَ عَيْنُ الْخَلْقِ الْمُشَبَّهِ.

وَمِنْهُ: شِرْكُ الْمَلَاحِدَةِ الْقَائِلِينَ بِقِدَمِ الْعَالَمِ وَأَبَدِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَعْدُومًا أَصْلًا، بَلْ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ، وَالْحَوَادِثُ بِأَسْرِهَا مُسْتَنِدَةٌ عِنْدَهُمْ إِلَى أَسْبَابٍ وَوَسَائِطَ اقْتَضَتْ إِيجَادَهَا، وَيُسَمُّونَهَا بِالْعُقُولِ وَالنُّفُوسِ.

وَمِنْ هَذَا: شِرْكُ مَنْ عَطَّلَ أَسْمَاءَ الرَّبِّ تَعَالَى وَأَوْصَافَهُ وَأَفْعَالَهُ مِنْ غُلَاةِ

الْجَهْمِيَّةِ وَالْقَرَامِطَةِ، فَلَمْ يُثْبِتُوا لَهُ اسْمًا وَلَا صِفَةً، بَلْ جَعَلُوا الْمَخْلُوقَ أَكْمَلَ مِنْهُ؛ إِذْ كَمَالُ الذَّاتِ بِأَسْمَائِهَا وَصِفَاتِهَا.

الشرح:

قوله: **(فَالْمُشْرِكُ لَمْ يَقْصِدْ الِاسْتِهَانَةَ بِجَنَابِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَإِنَّمَا قَصَدَ تَعْظِيمَهُ)** لكنه تعظيمٌ خطأ، لو قصد تعظيم الله جَلَّوَعَلَا، وأنه ما يُقدم عليه إلا بالوسائط والشفعاء بزعم المشركين، لكن هذا تعظيمٌ خاطئٌ، وكان استهانة بالله عَزَّوَجَلَّ وبعبادته وبحقه. فليس الكلام على نية الإنسان، وإنما الكلام على صحة العمل وصحة الاعتقاد، فصلاح النية لا يُبرر فعل الشرك أو اعتقاده.

والعبرة بالاتباع، لا بالنيات والمقاصد، فالمشرك لمَّا أشرك مع الله غيره لم يقصد الاستهانة به، وإنما نوى التعظيم؛ لأنه رأى أن ملوك الدنيا لا يُتوصل إليهم إلا بالوسائط والشفعاء لمكانتهم وعظمتهم عند الناس، فقاس الله جَلَّوَعَلَا على الملوك، واتخذ الوسطاء والشفعاء ليقربونه إليه؛ لأن الله بزعمه لا يُوصل إليه إلا بواسطة لعظمته. هذا قصده، لكن العبرة ليست بالقصد والنية، وإنما العبرة بالاتباع.

فالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ نهى عن الشرك، ونهى عن التعظيم الذي هو من هذا الباب، نهى أن يُتَّخذ معه شفعاء ووسطاء من باب التعظيم، وهناك فرقٌ بين الخالق والمخلوق، فالخالق يعلم كل شيء، والمخلوق لا يعلم ألا ما بلغه، لابد من وجود من يُبلغه حوائج الناس، أما الله جَلَّوَعَلَا فإنه عليم بأحوال خلقه.

وكذلك فإن الملوك قد لا يعطفون على الناس، وأما الله جَلَّوَعَلَا فهو

رحيم يحب الرحمة والعطف على الناس.

وأيضًا الملوك يحتاجون إلى وسطاء وإلى شفعاء يعينونهم، ولو لم يكن لهم وسطاء وشفعاء ما صار لهم حاشية ولا صار لهم أعوان، أما الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فإنه غنيٌ عن الشركاء، وغنيٌ عن الأعوان، ليس بحاجة إلى أن يُتخذ معه أعوان.

فهذه فروقٌ عظيمة بين الخالق والمخلوق، ولو كانت نيتهم حسنة فإن المدار ليس على النيات، المدار على الأمر والنهي والشرع.

وقد حكى الله عن المشركين أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، وقالوا: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] اتخذوهم وسائط وشفعاء؛ لأن الله -بزعمهم- لا يوصل إليه إلا بالوسائط والشفعاء، قاسوه على ملوك الدنيا!.

ومع أن هذه نيتهم **(كَانَ هَذَا الْقَدْرُ مُوجِبًا لِسُخْطِهِ وَغَضَبِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَمُخَلِّدًا فِي النَّارِ)**.

وقوله: **(بَلْ جَاءَتِ الشَّرَائِعُ بِتَقْرِيرِ مَا فِي الْفِطَرِ وَالْعُقُولِ مِنْ قُبْحِهِ الَّذِي هُوَ أَقْبَحُ مِنْ كُلِّ قَبِيحٍ)** أي: هذا النوع من التعظيم ممتنع في العقول للوجه التي سبق ذكرها، وممتنع في الشرع لأن الله نهى عنه.

وقوله: **(وَتَرَتَّبَ عَلَى هَذَا سُؤَالٌ آخَرُ)**؛ لأن الكتاب كله موضوعه في الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، فهذا من الأسئلة التي يُجاب عنها.

فَصْلٌ

النَّوْعُ الثَّانِي: شِرْكُ مَنْ جَعَلَ مَعَهُ إِلَهًا آخَرَ، وَلَمْ يُعَطِّلْ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَرُبُوبِيَّتَهُ، كَشِرْكِ النَّصَارَى الَّذِينَ جَعَلُوهُ ثَلَاثَةً، فَجَعَلُوا الْمَسِيحَ إِلَهًا، وَأُمَّهُ إِلَهًا.

وَمِنْ هَذَا: شِرْكُ الْمَجُوسِ الْقَائِلِينَ بِإِسْنَادِ حَوَادِثِ الْخَيْرِ إِلَى النُّورِ، وَحَوَادِثِ الشَّرِّ إِلَى الظُّلْمَةِ.

وَمِنْ هَذَا: شِرْكُ الْقَدَرِيَّةِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الْحَيَوَانَ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ أَفْعَالَ نَفْسِهِ، وَأَنَّهَا تَحْدُثُ بِدُونِ مَشِيئَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَلِهَذَا كَانُوا مِنْ أَشْبَاهِ الْمَجُوسِ.

وَمِنْ هَذَا: شِرْكُ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]. فَهَذَا جَعَلَ نَفْسَهُ نِدًّا لِلَّهِ، يُحْيِي وَيُمِيتُ بِزَعْمِهِ، كَمَا يُحْيِي اللَّهُ وَيُمِيتُ، فَأَلْزَمَهُ إِبْرَاهِيمُ أَنَّ طَرْدَ قَوْلِكَ أَنْ تَقْدِرَ عَلَى الْإِتْيَانِ بِالشَّمْسِ مِنْ غَيْرِ الْجِهَةِ الَّتِي يَأْتِي بِهَا اللَّهُ مِنْهَا، وَلَيْسَ هَذَا انْتِقَالًا كَمَا زَعَمَ بَعْضُ أَهْلِ الْجَدَلِ بَلْ إِلْزَامًا عَلَى طَرْدِ الدَّلِيلِ إِنْ كَانَ حَقًّا.

وَمِنْ هَذَا: شِرْكُ كَثِيرٍ مِمَّنْ يُشْرِكُ بِالْكَوَاكِبِ الْعُلْوِيَّاتِ، وَيَجْعَلُهَا أَرْبَابًا مُدَبِّرَةً لِأَمْرِ هَذَا الْعَالَمِ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ مُشْرِكِي الصَّابِئَةِ وَغَيْرِهِمْ.

وَمِنْ هَذَا: شِرْكُ عُبَّادِ الشَّمْسِ وَعُبَّادِ النَّارِ وَغَيْرِهِمْ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ مَعْبُودَهُ هُوَ الْإِلَهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ أَكْبَرُ الْآلِهَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ إِلَهٌ مِنْ جُمْلَةِ الْآلِهَةِ، وَأَنَّهُ إِذَا خَصَّهُ بِعِبَادَتِهِ وَالتَّبَتُّلِ إِلَيْهِ وَالِانْقِطَاعِ إِلَيْهِ أَقْبَلَ عَلَيْهِ وَاعْتَنَى بِهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ مَعْبُودَهُ الْأَدْنَى يُقَرِّبُهُ إِلَى الْمَعْبُودِ الَّذِي هُوَ فَوْقَهُ، وَالْفَوْقَانِيَّ يُقَرِّبُهُ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ، حَتَّى تُقَرِّبَهُ تِلْكَ الْآلِهَةُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَتَارَةً تَكْثُرُ الْوَسَائِطُ وَتَارَةً تَقِلُّ.

فَصْلٌ

وَأَمَّا الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ فَهُوَ أَسْهَلُ مِنْ هَذَا الشِّرْكِ، وَأَخَفُّ أَمْرًا، فَإِنَّهُ يَصْدُرُ مِمَّنْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّهُ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ وَلَا يُعْطِي وَلَا يَمْنَعُ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، وَلَكِنْ لَا يُخَصُّ اللَّهَ فِي مُعَامَلَتِهِ وَعُبُودِيَّتِهِ، بَلْ يَعْمَلُ لِحَظِّ نَفْسِهِ تَارَةً، وَلِطَلَبِ الدُّنْيَا تَارَةً، وَلِطَلَبِ الرِّفْعَةِ وَالْمَنْزِلَةِ وَالْجَاهِ عِنْدَ الْخَلْقِ تَارَةً، فَلِلَّهِ مِنْ عَمَلِهِ وَسَعْيِهِ نَصِيبٌ، وَلِنَفْسِهِ وَحَظِّهِ وَهَوَاهُ نَصِيبٌ، وَلِلشَّيْطَانِ نَصِيبٌ، وَلِلْخَلْقِ نَصِيبٌ، وَهَذَا حَالُ أَكْثَرِ النَّاسِ.

وَهُوَ الشِّرْكُ الَّذِي قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ: «الشِّرْكُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ»، قَالُوا: كَيْفَ نَنْجُو مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ»(١).

فَالرِّيَاءُ كُلُّهُ شِرْكٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]. أَيْ: كَمَا أَنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَلَا إِلَهَ سِوَاهُ، فَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ لَهُ وَحْدَهُ، فَكَمَا تَفَرَّدَ بِالْإِلَهِيَّةِ يَجِبُ أَنْ يُفْرَدَ بِالْعُبُودِيَّةِ. فَالْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ الْخَالِي مِنَ الرِّيَاءِ الْمُقَيَّدُ بِالسُّنَّةِ.

وَكَانَ مِنْ دُعَاءِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/٤٠٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/٧٠)، والطبراني في الأوسط (٤/١٠) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧١٦) من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِكَ خَالِصًا، وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ فِيهِ شَيْئًا»(١).

وَهَذَا الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ يُبْطِلُ ثَوَابَ الْعَمَلِ، وَقَدْ يُعَاقَبُ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ الْعَمَلُ وَاجِبًا، فَإِنَّهُ يُنْزِلُهُ مَنْزِلَةَ مَنْ لَمْ يَعْمَلْهُ، فَيُعَاقَبُ عَلَى تَرْكِ الْأَمْرِ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ عِبَادَةً خَالِصَةً، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]. فَمَنْ لَمْ يُخْلِصْ لِلَّهِ فِي عِبَادَتِهِ لَمْ يَفْعَلْ مَا أُمِرَ بِهِ، بَلِ الَّذِي أَتَى بِهِ شَيْءٌ غَيْرُ الْمَأْمُورِ بِهِ، فَلَا يَصِحُّ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ.

وَيَقُولُ اللَّهُ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي فَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ بِهِ، وَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ»(٢).

وَهَذَا الشِّرْكُ يَنْقَسِمُ إِلَى: مَغْفُورٍ وَغَيْرِ مَغْفُورٍ، وَأَكْبَرَ وَأَصْغَرَ.

وَالنَّوْعُ الْأَوَّلُ يَنْقَسِمُ إِلَى: كَبِيرٍ وَأَكْبَرَ، وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْهُ مَغْفُورًا، فَمِنْهُ الشِّرْكُ بِاللَّهِ فِي الْمَحَبَّةِ وَالتَّعْظِيمِ: أَنْ يُحِبَّ مَخْلُوقًا كَمَا يُحِبُّ اللَّهَ، فَهَذَا مِنَ الشِّرْكِ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ، وَهُوَ الشِّرْكُ الَّذِي قَالَ سُبْحَانَهُ فِيهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة:١٦٥]. وَقَالَ أَصْحَابُ هَذَا الشِّرْكِ لِآلِهَتِهِمْ وَقَدْ جَمَعَهُمُ الْجَحِيمُ: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٧، ٩٨].

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ مَا سَوَّوْهُمْ بِهِ سُبْحَانَهُ فِي الْخَلْقِ، وَالرِّزْقِ، وَالْإِمَاتَةِ، وَالْإِحْيَاءِ، وَالْمُلْكِ، وَالْقُدْرَةِ، وَإِنَّمَا سَوَّوْهُمْ بِهِ فِي الْحُبِّ، وَالتَّأَلُّهِ، وَالْخُضُوعِ لَهُمْ وَالتَّذَلُّلِ. وَهَذَا غَايَةُ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ، فَكَيْفَ يُسَوَّى التُّرَابُ بِرَبِّ الْأَرْبَابِ؟

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٦١٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَكَيْفَ يُسَوَى الْعَبِيدُ بِمَالِكِ الرِّقَابِ؟ وَكَيْفَ يُسَوَى الْفَقِيرُ بِالذَّاتِ، الضَّعِيفُ بِالذَّاتِ، الْعَاجِزُ بِالذَّاتِ، الْمُحْتَاجُ بِالذَّاتِ، الَّذِي لَيْسَ لَهُ مِنْ ذَاتِهِ إِلَّا الْعَدَمُ، بِالْغَنِيِّ بِالذَّاتِ، الْقَادِرِ بِالذَّاتِ، الَّذِي غِنَاهُ، وَقُدْرَتُهُ، وَمُلْكُهُ، وَجُودُهُ، وَإِحْسَانُهُ، وَعِلْمُهُ، وَرَحْمَتُهُ، وَكَمَالُهُ الْمُطْلَقُ التَّامُّ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ؟!

فَأَيُّ ظُلْمٍ أَقْبَحُ مِنْ هَذَا؟ وَأَيُّ حُكْمٍ أَشَدُّ جَوْرًا مِنْهُ؟ حَيْثُ عَدَلَ مَنْ لَا عِدْلَ لَهُ بِخَلْقِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١].

فَعَدَلَ الْمُشْرِكُ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ، بِمَنْ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ وَلَا لِغَيْرِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، فَيَا لَكَ مِنْ عَدْلٍ تَضَمَّنَ أَكْبَرَ الظُّلْمِ وَأَقْبَحَهُ!.

الشرح:

الشرك الأكبر يُسمى: الشرك الظاهر، وهذا لا يقع فيه المؤمن، والشرك الأصغر يُسمى: الشرك الخفي، وهو أخفى من دبيب النمل في سواد الليل؛ لأنه يدخل في النيات والمقاصد، وهذا قلَّ من يسلم منه، فيقع فيه الكثير من المؤمنين، فمنهم من يتنبه ويطرد هذا الشرك، ويرجع إلى التوحيد، ومنهم من يستمر معه فلا يصح عمله الذي يعمله ولا يُثاب عليه.

وهذا النوع من الشرك خطير جدًّا، فبعض الناس إذا سمع أنه شرك أصغر تساهل فيه، ولكنه شديد، فإذا كنت تعمل ولا يُكتب لك أجر فما فائدة العمل؟ وكل ذلك بسبب أنك أدخلت في نيتك شيئًا من الرياء، والسُمعة، وحب المدح، وحب الشهرة، وطمع الدنيا، أو غير ذلك، وهذا مشكلٌ جدًّا،

ولهذا خافه النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على أصحابه الذين هم خير القرون، خافه عليهم لأنه خفيٌ، وقلَّ من يتنبه له، وقلَّ من يسلم منه، والإنسان بشر يحب المدح، ويحب الثناء، ويحب الجاه، ويحب المال، تؤثر عليه هذه الأشياء. فالإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ عزيز، هذا وإن كان شركًا أصغر، ولا يُخرج من الملة، لكنه خطيرٌ جدًّا؛ لأنه قلَّ من يسلم منه إلا من رحم الله عَزَّوَجَلَّ.

فلذلك يجب على المسلم أنه يتفطن لنفسه، ويُخلص أعماله لله، وإذا وقع في نفسه شيء من الشرك الأصغر يبادر بطرده، والسلامة منه والاستعاذة بالله: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ»**.

وقوله: **(فَالْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ الْخَالِي مِنَ الرِّيَاءِ)** يعني: من الشرك، **(الْمُقَيَّدُ بِالسُّنَّةِ)** يعني: الخالي من البدعة، فلا يكون العمل صالحًا إلا بهذين الشرطين: السلامة من الشرك، والسلامة من البدعة.

وهذا عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ خافه على نفسه فدعا بهذا الدعاء: **(اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا)** هذا خوف من البدعة، فإن البدعة عمل فاسد، **(وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِكَ خَالِصًا، وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ فِيهِ شَيْئًا)** وهذا الخوف من الشرك والرياء.

وقوله: **(وَهَذَا الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ يُبْطِلُ ثَوَابَ الْعَمَلِ)** فلا يبقى لصاحبه عمل، وقد يُعاقب عليه إذا كان العمل واجبًا، يعني: لو صلى الفريضة -وهي واجبة- وزينها وهو يريد أن يُمدح بها ويُثنى عليه، فإذا صلى عند الناس زيَّن صلاته، وإذا صلى وحده نقرها، فهذا رياء يحبط العمل، فلا يكون له ثواب، ولا يسلم من العقاب؛ لأنه لم يؤد الواجب.

فَصْلٌ

وَيَتْبَعُ هَـذَا الـشِّرْكَ الـشِّرْكُ بِـهِ سُبْحَانَهُ فِي الْأَفْعَـالِ وَالْأَقْـوَالِ وَالْإِرَادَاتِ وَالنِّيَّاتِ.

فَالشِّرْكُ فِي الْأَفْعَالِ: كَالسُّجُودِ لِغَيْرِهِ، وَالطَّوَافِ بِغَيْرِ بَيْتِهِ، وَحَلْقِ الرَّأْسِ عُبُودِيَّةً وَخُضُوعًا لِغَيْرِهِ، وَتَقْبِيلِ الْأَحْجَارِ غَيْرِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ الَّذِي هُوَ يَمِينُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، وَتَقْبِيلِ الْقُبُورِ وَاسْتِلَامِهَا وَالسُّجُودِ لَهَا.

وَقَدْ لَعَنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنِ اتَّخَذَ قُبُورَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ مَسَاجِدَ يُصَلِّي لِلَّهِ فِيهَا، فَكَيْفَ بِمَنِ اتَّخَذَ الْقُبُورَ أَوْثَانًا يَعْبُدُهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ؟!

فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»(١).

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ: «إِنَّ شِرَارَ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»(٢).

الشرح:

التبرك بالجمادات والأضرحة، وتقبيلها، والتمسح بها، والطواف بها، هذا -والعياذ بالله- كثيرٌ في هذا الزمان، فأهل البدع يطوفون بالقبور، ويعتبرون

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ١٨٦)، وابن خزيمة (٧٨٩)، وابن حبان (١٥/ ٢٦٠)، والطبراني في الكبير (١٠٤١٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وعلَّق البخاري شطره الأول جازمًا به بعد حديث رقم (٧٠٦٧).

هذا من المحبة للصالحين، ومن التقرب إلى الله، وقد زيَّن لهم الشيطان ذلك. وليس على وجه الأرض ما يجوز الطواف به إلا الكعبة بيت الله العتيق، فلا يُطاف بالقبور، ولا بالأبنية، ولا بالصخور، ولا بالجبال، لا يُطاف إلا في مكان واحد وهو حول الكعبة المشرفة.

وكذلك الاستلام والتقبيل والتبرك لا يجوز إلا بالحجر الأسود والركن اليماني، وما عدا ذلك لا يُستلم ولا يُقبل، ولا شيءٌ على وجه الأرض، حتى الكعبة -ما عدا الركنين: الركن اليماني، والحجر الأسود- جدرانها وأركانها الثانية لا تُقبل ولا تُمسح(١)؛ لأن هذا شيء لم يرد ولم يشرعه الله عَزَّوَجَلَّ، فكيف بغير الكعبة؟!

وقوله: **(وَقَدْ لَعَنَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنِ اتَّخَذَ قُبُورَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ مَسَاجِدَ)** يعني: يتخذونها مصليات؛ لأن المسجد هو المُصلى، فالذي يعتاد الصلاة عند القبر، ويظن أن هذا فيه أجر، وأنه يُقربه إلى الله؛ هذه وسيلة من وسائل الشرك، وإن كان يتوجه بصلاته لله جَلَّ وَعَلَا، لكنه ظن أن لصلاته عند القبر مزية، وأنها تُقرب إلى الله، وأنها مشروعة، فهذا محرم، وهو وسيلة إلى الشرك.

أما إذا كان يقصد التقرب إلى القبر فهذا شركٌ صريح، وهو شركٌ أكبر. وقد نهى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن اتخاذ القبور مساجد، بمعنى: أن تُبنى عليها مساجد، أو أن يُصلى عندها ولو لم يكن عليها مساجد، فالمساجد تشمل:

---

(١) كما في الحديث عن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: «لَمْ أَرَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْسَحُ مِنَ الْبَيْتِ إِلَّا الرُّكْنَيْنِ الْيَمَانِيَيْنِ». أخرجه البخاري (١٦٠٩)، ومسلم (١٢٦٧).

المسجد المبني، والمصلى الذي لم يُبن، كله يُسمى مسجدًا، قال ﷺ: «جُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»(١)، وقوله: « مَسْجِدًا » يعنى: صالحة للصلاة فيها، فليس الأمر مُقتصرًا على أنها يُبنى عليها، بل حتى لو صلى عندها وليس فيها بناء لمسجد فقد اتخذها مسجدًا.

وقوله: (يُصَلِّي لِلَّهِ فِيهَا) يعني: هذا النهي وهذا الوعيد مع أنه يتوجه بصلاته إلى الله وليس إلى القبر؛ لأنه وسيلة إلى الشرك، أما إذا كان يُصلي للقبر فهذا شركٌ أكبر، وهو أشد، فالذي يقصد القبور وأصحابها ويتقرب إليهم؛ هذا شركٌ أكبر.

وقوله ﷺ: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى» ما هو السبب؟ «اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، هذا هو سبب لعنتهم، وكذلك من تشبه بهم من هذه الأمة فإنه ملعون، من اتخذ القبور مساجد يصلي عندها، ويذهب إليها، ويتبرك بها، ويتمسح بتربتها؛ هذا ملعون بنص هذا الحديث.

وقوله: (إِنَّ شِرَارَ النَّاسِ) يعني: أشر من الذي يتخذ القبر مسجدًا يصلي عنده، فمن يبني عليه هذا هو أشر الناس والعياذ بالله، فهو يفعل ذلك ويظن أنه من خير الناس، وأن هذا من محبة الصالحين، ومن التقرب إلى الله .. إلى غير ذلك من الأقوال الشيطانية التي زينها لهم الشيطان، لكن لَـمَّا أن الله جَلَّوَعَلَا نهى عن ذلك ولم يأمر به صار بفعله هذا من أشر الناس.

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا عَنْهُ: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»(١).

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَصَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَعَنَ اللَّهُ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ»(٢).

وَقَالَ: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»(٣).

وَقَالَ: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، كَانَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٤).

فَهَذَا حَالُ مَنْ سَجَدَ لِلَّهِ فِي مَسْجِدٍ عَلَى قَبْرٍ، فَكَيْفَ حَالُ مَنْ سَجَدَ لِلْقَبْرِ نَفْسِهِ؟ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ»(٥).

الشرح:

يُبين لنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن من كان قبلنا من الكفرة والمشركين اتخذوا

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٤٣).

(٣) أخرجه مالك في الموطأ، رواية يحيى الليثي (١/ ١٧٢) عن عطاء بن يسار مرسلًا.

ووصله البزار كما في كشف الأستار (١/ ٢٢٠)، وابن عبد البر في التمهيد (٥/ ٤٣) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٤٣٤)، ومسلم (٥٢٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٦)، والبزار في مسنده (١٦/ ٤٨)، وأبو يعلى الموصلي (١٢/ ٣٣)، والبيهقي في معرفة السنن والآثار (٥/ ٣٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القبور مساجد، وكفى بهذا رادع أن نتشبه بهم، ثم أتبع ذلك بالنهي الصريح فقال: **«أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»**، ثم أكّد ذلك مرةً ثانية فقال: **«فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»**، وهذا تأكيدٌ بعد تأكيد.

فأين يذهب الذين يبنون المشاهد على القبور، ويذبحون عندها، وينذرون لها، ويطوفون بها، ويهتفون بها، ويستغيثون، ويستنجدون، ويزعمون أن هذا من الإسلام؟! بل هذا هو الشرك، وهو ودين الجاهلية سواء بسواء، مع أنهم يقولون: لا إله إلا الله، ويصومون، ويصلون، ويحجون، ويتصدقون، لكن كل هذا باطل؛ لأنه لم يُؤسس على التوحيد، وعقيدتهم فاسدة، والمدار على العقيدة.

وقوله: **«لَعَنَ اللَّهُ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ»** فيه تحريم زيارة النساء للقبور؛ لأن اللعن يقتضي شدة التحريم، وأنه كبيرة من كبائر الذنوب. بينما الرجال يُستحب لهم زيارة القبور، فما الفرق؟ الفرق: أن المرأة ضعيفة، وأنها إذا رأت قبر قريبها قد يصيبها الجزع والنياحة والسخط، خلافًا للرجل فإنه أقوى منها وأثبت. كما أن المرأة عورة، فإذا ذهبت إلى المقابر وحدها -والمقابر لا تخلو من زوار- قد يحصل لها مفاسد مما هو معلوم وقوعه عند الأضرحة من المفاسد، والزنا، والشر.

وقوله: **«وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ»**، يعني: الذين يصلون عندها، ويبنون عليها، **«وَالسُّرُجَ»** وهي الإضاءة، والقبور لا تُضاء بالأنوار ولا يُجعل فيها مصابيح؛ لأن هذا يُعلق قلوب العوام بها، فيكون سببًا للشرك وتعظيم القبور.

وقوله: **«اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ»** هذا أيضًا زيادة تأكيد، وأن غضب الله ليس

بغضب يسير وإنما شديد والعياذ بالله، على منْ؟ قال: «**عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**» يعني: يصلون عندها تبركًا بها، أو يبنون عليها المساجد لأجل جلب الناس.

والآن في كثير من البلاد الإسلامية المسجد الذي ليس فيه قبر ليس له قيمة، ولا يُتوجه إليه الناس، وليس هو عندهم بشيء، فلا يتهافتون ولا يأتون إليها إلا لأجل القبور التي فيها.

وقوله: «**أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، وهم يظنون أنهم أصلح الخلق، وأنَّ عملهم هذا بِرٌّ وإحسان.

وقوله: (**فَهَذَا حَالُ مَنْ سَجَدَ لِلَّهِ فِي مَسْجِدٍ عَلَى قَبْرٍ، فَكَيْفَ حَالُ مَنْ سَجَدَ لِلْقَبْرِ نَفْسِهِ؟**)؛ لأن الأول كان سجوده لله عند القبر وسيلة إلى الشرك، أما الذي يسجد للقبر ففعله أشد، وهو شركٌ أكبر.

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**»، دعا ربه أن يُجنب قبره ما وقع في قبور الأنبياء السابقين التي اتُخذت أوثانًا، والوثن: ما يُعبد من دون الله، مِنْ وثن بالمكان إذا أقام فيه، فالجلوس عند القبر، والتردد عليه، والعكوف عنده، هذا يسبب عبادته من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

فلا يجوز الإكثار من زيارة القبور، أو السفر لزيارة القبور، أو الاعتكاف عندها، والجلوس عندها، حتى قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُجلس عنده، ولا يُعكف عنده، فكيف بقبر غيره؟! فدل على أن القبر إذا عُظِّم فقد اتُّخذ وثنًا.

وَقَدْ حَمَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَانِبَ التَّوْحِيدِ أَعْظَمَ حِمَايَةٍ، حَتَّى نَهَى عَنْ صَلَاةِ التَّطَوُّعِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَعِنْدَ غُرُوبِهَا(١)؛ لِئَلَّا يَكُونَ ذَرِيعَةً إِلَى التَّشَبُّهِ بِعُبَّادِ الشَّمْسِ الَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهَا فِي هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ، وَسَدَّ الذَّرِيعَةَ بِأَنْ مَنَعَ الصَّلَاةَ بَعْدَ الْعَصْرِ وَالصُّبْحِ(٢)؛ لِاتِّصَالِ هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ بِالْوَقْتَيْنِ اللَّذَيْنِ يَسْجُدُ الْمُشْرِكُونَ فِيهِمَا لِلشَّمْسِ.

وَأَمَّا السُّجُودُ لِغَيْرِ اللَّهِ فَقَالَ: «لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلَّهِ»(٣).

وَ«لَا يَنْبَغِي» فِي كَلَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلَّذِي هُوَ فِي غَايَةِ الِامْتِنَاعِ شَرْعًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم:٩٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ [يس:٦٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾ [الشعراء:٢١٠، ٢١١]، وَقَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الفرقان:١٨].

الشرح:

قوله: (وَقَدْ حَمَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَانِبَ التَّوْحِيدِ أَعْظَمَ حِمَايَةٍ)؛ لأنه سد الوسائل المُفضية إلى الشرك، فهي في ذاتها ليست بشرك، ولكنها تُفضي إلى

---

(١) كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أخرجه البخاري (٥٨٢)، ومسلم (٨٢٨).

(٢) كما في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخرجه البخاري (٥٨١)، ومسلم (٨٢٥).

(٣) أخرجه ابن حبان (٩/ ٤٧٠)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٠٦)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ١٣٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه أحمد (٣/ ١٥٨)، والنسائي في الكبرى (٨/ ٢٥٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولفظه: «لَا يَصْلُحُ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ».

الشرك، فلذلك نهى عنها كما نهى عن البناء على القبور، وإسراج القبور، والكتابة على القبور، وتجصيص القبور وزخرفتها؛ لأن ذلك كله من الوسائل المفضية إلى الشرك.

وقوله: **(حَتَّى نَهَى عَنْ صَلَاةِ التَّطَوُّعِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَعِنْدَ غُرُوبِهَا)**؛ لأن هذا سد لوسيلة الشرك، فقد كان المشركون يسجدون للشمس عند طلوعها وعند غروبها، فنهانا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الصلاة لله في هذا الوقت؛ لئلا نتشبه بهم.

ولما قدِم معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من سفر وقد رأى فيه أناسًا يسجدون لملوكهم، ظن أن الرسول أحق بذلك، فأراد أن يسجد له، فمنعه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك وقال: **«لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلَّهِ»**، وفي رواية: **«لَا يَصْلُحُ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ، وَلَوْ صَلَحَ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا، مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا»**، فالسجود لا يكون إلا لله، فإن كان سجود العبادة فهذا مفروغ منه لأنه شرك أكبر، وأما سجود التحية وسجود التعظيم، والانحناء، فهذا لا يجوز؛ لأنه نوعٌ من التعظيم لغير الله.

وقوله: **«لَا يَنْبَغِي»**، هذه كلمة قوية في المنع، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾، وقال: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾، فالرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس بشاعر، ولا ينبغي له أن يكون شاعر، وقال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾، يعني: ما تنزلت بالقرآن؛ لأنه تنزيلٌ من عند الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يقربه الشيطان، وما ينبغي له أن يتنزل به.

فَصْلٌ

وَمِنَ الشِّرْكِ بِهِ سُبْحَانَهُ: الشِّرْكُ بِهِ فِي اللَّفْظِ، كَالْحَلِفِ بِغَيْرِهِ، كَمَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ»(١). صَحَّحَهُ الْحَاكِمُ وَابْنُ حِبَّانَ.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْقَائِلِ لِلْمَخْلُوقِ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، كَمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟ قُلْ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ»(٢).

هَذَا مَعَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَثْبَتَ لِلْعَبْدِ مَشِيئَةً، كَقَوْلِهِ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير:٢٨]. فَكَيْفَ بِمَنْ يَقُولُ: أَنَا مُتَوَكِّلٌ عَلَى اللهِ وَعَلَيْكَ، وَأَنَا فِي حَسْبِ اللهِ وَحَسْبِكَ، وَمَا لِي إِلَّا اللَّهُ وَأَنْتَ، وَهَذَا مِنَ اللهِ وَمِنْكَ، وَهَذَا مِنْ بَرَكَاتِ اللهِ وَبَرَكَاتِكَ، وَاللَّهُ لِي فِي السَّمَاءِ وَأَنْتَ فِي الْأَرْضِ، أَوْ يَقُولُ: وَاللَّهِ، وَحَيَاةِ فُلَانٍ، أَوْ يَقُولُ: نَذْرًا لِلَّهِ وَلِفُلَانٍ، وَأَنَا تَائِبٌ لِلَّهِ وَلِفُلَانٍ، أَوْ أَرْجُو اللَّهَ وَفُلَانًا، وَنَحْوُ ذَلِكَ؟.

فَوَازِنْ بَيْنَ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ وَبَيْنَ قَوْلِ الْقَائِلِ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ. ثُمَّ انْظُرْ أَيُّهُمَا أَفْحَشُ، يَتَبَيَّنْ لَكَ أَنَّ قَائِلَهَا أَوْلَى بِجَوَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقَائِلِ تِلْكَ الْكَلِمَةِ، وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ قَدْ جَعَلَهُ نِدًّا لِلَّهِ بِهَا، فَهَذَا قَدْ جَعَلَ مَنْ لَا يُدَانِي رَسُولَ اللهِ

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٢٥)، وأبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وابن حبان (١٠/ ٢٠٠)، والحاكم (٤/ ٢٣١) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤)، والنسائي في الكبرى (٩/ ٣٢٦)، وابن ماجه (٢١٧٧)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٠٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ -بَلْ لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَعْدَائِهِ- نِدًّا لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَالسُّجُودُ، وَالْعِبَادَةُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالْإِنَابَةُ، وَالتَّقْوَى، وَالْخَشْيَةُ، وَالْحَسْبُ، وَالتَّوْبَةُ، وَالنَّذْرُ، وَالْحَلِفُ، وَالتَّسْبِيحُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَالتَّهْلِيلُ، وَالتَّحْمِيدُ، وَالِاسْتِغْفَارُ، وَحَلْقُ الرَّأْسِ خُضُوعًا وَتَعَبُّدًا، وَالطَّوَافُ بِالْبَيْتِ، وَالدُّعَاءُ؛ كُلُّ ذَلِكَ مَحْضُ حَقِّ اللَّهِ، لَا يَصْلُحُ وَلَا يَنْبَغِي لِسِوَاهُ مِنْ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ وَلَا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ.

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ أَنَّ رَجُلًا أُتِيَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ، قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ وَلَا أَتُوبُ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقَالَ: «عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ»(١).

الشرح:

الشرك ضد التوحيد، وهو عبادة غير الله عَزَّوَجَلَّ بأي نوعٍ من أنواع العبادة، كالذبح، والنذر، والاستغاثة، والدعاء.. وغير ذلك، وهو ينقسم إلى قسمين:

الأول: شركٌ أكبر يُخرج من الملة.

الثاني: شركٌ أصغر لا يُخرج من الملة، لكنه ينقص التوحيد.

والشرك الأصغر على قسمين:

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٥)، والطبراني في الكبير (٨٣٩)، والحاكم (٤/ ٢٨٤) من حديث الأسود بن سريع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

- شرك ظاهر في الألفاظ، مثل الحلف بغير الله، وقول: **(مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ)**، وقول: **(وَمَا لِي إِلَّا اللَّهُ وَأَنْتَ)**، وإن كان لم ينو بقلبه هذا اللفظ، فهو شركٌ في الألفاظ لا في النيات.

- وشركٌ في النيات لا في الألفاظ، مثل: الرياء، والرياء يكون في القلب ولا يظهر، وهو شركٌ أصغر قلَّ من يسلم منه إلا من أخلص لله عَزَّوَجَلَّ بنيته وقصده، ولم يُرد مدحًا ولا ثناءً من الناس، وإنما يريد وجه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولا يريد طمعًا من مطامع الدنيا. وهذا النوع من الشرك سماه النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالشرك الخفي؛ لأنه لا يعلمه إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

وقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ»**، و**«مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»**[(١)]، والحلف تعظيم للمحلوف، فلا يُعظم إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: **(فَكَيْفَ بِمَنْ يَقُولُ: أَنَا مُتَوَكِّلٌ عَلَى اللَّهِ وَعَلَيْكَ)**، فلا تأتي بالواو لأن الواو للتشريك والمساواة، لكن تأتي بـ (ثُم)؛ لأنها تفيد الترتيب والتعقيب، فتقول: أنا متوكل على الله ثم عليك، لولا الله ثم أنت، ما شاء الله ثم شئت.

ولما سمع الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الرجل الذي قال له: **(مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ)**، قال: **«أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟»** يعني: شريكًا.

وهناك ألفاظ أفحش من هذه التي قال فيها النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هذه المقالة، فإذا كان لا يُقال للرسول: **(مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ)**، فكيف يُقال لغير الرسول: ما شاء الله وشئت؟! هذه أشد.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٧٩)، ومسلم (١٦٤٦) من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

والرسول (**مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ**) ولي لرب العالمين، وقد تُقال هذه المقالة وأكثر منها لمن هو عدو لرب العالمين، فتكون نكارتها أوضح، وحكمها أشد.

وقوله: (**اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ وَلَا أَتُوبُ إِلَى مُحَمَّدٍ**)؛ لأن التوبة والاستغفار نوع من العبادة لا تصلح إلا لله عَزَّوَجَلَّ، فلا يصلح أن يُعبد غير الله بأي نوعٍ من أنواع العبادة.

وقد أقرَّه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مقالته هذه، وقال: «**عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ**»؛ لأن التوبة حقٌّ لله عَزَّوَجَلَّ، لا يجوز أن يُتوجه بها إلى غيره.

فَصْلٌ

وَأَمَّا الشِّرْكُ فِي الْإِرَادَاتِ وَالنِّيَّاتِ، فَذَلِكَ الْبَحْرُ الَّذِي لَا سَاحِلَ لَهُ، وَقَلَّ مَنْ يَنْجُو مِنْهُ، فَمَنْ أَرَادَ بِعَمَلِهِ غَيْرَ وَجْهِ اللَّهِ، وَنَوَى شَيْئًا غَيْرَ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ، وَطَلَبَ الْجَزَاءَ مِنْهُ، فَقَدْ أَشْرَكَ فِي نِيَّتِهِ وَإِرَادَتِهِ.

وَالْإِخْلَاصُ: أَنْ يُخْلِصَ لِلَّهِ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَإِرَادَتِهِ وَنِيَّتِهِ، وَهَذِهِ هِيَ الْحَنِيفِيَّةُ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا عِبَادَهُ كُلَّهُمْ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ غَيْرَهَا.

وَهِيَ حَقِيقَةُ الْإِسْلَامِ، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥]. وَهِيَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي مَنْ رَغِبَ عَنْهَا فَهُوَ مِنْ أَسْفَهِ السُّفَهَاءِ.

الشرح:

هذا النوع الثاني وهو الشرك الخفي، وهو لا يظهر في الألفاظ وإنما يكون في القلب، وهذا أخطر شيء على الناس؛ لأن الناس يحبون المدح والثناء، ويفرحون بالذي يمدحهم، وقد يرغبون بهذا في العبادات فتبطل والعياذ بالله، فإذا زينوا العبادة وحسنوها لأجل أن يُمدحوا بطلت عبادتهم، فهو خطير جدًّا.

فَصْلٌ

إِذَا عَرَفْتَ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةَ انْفَتَحَ لَكَ بَابُ الْجَوَابِ عَنِ السُّؤَالِ الْمَذْكُورِ، فَنَقُولُ، وَمِنَ اللَّهِ وَحْدَهُ نَسْتَمِدُّ الصَّوَابَ:

حَقِيقَةُ الشِّرْكِ: هُوَ التَّشَبُّهُ بِالْخَالِقِ وَتَشْبِيهُ الْمَخْلُوقِ بِهِ، هَذَا هُوَ التَّشْبِيهُ فِي الْحَقِيقَةِ، لَا إِثْبَاتُ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي وَصَفَ اللَّهُ بِهَا نَفْسَهُ، وَوَصَفَهُ بِهَا رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَكَسَ مَنْ نَكَسَ اللَّهُ قَلْبَهُ وَأَعْمَى بَصِيرَتَهُ وَأَرْكَسَهُ بِكَسْبِهِ، وَجَعَلَ التَّوْحِيدَ تَشْبِيهًا وَالتَّشْبِيهَ تَعْظِيمًا وَطَاعَةً.

فَالْمُشْرِكُ مُشَبِّهٌ لِلْمَخْلُوقِ بِالْخَالِقِ فِي خَصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ. فَإِنَّ مِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ: التَّفَرُّدَ بِمِلْكِ الضُّرِّ وَالنَّفْعِ وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ، وَذَلِكَ يُوجِبُ تَعْلِيقَ الدُّعَاءِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالتَّوَكُّلِ بِهِ وَحْدَهُ، فَمَنْ عَلَّقَ ذَلِكَ بِمَخْلُوقٍ فَقَدْ شَبَّهَهُ بِالْخَالِقِ، وَجَعَلَ مَنْ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا -فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِ- شَبِيهًا بِمَنْ لَهُ الْأَمْرُ كُلُّهُ.

فَأَزِمَّةُ الْأُمُورِ كُلِّهَا بِيَدَيْهِ، وَمَرْجِعُهَا إِلَيْهِ، فَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ، بَلْ إِذَا فَتَحَ لِعَبْدِهِ بَابَ رَحْمَتِهِ لَمْ يُمْسِكْهَا أَحَدٌ، وَإِنْ أَمْسَكَهَا عَنْهُ لَمْ يُرْسِلْهَا إِلَيْهِ أَحَدٌ. فَمِنْ أَقْبَحِ التَّشْبِيهِ: تَشْبِيهُ هَذَا الْعَاجِزِ الْفَقِيرِ بِالذَّاتِ بِالْقَادِرِ الْغَنِيِّ بِالذَّاتِ.

وَمِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ: الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، الَّذِي لَا نَقْصَ فِيهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَذَلِكَ يُوجِبُ أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ كُلُّهَا لَهُ وَحْدَهُ، وَالتَّعْظِيمُ وَالْإِجْلَالُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالدُّعَاءُ، وَالرَّجَاءُ، وَالْإِنَابَةُ، وَالتَّوْبَةُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالِاسْتِعَانَةُ، وَغَايَةُ الذُّلِّ مَعَ غَايَةِ الْحُبِّ؛ كُلُّ ذَلِكَ يَجِبُ عَقْلًا وَشَرْعًا وَفِطْرَةً أَنْ

يَكُونَ لَهُ وَحْدَهُ، وَيَمْتَنِعُ عَقْلًا وَشَرْعًا وَفِطْرَةً أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ، فَمَنْ جَعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لِغَيْرِهِ فَقَدْ شَبَّهَ ذَلِكَ الْغَيْرَ بِمَنْ لَا شَبِيهَ لَهُ وَلَا مَثِيلَ وَلَا نِدَّ لَهُ، وَذَلِكَ أَقْبَحُ التَّشْبِيهِ وَأَبْطَلُهُ، وَلِشِدَّةِ قُبْحِهِ وَتَضَمُّنِهِ غَايَةَ الظُّلْمِ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ، مَعَ أَنَّهُ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ.

وَمِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ: الْعُبُودِيَّةُ الَّتِي قَامَتْ عَلَى سَاقَيْنِ لَا قِوَامَ لَهَا بِدُونِهِمَا: غَايَةِ الْحُبِّ، مَعَ غَايَةِ الذُّلِّ. هَذَا تَمَامُ الْعُبُودِيَّةِ، وَتَفَاوُتُ مَنَازِلِ الْخَلْقِ فِيهَا بِحَسَبِ تَفَاوُتِهِمْ فِي هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ.

فَمَنْ أَعْطَى حُبَّهُ وَذُلَّهُ وَخُضُوعَهُ لِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ شَبَّهَهُ بِهِ فِي خَالِصِ حَقِّهِ، وَهَذَا مِنَ الْمُحَالِ أَنْ تَجِيءَ بِهِ شَرِيعَةٌ مِنَ الشَّرَائِعِ، وَقُبْحُهُ مُسْتَقِرٌّ فِي كُلِّ فِطْرَةٍ وَعَقْلٍ، وَلَكِنْ غَيَّرَتِ الشَّيَاطِينُ فِطَرَ أَكْثَرِ الْخَلْقِ وَعُقُولَهُمْ، وَأَفْسَدَتْهَا عَلَيْهِمْ، وَاجْتَالَتْهُمْ عَنْهَا. وَمَضَى عَلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى مَنْ سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنَى، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ بِمَا يُوَافِقُ فِطَرَهُمْ وَعُقُولَهُمْ، فَازْدَادُوا بِذَلِكَ نُورًا عَلَى نُورٍ، ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور:٣٥].

الشرح:

قوله: (حَقِيقَةُ الشِّرْكِ: هُوَ التَّشَبُّهُ بِالْخَالِقِ وَتَشْبِيهُ الْمَخْلُوقِ بِهِ) يعني: مشاركة الخالق بشيء من خصائصه، أو تشريك غيره معه فيها.

وقوله: (لَا إِثْبَاتُ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي وَصَفَ اللَّهُ بِهَا نَفْسَهُ) هذا رد على المعطلة الذين يقولون: الشرك هو إثبات الصفات!. وهذا من المغالطة، فإثبات الصفات لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ توحيد وليس شركًا، لكنهم يسمونه شركًا من

باب التنفير منه، ويقولون: إن الصفات تشارك الله في القِدم والأزلية، فيكون هذا شرك بزعمهم. ويقولون أيضًا: يلزم منها تعدد الآلهة. وهذا من المغالطة؛ لأن هذه الصفات ليست بذوات، وإنما هي صفاتٌ للخالق، فالخالق وحده بصفاته وليس هناك موجود بدون صفات، كل موجود لابد له من صفات.

فهؤلاء المعطلة يفسرون الشرك بغير معناه، ويدعون غير الله، ويذبحون لغير الله، وينذرون لغير الله، ولا يقولون: هذا شرك، وإنما الشرك بزعمهم هو إثبات الصفات، وهذا من قلب الحقائق والعياذ بالله.

فتجدهم يتقربون إلى القبور ويعتبرون ذلك طاعة وعبادة -والعياذ بالله- مع أنه شركٌ أكبر، لكنهم يغالطون في الحقائق.

وقوله: **(غَايَةِ الْحُبِّ، مَعَ غَايَةِ الذُّلِّ)** أي: يجمع بينهما، فلا يحب فقط، ولا يذل فقط، فإذا أحببت شيئًا ولم تذل له -مثل: حبك لوالدتك، لأبيك، لأصدقائك- فليس هذا عبادة، وكذلك من ذلَّ لمخلوقٍ ولم يحبه -كالذي يخاف من الظلمة والطغاة، فيذل لهم لكنه لا يحبهم- هذا ليس شركًا، وإنما الشرك في الجمع بين الحب والذُّل، فمن أحب مخلوقًا وذلَّ له فقد أشرك.

إِذَا عُرِفَ هَذَا فَمِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ السُّجُودُ، فَمَنْ سَجَدَ لِغَيْرِهِ فَقَدْ شَبَّهَ الْمَخْلُوقَ بِهِ.

وَمِنْهَا: التَّوَكُّلُ، فَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى غَيْرِهِ فَقَدْ شَبَّهَهُ بِهِ.

وَمِنْهَا: التَّوْبَةُ، فَمَنْ تَابَ لِغَيْرِهِ فَقَدْ شَبَّهَهُ بِهِ.

وَمِنْهَا: الْحَلِفُ بِاسْمِهِ تَعْظِيمًا وَإِجْلَالًا لَهُ، فَمَنْ حَلَفَ بِغَيْرِهِ فَقَدْ شَبَّهَهُ بِهِ.

هَذَا فِي جَانِبِ التَّشْبِيهِ.

وَأَمَّا فِي جَانِبِ التَّشَبُّهِ بِهِ: فَمَنْ تَعَاظَمَ وَتَكَبَّرَ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى إِطْرَائِهِ فِي الْمَدْحِ وَالتَّعْظِيمِ وَالْخُضُوعِ وَالرَّجَاءِ، وَتَعْلِيقِ الْقَلْبِ بِهِ خَوْفًا وَرَجَاءً وَالْتِجَاءً وَاسْتِعَانَةً، فَقَدْ تَشَبَّهَ بِاللَّهِ وَنَازَعَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ، وَهُوَ حَقِيقٌ بِأَنْ يُهِينَهُ غَايَةَ الْهَوَانِ، وَيُذِلَّهُ غَايَةَ الذُّلِّ، وَيَجْعَلَهُ تَحْتَ أَقْدَامِ خَلْقِهِ.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْعَظَمَةُ إِزَارِي، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ»(١).

وَإِذَا كَانَ الْمُصَوِّرُ الَّذِي يَصْنَعُ الصُّورَةَ بِيَدِهِ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِتَشَبُّهِهِ بِاللَّهِ فِي مُجَرَّدِ الصُّورَةِ، فَمَا الظَّنُّ بِالتَّشَبُّهِ بِاللَّهِ فِي الرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ؟ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ»(٢)، «يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»(٣).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَمَنْ أَظْلَمُ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٠) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٥٠)، ومسلم (٢١٠٩) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٥١)، ومسلم (٢١٠٨) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ خَلقًا كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، فَلْيَخْلُقُوا شَعِيرَةً»(١)، فَنَبَّهَ بِالذَّرَّةِ وَالشَّعِيرَةِ عَلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا وَأَكْبَرُ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ هَذَا حَالُ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِ فِي صَنْعَةِ صُورَةٍ، فَكَيْفَ حَالُ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِ فِي خَوَاصِّ رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ؟ وَكَذَلِكَ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِ فِي الِاسْمِ الَّذِي لَا يَنْبَغِي إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ، كَمَلِكِ الْمُلُوكِ، وَحَاكِمِ الْحُكَّامِ، وَنَحْوِهِ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ أَخْنَعَ الْأَسْمَاءِ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ يُسَمَّى بِشَاهَانْ شَاهْ»(٢)، أَيْ: مَلِكِ الْمُلُوكِ، لَا مَلِكَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي لَفْظٍ: «أَغِيظُ رَجُلٍ عَلَى اللَّهِ رَجُلٌ يُسَمَّى بِمَلِكِ الْأَمْلَاكِ»(٣).

فَهَذَا مَقْتُ اللَّهِ وَغَضَبُهُ عَلَى مَنْ تَشَبَّهَ بِهِ فِي الِاسْمِ الَّذِي لَا يَنْبَغِي إِلَّا لَهُ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ مَلِكُ الْمُلُوكِ وَحْدَهُ، وَهُوَ حَاكِمُ الْحُكَّامِ وَحْدَهُ، فَهُوَ الَّذِي يَحْكُمُ عَلَى الْحُكَّامِ كُلِّهِمْ، وَيَقْضِي عَلَيْهِمْ كُلِّهِمْ، لَا غَيْرُهُ.

الشرح:

قوله: **(فَمَنْ سَجَدَ لِغَيْرِهِ فَقَدْ شَبَّهَ الْمَخْلُوقَ بِهِ)**، وكذلك التوكل على غيره، والتوبة إلى غيره، والحلف بغيره، كل هذا تشبيه للمخلوق بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهو من الشرك الذي أنكرته جميع الشرائع، فكل نبي نهى قومه عن الشرك؛ لقُبحه وشناعته، ولأنه يتنافى مع حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٥٩)، ومسلم (٢١١١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٠٥)، ومسلم (٢١٤٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢١٤٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: **(وَأَمَّا فِي جَانِبِ التَّشَبُّهِ بِهِ: فَمَنْ تَعَاظَمَ وَتَكَبَّرَ)** أي: شارك الله في عظمته وكبريائه، فهذا شرك، ولذلك يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر يطأهم الناس؛ لأنهم تكبروا في الدنيا وتعاظموا، فأهانهم الله وحشرهم على أمثال الذر والعياذ بالله.

وكذلك المصور متشبهٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الخلق؛ لأنه يصور الإنسان ويضع له يدين ورجلين وعينين ووجه وأنف، ويحاول التشبه بالله في شيءٍ لا يقدر عليه إلا الله جَلَّ وَعَلَا، فالخلق من خصائص الله، لا أحد يخلُق غير الله، وهذا يحاول أنه يوجد صورة تُشبه خلق الله عَزَّ وَجَلَّ، ولذلك قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ»**.

فهم يحاولون أن يتشبهوا بالله جَلَّ وَعَلَا في خلقه، ويتعبون أنفسهم في شيء ليس وراءه طائلٌ. والفتنة في الصور الآن فتنة عظيمة، ومن يرى افتتان الناس الآن بالصور يعرف كيد الشيطان، فقد زينها لهم وحثَّهم عليها، وأصبحوا يضعون الصور على كل شيء، وأصبح همهم التصوير في كل شيء؛ لأن الشيطان يؤزهم ويحثهم على هذا؛ لأنه يعلم أنه يُغضب الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقوله: **(يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ)**، يعني: ما دام أنك صورت هذا الجسم بكل أعضائه بقي أنك تنفخ فيه الروح، ولن تستطيع، فأنت تستطيع أن تنحت الصورة وتزينها، لكنك لا تستطيع أن تنفخ فيها الروح؛ لأن الروح من أمر الله، لا يقدر عليها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فهو يوم القيامة يُؤمر بأمر تعجيز وأمر تعذيب بأن ينفخ فيها الروح، تحديًا له.

وقوله: **(فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً)** وهي: صغار النمل، **(فَلْيَخْلُقوا شَعِيرَةً)** وهي:

حبة الشعير، فيمكن للمصور أن يرسم صورة حبة، لكنه لا يستطيع أن يضع فيها طعم الحبة وروح الحبة، وأنها تنبُت وتحيى. ففي العظمة، والكبرياء، والتكبر، وصنعة الصور، كل هذا تشبه بالخالق تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

كذلك من تسمى باسم الله، يعني: يسمي نفسه رب العالمين، أو كما قال فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص:٣٨]، ولفظ الجلالة خاص بالله عَزَّوَجَلَّ، فلا يتسمى أحد الرحمن، أو الله، أو رب العالمين، يمكن أن يقول: أنا رب هذه السيارة، أو رب هذا الدار، يعني: صاحبها، هذا لا بأس به؛ لأنه في شيء مقيد، أما أن يقول: أنا الرب، أنا رب العالمين -كما قال فرعون- فهذا أعظم الشرك.

ولهذا قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَخْنَعَ الْأَسْمَاءِ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ يُسَمَّى بِشَاهَانْ شَاهْ**»، أي: ملك الملوك، والله جَلَّوَعَلَا هو ملك الملوك، فلا مانع أن يُسمى ملكًا، لكن لا يُسمى ملك الملوك، أو قاضي القضاة، فهذا لا يجوز؛ لأن قاضي القضاة هو الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، لكن تقول: رئيس القضاة، أو مدير القضاة، فهذا لا إشكال فيه.

فَصْلٌ

إِذَا تَبَيَّنَ هَذَا فَهَاهُنَا أَصْلٌ عَظِيمٌ يَكْشِفُ سِرَّ الْمَسْأَلَةِ، وَهُوَ أَنَّ أَعْظَمَ الذُّنُوبِ عِنْدَ اللَّهِ إِسَاءَةُ الظَّنِّ بِهِ، فَإِنَّ الْمُسِيءَ بِهِ الظَّنَّ قَدْ ظَنَّ بِهِ خِلَافَ كَمَالِهِ الْمُقَدَّسِ، وَظَنَّ بِهِ مَا يُنَاقِضُ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَلِهَذَا تَوَعَّدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الظَّانِّينَ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ بِمَا لَمْ يَتَوَعَّدْ بِهِ غَيْرَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح:٦].

وَقَالَ تَعَالَى لِمَنْ أَنْكَرَ صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٣].

وَقَالَ تَعَالَى حَاكِيًا عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:٨٥، ٨٧]. أَيْ: فَمَا ظَنُّكُمْ أَنْ يُجَازِيَكُمْ بِهِ إِذَا لَقِيتُمُوهُ وَقَدْ عَبَدْتُمْ غَيْرَهُ؟ وَمَا ظَنَنْتُمْ بِهِ حِينَ عَبَدْتُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ؟ وَمَا ظَنَنْتُمْ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ مِنَ النَّقْصِ حَتَّى أَحْوَجَكُمْ ذَلِكَ إِلَى عُبُودِيَّةِ غَيْرِهِ؟

فَلَوْ ظَنَنْتُمْ بِهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ مِنْ أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ فَقِيرٌ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ قَائِمٌ بِالْقِسْطِ عَلَى خَلْقِهِ، وَأَنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِتَدْبِيرِ خَلْقِهِ لَا يُشْرِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ، وَالْعَالِمُ بِتَفَاصِيلِ الْأُمُورِ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَالْكَافِي لَهُمْ وَحْدَهُ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى مُعِينٍ، وَالرَّحْمَنُ بِذَاتِهِ فَلَا يَحْتَاجُ فِي رَحْمَتِهِ إِلَى مَنْ يَسْتَعْطِفُهُ.

وَهَذَا بِخِلَافِ الْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الرُّؤَسَاءِ، فَإِنَّهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى مَنْ يُعَرِّفُهُمْ أَحْوَالَ الرَّعِيَّةِ وَحَوَائِجَهُمْ، وَإِلَى مَنْ يُعِينُهُمْ عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ، وَإِلَى مَنْ

يَسْتَرْحِمُهُمْ وَيَسْتَعْطِفُهُمْ بِالشَّفَاعَةِ، فَاحْتَاجُوا إِلَى الْوَسَائِطِ ضَرُورَةً، لِحَاجَتِهِمْ وَعَجْزِهِمْ وَضَعْفِهِمْ وَقُصُورِ عِلْمِهِمْ.

فَأَمَّا الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الَّذِي وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، فَإِدْخَالُ الْوَسَائِطِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ نَقْصٌ بِحَقِّ رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَظَنٌّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ. وَهَذَا يَسْتَحِيلُ أَنْ يَشْرَعَهُ لِعِبَادِهِ، وَيَمْتَنِعُ فِي الْعُقُولِ وَالْفِطَرِ جَوَازُهُ، وَقُبْحُهُ مُسْتَقِرٌّ فِي الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ فَوْقَ كُلِّ قَبِيحٍ.

يُوَضِّحُ هَذَا: أَنَّ الْعَابِدَ مُعَظِّمٌ لِمَعْبُودِهِ، مُتَأَلِّهٌ خَاضِعٌ ذَلِيلٌ لَهُ، وَالرَّبُّ تَعَالَى وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ كَمَالَ التَّعْظِيمِ وَالْجَلَالِ وَالتَّأَلُّهِ وَالْخُضُوعِ وَالذُّلِّ، وَهَذَا خَالِصُ حَقِّهِ، فَمِنْ أَقْبَحِ الظُّلْمِ أَنْ يُعْطِيَ حَقَّهُ لِغَيْرِهِ، أَوْ يُشْرِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِيهِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ الَّذِي جُعِلَ شَرِيكَهُ فِي حَقِّهِ هُوَ عَبْدُهُ وَمَمْلُوكُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم:٢٨].

أَيْ: إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يَأْنَفُ أَنْ يَكُونَ مَمْلُوكُهُ شَرِيكَهُ فِي رِزْقِهِ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَ لِي مِنْ عَبِيدِي شُرَكَاءَ فِيمَا أَنَا بِهِ مُنْفَرِدٌ؟ وَهُوَ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي لَا تَنْبَغِي لِغَيْرِي، وَلَا تَصِحُّ لِسِوَايَ. فَمَنْ زَعَمَ ذَلِكَ فَمَا قَدَرَنِي حَقَّ قَدْرِي، وَلَا عَظَّمَنِي حَقَّ تَعْظِيمِي، وَلَا أَفْرَدَنِي بِمَا أَنَا مُفْرَدٌ بِهِ وَحْدِي دُونَ خَلْقِي.

فَمَا قَدَرَ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ عَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٧٣، ٧٤].

فَمَا قَدَرَ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ عَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ، مِمَّنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى خَلْقِ أَضْعَفِ حَيَوَانٍ وَأَصْغَرِهِ، وَإِنْ سَلَبَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا مِمَّا عَلَيْهِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى اسْتِنْقَاذِهِ مِنْهُ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]. فَمَا قَدَرَ مَنْ هَذَا شَأْنُهُ وَعَظَمَتُهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ أَشْرَكَ مَعَهُ فِي عِبَادَتِهِ مَنْ لَيْسَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ أَلْبَتَّةَ، بَلْ هُوَ أَعْجَزُ شَيْءٍ وَأَضْعَفُهُ، فَمَا قَدَرَ الْقَوِيَّ الْعَزِيزَ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ أَشْرَكَ مَعَهُ الضَّعِيفَ الذَّلِيلَ.

الشرح:

قوله: (**وَلِهَذَا تَوَعَّدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الظَّانِّينَ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ بِمَا لَمْ يَتَوَعَّدْ بِهِ غَيْرَهُمْ**)، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾، إلى قوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح:٦ - ١٢].

وذلك لأن الأعراب لما خرجوا مع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغزو، ما كان خروجهم إلا لأنهم ظنوا أنه ومن معه من المؤمنين سيُقتلون، وأنهم لن يرجعوا إلى المدينة، فظنوا بالله ظن السوء أنه لن ينصر رسوله، ولن ينصر أولياءه، فاستحقوا الوعيد من الله جَلَّ وَعَلَا في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

وكذلك النفاة ومعطلة صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أهلكهم الله بظنهم: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾،

يعني: أهلككم حيث جحدوا علم الله عَزَّوَجَلَّ بهم، فدل على أن سوء الظن بالله من أعظم الذنوب.

وكذلك من أشرك به فقد ظن به ظن السوء، كما قال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، هذا إنكار، أي: ما هذا الظن الذي ظننتموه برب العالمين حيث عبدتم معه غيره؟!

فالمشرك حين يظن أن الله جَلَّ وَعَلَا لا يستجيب له إلا إذا اتخذ واسطة أو شفيعًا، قد أساء الظن بالله عَزَّوَجَلَّ الذي يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب إليه، ويستجيب الدعاء بلا واسطة ولا شفيع.

وقوله: **(وَهَذَا بِخِلَافِ الْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الرُّؤَسَاءِ)**؛ لأن اتخاذ الوسطاء والشفعاء عند الملوك هذا أمر لابد منه، فأنت لا تصل إلى الملك، ولا يعرفك الملك، أو يعرفك لكنه لن يقضي لك حاجتك إلا بواحدٍ من خاصته يؤثر عليه ويستعطفه، أما الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فهو منزَّهٌ عن ذلك، فهو أعلم بخلقه، وهو أقدر على نفع خلقه، وأرحم بخلقه من الوسطاء والشفعاء.

والمشكلة أن هؤلاء الذين يتخذون الوسطاء والشفعاء يعتبرون أن هذا تعظيم لله، ويقولون: لا تدعوه مباشرة، ولا تطلب حاجتك منه مباشرة، بل قدم شفيعًا أو واسطة بينك وبينه، من باب التعظيم له بزعمهم، فقاسوه على ملوك الدنيا، فوقعوا في التشبيه حيث شبهوه بالمخلوقين والعياذ بالله، وظنوا بالله ظن السوء.

والذين يقولون: نحن اتخذنا عبادًا صالحين وسطاء ليقربونا عند الله، أشركوهم مع الله لأنهم عباد صالحين بزعمهم، فأنكر الله جَلَّ وَعَلَا عليهم،

وقال: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: هل ترضون أن يكون مماليككم شركاء لكم في أموالكم؟! أنتم لا ترضون بهذا، فكيف ترضونه لله عَزَّوَجَلَّ؟!!

وقوله: (فَمَا قَدَرَ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ عَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ)، المشرك الذي عبد مع الله غيره تنقص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تنقصًا عظيمًا؛ لأنه ساوى غيره به في العبادة، والله جَلَّ وَعَلَا لا يساويه أحد كائنًا من كان: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فهو الغني الحميد، وما سِواه فقير عاجز، ولهذا سمى الله الشرك عدلًا به، حيث قال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]، وقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل:٦٠] يعني: يعدلون غير الله به، ويسوونه به ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٧، ٩٨].

فالمشرك سوَّى غير الله به، وهذا أعظم الظلم، وأعظم التنقص لله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧]، فهل الذي يقبض الأرض بيده ويطوي السموات بيمينه يُسوى به العاجز الفقير؟! هذا باطل من كل وجه. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣]، فكيف يُسوَّى الذي لا يقدر أن يخلق الذباب -الذي هو أضعف شيء- بالخالق الذي خلق كل شيء؟! بل لو أخذ الذباب من هذه الآلهة التي يعبدونها شيئًا ما استطاعت أن تسترده منه؛

لأنها جمادات عاجزة، لا تدافع عن نفسها، فكيف تدافع عن غيرها!.

ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد:١٦]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان:١١]، والآيات في هذا كثيرة تدل على بطلان الشرك من أصله؛ لأنه لا أحد يساوي الله عَزَّوَجَلَّ في أمرٍ من الأمور، وأبين ذلك وأوضحه الخلق: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [الأحقاف:٤]، تحدى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ المشركين أن يبينوا ماذا خلقته آلهتهم من السموات أو من الأرض، فلم يُبينوا، فدلَّ على بطلان الشرك.

وهذا من العجيب أن المشرك يشاهد أن الخلق كلهم لله عَزَّوَجَلَّ، هو الذي خلقهم، ولم يشاركه أحد في الخلْق، فكيف يُشرك معه أحدًا في العبادة؟!

هم يعترفون بأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق ولا تُحيي ولا تُميت، يعترفون بتوحيد الربوبية، لكنهم يُشركون في العبادة.

الحاصل: أن المشرك سوَّى غير الله بالله، فلا يستحق العبادة إلا من يقدر على الخلْق، والرزق، والإحياء، والإماتة، وتدبير الأمور، أما العاجز الفقير الضعيف فهذا لا يستحق شيئًا من العبادة.

وَكَذَلِكَ مَا قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ لَمْ يُرْسِلْ إِلَى خَلْقِهِ رَسُولًا، وَلَا أَنْزَلَ كِتَابًا، بَلْ نَسَبَهُ إِلَى مَا لَا يَلِيقُ بِهِ وَلَا يَحْسُنُ مِنْهُ، مِنْ إِهْمَالِ خَلْقِهِ وَتَضْيِيعِهِمْ وَتَرْكِهِمْ سُدًى، وَخَلْقِهِمْ بَاطِلًا وَعَبَثًا.

وَلَا قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ نَفَى حَقَائِقَ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَا، فَنَفَى سَمْعَهُ، وَبَصَرَهُ، وَإِرَادَتَهُ، وَاخْتِيَارَهُ، وَعُلُوَّهُ فَوْقَ خَلْقِهِ، وَكَلَامَهُ وَتَكْلِيمَهُ لِمَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ بِمَا يُرِيدُهُ، أَوْ نَفَى عُمُومَ قُدْرَتِهِ وَتَعَلُّقَهَا بِأَفْعَالِ عِبَادِهِ مِنْ طَاعَتِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ، فَأَخْرَجَهَا عَنْ قُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَخَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمْ يَخْلُقُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مَا يَشَاءُونَ بِدُونِ مَشِيئَةِ الرَّبِّ، فَيَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يَشَاءُ، وَيَشَاءُ مَا لَا يَكُونُ! تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِ أَشْبَاهِ الْمَجُوسِ عُلُوًّا كَبِيرًا.

الشرح:

من كفر بالرسالة وقال: ما أنزل الله على بشرٍ من شيء، هذا **(مَا قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ)**؛ لأنه ظن أن الله ضيَّع عباده وتركهم هملًا. فالذي يجحد الرسالة ما قدر الله حق قدره؛ لأنه لا يليق بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يترك عباده ولا يُبين لهم طريق الحق من طريق الضلال، وطريق الهدى من طريق الشرك والكفر، فاللائق بالله جَلَّ وَعَلَا أن يُرسل الرسل، ويُنزل الكتب؛ لأجل هداية الخلق، وبيان الحق لهم، وإنقاذهم من الظلمات إلى النور، وإلا كيف يكون ربًّا للناس ويتركهم ويهملهم؟! هذا لا يليق بالله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: **(وَلَا قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ نَفَى حَقَائِقَ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَا)**، وهذا من أعظم التنقص، هم يزعمون أن هذا تنزيه لله وتعظيم لله،

وهو في الواقع تنقصٌ لله عَزَّوَجَلَّ، فكيف يكون ربًّا إذا لم يكن له أسماء ولا صفات؟!! وكيف يكون إلهًا إذا كان لا يخلق، ولا يرزق، ولا يعلم، ولا يقدر على قضاء حوائج خلقه؟!!

فهؤلاء الذين سلبوا عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ القُدرة، والعلم، والإرادة، والتدبير، والرحمة، والغضب، ما قدروا الله حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه، كالجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة.

وكذلك ما قدره حق قدره من عصاه وخالف أمره وارتكب نهيه، ولله المثل الأعلى، فلو أن ملكًا من ملوك الدنيا أمر بأمر، فخالفه أحد رعيته ولم يعمل بأمره، أو نهى عن شيء وخالفه وارتكب هذا الشيء، ألا يكون متنقصًا للملك؟ هذا واضح، فكيف بالذي يعصي أمر الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فيخالف أمره ويرتكب نهيه؟! لا شك أنه متنقصٌ للرب تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

وقوله: **(وَكَلَامَهُ وَتَكْلِيمَهُ لِمَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ بِمَا يُرِيدُهُ)** كذلك الذي نفى الكلام عن الله ما قدر الله حق قدره؛ إذ كيف يأمر وينهى وهو لا يتكلم؟ هذا تنقصٌ لله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا لـمَّا عبد بنو إسرائيل العجل قال عنهم الله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، فدل على أن الذي لا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى ولا يدبر الخلق، ﴿لَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ أي: لا يبين لهم طريق الخير من طريق الشر؛ لأنه عاجز.

وقال الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٤٢]، فدل على أن الرب يسمع ويُبصر.

فالذي ينفي السمع والبصر عن الله هذا مثل الذي يعبد صنمًا لا يسمع ولا يبصر. ولهذا يقولون: المعطلُ يعبد عدمًا، والمُشبه يعبد صنمًا.

وقوله: **(أَوْ نَفَى عُمُومَ قُدْرَتِهِ وَتَعَلُّقَهَا بِأَفْعَالِ عِبَادِهِ)** أيضًا ما قدر الله حق قدره من نفى القضاء والقدر؛ لأن الله جَلَّوَعَلَا هو الذي قدَّر المقادير، وقضى القضاء، والذي لا يقدر ولا يقضي ليس بإله.

وقوله: **(تَعَالَى عَنْ قَوْلِ أَشْبَاهِ الْمَجُوسِ عُلُوًّا كَبِيرًا)**؛ لأنهم يقولون: إن العباد يخلقون أفعالهم، دون أن يكون لله فيها إرادة أو خلق أو تدبير، فصاروا مثل المجوس الذين يقولون: الإله إلهين: إله للنور يخلق الخير، وإله للظلمة يخلق الشر، ولذلك يعبدون النار. فالمعتزلة أشر من المجوس؛ لأنهم أثبتوا خالقِين متعددين، وأما المجوس فقد أثبتوا خالقَين اثنين.

وَكَذَلِكَ مَا قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ يُعَاقِبُ عَبْدَهُ عَلَى مَا لَا يَفْعَلُهُ الْعَبْدُ، وَلَا لَهُ عَلَيْهِ قُدْرَةٌ، وَلَا تَأْثِيرٌ لَهُ فِيهِ أَلْبَتَّةَ، بَلْ هُوَ نَفْسُ فِعْلِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، فَيُعَاقِبُ عَبْدَهُ عَلَى فِعْلِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي جَبَرَ الْعَبْدَ عَلَيْهِ، وَجَبْرُهُ عَلَى الْفِعْلِ أَعْظَمُ مِنْ إِكْرَاهِ الْمَخْلُوقِ لِلْمَخْلُوقِ.

وَإِذَا كَانَ مِنَ الْمُسْتَقِرِّ فِي الْفِطَرِ وَالْعُقُولِ أَنَّ السَّيِّدَ لَوْ أَكْرَهَ عَبْدَهُ عَلَى فِعْلٍ، أَوْ أَلْجَأَهُ إِلَيْهِ ثُمَّ عَاقَبَهُ عَلَيْهِ لَكَانَ قَبِيحًا، فَأَعْدَلُ الْعَادِلِينَ وَأَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ كَيْفَ يَجْبُرُ الْعَبْدَ عَلَى فِعْلٍ لَا يَكُونُ لِلْعَبْدِ فِيهِ صُنْعٌ وَلَا تَأْثِيرٌ، وَلَا هُوَ وَاقِعٌ بِإِرَادَتِهِ، بَلْ وَلَا هُوَ فِعْلُهُ أَلْبَتَّةَ، ثُمَّ يُعَاقِبُ عَلَيْهِ عُقُوبَةَ الْأَبَدِ؟! تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَقَوْلُ هَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْ أَقْوَالِ الْمَجُوسِ، وَالطَّائِفَتَانِ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ.

وَكَذَلِكَ مَا قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ لَمْ يَصُنْهُ عَنْ بِئْرٍ وَلَا حُشٍّ، وَلَا مَكَانٍ يُرْغَبُ عَنْ ذِكْرِهِ، بَلْ جَعَلَهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَصَانَهُ عَنْ عَرْشِهِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَوِيًا عَلَيْهِ، يَصْعَدُ إِلَيْهِ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَتَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ، وَتَنْزِلُ مِنْ عِنْدِهِ، وَيُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ.

فَصَانَهُ عَنِ اسْتِوَائِهِ عَلَى سَرِيرِ الْمُلْكِ، ثُمَّ جَعَلَهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَأْنَفُ الْإِنْسَانُ -بَلْ غَيْرُهُ مِنَ الْحَيَوَانِ- أَنْ يَكُونَ فِيهِ.

الشرح:

كذلك الجبرية تنقصوا الله جَلَّ وَعَلَا بقولهم: إن العبد مجبورٌ على فعل نفسه، وليس له فيها تصرف. خلافًا للمعتزلة الذين يقولون: إن العبد يخلق

فعل نفسه. ومقتضى قول الجبرية: أن الله يعذب العبد على شيء لم يفعله، وهذا ظلم، فهم لم ينزهوا الله عن الظلم؛ لأن تعلق الثواب والعقاب بالفعل دليل على أن الإنسان له إرادة وله مشيئة، وأنه يأتي الشيء باختياره ويتركه باختياره، فإن قيل: إنه مجبور على فعله، صار عذابه وثوابه على شيءٍ ليس من فعله وإنما هو من فعل غيره، وهذا ظلم.

فإذا كان الخلق فيما بينهم لا يؤاخذون المُكره على أفعاله؛ لأنه ليس له اختيار، فكذلك الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لو كان يجبر العباد على أفعالهم لكان يعذبهم على شيءٍ قد أكرههم عليه؟!.

وقوله: **(بَلْ وَلَا هُوَ فِعْلُهُ أَلْبَتَّةَ)** أفعال العباد من ناحية إيجادها هي أفعال الله، ومن ناحية عملها والإتيان بها هي فعل العبد، فلا يُقال: إن الله ليس له فيها إرادة ألبتة، ولا يُقال: إن الله أجبر الناس عليها وليس للعباد فيها اختيار.

وقوله: **(وَالطَّائِفَتَانِ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)** كلا الطائفتين -النفاة والجبرية- ما قدروا الله حق قدره.

وقوله: **(وَكَذَلِكَ مَا قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ لَمْ يَصُنْهُ عَنْ بِئْرٍ وَلَا حُشٍّ)**، هؤلاء الحلولية الذين يقولون: إن الله ليس في العلو، وليس مستويًا على عرشه، وإنما هو في كل مكان، تعالى الله عما يقولون، فالذي لا يُنزه الله عن الأمكنة القذرة -كالحشوش ودورات المياه- قد تنقص الله عَزَّوَجَلَّ، أما من عظمه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وقال: إن الله فوق مخلوقاته، وهو مستوٍ على عرشه، كما وصف الله نفسه بذلك، فهذا قد قدر الله حق قدره.

وَمَا قَدَرَ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ نَفَى حَقِيقَةَ مَحَبَّتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَرَأْفَتِهِ وَرِضَاهُ وَغَضَبِهِ وَمَقْتِهِ، وَلَا مَنْ نَفَى حَقِيقَةَ حِكْمَتِهِ الَّتِي هِيَ الْغَايَاتُ الْمَحْمُودَةُ الْمَقْصُودَةُ بِفِعْلِهِ، وَلَا مَنْ نَفَى حَقِيقَةَ فِعْلِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ فِعْلًا اخْتِيَارِيًّا يَقُومُ بِهِ، بَلْ أَفْعَالُهُ مَفْعُولَاتٌ مُنْفَصِلَةٌ عَنْهُ، فَنَفَى حَقِيقَةَ مَجِيئِهِ وَإِتْيَانِهِ وَاسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ، وَتَكْلِيمِهِ مُوسَى مِنْ جَانِبِ الطُّورِ، وَمَجِيئِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ بِنَفْسِهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِهِ وَأَوْصَافِ كَمَالِهِ، الَّتِي نَفَوْهَا وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ بِنَفْيِهَا قَدَرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ.

وَكَذَلِكَ لَمْ يَقْدُرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ جَعَلَ لَهُ صَاحِبَةً وَوَلَدًا، أَوْ جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ يَحِلُّ فِي جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ، أَوْ جَعَلَهُ عَيْنَ هَذَا الْوُجُودِ.

الشرح:

كذلك من نفى عن الله الأفعال، وقال: إن الله لا ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة، ولا يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده، ووصف الله بالعجز وعدم الفعل، فمن نفى أفعال الله فقد تنقص الله، وجعله جمادًا لا يتحرك ولا يعمل أي شيء. والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢]، فدل على أن لله جَلَّ وَعَلَا أفعالًا.

وقوله: **(وَتَكْلِيمِهِ مُوسَى مِنْ جَانِبِ الطُّورِ)**، من الذي كلم موسى وقال: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه:١٢]، أليس هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ وهؤلاء يقولون: كلمته الشجرة! وهل الشجرة تقول: أنا ربك؟!، هل الشجرة تقول: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه:٢٤]؟! فهؤلاء زعموا أنهم ينزهون الله عن

مشابهة خلقه، فنفوا عنه الأسماء والصفات تنزيهًا له بزعمهم، فعطلوه.

نقول لهم: بل أنتم الذين شبهتم الله بالجمادات العاجزة، فأنتم في الحقيقة مُشبهة، أما نحن فنقول: كما أن ذاته لا تُشبه ذوات المخلوقين كذلك أسماؤه وصفاته لا تشبه صفات المخلوقين، فنحن نُثبت مع التنزيه، وأما أنتم فتعطلون عنه أسماءه وصفاته، وتجعلونه عدمًا عاجزًا، فليس التنزيه في نفي الأسماء والصفات، وإنما التنزيه في نفي المشابهة بينه وبين خلقه.

وقوله: **(وَكَذَلِكَ لَمْ يَقْدِرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ جَعَلَ لَهُ صَاحِبَةً وَوَلَدًا)**، وهم النصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، ومعلوم أن الولد جزءٌ من الوالد، والولد يُشبه الوالد، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا شبيه له ولا مثيل، فهم لم ينزهوا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وأثبتوا له الشبيه، وجعلوه محتاجًا إلى الولد، وجعلوا المسيح جزءًا من الله: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزخرف:١٥].

وقوله: **(أَوْ جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ يَحِلُّ فِي جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ)** هؤلاء البهائية والحلولية، يزعمون أن الله عَزَّوَجَلَّ يحل في المخلوقات، وأن الإنسان إذا وصل إلى درجة من العبادة فإن الله يكون حالًّا فيه! تعالى الله عمَّا يقولون لوًّا كبيرًا.

وقوله: **(أَوْ جَعَلَهُ عَيْنَ هَذَا الْوُجُودِ)** هذا أشد، وهؤلاء هم أهل وحدة الوجود -كابن عربي، والتلمساني، وابن الفارض، وابن سبعين- الذين يقولون: ليس هناك خالق ومخلوق، بل الكون كله هو الله، والذي يقول: إن الوجود ينقسم إلى قسمين: خالق ومخلوق. هذا مشرك عندهم، أما التوحيد: أن تقول الوجود كله هو الله، بما فيه من الحيوانات، والكلاب، والخنازير، كل شيء هو الله! تعالى الله عما يقولون.

وَكَذَلِكَ لَمْ يَقْدُرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ رَفَعَ أَعْدَاءَ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ، وَأَعْلَى ذِكْرَهُمْ، وَجَعَلَ فِيهِمُ الْمُلْكَ وَالْخِلَافَةَ وَالْعِزَّ، وَوَضَعَ أَوْلِيَاءَ رَسُولِهِ وَأَهْلَ بَيْتِهِ، وَأَهَانَهُمْ، وَأَذَلَّهُمْ، وَضَرَبَ عَلَيْهِمُ الذُّلَّ أَيْنَمَا ثُقِفُوا. وَهَذَا يَتَضَمَّنُ غَايَةَ الْقَدْحِ فِي جَنَابِ الرَّبِّ، تَعَالَى عَنْ قَوْلِ الرَّافِضَةِ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَهَذَا الْقَوْلُ مُشْتَقٌّ مِنْ قَوْلِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنَّهُ أَرْسَلَ مَلِكًا ظَالِمًا، فَادَّعَى النُّبُوَّةَ لِنَفْسِهِ، وَكَذَبَ عَلَى اللَّهِ، وَمَكَثَ زَمَانًا طَوِيلًا يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ كُلَّ وَقْتٍ، وَيَقُولُ: قَالَ اللَّهُ كَذَا، وَأَمَرَ بِكَذَا، وَنَهَى عَنْ كَذَا، يَنْسَخُ شَرَائِعَ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَيَسْتَبِيحُ دِمَاءَ أَتْبَاعِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَحَرِيمَهُمْ، وَيَقُولُ: اللَّهُ أَبَاحَ لِي ذَلِكَ، وَالرَّبُّ تَعَالَى يُظْهِرُهُ، وَيُؤَيِّدُهُ، وَيُعْلِيهِ، وَيُعِزُّهُ، وَيُجِيبُ دَعَوَاتِهِ، وَيُمَكِّنُهُ مِمَّنْ خَالَفَهُ، وَيُقِيمُ الْأَدِلَّةَ عَلَى صِدْقِهِ، وَلَا يُعَادِيهِ أَحَدٌ إِلَّا ظَفِرَ بِهِ، فَيُصَدِّقُهُ بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ وَتَقْرِيرِهِ، وَيُحْدِثُ أَدِلَّةَ تَصْدِيقِهِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا يَتَضَمَّنُ أَعْظَمَ الْقَدْحِ وَالطَّعْنِ فِي الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَعِلْمِهِ، وَحِكْمَتِهِ، وَرَحْمَتِهِ، وَرُبُوبِيَّتِهِ. تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِ الْجَاحِدِينَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

فَوَازِنْ بَيْنَ قَوْلِ هَؤُلَاءِ، وَقَوْلِ إِخْوَانِهِمْ مِنَ الرَّافِضَةِ، تَجِدِ الْقَوْلَيْنِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

رَضِيعَي لِبَانٍ ثَدْيِ أُمٍّ تَقَاسَمَا ... بِأَسْحَمَ دَاجٍ عَوْضُ لَا نَتَفَرَّقُ[1]

الشرح:

الرافضة يدَّعون في أئمتهم العصمة، وأنهم يدبرون الكون، وأن كل

---

(١) يُنسب البيت للأعشى، يُنظر: ديوانه (ص٢٧٥)، وقد تقدم (ص٣٣٤).

شعرة أو كل ذرة في الكون فإنها من تدبير الأولياء والأئمة، هذا قول الرافضة والشيعة الغلاة، فيُعطون لأئمتهم ما يساويهم بالله عَزَّوَجَلَّ، فهم يُشبهون النصارى في غلوهم في المسيح.

وكذلك يكفرون أولياء الله وخواص خلقه، مثل: أبي بكر، وعمر، وسادة الصحابة، ويدعون أنهم أعداء الله، أما من كان من أهل البيت فهو عندهم وليٌّ لله ولو كان من أكفر الخلق، فيكفي عندهم أنه من أهل البيت، ويجعلون أبا طالب عم النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من المسلمين.

وهذا من أشد الكفر والإلحاد بالله عَزَّوَجَلَّ، والتنقص لله القائل: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم:٣٥]، ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٨].

الرافضة يقولون: ما دام أنه من أهل البيت فهو وليٌّ لله ولو كان كافرًا، وأما إذا لم يكن من أهل البيت فهو عدو لله، كما قالوا في أبي بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وهذا تنقص لله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا مثل كلام اليهود والنصارى في محمد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، يكذبونه ويقولون: إنه متقوِّل على الله، وأن الله لم يُرسله! وهذا تعجيز لله عَزَّوَجَلَّ؛ إذ كيف يجيء رجل ويدَّعي أنه رسول الله، ويأمر وينهى ويُشرِّع، ويجاهد ويقاتل الناس، ويتركه الله ويقره على هذا؟! فهذا تنقص لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإن تقرير الله له وإعانته له دليل على صدقه؛ لأن الله لا يُمهل للكذاب أبدًا.

فالذين ادَّعوا النبوة ما أمهلهم الله، ولا صار لهم ذكر، ولا صار لهم أثر، بل محا أثرهم وأبطل قولهم، فدل ذلك على صدق الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأن

الله جَلَّ وَعَلَا يؤيده ويعينه، فقد مكَّنه في الأرض، ونصر دينه، وأعلى رايته، ولهذا يقول الله له: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الإسراء:٩٦]، فكيف يشهد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هذا ويعلمه ثم يتركه؟!

وهذا يظهر صدق الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل لحظة، وفي كل وقت مما أخبر به وجاء، كما أخبر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أشياء في المستقبل ووقعت، ودلَّ وقوعها على صدقه؛ لأن الكذاب يُخبر بما لا يقع وما لا يكون.

فهؤلاء الرافضة فيهم شبه كبير من اليهود، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في أول رده على الشيعة في (منهاج السنة النبوية) المشابهة بين اليهود وبين الشيعة من وجوهٍ كثيرة.

وقول الشاعر:

رَضِيعَي لِبَانٍ ثَدْيِ أُمٍّ تَقَاسَمَا ... بِأَسْحَمَ دَاجٍ عَوْضُ لَا نَتَفَرَّقُ

هذا من شعر الأعشى، ومعناه: أنهما متشابهين من كل وجه، فهو يمدح واحدًا من العرب ويقول: إنه هو والجود كأنهما إخوان، لا يتفرقان أبدًا.

وَكَذَلِكَ لَمْ يَقْدُرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُعَذِّبَ أَوْلِيَاءَهُ، وَمَنْ لَمْ يَعْصِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَيُدْخِلَهُمْ دَارَ الْجَحِيمِ، وَيُنَعِّمَ أَعْدَاءَهُ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَيُدْخِلَهُمْ دَارَ النَّعِيمِ، وَأَنَّ كِلَا الْأَمْرَيْنِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ سَوَاءٌ، وَإِنَّمَا الْخَبَرُ الْمَحْضُ جَاءَ عَنْهُ بِخِلَافِ ذَلِكَ، فَمَنَعْنَاهُ لِلْخَبَرِ لَا لِمُخَالَفَةِ حِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ. وَقَدْ أَنْكَرَ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ عَلَى مَنْ جَوَّزَ عَلَيْهِ ذَلِكَ غَايَةَ الْإِنْكَارِ، وَجَعَلَ الْحُكْمَ بِهِ مِنْ أَسْوَأِ الْأَحْكَامِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٧، ٢٨]. وَقَالَ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية:٢١، ٢٢]. وَقَالَ: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:٣٥، ٣٦].

وَكَذَلِكَ لَمْ يَقْدُرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ لَا يُحْيِي الْمَوْتَى، وَلَا يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ، وَلَا يَجْمَعُ خَلْقَهُ لِيَوْمٍ يُجَازِي فِيهِ الْمُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ، وَيَأْخُذُ لِلْمَظْلُومِ حَقَّهُ مِنْ ظَالِمِهِ، وَيُكْرِمُ الْمُتَحَمِّلِينَ الْمَشَاقَّ فِي هَذِهِ الدَّارِ مِنْ أَجْلِهِ وَفِي مَرْضَاتِهِ بِأَفْضَلِ كَرَامَتِهِ، وَيُبَيِّنُ لِخَلْقِهِ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، وَيَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ.

الشرح:

قوله: **(وَكَذَلِكَ لَمْ يَقْدُرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُعَذِّبَ أَوْلِيَاءَهُ)** هذا قول الأشاعرة وغيرهم، يقولون: إن الله يفعل لا لحكمة، فليس له حكمة في أفعاله، ومقتضى قولهم: أن الله جَلَّ وَعَلَا له أن يعذب المسلم ويُكرم الكافر، ويفعل ما يشاء!. نعم يفعل ما يشاء ولكن لحكمة، فلا يليق به أن يعذب المسلم، ويُنعم الكافر، وهو القائل: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾.

الله نفى هذا، وهم يقولون: لو شاء الله عذَّب المسلم وأدخله النار، ونعَّم الكافر وأدخله الجنة؛ لأنه يفعل ما يشاء، ولا يُسأل عما يفعل! تعالى الله عما يقولون، نعم هو لا يُسأل عما يفعل سبحانه لكمال حكمته، فهو يفعل ما يشاء مع الحكمة، وقد وصف نفسه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بأنه الحكيم. ويقولون -أيضًا-: هو منزه عن الأغراض؛ لأن الحكمة عندهم غرض، فهو منزَّهٌ عنها! وهذا تنقيصٌ لله عَزَّوَجَلَّ أنه يفعل لا لحكمة، وإنما لمجرد المشيئة، فيجوز عليه أن يعذب أولياءه، وأن يُنعم أعداءه، هذا ما قدره حق قدره.

وكذلك ما قدره حق قدره من زعم أنه لا يبعث العباد من قبورهم للجزاء والحساب، وأن المسلم يُفني حياته بالطاعة ولا يُبعث للجنة، وأن الكافر يُفني حياته في الكفر ولا يُبعث إلى النار، وأنه يستوي المؤمن والكافر في هذا، كلٌ منهم يموت ولا يلقى جزاءً ولا ثوابًا!

وقد كذبهم الله جَلَّ وَعَلَا بقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا

لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾.

فالذي يُنكر البعث يُنكر العدل والجزاء من الله عَزَّوَجَلَّ، ويدعي أن الناس كلهم سواء الذي يكفر والذي يؤمن، كلهم يموتون ولا جزاء ولا ثواب، وأن خلق السموات والأرض كان عبثًا، والله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾.

ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]. ونحن نشاهد الكفار يعملون الجرائم والقبائح والكفر ولا ينالون جزاءهم في هذه الدنيا، بل يموتون وهم على كفرهم، فهل معنى هذا أنه يُتركون؟ ونشاهد كثيرًا من المسلمين في عناءٍ وشدة وأمراض وابتلاءات، ولا ينالون من ثوابهم شيئًا في الدنيا، فهل معنى هذا أن الله ضيَّع أعمالهم؟

بل هذا دليل على أن هناك دارًا أخرى للثواب والعقاب، وإلا فإن هذا طعنٌ في حكمة الله وعدله بين عباده.

فهذا من الأدلة القاطعة على البعث: أنه لو لم يكن هناك بعث لكان خلق السموت والأرض عبثًا، وليس لأعمال الناس نتائج.

وَكَذَلِكَ لَمْ يَقْدُرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ هَانَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ فَعَصَاهُ، وَنَهْيُهُ فَارْتَكَبَهُ، وَحَقُّهُ فَضَيَّعَهُ، وَذِكْرُهُ فَأَهْمَلَهُ، وَغَفَلَ قَلْبُهُ عَنْهُ، وَكَانَ هَوَاهُ آثَرَ عِنْدَهُ مِنْ طَلَبِ رِضَاهُ، وَطَاعَةُ الْمَخْلُوقِ أَهَمَّ مِنْ طَاعَتِهِ، فَلِلَّهِ الْفَضْلَةُ مِنْ قَلْبِهِ وَقَوْلِهِ وَعَمَلِهِ، وَهَوَاهُ الْمُقَدَّمُ فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ الْمُهِمُّ عِنْدَهُ، يَسْتَخِفُّ بِنَظَرِ اللَّهِ إِلَيْهِ، وَاطِّلَاعِهِ عَلَيْهِ بِكُلِّ قَلْبِهِ وَجَوَارِحِهِ. وَيَسْتَحِي مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحِي مِنَ اللَّهِ، وَيَخْشَى النَّاسَ وَلَا يَخْشَى اللَّهَ، وَيُعَامِلُ الْخَلْقَ بِأَفْضَلِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَامَلَ اللَّهَ عَامَلَهُ بِأَهْوَنِ مَا عِنْدَهُ وَأَحْقَرِهِ، وَإِنْ قَامَ فِي خِدْمَةِ مَنْ يُحِبُّهُ مِنَ الْبَشَرِ قَامَ بِالْجِدِّ وَالِاجْتِهَادِ وَبَذْلِ النَّصِيحَةِ، وَقَدْ أَفْرَغَ لَهُ قَلْبَهُ وَجَوَارِحَهُ، وَقَدَّمَهُ عَلَى الْكَثِيرِ مِنْ مَصَالِحِهِ، حَتَّى إِذَا قَامَ فِي حَقِّ رَبِّهِ -إِنْ سَاعَدَ الْقَدَرُ- قَامَ قِيَامًا لَا يَرْضَاهُ مَخْلُوقٌ مِنْ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ، وَبَذَلَ لَهُ مِنْ مَالِهِ مَا يَسْتَحِي أَنْ يُوَاجِهَ بِهِ مَخْلُوقًا مِثْلَهُ، فَهَلْ قَدَرَ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ هَذَا وَصْفُهُ؟

وَهَلْ قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ شَارَكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ فِي مَحْضِ حَقِّهِ مِنَ الْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ وَالطَّاعَةِ وَالذُّلِّ وَالْخُضُوعِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ؟ فَلَوْ جَعَلَ لَهُ مِنْ أَقْرَبِ الْخَلْقِ إِلَيْهِ شَرِيكًا فِي ذَلِكَ لَكَانَ ذَلِكَ جَرَاءَةً وَتَوَثُّبًا عَلَى مَحْضِ حَقِّهِ، وَاسْتِهَانَةً بِهِ وَتَشْرِيكًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ، وَلَا يَنْبَغِي وَلَا يَصْلُحُ إِلَّا لَهُ سُبْحَانَهُ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا شَرَكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ أَبْغَضَ الْخَلْقِ إِلَيْهِ، وَأَهْوَنَهُمْ عَلَيْهِ، وَأَمْقَتَهُمْ عِنْدَهُ، وَهُوَ عَدُوُّهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ؟ فَإِنَّهُ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

وَلَمَّا عَبَدَ الْمُشْرِكُونَ الْمَلَائِكَةَ بِزَعْمِهِمْ وَقَعَتْ عِبَادَتُهُمْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ

لِلشَّيَاطِينِ، وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

فَالشَّيْطَانُ يَدْعُو الْمُشْرِكَ إِلَى عِبَادَتِهِ، وَيُوهِمُهُمْ أَنَّهُ مَلَكٌ.

الشرح:

قوله: (**وَكَذَلِكَ لَمْ يَقْدُرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ هَانَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ فَعَصَاهُ**) من استهان بأوامر الله جَلَّ وَعَلَا ونواهيه، وولجَّ في المعاصي وترك الطاعات، فهو لم يقدره حق قدره. كالذي يخاف من المخلوقين ولا يخاف من الله؛ يخاف من الملوك والسلاطين، ولا يخالفهم لأنهم يبطشون به، ويخالف أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويرتكب نهيه ولا يخاف منه.

والذي لا يستحضر أن الله مُطلعٌ عليه وقادرٌ عليه، وأنه في قبضته، فيسرح ويمرح، ويكفر ويُشرك، ويفسُق، كأن الله لا يراه ولا يطلع عليه، في حين أنه يخاف من المخابرات والاستخبارات، ومن مخالفة الناس لئلا يعاقبوه، ويَحذر منهم أن يطلعوا عليه أو يعلموا عنه شيئًا يغضبهم، فيعظم نظر المخلوق إليه، ولا يخاف من الله جَلَّ وَعَلَا.

فتجده فاترًا في طاعة الله، جادًّا في إرضاء الناس، وإذا أعطى أحدًا من الناس أجزل له العطية، يريد منه المدح والثناء، أو يخاف منه أن يسبه، وإذا تصدق لوجه الله ما يُعطي إلا أردأ شيء وأقل شيء عنده، والله عَزَّوَجَلَّ يقول:

﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢]، ويقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢]، فالذي يُعطي الصدقة من المال الجيد والكسب الحلال هذا هو الذي قدر الله حق قدره، أما الذي يعطي الهزيل والرديء فهذا لم يقدر الله حق قدره.

وكذلك من أشرك مع الله **(أَبْغَضَ الْخَلْقِ إِلَيْهِ، وَأَهْوَنَهُمْ عَلَيْهِ، وَأَمْقَتَهُمْ عِنْدَهُ)**، فهو يطيع الشيطان الذي هو عدوه وقد حذَّره الله منه، ولا يطيع الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا لم يقدر الله حق قدره.

وقوله: **(وَلَمَّا عَبَدَ الْمُشْرِكُونَ الْمَلَائِكَةَ بِزَعْمِهِمْ وَقَعَتْ عِبَادَتُهُمْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لِلشَّيَاطِينِ)**، الذي يعبد غير الله من الجن أو الإنس أو الملائكة، هذا إنما يعبد الشيطان؛ لأنه هو الذي أمره بذلك، إلا من رضي من المخلوقين بأن يُعبد من دون الله، أما الصالحون والملائكة فهم لا يرضون بهذا، وينكرون هذا، وفي يوم القيامة يتبرؤون ممن عبدهم.

وَكَذَلِكَ عُبَّادُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ، يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ رَوْحَانِيَّاتِ هَذِهِ الكَوَاكِبِ، وَهِيَ الَّتِي تُخَاطِبُهُمْ، وَتَقْضِي لَهُمُ الْحَوَائِجَ. وَلِهَذَا إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ قَارَنَهَا الشَّيْطَانُ، فَيَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ، فَيَقَعُ سُجُودُهُمْ لَهُ، وَكَذَلِكَ عِنْدَ غُرُوبِهَا.

وَكَذَلِكَ مَنْ عَبَدَ الْمَسِيحَ وَأُمَّهُ لَمْ يَعْبُدْهُمَا وَإِنَّمَا عَبَدَ الشَّيْطَانَ، فَإِنَّهُ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَعْبُدُ مَنْ أَمَرَهُ بِعِبَادَتِهِ وَعِبَادَةِ أُمِّهِ، وَرَضِيَهَا لَهُمْ وَأَمَرَهُمْ بِهَا، وَهَذَا هُوَ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ لَعْنَةُ اللهِ عَلَيْهِ، لَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ.

فَنَزِّلْ هَذَا كُلَّهُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس:٦٠]. فَمَا عَبَدَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ غَيْرَ اللَّهِ كَائِنًا مَنْ كَانَ إِلَّا وَقَعَتْ عِبَادَتُهُ لِلشَّيْطَانِ، فَيَسْتَمْتِعُ الْعَابِدُ بِالْمَعْبُودِ فِي حُصُولِ غَرَضِهِ، وَيَسْتَمْتِعُ الْمَعْبُودُ بِالْعَابِدِ فِي تَعْظِيمِهِ لَهُ، وَإِشْرَاكِهِ مَعَ اللَّهِ الَّذِي هُوَ غَايَةُ رِضَا الشَّيْطَانِ.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أَيْ: مِنْ إِغْوَائِهِمْ وَإِضْلَالِهِمْ ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلْتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٢٨].

فَهَذِهِ إِشَارَةٌ لَطِيفَةٌ إِلَى السِّرِّ الَّذِي لِأَجْلِهِ كَانَ الشِّرْكُ أَكْبَرَ الْكَبَائِرِ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ بِغَيْرِ التَّوْبَةِ مِنْهُ، وَأَنَّهُ يُوجِبُ الْخُلُودَ فِي الْعَذَابِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ تَحْرِيمُهُ وَقُبْحُهُ بِمُجَرَّدِ النَّهْيِ عَنْهُ، بَلْ يَسْتَحِيلُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَشْرَعَ لِعِبَادِهِ عِبَادَةَ إِلَهٍ غَيْرِهِ، كَمَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ مَا يُنَاقِضُ أَوْصَافَ كَمَالِهِ، وَنُعُوتَ جَلَالِهِ، وَكَيْفَ يُظَنُّ بِالْمُنْفَرِدِ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ وَالْعَظَمَةِ وَالْإِجْلَالِ أَنْ يَأْذَنَ فِي مُشَارَكَتِهِ فِي ذَلِكَ، أَوْ

يَرْضَى بِهِ؟ تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

الشرح:

كذلك عبادة المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعبادة الملائكة، وعبادة الأولياء والصالحين، إنما هي عبادة للشيطان، وليست عبادة لهؤلاء؛ لأن هؤلاء لا يرضون بها، وينكرونها، ويجاهدون أهلها في الدنيا قبل وفاتهم.

وكذلك الذي يعبد الكواكب والجمادات والأحجار والأشجار، هذه مخلوقات ما تُعبد من دون الله، وهي لم تأمر بهذا، فهي لا تأمر ولا تنهى لأنها جمادات، لكن الذي أمر بعبادة هذه الأصنام وهذه الأحجار وهذه الكواكب في الحقيقة هو الشيطان، أما هي في نفسها فليس عندها تصور، وليس عندها إدراك لهذه الأمور.

كذلك عند القبور قد يخاطبهم الشيطان ويظنون أن الميت هو الذي يخاطبهم، وقد يظهر لهم في صورة الميت التي يعرفونها، وهو الشيطان.

وكذلك الذين يسجدون للشمس عند شروقها وقبل غروبها إنما يسجدون للشيطان لا للشمس؛ لأن الشمس مخلوقة تُسخر.

وكذلك الذين يعبدون المسيح وأمه، والمسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان ينهاهم عن ذلك في حياته، ويأمرهم بعبادة الله وحده: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧]، هذا

الذي أمر به المسيح حتى رُفع إلى السماء وهو يأمر به، لكنهم يعبدونه ويقولون: إنه هو الله، أو ثالث ثلاثة، أو ابن الله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢]. هذا الذي قاله المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ما قال لهم: اعبدوني، أو أنا ابن الله، أو أنا ثالث ثلاثة، وإنما هذا شيءٌ أحدثته النصارى بعد وفاة المسيح بقرون، لما ظهر اليهودي الخبيث بولس، والذي كان يهوديًّا معاديًا للمسيح، ثم فجأةً أظهر الإيمان بالمسيح، وأظهر النسك، وخرَّب دين النصارى، وأدخل فيه الوثنيات، مثلما فعل ابن سبأ مع المسلمين، ذلك اليهودي الذي أراد أن يُفسد الإسلام، لكن الله حمى الإسلام منه.

والآن نجد بين المسلمين من يعبد الرسول، ويدعوه، ويستغيث به، فهل الرسول أمر بهذا؟ الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن هذا أشد النهي، وجاهد عليه، وقاتل عليه، ولكن هذا يعبد الشيطان ولا يعبد الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حاشا وكلا، فكل من عبد غير الله فقد عبد الشيطان، ولم يعبد ذلك المخلوق.

لكن قد يوجد في المعبودين من يدعو إلى الشرك وإلى عبادته، مثل: غلاة الصوفية الذين يقول قائلهم: من رآني أو رأى من رآني دخل الجنة. مجرد أنه يراه يدخل الجنة، أو يرى من رآه يدخل الجنة! هذا لا شك أنه طاغوت وشيطان من شياطين الإنس.

فإذا كان يوم القيامة تبرأ الشيطان منهم ومن عبادتهم له، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ

فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم:٢٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر:١٦]، هذا موقف الشيطان يُغوي ابن آدم في الدنيا، ثم يتبرأ منه يوم الحساب.

والله جَلَّ وَعَلَا لم يشرع لعباده عبادة غيره، فالرسل كلهم جاءوا إلى الناس يدعونهم إلى عبادة الله وحده: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥]، هل جاء رسول من الرسل يأمر بعبادة غير الله؟ حاشا وكلا، الرسل مجموعون على إنكار الشرك، وكذلك أتباعهم، والله جَلَّ وَعَلَا لم يشرع الشرك أبدًا، إنما شرعه الشيطان لبني آدم؛ لأنه عدوٌ لهم يريد أن يُهلكهم، وقد تعهد بهذا: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٦٢]، فهو يتوعد ويهدد، وقد فعل ما هدد به، وأضل كثيرًا من الناس.

ولذلك صار ذنب الشرك أعظم الذنوب؛ لأنه لا يُغفر، وحرَّم الله على المشرك الجنة إلا أن يتوب، في حين أن الذنوب تحت مشيئة الله، إن شاء غفر، وإن شاء عذب بها، لكنها لا تُحرم الجنة، قد يدخل صاحبها النار لكنه يخرج إلى الجنة إذا كان في قلبه إيمانٌ وتوحيد ولو كان عنده معاصي وكبائر.

فَصْلٌ

فَلَمَّا كَانَ الشِّرْكُ أَكْبَرَ شَيْءٍ مُنَافَاةً لِلْأَمْرِ الَّذِي خَلَقَ اللَّهُ لَهُ الْخَلْقَ، وَأَمَرَ لِأَجْلِهِ بِالْأَمْرِ، كَانَ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ عِنْدَ اللَّهِ.

وَكَذَلِكَ الْكِبْرُ وَتَوَابِعُهُ كَمَا تَقَدَّمَ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْخَلْقَ وَأَنْزَلَ الْكِتَابَ لِتَكُونَ الطَّاعَةُ لَهُ وَحْدَهُ، وَالشِّرْكُ وَالْكِبْرُ يُنَافِيَانِ ذَلِكَ.

وَلِذَلِكَ حَرَّمَ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى أَهْلِ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ، فَلَا يَدْخُلُهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ[1].

الشرح:

ذكر المصنف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما سبق أن الشرك هو التشبه بالله، أو تشبيه الله بخلقه، فالذي يتكبر هذا قد تشبه بالله؛ لأن الكبرياء لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والعزة والعظمة لله وحده، أما الإنسان فهو مخلوقٌ ضعيف، فكيف يتكبر؟! فإذا تكبر كان متشبهًا بالله في كبريائه وعظمته.

وكذلك من التشبه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يعبد الإنسان غير الله؛ لأن من عبد غير الله فقد شبَّه معبوده بالله.

---

(١) كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخرجه مسلم (٩١).

فَصْلٌ

وَيَلِي ذَلِكَ فِي كِبَرِ الْمَفْسَدَةِ: الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَوَصْفُهُ بِضِدِّ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَهَذَا أَشَدُّ شَيْءٍ مُنَاقَضَةً وَمُنَافَاةً لِكَمَالِ مَنْ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، وَقَدْحٌ فِي نَفْسِ الرُّبُوبِيَّةِ وَخَصَائِصِ الرَّبِّ.

فَإِنْ صَدَرَ ذَلِكَ عَنْ عِلْمٍ فَهُوَ عِنَادٌ أَقْبَحُ مِنَ الشِّرْكِ، وَأَعْظَمُ إِثْمًا عِنْدَ اللَّهِ، فَإِنَّ الْمُشْرِكَ الْمُقِرَّ بِصِفَاتِ الرَّبِّ خَيْرٌ مِنَ الْمُعَطِّلِ الْجَاحِدِ لِصِفَاتِ كَمَالِهِ، كَمَا أَنَّ مَنْ أَقَرَّ لِمَلِكٍ بِالْمُلْكِ، وَلَمْ يَجْحَدْ مُلْكَهُ وَلَا الصِّفَاتِ الَّتِي اسْتَحَقَّ بِهَا الْمُلْكَ، لَكِنْ جَعَلَ مَعَهُ شَرِيكًا فِي بَعْضِ الْأُمُورِ، يُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ، خَيْرٌ مِمَّنْ جَحَدَ صِفَاتِ الْمَلِكِ وَمَا يَكُونُ بِهِ مَلِكًا.

وَهَذَا أَمْرٌ مُسْتَقِرٌّ فِي سَائِرِ الْفِطَرِ وَالْعُقُولِ. فَأَيْنَ الْقَدْحُ فِي صِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْجَحْدِ لَهَا، مِنْ عِبَادَةِ وَاسِطَةٍ بَيْنَ الْمَعْبُودِ الْحَقِّ وَبَيْنَ الْعَابِدِ، يَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِعِبَادَةِ تِلْكَ الْوَاسِطَةِ إِعْظَامًا لَهُ وَإِجْلَالًا؟ فَدَاءُ التَّعْطِيلِ هَذَا الدَّاءُ الْعُضَالُ الَّذِي لَا دَوَاءَ لَهُ.

وَلِهَذَا حَكَى اللَّهُ عَنْ إِمَامِ الْمُعَطِّلَةِ فِرْعَوْنَ، أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَى مُوسَى مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ أَنَّ رَبَّهُ فَوْقَ السَّمَوَاتِ، فَقَالَ: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

وَاحْتَجَّ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ فِي كُتُبِهِ عَلَى الْمُعَطِّلَةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا لَفْظَهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْكِتَابِ.

وَالْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ وَالشِّرْكُ مُتَلَازِمَانِ.

الشرح:

القول على الله بلا علم أشد من الشرك؛ لأن الله جعله فوق الشرك في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣]، فالشرك يدخل في القول على الله بغير علم، والمشرك تقوَّل على الله بغير علم.

وقوله: (**فَإِنْ صَدَرَ ذَلِكَ عَنْ عِلْمٍ فَهُوَ عِنَادٌ أَقْبَحُ مِنَ الشِّرْكِ**)، ما أسهل القول على الله الآن بغير علم عند كثيرٍ من الناس؛ بالتحليل والتحريم، والفتوى، وهو أشد من الشرك، وعبادة غير الله، ونفي الأسماء والصفات؛ لأن كل هذا قولٌ على الله بغير علم.

وقوله: (**فَإِنَّ الْمُشْرِكَ الْمُقِرَّ بِصِفَاتِ الرَّبِّ خَيْرٌ مِنَ الْمُعَطِّلِ الْجَاحِدِ لِصِفَاتِ كَمَالِهِ**)، يعني: نفاة الأسماء والصفات أعظم جُرمًا من المشركين من وجه؛ لأن المشرك يزعم أنه يتقرب إلى الله، وأن الله لا يوصل إليه إلا بواسطة، فهذا من تعظيم الله في نفسه، بخلاف المعطل فإنه استهان بالله، ونفى عنه الأسماء والصفات وتنقصه، فهو أشرُّ من المشرك.

وقوله: (**فَدَاءُ التَّعْطِيلِ هَذَا الدَّاءُ الْعُضَالُ الَّذِي لَا دَوَاءَ لَهُ**)، فهذا فرعون إمام المعطلة كان يوهم الناس بأنه ربهم الأعلى، ويقول لوزيره هامان: ابن لي صرحًا. يعني: يبني له شيئًا مرتفعًا -منارة أو مقصورة مرتفعة- ليرتفع إلى

السماء ويبحث عن هذا الإله الذي أخبر عنه موسى! وهذا من باب الجحود والعناد، وإلا فهو يعلم أنه ليس بواصل إلى السماء، ولا مُطلع على السموات، لكنه يُموه على الناس، ويتحدى موسى بزعمه؛ لأن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أثبت العلو لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمعطلة ينفون علو الله، ومنهم فرعون الذي قال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۞ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾، وقال -أيضًا-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ يريده أن يعمل آجر لأنه أقوى، ويبني منه العمود الذي يصعد عليه إلى السماء ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص:٣٨].

وهذا دليل على أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أخبره أن الله في السماء.

وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْبِدَعُ الْمُضِلَّةُ جَهْلًا بِصِفَاتِ اللَّهِ، وَتَكْذِيبًا بِمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَأَخْبَرَ بِهِ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنَادًا وَجَهْلًا، كَانَتْ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ -وَإِنْ قَصُرَتْ عَنِ الْكُفْرِ- وَكَانَتْ أَحَبَّ إِلَى إِبْلِيسَ مِنْ كِبَارِ الذُّنُوبِ.

كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «الْبِدْعَةُ أَحَبُّ إِلَى إِبْلِيسَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ: لِأَنَّ الْمَعْصِيَةَ يُتَابُ مِنْهَا وَالْبِدْعَةَ لَا يُتَابُ مِنْهَا»(١).

«وَقَالَ إِبْلِيسُ: أَهْلَكْتُ بَنِي آدَمَ بِالذُّنُوبِ، وَأَهْلَكُونِي بِالِاسْتِغْفَارِ وَبِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ بَثَثْتُ فِيهِمُ الْأَهْوَاءَ، فَهُمْ يُذْنِبُونَ وَلَا يَتُوبُونَ، لِأَنَّهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا»(٢).

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُذْنِبَ إِنَّمَا ضَرَرُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَمَّا الْمُبْتَدِعُ فَضَرَرُهُ عَلَى النَّوْعِ، وَفِتْنَةُ الْمُبْتَدِعِ فِي أَصْلِ الدِّينِ، وَفِتْنَةُ الْمُذْنِبِ فِي الشَّهْوَةِ، وَالْمُبْتَدِعُ قَدْ قَعَدَ لِلنَّاسِ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ يَصُدُّهُمْ عَنْهُ، وَالْمُذْنِبُ لَيْسَ كَذَلِكَ، وَالْمُبْتَدِعُ قَادِحٌ فِي أَوْصَافِ الرَّبِّ وَكَمَالِهِ، وَالْمُذْنِبُ لَيْسَ كَذَلِكَ، وَالْمُبْتَدِعُ يَقْطَعُ عَلَى النَّاسِ طَرِيقَ الْآخِرَةِ، وَالْعَاصِي بَطِيءُ السَّيْرِ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِ.

الشرح:

البدع: جمع بدعة، وهي ما أُحدث في الدين مما ليس منه، سُميت بدعة

---

(١) أخرجه ابن الجعد في مسنده (ص٢٧٢)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١/ ١٤٩)، وأبو نعيم في الحلية (٧/٢٦)، والبيهقي في الشعب (١٢/٥٣) من كلام سفيان الثوري.

(٢) أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده (١/١٢٣)، وابن أبي عاصم في السنة (١/٩) من حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

من الابتداع، وهو الشيء الجديد الذي ليس له سابقة.

والبدعة محرمة؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَحْدَثَ في أَمْرِنَا هذا ما لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(١)، وفي رواية: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيه أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(٢). وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(٣). وفي بعض ألفاظ الحديث: «**وَكُلُّ ضَلالَةٍ في النَّارِ**»(٤).

فالبدعة محرمة؛ لأنها زيادة في الدين، وتشريع لم يأذن به الله ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١]. الدين هو ما شرعه الله، وما لم يشرعه الله فهو من شرع الشيطان، وهو مردود وباطل؛ لأن الله أكمل هذا الدين، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣].

فالدين كامل لا يحتاج إلى زيادة، وإنما الواجب علينا العمل بما شرعه الله، وترك ما لم يشرعه الله، وإن ساغ لبعض الناس أو زينه بعض الناس أو لفَّقوه فإنه باطل ومردود، ويكفي أنه بدعة، وأنه ليس من الشرع، وأن الله لا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه مسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وذكره البخاري معلقًا في كتاب البيوع، باب النجش (٣/ ٦٩)، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ (٩/ ١٠٧).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد (٤/ ١٢٦) من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه النسائي (١٥٧٨)، وابن خزيمة (٣/ ١٤٣)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والطبراني في الكبير (٨٥٢١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يرضى به، فكيف يُتعب الإنسان نفسه بشيءٍ يترك السُنن وينشط في البدع؟! هذا من الشيطان، وإذا كان عنده رغبة في الخير فالسُنن فيها بركة فيها غُنية، ولكن الشيطان يُزين لهؤلاء سوء أعمالهم.

والبدع تنقسم إلى:

بدع كفرية: كدعاء غير الله، والذبح لغير الله، والاستغاثة بغير الله من الأموات، هذا لم يأذن به الله، بل نهى الله عنه، فهو بدعة مُكفرة. وكذلك مقالات الجهمية الذين ينفون الأسماء والصفات، هذا من البدع المكفرة.

وبدع مُضللة: وهي البدع التي فيها ضلالة وكبيرة من كبائر الذنوب، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»**.

وبدع معصية: وهذه أخف، وكلها لا خير فيها.

وقوله: **(وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْبِدَعُ الْمُضِلَّةُ جَهْلًا بِصِفَاتِ اللَّهِ)** وفيها تكذيبٌ لله؛ لأن الله وصف نفسه، وسمى نفسه، فالذي ينفيها هو مبتدع كاذب. والذين ينفون الصفات منهم من يكفر، ومنهم من لا يكفر ولكنه ضال، كالمُقلِّد، أو المتأول، أما الذي يتعمد ويعاند فهذا كافر بلا شك.

وقوله: **(وَكَانَتْ أَحَبَّ إِلَى إِبْلِيسَ مِنْ كِبَارِ الذُّنُوبِ)** البدعة أحب إلى إبليس من الزنا، ومن شُرب الخمر؛ لأن العاصي يعلم أنه مخطئ وقد يتوب، خلافًا للمبتدع فإنه يرى أنه على صواب وقلَّ أن يتوب؛ لأنه يرى أنه على خير وأنه على حق.

وقوله: **(فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ بَثَثْتُ فِيهِمُ الْأَهْوَاءَ، فَهُمْ يُذْنِبُونَ وَلَا يَتُوبُونَ)**، وهذا خطير جدًّا، لَمَّا رأى عدو الله أن عباد الله يتوبون ويستغفرون، وينهدم

ما بناه، لجأ إلى شيءٍ لا يتوبون منه وهو: اتباع الأهواء، واتباع البدع.

وقوله: **(وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُذْنِبَ إِنَّمَا ضَرَرُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَمَّا الْمُبْتَدِعُ فَضَرَرُهُ عَلَى النَّوْعِ)** هذا -أيضًا- وجه آخر في شر البدع، وهو: أن ضرر البدعة يتعدى إلى الناس ويقتدون به، خلافًا لضرر المعصية فإنه يتعدى العاصي نفسه، والناس لا يقتدون بالعصاة، ويعلمون أن هذه معصية، وينهون عنها، أما البدعة فمن يعمل بها يعتقد أنها دين، وأن من أنكرها فهو منكر للدين، كما يطنطنون به الآن في كتاباتهم وصحفهم ومؤلفاتهم، ويزعمون أن الذي يُنكر البدع هو من الخوارج، أو من المتشددين .. إلى آخر ما يقولون، وإذا نُهوا عن الشر قالوا للذي ينهاهم: أنت المخطئ، دع الناس وما يعتقدون، وحرية الاعتقاد مكفولة للجميع، ونحو ذلك مما يروجون له بين الجهال وعوام الناس.

وهناك وجهٌ آخر لشر البدع، وهو: **(وَفِتْنَةُ الْمُبْتَدِعِ فِي أَصْلِ الدِّينِ، وَفِتْنَةُ الْمُذْنِبِ فِي الشَّهْوَةِ)**، فالعاصي لا يُشرِّع شيء في الدين، ولا يزيد في الدين.

وقوله: **(وَالْمُبْتَدِعُ قَدْ قَعَدَ لِلنَّاسِ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ يَصُدُّهُمْ عَنْهُ)**، فالمُذنب يخجل في نفسه، وأما المبتدع فيجاهر ويرى أنه على حق، ويدعو الناس إلى بدعته.

فَصْلٌ

ثُمَّ لَمَّا كَانَ الظُّلْمُ وَالْعُدْوَانُ مُنَافِيَيْنِ لِلْعَدْلِ الَّذِي قَامَتْ بِهِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَأَرْسَلَ لَهُ سُبْحَانَهُ رُسُلَهُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ لِيَقُومَ النَّاسُ بِهِ؛ كَانَ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ عِنْدَ اللَّهِ، وَكَانَتْ دَرَجَتُهُ فِي الْعَظَمَةِ بِحَسَبِ مَفْسَدَتِهِ فِي نَفْسِهِ.

وَكَانَ قَتْلُ الْإِنْسَانِ وَلَدَهُ الطِّفْلَ الصَّغِيرَ الَّذِي لَا ذَنْبَ لَهُ، وَقَدْ جَبَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْقُلُوبَ عَلَى مَحَبَّتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَطْفِهَا عَلَيْهِمْ، وَخَصَّ الْوَالِدَيْنِ مِنْ ذَلِكَ بِمَزِيَّةٍ ظَاهِرَةٍ، فَقَتْلُهُ -خَشْيَةَ أَنْ يُشَارِكَهُ فِي مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وَمَالِهِ- مِنْ أَقْبَحِ الظُّلْمِ وَأَشَدِّهِ، وَكَذَلِكَ قَتْلُهُ أَبَوَيْهِ اللَّذَيْنِ كَانَا سَبَبَ وُجُودِهِ، وَكَذَلِكَ قَتْلُهُ ذَا رَحِمِهِ.

وَتَتَفَاوَتُ دَرَجَاتُ الْقَتْلِ بِحَسَبِ قُبْحِهِ وَاسْتِحْقَاقِ مَنْ قَتَلَهُ لِلسَّعْيِ فِي إِبْقَائِهِ وَنَصِيحَتِهِ. وَلِهَذَا كَانَ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَتَلَ نَبِيًّا أَوْ قَتَلَهُ نَبِيٌّ، وَيَلِيهِ مَنْ قَتَلَ إِمَامًا عَادِلًا يَأْمُرُ النَّاسَ بِالْقِسْطِ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَيَنْصَحُهُمْ فِي دِينِهِمْ.

الشرح:

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حرَّم الظلم، والظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه، وهو ثلاثة أنواع:

الأول: ظلمٌ بين العبد وبين ربه، وهو الشرك، فهذا لا يغفره الله إلا بالتوبة.

الثاني: ظلمٌ بين العبد وبين الناس، بأن يتعدى عليهم، ويأخذ أموالهم، ويقتلهم، ويضربهم، ويتعدى على أعراضهم بالغيبة والنميمة أو بالزنا. وهذا لا يغفره الله إلا بعد عفو أصحابه المظلومين، وإلَّا فإنه يقتص للمظلومين من الظالم، فتوبته لا تُسقط عنه حقوق الناس.

الثالث: ظلم العبد لنفسه، وذلك بالمعاصي، وهذا تحت المشيئة، إن شاء الله غفره وإن شاء عذب صاحبه.

ولهذا نهى الله جَلَّ وَعَلَا عن الظلم، وقال -كما في الحديث القدسي-: **«يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلاَ تَظَالَمُوا»**(١). والظلم ظلمات يوم القيامة ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وقوله: **(فَقَتْلُهُ -خَشْيَةَ أَنْ يُشَارِكَهُ فِي مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وَمَالِهِ- مِنْ أَقْبَحِ الظُّلْمِ وَأَشَدِّهِ)** كما كانوا في الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الفقر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ يعني: الفقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]، وفي آية الأنعام: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، فهم كانوا يقتلونهم خشية الفقر. والآن يريدون أن يحددوا النسل خشية الفقر، فهذا شبيه بفعل الجاهلية، وسوءُ ظنٍ بالله عَزَّوَجَلَّ.

فقد كانوا في الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الفقر، ومنهم من كان يقتل أولاده تقربًا إلى الأصنام: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ [الأنعام:١٣٧]، ومنهم من يقتل البنات خشية العار، ويدفنونهن حيات: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل:٥٨، ٥٩]، هذا كله من أفعال الجاهلية، وهذا أعظم الظلم، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان:٦٨]، هذه الجرائم هي أكبر الكبائر.

وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَأَلْتُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللَّهِ أَكْبَرُ؟ قَالَ: **«أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»** -هذا مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾- قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: **«أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»** -وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾- قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: **«أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ»**(١)، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزْنُونَۚ﴾.

وقوله: **(وَتَتَفَاوَتُ دَرَجَاتُ الْقَتْلِ)** فأعظم القتل جرمًا قتل القريب؛ لأنه يجتمع فيه كبيرتان: قطيعة الرحم، وقتل النفس.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٦١).

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ جَزَاءَ قَتْلِ النَّفْسِ الْمُؤْمِنَةِ عَمْدًا الْخُلُودَ فِي النَّارِ، وَغَضَبَ الْجَبَّارِ وَلَعْنَتَهُ، وَإِعْدَادَ الْعَذَابِ الْعَظِيمِ لَهُ، هَذَا مُوجِبُ قَتْلِ الْمُؤْمِنِ عَمْدًا مَا لَمْ يَمْنَعْ مِنْهُ مَانِعٌ.

وَلَا خِلَافَ أَنَّ الْإِسْلَامَ الْوَاقِعَ بَعْدَ الْقَتْلِ طَوْعًا وَاخْتِيَارًا مَانِعٌ مِنْ نُفُوذِ ذَلِكَ الْجَزَاءِ.

وَهَلْ تَمْنَعُ تَوْبَةُ الْمُسْلِمِ مِنْهُ بَعْدَ وُقُوعِهِ فِيهِ؟ قَوْلَانِ لِلسَّلَفِ وَالْخَلَفِ، وَهُمَا رِوَايَتَانِ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ.

وَالَّذِينَ قَالُوا: لَا تَمْنَعُ التَّوْبَةُ مِنْ نُفُوذِهِ. رَأَوْا أَنَّهُ حَقٌّ لِآدَمِيٍّ لَمْ يَسْتَوْفِهِ فِي دَارِ الدُّنْيَا وَخَرَجَ مِنْهُ بِظُلَامَتِهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُسْتَوْفَى فِي دَارِ الْعَدْلِ.

قَالُوا: وَمَا اسْتَوْفَاهُ الْوَارِثُ إِنَّمَا اسْتَوْفَى مَحْضَ حَقِّهِ الَّذِي خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ اسْتِيفَائِهِ وَالْعَفْوِ عَنْهُ، وَمَا يَنْفَعُ الْمَقْتُولَ مِنِ اسْتِيفَاءِ وَارِثِهِ؟ وَأَيُّ اسْتِدْرَاكٍ لِظُلَامَتِهِ حَصَلَ بِاسْتِيفَاءِ وَارِثِهِ؟

وَهَذَا أَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ فِي الْمَسْأَلَةِ: أَنَّ حَقَّ الْمَقْتُولِ لَا يَسْقُطُ بِاسْتِيفَاءِ الْوَارِثِ، وَهُمَا وَجْهَانِ لِأَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَغَيْرِهِم.

وَرَأَتْ طَائِفَةٌ أَنَّهُ يَسْقُطُ بِالتَّوْبَةِ وَاسْتِيفَاءِ الْوَارِثِ، فَإِنَّ التَّوْبَةَ تَهْدِمُ مَا قَبْلَهَا، وَالذَّنْبُ الَّذِي جَنَاهُ قَدْ أُقِيمَ عَلَيْهِ حَدُّهُ.

قَالُوا: وَإِذَا كَانَتِ التَّوْبَةُ تَمْحُو أَثَرَ الْكُفْرِ وَالسِّحْرِ، وَهُمَا أَعْظَمُ إِثْمًا مِنَ الْقَتْلِ، فَكَيْفَ تَقْصُرُ عَنْ مَحْوِ أَثَرِ الْقَتْلِ؟ وَقَدْ قَبِلَ اللَّهُ تَوْبَةَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ، وَجَعَلَهُمْ مِنْ خِيَارِ عِبَادِهِ، وَدَعَا الَّذِينَ أَحْرَقُوا أَوْلِيَاءَهُ وَفَتَنُوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ إِلَى التَّوْبَةِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا

تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣]، فَهَذَا فِي حَقِّ التَّائِبِ، وَهِيَ تَتَنَاوَلُ الْكُفْرَ وَمَا دُونَهُ.

قَالُوا: وَكَيْفَ يَتُوبُ الْعَبْدُ مِنَ الذَّنْبِ وَيُعَاقَبُ عَلَيْهِ بَعْدَ التَّوْبَةِ؟ هَذَا مَعْلُومٌ انْتِفَاؤُهُ فِي شَرْعِ اللَّهِ وَجَزَائِهِ.

قَالُوا: وَتَوْبَةُ هَذَا الْمُذْنِبِ تَسْلِيمُ نَفْسِهِ، وَلَا يُمْكِنُ تَسْلِيمُهَا إِلَى الْمَقْتُولِ، فَأَقَامَ الشَّارِعُ وَلِيَّهُ مَقَامَهُ، وَجَعَلَ تَسْلِيمَ النَّفْسِ إِلَيْهِ كَتَسْلِيمِهَا إِلَى الْمَقْتُولِ، بِمَنْزِلَةِ تَسْلِيمِ الْمَالِ الَّذِي عَلَيْهِ لِوَارِثِهِ، فَإِنَّهُ يَقُومُ مَقَامَ تَسْلِيمِهِ لِلْمُوَرِّثِ.

وَالتَّحْقِيقُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّ الْقَتْلَ يَتَعَلَّقُ بِهِ ثَلَاثُ حُقُوقٍ: حَقٌّ لِلَّهِ، وَحَقٌّ لِلْمَقْتُولِ، وَحَقٌّ لِلْوَلِيِّ.

فَإِذَا سَلَّمَ الْقَاتِلُ نَفْسَهُ طَوْعًا وَاخْتِيَارًا إِلَى الْوَلِيِّ نَدَمًا عَلَى مَا فَعَلَ، وَخَوْفًا مِنَ اللَّهِ، وَتَوْبَةً نَصُوحًا، سَقَطَ حَقُّ اللَّهِ بِالتَّوْبَةِ، وَحَقُّ الْوَلِيِّ بِالِاسْتِيفَاءِ أَوِ الصُّلْحِ أَوِ الْعَفْوِ، وَبَقِيَ حَقُّ الْمَقْتُولِ يُعَوِّضُهُ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ عَبْدِهِ التَّائِبِ الْمُحْسِنِ، وَيُصْلِحُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، فَلَا يَذْهَبُ حَقُّ هَذَا، وَلَا تَبْطُلُ تَوْبَةُ هَذَا.

الشرح:

جعل الله جَلَّوَعَلَا في القتل العمد عقوبة في الدنيا وهي القصاص، وعقوبة في الآخرة وهي الوعيد، فإذا قتل الكافر عمدًا ثم أسلم فإن الإسلام يُخفف أثر هذه الجريمة، ويكون مانعًا من نفوذ ذلك الجزاء.

أما المسلم إذا قتل عمدًا ثم تاب، فهل يسقط عنه الوعيد في الآخرة الذي

ذكره الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء:٩٣]؟ الجمهور على أنه يسقط بالتوبة، والقول الثاني - وهو قول ابن عباس وجماعة من السلف-: أنه لا يسقط، بل لابد من نفوذ الوعيد فيه.

وقوله: **(وَمَا اسْتَوْفَاهُ الْوَارِثُ إِنَّمَا اسْتَوْفَى مَحْضَ حَقِّهِ)** وهو القصاص، وهل القصاص يُكفِّر ذنب القاتل أو لا يُكفر؟ قيل: لا يُكفر؛ لأن القصاص حقٌّ لأولياء القتيل، أما حق القتيل فإنه يبقى. وقيل: إذا تاب القاتل سقط عنه الوعيد في الآخرة.

وَأَمَّا مَسْأَلَةُ الْمَالِ فَقَدِ اخْتُلِفَ فِيهَا، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: إِذَا أَدَّى مَا عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ إِلَى الْوَارِثِ بَرِئَ مِنْ عُهْدَتِهِ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا بَرِئَ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: بَلِ الْمُطَالَبَةُ لِمَنْ ظَلَمَهُ بِأَخْذِهِ بَاقِيَةٌ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ لَمْ يَسْتَدْرِكْ ظُلَامَتَهُ بِأَخْذِ وَارِثِهِ لَهُ، فَإِنَّهُ مَنَعَهُ مِنِ انْتِفَاعِهِ بِهِ فِي طُولِ حَيَاتِهِ، وَمَاتَ وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ، وَهَذَا ظُلْمٌ لَمْ يَسْتَدْرِكْهُ، وَإِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِهِ غَيْرُهُ بِاسْتِدْرَاكِهِ.

وَبَنَوْا عَلَى هَذَا أَنَّهُ لَوِ انْتَقَلَ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى وَاحِدٍ، وَتَعَدَّدَ الْوَرَثَةُ، كَانَتِ الْمُطَالَبَةُ لِلْجَمِيعِ؛ لِأَنَّهُ حَقٌّ كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ دَفْعُهُ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عِنْدَ كَوْنِهِ هُوَ الْوَارِثَ، وَهَذَا قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ وَأَحْمَدَ.

وَفَصَلَ شَيْخُنَا -رَحِمَهُ اللَّهُ- بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ، فَقَالَ: إِنْ تَمَكَّنَ الْمَوْرُوثُ مِنْ أَخْذِ مَالِهِ وَالْمُطَالَبَةِ بِهِ فَلَمْ يَأْخُذْهُ حَتَّى مَاتَ، صَارَتِ الْمُطَالَبَةُ بِهِ لِلْوَارِثِ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا هِيَ كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنْ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ طَلَبِهِ وَأَخْذِهِ، بَلْ حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، فَالطَّلَبُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ.

وَهَذَا التَّفْصِيلُ مِنْ أَحْسَنِ مَا يُقَالُ، فَإِنَّ الْمَالَ إِذَا اسْتَهْلَكَهُ الظَّالِمُ عَلَى الْمَوْرُوثِ، وَتَعَذَّرَ أَخْذُهُ مِنْهُ، صَارَ بِمَنْزِلَةِ عَبْدِهِ الَّذِي قَتَلَهُ قَاتِلٌ، وَدَارِهِ الَّتِي أَحْرَقَهَا غَيْرُهُ، وَطَعَامِهِ وَشَرَابِهِ الَّذِي أَكَلَهُ وَشَرِبَهُ غَيْرُهُ، وَمِثْلُ هَذَا إِنَّمَا تَلَفَ عَلَى الْمَوْرُوثِ لَا عَلَى الْوَارِثِ، فَحَقُّ الْمُطَالَبَةِ لِمَنْ تَلَفَ عَلَى مِلْكِهِ.

بَقِيَ أَنْ يُقَالَ: فَإِذَا كَانَ الْمَالُ عَقَارًا أَوْ أَرْضًا أَوْ أَعْيَانًا قَائِمَةً بَاقِيَةً بَعْدَ الْمَوْتِ فَهِيَ مِلْكُ الْوَارِثِ يَجِبُ عَلَى الْغَاصِبِ دَفْعُهَا إِلَيْهِ كُلَّ وَقْتٍ، فَإِذَا لَمْ يَدْفَعْ إِلَيْهِ أَعْيَانَ مَالِهِ اسْتَحَقَّ الْمُطَالَبَةَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا يَسْتَحِقُّ الْمُطَالَبَةَ بِهَا فِي الدُّنْيَا.

وَهَذَا سُؤَالٌ قَوِيٌّ لَا مَخْلَصَ مِنْهُ إِلَّا بِأَنْ يُقَالَ: الْمُطَالَبَةُ لَهُمَا جَمِيعًا، كَمَا لَوْ

غَصَبَ مَالًا مُشْتَرَكًا بَيْنَ جَمَاعَةٍ؛ اسْتَحَقَّ كُلٌّ مِنْهُمُ الْمُطَالَبَةَ لِحَقِّهِ مِنْهُ، كَمَا لَوِ اسْتَوْلَى عَلَى وَقْفٍ مُرَتَّبٍ عَلَى بُطُونٍ، فَأَبْطَلَ حَقَّ الْبُطُونِ كُلِّهِمْ مِنْهُ، كَانَتِ الْمُطَالَبَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِجَمِيعِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِهَا مِنْ بَعْضٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الشرح:

الظلم في المال يبرأ منه الغاصب إذا أدَّاه إلى صاحبه قبل مماته، أما إذا أدَّاه إلى الوارث فعلى قولين، قيل: يبرأ، وقيل: لا يبرأ.

وقوله: **(وَفَصَلَ شَيْخُنَا)** يعني: شيخ الإسلام ابن تيمية، فصَل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه المسألة بين القولين، وقال: إن كان امتناع المظلوم من أخذ ماله في الدنيا إهمالًا منه وتساهلًا، ثم مات، فهو حقٌّ باقٍ للوارث يُطالب به يوم القيامة إن لم يأخذه في الدنيا، وأما إذا مُنع المظلوم منه وحيل بينه وبين أخذه ظلمًا وعدوانًا، فهذا لاشك باقٍ على الظالم يأخذه من في الآخرة.

وقوله: **(وَمِثْلُ هَذَا إِنَّمَا تَلَفَ عَلَى الْمَوْرُوثِ لَا عَلَى الْوَارِثِ)** يعني: إذا غصب مالًا أو ظلم مالًا بغير حق، ثم مات صاحبه ولم يرده عليه، ولم يرده على الوارث، فحق المطالبة به في الآخرة هل هو للوارث أم للموروث؟ قال: **(فَحَقُّ الْمُطَالَبَةِ لِمَنْ تَلَفَ عَلَى مِلْكِهِ)** أي: هو حقٌّ باقٍ للموروث يطالب به الغاصب يوم القيامة.

فَصْلٌ

وَلَمَّا كَانَتْ مَفْسَدَةُ الْقَتْلِ هَذِهِ الْمَفْسَدَةَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢].

وَقَدْ أَشْكَلَ فَهْمُ هَذَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَقَالَ: مَعْلُومٌ أَنَّ إِثْمَ قَاتِلِ مِائَةٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ إِثْمِ قَاتِلِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَإِنَّمَا أُتُوهُ مِنْ ظَنِّهِمْ أَنَّ التَّشْبِيهَ فِي مِقْدَارِ الْإِثْمِ وَالْعُقُوبَةِ، وَاللَّفْظُ لَمْ يَدُلَّ عَلَى هَذَا، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ تَشْبِيهِ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ أَخْذُهُ بِجَمِيعِ أَحْكَامِهِ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦]، وَقَالَ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف:٣٥]. وَذَلِكَ لَا يُوجِبُ أَنَّ لُبْثَهُمْ فِي الدُّنْيَا إِنَّمَا كَانَ هَذَا الْمِقْدَارَ.

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ اللَّيْلَ كُلَّهُ»(١)، أَيْ: مَعَ الْعِشَاءِ كَمَا جَاءَ فِي لَفْظٍ آخَرَ(٢).

وَأَصْرَحُ مِنْ هَذَا قَوْلُهُ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَأَتْبَعَهُ بِسِتٍّ مِنْ شَوَّالٍ فَكَأَنَّمَا صَامَ الدَّهْرَ»(٣)، وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فَكَأَنَّمَا قَرَأَ

---

(١) أخرجه مسلم (٦٥٦) من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٥٧/١) من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (١١٦٤) من حديث أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُلُثَ الْقُرْآنِ»(١).

وَمَعْلُومٌ أَنَّ ثَوَابَ فَاعِلِ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ لَمْ يَبْلُغْ ثَوَابَ الْمُشَبَّهِ بِهِ، فَيَكُونُ قَدْرُهُمَا سَوَاءً، وَلَوْ كَانَ قَدْرُ الثَّوَابِ سَوَاءً لَمْ يَكُنْ لِمُصَلِّي الْعِشَاءِ وَالْفَجْرِ جَمَاعَةً فِي قِيَامِ اللَّيْلِ مَنْفَعَةٌ غَيْرُ التَّعَبِ وَالنَّصَبِ.

وَمَا أُوتِيَ أَحَدٌ -بَعْدَ الْإِيمَانِ- أَفْضَلَ مِنَ الْفَهْمِ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَفِي أَيِّ شَيْءٍ وَقَعَ التَّشْبِيهُ بَيْنَ قَاتِلِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَقَاتِلِ النَّاسِ جَمِيعًا؟ قِيلَ: فِي وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا عَاصٍ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، مُخَالِفٌ لِأَمْرِهِ، مُتَعَرِّضٌ لِعُقُوبَتِهِ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا قَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَلَعْنَتِهِ، وَاسْتِحْقَاقِ الْخُلُودِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَإِعْدَادِهِ عَذَابًا عَظِيمًا، وَإِنَّمَا التَّفَاوُتُ فِي دَرَجَاتِ الْعَذَابِ، فَلَيْسَ إِثْمُ مَنْ قَتَلَ نَبِيًّا أَوْ إِمَامًا عَادِلًا أَوْ عَالِمًا يَأْمُرُ النَّاسَ بِالْقِسْطِ، كَإِثْمِ مَنْ قَتَلَ مَنْ لَا مَزِيَّةَ لَهُ مِنْ آحَادِ النَّاسِ.

الثَّانِي: أَنَّهُمَا سَوَاءٌ فِي اسْتِحْقَاقِ إِزْهَاقِ النَّفْسِ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُمَا سَوَاءٌ فِي الْجَرَاءَةِ عَلَى سَفْكِ الدَّمِ الْحَرَامِ، فَإِنَّ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ، بَلْ لِمُجَرَّدِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، أَوْ لِأَخْذِ مَالِهِ، فَإِنَّهُ يَجْتَرِئُ عَلَى قَتْلِ

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ: أحمد في المسند (٥/ ١٤١) من حديث أُبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه مسلم (٨١١) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولفظه: «**أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟**»، قَالُوا: وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: «**﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**». وأخرجه البخاري (٥٠١٥) بنحوه من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كُلِّ مَنْ ظَفَرَ بِهِ وَأَمْكَنَهُ قَتْلُهُ، فَهُوَ مُعَادٍ لِلنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ يُسَمَّى قَاتِلًا أَوْ فَاسِقًا أَوْ ظَالِمًا أَوْ عَاصِيًا بِقَتْلِهِ وَاحِدًا، كَمَا يُسَمَّى كَذَلِكَ بِقَتْلِهِ النَّاسَ جَمِيعًا.

وَمِنْهَا: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَوَاصُلِهِمْ كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ(١).

فَإِذَا أَتْلَفَ الْقَاتِلُ مِنْ هَذَا الْجَسَدِ عُضْوًا، فَكَأَنَّمَا أَتْلَفَ سَائِرَ الْجَسَدِ، وَآلَمَ جَمِيعَ أَعْضَائِهِ، فَمَنْ آذَى مُؤْمِنًا وَاحِدًا فَكَأَنَّمَا آذَى جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَفِي أَذَى جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ أَذَى جَمِيعِ النَّاسِ، فَإِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا يُدَافِعُ عَنِ النَّاسِ بِالْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ بَيْنَهُمْ، فَإِيذَاءُ الْخَفِيرِ إِيذَاءُ الْمُخْفَرِ.

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا بِغَيْرِ حَقٍّ، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ»(٢).

وَلَمْ يَجِئْ هَذَا الْوَعِيدُ فِي أَوَّلِ زَانٍ وَلَا أَوَّلِ سَارِقٍ وَلَا أَوَّلِ شَارِبِ مُسْكِرٍ، وَإِنْ كَانَ أَوَّلُ الْمُشْرِكِينَ قَدْ يَكُونُ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْ أَوَّلِ قَاتِلٍ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الشِّرْكَ؛ وَلِهَذَا رَأَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ الْخُزَاعِيَّ يُعَذَّبُ أَعْظَمَ الْعَذَابِ فِي النَّارِ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ(٣).

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ [البقرة:٤١]. أَيْ: فَيَقْتَدِي

---

(١) كما في حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٢١)، ومسلم (٢٨٥٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، فَيَكُونُ إِثْمُ كُفْرِهِ عَلَيْكُمْ، وَكَذَلِكَ حُكْمُ مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَاتُّبِعَ عَلَيْهَا.

وَفِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَجِيءُ الْمَقْتُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَاصِيَتُهُ وَرَأْسُهُ بِيَدِهِ، وَأَوْدَاجُهُ تَشْخُبُ دَمًا، يَقُولُ: يَا رَبِّ سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي»، فَذَكَرُوا لِابْنِ عَبَّاسٍ التَّوْبَةَ، فَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا﴾ [النساء:٩٣]. ثُمَّ قَالَ: «مَا نُسِخَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا بُدِّلَتْ، وَأَنَّى لَهُ التَّوْبَةُ!»(١)، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْ نَافِعٍ قَالَ: «نَظَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ يَوْمًا إِلَى الْكَعْبَةِ، فَقَالَ: مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَالْمُؤْمِنُ عِنْدَ اللَّهِ أَعْظَمُ حُرْمَةً مِنْكِ»(٢)، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ جُنْدَبٍ قَالَ: «أَوَّلُ مَا يُنْتِنُ مِنَ الْإِنْسَانِ بَطْنُهُ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ لَا يَأْكُلَ إِلَّا طَيِّبًا فَلْيَفْعَلْ، وَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ مِلْءُ كَفٍّ مِنْ دَمٍ أَهْرَاقَهُ فَلْيَفْعَلْ»(٣).

وَفِي صَحِيحِهِ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا»(٤).

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ: الترمذي (٣٠٢٩)، والنسائي (٤٠٠٥). وأخرجه بنحوه: أحمد في المسند (١/٢٢٢)، والنسائي (٣٩٩٩)، وابن ماجه (٢٦٢١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٣٢).

(٣) أخرجه البخاري (٧١٥٢).

(٤) أخرجه البخاري (٦٨٦٢).

وَذَكَرَ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: «مِنْ وَرَطَاتِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيهَا: سَفْكُ الدَّمِ الْحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ»(١).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَرْفَعُهُ: «سِبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»(٢).

وَفِيهِمَا أَيْضًا عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»(٣).

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يُرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»(٤).

هَذِهِ عُقُوبَةُ قَاتِلِ عَدُوِّ اللَّهِ إِذَا كَانَ فِي عَهْدِهِ وَأَمَانِهِ، فَكَيْفَ عُقُوبَةُ قَاتِلِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ؟

وَإِذَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَدْ دَخَلَتِ النَّارَ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا وَعَطَشًا، فَرَآهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّارِ، وَالْهِرَّةُ تَخْدِشُهَا فِي وَجْهِهَا وَصَدْرِهَا(٥)، فَكَيْفَ عُقُوبَةُ مَنْ حَبَسَ مُؤْمِنًا حَتَّى مَاتَ بِغَيْرِ جُرْمٍ؟

وَفِي بَعْضِ السُّنَنِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أما حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد أخرجه ابن ماجه (٣٩٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (٧٠٧٧)، ومسلم (٦٥) من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٣١٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، تقدم تخريجه (ص١٢٢).

مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ»(١).

الشرح:

قوله: **(وَقَدْ أَشْكَلَ فَهْمُ هَذَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ)** وجه الإشكال: أن الله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، فكيف يكون عليه إثم قتل الناس جميعًا وهو ما قتل إلا نفسًا واحدة؟

فأتى المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بنظائر لذلك، منها: قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَأَتْبَعَهُ بِسِتٍّ مِنْ شَوَّالٍ فَكَأَنَّمَا صَامَ الدَّهْرَ»**، مع أنه ما صام إلا ستًّا وثلاثين يومًا، وكذلك: **«مَنْ قَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فَكَأَنَّمَا قَرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»**، مع أنه ما قرأ إلا سورة قصيرة، فدل على أن العمل قد يكون يسيرًا ولكنه يُعادل العمل الكثير.

كذلك: **«مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ اللَّيْلَ كُلَّهُ»**، مع أنه ما صلى إلا صلاة واحدة وله أجر من صلى كل الليل، أو صلى صلاتين فقط: العشاء والفجر، ومع هذا يأخذ أجر من قام الليل كله.

وقوله: **(فَلَيْسَ إِثْمُ مَنْ قَتَلَ نَبِيًّا أَوْ إِمَامًا عَادِلًا أَوْ عَالِمًا يَأْمُرُ النَّاسَ بِالْقِسْطِ، كَإِثْمِ مَنْ قَتَلَ مَنْ لَا مَزِيَّةَ لَهُ مِنْ آحَادِ النَّاسِ)** لا شك أن القتل جريمة وكبيرة

---

(١) أخرجه النسائي (٣٩٩٠) من حديث بُريدة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه ابن ماجه (٢٦١٩) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه الترمذي (١٣٩٥)، والنسائي (٣٩٨٧) موقوفًا على عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

من كبائر الذنوب، لكنه بعضها أشد من بعض، مثل ما سبق أن من قتل والده أو قتل ولده حكمه أشد ممن قتل الأجنبي، وكذلك من زنى بحليلة جاره أشد ممن زنا بامرأة أخرى غيرها، فالكبائر تتفاوت بحسب مُلابساته ومواقعها، وإن كانت في أصل التحريم كلها محرمة.

وقوله: **(وَالْمُؤْمِنُ عِنْدَ اللَّهِ أَعْظَمُ حُرْمَةً مِنْكِ)**؛ لأن حرمة المؤمن عظيمة، كأنها أعظم من الكعبة التي هي بيت الله، فلو اعتدى إنسان على الكعبة وهدمها فقد اقترف إثمًا كبيرًا وفسادًا عظيمًا، لكن قتل النفس المؤمنة أعظم منه وأشد، ولهذا قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا»**.

وقوله: **«سِبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»** يعني: كفرٌ أصغر، وليس الكفر المخرج من الملة، وذلك كقول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»**، يعني: الكفر الأصغر.

فالقاتل لا شك أنه مرتكب لكبيرة عظيمة لكنه لا يكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٠]، فدل على أن القاتل لا يكفر، وأنه من إخواننا، ولكنه مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب.

وفي هذا رد على الخوارج والمعتزلة الذين يُكفرون بالكبائر.

فَصْلٌ

وَلَمَّا كَانَتْ مَفْسَدَةُ الزِّنَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَفَاسِدِ، وَهِيَ مُنَافِيَةٌ لِمَصْلَحَةِ نِظَامِ الْعَالَمِ فِي حِفْظِ الْأَنْسَابِ، وَحِمَايَةِ الْفُرُوجِ، وَصِيَانَةِ الْحُرُمَاتِ، وَتَوَقِّي مَا يُوقِعُ أَعْظَمَ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَ النَّاسِ، مِنْ إِفْسَادِ كُلٍّ مِنْهُمُ امْرَأَةَ صَاحِبِهِ وَبِنْتِهِ وَأُخْتِهِ وَأُمِّهِ، وَفِي ذَلِكَ خَرَابُ الْعَالَمِ، كَانَتْ تَلِي مَفْسَدَةَ الْقَتْلِ فِي الْكِبَرِ، وَلِهَذَا قَرَنَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَرَسُولُهُ ﷺ بِهَا فِي سُنَّتِهِ كَمَا تَقَدَّمَ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: وَلَا أَعْلَمُ بَعْدَ قَتْلِ النَّفْسِ شَيْئًا أَعْظَمَ مِنَ الزِّنَا.

وَقَدْ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ حُرْمَتَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨- ٧٠]. فَقَرَنَ الزِّنَا بِالشِّرْكِ وَقَتْلِ النَّفْسِ، وَجَعَلَ جَزَاءَ ذَلِكَ الْخُلُودَ فِي الْعَذَابِ الْمُضَاعَفِ، مَا لَمْ يَرْفَعِ الْعَبْدُ مُوجِبَ ذَلِكَ بِالتَّوْبَةِ وَالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢]. فَأَخْبَرَ عَنْ فُحْشِهِ فِي نَفْسِهِ، وَهُوَ الْقَبِيحُ الَّذِي قَدْ تَنَاهَى قُبْحُهُ حَتَّى اسْتَقَرَّ فُحْشُهُ فِي الْعُقُولِ حَتَّى عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْحَيَوَانِ، كَمَا ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ الْأَوْدِيِّ قَالَ: «رَأَيْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قِرْدًا زَنَى بِقِرْدَةٍ، فَاجْتَمَعَ الْقُرُودُ عَلَيْهِمَا فَرَجَمُوهُمَا حَتَّى مَاتَا»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٤٩).

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ غَايَتِهِ بِأَنَّهُ سَاءَ سَبِيلًا، فَإِنَّهُ سَبِيلُ هَلَكَةٍ وَبَوَارٍ وَافْتِقَارٍ فِي الدُّنْيَا، وَعَذَابٍ وَخِزْيٍ وَنَكَالٍ فِي الْآخِرَةِ.

وَلَمَّا كَانَ نِكَاحُ أَزْوَاجِ الْآبَاءِ مِنْ أَقْبَحِهِ خَصَّهُ بِمَزِيدِ ذَمٍّ، فَقَالَ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٢٢].

وَعَلَّقَ سُبْحَانَهُ فَلَاحَ الْعَبْدِ عَلَى حِفْظِ فَرْجِهِ مِنْهُ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى الْفَلَاحِ بِدُونِهِ، فَقَالَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون:١ - ٧].

وَهَذَا يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ: أَنَّ مَنْ لَمْ يَحْفَظْ فَرْجَهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُفْلِحِينَ، وَأَنَّهُ مِنَ الْمَلُومِينَ، وَمِنَ الْعَادِينَ، فَفَاتَهُ الْفَلَاحُ، وَاسْتَحَقَّ اسْمَ الْعُدْوَانِ، وَوَقَعَ فِي اللَّوْمِ، فَمُقَاسَاةُ أَلَمِ الشَّهْوَةِ وَمُعَانَاتُهَا أَيْسَرُ مِنْ بَعْضِ ذَلِكَ.

وَنَظِيرُ هَذَا أَنَّهُ ذَمَّ الْإِنْسَانَ، وَأَنَّهُ خُلِقَ هَلُوعًا لَا يَصْبِرُ عَلَى سَرَّاءَ وَلَا ضَرَّاءَ، بَلْ إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنَعَ وَبَخِلَ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزِعَ، إِلَّا مَنِ اسْتَثْنَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ النَّاجِينَ مِنْ خَلْقِهِ، فَذَكَرَ مِنْهُمْ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المعارج:٢٩ - ٣١].

فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ أَنْ يَأْمُرَ الْمُؤْمِنِينَ بِغَضِّ أَبْصَارِهِمْ، وَحِفْظِ فُرُوجِهِمْ، وَأَنْ يُعْلِمَهُمْ أَنَّهُ مُشَاهِدٌ لِأَعْمَالِهِمْ، مُطَّلِعٌ عَلَيْهَا، ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩].

وَلَمَّا كَانَ مَبْدَأُ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ الْبَصَرِ جُعِلَ الْأَمْرُ بِغَضِّهِ مُقَدَّمًا عَلَى حِفْظِ الْفَرْجِ، فَإِنَّ الْحَوَادِثَ مَبْدَؤُهَا مِنَ الْبَصَرِ، كَمَا أَنَّ مُعْظَمَ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ، فَتكُونُ نَظْرَةٌ، ثُمَّ تَكُونُ خَطْرَةٌ، ثُمَّ خُطْوَةٌ، ثُمَّ خَطِيئَةٌ.

وَلِهَذَا قِيلَ: مَنْ حَفِظَ هَذِهِ الْأَرْبَعَةَ أَحْرَزَ دِينَهُ: اللَّحَظَاتِ، وَالْخَطَرَاتِ، وَاللَّفَظَاتِ، وَالْخُطُوَاتِ. فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ بَوَّابَ نَفْسِهِ عَلَى هَذِهِ الْأَبْوَابِ الْأَرْبَعَةِ، وَيُلَازِمَ الرِّبَاطَ عَلَى ثُغُورِهَا، فَمِنْهَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ الْعَدُوُّ، فَيَجُوسُ خِلَالَ الدِّيَارِ وَيُتَبِّرُ مَا عَلَا تَتْبِيرًا.

الشرح:

لـمَّا فرغ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الكلام على مفسدة القتل وسفك الدماء بغير حق، انتقل إلى بيان الجريمة الثانية التي تلي القتل وهي: الزنا، والزنا جريمة خطيرة جدًّا؛ لِمَا يترتب عليها من مفاسد عظيمة، ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا﴾؛ لما يترتب عليه من فساد في الأعراض، وفساد الأُسر، واختلاط الأنساب، وانتشار الأمراض، ومن غضب الله عَزَّوَجَلَّ وعقابه، ففيه مفاسد ودمار للمجتمعات.

ومن أعظم أسباب الزنا: إهمال النساء وتركهن، وهن حبائل الشيطان، فإذا تُركن من غير محافظةٍ عليهن وإلزامٍ لهن بالحجاب والعفة، والبقاء في البيوت، حصلت مفاسد الزنا؛ لأن الشيطان يزين للناس هذه الجريمة، وأعوان الشيطان يزينونها للناس باسم حرية المرأة، وحقوق المرأة، وما أشبه ذلك من الدِعايات الضالة المُضلة. وكأن حق المرأة هو تمكينها من الفساد!

وهذا عين المحادة لله ولرسوله، وعين المكابرة، فالمرأة ما أُلزمت بالحجاب إلا لمصلحتها هي، وهذا حقها؛ حقها على المسلمين أن يصونوها وأن يحفظوها؛ لأنها أمهم، وأختهم، وبنتهم، وقريبتهم، وأختهم في الإسلام، فلا تُضيع ولا تُترك ليتسلط عليها أهل الفساد؛ لأن النساء في المجتمع إذا لم تُضبط بضوابط الشرع صارت فسادًا ونقمةً على المجتمع.

وقد قرن الله جَلَّ وَعَلَا جريمة الزنا بجريمة القتل فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾، قرن الزنا مع الشرك ومع القتل بغير حق.

ثم إن هذه الجريمة فيها من المفاسد العظيمة في حق المجتمع، ففيها خلط للأنساب وجناية على الأولاد؛ لأن ولد الزنا المسكين هذا يعيش في ذل وهوان؛ لأنه لا يعلم له أبًا ولا نسبًا، فيصبح بين الناس محل تنقص، وحتى لو لم ير من الناس تنقصًا فهو في نفسه يشعر بالتنقص والمهانة؛ لأنه لا ينتسب إلى أب، ولا ينتسب إلى قبيلة، فيكون هذا المسكين قد جنى عليه من وضع هذه النطفة في غير محلها، وهذا من أعظم الجرائم.

وفي قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠]، ثلاث أمور تابعة لترك الزنا:

الأول: ترك الشرك بالله، وترك القتل بغير حق، وترك الزنا. أما إذا استغفر بلسانه وتاب بلسانه ولم يترك الذنب، فهذا ليس بتائب.

والثاني: الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، بأن يلتزم خصال الإيمان وأصول الإيمان.

والثالث: أن يبدل السيئات حسنات، ويُصلح الأعمال الفاسدة.

أما مجرد التوبة باللسان من غير إتيان هذه الأمور، فهذه توبةٌ لا صحة لها.

وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ﴾ تحذير من تعاطي الأسباب الموصلة إلى الزنا؛ من النظر المحرم، وسفر المرأة وحدها بدون محرم، واختلاطها بالرجال، وأشد ذلك تبرجها وظهورها متزينة، متعطرة، متجملة، سافرة، كاشفة لساقيها وعضديها ونحرها، كما هو حال نساء الكفرة.

وفي قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾. ربط للفلاح بترك الزنا، فدلَّ على أن من لم يترك الزنا فهو من الخاسرين، وأنه ملوم عند الله وعند خلقه، وأنه متعدٍ الحلال إلى الحرام.

فَصْلٌ

وَأَكْثَرُ مَا تَدْخُلُ الْمَعَاصِي عَلَى الْعَبْدِ مِنْ هَذِهِ الْأَبْوَابِ الْأَرْبَعَةِ، فَنَذْكُرُ فِي كُلِّ بَابٍ مِنْهَا فَصْلًا يَلِيقُ بِهِ:

فَأَمَّا اللَّحَظَاتُ: فَهِيَ رَائِدُ الشَّهْوَةِ وَرَسُولُهَا، وَحِفْظُهَا أَصْلُ حِفْظِ الْفَرْجِ، فَمَنْ أَطْلَقَ بَصَرَهُ أَوْرَدَ نَفْسَهُ مَوَارِدَ الْمُهْلِكَاتِ.

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّمَا لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الْأُخْرَى»[(١)].

وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ، فَمَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنْ مَحَاسِنِ امْرَأَةٍ لِلَّهِ، أَوْرَثَ اللَّهُ قَلْبَهُ حَلَاوَةً إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ»[(٢)]. هَذَا مَعْنَى الْحَدِيثِ.

وَقَالَ: «غُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ»[(٣)]، وَقَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَجَالِسُنَا مَا لَنَا بُدٌّ مِنْهَا، قَالَ: «فَإِنْ كُنْتُمْ لَا بُدَّ فَاعِلِينَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ»، قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ: «غَضُّ الْبَصَرِ

(١) أخرجه أبو داود (٢١٤٩)، والترمذي (٢٧٧٧)، وأحمد (٥/ ٣٢٥) من حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه البزار (٢/ ٢٨٠)، والحاكم (٢/ ٢١٢)، وابن حبان (١٢/ ٣٨١)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ١٤٤) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ: الحاكم (٤/ ٣٤٩) من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والطبراني في الكبير (١٠٣٦٢) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والذي في المسند (٥/ ٢٦٤) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَنْظُرُ إِلَى مَحَاسِنِ امْرَأَةٍ أَوَّلَ مَرَّةٍ، ثُمَّ يَغُضُّ بَصَرَهُ إِلَّا أَحْدَثَ اللهُ لَهُ عِبَادَةً يَجِدُ حَلَاوَتَهَا»**.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٢٣)، وابن حبان (١/ ٥٠٦)، والحاكم (٤/ ٣٩٩)، والبيهقي في الكبرى (٦/ ٤٧١) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بُدَّ فَاعِلِينَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ»، قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ: «غَضُّ الْبَصَرِ وَكَفُّ الْأَذَى وَرَدُّ السَّلَامِ»(١).

وَالنَّظَرُ أَصْلُ عَامَّةِ الْحَوَادِثِ الَّتِي تُصِيبُ الْإِنْسَانَ، فَالنَّظْرَةُ تُوَلِّدُ خَطْرَةً، ثُمَّ تُوَلِّدُ الْخَطْرَةُ فِكْرَةً، ثُمَّ تُوَلِّدُ الْفِكْرَةُ شَهْوَةً، ثُمَّ تُوَلِّدُ الشَّهْوَةُ إِرَادَةً، ثُمَّ تَقْوَى فَتَصِيرُ عَزِيمَةً جَازِمَةً، فَيَقَعُ الْفِعْلُ وَلَا بُدَّ، مَا لَمْ يَمْنَعْ مِنْهُ مَانِعٌ.

وَفِي هَذَا قِيلَ: الصَّبْرُ عَلَى غَضِّ الْبَصَرِ أَيْسَرُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى أَلَمِ مَا بَعْدَهُ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

كُلُّ الْحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظَرِ ... وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ
كَمْ نَظْرَةٍ بَلَغَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا ... كَمَبْلَغِ السَّهْمِ بَيْنَ الْقَوْسِ وَالْوَتَرِ
وَالْعَبْدُ مَا دَامَ ذَا طَرْفٍ يُقَلِّبُهُ ... فِي أَعْيُنِ الْعِينِ مَوْقُوفٌ عَلَى الْخَطَرِ
يَسُرُّ مُقْلَتَهُ مَا ضَرَّ مُهْجَتَهُ ... لَا مَرْحَبًا بِسُرُورٍ عَادَ بِالضَّرَرِ

وَمِنْ آفَاتِ النَّظَرِ: أَنَّهُ يُورِثُ الْحَسَرَاتِ وَالزَّفَرَاتِ وَالْحَرَقَاتِ، فَيَرَى الْعَبْدُ مَا لَيْسَ قَادِرًا عَلَيْهِ وَلَا صَابِرًا عَنْهُ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعَذَابِ أَنْ تَرَى مَا لَا صَبْرَ لَكَ عَنْ بَعْضِهِ، وَلَا قُدْرَةَ عَلَى بَعْضِهِ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

وَكُنْتُ مَتَى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا ... لِقَلْبِكَ يَوْمًا أَتْعَبَتْكَ الْمَنَاظِرُ
رَأَيْتَ الَّذِي لَا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ ... عَلَيْهِ وَلَا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ

وَهَذَا الْبَيْتُ يَحْتَاجُ إِلَى شَرْحٍ، وَمُرَادُهُ: أَنَّكَ تَرَى مَا لَا تَصْبِرُ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ وَلَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: «لَا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ» نَفْيٌ لِقُدْرَتِهِ عَلَى الْكُلِّ الَّذِي

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٦٥)، ومسلم (٢١٢١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لَا يَنْتَفِي إِلَّا بِنَفْيِ الْقُدْرَةِ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ وَاحِدٍ.

وَكَمْ مَنْ أَرْسَلَ لَحَظَاتِهِ فَمَا قَلَعَتْ إِلَّا وَهُوَ يَتَشَحَّطُ بَيْنَهُنَّ قَتِيلًا، كَمَا قِيلَ:

يَا نَاظِرًا مَا أَقْلَعَتْ لَحَظَاتُهُ حَتَّى تَشَحَّطَ بَيْنَهُنَّ قَتِيلُ

وَلِي مِنْ أَبْيَاتٍ:

مَلَّ السَّلَامَةَ فَاغْتَدَتْ لَحَظَاتُهُ وَقْفًا عَلَى طَلَلٍ يَظُنُّ جَمِيلا
مَا زَالَ يُتْبِعُ إِثْرَهُ لَحَظَاتِهِ حَتَّى تَشَحَّطَ بَيْنَهُنَّ قَتِيلا

وَمِنَ الْعَجَبِ: أَنَّ لَحْظَةَ النَّاظِرِ سَهْمٌ لَا يَصِلُ إِلَى الْمَنْظُورِ إِلَيْهِ حَتَّى يَتَبَوَّأَ مَكَانًا مِنْ قَلْبِ النَّاظِرِ، وَلِي مِنْ قَصِيدَةٍ:

يَا رَامِيًا بِسِهَامِ اللَّحْظِ مُجْتَهِدًا أَنْتَ الْقَتِيلُ بِمَا تَرْمِي فَلَا تُصِبِ
وَبَاعِثَ الطَّرْفِ يَرْتَادُ الشِّفَاءَ لَهُ احْبِسْ رَسُولَكَ لَا يَأْتِيكَ بِالْعَطَبِ

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ: أَنَّ النَّظْرَةَ تَجْرَحُ الْقَلْبَ جُرْحًا، فَيَتْبَعُهَا جُرْحٌ عَلَى جُرْحٍ، ثُمَّ لَا يَمْنَعُهُ أَلَمُ الْجِرَاحَةِ مِنِ اسْتِدْعَاءِ تَكْرَارِهَا.

وَلِي أَيْضًا فِي هَذَا الْمَعْنَى:

مَا زِلْتَ تُتْبِعُ نَظْرَةً فِي نَظْرَةٍ فِي إِثْرِ كُلِّ مَلِيحَةٍ وَمَلِيحِ
وَتَظُنُّ ذَاكَ دَوَاءَ جُرْحِكَ وَهُوَ فِي الْتـ ـحْقِيقِ تَجْرِيحٌ عَلَى تَجْرِيحِ
فَذَبَحْتَ طَرْفَكَ بِاللِّحَاظِ وَبِالْبُكَا فَالْقَلْبُ مِنْكَ ذَبِيحٌ أَيُّ ذَبِيحِ

وَقَدْ قِيلَ: حَبْسُ اللَّحَظَاتِ أَيْسَرُ مِنْ دَوَامِ الْحَسَرَاتِ.

الشرح:

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّمَا لَكَ الْأُولَى**» التي من غير قصد، وهي نظر الفجأة، فإذا وقع نظرك على امرأة فجأة، فهذه النظرة يُعفى عنها، لكن إذا

قصدت وأعدت النظر فهنا تؤاخذ.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أَوْرَثَ اللَّهُ قَلْبَهُ حَلَاوَةً إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ»**، يعني: من فوائد غض البصر أن الله ينور قلب عبده ويزكيه.

وقوله: **(وَمِنْ آفَاتِ النَّظَرِ: أَنَّهُ يُورِثُ الْحَسَرَاتِ وَالزَّفَرَاتِ وَالْحَرَقَاتِ)** هذه أيضًا مصيبة؛ لأنك تنظر إلى شيء لست تحصله، فيورث في نفسك حسرة عليه، ولو أنك غضضت بصرك ما تعلق قلبك به، ولا حصل منك تأسفٌ عليه. وهذه مصيبة كبرى أن يتعلق قلب العبد بما يراه، فيفكر فيه ولا هو بحاصل له، فيصبح في حسرة وحرقة، ولو أنه غض بصره استراح.

وأول ما تصيب النظرة هو القلب، فهي سهم مسموم يصيب سمه قلب الناظر، فيورث فيه شرًّا عظيمًا وفتنة مهلكة.

فَصْلٌ

وَأَمَّا الْخَطَرَاتُ: فَشَأْنُهَا أَصْعَبُ، فَإِنَّهَا مَبْدَأُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَمِنْهَا تَتَوَلَّدُ الْإِرَادَاتُ وَالْهِمَمُ وَالْعَزَائِمُ، فَمَنْ رَاعَى خَطَرَاتِهِ مَلَكَ زِمَامَ نَفْسِهِ وَقَهَرَ هَوَاهُ، وَمَنْ غَلَبَتْهُ خَطَرَاتُهُ فَهَوَاهُ وَنَفْسُهُ لَهُ أَغْلَبُ، وَمَنِ اسْتَهَانَ بِالْخَطَرَاتِ قَادَتْهُ قَهْرًا إِلَى الْهَلَكَاتِ.

وَلَا تَزَالُ الْخَطَرَاتُ تَتَرَدَّدُ عَلَى الْقَلْبِ حَتَّى تَصِيرَ مُنًى بَاطِلَةً: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور:٣٩].

وَأَخَسُّ النَّاسِ هِمَّةً وَأَوْضَعُهُمْ نَفْسًا، مَنْ رَضِيَ مِنَ الْحَقَائِقِ بِالْأَمَانِي الْكَاذِبَةِ، وَاسْتَجْلَبَهَا لِنَفْسِهِ وَتَحَلَّى بِهَا، وَهِيَ لَعَمْرُ اللهِ رُءُوسُ أَمْوَالِ الْمُفْلِسِينَ، وَمَتَاجِرُ الْبَطَّالِينَ، وَهِيَ قُوتُ النَّفْسِ الْفَارِغَةِ، الَّتِي قَدْ قَنَعَتْ مِنَ الْوَصْلِ بِزَوْرَةِ الْخَيَالِ، وَمِنَ الْحَقَائِقِ بِكَوَاذِبِ الْآمَالِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ[(١)]:

مُنًى إِنْ تَكُنْ حَقًّا تَكُنْ أَحْسَنَ الْمُنَى ... وَإِلَّا فَقَدْ عِشْنَا بِهَا زَمَنًا رَغْدَا

وَهِيَ أَضَرُّ شَيْءٍ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَيَتَوَلَّدُ مِنْهَا الْعَجْزُ وَالْكَسَلُ، وَتُوَلِّدُ التَّفْرِيطَ وَالْحَسْرَةَ وَالنَّدَمَ، وَالْمُتَمَنِّي لَمَّا فَاتَتْهُ مُبَاشَرَةُ الْحَقِيقَةِ بِجِسْمِهِ حَوَّلَ صُورَتَهَا فِي قَلْبِهِ، وَعَانَقَهَا وَضَمَّهَا إِلَيْهِ، فَقَنَعَ بِوِصَالِ صُورَةٍ وَهْمِيَّةٍ خَيَالِيَّةٍ صَوَّرَهَا فِكْرُهُ.

وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَيْهِ شَيْئًا، وَإِنَّمَا مَثَلُهُ مَثَلُ الْجَائِعِ وَالظَّمْآنِ، يُصَوِّرُ فِي وَهْمِهِ صُورَةَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَهُوَ لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ.

---

(١) يُنسب البيت للرماح بن ميادة، أو رجل من بني الحارث. يُنظر: شعر ابن ميادة (ص٢٥٥).

وَالسُّكُونُ إِلَى ذَلِكَ وَاسْتِجْلَابُهُ يَدُلُّ عَلَى خَسَارَةِ النَّفْسِ وَوَضَاعَتِهَا، وَإِنَّمَا شَرَفُ النَّفْسِ وَزَكَاؤُهَا وَطَهَارَتُهَا وَعُلُوُّهَا بِأَنْ يَنْفِيَ عَنْهَا كُلَّ خَطْرَةٍ لَا حَقِيقَةَ لَهَا، وَلَا يَرْضَى أَنْ يُخْطِرَهَا بِبَالِهِ، وَيَأْنَفَ لِنَفْسِهِ مِنْهَا.

ثُمَّ الْخَطَرَاتُ بَعْدُ أَقْسَامٌ تَدُورُ عَلَى أَرْبَعَةِ أُصُولٍ:

- خَطَرَاتٌ يَسْتَجْلِبُ بِهَا الْعَبْدُ مَنَافِعَ دُنْيَاهُ.
- وَخَطَرَاتٌ يَسْتَدْفِعُ بِهَا مَضَارَّ دُنْيَاهُ.
- وَخَطَرَاتٌ يَسْتَجْلِبُ بِهَا مَصَالِحَ آخِرَتِهِ.
- وَخَطَرَاتٌ يَسْتَدْفِعُ بِهَا مَضَارَّ آخِرَتِهِ.

فَلْيَحْصُرِ الْعَبْدُ خَطَرَاتِهِ وَأَفْكَارَهُ وَهُمُومَهُ فِي هَذِهِ الْأَقْسَامِ الْأَرْبَعَةِ، فَإِذَا انْحَصَرَتْ لَهُ فِيهَا أَمْكَنَ اجْتِمَاعُهُ مِنْهَا وَلَمْ يَتْرُكْهُ لِغَيْرِهِ، وَإِذَا تَزَاحَمَتْ عَلَيْهِ الْخَطَرَاتُ لِتَزَاحُمِ مُتَعَلِّقَاتِهَا، قَدَّمَ الْأَهَمَّ فَالْأَهَمَّ الَّذِي يَخْشَى فَوْتَهُ، وَأَخَّرَ الَّذِي لَيْسَ بِأَهَمَّ وَلَا يَخَافُ فَوْتَهُ.

بَقِيَ قِسْمَانِ آخَرَانِ، أَحَدُهُمَا: مُهِمٌّ لَا يَفُوتُ، وَالثَّانِي: غَيْرُ مُهِمٍّ وَلَكِنَّهُ يَفُوتُ. فَفِي كُلٍّ مِنْهُمَا مَا يَدْعُو إِلَى تَقْدِيمِهِ، فَهُنَا يَقَعُ التَّرَدُّدُ وَالْحَيْرَةُ، فَإِنْ قَدَّمَ الْمُهِمَّ؛ خَشِيَ فَوَاتَ مَا دُونَهُ، وَإِنْ قَدَّمَ مَا دُونَهُ فَاتَهُ الِاشْتِغَالُ بِهِ عَنِ الْمُهِمِّ.

وَكَذَلِكَ يَعْرِضُ لَهُ أَمْرَانِ لَا يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا، وَلَا يَحْصُلُ أَحَدُهُمَا إِلَّا بِتَفْوِيتِ الْآخَرِ، فَهَذَا مَوْضِعُ اسْتِعْمَالِ الْعَقْلِ وَالْفِقْهِ وَالْمَعْرِفَةِ. وَمِنْ هَاهُنَا ارْتَفَعَ مَنِ ارْتَفَعَ وَأَنْجَحَ مَنْ أَنْجَحَ، وَخَابَ مَنْ خَابَ. فَأَكْثَرُ مَنْ تَرَى مِمَّنْ يَعْظُمُ عَقْلُهُ وَمَعْرِفَتُهُ يُؤْثِرُ غَيْرَ الْمُهِمِّ الَّذِي لَا يَفُوتُ عَلَى الْمُهِمِّ الَّذِي يَفُوتُ، وَلَا تَجِدُ أَحَدًا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ مُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ.

وَالتَّحْكِيمُ فِي هَذَا الْبَابِ لِلْقَاعِدَةِ الْكُبْرَى الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ، وَإِلَيْهَا مَرْجِعُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، وَهِيَ إِيثَارُ أَكْبَرِ الْمَصْلَحَتَيْنِ وَأَعْلَاهُمَا، وَإِنْ فَاتَتِ الْمَصْلَحَةُ الَّتِي هِيَ دُونَهَا، وَالدُّخُولُ فِي أَدْنَى الْمَفْسَدَتَيْنِ لِدَفْعِ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا، فَيُفَوِّتُ مَصْلَحَةً لِتَحْصِيلِ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا، وَيَرْتَكِبُ مَفْسَدَةً لِدَفْعِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا. فَخَطَرَاتُ الْعَاقِلِ وَفِكْرُهُ لَا يُجَاوِزُ ذَلِكَ، وَبِذَلِكَ جَاءَتِ الشَّرَائِعُ، وَمَصَالِحُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَا تَقُومُ إِلَّا عَلَى ذَلِكَ.

وَأَعْلَى الْفِكَرِ وَأَجَلُّهَا وَأَنْفَعُهَا: مَا كَانَ لِلَّهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ، فَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ أَنْوَاعٌ:

أَحَدُهَا: الْفِكْرَةُ فِي آيَاتِهِ الْمُنَزَّلَةِ وَتَعَقُّلُهَا، وَفَهْمُهَا وَفَهْمُ مُرَادِهِ مِنْهَا، وَلِذَلِكَ أَنْزَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى، لَا لِمُجَرَّدِ تِلَاوَتِهَا، بَلِ التِّلَاوَةُ وَسِيلَةٌ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: أُنْزِلَ الْقُرْآنُ لِيُعْمَلَ بِهِ، فَاتَّخِذُوا تِلَاوَتَهُ عَمَلًا(١).

الثَّانِي: الْفِكْرَةُ فِي آيَاتِهِ الْمَشْهُودَةِ وَالِاعْتِبَارُ بِهَا، وَالِاسْتِدْلَالُ بِهَا عَلَى أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَحِكْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَبِرِّهِ وَجُودِهِ، وَقَدْ حَضَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ عَلَى التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِهِ وَتَدَبُّرِهَا وَتَعَقُّلِهَا، وَذَمَّ الْغَافِلَ عَنْ ذَلِكَ.

الثَّالِثُ: الْفِكْرَةُ فِي آلَائِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَإِنْعَامِهِ عَلَى خَلْقِهِ بِأَصْنَافِ النِّعَمِ، وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَحِلْمِهِ.

وَهَذِهِ الْأَنْوَاعُ الثَّلَاثَةُ تَسْتَخْرِجُ مِنَ الْقَلْبِ مَعْرِفَةَ اللَّهِ وَمَحَبَّتَهُ وَخَوْفَهُ وَرَجَاءَهُ. وَدَوَامُ الْفِكْرَةِ فِي ذَلِكَ مَعَ الذِّكْرِ يَصْبُغُ الْقَلْبَ فِي الْمَعْرِفَةِ وَالْمَحَبَّةِ صِبْغَةً تَامَّةً.

---

(١) من كلام الحسن البصري، يُنظر: تأويل مشكل القرآن (ص١٤٨).

الرَّابِعُ: الْفِكْرَةُ فِي عُيُوبِ النَّفْسِ وَآفَاتِهَا، وَفِي عُيُوبِ الْعَمَلِ، وَهَذِهِ الْفِكْرَةُ عَظِيمَةُ النَّفْعِ، وَهَذَا بَابٌ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَتَأْثِيرُهَا فِي كَسْرِ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، وَمَتَى كُسِرَتْ عَاشَتِ النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ وَانْبَعَثَتْ وَصَارَ الْحُكْمُ لَهَا، فَحَيِيَ الْقَلْبُ، وَدَارَتْ كَلِمَتُهُ فِي مَمْلَكَتِهِ، وَبَثَّ أُمَرَاءَهُ وَجُنُودَهُ فِي مَصَالِحِهِ.

الْخَامِسُ: الْفِكْرَةُ فِي وَاجِبِ الْوَقْتِ وَوَظِيفَتِهِ وَجَمْعُ الْهَمِّ كُلِّهِ عَلَيْهِ، فَالْعَارِفُ ابْنُ وَقْتِهِ، فَإِنْ أَضَاعَهُ ضَاعَتْ عَلَيْهِ مَصَالِحُهُ كُلُّهَا، فَجَمِيعُ الْمَصَالِحِ إِنَّمَا تَنْشَأُ مِنَ الْوَقْتِ، وَإِنْ ضَيَّعَهُ لَمْ يَسْتَدْرِكْهُ أَبَدًا.

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «صَحِبْتُ الصُّوفِيَّةَ فَلَمْ أَسْتَفِدْ مِنْهُمْ سِوَى حَرْفَيْنِ: أَحَدُهُمَا قَوْلُهُمْ: الْوَقْتُ سَيْفٌ، فَإِنْ قَطَعْتَهُ وَإِلَّا قَطَعَكَ»[١]. وَذَكَرَ الْكَلِمَةَ الْأُخْرَى.

فَوَقْتُ الْإِنْسَانِ هُوَ عُمُرُهُ فِي الْحَقِيقَةِ، وَهُوَ مَادَّةُ حَيَاتِهِ الْأَبَدِيَّةِ فِي النَّعِيمِ الْمُقِيمِ، وَمَادَّةُ الْمَعِيشَةِ الضَّنْكِ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَهُوَ يَمُرُّ أَسْرَعَ مِنَ السَّحَابِ، فَمَا كَانَ مِنْ وَقْتِهِ لِلَّهِ وَبِاللَّهِ فَهُوَ حَيَاتُهُ وَعُمُرُهُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ لَيْسَ مَحْسُوبًا مِنْ حَيَاتِهِ، وَإِنْ عَاشَ فِيهِ عَاشَ عَيْشَ الْبَهَائِمِ، فَإِذَا قَطَعَ وَقْتَهُ فِي الْغَفْلَةِ وَالسَّهْوِ وَالْأَمَانِيِّ الْبَاطِلَةِ، وَكَانَ خَيْرَ مَا قَطَعَهُ بِهِ النَّوْمُ وَالْبِطَالَةُ، فَمَوْتُ هَذَا خَيْرٌ لَهُ مِنْ حَيَاتِهِ.

وَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ -وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ- لَيْسَ لَهُ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا مَا عَقَلَ مِنْهَا فَلَيْسَ لَهُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا مَا كَانَ فِيهِ بِاللَّهِ وَلِلَّهِ.

وَمَا عَدَا هَذِهِ الْأَقْسَامِ مِنَ الْخَطَرَاتِ وَالْفِكَرِ، فَإِمَّا وَسَاوِسُ شَيْطَانِيَّةٌ، وَإِمَّا

---

(١) يُنظر: مناقب الشافعي للبيهقي (٢/٢٠٨).

أَمَانِيُّ بَاطِلَةٌ وَخِدَعٌ كَاذِبَةٌ، بِمَنْزِلَةِ خَوَاطِرِ الْمُصَابِينَ فِي عُقُولِهِمْ مِنَ السُّكَارَى وَالْمَحْشُوشِينَ وَالْمُوَسْوِسِينَ، وَلِسَانُ حَالِ هَؤُلَاءِ يَقُولُ عِنْدَ انْكِشَافِ الْحَقَائِقِ[(١)]:

إِنْ كَانَ مَنْزِلَتِي فِي الْحَشْرِ عِنْدَكُمْ ... مَا قَدْ لَقِيتُ فَقَدْ ضَيَّعْتُ أَيَّامِي

أُمْنِيَّةٌ ظَفِرَتْ نَفْسِي بِهَا زَمَنًا ... وَالْيَوْمَ أَحْسَبُهَا أَضْغَاثَ أَحْلَامِ

وَاعْلَمْ أَنَّ وُرُودَ الْخَاطِرِ لَا يَضُرُّ، وَإِنَّمَا يَضُرُّ اسْتِدْعَاؤُهُ وَمُحَادَثَتُهُ، فَالْخَاطِرُ كَالْمَارِّ عَلَى الطَّرِيقِ، فَإِنْ تَرَكْتَهُ مَرَّ وَانْصَرَفَ عَنْكَ، وَإِنِ اسْتَدْعَيْتَهُ سَحَرَكَ بِحَدِيثِهِ وَغُرُورِهِ، وَهُوَ أَخَفُّ شَيْءٍ عَلَى النَّفْسِ الْفَارِغَةِ الْبَاطِلَةِ، وَأَثْقَلُ شَيْءٍ عَلَى الْقَلْبِ وَالنَّفْسِ الشَّرِيفَةِ السَّمَاوِيَّةِ الْمُطْمَئِنَّةِ.

وَقَدْ رَكَّبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي الْإِنْسَانِ نَفْسًا أَمَّارَةً وَنَفْسًا مُطْمَئِنَّةً، وَهُمَا مُتَعَادِيَتَانِ، فَكُلُّ مَا خَفَّ عَلَى هَذِهِ ثَقُلَ عَلَى هَذِهِ، وَكُلُّ مَا الْتَذَّتْ بِهِ هَذِهِ تَأَلَّمَتْ بِهِ الْأُخْرَى، فَلَيْسَ عَلَى النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ أَشَقُّ مِنَ الْعَمَلِ لِلَّهِ وَإِيثَارِ رِضَاهُ عَلَى هَوَاهَا، وَلَيْسَ لَهَا أَنْفَعُ مِنْهُ، وَلَيْسَ عَلَى النَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّةِ أَشَقُّ مِنَ الْعَمَلِ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَمَا جَاءَ بِهِ دَاعِي الْهَوَى، وَلَيْسَ عَلَيْهَا شَيْءٌ أَضَرُّ مِنْهُ، وَالْمَلَكُ مَعَ هَذِهِ عَنْ يَمْنَةِ الْقَلْبِ، وَالشَّيْطَانُ مَعَ تِلْكَ عَنْ يَسْرَةِ الْقَلْبِ، وَالْحُرُوبُ مُسْتَمِرَّةٌ لَا تَضَعُ أَوْزَارَهَا إِلَّا أَنْ يُسْتَوْفَى أَجَلُهَا مِنَ الدُّنْيَا، وَالْبَاطِلُ كُلُّهُ يَتَحَيَّزُ مَعَ الشَّيْطَانِ وَالْأَمَّارَةِ، وَالْحَقُّ كُلُّهُ يَتَحَيَّزُ مَعَ الْمَلَكِ وَالْمُطْمَئِنَّةِ، وَالْحَرْبُ دُوَلٌ وَسِجَالٌ، وَالنَّصْرُ مَعَ الصَّبْرِ، وَمَنْ صَبَرَ وَصَابَرَ وَرَابَطَ وَاتَّقَى اللَّهَ فَلَهُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَدْ حَكَمَ اللَّهُ تَعَالَى حُكْمًا لَا يُبَدَّلُ أَبَدًا: أَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقْوَى، وَالْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ.

---

(١) البيتان لابن الفراض الصوفي، يُنظر: ديوانه (ص٢٠٧).

فَالْقَلْبُ لَوْحٌ فَارِغٌ، وَالْخَوَاطِرُ نُقُوشٌ تُنْقَشُ فِيهِ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِالْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ نُقُوشُ لَوْحِهِ مَا بَيْنَ كَذِبٍ وَغُرُورٍ وَخُدَعٍ، وَأَمَانِيٍّ بَاطِلَةٍ، وَسَرَابٍ لَا حَقِيقَةَ لَهُ؟ فَأَيُّ حِكْمَةٍ وَعِلْمٍ وَهُدًى يَنْتَقِشُ مَعَ هَذِهِ النُّقُوشِ؟ وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْتَقِشَ ذَلِكَ فِي لَوْحِ قَلْبِهِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ كِتَابَةِ الْعِلْمِ النَّافِعِ فِي مَحَلٍّ مَشْغُولٍ بِكِتَابَةِ مَا لَا مَنْفَعَةَ فِيهِ، فَإِنْ لَمْ يُفْرِغِ الْقَلْبَ مِنَ الْخَوَاطِرِ الرَّدِيَّةِ، لَمْ تَسْتَقِرَّ فِيهِ الْخَوَاطِرُ النَّافِعَةُ، فَإِنَّهَا لَا تَسْتَقِرُّ إِلَّا فِي مَحَلٍّ فَارِغٍ، كَمَا قِيلَ(١):

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى ... فَصَادَفَ قَلْبًا فَارِغًا فَتَمَكَّنَا

وَلِهَذَا كَثِيرٌ مِنْ أَرْبَابِ السُّلُوكِ بَنَوْا سُلُوكَهُمْ عَلَى حِفْظِ الْخَوَاطِرِ، وَأَنْ لَا يُمَكِّنُوا خَاطِرًا يَدْخُلُ قُلُوبَهُمْ حَتَّى تَصِيرَ الْقُلُوبُ فَارِغَةً قَابِلَةً لِلْكَشْفِ وَظُهُورِ حَقَائِقِ الْعُلْوِيَّاتِ فِيهَا.

وَهَؤُلَاءِ حَفِظُوا شَيْئًا، وَغَابَتْ عَنْهُمْ أَشْيَاءُ، فَإِنَّهُمْ أَخْلَوُا الْقُلُوبَ مِنْ أَنْ يَطْرُقَهَا خَاطِرٌ، فَبَقِيَتْ فَارِغَةً لَا شَيْءَ فِيهَا، فَصَادَفَهَا الشَّيْطَانُ خَالِيَةً، فَبَذَرَ فِيهَا الْبَاطِلَ فِي قَوَالِبَ أَوْهَمَهُمْ أَنَّهَا أَعْلَى الْأَشْيَاءِ وَأَشْرَفُهَا، وَعَوَّضَهُمْ بِهَا عَنِ الْخَوَاطِرِ الَّتِي هِيَ مَادَّةُ الْعِلْمِ وَالْهُدَى، وَإِذَا خَلَا الْقَلْبُ عَنْ هَذِهِ الْخَوَاطِرِ جَاءَ الشَّيْطَانُ فَوَجَدَ الْمَحِلَّ خَالِيًا، فَيَشْغَلُهُ بِمَا يُنَاسِبُ حَالَ صَاحِبِهِ، حَيْثُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَشْغَلَهُ بِالْخَوَاطِرِ السُّفْلِيَّةِ، فَشَغَلَهُ بِإِرَادَةِ التَّجْرِيدِ وَالْفَرَاغِ مِنَ الْإِرَادَةِ الَّتِي لَا صَلَاحَ لِلْعَبْدِ وَلَا فَلَاحَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ هِيَ الْمُسْتَوْلِيَةَ عَلَى قَلْبِهِ، وَهِيَ إِرَادَةُ مُرَادِ اللَّهِ الدِّينِيِّ الْأَمْرِيِّ الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَشُغْلُ الْقَلْبِ وَاهْتِمَامُهُ بِمَعْرِفَتِهِ عَلَى التَّفْصِيلِ بِهِ،

(١) يُنسب البيت لمجنون ليلى قيس بن الملوح، يُنظر: ديوانه (ص٢١٩).

وَالْقِيَامِ بِهِ، وَتَنْفِيذِهِ فِي الْخَلْقِ، وَالتَّطَرُّقِ إِلَى ذَلِكَ، وَالتَّوَسُّلِ إِلَيْهِ بِالدُّخُولِ فِي الْخَلْقِ لِتَنْفِيذِهِ، فَيُضِلُّهُمُ الشَّيْطَانُ عَنْ ذَلِكَ بِأَنْ دَعَاهُمْ إِلَى تَرْكِهِ وَتَعْطِيلِهِ مِنْ بَابِ الزُّهْدِ فِي خَوَاطِرِ الدُّنْيَا وَأَسْبَابِهَا، وَأَوْهَمَهُمْ أَنَّ كَمَالَهُمْ فِي ذَلِكَ التَّجْرِيدِ وَالْفَرَاغِ، وَهَيْهَاتَ!.

إِنَّمَا الْكَمَالُ فِي امْتِلَاءِ الْقَلْبِ مِنَ الْخَوَاطِرِ وَالْإِرَادَاتِ وَالْفِكْرِ فِي تَحْصِيلِ مَرَاضِي الرَّبِّ تَعَالَى مِنَ الْعَبْدِ وَمِنَ النَّاسِ، وَالْفِكْرِ فِي طُرُقِ ذَلِكَ وَالتَّوَصُّلِ إِلَيْهِ، فَأَكْمَلُ النَّاسِ أَكْثَرُهُمْ خَوَاطِرَ وَفِكْرًا وَإِرَادَاتٍ لِذَلِكَ، كَمَا أَنَّ أَنْقَصَ النَّاسِ أَكْثَرُهُمْ خَوَاطِرَ وَفِكْرًا وَإِرَادَاتٍ لِحُظُوظِهِ وَهَوَاهُ أَيْنَ كَانَتْ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَهَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَتْ تَتَزَاحَمُ عَلَيْهِ الْخَوَاطِرُ فِي مَرَاضِي الرَّبِّ تَعَالَى، فَرُبَّمَا اسْتَعْمَلَهَا فِي صَلَاتِهِ، فَكَانَ يُجَهِّزُ جَيْشَهُ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ[1]، فَيَكُونُ قَدْ جَمَعَ بَيْنَ الْجِهَادِ وَالصَّلَاةِ.

وَهَذَا مِنْ بَابِ تَدَاخُلِ الْعِبَادَاتِ فِي الْعِبَادَةِ الْوَاحِدَةِ، وَهُوَ بَابٌ عَزِيزٌ شَرِيفٌ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ إِلَّا صَادِقٌ حَاذِقُ الطَّلَبِ، مُتَضَلِّعٌ مِنَ الْعِلْمِ، عَالِي الْهِمَّةِ، بِحَيْثُ يَدْخُلُ فِي عِبَادَةٍ يَظْفَرُ فِيهَا بِعِبَادَاتٍ شَتَّى، وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ.

الشرح:

قوله: (الْخَطَرَاتُ)، يعني: ما يرد على بال الإنسان من أفكار، فبعضها

---

(١) علقه البخاري في صحيحه، قبل حديث رقم (١٢٢١)، ووصله ابن أبي شيبة في مصنفه (١٨٦/٢).

يكون في إصلاح الدنيا والآخرة، وبعضها يكون في إفسادهما، فليتخير العبد ما يكون فيه صلاحه، وليعرض عما فيه مهلكته وضلاله.

وقوله: (**أُنْزِلَ الْقُرْآنُ لِيُعْمَلَ بِهِ، فَاتَّخَذُوا تِلَاوَتَهُ عَمَلًا**)، فبعض الناس ليس له هم إلا تحسين التلاوة والتجويد، لكنه لا يهتم بمعنى الآية ولا يعمل به، فهذا أخذ الوسيلة وترك الغاية.

وقوله: (**وَهَذَا مِنْ بَابِ تَدَاخُلِ الْعِبَادَاتِ فِي الْعِبَادَةِ الْوَاحِدَةِ**)، فالذي يصلي منهي عن التفكيرات، إلَّا إذا كان يفكر في شيء من العبادة، فهذا طاعة في طاعة.

فَصْلٌ

وَأَمَّا اللَّفَظَاتُ: فَحِفْظُهَا بِأَنْ لَا يُخْرِجَ لَفْظَةً ضَائِعَةً، بَلْ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِيمَا يَرْجُو فِيهِ الرِّبْحَ وَالزِّيَادَةَ فِي دِينِهِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ نَظَرَ: هَلْ فِيهَا رِبْحٌ وَفَائِدَةٌ أَمْ لَا؟ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا رِبْحٌ أَمْسَكَ عَنْهَا، وَإِنْ كَانَ فِيهَا رِبْحٌ، نَظَرَ: هَلْ تَفُوتُهُ بِهَا كَلِمَةٌ أَرْبَحُ مِنْهَا، فَلَا يُضَيِّعُهَا بِهَذِهِ.

وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَسْتَدِلَّ عَلَى مَا فِي الْقَلْبِ، فَاسْتَدِلَّ عَلَيْهِ بِحَرَكَةِ اللِّسَانِ، فَإِنَّهُ يُطْلِعُكَ عَلَى مَا فِي الْقَلْبِ، شَاءَ صَاحِبُهُ أَمْ أَبَى.

قَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ: الْقُلُوبُ كَالْقُدُورِ تَغْلِي بِمَا فِيهَا، وَأَلْسِنَتُهَا مَغَارِفُهَا، فَانْظُرْ إِلَى الرَّجُلِ حِينَ يَتَكَلَّمُ فَإِنَّ لِسَانَهُ يَغْتَرِفُ لَكَ بِمَا فِي قَلْبِهِ، حُلْوٌ وَحَامِضٌ، وَعَذْبٌ وَأُجَاجٌ، وَغَيْرُ ذَلِكَ، وَيُبَيِّنُ لَكَ طَعْمَ قَلْبِهِ اغْتِرَافُ لِسَانِهِ(١).

أَيْ: كَمَا تَطْعَمُ بِلِسَانِكَ طَعْمَ مَا فِي الْقُدُورِ مِنَ الطَّعَامِ فَتُدْرِكُ الْعِلْمَ بِحَقِيقَتِهِ، كَذَلِكَ تَطْعَمُ مَا فِي قَلْبِ الرَّجُلِ مِنْ لِسَانِهِ، فَتَذُوقُ مَا فِي قَلْبِهِ مِنْ لِسَانِهِ، كَمَا تَذُوقُ مَا فِي الْقِدْرِ بِلِسَانِكَ.

الشرح:

ما يلفظه الإنسان بلسانه خطير جدًّا، فعليه أن يحفظ لسانه إلا فيما ينفعه في دينه ودنياه، أما ما عدا ذلك فإنه عليه وليس له، فهو مُحصى عليه: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، يكتبون ما تكلم به، والكلام

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/ ٦٣).

المحرم كثير، منه: اللغو، وشهادة الزور، والغيبة، والنميمة.. إلى غير ذلك.

فالكلام سهل على الإنسان، لكنه خطير جدًّا، كما في الحديث: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ، مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**»(١)، وهي كلمة واحدة، فعلى الإنسان أن يحفظ لسانه، وفي الحديث أيضًا: «**مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ**» يعني: اللسان «**وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ**»(٢). فإذا حفظ الإنسان لسانه وحفظ فرجه فإنه يدخل الجنة بإذن الله، وإنما غالب ما يهلك الإنسان من هذين العضوين.

وقوله: (**فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ نَظَرَ: هَلْ فِيهَا رِبْحٌ وَفَائِدَةٌ أَمْ لَا؟**) على الإنسان أنه يفكر قبل أن يتكلم، هل كلامه فيه منفعة فيمضي فيه، أم فيه مضرة فيمسك عنه، وإذا لم يكن فيه نفع ولا ضرر فلا يُتعب نفسه فيه، ولهذا قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»(٣).

وقوله: (**الْقُلُوبُ كَالْقُدُورِ تَغْلِي بِمَا فِيهَا**)؛ لأن الكلام يدل على ما في القلب، فإذا كان الكلام طيبًا دلَّ على أن القلب طيب، وإذا كان سيئًا دلَّ على أن القلب سيئ، فاللسان ترجمان للقلب يُعبر عن ما فيه، ويدل على باطن الإنسان وما يخفيه في نفسه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، هذا في المنافقين، فالنفاق يُعرف بكلام صاحبه.

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٧٤) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَفِي حَدِيثِ أَنَسٍ الْمَرْفُوعِ: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ»(١).

وَسُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ؟ فَقَالَ: «الْفَمُ وَالْفَرْجُ»(٢). قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَقَدْ سَأَلَ مُعَاذٌ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْعَمَلِ الَّذِي يُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُهُ مِنَ النَّارِ، فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَأْسِهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ ثُمَّ قَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا»، فَقَالَ: وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ -أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ- إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»(٣). قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَهُونُ عَلَيْهِ التَّحَفُّظُ وَالِاحْتِرَازُ مِنْ أَكْلِ الْحَرَامِ وَالظُّلْمِ وَالزِّنَا وَالسَّرِقَةِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ، وَمِنَ النَّظَرِ الْمُحَرَّمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَيَصْعُبُ عَلَيْهِ التَّحَفُّظُ مِنْ حَرَكَةِ لِسَانِهِ، حَتَّى تَرَى الرَّجُلَ يُشَارُ إِلَيْهِ بِالدِّينِ وَالزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَاتِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَنْزِلُ بِالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ مِنْهَا أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ(٤).

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٩٨)، وابن أبي الدنيا في الصمت وآداب اللسان (٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦)، وأحمد (٢/ ٢٩١)، وابن حبان (٢/ ٢٢٤)، والحاكم (٤/ ٣٦٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٥/ ٢٣١).

(٤) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، تقدم تخريجه (ص١٢٦).

وَكَمْ تَرَى مِنْ رَجُلٍ مُتَوَرِّعٍ عَنِ الْفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ، وَلِسَانُهُ يَفْرِي فِي أَعْرَاضِ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ، وَلَا يُبَالِي مَا يَقُولُ!.

الشرح:

أكثر ما يُدخل الناس النار: **(الْفَمُ)**، يعني: الكلام، **(وَالْفَرْجُ)** وهو الزنا وفعل الفاحشة، هذا أغلب ما يُهلك الناس. وفي الحديث: «**وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ -أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ- إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟**»، فعاقبة الكلام خطيرة جدًّا، وأخطر شيء هو الغيبة والنميمة؛ لأن التساهل فيها كثير. والغيبة هي: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**»[(١)] كما في الحديث. والنميمة هي: الوشاية بين الناس، فالنمام ينقل حديث بعضهم إلى بعض، حتى يصبح الناس متباغضون.

وقوله: **(وَيَصْعُبُ عَلَيْهِ التَّحَفُّظُ مِنْ حَرَكَةِ لِسَانِهِ)** يعني: الإنسان المؤمن يشق عليه فعل الحرام؛ لأن إيمانه يحجزه عن فعل الحرام، ومع ذلك تجده يتساهل فيما يقوله بلسانه ولو كان مؤمنًا، فينطلق لسانه بغير ميزان ويجر عليه شرًّا عظيمًا، وفي الحديث: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٧٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ ذَلِكَ فَانْظُرْ فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنِّي لَا أَغْفِرُ لِفُلَانٍ؟ قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ»(١).

فَهَذَا الْعَابِدُ الَّذِي قَدْ عَبَدَ اللَّهَ مَا شَاءَ أَنْ يَعْبُدَهُ، أَحْبَطَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ عَمَلَهُ كُلَّهُ.

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ نَحْوُ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ»(٢).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا؛ يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا؛ يَهْوِي بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ»(٣).

وَعِنْدَ مُسْلِمٍ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»(٤).

وَعِنْدَ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ الْمُزَنِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ مَا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢١).

(٢) أخرجه أحمد (٢/٣٢٣)، وأبو داود (٤٩٠١).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٧٨).

(٤) تقدم تخريجه (ص١٢٦).

يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ»(١). فَكَانَ عَلْقَمَةُ يَقُولُ: «كَمْ مِنْ كَلَامٍ قَدْ مَنَعَنِيهِ حَدِيثُ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ»(٢).

وَفِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ: تُوُفِّيَ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَقَالَ رَجُلٌ: أَبْشِرْ بِالْجَنَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَا يُدْرِيكَ؟ لَعَلَّهُ تَكَلَّمَ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ، أَوْ بَخِلَ بِمَا لَا يُنْقِصُهُ»(٣). قَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَفِي لَفْظٍ: أَنَّ غُلَامًا اسْتُشْهِدَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَوُجِدَ عَلَى بَطْنِهِ صَخْرَةٌ مَرْبُوطَةٌ مِنَ الْجُوعِ، فَمَسَحَتْ أُمُّهُ التُّرَابَ عَنْ وَجْهِهِ وَقَالَتْ: هَنِيئًا لَكَ يَا بُنَيَّ الْجَنَّةُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَا يُدْرِيكِ؟ لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ، وَيَمْنَعُ مَا لَا يَضُرُّهُ»(٤).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ يَرْفَعُهُ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»(٥).

وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَإِذَا شَهِدَ أَمْرًا فَلْيَتَكَلَّمْ بِخَيْرٍ أَوْ لِيَسْكُتْ»(٦).

وَذَكَرَ التِّرْمِذِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مِنْ حُسْنِ

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٩)، وابن ماجه (٣٩٦٩)، وأحمد (٣/ ٤٦٩)، والحاكم (١/ ١٠٦).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣١٦)، وابن أبي الدنيا في الصمت (١٠٩).

(٤) أخرجه أبو يعلى (٧/ ٨٤).

(٥) أخرجه البخاري (٦٤٧٥)، ومسلم (٤٧).

(٦) أخرجه مسلم (١٤٦٨).

إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»(١).

وَعَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ، قَالَ: «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا»(٢)، وَالْحَدِيثُ صَحِيحٌ.

وَعَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كُلُّ كَلَامِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَا لَهُ إِلَّا أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ، أَوْ ذِكْرُ اللَّهِ»(٣)، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «إِذَا أَصْبَحَ الْعَبْدُ فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ، تَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِذَا اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا»(٤).

الشرح:

قوله: **(قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ)** هذا رجلٌ كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، رأى أخاه على معصية فنهاه، ثم رآه مرة ثانية فنهاه، ثم رآه بعد ذلك ولم يترك المعصية، فغضب وقال: **(وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٣٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤١٢)، وابن ماجه (٣٩٧٤)، والحاكم (١/ ٥٥٧).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٩٥)، والترمذي (٢٤٠٧) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لِفُلَانٍ) أقسم على الله عَزَّوَجَلَّ ألَّا يغفر، وهذا من الجرأة على الله، ومن سوء الأدب مع الله؛ الله جَلَّوَعَلَا يحب أن يعفو عن عباده، ويحب أن يغفر لهم ويتوب عليهم، فهذا يحلف على الله ألا يفعل الخير، فغضب الله عليه وقال: **(قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ)**.

والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ غفور رحيم، ولو كان الذنب كبيرًا وعظيمًا فإذا تاب العبد إلى الله تاب الله عليه، وإذا كان الذنب دون الشرك ودون الكفر فهو يُرجى له المغفرة ولو لم يتب، هو تحت المشيئة إن شاء الله غفر وإن شاء عذّب، وهو إلى العفو أقرب، فلا يُسيء الظن بالله عَزَّوَجَلَّ، بل أشد من إساءة الظن أنه يحلف على الله، يعني: كأنه يحجر على الله، ويمنع الله أن يغفر لعباده، وهذا من سوء الأدب مع الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

وقوله: **(أَحْبَطَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ عَمَلَهُ كُلَّهُ)** كلمة واحدة أفسدت دنياه وآخرته، فكيف بالكلام الكثير؟!

وقوله: **(لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا)** يعني: هي سهلة عنده لا يعدها شيئًا، وهي عند الله خطيرة جدًّا: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥].

وقوله: **(مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا)** يعني: يستعجل ولا يتثبت، والواجب أن الإنسان يتثبت قبل أن يتكلم في أحد، فالنمامون كثيرون، والوشاة كثيرون، فلا تصدق تحدث إليك بكلام حتى تتثبت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦].

قال علقمة: **(كَمْ مِنْ كَلَامٍ قَدْ مَنَعَنِيهِ حَدِيثُ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ)** لَمَّا سمع هذا الحديث خاف وصار يُمسك عن كثير من الكلام، يقول بعض السلف: «لَوْ كُلِّفَ النَّاسُ الصُّحُفَ لَأَقَلُّوا الْكَلَامَ»(١). يعني: الورق الذي يكتب عليه الحفظة كلامكم، لو ما يأتيكم من الكلام إلا أنكم تشترونه لأمسكتم عن كثير من الكلام خوفًا على أموالكم، فكيف بالإثم، وكيف بالعذاب؟!

وقد روي عن سمرة بن جندب أنه قال لأبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: رَأَيْتُ فِي مَنَامِي ثَوْرًا خَرَجَ مِنْ جُحْرٍ فَلَمْ يَسْتَطِعْ يَعُودُ فِيهِ، فَقَالَ له: «هَذِهِ الْكَلِمَةُ الْعَظِيمَةُ تَخْرُجُ مِنْ فِي الرَّجُلِ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرُدَّهَا»(٢). فإذا تكلم الإنسان بكلمة خاطئة فإنه لا يستطيع أن يردها أبدًا؛ لأنها خرجت وفلتت، والواجب عليه أن يحبسها قبل أن يتكلم بها.

وأشد من ذلك الذين يتكلمون في الخطب والمحاضرات، أو يكتبون وينشرون الكلام السيئ والكلام الفاحش الذي يُغضب الله عَزَّوَجَلَّ. وفي الحديث عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ، قَالُوا: خُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ»**(٣)، هؤلاء خطباء الفتنة الذين يحرضون الناس على الشر وعلى القتال بين المسلمين.

وقوله: **(وَمَا يُدْرِيكَ؟ لَعَلَّهُ تَكَلَّمَ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ)** هذا فيه دليل على أن

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (٤٨) من كلام مالك بن دينار.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٨٢).

(٣) تقدم تخريجه (ص١٠٠).

الإنسان لا يجزم لأحد معين بجنة ولا نار، ويقول: فلان في الجنة، أو فلان في النار، لكن يرجو للمحسن ويخاف على المسيء؛ لأنه لا يدري عن الخواتيم، فلا يجزم لمعين إلا بدليل من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله: **(مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ)** هذا في الكلام وغيره، فإن رأيت مجالًا للكلام تكلم، وإن لم تر فاترك الكلام، فهذا أسلَم.

وقوله: **(كُلُّ كَلَامِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَا لَهُ إِلَّا أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ، أَوْ ذِكْرُ اللَّهِ)**، فقد يكون الإنسان عنده أعمال صالحة كثيرة، ولكنه لا يمسك لسانه، فيفسد لسانه أعماله ويقضي عليها؛ يسب هذا، ويشتم هذا، أو يغتاب هذا، وينم لهذا، فهذه تأخذ من حسناته حتى تفنى ولا يبقى عنده شيء.

وقوله: **(فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ)** يعني: تحذره وتخوفه من أن يتسبب في هلاكها، فهذه القطعة الصغيرة قد تكون سببًا في هلاك الجسم كله.

وَقَدْ كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يُحَاسِبُ أَحَدُهُمْ نَفْسَهُ فِي قَوْلِهِ: يَوْمٌ حَارٌّ، وَيَوْمٌ بَارِدٌ.

وَلَقَدْ رُئِيَ بَعْضُ الْأَكَابِرِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي النَّوْمِ فَسُئِلَ عَنْ حَالِهِ، فَقَالَ: أَنَا مَوْقُوفٌ عَلَى كَلِمَةٍ قُلْتُهَا، قُلْتُ: مَا أَحْوَجَ النَّاسَ إِلَى غَيْثٍ، فَقِيلَ لِي: وَمَا يُدْرِيكَ؟ أَنَا أَعْلَمُ بِمَصْلَحَةِ عِبَادِي.

وَقَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ لِخَادِمِهِ يَوْمًا: هَاتِ السُّفْرَةَ نَعْبَثُ بِهَا. ثُمَّ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، مَا أَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ إِلَّا وَأَنَا أَخْطِمُهَا وَأَزُمُّهَا، إِلَّا هَذِهِ الْكَلِمَةَ خَرَجَتْ مِنِّي بِغَيْرِ خِطَامٍ وَلَا زِمَامٍ(١). أَوْ كَمَا قَالَ.

وَأَيْسَرُ حَرَكَاتِ الْجَوَارِحِ حَرَكَةُ اللِّسَانِ، وَهِيَ أَضَرُّهَا عَلَى الْعَبْدِ.

وَاخْتَلَفَ السَّلَفُ وَالْخَلَفُ هَلْ يُكْتَبُ جَمِيعُ مَا يُلْفَظُ بِهِ أَوِ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ فَقَطْ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ أَظْهَرُهُمَا الْأَوَّلُ(٢).

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: كُلُّ كَلَامِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَا لَهُ، إِلَّا مَا كَانَ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ(٣).

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/١٢٣)، وابن أبي الدنيا في الصمت (٤٣٨)، وأبو نعيم في الحلية (٦/٧٧).

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان (ص٤٤): «وقد اختلف أهل التفسير: هل يكتب جميع أقواله؟ فقال مجاهد وغيره: يكتبان كل شيء حتى أنينه في مرضه، وقال عكرمة لا يكتبان إلا ما يؤجر عليه أو يؤزر. والقرآن يدل على أنهما يكتبان الجميع؛ فإنه قال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ نكرة في الشرط مؤكدة بحرف ﴿مِن﴾؛ فهذا يعم كل قوله». يُنظر أيضًا: تفسير الطبري (٢٢/٣٤٤، ٣٤٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (١٠/٣٣٠٨).

(٣) لم أقف عليه. وقد تقدم (ص٥٤١) قول النبي ﷺ: «**كُلُّ كَلَامِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَا لَهُ**
=

وَكَانَ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُمْسِكُ عَلَى لِسَانِهِ وَيَقُولُ: هَذَا أَوْرَدَنِي الْمَوَارِدَ[١].

وَالْكَلَامُ أَسِيرُكَ، فَإِذَا خَرَجَ مِنْ فِيكَ صِرْتَ أَنْتَ أَسِيرَهُ، وَاللَّهُ عِنْدَ لِسَانِ كُلِّ قَائِلٍ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

وَفِي اللِّسَانِ آفَتَانِ عَظِيمَتَانِ، إِنْ خَلَصَ الْعَبْدُ مِنْ إِحْدَاهُمَا لَمْ يَخْلُصْ مِنَ الْأُخْرَى: آفَةُ الْكَلَامِ، وَآفَةُ السُّكُوتِ، وَقَدْ يَكُونُ كُلٌّ مِنْهُمَا أَعْظَمَ إِثْمًا مِنَ الْأُخْرَى فِي وَقْتِهَا، فَالسَّاكِتُ عَنِ الْحَقِّ شَيْطَانٌ أَخْرَسُ، عَاصٍ لِلَّهِ، مُرَاءٍ مُدَاهِنٌ إِذَا لَمْ يَخَفْ عَلَى نَفْسِهِ، وَالْمُتَكَلِّمُ بِالْبَاطِلِ شَيْطَانٌ نَاطِقٌ، عَاصٍ لِلَّهِ.

وَأَكْثَرُ الْخَلْقِ مُنْحَرِفٌ فِي كَلَامِهِ وَسُكُوتِهِ فَهُمْ بَيْنَ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ، وَأَهْلُ الْوَسَطِ -وَهُمْ أَهْلُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ- كَفُّوا أَلْسِنَتَهُمْ عَنِ الْبَاطِلِ، وَأَطْلَقُوهَا فِيمَا يَعُودُ عَلَيْهِمْ نَفْعُهُ فِي الْآخِرَةِ، فَلَا تَرَى أَحَدَهُمْ يَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ تَذْهَبُ عَلَيْهِ ضَائِعَةً بِلَا مَنْفَعَةٍ، فَضْلًا أَنْ تَضُرَّهُ فِي آخِرَتِهِ. وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ، فَيَجِدُ لِسَانَهُ قَدْ هَدَمَهَا عَلَيْهِ كُلَّهَا، وَيَأْتِي بِسَيِّئَاتٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ فَيَجِدُ لِسَانَهُ قَدْ هَدَمَهَا مِنْ كَثْرَةِ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَا اتَّصَلَ بِهِ.

الشرح:

قوله: (يُحَاسِبُ أَحَدُهُمْ نَفْسَهُ فِي قَوْلِهِ: يَوْمٌ حَارٌّ، وَيَوْمٌ بَارِدٌ) يعني: يخاف

=

إِلَّا أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ، أَوْ ذِكْرُ اللَّهِ». وتقدم أيضًا (ص٣١١) قوله: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ، أَوْ عَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ».

(١) تقدم تخريجه (ص١٤٨).

أن تكون هذه الكلمة كأنها شكاية، فكيف بمن يتكلم بأعظم منها؟!

وقوله: **(وَأَيْسَرُ حَرَكَاتِ الْجَوَارِحِ حَرَكَةُ اللِّسَانِ)** في حين أن المشي وحمل الأشياء عمل شاق على الإنسان، أما اللسان فهو سهل، يحركه الإنسان ولا يتعب أبدًا ولو تكلم كلامًا كثيرًا، ومع ذلك هو أخطر الأعضاء.

وقوله: **(وَاخْتَلَفَ السَّلَفُ وَالْخَلَفُ هَلْ يُكْتَبُ جَمِيعُ مَا يُلْفَظُ بِهِ أَوِ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ فَقَطْ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ أَظْهَرُهُمَا الْأَوَّلُ)** يعني: يُكتب كل شيء، حتى الكلام الذي ليس بخير ولا شر، حتى الكلام الذي ضيع العبد وقته فيه، ولم يتكلم بشيء له منه مصلحة.

فهذا الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أفضل الأمة بعد نبيها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخاف من لسانه ويقول: **(هَذَا أَوْرَدَنِي الْمَوَارِدَ)**، يعني: يخاف من زلّات وعثرات لسانه.

وقوله: **(وَالْكَلَامُ أَسِيرُكَ)** هذا عجيب، مادام أنك ما تكلمت فهو أسير عندك، فإذا تكلمت صرت أنت الأسير، وقد يُقتل الإنسان بسبب كلمة نطق بها فأوردته المهالك.

يَمُوتُ الفَتَى مِنْ عَثرَةٍ بِلِسَانِه ... وَلَيْسَ يَمُوتُ المَرْءُ مِنْ عَثرَةِ الرِّجْلِ
فَعَثرَتُهُ مِنْ فِيهِ تَرْمِي بِرَأْسِه ... وَعَثرَتُهُ بِالرِّجْلِ تَبْرَا عَلَى مَهْلِ(١)

قوله: **(فَالسَّاكِتُ عَنِ الْحَقِّ شَيْطَانٌ أَخْرَسُ، عَاصٍ لِلَّهِ، مُرَاءٍ مُدَاهِنٌ إِذَا لَمْ يَخَفْ عَلَى نَفْسِهِ)**، إذا خاف وسكت فهو يدرأ ما هو أعظم، أما إذا لم يخف على نفسه وقد رأى المنكر فيجب عليه إنكاره؛ لأن الساكت عن الحق شيطان أخرس، والذي يتكلم بالباطل شيطانُ ناطق، فالواجب أن الإنسان يتكلم

---

(١) البيتان لعلي بن أبي طالب، يُنظر: ديوانه (ص ١٦٠).

بالحق، ويسكت عن الباطل.

وقوله: **(وَيَأْتِي بِسَيِّئَاتٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ فَيَجِدُ لِسَانَهُ قَدْ هَدَمَهَا مِنْ كَثْرَةِ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَا اتَّصَلَ بِهِ)**، وما أكثر الكلام الطيب ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، فالكلام الطيب كثير؛ من ذكر الله، وتلاوة القرآن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الناس الخير.

فهذا الفصل عظيم جدًّا يحتاج إلى تأمل.

فَصْلٌ

وَأَمَّا الْخُطُوَاتُ: فَحِفْظُهَا بِأَنْ لَا يَنْقِلَ قَدَمَهُ إِلَّا فِيمَا يَرْجُو ثَوَابَهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي خُطَاهُ مَزِيدُ ثَوَابٍ، فَالْقُعُودُ عَنْهَا خَيْرٌ لَهُ، وَيُمْكِنُهُ أَنْ يَسْتَخْرِجَ مِنْ كُلِّ مُبَاحٍ يَخْطُو إِلَيْهِ قُرْبَةً يَنْوِيهَا لِلَّهِ، فَتَقَعُ خُطَاهُ قُرْبَةً.

وَلَمَّا كَانَتِ الْعَثْرَةُ عَثْرَتَيْنِ: عَثْرَةَ الرِّجْلِ، وَعَثْرَةَ اللِّسَانِ، جَاءَتْ إِحْدَاهُمَا قَرِينَةَ الْأُخْرَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣].

فَوَصَفَهُمْ بِالِاسْتِقَامَةِ فِي لَفَظَاتِهِمْ وَخُطُوَاتِهِمْ، كَمَا جَمَعَ بَيْنَ اللَّحَظَاتِ وَالْخَطَرَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩].

الشرح:

تقدم أن الإنسان يُؤتى من عدة جهات: من النظر، ومن الكلام، ومن التفكير في القلب، ويؤتى من الخطوات: وهي المشي إلى ما حرَّم الله.

فالخطوات إذا كانت إلى الطاعة فهي عبادة، كالمشي إلى المساجد، والمشي إلى الحج والعمرة، والمشي إلى حِلق الذكر وطلب العلم، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس:١٢]، جاء في تفسير ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ أنها: المشي إلى المساجد(١)، وكذلك أعمالهم الصالحة التي يتركونها خلفهم من

---

(١) أخرج البخاري (٦٥٦) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ بَنِي سَلِمَةَ أَرَادُوا أَنْ يَتَحَوَّلُوا عَنْ مَنَازِلِهِمْ =

الأوقاف والصدقات وغير ذلك.

الشاهد: أن الآثار إلى العبادة تُكتب، أما الآثار والمشي إلى المعاصي فإنها تُكتب عليهم سيئات.

وقوله: **(لَا يَنْقِلَ قَدَمَهُ إِلَّا فِيمَا يَرْجُو ثَوَابَهُ)** يعني: إلى الطاعات، أو إلى طلب الرزق والأشياء المباحة.

وقوله: **(فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي خُطَاهُ مَزِيدُ ثَوَابٍ، فَالْقُعُودُ عَنْهَا خَيْرٌ لَهُ)** يعني: التأخر عن حضور المحرمات والمعاصي فيه خيرٌ له، فالذي يبقى في بيته أو يبقى في مكانه يسلم من الشرور، أما الذين يذهبون إلى المسارح ودور اللهو فهؤلاء في إثم والعياذ بالله.

وقوله: **(فَتَقَعُ خُطَاهُ قُرْبَةً)** حتى الخطوات المباحة إذا نوى بها طاعة الله والاستعانة بها على عبادة الله صارت له أجرًا عند الله عَزَّوَجَلَّ، فالذي يمشي ليطلب الرزق إذا نوى به الكفاف، ونوى به الاستعانة على العبادة، كُتِب مشيه إليها عبادة بإذن الله.

وقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ جمع فيه بين عثرة الرِّجل وعثرة اللسان، فالإنسان يتوقى عثرة الرِّجل بأن يمشي على الأرض هونًا بدون تكبر وبدون خيلاء، وبدون أذى، ويتوقى عثرة اللسان بأن يكفه عن الكلام الذي لا يجوز.

=
فَيَنْزِلُوا قَرِيبًا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَكَرِهَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُعْرُوا المَدِينَةَ، فَقَالَ: «**أَلَا تَحْتَسِبُونَ آثَارَكُمْ**». قَالَ مُجَاهِدٌ: «خُطَاهُمْ آثَارُهُمْ، أَنْ يُمْشَى فِي الأَرْضِ بِأَرْجُلِهِمْ».

وعثرة اللسان أشد من عثرة الرجل.

وقوله: **(كَمَا جَمَعَ بَيْنَ اللَّحظَاتِ وَالْخَطَرَاتِ)** يعني: جمع بين الخطرات في القلب، وجمع بين النظر، فقوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ هذا في خطيئات البصر، وقوله: ﴿وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ هذا خطيئات التفكير، يعني: جمع بين النظر المحرم، والفِكر المحرم.

فَصْلٌ

وَهَذَا كُلُّهُ ذَكَرْنَاهُ مُقَدِّمَةً بَيْنَ يَدَيْ تَحْرِيمِ الْفَوَاحِشِ وَوُجُوبِ حِفْظِ الْفَرْجِ.

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ: الْفَمُ، وَالْفَرْجُ»[١].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبِ الزَّانِي، وَالنَّفْسِ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكِ لِدِينِهِ الْمُفَارِقِ لِلْجَمَاعَةِ»[٢].

وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي اقْتِرَانِ الزِّنَا بِالْكُفْرِ وَقَتْلِ النَّفْسِ نَظِيرُ الْآيَةِ الَّتِي فِي الْفُرْقَانِ[٣]، وَنَظِيرُ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ[٤].

وَبَدَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْأَكْثَرِ وُقُوعًا، وَالَّذِي يَلِيهِ، فَالزِّنَا أَكْثَرُ وُقُوعًا مِنْ قَتْلِ النَّفْسِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ أَكْثَرُ وُقُوعًا مِنَ الرِّدَّةِ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ تَنَقَّلَ مِنَ الْأَكْبَرِ إِلَى مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ.

وَمَفْسَدَةُ الزِّنَا مُنَاقِضَةٌ لِصَلَاحِ الْعَالَمِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا زَنَتْ أَدْخَلَتِ الْعَارَ عَلَى أَهْلِهَا وَزَوْجِهَا وَأَقَارِبِهَا، وَنَكَّسَتْ رُءُوسَهُمْ بَيْنَ النَّاسِ، وَإِنْ حَمَلَتْ مِنَ الزِّنَا، فَإِنْ قَتَلَتْ وَلَدَهَا جَمَعَتْ بَيْنَ الزِّنَا وَالْقَتْلِ، وَإِنْ حَمَلَتْهُ عَلَى الزَّوْجِ أَدْخَلَتْ عَلَى

---

(١) تقدم تخريجه (ص٥٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨]

(٤) وهو حديث: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ». تقدم تخريجه مع الآية المذكورة (ص٣٨١).

أَهْلِهِ وَأَهْلِهَا أَجْنَبِيًّا لَيْسَ مِنْهُمْ، فَوَرِثَهُمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ، وَرَآهُمْ وَخَلَا بِهِمْ، وَانْتَسَبَ إِلَيْهِمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَفَاسِدِ زِنَاهَا.

الشرح:

قوله: **(وَهَذَا كُلُّهُ ذَكَرْنَاهُ مُقَدِّمَةً بَيْنَ يَدَيْ تَحْرِيمِ الْفَوَاحِشِ)**، وقد قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام:١٥١]، يعني: اتركوا وسائلها التي تؤدي إليها، وهذه المذكورات وسائل، فالنظر المحرم وسيلة إلى الفاحشة، والمشي إلى أماكن المعصية وسيلة إلى الفاحشة، وكذلك الخطرات والتفكير، إذا فكَّر في الحرام وفكر في المعاصي فهو وسيلة إلى الفاحشة.

وقوله: **(أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ: الْفَمُ، وَالْفَرْجُ)** أخطر ما في الإنسان هاتان الجارحتان: الفم الذي ينطق بالكلام المحرم، وما أكثر هذا، والفرج الذي يقع في الشهوة المحرمة، فإذا حفظ لسانه وفرجه دخل الجنة، كما في الحديث: «**مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ**»(١).

وقوله: **(لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبِ الزَّانِي)** هذا هو خطر الفرْج، حيث يحل دم المسلم إذا زنى وهو مُحصن، وهذا خطر عظيم. ثم قرن الزنا مع قتل النفس بغير حق، وبالشرك بالله، فقال: **(وَالنَّفْسِ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكِ لِدِينِهِ الْمُفَارِقِ لِلْجَمَاعَةِ)**.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٥٣٦).

وقوله: **(وَمَفْسَدَةُ الزِّنَا مُنَاقِضَةٌ لِصَلَاحِ الْعَالَمِ)**، فإذا زنت المرأة هدمت أسرتها أولًا، وألحقت بهم العار، ثم تهدم المجتمع بفساد الأعراض، وكثرة أولاد الزنا، وحدوث الأمراض.. وغير ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢].

وقوله: **(فَإِنْ قَتَلَتْ وَلَدَهَا جَمَعَتْ بَيْنَ الزِّنَا وَالْقَتْلِ)**، وما أكثر ما يقع من قتل أولاد الزنا، فإما أن تحتال عليه بإسقاطه وإجهاضه، وإما أن تقتله بعد ما يولد، بزعمها أنها تفر من العار، وهي تقع فيما هو أشد وهو قتل النفس والعياذ بالله، أو يفعل ذلك أولياؤها وأقاربها إذا زنت امرأتهم قتلوا ولد الزنا، وهذه جريمة كبيرة؛ لأنها قتل للنفس المعصومة بغير حق، فما جريمة هذا المولود أو هذا الطفل؟.

وقوله: **(وَإِنْ حَمَلَتْهُ عَلَى الزَّوْجِ أَدْخَلَتْ عَلَى أَهْلِهِ وَأَهْلِهَا أَجْنَبِيًّا لَيْسَ مِنْهُمْ)** إن سكتت وأدخلته على الزوج كأنه من أولاده أو من صلبه، هذا أشد؛ لأنه يترتب عليه ميراث، ويترتب عليه محرمية، فهي بين ثلاثة مفاسد:

- إما أن تقتله، فتقع في جريمة قتل النفس المعصومة بغير حق.
- وإما أن تسكت وتُدلس به على زوجها، فتُلحق به ولدًا من غيره.
- وإما أن تعترف بأنه ليس من زوجها وأنه ولد زنا، فيحل بها العار.

وَأَمَّا زِنَا الرَّجُلِ فَإِنَّهُ يُوجِبُ اخْتِلَاطَ الْأَنْسَابِ أَيْضًا، وَإِفْسَادَ الْمَرْأَةِ الْمَصُونَةِ وَتَعْرِيضَهَا لِلتَّلَفِ وَالْفَسَادِ، وَفِي هَذِهِ الْكَبِيرَةِ خَرَابُ الدُّنْيَا وَالدِّينِ، وَإِنْ عَمَرَتِ الْقُبُورَ فِي الْبَرْزَخِ وَالنَّارَ فِي الْآخِرَةِ، فَكَمْ فِي الزِّنَا مِنِ اسْتِحْلَالِ لِحُرُمَاتٍ وَفَوَاتِ حُقُوقٍ وَوُقُوعِ مَظَالِمَ؟!

وَمِنْ خَاصِّيَّتِهِ: أَنَّهُ يُوجِبُ الْفَقْرَ، وَيُقَصِّرُ الْعُمُرَ، وَيَكْسُو صَاحِبَهُ سَوَادَ الْوَجْهِ، وَثَوْبَ الْمَقْتِ بَيْنَ النَّاسِ.

وَمِنْ خَاصِّيَّتِهِ أَيْضًا: أَنَّهُ يُشَتِّتُ الْقَلْبَ وَيُمْرِضُهُ إِنْ لَمْ يُمِتْهُ، وَيَجْلِبُ الْهَمَّ وَالْحَزَنَ وَالْخَوْفَ، وَيُبَاعِدُ صَاحِبَهُ مِنَ الْمَلَكِ وَيُقَرِّبُهُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَلَيْسَ بَعْدَ مَفْسَدَةِ الْقَتْلِ أَعْظَمُ مِنْ مَفْسَدَتِهِ، وَلِهَذَا شُرِعَ فِيهِ الْقَتْلُ عَلَى أَشْنَعِ الْوُجُوهِ وَأَفْحَشِهَا وَأَصْعَبِهَا، وَلَوْ بَلَغَ الْعَبْدَ أَنَّ امْرَأَتَهُ أَوْ حُرْمَتَهُ قُتِلَتْ كَانَ أَسْهَلَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَبْلُغَهُ أَنَّهَا زَنَتْ.

وَقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفَحٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «تَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ وَاللَّهِ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي، وَمِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللَّهِ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْعَبْدُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ»(٢).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٢٣)، ومسلم (٢٧٦١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ»(١).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ فِي خُطْبَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَلَاةِ الْكُسُوفِ أَنَّهُ قَالَ: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟»(٢).

وَفِي ذِكْرِ هَذِهِ الْكَبِيرَةِ بِخُصُوصِهَا عَقِبَ صَلَاةِ الْكُسُوفِ سِرٌّ بَدِيعٌ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ.

الشرح:

كذلك إذا زنى الرجل جنى على نفسه بأن أفسد عِرضه، وجنى على المرأة وأوليائها، وجنى على المجتمع، ولذلك يُرجم الزاني إذا كان ثيِّبًا، أو يُجلد ويُطرد من البلد إذا كان بكرًا؛ لأنه أصبح عضوًا فاسدًا.

ولا شك أن الزنا له أسباب، منها: النظر المحرم، والعُري، والسفور، والاختلاط بين الرجال والنساء، وليس هناك أضعف من الرجل مع المرأة، ويترتب على إتيان هذه الكبيرة -التي هي الزنا- خراب الدنيا وخراب الدين.

وقوله في آثار الزنا: (**وَيَكْسُو صَاحِبَهُ سَوَادَ الْوَجْهِ، وَثَوْبَ الْمَقْتِ بَيْنَ**

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٦٠).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٢٦٠).

النَّاسِ)، ولذلك تجد الزاني خجلًا في المجتمع مُهانًا ذليلًا خائفًا، أما من سلِم من الزنا فهو بين الناس عزيز ومحبوب، فالناس كلهم يأنفون من الزنا ويكرهون الزاني ويبتعدون عنه.

وقوله: **(وَلِهَذَا شُرِعَ فِيهِ الْقَتْلُ عَلَى أَشْنَعِ الْوُجُوهِ وَأَفْحَشِهَا وَأَصْعَبِهَا)**، وهو الرجم، فإن الزاني المحصن يُقتل بالرجم حدًّا ولا يُقتل بالسيف أو الرصاص، وإنما يُرجم بالحجارة حتى يموت، وهذه أشنع قِتلة؛ لأن جريمته أشنع جريمة.

وقوله: **(وَلَوْ بَلَغَ الْعَبْدَ أَنَّ امْرَأَتَهُ أَوْ حُرْمَتَهُ قُتِلَتْ كَانَ أَسْهَلَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَبْلُغَهُ أَنَّهَا زَنَتْ)**، لو قُتلت هذه المرأة ظلمًا وعدوانًا -مع تحريم القتل وشدة جريمته- لكان أهون من الزنا؛ لأن المرأة إذا زنت سقطت من المجتمع، وجرَّت عارًا على قبيلتها وأسرتها، أما إذا قُتلت فإن قتلها لن يجر العار عليهم، بل سيترحمون عليها، ويدعون لها، ويُقال: ماتت مظلومة.

ولذلك يجب على المؤمن أن يكون عنده غيرة على محارمه، فهذا سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من شدة غيرته على أهله يقول: **(لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفَحٍ)**، وهذا من الغيرة على العِرض، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أغير منه، والله جَلَّ وَعَلَا أغير من جميع خلقه، وغيرته أنه يغضب **(أَنْ يَأْتِيَ الْعَبْدُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ)**. فدلَّ على وجوب الغيرة للأعراض، والغيرة على المحارم، وعدم التساهل في ترك المحارم فريسة لدعاة التعري والسفور، بل يكون الإنسان حازمًا في حماية محارمه.

وَظُهُورُ الزِّنَا مِنْ أَمَارَاتِ خَرَابِ الْعَالَمِ، وَهُوَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: لَأُحَدِّثَنَّكُمْ حَدِيثًا لَا يُحَدِّثُكُمُوهُ أَحَدٌ بَعْدِي، سَمِعْتُهُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَظْهَرَ الْجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا، وَيَقِلَّ الرِّجَالُ، وَتَكْثُرَ النِّسَاءُ، حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً الْقَيِّمُ الْوَاحِدُ»(١).

وَقَدْ جَرَتْ سُنَّةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي خَلْقِهِ أَنَّهُ عِنْدَ ظُهُورِ الزِّنَا يَغْضَبُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَيَشْتَدُّ غَضَبُهُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُؤَثِّرَ غَضَبُهُ فِي الْأَرْضِ عُقُوبَةً.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: «مَا ظَهَرَ الرِّبَا وَالزِّنَا فِي قَرْيَةٍ إِلَّا أَذِنَ اللَّهُ بِإِهْلَاكِهَا»(٢).

وَرَأَى بَعْضُ أَحْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ابْنًا لَهُ يَغْمِزُ امْرَأَةً، فَقَالَ: مَهْلًا يَا بُنَيَّ، فَصُرِعَ الْأَبُ عَنْ سَرِيرِهِ، فَانْقَطَعَ نُخَاعُهُ، وَأَسْقَطَتِ امْرَأَتُهُ، وَقِيلَ لَهُ: هَكَذَا غَضَبُكَ لِي؟ لَا يَكُونُ فِي جِنْسِكَ حَبْرٌ أَبَدًا(٣).

وَخَصَّ سُبْحَانَهُ حَدَّ الزِّنَا مِنْ بَيْنِ الْحُدُودِ بِثَلَاثِ خَصَائِصَ:

أَحَدُهَا: الْقَتْلُ فِيهِ بِأَشْنَعِ الْقَتَلَاتِ، وَحَيْثُ خَفَّفَهُ جَمَعَ فِيهِ بَيْنَ الْعُقُوبَةِ عَلَى الْبَدَنِ بِالْجَلْدِ وَعَلَى الْقَلْبِ بِتَغْرِيبِهِ عَنْ وَطَنِهِ سَنَةً.

الثَّانِي: أَنَّهُ نَهَى عِبَادَهُ أَنْ تَأْخُذَهُمْ بِالزُّنَاةِ رَأْفَةٌ فِي دِينِهِ، بِحَيْثُ تَمْنَعُهُمْ مِنْ إِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ رَأْفَتِهِ بِهِمْ وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ شَرَعَ هَذِهِ الْعُقُوبَةَ، فَهُوَ

---

(١) أخرجه البخاري (٨٠)، ومسلم (٢٦٧١).

(٢) تقدم تخريجه (ص١٧١).

(٣) تقدم تخريجه (ص١٩٥).

أَرْحَمُ بِكُمْ، وَلَمْ تَمْنَعْهُ رَحْمَتُهُ مِنْ أَمْرِهِ بِهَذِهِ الْعُقُوبَةِ، فَلَا يَمْنَعْكُمْ أَنْتُمْ مَا يَقُومُ بِقُلُوبِكُمْ مِنَ الرَّأْفَةِ مِنْ إِقَامَةِ أَمْرِهِ.

وَهَذَا -وَإِنْ كَانَ عَامًّا فِي سَائِرِ الْحُدُودِ- وَلَكِنْ ذُكِرَ فِي حَدِّ الزِّنَا خَاصَّةً لِشِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَى ذِكْرِهِ، فَإِنَّ النَّاسَ لَا يَجِدُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْغِلْظَةِ وَالْقَسْوَةِ عَلَى الزَّانِي مَا يَجِدُونَهُ عَلَى السَّارِقِ وَالْقَاذِفِ وَشَارِبِ الْخَمْرِ، فَقُلُوبُهُمْ تَرْحَمُ الزَّانِيَ أَكْثَرَ مِمَّا تَرْحَمُ غَيْرَهُ مِنْ أَرْبَابِ الْجَرَائِمِ، وَالْوَاقِعُ شَاهِدٌ بِذَلِكَ، فَنُهُوا أَنْ تَأْخُذَهُمْ هَذِهِ الرَّأْفَةُ وَتَحْمِلَهُمْ عَلَى تَعْطِيلِ حَدِّ اللَّهِ.

وَسَبَبُ هَذِهِ الرَّحْمَةِ: أَنَّ هَذَا ذَنْبٌ يَقَعُ مِنَ الْأَشْرَافِ وَالْأَوْسَاطِ وَالْأَرَاذِلِ، وَفِي النُّفُوسِ أَقْوَى الدَّوَاعِي إِلَيْهِ، وَالْمُشَارِكُ فِيهِ كَثِيرٌ، وَأَكْثَرُ أَسْبَابِهِ الْعِشْقُ، وَالْقُلُوبُ مَجْبُولَةٌ إِلَى رَحْمَةِ الْعَاشِقِ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَعُدُّ مُسَاعَدَتَهُ طَاعَةً وَقُرْبَةً، وَإِنْ كَانَتِ الصُّورَةُ الْمَعْشُوقَةُ مُحَرَّمَةً عَلَيْهِ، وَلَا يَسْتَنْكِرُ هَذَا الْأَمْرَ، فَهُوَ مُسْتَقِرٌّ عِنْدَ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَشْبَاهِ الْأَنْعَامِ، وَلَقَدْ حَكَى لَنَا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا كَثِيرًا نُقَّاصُ الْعُقُولِ كَالْخُدَّامِ وَالنِّسَاءِ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ هَذَا ذَنْبٌ غَالِبًا مَا يَقَعُ مَعَ التَّرَاضِي مِنَ الْجَانِبَيْنِ، وَلَا يَقَعُ فِيهِ مِنَ الْعُدْوَانِ وَالظُّلْمِ وَالِاغْتِصَابِ مَا تَنْفِرُ النُّفُوسُ مِنْهُ، وَفِي النُّفُوسِ شَهْوَةٌ غَالِبَةٌ لَهُ، فَيُصَوِّرُ ذَلِكَ لَهَا، فَتَقُومُ بِهَا رَحْمَةٌ تَمْنَعُ إِقَامَةَ الْحَدِّ.

وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ ضَعْفِ الْإِيمَانِ. وَكَمَالُ الْإِيمَانِ أَنْ تَقُومَ بِهِ قُوَّةٌ يُقِيمُ بِهَا أَمْرَ اللَّهِ، وَرَحْمَةٌ يَرْحَمُ بِهَا الْمَحْدُودَ، فَيَكُونُ مُوَافِقًا لِرَبِّهِ تَعَالَى فِي أَمْرِهِ وَرَحْمَتِهِ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَمَرَ أَنْ يَكُونَ حَدُّهُمَا بِمَشْهَدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَا يَكُونُ فِي خَلْوَةٍ بِحَيْثُ لَا يَرَاهُمَا أَحَدٌ، وَذَلِكَ أَبْلَغُ فِي مَصْلَحَةِ الْحَدِّ، وَالْحِكْمَةُ الزَّجْرُ.

وَحَدُّ الزَّانِي الْمُحْصَنِ مُشْتَقٌّ مِنْ عُقُوبَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِقَوْمِ لُوطٍ بِالْقَذْفِ بِالْحِجَارَةِ، وَذَلِكَ لِاشْتِرَاكِ الزِّنَا وَاللِّوَاطِ فِي الْفُحْشِ، وَفِي كُلٍّ مِنْهُمَا فَسَادٌ يُنَاقِضُ حِكْمَةَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، فَإِنَّ فِي اللِّوَاطِ مِنَ الْمَفَاسِدِ مَا يَفُوتُ الْحَصْرَ وَالتَّعْدَادَ، وَلَأَنْ يُقْتَلَ الْمَفْعُولُ بِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يُؤْتَى، فَإِنَّهُ يَفْسُدُ فَسَادًا لَا يُرْجَى لَهُ بَعْدَهُ صَلَاحٌ أَبَدًا، وَيَذْهَبُ خَيْرُهُ كُلُّهُ، وَتَمُصُّ الْأَرْضُ مَاوِيَّةَ الْحَيَاءِ مِنْ وَجْهِهِ، فَلَا يَسْتَحِي بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ وَلَا مِنْ خَلْقِهِ، وَتَعْمَلُ فِي قَلْبِهِ وَرُوحِهِ نُطْفَةُ الْفَاعِلِ مَا يَعْمَلُ السُّمُّ فِي الْبَدَنِ.

الشرح:

قوله: (**وَظُهُورُ الزِّنَا مِنْ أَمَارَاتِ خَرَابِ الْعَالَمِ**) يفشو الزنا في آخر الزمان بسبب التساهل في كشف العورات، والتساهل في ترك الحجاب، والتساهل في ترك النساء يعملن ما شئن بدعوى حرية المرأة وحقوق المرأة .. إلى غير ذلك من الدعاوى الخبيثة التي ينعق بها دعاة التبرج والسفور. فإذا كثر الزنا حصل الدمار والخراب في العالم، ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢]، فالزنا أمره خطير جدًّا على المجتمع.

والآن انتشر في العالم مرض فقد المناعة المسمى "الإيدز"، والذي يُصاب به يُعزل عن الناس إلى أن يموت؛ لأنه لا يُرجى شفاؤه، ولا يُفيد علاجه، وهذا إنما يكون بسبب الزنا أو فعل فاحشة اللواط، والإحصائيات تشير إلى ارتفاع نسبة المصابين بهذا المرض في الدول التي تنتشر فيها الفاحشة.

والتساهل في الزنا ومقدمات الزنا عواقبه وخيمة، فهذا أحد أحبار بني

إسرائيل لـمَّا رأى ابنه يغمز امرأة ما أدبه، وإنما قال: **(مَهْلًا يَا بُنَيَّ)**، يعني: لم يخوفه بالله، ولم يظهر له غضبه من فعلته، فغضب الله عليه وعاجله بالعقوبة.

وقوله: **(الْقَتْلُ فِيهِ بِأَشْنَعِ الْقَتَلَاتِ)** هذا في الثيب، يُرجم بالحجارة أشنع رجم حتى يموت، أما البكر فإنه يُجلد ويُغرب عن وطنه سنة، قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٢]. فالرأفة هي في تطبيق الحد لا منع الحد؛ لأن منع الحد ليس فيه إلا الشر.

وقوله: **(فَقُلُوبُهُمْ تَرْحَمُ الزَّانِيَ أَكْثَرَ مِمَّا تَرْحَمُ غَيْرَهُ مِنْ أَرْبَابِ الْجَرَائِمِ)** يعني: بعض الناس لا يجدون في نفوسهم من الغضب على الزاني مثل ما يجدونه على السارق وشارب الخمر، مع أن جريمة الزنا أشد من جريمة السرقة، وجريمة شرب الخمر، والجرائم تتفاوت بحسب آثارها وعواقبها، لأجل ذلك شرع الله جَلَّ وَعَلَا هذه الحدود، مع أنه أرحم الراحمين، وهذه الحدود لا شك أنها مؤلمة وأنها شديدة، ولكنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ شرع الحد على الزاني؛ لأنه ارتكب أشنع جريمة، والتي لها أشنع أثر، فكيف يُرحم الزاني ويُترك حد الزنا ولا يُرحم المجتمع الذي أساء إليه، ولا تُرحم المرأة التي أفسد عِرضها؟!

فلا يجوز أن يُترك المجرم ليفلت بجريمته، ويُقال: إن في ذلك رحمة له، بل يُطبق عليه الحد، والرحمة إنما هي في إقامة الحد عليه من أجل تطهيره هو من ذنبه، ومن أجل حماية المجتمع أيضًا.

وقوله: **(أَنْ يَكُونَ حَدُّهُمَا بِمَشْهَدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)**، فلا تقام الحدود خُفية، وإنما تُقام ظاهرة في مجامع الناس من أجل الردع والاعتبار.

وَقَدِ اخْتَلَفَ النَّاسُ هَلْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَفْعُولٌ بِهِ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ، سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ يَحْكِيهِمَا.

وَالَّذِينَ قَالُوا: لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ احْتَجُّوا بِأُمُورٍ:

مِنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَلَدُ زِنْيَةٍ»(١).

فَإِذَا كَانَ هَذَا حَالُ وَلَدِ الزِّنَا مَعَ أَنَّهُ لَا ذَنْبَ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ مَظِنَّةُ كُلِّ شَرٍّ وَخُبْثٍ، وَهُوَ جَدِيرٌ أَنْ لَا يَجِيءَ مِنْهُ خَيْرٌ أَبَدًا؛ لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ نُطْفَةٍ خَبِيثَةٍ، وَإِذَا كَانَ الْجَسَدُ الَّذِي تَرَبَّى عَلَى الْحَرَامِ، النَّارُ أَوْلَى بِهِ(٢)، فَكَيْفَ بِالْجَسَدِ الْمَخْلُوقِ مِنَ النُّطْفَةِ الْحَرَامِ؟!

قَالُوا: وَالْمَفْعُولُ بِهِ شَرٌّ مِنْ وَلَدِ الزِّنَا، وَأَخْزَى وَأَخْبَثُ وَأَوْقَحُ، وَهُوَ جَدِيرٌ أَنْ لَا يُوَفَّقَ لِخَيْرٍ، وَأَنْ يُحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَكُلَّمَا عَمِلَ خَيْرًا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَا يُفْسِدُهُ عُقُوبَةً لَهُ، وَقَلَّ أَنْ تَرَى مَنْ كَانَ كَذَلِكَ فِي صِغَرِهِ إِلَّا وَهُوَ فِي كِبَرِهِ شَرٌّ مِمَّا كَانَ، وَلَا يُوَفَّقُ لِعِلْمٍ نَافِعٍ، وَلَا عَمَلٍ صَالِحٍ، وَلَا تَوْبَةٍ نَصُوحٍ.

وَالتَّحْقِيقُ فِي الْمَسْأَلَةِ أَنْ يُقَالَ: إِنْ تَابَ الْمُبْتَلَى بِهَذَا الْبَلَاءِ وَأَنَابَ، وَرُزِقَ تَوْبَةً نَصُوحًا وَعَمَلًا صَالِحًا، وَكَانَ فِي كِبَرِهِ خَيْرًا مِنْهُ فِي صِغَرِهِ، وَبَدَّلَ سَيِّئَاتِهِ بِحَسَنَاتٍ، وَغَسَلَ عَارَ ذَلِكَ عَنْهُ بِأَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ وَالْقُرُبَاتِ، وَغَضَّ بَصَرَهُ

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٠٣)، والنسائي في الكبرى (٣/ ١٧٥)، وابن حبان (٨/ ١٧٥)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) كما في حديث كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«لَا يَرْبُو لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ إِلَّا كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ»**. أخرجه الترمذي (٦١٤)، وابن حبان (١٢/ ٣٧٨). وأخرجه أحمد (٣/ ٣٢١)، والحاكم (٤/ ١٤١) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَحَفِظَ فَرْجَهُ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَصَدَقَ اللَّهَ فِي مُعَامَلَتِهِ؛ فَهَذَا مَغْفُورٌ لَهُ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، وَإِذَا كَانَتِ التَّوْبَةُ تَمْحُو كُلَّ ذَنْبٍ، حَتَّى الشِّرْكَ بِاللَّهِ وَقَتْلَ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَالسِّحْرَ وَالْكُفْرَ وَغَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا تَقْصُرُ عَنْ مَحْوِ هَذَا الذَّنْبِ.

وَقَدِ اسْتَقَرَّتْ حِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى بِهِ عَدْلًا وَفَضْلًا أَنَّ التَّائِبَ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ. وَقَدْ ضَمِنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِمَنْ تَابَ مِنَ الشِّرْكِ وَقَتْلِ النَّفْسِ وَالزِّنَا أَنَّهُ يُبَدِّلُ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ، وَهَذَا حُكْمٌ عَامٌّ لِكُلِّ تَائِبٍ مِنْ ذَنْبٍ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]. فَلَا يَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْعُمُومِ ذَنْبٌ وَاحِدٌ، وَلَكِنْ هَذَا فِي حَقِّ التَّائِبِينَ خَاصَّةً.

وَأَمَّا الْمَفْعُولُ بِهِ إِنْ كَانَ فِي كِبَرِهِ شَرًّا مِمَّا كَانَ فِي صِغَرِهِ، لَمْ يُوَفَّقْ لِتَوْبَةٍ نَصُوحٍ، وَلَا لِعَمَلٍ صَالِحٍ، وَلَا اسْتِدْرَاكِ مَا فَاتَ، وَلَا أَحْيَا مَا أَمَاتَ، وَلَا بَدَّلَ السَّيِّئَاتِ بِالْحَسَنَاتِ؛ فَهَذَا بَعِيدٌ أَنْ يُوَفَّقَ عِنْدَ الْمَمَاتِ لِخَاتِمَةٍ يَدْخُلُ بِهَا الْجَنَّةَ؛ عُقُوبَةً لَهُ عَلَى عَمَلِهِ. فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يُعَاقِبُ عَلَى السَّيِّئَةِ بِسَيِّئَةٍ أُخْرَى، فَتَتَضَاعَفُ عُقُوبَةُ السَّيِّئَاتِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ، كَمَا يُثِيبُ عَلَى الْحَسَنَةِ بِحَسَنَةٍ أُخْرَى.

وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى حَالِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُحْتَضِرِينَ وَجَدْتَهُمْ يُحَالُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ حُسْنِ الْخَاتِمَةِ؛ عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ.

قَالَ الْحَافِظُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْحَقِّ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْإِشْبِيلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَاعْلَمْ أَنَّ لِسُوءِ الْخَاتِمَةِ -أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهَا- أَسْبَابًا، وَلَهَا طُرُقٌ وَأَبْوَابٌ، أَعْظَمُهَا: الِانْكِبَابُ عَلَى الدُّنْيَا، وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الْأُخْرَى، وَالْإِقْدَامُ وَالْجُرْأَةُ عَلَى مَعَاصِي

اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَرُبَّمَا غَلَبَ عَلَى الْإِنْسَانِ ضَرْبٌ مِنَ الْخَطِيئَةِ، وَنَوْعٌ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَجَانِبٌ مِنَ الْإِعْرَاضِ، وَنَصِيبٌ مِنَ الْجُرْأَةِ وَالْإِقْدَامِ، فَمَلَكَ قَلْبَهُ، وَسَبَى عَقْلَهُ وَأَطْفَأَ نُورَهُ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِ حُجُبَهُ، فَلَمْ تَنْفَعْ فِيهِ تَذْكِرَةٌ، وَلَا نَجَحَتْ فِيهِ مَوْعِظَةٌ، فَرُبَّمَا جَاءَهُ الْمَوْتُ عَلَى ذَلِكَ، فَسَمِعَ النِّدَاءَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، فَلَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ الْمُرَادُ، وَلَا عَلِمَ مَا أَرَادَ، وَإِنْ كَرَّرَ عَلَيْهِ الدَّاعِي وَأَعَادَ»(١).

قَالَ: «وَيُرْوَى أَنَّ بَعْضَ رِجَالِ النَّاصِرِ نَزَلَ الْمَوْتُ بِهِ، فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ: النَّاصِرُ مَوْلَايَ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ الْقَوْلَ، فَأَعَادَ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ أَصَابَتْهُ غَشْيَةٌ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: النَّاصِرُ مَوْلَايَ. وَكَانَ هَذَا دَأْبَهُ كُلَّمَا قِيلَ لَهُ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: النَّاصِرُ مَوْلَايَ، ثُمَّ قَالَ لِابْنِهِ: يَا فُلَانُ، النَّاصِرُ إِنَّمَا يَعْرِفُكَ بِسَيْفِكَ، وَالْقَتْلَ الْقَتْلَ، ثُمَّ مَاتَ».

قَالَ عَبْدُ الْحَقِّ: «وَقِيلَ لِآخَرَ -مِمَّنْ أَعْرِفُهُ-: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَجَعَلَ يَقُولُ: الدَّارُ الْفُلَانِيَّةُ أَصْلِحُوا فِيهَا كَذَا، وَالْبُسْتَانُ الْفُلَانِيُّ افْعَلُوا فِيهِ كَذَا».

وَقَالَ: «وَفِيمَا أَذِنَ أَبُو طَاهِرٍ السِّلَفِيُّ أَنْ أُحَدِّثَ بِهِ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ، فَقِيلَ لَهُ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ بِالْفَارِسِيَّةِ: دَهْ يَازْدَهْ دَهْ وَازْدَهْ، تَفْسِيرُهُ: عَشْرٌ بِأَحَدَ عَشَرَ.

وَقِيلَ لِآخَرَ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: أَيْنَ الطَّرِيقُ إِلَى حَمَّامِ مِنْجَابٍ».

قَالَ: «وَهَذَا الْكَلَامُ لَهُ قِصَّةٌ، وَذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا كَانَ وَاقِفًا بِإِزَاءِ دَارِهِ، وَكَانَ

---

(١) يُنظر: العاقبة في ذكر الموت (ص١٧٨).

بَابُهَا يُشْبِهُ بَابَ هَذَا الْحَمَّامِ، فَمَرَّتْ بِهِ جَارِيَةٌ لَهَا مَنْظَرٌ، فَقَالَتْ: أَيْنَ الطَّرِيقُ إِلَى حَمَّامِ مِنْجَابٍ؟ فَقَالَ: هَذَا حَمَّامُ مِنْجَابٍ، فَدَخَلَتِ الدَّارَ وَدَخَلَ وَرَاءَهَا، فَلَمَّا رَأَتْ نَفْسَهَا فِي دَارِهِ وَعَلِمَتْ أَنَّهُ قَدْ خَدَعَهَا، أَظْهَرَتْ لَهُ الْبُشْرَى وَالْفَرَحَ بِاجْتِمَاعِهَا مَعَهُ، وَقَالَتْ لَهُ: يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مَعَنَا مَا يَطِيبُ بِهِ عَيْشُنَا وَتَقَرُّ بِهِ عُيُونُنَا، فَقَالَ لَهَا: السَّاعَةَ آتِيكِ بِكُلِّ مَا تُرِيدِينَ وَتَشْتَهِينَ، وَخَرَجَ وَتَرَكَهَا فِي الدَّارِ وَلَمْ يُغْلِقْهَا، فَأَخَذَ مَا يَصْلُحُ وَرَجَعَ، فَوَجَدَهَا قَدْ خَرَجَتْ وَذَهَبَتْ، وَلَمْ تَخُنْهُ فِي شَيْءٍ، فَهَامَ الرَّجُلُ وَأَكْثَرَ الذِّكْرَ لَهَا، وَجَعَلَ يَمْشِي فِي الطُّرُقِ وَالْأَزِقَّةِ وَيَقُولُ:

يَا رُبَّ قَائِلَةٍ يَوْمًا وَقَدْ تَعِبَتْ ... كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى حَمَّامِ مِنْجَابِ

فَبَيْنَمَا هُوَ يَوْمًا يَقُولُ ذَلِكَ، إِذَا بِجَارِيَتِهِ أَجَابَتْهُ مِنْ طَاقٍ:

قَرْنَانُ هَلَّا جَعَلْتَ إِذْ ظَفِرْتَ بِهَا ... حِرْزًا عَلَى الدَّارِ أَوْ قُفْلًا عَلَى الْبَابِ

فَازْدَادَ هَيَمَانُهُ وَاشْتَدَّ، وَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى كَانَ هَذَا الْبَيْتُ آخِرَ كَلَامِهِ مِنَ الدُّنْيَا».

قَالَ: «وَيُرْوَى أَنَّ رَجُلًا عَشِقَ شَخْصًا، فَاشْتَدَّ كَلَفُهُ بِهِ، وَتَمَكَّنَ حُبُّهُ مِنْ قَلْبِهِ؛ حَتَّى وَقَعَ لِمَا بِهِ، وَلَزِمَ الْفِرَاشَ مَنْ أَجْلِهِ، وَتَمَنَّعَ ذَلِكَ الشَّخْصُ عَلَيْهِ، وَاشْتَدَّ نِفَارُهُ عَنْهُ، فَلَمْ تَزَلِ الْوَسَائِطُ يَمْشُونَ بَيْنَهُمَا حَتَّى وَعَدَهُ أَنْ يَعُودَهُ، فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ الْبَائِسُ، فَفَرِحَ وَاشْتَدَّ سُرُورُهُ، وَانْجَلَى غَمُّهُ، وَجَعَلَ يَنْتَظِرُ الْمِيعَادَ الَّذِي ضَرَبهُ لَهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَهُ السَّاعِي بَيْنَهُمَا فَقَالَ: إِنَّهُ وَصَلَ مَعِيَ إِلَى بَعْضِ الطَّرِيقِ وَرَجَعَ، فَرَغَّبْتُ إِلَيْهِ وَكَلَّمْتُهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ ذَكَرَنِي وَبَرَّحَ بِي، وَلَا أَدْخُلُ مَدَاخِلَ الرِّيَبِ، وَلَا أُعَرِّضُ نَفْسِيَ لِمَوَاقِعِ التُّهَمِ. فَعَاوَدْتُهُ، فَأَبَى وَانْصَرَفَ. فَلَمَّا سَمِعَ الْبَائِسُ أُسْقِطَ فِي يَدِهِ، وَعَادَ إِلَى أَشَدِّ مِمَّا كَانَ بِهِ، وَبَدَتْ عَلَيْهِ عَلَائِمُ الْمَوْتِ،

فَجَعَلَ يَقُولُ فِي تِلْكَ الحَالِ:

أَسْلِمْ يَا رَاحَةَ العَلِيلِ وَيَا شِفَا المُدْنَفِ النَّحِيلِ
رِضَاكَ أَشْهَى إِلَى فُؤَادِي مِنْ رَحْمَةِ الخَالِقِ الجَلِيلِ

فَقلت لَهُ: يَا فلَان، اتَّقِ اللهَ. قَالَ: قَدْ كَانَ. فَقُمْتُ عَنهُ، فَمَا جَاوَزتُ بَابَ دَارِهِ حَتَّى سَمِعْتُ ضَجَّةَ المَوْتِ.

فَعِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ وَشُؤْمِ الخَاتِمَةِ»(١).

«وَلَقَدْ بَكَى سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ لَيْلَةً إِلَى الصَّبَاحِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ قِيلَ لَهُ: كُلُّ هَذَا خَوْفًا مِنَ الذُّنُوبِ؟ فَأَخَذَ تِبْنَةً مِنَ الْأَرْضِ، وَقَالَ: الذُّنُوبُ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا، وَإِنَّمَا أَبْكِي مِنْ خَوْفِ الخَاتِمَةِ»(٢).

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْفِقْهِ: أَنْ يَخَافَ الرَّجُلُ أَنْ تَخْذُلَهُ ذُنُوبُهُ عِنْدَ المَوْتِ، فَتَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الخَاتِمَةِ الحُسْنَى.

وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ لَمَّا احْتُضِرَ جَعَلَ يُغْمَى عَلَيْهِ ثُمَّ يَفِيقُ وَيَقْرَأُ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠](٣).

فَمِنْ هَذَا خَافَ السَّلَفُ مِنَ الذُّنُوبِ، أَنْ تَكُونَ حِجَابًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الخَاتِمَةِ الحُسْنَى.

---

(١) يُنظر: العاقبة في ذكر الموت (ص١٧٨ - ١٨٠).

(٢) يُنظر: العاقبة في ذكر الموت (ص١٧٥).

(٣) أخرجه أبو داود في الزهد (٢٠٣)، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٤٠٤)، وابن المبارك في الزهد (٣٢)، وابن أبي الدنيا في المحتضرين (١٢٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢١٧).

قَالَ: «وَاعْلَمْ أَنَّ سُوءَ الْخَاتِمَةِ -أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنهَا- لَا تَكُونُ لِمَنِ اسْتَقَامَ ظَاهِرُهُ وَصَلُحَ بَاطِنُهُ، مَا سُمِعَ بِهَذَا وَلَا عُلِمَ بِهِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ. وَإِنَّمَا تَكُونُ لِمَنْ لَهُ فَسَادٌ فِي الْعَقِيدَةِ، أَوْ إِصْرَارٌ عَلَى الْكَبَائِرِ، وَإِقْدَامٌ عَلَى الْعَظَائِمِ، فَرُبَّمَا غَلَبَ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْزِلَ بِهِ الْمَوْتُ قَبْلَ التَّوْبَةِ، فَيَأْخُذُهُ قَبْلَ إِصْلَاحِ الطَّوِيَّةِ، وَيَصْطَلِمَ قَبْلَ الْإِنَابَةِ، فَيَظْفَرُ بِهِ الشَّيْطَانُ عِنْدَ تِلْكَ الصَّدْمَةِ، وَيَخْتَطِفُهُ عِنْدَ تِلْكَ الدَّهْشَةِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ»(١).

قَالَ: «وَيُرْوَى أَنَّهُ كَانَ بِمِصْرَ رَجُلٌ يَلْزَمُ مَسْجِدًا لِلْأَذَانِ وَالصَّلَاةِ، وَعَلَيْهِ بَهَاءُ الطَّاعَةِ وَأَنْوَارُ الْعِبَادَةِ، فَرَقِيَ يَوْمًا الْمَنَارَةَ عَلَى عَادَتِهِ لِلْأَذَانِ، وَكَانَ تَحْتَ الْمَنَارَةِ دَارٌ لِنَصْرَانِيٍّ، فَاطَّلَعَ فِيهَا، فَرَأَى ابْنَةَ صَاحِبِ الدَّارِ، فَافْتُتِنَ بِهَا، فَتَرَكَ الْأَذَانَ، وَنَزَلَ إِلَيْهَا، وَدَخَلَ الدَّارَ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: مَا شَأْنُكَ وَمَا تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُكِ، فَقَالَتْ: لِمَاذَا؟ قَالَ: قَدْ سَبَيْتِ لُبِّي، وَأَخَذْتِ بِمَجَامِعِ قَلْبِي، قَالَتْ: لَا أُجِيبُكَ إِلَى رِيبَةٍ أَبَدًا، قَالَ: أَتَزَوَّجُكِ؟ قَالَتْ: أَنْتَ مُسْلِمٌ وَأَنَا نَصْرَانِيَّةٌ وَأَبِي لَا يُزَوِّجُنِي مِنْكَ، قَالَ: أَتَنَصَّرُ، قَالَتْ: إِنْ فَعَلْتَ أَفْعَلُ، فَتَنَصَّرَ الرَّجُلُ لِيَتَزَوَّجَهَا، وَأَقَامَ مَعَهُمْ فِي الدَّارِ، فَلَمَّا كَانَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، رَقِيَ إِلَى سَطْحٍ كَانَ فِي الدَّارِ فَسَقَطَ مِنْهُ فَمَاتَ، فَلَمْ يَظْفَرْ بِهَا، وَفَاتَهُ دِينُهُ»(٢).

---

(١) يُنظر: العاقبة في ذكر الموت (ص١٨١).

(٢) يُنظر: العاقبة في ذكر الموت (ص١٨١).

فَصْلٌ

وَلَـمَّا كَانَتْ مَفْسَدَةُ اللِّوَاطِ مِنْ أَعْظَمِ الْمَفَاسِدِ؛ كَانَتْ عُقُوبَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَعْظَمِ الْعُقُوبَاتِ.

وَقَدِ اخْتَلَفَ النَّاسُ: هَلْ هُوَ أَغْلَظُ عُقُوبَةً مِنَ الزِّنَا، أَوِ الزِّنَا أَغْلَظُ عُقُوبَةً مِنْهُ، أَوْ عُقُوبَتُهُمَا سَوَاءٌ؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ(١):

فَذَهَبَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَخَالِدُ بْنُ زَيْدٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَعْمَرٍ، وَالزُّهْرِيُّ، وَرَبِيعَةُ بْنُ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَمَالِكٌ، وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي أَصَحِّ الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ، وَالشَّافِعِيُّ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ؛ إِلَى أَنَّ عُقُوبَتَهُ أَغْلَظُ مِنْ عُقُوبَةِ الزِّنَا، وَعُقُوبَتُهُ الْقَتْلُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، مُحْصَنًا كَانَ أَوْ غَيْرَ مُحْصَنٍ.

وَذَهَبَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَقَتَادَةُ، وَالْأَوْزَاعِيُّ، وَالشَّافِعِيُّ فِي ظَاهِرِ مَذْهَبِهِ، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الرِّوَايَةِ الثَّانِيَةِ عَنْهُ، وَأَبُو يُوسُفَ، وَمُحَمَّدٌ؛ إِلَى أَنَّ عُقُوبَتَهُ وَعُقُوبَةَ الزَّانِي سَوَاءٌ.

وَذَهَبَ الْحَكَمُ وَأَبُو حَنِيفَةَ إِلَى أَنَّ عُقُوبَتَهُ دُونَ عُقُوبَةِ الزَّانِي، وَهِيَ التَّعْزِيرُ.

قَالُوا: لِأَنَّهُ مَعْصِيَةٌ مِنَ الْمَعَاصِي لَمْ يُقَدِّرِ اللَّهُ وَلَا رَسُولُهُ فِيهِ حَدًّا مُقَدَّرًا،

---

(١) يُنظر: المبسوط للسرخسي (٩/ ٧٧)، والإشراف على نكت مسائل الخلاف (٢/ ٨٦٢)، والحاوي الكبير (١٣/ ٢٢٢)، والمغني لابن قدامة (٩/ ٦٠)، والمحلى بالآثار (١٢/ ٣٨٨)، واختلاف الأئمة العلماء (٢/ ٢٥٥)، وذم اللواط للآجري (ص٥٦ - ٧١)، وذم الهوى لابن الجوزي (ص٢٠١ - ٢٠٥).

فَكَانَ فِيهِ التَّعْزِيرُ، كَأَكْلِ الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ.

قَالُوا: وَلِأَنَّهُ وَطْءٌ فِي مَحَلٍّ لَا تَشْتَهِيهِ الطِّبَاعُ، بَلْ رَكَّبَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى النَّفْرَةِ مِنْهُ حَتَّى الْحَيَوَانُ الْبَهِيمُ، فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ حَدٌّ كَوَطْءِ الْأَتَانِ وَغَيْرِهَا.

قَالُوا: وَلِأَنَّهُ لَا يُسَمَّى زَانِيًا لُغَةً وَلَا شَرْعًا وَلَا عُرْفًا، فَلَا يَدْخُلُ فِي النُّصُوصِ الدَّالَّةِ عَلَى حَدِّ الزَّانِينَ.

قَالُوا: وَلِأَنَّا رَأَيْنَا قَوَاعِدَ الشَّرِيعَةِ أَنَّ الْمَعْصِيَةَ إِذَا كَانَ الْوَازِعُ عَنْهَا طَبِيعِيًّا اكْتُفِيَ بِذَلِكَ الْوَازِعِ مِنَ الْحَدِّ، وَإِذَا كَانَ فِي الطِّبَاعِ تَقَاضِيهَا، جُعِلَ فِي الْحَدِّ بِحَسَبِ اقْتِضَاءِ الطِّبَاعِ لَهَا، وَلِهَذَا جُعِلَ الْحَدُّ فِي الزِّنَا وَالسَّرِقَةِ وَشُرْبِ الْمُسْكِرِ دُونَ أَكْلِ الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ.

قَالُوا: وَطَرْدُ هَذَا أَنَّهُ لَا حَدَّ فِي وَطْءِ الْبَهِيمَةِ وَلَا الْمَيْتَةِ، وَقَدْ جَبَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الطِّبَاعَ عَلَى النَّفْرَةِ مِنْ وَطْءِ الرَّجُلِ رَجُلًا مِثْلَهُ أَشَدَّ نَفْرَةٍ، كَمَا جَبَلَهَا عَلَى النَّفْرَةِ مِنَ اسْتِدْعَاءِ الرَّجُلِ مَنْ يَطَؤُهُ بِخِلَافِ الزِّنَا، فَإِنَّ الدَّاعِيَ فِيهِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ.

قَالُوا: وَلِأَنَّ أَحَدَ النَّوْعَيْنِ إِذَا اسْتَمْتَعَ بِشَكْلِهِ لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ الْحَدُّ، كَمَا تَسَاحَقَتِ الْمَرْأَتَانِ وَاسْتَمْتَعَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بِالْأُخْرَى.

قَالَ أَصْحَابُ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ -وَهُم جُمْهُورُ الْأُمَّةِ، وَحَكَاهُ غَيْرُ وَاحِدٍ إِجْمَاعًا لِلصَّحَابَةِ-: لَيْسَ فِي الْمَعَاصِي أَعْظَمُ مَفْسَدَةً مِنْ هَذِهِ الْمَفْسَدَةِ، وَهِيَ تَلِي مَفْسَدَةَ الْكُفْرِ، وَرُبَّمَا كَانَتْ أَعْظَمَ مِنْ مَفْسَدَةِ الْقَتْلِ. كَمَا سَنُبَيِّنُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قَالُوا: وَلَمْ يَبْتَلِ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذِهِ الْكَبِيرَةِ قَبْلَ قَوْمِ لُوطٍ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، وَعَاقَبَهُمْ عُقُوبَةً لَمْ يُعَاقِبْ بِهَا أَحَدًا غَيْرَهُمْ، وَجَمَعَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ بَيْنَ الْإِهْلَاكِ، وَقَلْبِ دِيَارِهِمْ عَلَيْهِمْ، وَالْخَسْفِ بِهِمْ، وَرَجْمِهِمْ بِالْحِجَارَةِ مِنَ السَّمَاءِ،

فنكَّلَ بِهِمْ نكَالًا لَمْ يُنكِّلْهُ أُمَّةً سِوَاهُمْ، وَذَلِكَ لِعِظَمِ مَفْسَدَةِ هَذِهِ الجَرِيمَةِ الَّتِي تَكَادُ الْأَرْضُ تَمِيدُ مِنْ جَوَانِبِهَا إِذَا عُمِلَتْ عَلَيْهَا، وَتَهْرُبُ المَلَائِكَةُ إِلَى أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِذَا شَاهَدُوهَا، خَشْيَةَ نُزُولِ الْعَذَابِ عَلَى أَهْلِهَا، فَيُصِيبُهُمْ مَعَهُمْ، وَتَعِجُّ الْأَرْضُ إِلَى رَبِّهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَتَكَادُ الجِبَالُ تَزُولُ عَنْ أَمَاكِنِهَا.

وَقَتْلُ المَفْعُولِ بِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ وَطْئِهِ، فَإِنَّهُ إِذَا وَطِئَهُ الرَّجُلُ قَتَلَهُ قَتْلًا لَا تُرْجَى الحَيَاةُ مَعَهُ، بِخِلَافِ قَتْلِهِ فَإِنَّهُ مَظْلُومٌ شَهِيدٌ، وَرُبَّمَا يَنْتَفِعُ بِهِ فِي آخِرَتِهِ.

قَالُوا: وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَدَّ الْقَاتِلِ إِلَى خِيَرَةِ الْوَلِيِّ، إِنْ شَاءَ قَتَلَ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا، وَحَتَّمَ قَتْلَ اللُّوطِيِّ حَدًّا، كَمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ سُنَّةُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّرِيحَةُ الَّتِي لَا مُعَارِضَ لَهَا، بَلْ عَلَيْهَا عَمَلُ أَصْحَابِهِ وَخُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ.

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ أَنَّهُ وَجَدَ فِي بَعْضِ ضَوَاحِي الْعَرَبِ رَجُلًا يُنْكَحُ كَمَا تُنْكَحُ المَرْأَةُ، فَكَتَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، فَاسْتَشَارَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، فَكَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَشَدَّهُمْ قَوْلًا فِيهِ، فَقَالَ: مَا فَعَلَ هَذَا إِلَّا أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ وَاحِدَةٌ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلَ اللهُ بِهَا، أَرَى أَنْ يُحَرَّقَ بِالنَّارِ، فَكَتَبَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى خَالِدٍ فَحَرَّقَهُ[1].

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ: يُنْظَرُ أَعْلَى بِنَاءٍ فِي الْقَرْيَةِ، فَيُرْمَى اللُّوطِيُّ مِنْهَا مُنَكَّبًا، ثُمَّ يُتْبَعُ بِالحِجَارَةِ[2]. وَأَخَذَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ هَذَا الحَدَّ مِنْ عُقُوبَةِ اللهِ

---

(١) أخرجه الخرائطي في مساوئ الأخلاق (٤٢٨)، وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (١٤٠)، والآجري في ذم اللواط (٢٩)، والبيهقي في الكبرى (٨/ ٤٠٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٤٩٦)، وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (١٢٥)، =

قَوْمَ لُوطٍ.

وَابْنُ عَبَّاسٍ هُوَ الَّذِي رَوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ»[(١)]. رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَغَيْرُهُ، وَاحْتَجَّ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِهَذَا الْحَدِيثِ، وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ.

قَالُوا: وَثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ»[(٢)].

وَلَمْ تَجِئْ عَنْهُ لَعْنَةُ الزَّانِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ، وَقَدْ لَعَنَ جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ، فَلَمْ يَتَجَاوَزْ بِهِمْ فِي اللَّعْنِ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَكَرَّرَ لَعْنَ اللُّوطِيَّةِ، وَأَكَّدَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

وَأَطْبَقَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى قَتْلِهِ، لَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ فِيهِ رَجُلَانِ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفَتْ أَقْوَالُهُمْ فِي صِفَةِ قَتْلِهِ، فَظَنَّ النَّاسُ أَنَّ ذَلِكَ اخْتِلَافًا مِنْهُمْ فِي قَتْلِهِ، فَحَكَاهَا مَسْأَلَةَ نِزَاعٍ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَهِيَ بَيْنَهُمْ مَسْأَلَةُ إِجْمَاعٍ لَا مَسْأَلَةُ نِزَاعٍ.

قَالُوا: وَمَنْ تَأَمَّلَ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً

=

والآجري في ذم اللواط (٣٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٢٨١).

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١)، وأحمد (١/ ٣٠٠)، والحاكم (٤/ ٣٩٥).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٨٥)، وابن حبان (١٠/ ٢٦٥)، والبيهقي في الكبرى (٨/ ٤٠٢).

وَسَآءَ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء:٣٢]، وَقَوْلَهُ فِي اللِّوَاطِ: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٨٠]. تَبَيَّنَ لَهُ تَفَاوُتُ مَا بَيْنَهُمَا، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ نَكَّرَ الْفَاحِشَةَ فِي الزِّنَا، أَيْ: هُوَ فَاحِشَةٌ مِنَ الْفَوَاحِشِ، وَعَرَّفَهَا فِي اللِّوَاطِ، وَذَلِكَ يُفِيدُ أَنَّهُ جَامِعٌ لِمَعَانِي اسْمِ الْفَاحِشَةِ، كَمَا تَقُولُ: زَيْدٌ الرَّجُلُ، وَنِعْمَ الرَّجُلُ زَيْدٌ، أَيْ: أَتَأْتُونَ الْخَصْلَةَ الَّتِي اسْتَقَرَّ فُحْشُهَا عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ، فَهِيَ لِظُهُورِ فُحْشِهَا وَكَمَالِهِ غَنِيَّةٌ عَنْ ذِكْرِهَا، بِحَيْثُ لَا يَنْصَرِفُ الِاسْمُ إِلَى غَيْرِهَا.

وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِ فِرْعَوْنَ لِمُوسَى: ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ﴾ [الشعراء:١٩]، أَيِ الْفَعْلَةَ الشَّنْعَاءَ الظَّاهِرَةَ الْمَعْلُومَةَ لِكُلِّ أَحَدٍ.

ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ شَأْنَ فُحْشِهَا بِأَنَّهَا لَمْ يَعْمَلْهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ قَبْلَهُمْ، فَقَالَ: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٨٠]، ثُمَّ زَادَ فِي التَّأْكِيدِ بِأَنْ صَرَّحَ بِمَا تَشْمَئِزُّ مِنْهُ الْقُلُوبُ، وَتَنْبُو عَنْهُ الْأَسْمَاعُ، وَتَنْفِرُ مِنْهُ الطِّبَاعُ أَشَدَّ نَفْرَةٍ، وَهُوَ إِتْيَانُ الرَّجُلِ رَجُلًا مِثْلَهُ يَنْكِحُهُ كَمَا يَنْكِحُ الْأُنْثَى، فَقَالَ: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ [الأعراف:٨١].

ثُمَّ نَبَّهَ عَلَى اسْتِغْنَائِهِمْ عَنْ ذَلِكَ، وَأَنَّ الْحَامِلَ لَهُمْ عَلَيْهِ لَيْسَ إِلَّا مُجَرَّدَ الشَّهْوَةِ، لَا الْحَاجَةَ الَّتِي لِأَجْلِهَا مَالَ الذَّكَرُ إِلَى الْأُنْثَى، مِنْ قَضَاءِ الْوَطَرِ وَلَذَّةِ الِاسْتِمْتَاعِ، وَحُصُولِ الْمَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ الَّتِي تَنْسَى الْمَرْأَةُ لَهَا أَبَوَيْهَا، وَتَذْكُرُ بَعْلَهَا، وَحُصُولِ النَّسْلِ الَّذِي هُوَ حِفْظُ هَذَا النَّوْعِ الَّذِي هُوَ أَشْرَفُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَتَحْصِينِ الْمَرْأَةِ وَقَضَاءِ وَطَرِهَا، وَحُصُولِ عَلَاقَةِ الْمُصَاهَرَةِ الَّتِي هِيَ أُخْتُ النَّسَبِ، وَقِيَامِ الرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ، وَخُرُوجِ أَحَبِّ الْخَلْقِ إِلَى اللهِ مِنْ جِمَاعِهِنَّ كَالْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَمُكَاثَرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَنْبِيَاءَ بِأُمَّتِهِ إِلَى

غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِ النِّكَاحِ، وَالْمَفْسَدَةُ الَّتِي فِي اللِّوَاطِ تُقَاوِمُ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَتُرْبِي عَلَيْهِ بِمَا لَا يُمْكِنُ حَصْرُ فَسَادِهِ، وَلَا يَعْلَمُ تَفْصِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ.

الشرح:

اللواط: هو إتيان الذكور والعياذ بالله، وهو فاحشةٌ قبيحة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قوم لوط: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

وأول ما حدثت هذه الفاحشة في قوم لوط، لم تكن موجودة فيمن قبلهم، ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

وهذه الجريمة تتنزه عنها الحيوانات، حتى الحيوانات لا يكون فيها شهوة إتيان الذكور، إنما هذا في بعض بني آدم، ولهذا كانت عقوبتها أشد العقوبات، وقد أرسل الله جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فنزع بلادهم حتى بلغت عنان السماء، ثم إنه قلبها عليهم، وأتبعهم بحجارة من سجيل من جهنم.

هذه عقوبتهم التي حصلت لهم لم يكن لها مثيل في العقوبات؛ لأن جريمتهم لم تكن مثل غيرها من الجرائم، ولهذا يُقتل فيها الفاعل والمفعول به، سواء كانا محصنين أو غير محصنين.

فقد أجمع الصحابة على قتل اللوطي، لكنهم اختلفوا في كيفية قتله، فمنهم من يقول: يُقتل بالسيف، ومنهم من يقول: يُرمى من أرفع مكان في البلد، ويُتبع بالحجارة، كما فعل الله بقوم لوط، ومنهم من يقول: يُحرّق في النار. وقد حرّق الصديق وغيره من الصحابة اللوطية بالنار، فهم أجمعوا على

قتله وإن اختلفوا في الوسيلة أو الكيفية التي يتم بها قتله.

والآن في بعض الدول يبيحون اللواط، ويحمونه في قوانينهم، ويسمون فاعليه: المثليين، يعني: يأتي مثله. ويكفي قبحًا تسميتهم له بالمثلِ، يعني يأتي مثله والعياذ بالله، فهذه جريمة شنيعة، وأصحابها منبوذون في العالم.

وقوله: (**وَأَنَّ الْحَامِلَ لَهُمْ عَلَيْهِ لَيْسَ إِلَّا مُجَرَّدَ الشَّهْوَةِ لَا الْحَاجَةَ الَّتِي لِأَجْلِهَا مَالَ الذَّكَرُ إِلَى الْأُنْثَى**)، الله جَلَّوَعَلَا جعل مصرفًا لهذه الشهوة، فهو سبحانه خلق الشهوة في بني آدم وفي جميع الحيوانات لحكمة عظيمة، ولكنه جعل لها مصرفًا منضبطًا وهو الزواج بين الذكر والأنثى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:١٦٦].

فالزواج مصرفٌ شرعي لهذه الشهوة، يُنتج الذرية الصالحة، ويُنتج الرجال والنساء، فهو مع كونه قضاءً للشهوة فيه مصلحةٌ عظيمة، قال تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، مثلما يزرع الإنسان في الأرض فإنه يزرع في الرَّحِم وتأتيه ذُرية؛ فهي حرْث، فإذا ضُيعت هذه الغريزة في الزنا حصلت مفاسد، كضياع الأنساب وانتشار الأمراض، وإذا ضُيعت في اللواط فهي أشد؛ لأنها تُفسد الرجال، وتُفسد المجتمعات، وتُضيع النسل، وتورث الأمراض التي هي أشد الأمراض، مثل ما هو الآن معروف في العالم مرض فقد المناعة الذي يسمونه "الإيدز"، وأصبح من يُصاب به يُعزل عن الناس إلى أن يموت؛ لأنه ليس له علاج.

فهذه عقوبة عظيمة شنيعة والعياذ بالله، ولذلك أُمر المسلمون بعمل الوسائل التي تمنع من هذه الجريمة، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ**

بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ»(١)، هذا لأجل حماية أعراضهم، ولئلا تتحرك الشهوة بينهم.

وأُمروا كذلك بغض البصر حماية لهم من مقدمات الفاحشة، ونُهوا عن مخالطة من يحصل بمخالطته وصولٌ إلى هذه الجريمة.

كل ذلك لحفظ الناس من هذه الجريمة البشعة، فإذا وقعت فلابد أن تُعالج بعقوبة تقابل بشاعتها؛ حتى تردع الفاعل وتردع الآخرين، وهي: تحتم قتله؛ لأن في بقائه فسادًا في المجتمع، فلو بقي اللوطي أفسد المجتمع واقتدى به غيره؛ فلذلك يُقطع ويُبتر بالقتل.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٠)، وأبو داود (٤٩٥)، والحاكم (١/ ٣١١)، والدارقطني (١/ ٢٣٠)، والبيهقي في الكبرى (٢/ ٣٢٣) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

ثُمَّ أَكَّدَ قُبْحَ ذَلِكَ بِأَنَّ اللُّوطِيَّةَ عَكَسُوا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ عَلَيْهَا الرِّجَالَ، وَقَلَبُوا الطَّبِيعَةَ الَّتِي رَكَّبَهَا اللهُ فِي الذُّكُورِ، وَهِيَ شَهْوَةُ النِّسَاءِ دُونَ الذُّكُورِ، فَقَلَبُوا الْأَمْرَ، وَعَكَسُوا الْفِطْرَةَ وَالطَّبِيعَةَ، فَأَتَوُا الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ، وَلِهَذَا قَلَبَ اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ دِيَارَهُمْ، فَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا، وَكَذَلِكَ قُلِبُوا هُمْ، وَنُكِّسُوا فِي الْعَذَابِ عَلَى رُؤُوسِهِمْ.

ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ قُبْحَ ذَلِكَ بِأَنْ حَكَمَ عَلَيْهِمْ بِالْإِسْرَافِ وَهُوَ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ، فَقَالَ: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف:٨١].

فَتَأَمَّلْ هَلْ جَاءَ مِثْلُ ذَلِكَ أَوْ قَرِيبٌ مِنْهُ فِي الزِّنَا؟

وَأَكَّدَ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾، ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمُ الذَّمَّ بِوَصْفَيْنِ فِي غَايَةِ الْقُبْحِ فَقَالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ﴾ [الأنبياء:٧٤].

وَسَمَّاهُمْ مُفْسِدِينَ فِي قَوْلِ نَبِيِّهِمْ: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٣٠]. وَسَمَّاهُمْ ظَالِمِينَ فِي قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ لِإِبْرَاهِيمَ: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَـٰلِمِينَ﴾ [العنكبوت:٣١].

فَتَأَمَّلْ مَنْ عُوقِبَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْعُقُوبَاتِ، وَمَنْ ذَمَّهُ اللهُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمَذَمَّاتِ! وَلَمَّا جَادَلَ فِيهِمْ خَلِيلُهُ إِبْرَاهِيمُ الْمَلَائِكَةَ، وَقَدْ أَخْبَرُوهُ بِإِهْلَاكِهِمْ، قِيلَ لَهُ: ﴿يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود:٧٦].

وَتَأَمَّلْ خُبْثَ اللُّوطِيَّةِ وَفَرْطَ تَمَرُّدِهِمْ عَلَى اللهِ حَيْثُ جَاءُوا نَبِيَّهُمْ لُوطًا لَمَّا سَمِعُوا بِأَنَّهُ قَدْ طَرَقَهُ أَضْيَافٌ هُمْ مِنْ أَحْسَنِ الْبَشَرِ صُوَرًا، فَأَقْبَلَ اللُّوطِيَّةُ إِلَيْهِمْ

يُهْرِعُونَ، فَلَمَّا رَآهُمْ قَالَ لَهُمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾ [هود:٧٨].

فَفَدَى أَضْيَافَهُ بِبَنَاتِهِ يُزَوِّجُهُمْ بِهِمْ خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ وَأَضْيَافِهِ مِنَ الْعَارِ الشَّدِيدِ، فَقَالَ: ﴿يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾، فَرَدُّوا عَلَيْهِ، وَلَكِنْ رَدَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود:٧٩].

فَنَفَثَ نَبِيُّ اللَّهِ نَفْثَةَ مَصْدُورٍ خَرَجَتْ مِنْ قَلْبٍ مَكْرُوبٍ، فَقَالَ: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ [هود:٨٠]. فَنَفَّسَ لَهُ رُسُلُ اللَّهِ عَنْ حَقِيقَةِ الْحَالِ، وَأَعْلَمُوهُ أَنَّهُمْ مِمَّنْ لَيْسُوا يُوصَلُ إِلَيْهِمْ، وَلَا إِلَيْهِ بِسَبَبِهِمْ، فَلَا تَخَفْ مِنْهُمْ، وَلَا تَعْبَأْ بِهِمْ، وَهَوِّنْ عَلَيْكَ، فَقَالُوا: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾، وَبَشَّرُوهُ بِمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْوَعْدِ لَهُ وَلِقَوْمِهِ مِنَ الْوَعِيدِ الْمُصِيبِ فَقَالُوا: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُ﴾، فَاسْتَبْطَأَ نَبِيُّ اللَّهِ مَوْعِدَ هَلَاكِهِمْ، وَقَالَ: أُرِيدُ أَعْجَلَ مِنْ هَذَا، فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ [هود:٨١].

فَوَاللَّهِ مَا كَانَ بَيْنَ إِهْلَاكِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَنَجَاةِ نَبِيِّهِ وَأَوْلِيَائِهِ إِلَّا مَا بَيْنَ السَّحَرِ وَطُلُوعِ الْفَجْرِ، وَإِذَا بِدِيَارِهِمْ قَدِ اقْتُلِعَتْ مِنْ أَصْلِهَا، وَرُفِعَتْ نَحْوَ السَّمَاءِ حَتَّى سَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ نُبَاحَ الْكِلَابِ وَنَهِيقَ الْحَمِيرِ، فَبَرَزَ الْمَرْسُومُ الَّذِي لَا يُرَدُّ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ الْجَلِيلِ، إِلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ جِبْرَائِيلَ، بِأَنْ قَلَبَهَا عَلَيْهِمْ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾ [هود:٨٢].

فَجَعَلَهُمْ آيَةً لِلْعَالَمِينَ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ، وَنَكَالًا وَسَلَفًا لِمَنْ شَارَكَهُمْ فِي

أَعْمَالِهِمْ مِنَ الْمُجْرِمِينَ، وَجَعَلَ دِيَارَهُمْ بِطَرِيقِ السَّالِكِينَ، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:٧٥ - ٧٧].

أَخَذَهُمْ عَلَى غِرَّةٍ وَهُمْ نَائِمُونَ، وَجَاءَهُمْ بَأْسُهُ وَهُمْ فِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَقُلِبَتْ تِلْكَ اللَّذَّةُ آلَامًا، فَأَصْبَحُوا بِهَا يُعَذَّبُونَ.

مَآرِبُ كَانَتْ فِي الْحَيَاةِ لِأَهْلِهَا عَذَابًا فَصَارَتْ فِي الْمَمَاتِ عَذَابًا

ذَهَبَتِ اللَّذَّاتُ وَأَعْقَبَتِ الْحَسَرَاتِ، وَانْقَضَتِ الشَّهَوَاتُ، وَأَوْرَثَتِ الشِّقْوَاتِ، وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا، وَعُذِّبُوا طَوِيلًا، رَتَعُوا مَرْتَعًا وَخِيمًا فَأَعْقَبَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا، أَسْكَرَتْهُمْ خَمْرَةُ تِلْكَ الشَّهَوَاتِ، فَمَا اسْتَفَاقُوا مِنْهَا إِلَّا فِي دِيَارِ الْمُعَذَّبِينَ، وَأَرْقَدَتْهُمْ تِلْكَ الْغَفْلَةُ، فَمَا اسْتَيْقَظُوا مِنْهَا إِلَّا وَهُمْ فِي مَنَازِلِ الْهَالِكِينَ، فَنَدِمُوا وَاللهِ أَشَدَّ النَّدَامَةِ حِينَ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ، وَبَكَوْا عَلَى مَا أَسْلَفُوهُ بَدَلَ الدُّمُوعِ بِالدَّمِ.

فَلَوْ رَأَيْتَ الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلَ مِنْ هَذِهِ الطَّائِفَةِ، وَالنَّارُ تَخْرُجُ مِنْ مَنَافِذِ وُجُوهِهِمْ وَأَبْدَانِهِمْ وَهُمْ بَيْنَ أَطْبَاقِ الْجَحِيمِ، وَهُمْ يَشْرَبُونَ بَدَلَ لَذِيذِ الشَّرَابِ كُؤُوسَ الْحَمِيمِ، وَيُقَالُ لَهُمْ وَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ يُسْحَبُونَ: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر:٢٤]، ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:١٦].

وَقَدْ قَرَّبَ اللهُ سُبْحَانَهُ مَسَافَةَ الْعَذَابِ بَيْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَبَيْنَ إِخْوَانِهِمْ فِي الْعَمَلِ، فَقَالَ مُخَوِّفًا لَهُمْ أَنْ يَقَعَ الْوَعِيدُ: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٣].

فَيَا نَاكِحِي الذُّكْرَانِ يَهْنِيكُمُ الْبُشْرَى فَيَوْمَ مَعَادِ النَّاسِ إِنَّ لَكُمْ أَجْرًا

كُلُوا وَاشْرَبُوا وَازْنُوا وَلُوطُوا وَأَبْشِرُوا ... فَـإِنَّكُمْ زَفًّـا إِلَى الْجَنَّـةِ الْحَمْـرَا
فَـإِخْوَانُكُمْ قَـدْ مَهَّـدُوا الـدَّارَ قَـبْلَكُمْ ... وَقَـالُوا إِلَيْنَـا عَجِّلُـوا لَكُـمُ الْبُـشْرَى
وَهَا نَحْنُ أَسْلَافٌ لَكُمْ فِي انْتِظَارِكُمْ ... سَـيَجْمَعُنَا الْجَبَّـارُ فِي نَـارِهِ الْكُـبْرَى
وَلَا تَحْـسَبُوا أَنَّ الَّـذِينَ نَكَحْـتُمُ ... يَغِيبُـونَ عَـنْكُمْ بَـلْ تَـرَوْنَهُمْ جَهْـرًا
وَيَلْعَـنُ كُـلٌّ مِـنْكُمُ لِخَلِيلِـهِ ... وَيَشْقَى بِهِ الْمَحْزُونُ فِي الْكَرَّةِ الْأُخْرَى
يُعَـذَّبُ كُـلٌّ مِـنْهُمُ بِـشَرِيكِهِ ... كَـمَا اشْـتَرَكَا فِي لَـذَّةٍ تُوجِـبُ الْـوِزْرَا

الشرح:

ليس معنى قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ أنهم يطئونهن بدون عقد، بل يعقد لهم بالزواج الشرعي ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾، فالزنا ليس فيه طهارة.

وقيل: المراد بقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ أي: بنات المؤمنين؛ لأنه نبي، فتكون بنات المؤمنين بناتٌ له في الاتباع والاقتداء والاحترام.

فردوا عليه وقالوا: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾، يعني: لا نريد النساء وإنما نريد الذكور.

فالذي يُبتلى بهذه الجريمة لا يريد النساء والعياذ بالله، حتى ولو كان معه زوجته لا يأتيها من القُبل، وإنما يأتيها من الدُبر؛ لأنه لوطي زين له الشيطان هذه الفاحشة.

فلما اشتد به عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الأمر قال: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾، فجاء الفرج من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وقالت له الملائكة: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾، وأمّنوه من هذا الخطر الداهم.

وأمره ربه أن يخرج بأهله من البلد: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾؛ لأنها كانت تساعدهم وتدلهم على أضياف لوط، فأصابها ما أصابهم والعياذ بالله، ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر:٣٧]، أول عقوبة أن الله طمس أبصارهم التي تنظر إلى الفاحشة، ثم حلَّت بهم العقوبة الشنيعة.

وأبقى بلادهم التي مُسخت وخُسفت شاهدة عليهم في طريق الذاهبين إلى الشام: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا﴾ [الفرقان:٤٠]، فالناس يرونها في طريقهم إلى الشام، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾، فأصبحت بحيرةً منتنة يرونها في طرقهم.

ثم توعد من يأتي بهذه الفاحشة من بعدهم فقال: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾، أي: من فعل مثل فعلهم فإن هذه العقوبة قريبةً منه.

فَصْلُ

فِي الْأَجْوِبَةِ عَمَّا احْتَجَّ بِهِ مَنْ جَعَلَ عُقُوبَةَ هَذِهِ الْفَاحِشَةِ دُونَ عُقُوبَةِ الزِّنَا.

أَمَّا قَوْلُهُمْ: إِنَّهَا مَعْصِيَةٌ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ فِيهَا حَدًّا مُعَيَّنًا، فَجَوَابُهُ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ الْمُبَلِّغَ عَنِ اللَّهِ جَعَلَ حَدَّ صَاحِبِهَا الْقَتْلَ حَتْمًا، وَمَا شَرَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّمَا شَرَعَهُ عَنِ اللَّهِ، فَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنَّ حَدَّهَا غَيْرُ مَعْلُومٍ بِالشَّرْعِ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنَّهُ غَيْرُ ثَابِتٍ بِنَصِّ الْكِتَابِ لَمْ يَلْزَمْ مِنْ ذَلِكَ انْتِفَاءُ حُكْمِهِ لِثُبُوتِهِ بِالسُّنَّةِ.

الشرح:

تقدم كلام المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن عقوبة اللواط، وأن هذه الجريمة القبيحة منافية للفِطر والعقول، ولذلك شدّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في إنكارها وعقوبتها، وأول ما حصلت في قوم لوط، لم يسبقهم أحد من العالمين، ولهذا قال لهم نبيهم لوط: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠، ٨١].

الله جَلَّ وَعَلَا خلق الذكر والأنثى، وجعل محل الحرث والاستمتاع في المرأة: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، فالمرأة هي محل الاستمتاع، ومحل الذرية والإنجاب، جعلها الله مصرفًا لهذه الشهوة، فهي محلٌّ لائق ومفيد يحصل به

غض البصر وإحصان الفرج، ويحصل به الذرية، ويوافق فِطرة الله التي فطر خلقه عليها. وأما هذه الجريمة فهي سبيلٌ قبيح يخالف الفِطر، ويُسبب هو والزنا الأمراض القبيحة المستعصية، ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ في الزنا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢]، هذا كان في الزنا، مع أنه في امرأة، لكنه لما كان بطريق غير شرعي صار فاحشة وساء سبيلًا، فكيف بهذه الجريمة القبيحة؟!

فاللواط يُعطل الذرية، ويقطع النسل، ويُذهب الحياء والإنسانية، ويلحق أصحابه بالبهيمية القبيحة، فأضراره خطيرة جدًّا، ولذلك عاقب الله عليه بأشد العقوبات، فخسف بقوم لوط الأرض، وأرسل عليهم حجارة من سجيل، وأتبعهم بالذم والتشنيع.

والذي يفعل هذه الجريمة لابد له من عقوبةٍ رادعة، فبعض العلماء يقول: أنه والزنا سواء، فيُرجم المُحصن بالحجارة، ويُجلد البكر مائة جلدة، ويُغرب عن وطنه.

والقول الثاني - وهو مذهب جمهور العلماء-: أن عقوبة اللواط أغلظ من عقوبة الزنا، فيُقتل على كل حال بكرًا كان أو ثيبًا.

واستدلوا بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ**»(١). والحديث لا بأس به.

وهذه العقوبة مناسبة لبشاعة الجريمة؛ لأنها تُذهب أصحاب هذه الجريمة، وتقضي عليهم، فلا يكون لهم وجودٌ بين الناس، وهي أيضًا رادع لمن

(١) تقدم تخريجه (ص٥٧١).

تسول له نفسه أن يفعل كفعلهم.

وإجماع الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ على أنه يُقتل، لكنهم اختلفوا بأي شيءٍ يُقتل؟ فبعضهم يرى أنه يُقتل بالسيف، وبعضهم يرى أنه يُحرَّق بالنار، وقد حرَّقه أبو بكر وخالد بن الوليد، وبعضهم يرى أنه يُلقى من أعلى مكان في البلد كما فعل الله ذلك بقوم لوط.

والقول الثالث: أنه ليس له حد، وإنما يعزر ويعاقب عقوبة رادعة بما يراه ولي الأمر.

والصحيح -والله أعلم-: أنه يُقتل بالسيف، وهو المعمول به الآن، ولا يضر اختلاف الصحابة في كيفية قتله ما دام أنهم اتفقوا على أنه يُقتل.

والمصنف رَحِمَهُٱللَّهُ يرد على ما ذهب إليه أصحاب القول الثالث ولا يرتضيه، ويرى أنه لا يكفي التعزير، بل لابد من قتله حدًّا، وقال: **(أَنَّ الْمُبَلِّغَ عَنِ اللَّهِ جَعَلَ حَدَّ صَاحِبِهَا الْقَتْلَ حَتْمًا، وَمَا شَرَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَإِنَّمَا شَرَعَهُ عَنِ اللَّهِ)**، فقولهم: إن الله لم يجعل فيه حدًّا، ليس بصحيح، بل جعل الله فيه حدًّا وهو القتل، كما في هذا الحديث.

وقال: **(وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنَّهُ غَيْرُ ثَابِتٍ بِنَصِّ الْكِتَابِ لَمْ يَلْزَمْ مِنْ ذَلِكَ انْتِفَاءُ حُكْمِهِ لِثُبُوتِهِ بِالسُّنَّةِ)** يعني: إن أردتم أنه لم يثبت في القرآن أنه يُقتل حدًّا، فليس بلازم؛ لأن سنة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هي الوحي الثاني بعد القرآن، فيُحتج بها كما يُحتج بالقرآن، وليس كل الحدود أو كل الأحكام مذكورة في القرآن، بل جاء بعضها في السنة.

الثَّانِي: أَنَّ هَذَا يَنْتَقِضُ عَلَيْكُمْ بِالرَّجْمِ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا ثَبَتَ بِالسُّنَّةِ.

فَإِنْ قُلْتُمْ: بَلْ ثَبَتَ بِقُرْآنٍ نُسِخَ لَفْظُهُ وَبَقِيَ حُكْمُهُ.

قُلْنَا: فَيُنْقَضُ عَلَيْكُمْ بِحَدِّ شَارِبِ الْخَمْرِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ نَفْيَ دَلِيلٍ مُعَيَّنٍ لَا يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ مُطْلَقِ الدَّلِيلِ وَلَا نَفْيَ الْمَدْلُولِ، فَكَيْفَ وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ الدَّلِيلَ الَّذِي نَفَيْتُمُوهُ غَيْرُ مُنْتَفٍ؟

وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: إِنَّهُ وَطْءٌ لَا تَشْتَهِيهِ الطِّبَاعُ، بَلْ رَكَّبَ اللَّهُ الطِّبَاعَ عَلَى النَّفْرَةِ مِنْهُ، فَهُوَ كَوَطْءِ الْمَيْتَةِ وَالْبَهِيمَةِ، فَجَوَابُهُ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ قِيَاسٌ فَاسِدُ الِاعْتِبَارِ، مَرْدُودٌ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ.

الثَّانِي: أَنَّ قِيَاسَ وَطْءِ الْأَمْرَدِ الْجَمِيلِ الَّذِي فِتْنَتُهُ تَرْبُو عَلَى كُلِّ فِتْنَةٍ، عَلَى وَطْءِ أَتَانٍ أَوِ امْرَأَةٍ مَيِّتَةٍ، مِنْ أَفْسَدِ الْقِيَاسِ، وَهَلْ يَعْدِلُ ذَلِكَ أَحَدٌ قَطُّ بِأَتَانٍ أَوْ بَقَرَةٍ أَوْ مَيِّتَةٍ، أَوْ سَبَى ذَلِكَ عَقْلَ عَاشِقٍ، أَوْ أَسَرَ قَلْبَهُ، أَوِ اسْتَوْلَى عَلَى فِكْرِهِ وَنَفْسِهِ؟ فَلَيْسَ فِي الْقِيَاسِ أَفْسَدُ مِنْ هَذَا.

الثَّالِثُ: أَنَّ هَذَا مُنْتَقِضٌ بِوَطْءِ الْأُمِّ وَالْبِنْتِ وَالْأُخْتِ، فَإِنَّ النَّفْرَةَ الطَّبِيعِيَّةَ عَنْهُ حَاصِلَةٌ مَعَ أَنَّ الْحَدَّ فِيهِ مِنْ أَغْلَظِ الْحُدُودِ -فِي أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ- وَهُوَ الْقَتْلُ بِكُلِّ حَالٍ مُحْصَنًا كَانَ أَوْ غَيْرَ مُحْصَنٍ. وَهَذَا إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَهُوَ قَوْلُ إِسْحَاقَ بْنِ رَاهَوَيْهِ وَجَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ.

وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: لَقِيتُ عَمِّي وَمَعَهُ الرَّايَةُ، فَقُلْتُ: إِلَى أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: «بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى رَجُلٍ

نَكَحَ امْرَأَةَ أَبِيهِ مِنْ بَعْدِهِ أَنْ أَضْرِبَ عُنُقَهُ وَآخُذَ مَالَهُ»(١).

قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

قَالَ الْجُوْزَجَانِيُّ: عَمُّ الْبَرَاءِ اسْمُهُ الْحَارِثُ بْنُ عَمْرٍو.

وَفِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ وَقَعَ عَلَى ذَاتِ مَحْرَمٍ فَاقْتُلُوهُ»(٢).

وَرُفِعَ إِلَى الْحَجَّاجِ رَجُلٌ اغْتَصَبَ أُخْتَهُ عَلَى نَفْسِهَا، فَقَالَ: احْبِسُوهُ، وَاسْأَلُوا مَنْ هَاهُنَا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مُطَرِّفٍ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ تَخَطَّى حُرَمَ الْمُؤْمِنِينَ، فَخُطُّوا وَسَطَهُ بِالسَّيْفِ»(٣).

وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى الْقَتْلِ بِالتَّوْسِيطِ، وَهَذَا دَلِيلٌ مُسْتَقِلٌّ فِي الْمَسْأَلَةِ، وَأَنَّ مَنْ لَا يُبَاحُ وَطْؤُهُ بِحَالٍ فَحَدُّ وَطْئِهِ الْقَتْلُ، دَلِيلُهُ: مَنْ وَقَعَ عَلَى أُمِّهِ أَوِ ابْنَتِهِ. وَكَذَلِكَ يُقَالُ فِي وَطْءِ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ، وَوَطْءِ مَنْ لَا يُبَاحُ وَطْؤُهُ بِحَالٍ، فَكَانَ حَدُّهُ الْقَتْلَ كَاللُّوطِيِّ.

وَالتَّحْقِيقُ: أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَى الْمَسْأَلَتَيْنِ بِالنَّصِّ، وَالْقِيَاسُ يَشْهَدُ لِصِحَّةِ كُلٍّ مِنْهُمَا.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٥٧)، والترمذي (١٣٦٢)، والنسائي (٣٣٣٢)، والحاكم (٣/ ٧٣٢)، والبيهقي في الكبرى (٦/ ٤١٥).

(٢) أخرجه الترمذي (١٤٦٢)، وابن ماجه (٢٥٦٨)، وأحمد (١/ ٣٠٠).

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥/ ٢٩٠)، والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٥٤٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٣٣١).

وَقَدِ اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ مَنْ زَنَى بِذَاتِ مَحْرَمِهِ فَعَلَيْهِ الْحَدُّ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي صِفَةِ الْحَدِّ، هَلْ هُوَ الْقَتْلُ بِكُلِّ حَالٍ، أَوْ حَدُّهُ حَدُّ الزَّانِي، عَلَى قَوْلَيْنِ:

فَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ وَمَالِكٌ وَأَحْمَدُ - فِي إِحْدَى رِوَايَتَيْهِ -: أَنَّ حَدَّهُ حَدُّ الزَّانِي.

وَذَهَبَ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ إِلَى: أَنَّ حَدَّهُ الْقَتْلُ بِكُلِّ حَالٍ.

وَكَذَلِكَ اتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَنَّهُ لَوْ أَصَابَهَا بِاسْمِ النِّكَاحِ عَالِمًا بِالتَّحْرِيمِ أَنَّهُ يُحَدُّ، إِلَّا أَبَا حَنِيفَةَ وَحْدَهُ، فَإِنَّهُ رَأَى ذَلِكَ شُبْهَةً مُسْقِطَةً لِلْحَدِّ.

وَمُنَازِعُوهُ يَقُولُونَ: إِذَا أَصَابَهَا بِاسْمِ النِّكَاحِ فَقَدْ زَادَ الْجَرِيمَةَ غِلَظًا وَشِدَّةً، فَإِنَّهُ ارْتَكَبَ مَحْذُورَيْنِ عَظِيمَيْنِ: مَحْذُورَ الْعَقْدِ، وَمَحْذُورَ الْوَطْءِ، فَكَيْفَ تُخَفَّفُ عَنْهُ الْعُقُوبَةُ بِضَمِّ مَحْذُورِ الزِّنَا؟

وَأَمَّا وَطْءُ الْمَيِّتَةِ فَفِيهِ قَوْلَانِ لِلْفُقَهَاءِ، وَهُمَا فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ.

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ يَجِبُ بِهِ الْحَدُّ، وَهُوَ قَوْلُ الْأَوْزَاعِيِّ، فَإِنَّ فِعْلَهُ أَعْظَمُ جُرْمًا وَأَكْبَرُ ذَنْبًا انْضَمَّ إِلَى فَاحِشَتِهِ هَتْكُ حُرْمَةِ الْمَيِّتَةِ.

الشرح:

قياس اللواط على وطء البهيمة قياسٌ فاسد؛ لأنه يُشترط في القياس تساوي الفرع والأصل، وهذا لا يتساوى، فالبهيمة لا تُشتهى مثلما يُشتهى الإنسان، والفتنة بالإنسان أشد من الفتنة بالبهيمة، وإذا اختلف الفرع والأصل فالقياس باطل.

أما قولهم: إن هذا تنفر منه الطباع. هو صحيح تنفر منه الطباع، لكن

ليس معنى ذلك أنه ليس فيه حد، فالزنا بالأم والأخت جعل الله فيه حدًّا وهو الرجم للمحصن والجلد للبكر، مع أن طباع الإنسان تنفر أن يأتي أمه أو أخته أو قريبته، وقيل: بل يُقتل بكل حال، ولا يُفرق بين البكر والثيب؛ لأجل الردع عن هذه الجريمة، وهذا رواية عن الإمام أحمد وبعض علماء الحديث.

وقوله: **(بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى رَجُلٍ نَكَحَ امْرَأَةَ أَبِيهِ مِنْ بَعْدِهِ أَنْ أَضْرِبَ عُنُقَهُ وَآخُذَ مَالَهُ)** فيه دليل على أن من تزوج زوجة أبيه من بعده فإنه يُقتل على كل حال؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٢٢]، فإذا عقد الأب أو الجد على امرأةٍ حرمت على ابنه أو ابن ابنه تحريمًا مؤبدًا، بمجرد العقد ولو لم يدخل بها، فإذا تزوجها الابن فإنه يُقتل على كل حال؛ لأن هذا الرجل الذي فعل ذلك على عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأرسل إليه من يقتله، ولم يستفسر هل هو بكر أو ثيب. فإذا كان هذا فيمن تزوج امرأة أبيه من بعده، فكيف بالذي يفعل اللواط؟ لا شك أنه أشد.

وقوله: **(مَنْ وَقَعَ عَلَى ذَاتِ مَحْرَمٍ فَاقْتُلُوهُ)** من لا يحل وطؤهن بحال من الأقارب: الأخت، والأم، والعمة، والخالة، فمن فعل ذلك فإنه يُقتل على كل حال، وأشد من طء المحارم جريمة اللواط.

فَصْلٌ

وَأَمَّا وَاطِئُ الْبَهِيمَةِ فَلِلْفُقَهَاءِ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ يُؤَدَّبُ، وَلَا حَدَّ عَلَيْهِ، وَهَذَا قَوْلُ مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ، وَهُوَ قَوْلُ إِسْحَاقَ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ حُكْمَهُ حُكْمُ الزَّانِي، يُجْلَدُ إِنْ كَانَ بِكْرًا، وَيُرْجَمُ إِنْ كَانَ مُحْصَنًا، وَهَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ.

وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ: أَنَّ حُكْمَهُ حُكْمُ اللُّوطِيِّ، نَصَّ عَلَيْهِ أَحْمَدُ، فَيُخَرَّجُ عَلَى الرِّوَايَتَيْنِ فِي حَدِّهِ، هَلْ هُوَ الْقَتْلُ حَتْمًا أَوْ هُوَ كَالزَّانِي؟

وَالَّذِينَ قَالُوا: حَدُّهُ الْقَتْلُ. احْتَجُّوا بِمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَتَى بَهِيمَةً فَاقْتُلُوهُ، وَاقْتُلُوهَا مَعَهُ»[١].

قَالُوا: وَلِأَنَّهُ وَطْءٌ لَا يُبَاحُ بِحَالٍ؛ فَكَانَ فِيهِ الْقَتْلُ كَحَدِّ اللُّوطِيِّ.

وَمَنْ لَمْ يَرَ حَدًّا قَالُوا: لَمْ يَصِحَّ فِيهِ الْحَدِيثُ، وَلَوْ صَحَّ لَقُلْنَا بِهِ، وَلَمْ يَحِلَّ لَنَا مُخَالَفَتُهُ.

قَالَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ سَعِيدٍ الشَّالَنْجِيُّ: سَأَلْتُ أَحْمَدَ عَنِ الَّذِي يَأْتِي الْبَهِيمَةَ، فَوَقَفَ عِنْدَهَا، وَلَمْ يَثْبُتْ حَدِيثُ عَمْرِو بْنِ أَبِي عَمْرٍو فِي ذَلِكَ.

وَقَالَ الطَّحَاوِيُّ: الْحَدِيثُ ضَعِيفٌ[٢].

وَأَيْضًا فَرَاوِيهِ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَدْ أَفْتَى بِأَنَّهُ لَا حَدَّ عَلَيْهِ. قَالَ أَبُو دَاوُدَ: وَهَذَا

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٦٤)، والترمذي (١٤٥٥)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٨٦)، وابن ماجه (٢٥٦٤)، وأحمد (١/٢٦٩).

(٢) يُنظر: شرح مشكل الآثار (٩/٤٣٩، ٤٤٠).

يُضَعِّفُ الْحَدِيثَ[١].

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الزَّاجِرَ الطَّبْعِيَّ عَنْ إِتْيَانِ الْبَهِيمَةِ أَقْوَى مِنَ الزَّاجِرِ الطَّبْعِيِّ عَنِ التَّلَوُّطِ، وَلَيْسَ الْأَمْرَانِ فِي طِبَاعِ النَّاسِ سَوَاءٌ، فَإِلْحَاقُ أَحَدِهِمَا بِالْآخَرِ مِنْ أَفْسَدِ الْقِيَاسِ، كَمَا تَقَدَّمَ.

الشرح:

الصحيح: أن من أتى البهيمة يُعزر بما يرى الحاكم أنه يمنعه ويردعه عن هذه الجريمة من ضربٍ أو حبسٍ، ولا يُقام عليه حد؛ لأنه لم يرد فيه نصٌّ، والحديث الوارد في أنه يُقتل غير صحيح، ولا يصلح للاحتجاج.

فيكون إتيان البهيمة من المعاصي التي لم يثبت فيها حدٌّ، وكل معصية لم يثبت فيها حد يصار فيها إلى التعزير، وهو التأديب بما يردع للمجرم.

وإتيان البهائم لا يكثُر وقوعه عند الناس؛ لأنه شيء تنفر منه الطباع، وخلاف المعتاد، أما اللواط فهو جريمةٌ شنيعة، تميل إليه طباع الخبثاء.

---

(١) أخرج أبو داود (٤٤٦٥) من طريق عاصم عن أبي رزين عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «لَيْسَ عَلَى الَّذِي يَأْتِي الْبَهِيمَةَ حَدٌّ»، وقال عقبه: «حَدِيثُ عَاصِمٍ يُضَعِّفُ حَدِيثَ عَمْرِو بْنِ أَبِي عَمْرٍو».

فَصْلُ

وَأَمَّا قِيَاسُكُمْ وَطْءَ الرِّجَالِ لِمِثْلِهِ عَلَى تَدَالُكِ الْمَرْأَتَيْنِ، فَمِنْ أَفْسَدِ الْقِيَاسِ، إِذْ لَا إِيلَاجَ هُنَاكَ، وَإِنَّمَا نَظِيرُهُ مُبَاشَرَةُ الرَّجُلِ الرَّجُلَ مِنْ غَيْرِ إِيلَاجٍ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الْآثَارِ الْمَرْفُوعَةِ: «إِذَا أَتَتِ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ فَهُمَا زَانِيَتَانِ»(١). وَلَكِنْ لَا يَجِبُ الْحَدُّ بِذَلِكَ، لِعَدَمِ الْإِيلَاجِ، وَإِنْ أُطْلِقَ عَلَيْهِمَا اسْمُ الزِّنَا الْعَامُّ، كَزِنَا الْعَيْنِ وَالْيَدِ وَالرِّجْلِ وَالْفَمِ.

إِذَا ثَبَتَ هَذَا: فَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ حُكْمَ التَّلَوُّطِ مَعَ الْمَمْلُوكِ كَحُكْمِهِ مَعَ غَيْرِهِ. وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ تَلَوُّطَ الْإِنْسَانِ بِمَمْلُوكِهِ جَائِزٌ، وَاحْتَجَّ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المعارج: ٣٠]، وَقَاسَ ذَلِكَ عَلَى أَمَتِهِ الْمَمْلُوكَةِ، فَهُوَ كَافِرٌ، يُسْتَتَابُ كَمَا يُسْتَتَابُ الْمُرْتَدُّ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ. وَتَلَوُّطُ الْإِنْسَانِ بِمَمْلُوكِهِ كَتَلَوُّطِهِ بِمَمْلُوكِ غَيْرِهِ فِي الْإِثْمِ وَالْحُكْمِ.

الشرح:

الذين لا يرون الحد في اللواط يقيسونه على السِّحاق بين النساء، ويقولون: إذا أتت المرأة المرأة ففيه تعزير وليس فيه حد، ومثله اللواط ليس فيه حد وإنما فيه التعزير.

---

(١) أخرج الطبراني في الأوسط (٤/٢٦٦)، والبيهقي في الكبرى (٨/٤٠٦) عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«لَا تُبَاشِرُ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ إِلَّا وَهُمَا زَانِيَتَانِ»**.

والمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرد عليهم بأن هذا الكلام فيه نظر؛ لأن السِّحاق ليس فيه إيلاج وإنما هو مدالكة فقط بين النساء، بخلاف الجريمة القبيحة ففيها إيلاج، وهي تُشبه الزنا؛ فبينهما فرقٌ واضح، فلا يُقاس اللواط على المساحقة بين النساء.

وقوله: **(فَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ حُكْمَ التَّلَوُّطِ مَعَ الْمَمْلُوكِ كَحُكْمِهِ مَعَ غَيْرِهِ)** يرد به على من يستدل على أن السيد له أن يطأ مملوكه بقول الله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾، فهذا متلاعب بكتاب الله؛ لأن المراد بملك اليمين في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ الذي يُقابل الزوجة، وهي الإناث المملوكة، ولا يدخل الذكر في هذا، والذي يستدل بهذه الآية على إباحة إتيان المملوك فهو متلاعب بكتاب الله، ولو وُجد من يقول بذلك فإنه يُستتاب كما يُستتاب المرتد، وإلا فإنه يُقتل؛ لأنه قال على الله جَلَّ وَعَلَا ما لم يقل.

وقوله: **(وَتَلَوُّطُ الْإِنْسَانِ بِمَمْلُوكِهِ كَتَلَوُّطِهِ بِمَمْلُوكِ غَيْرِهِ فِي الْإِثْمِ وَالْحُكْمِ)**؛ لأنه أتى رجل، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ استنكر إتيان الرجال عمومًا ولم يستثن: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأعراف: ٨١]، وهذا رجل ليس هو محلًّا للاستمتاع.

فَصْلُ

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ مَعَ هَذَا كُلِّهِ دَوَاءٌ لِهَذَا الدَّاءِ الْعُضَالِ؟ وَرُقْيَةٌ لِهَذَا السِّحْرِ الْقَتَّالِ؟ وَمَا الاِحْتِيَالُ لِدَفْعِ هَذَا الْخَبَالِ؟ وَهَلْ مِنْ طَرِيقٍ قَاصِدٍ إِلَى التَّوْفِيقِ؟ وَهَلْ يُمْكِنُ السَّكْرَانَ بِخَمْرِ الْهَوَى أَنْ يُفِيقَ؟ وَهَلْ يَمْلِكُ الْعَاشِقُ قَلْبَهُ وَالْعِشْقُ قَدْ وَصَلَ إِلَى سُوَيْدَائِهِ؟ وَهَلْ لِلطَّبِيبِ بَعْدَ ذَلِكَ حِيلَةٌ فِي بُرْئِهِ مِنْ سُوءِ دَائِهِ؟

إِنْ لَامَهُ لَائِمٌ الْتَذَّ بِمَلَامِهِ ذِكْرًا لِمَحْبُوبِهِ، وَإِنْ عَذَلَهُ عَاذِلٌ أَغْرَاهُ عَذْلُهُ وَسَارَ بِهِ فِي طَرِيقِ مَطْلُوبِهِ، يُنَادِي عَلَيْهِ شَاهِدُ حَالِهِ بِلِسَانِ مَقَالِهِ:

وَقَفَ الْهَوَى بِي حَيْثُ أَنْتِ فَلَيْسَ لِي ... مُتَأَخَّرٌ عَنْهُ وَلَا مُتَقَدَّمُ
وَأَهَنْتِنِي فَأَهَنْتُ نَفْسِي جَاهِدًا ... مَا مَنْ يَهُونُ عَلَيْكِ مِمَّنْ يُكْرَمُ
أَشْبَهْتِ أَعْدَائِي فَصِرْتُ أُحِبُّهُمْ ... إِذْ كَانَ حَظِّي مِنْكِ حَظِّي مِنْهُمْ
أَجِدُ الْمَلَامَةَ فِي هَوَاكِ لَذِيذَةً ... حُبًّا لِذِكْرِكِ فَلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ(١)

وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ بِالسُّؤَالِ الْأَوَّلِ الَّذِي وَقَعَ عَلَيْهِ الِاسْتِفْتَاءُ، وَالدَّاءُ الَّذِي طَلَبَ لَهُ الدَّوَاءَ.

قِيلَ: نَعَمْ، الْجَوَابُ مِنْ رَأْسٍ: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ دَاءٍ إِلَّا جَعَلَ لَهُ دَوَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ»(٢).

وَالْكَلَامُ فِي دَوَاءِ هَذَا الدَّاءِ مِنْ طَرِيقَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: حَسْمُ مَادَّتِهِ قَبْلَ حُصُولِهَا.

وَالثَّانِي: قَلْعُهَا بَعْدَ نُزُولِهِ.

---

(١) تُنسب الأبيات لأبي الشيص الخزاعي، يُنظر: ديوانه (ص١٠١، ١٠٢).

(٢) تقدم تخريجه (ص١٢).

وَكِلَاهُمَا يَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَمُتَعَذِّرٌ عَلَى مَنْ لَمْ يُعِنْهُ اللَّهُ، فَإِنَّ أَزِمَّةَ الْأُمُورِ بِيَدَيْهِ.

فَأَمَّا الطَّرِيقُ الْمَانِعُ مِنْ حُصُولِ هَذَا الدَّاءِ، فَأَمْرَانِ:

غَضُّ الْبَصَرِ -كَمَا تَقَدَّمَ- فَإِنَّ النَّظْرَةَ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ، وَمَنْ أَطْلَقَ لَحَظَاتِهِ دَامَتْ حَسَرَاتُهُ. وَفِي غَضِّ الْبَصَرِ عِدَّةُ مَنَافِعَ، وَهُوَ بَعْضُ أَجْزَاءِ هَذَا الدَّوَاءِ النَّافِعِ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ امْتِثَالٌ لِأَمْرِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ غَايَةُ سَعَادَةِ الْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، فَلَيْسَ لِلْعَبْدِ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ أَنْفَعُ مِنَ امْتِثَالِ أَوَامِرِهِ، وَمَا شَقِيَ مَنْ شَقِيَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا بِتَضْيِيعِ أَوَامِرِهِ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يَمْنَعُ مِنْ وُصُولِ أَثَرِ السَّهْمِ الْمَسْمُومِ -الَّذِي لَعَلَّ فِيهِ هَلَاكَهُ- إِلَى قَلْبِهِ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ يُورِثُ الْقَلْبَ أُنْسًا بِاللَّهِ وَجَمْعِيَّةً عَلَيْهِ، فَإِنَّ إِطْلَاقَ الْبَصَرِ يُفَرِّقُ الْقَلْبَ وَيُشَتِّتُهُ، وَيُبْعِدُهُ عَنِ اللَّهِ، وَلَيْسَ عَلَى الْقَلْبِ شَيْءٌ أَضَرُّ مِنْ إِطْلَاقِ الْبَصَرِ، فَإِنَّهُ يُورِثُ الْوَحْشَةَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ يُقَوِّي الْقَلْبَ وَيُفْرِحُهُ، كَمَا أَنَّ إِطْلَاقَ الْبَصَرِ يُضْعِفُهُ وَيُحْزِنُهُ.

الْخَامِسَةُ: أَنَّهُ يُكْسِبُ الْقَلْبَ نُورًا، كَمَا أَنَّ إِطْلَاقَهُ يُلْبِسُهُ ظُلْمَةً.

وَلِهَذَا ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ آيَةَ النُّورِ عُقَيْبَ الْأَمْرِ بِغَضِّ الْبَصَرِ، فَقَالَ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]. ثُمَّ قَالَ إِثْرَ ذَلِكَ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]. أَيْ: مَثَلُ نُورِهِ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي امْتَثَلَ أَوَامِرَهُ وَاجْتَنَبَ نَوَاهِيَهُ.

وَإِذَا اسْتَنَارَ الْقَلْبُ أَقْبَلَتْ وُفُودُ الْخَيْرَاتِ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، كَمَا أَنَّهُ إِذَا أَظْلَمَ أَقْبَلَتْ سَحَائِبُ الْبَلَاءِ وَالشَّرِّ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَمَا شِئْتَ مِنْ بِدَعٍ وَضَلَالَةٍ، وَاتِّبَاعِ هَوًى، وَاجْتِنَابِ هُدًى، وَإِعْرَاضٍ عَنْ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ، وَاشْتِغَالٍ بِأَسْبَابِ الشَّقَاوَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكْشِفُهُ لَهُ النُّورُ الَّذِي فِي الْقَلْبِ، فَإِذَا نَفَذَ ذَلِكَ النُّورُ بَقِيَ صَاحِبُهُ كَالْأَعْمَى الَّذِي يَجُوسُ فِي حَنَادِسِ الظُّلُمَاتِ.

السَّادِسَةُ: أَنَّهُ يُورِثُ فِرَاسَةً صَادِقَةً يُمَيِّزُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ.

وَكَانَ شُجَاعٌ الْكِرْمَانِيُّ يَقُولُ: مَنْ عَمَّرَ ظَاهِرَهُ بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ، وَبَاطِنَهُ بِدَوَامِ الْمُرَاقَبَةِ، وَغَضَّ بَصَرَهُ عَنِ الْمَحَارِمِ، وَكَفَّ نَفْسَهُ عَنِ الشُّبُهَاتِ، وَاغْتَذَى بِالْحَلَالِ، لَمْ تُخْطِئْ لَهُ فِرَاسَةٌ وَكَانَ شُجَاعًا لَا تُخْطِئُ لَهُ فِرَاسَةٌ[1].

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَجْزِي الْعَبْدَ عَلَى عَمَلِهِ بِمَا هُوَ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ لِلَّهِ شَيْئًا عَوَّضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ، فَإِذَا غَضَّ بَصَرَهُ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، عَوَّضَهُ اللَّهُ بِأَنْ يُطْلِقَ نُورَ بَصِيرَتِهِ، عِوَضًا عَنْ حَبْسِ بَصَرِهِ لِلَّهِ، وَيَفْتَحُ عَلَيْهِ بَابَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ، وَالْمَعْرِفَةِ وَالْفِرَاسَةِ الصَّادِقَةِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي إِنَّمَا تُنَالُ بِبَصِيرَةِ الْقَلْبِ.

وَضِدُّ هَذَا مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ اللُّوطِيَّةَ مِنَ الْعَمَهِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْبَصِيرَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢]. فَوَصَفَهُمْ بِالسَّكْرَةِ الَّتِي هِيَ فَسَادُ الْعَقْلِ، وَالْعَمَهِ الَّذِي هُوَ فَسَادُ الْبَصِيرَةِ.

فَالتَّعَلُّقُ بِالصُّوَرِ يُوجِبُ فَسَادَ الْعَقْلِ، وَعَمَهَ الْبَصِيرَةِ، وَسُكْرَ الْقَلْبِ، كَمَا

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/٢٣٧).

قَالَ الْقَائِلُ:

سَكْرَانُ سُكْرُ هَوًى وَسُكْرُ مُدَامَةٍ ... وَمَتَّى إِفَاقَةُ مَنْ بِهِ سُكْرَانِ(١)

وَقَالَ الْآخَرُ:

قَالُوا جُنِنْتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ ... الْعِشْقُ أَعْظَمُ مِمَّا بِالْمَجَانِينِ

الْعِشْقُ لَا يَسْتَفِيقُ الدَّهْرَ صَاحِبُهُ ... وَإِنَّمَا يُصْرَعُ الْمَجْنُونُ فِي الْحِينِ(٢)

الشرح:

المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرد في هذا الفصل على من يتساءل ويقول: من ابْتُلي بهذه الجريمة، ووقعت في قلبه، وأثرت فيه، وصار يميل إليها، هل له علاج يُذهب عنه هذه البلية؟ هذا هو محل الشاهد من هذه المقدمة.

والجواب: نعم، هذا الداء له طريقان:

الأول: يكون قبل حصول هذه الجريمة، وذلك بغض البصر، فهو سبيلٌ إلى حفظ الفرج، أما إطلاق البصر فهو سبيلٌ إلى الوقوع في الفاحشة. وأيضًا يجتنب المخالطة، ومجامع الفتنة، ومجالسة الغلمان ومصاحبتهم؛ حتى يسلم، وهذا علاج من باب الوقاية. والله جَلَّ وَعَلَا أمر الرجال والنساء بغض البصر: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۚ إِنَّ

---

(١) صدر البيت يُنسب لديك الجن، وعجزه: «أَنَّى يَفِيقُ فَتَى بِهِ سُكْرَانِ». يُنظر: ديوانه (ص١٩٤). وذكره ابن العديم في بغية الطلب في تاريخ حلب (١٠/ ٤٥١٢) ونسبه للخليع الشامي.

(٢) يُنسب البيتان لمجنون ليلي قيس بن الملوح، يُنظر: ديوانه (ص٢١٨).

ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

ففي غض البصر وقاية من الزنا واللواط وفعل الفواحش؛ لأنه ما يقع فيها إلا بسبب إطلاق النظر. وأيضًا فإن غض البصر يؤدي إلى زكاة القلب وطهارته؛ لأن النظرة المحرمة تزرع في القلب شهوة وفتنة، فإذا امتنع عن النظر المحرم بقي قلبه طاهرًا لا يصل إليه شيءٌ من هذا الإثم، ولذلك قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡ﴾. ومن غض بصره عوضه الله بنورٍ في قلبه يميز به بين الخبيث والطيب.

وغض البصر ليس عن الأشخاص فقط، بل عن الصور أيضًا؛ صور النساء والمردان التي تُعرض في الفضائيات أو في الصحف أو المجلات، فهذه فتنة تجر إلى الفاحشة والعياذ بالله. وهؤلاء الذين يضعون هذه الصور على أغلفة الكتب وداخلها، وينشرونها في الشاشات، يقصدون بذلك أن يفتتن الناس بها، ويتعلقوا بها، فيقعوا في الفواحش، هذا هو القصد من حرصهم على نشر هذه الصور بأي وسيلة.

فعلى المسلم أن يغض بصره، وأن يطمس مثل هذه الصور إذا قدر عليها؛ لقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«لَا تَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ، وَلَا صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا»**(١)، لأجل إزالة الفتنة بها.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٦٩) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يُورِثُ الْقَلْبَ ثَبَاتًا وَشَجَاعَةً وَقُوَّةً، فَجَمَعَ اللَّهُ لَهُ بَيْنَ سُلْطَانِ النُّصْرَةِ وَالْحُجَّةِ، وَسُلْطَانُ الْقُدْرَةِ وَالْقُوَّةِ، كَمَا فِي الْأَثَرِ: «الَّذِي يُخَالِفُ هَوَاهُ يَفِرُّ الشَّيْطَانُ مِنْ ظِلِّهِ»(١).

وَضِدُّ هَذَا تَجِدُ فِي الْمُتَّبِعِ لِهَوَاهُ مِنْ ذُلِّ النَّفْسِ وَوَضَاعَتِهَا وَمَهَانَتِهَا وَخِسَّتِهَا وَحَقَارَتِهَا مَا جَعَلَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِيمَنْ عَصَاهُ. كَمَا قَالَ الْحَسَنُ: «إِنَّهُمْ وَإِنْ طَقْطَقَتْ بِهِمُ الْبِغَالُ، وَهَمْلَجَتْ بِهِمُ الْبَرَاذِينُ، إِنَّ ذُلَّ الْمَعْصِيَةِ فِي رِقَابِهِمْ، أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُذِلَّ مَنْ عَصَاهُ»(٢).

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْعِزَّ قَرِينَ طَاعَتِهِ، وَالذُّلَّ قَرِينَ مَعْصِيَتِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩]، وَالْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، أَيْ: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلْيَطْلُبْهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ وَذِكْرِهِ مِنَ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَفِي دُعَاءِ الْقُنُوتِ: «إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ»(٣). وَمَنْ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٦٥) عن مالك بن دينار أنه قال: «مَنْ غَلَبَ شَهْوَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَذَلِكَ الَّذِي يَفْرَقُ الشَّيْطَانُ مِنْ ظِلِّهِ»، وأخرجه (٤/ ٦٠) عن وهب بن منبه أنه قال: «مَنْ جَعَلَ شَهْوَتَهُ تَحْتَ قَدَمِهِ فَزِعَ الشَّيْطَانُ مِنْ ظِلِّهِ».

(٢) تقدم تخريجه (ص٢١٢).

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٢٥)، والترمذي (٤٦٤)، والنسائي (١٧٤٥)، وابن ماجه (١١٧٨)، =

أَطَاعَ اللَّهَ فَقَدْ وَالَاهُ فِيمَا أَطَاعَهُ فِيهِ، وَلَهُ مِنَ الْعِزِّ بِحَسَبِ طَاعَتِهِ، وَمَنْ عَصَاهُ فَقَدْ عَادَاهُ فِيمَا عَصَاهُ فِيهِ، وَلَهُ مِنَ الذُّلِّ بِحَسَبِ مَعْصِيَتِهِ.

الثَّامِنُ: أَنَّهُ يَسُدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مَدْخَلَهُ إِلَى الْقَلْبِ، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ مَعَ النَّظْرَةِ، وَيَنْفُذُ مَعَهَا إِلَى الْقَلْبِ أَسْرَعَ مِنْ نُفُوذِ الْهَوَاءِ فِي الْمَكَانِ الْخَالِي، فَيُمَثِّلُ لَهُ حُسْنَ صُورَةِ الْمَنْظُورِ إِلَيْهِ وَيُزَيِّنُهَا، وَيَجْعَلُهَا صَنَمًا يَعْكُفُ عَلَيْهِ الْقَلْبُ، ثُمَّ يَعِدُهُ وَيُمَنِّيهِ، وَيُوقِدُ عَلَى الْقَلْبِ نَارَ الشَّهْوَةِ، وَيُلْقِي عَلَيْهَا حَطَبَ الْمَعَاصِي الَّتِي لَمْ يَكُنْ يَتَوَصَّلُ إِلَيْهَا بِدُونِ تِلْكَ الصُّورَةِ، فَيَصِيرُ الْقَلْبُ فِي اللَّهَبِ.

فَمِنْ ذَلِكَ اللَّهِيبِ: تِلْكَ الْأَنْفَاسُ الَّتِي يَجِدُ فِيهَا وَهَجَ النَّارِ، وَتِلْكَ الزَّفَرَاتُ وَالْحُرَقَاتُ، فَإِنَّ الْقَلْبَ قَدْ أَحَاطَتْ بِهِ النِّيرَانُ بِكُلِّ جَانِبٍ، فَهُوَ فِي وَسَطِهَا كَالشَّاةِ فِي وَسَطِ التَّنُّورِ.

وَلِهَذَا كَانَتْ عُقُوبَةُ أَصْحَابِ الشَّهَوَاتِ لِلصُّوَرِ الْمُحَرَّمَةِ أَنْ جُعِلَ لَهُمْ فِي الْبَرْزَخِ تَنُّورٌ مِنَ النَّارِ، وَأُودِعَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِيهِ إِلَى يَوْمِ حَشْرِ أَجْسَادِهِمْ، كَمَا أَرَاهَا اللَّهُ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَنَامِ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ(١).

التَّاسِعَةُ: أَنَّهُ يُفَرِّغُ الْقَلْبَ لِلْفِكْرَةِ فِي مَصَالِحِهِ وَالِاشْتِغَالِ بِهَا، وَإِطْلَاقُ الْبَصَرِ يُنْسِيهِ ذَلِكَ وَيَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، فَيَنْفَرِطُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَيَقَعُ فِي اتِّبَاعِ هَوَاهُ وَفِي الْغَفْلَةِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]. وَإِطْلَاقُ النَّظَرِ يُوجِبُ هَذِهِ الْأُمُورَ

=

وأحمد (١/ ١٩٩) من حديث الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(١) تقدم تخريجه (ص٢٤٧).

الثَّلَاثَةَ بِحَسَبِهِ.

الْعَاشِرَةُ: أَنَّ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالْقَلْبِ مَنْفَذًا وَطَرِيقًا يُوجِبُ انْتِقَالَ أَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ، وَأَنْ يَصْلُحَ بِصَلَاحِهِ وَيَفْسُدَ بِفَسَادِهِ. فَإِذَا فَسَدَ الْقَلْبُ فَسَدَ النَّظَرُ، وَإِذَا فَسَدَ النَّظَرُ فَسَدَ الْقَلْبُ. وَكَذَلِكَ فِي جَانِبِ الصَّلَاحِ، فَإِذَا خَرِبَتِ الْعَيْنُ وَفَسَدَتْ خَرِبَ الْقَلْبُ وَفَسَدَ، وَصَارَ كَالْمَزْبَلَةِ الَّتِي هِيَ مَحَلُّ النَّجَاسَاتِ وَالْقَاذُورَاتِ وَالْأَوْسَاخِ، فَلَا يَصْلُحُ لِسُكْنَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَمَحَبَّتِهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَالْأُنْسِ بِهِ وَالسُّرُورِ بِقُرْبِهِ فِيهِ، وَإِنَّمَا يَسْكُنُ فِيهِ أَضْدَادُ ذَلِكَ.

فَهَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى بَعْضِ فَوَائِدِ غَضِّ الْبَصَرِ نُطْلِعُكَ عَلَى مَا وَرَاءَهَا.

الشرح:

هذه كلها فوائد غض البصر، ولذلك أمر الله به وقال: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]. فغض البصر فيه كل هذه المصالح وأعظم منها، لكن ما وقع الناس في الفواحش وفي الشرور إلا بسبب إرسال البصر، ومتابعة الصور، سواء كانت صورًا حيَّة أو صور منقولة، ففيها البلاء وفيها الفتنة.

وبعض الناس الآن قد لا ينظر إلى النساء ولا يحضر مواضع الفتنة، لكنه يتساهل في النظر إلى الصور المحرمة، وهذا يقوم مقام النظر إلى النساء، بل ربما يكون أشد خطرًا؛ لأن الذي ينظر إلى المرأة يخجل ولا يُواصل خصوصًا إذا كان بين الناس، بخلاف الذي ينظر إلى الصور وهو في منأى عن الناس، فيتساهل في هذا ويرى أنه لا بأس به، فتأتيه الفتنة من حيث لا يدري.

فلا يُتساهل بالنظر إلى الصور، والتي أصبحت الآن مطية للشيطان، بل

إن شياطين الإنس والجن يجتهدون في إضلال الناس بها، فينشرونها في مختلف الوسائل، وما خسروا أموالهم وتعبوا في نشرها إلا لهذا الغرض، وما فعلوا ذلك من باب العبث، بل هم يهتمون بها وينشرونها ويحرصون عليها؛ لأنهم وجدوا في نشرها بُغيتهم من إفساد الناس، وإفساد القلوب، ونشر الفواحش.

فيجب الحذر من الصور المعروضة، كصور النساء وغيرها من الصور الفاتنة؛ يحذر الإنسان من التساهل فيها والنظر إليها فإنها بلية.

وكثيرٌ من الناس قد لا يخرج إلى الأسواق يناظر النساء لأنه عنده حياء، لكن في بيته وفي مجلسه يناظر الصور، ويتمتع بها، وهذا أشد أو على الأقل مساويًا، فعلى المسلم أن يتجنب هذه الأمور ويغض بصره.

فَصْلٌ

الثَّانِي: اشْتِغَالُ الْقَلْبِ بِمَا يَصُدُّهُ عَنْ ذَلِكَ، وَيَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوُقُوعِ فِيهِ، وَهُوَ إِمَّا خَوْفٌ مُقْلِقٌ أَوْ حُبٌّ مُزْعِجٌ، فَمَتَى خَلَا الْقَلْبُ مِنْ خَوْفِ مَا فَوَاتُهُ أَضَرُّ عَلَيْهِ مِنْ حُصُولِ هَذَا الْمَحْبُوبِ، أَوْ خَوْفِ مَا حُصُولُهُ أَضَرُّ عَلَيْهِ مِنْ فَوَاتِ هَذَا الْمَحْبُوبِ، أَوْ مَحَبَّتِهِ مَا هُوَ أَنْفَعُ لَهُ وَخَيْرٌ لَهُ مِنْ هَذَا الْمَحْبُوبِ، وَفَوَاتُهُ أَضَرُّ عَلَيْهِ مِنْ فَوَاتِ هَذَا الْمَحْبُوبِ، لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ عِشْقِ الصُّوَرِ.

وَشَرْحُ هَذَا: أَنَّ النَّفْسَ لَا تَتْرُكُ مَحْبُوبًا إِلَّا لِمَحْبُوبٍ أَعْلَى مِنْهُ، أَوْ خَشْيَةَ مَكْرُوهٍ حُصُولُهُ أَضَرُّ عَلَيْهِ مِنْ فَوَاتِ هَذَا الْمَحْبُوبِ، وَهَذَا يَحْتَاجُ صَاحِبُهُ إِلَى أَمْرَيْنِ إِنْ فَقَدَهُمَا أَوْ أَحَدَهُمَا لَمْ يَنْتَفِعْ بِنَفْسِهِ.

أَحَدُهُمَا: بَصِيرَةٌ صَحِيحَةٌ يُفَرِّقُ بِهَا بَيْنَ دَرَجَاتِ الْمَحْبُوبِ وَالْمَكْرُوهِ، فَيُؤْثِرُ أَعْلَى الْمَحْبُوبَيْنِ عَلَى أَدْنَاهُمَا، وَيَحْتَمِلُ أَدْنَى الْمَكْرُوهَيْنِ لِيَتَخَلَّصَ مِنْ أَعْلَاهُمَا، وَهَذَا خَاصَّةُ الْعَقْلِ، وَلَا يُعَدُّ عَاقِلًا مَنْ كَانَ بِضِدِّ ذَلِكَ، بَلْ قَدْ تَكُونُ الْبَهَائِمُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُ.

الثَّانِي: قُوَّةُ عَزْمٍ وَصَبْرٍ يَتَمَكَّنُ بِهِ مِنْ هَذَا الْفِعْلِ وَالتَّرْكِ، فَكَثِيرًا مَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ قَدْرَ التَّفَاوُتِ، وَلَكِنْ يَأْبَى لَهُ ضَعْفُ نَفْسِهِ وَهِمَّتِهِ وَعَزِيمَتِهِ عَلَى أَشْيَاءَ لَا تَنْفَعُ مِنْ خِسَّتِهِ وَحِرْصِهِ وَوَضَاعَةِ نَفْسِهِ وَخِسَّةِ هِمَّتِهِ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يَنْتَفِعُ بِنَفْسِهِ، وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ غَيْرُهُ.

وَقَدْ مَنَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِمَامَةَ الدِّينِ إِلَّا مِنْ أَهْلِ الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ، فَقَالَ تَعَالَى -وَبِقَوْلِهِ يَهْتَدِي الْمُهْتَدُونَ-: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِعِلْمِهِ، وَيَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ، وَضِدُّهُ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ غَيْرُهُ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَنْتَفِعُ بِعِلْمِهِ فِي نَفْسِهِ وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ غَيْرُهُ، فَالْأَوَّلُ يَمْشِي فِي نُورِهِ وَيَمْشِي النَّاسُ فِي نُورِهِ، وَالثَّانِي قَدْ طُفِئَ نُورُهُ، فَهُوَ يَمْشِي فِي الظُّلُمَاتِ وَمَنْ تَبِعَهُ فِي ظُلْمَتِهِ، وَالثَّالِثُ يَمْشِي فِي نُورِهِ وَحْدَهُ.

الشرح:

لـمَّا ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مرض الشهوة الذي يكون في قلب الإنسان ويترتب عليه النظر إلى ما حرم الله من النساء وغيرها مما يدعو إلى الفتنة، ذكر أن علاجه من شيئين:

الأول: غض البصر، ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١]. ثم أمرهن بالحجاب؛ لأن الحجاب أيضًا وقاية من هذه الآفة، فإذا تحجبت المرأة لم يبد منها شيءٌ يفتن الناس، وإذا لم تتحجب أظهرت فتنتها وزينتها، سواء كانت زينة بدنية، أو زينة الحُلي، أو زينة اللباس، وهي مأمورةٌ بتجنب هذه الأشياء:

- أن تتحجب، فتُرخي الحجاب على بدنها بحيث لا يظهر منه شيءٌ يفتن الناس، فالمحجَّبة لا يُدرى عنها ولا تُعرف هل هي جميلة أو دميمة.

- وأن تستر الحلي الذي عليها.

- وأن يكون اللباس الذي تلبسه ليس فيه جمال ولا زينة تؤدي إلى الفتنة، وإنما يكون ثوبًا ساترًا ليس فيه تطريز وليس فيه شيء من التجميل.

فبهذه الطريقة تسلم المرأة ويسلم منها الناس.

ولذلك يحرص الشيطان وجنوده من بني آدم على الدعوة إلى السفور، فتجدهم يهاجمون الحجاب ويسخرون منه؛ لأن الشيطان -لعنه الله- يعلم ما لكشف الحجاب من الفتن والشرور، وقد حاول مع آدم وزوجه من قبل حينما أمرهما بالأكل من الشجرة لكي تظهر لهما عوراتهما، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف:٢٠]، ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٢٢].

ثم أمر المشركين في أن يطوفوا بالبيت عراةً، ويقول لهم: اخلعوا هذه الثياب التي عصيتم الله فيها، من شدة الورع بزعمه، وهو يقصد الفتنة، فكانوا يطوفون بالبيت عراةً ويعتبرون هذا من الطاعة لله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، يظنون أن هذا من الطاعة لله عز وجل.

فلهذا لما فتح الله على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة، وفرض الله الحج، تأخر في أول سنة؛ لأجل منع هذه الجريمة، وأرسل من ينادي: «أَنْ لاَ يَحُجَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ وَلاَ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ»(١)، وذلك لقوله تعالى: ﴿ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة:٢٨]، فمنع المشركين والعراة من الطواف بالبيت.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩)، ومسلم (١٣٤٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

واستقر هذا -ولله الحمد- فمُنع الشرك ومُنع التعري حول البيت، وإن كان الآن فيه من النساء الفاتنات من تحاول أن تُظهر زينتها عند البيت، لكن هذا شيءٌ يحدث خُفية، ومسؤوليته على من تبناه وفعله، لكن هو من جهة العموم ممنوع. كذلك الشرك ممنوع من جهة العموم، وكون بعض الناس يصدر منه شرك، أو دعوة لغير الله، فهذه أمورٌ فردية، ولكن مظهر الشرك، ومظهر الوثنية، ومظهر الأصنام، طهَّر الله البيت منه ولله الحمد، فلا يوجد منها شيء إلا فلتات من بعض الناس وتُعالج والحمد لله.

الشاهد: أن غض البصر أول طرق علاج هذه الشهوة. وقد ذكر الله فوائد غض البصر فقال: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾، فإذا غض الإنسان بصره فهو أزكى له، يعني: أطهر له ولقلبه ولسلوكه وأخلاقه، فغض البصر يتزكى فيه الإنسان في قلبه، وفي نفسه، وفي أعماله وأخلاقه، ولا يدب إليه شهوة.

وكذلك إذا غض بصره ألقى الله في قلبه نور الإيمان، وأما إذا لم يغض بصره فإن قلبه يعمى بمرض الشهوة وظلمات الشهوة، فلا يكون فيه نور.

وذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لغض البصر فوائد وصلت إلى عشر فوائد، لكن أهمها: زكاة النفس، والنور الذي يجعله الله في قلب المؤمن الذي يغض بصره.

وقوله: **(الطَّرِيقُ الثَّانِي الْمَانِعُ مِنْ حُصُولِ تَعَلُّقِ الْقَلْبِ: اشْتِغَالُ الْقَلْبِ بِمَا يَصُدُّهُ عَنْ ذَلِكَ)**، أي: الطريق الثاني من العلاج: خوف الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا خاف المؤمن من الله ملك بصره، وملك سمعه، وملك جوارحه، وتبدلت محبته للشهوات إلى محبة الله عَزَّوَجَلَّ وما عنده، فإذا رُزق الخوف من الله والمحبة لما عند الله فإنه يسلم من هذه الآفة، وإذا لم يكن لمحبة الله في قلبه مكانة؛ أحب

الصور الفاتنة والنظر إلى ما حرَّم الله.

وقوله: **(وَهَذَا يَحْتَاجُ صَاحِبُهُ إِلَى أَمْرَيْنِ إِنْ فَقَدَهُمَا أَوْ أَحَدَهُمَا لَمْ يَنْتَفِعْ بِنَفْسِهِ، أَحَدُهُمَا: بَصِيرَةٌ صَحِيحَةٌ)** أي: يكون عند الإنسان بصيرة في قلبه يُقارن بها بين المضار والمفاسد، فيقارن بين لذة الشهوة العاجلة وعقوبتها الآجلة، وهذا يحتاج إلى بصيرة؛ لأن بعض الناس ينظر إلى اللذة العاجلة وينسى العقوبة فيقع في المحظورات، ومن وفقه الله نظر إلى العواقب فترك الشهوة العاجلة خوفًا من العقوبة، وهذه بصيرة يعطيها الله من يشاء من عباده.

وقوله: **(الثَّانِي: قُوَّةُ عَزْمٍ وَصَبْرٍ يَتَمَكَّنُ بِهِ مِنْ هَذَا الْفِعْلِ وَالتَّرْكِ)**، كذلك يحتاج المؤمن مع البصيرة أن يُعطيه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قوة عزم وصبر يجعله يترك هذه الأشياء؛ لأن تركها يحتاج إلى عزم وصبر، والذي ليس عنده عزم ولا صبر لا يتمكن من تركها ولو كان عنده خوف وبصيرة، فلابد أنه يكون عنده عزيمة على ترك هذا الشيء، وصبر على دفع مألوفاته وشهواته.

وكثيرٌ من الناس يكون عنده معرفة بالأشياء، وأن هذا ضار وهذا نافع، ولكن ليس عنده عزيمة على ترك الضار، فهو يعرف أن الزنا قبيح، وأن له آثارًا سيئة، ولكنه لا يقدر على تركه؛ لأنه ليس عنده عزيمة ولا صبر، ويعرف مثلًا أن شرب الدخان ضار، وأنه قبيح ومنتن، وأنه لا خير فيه، لكنه لا يقدر على تركه، لضعف عزيمته. فلا يكفي أن يعلم الضار من النافع، بل لابد أن يكون مع المعرفة عزم على ترك ما يضره، والصبر عنها، وما هي إلا مدة يسيرة حتى ينساها ويُبغضها، والذي ليس عنده عزيمة لا ينتفع بنفسه ولا ينتفع به غيره.

والله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا

وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤]. بالصبر واليقين بما عند الله عَزَّوَجَلَّ من الثواب والعقاب ينال الإنسان الإمامة، وليس معنى الإمامة هنا أنه يكون واليًا على أمور المسلمين، وإنما معناها أنه يكون قدوة حسنة؛ لأن الإمامة لها معان، منها: القدوة ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يعني: قدوة، ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤] يعني: قدوة حسنة. ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين»(١).

فمن الناس من يمشي في نور ويمشي الناس على نوره، وهو العالم الذي يعمل بعلمه، هذا يكون نفعه لنفسه ومتعديًا ولغيره، مثل القمر والشمس بعد الإضاءة في أنفسهما يضيئان الكون.

ومنهم من ليس فيه إلا ظلمة، ليس فيه نور لا لنفسه ولا لغيره، فهو مُظلم دائمًا والعياذ بالله.

ومنهم من فيه ضياءٌ لنفسه، لكن نوره ضعيف، مثل الكوكب نوره قاصر عليه، ولهذا شبّه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العلماء بالقمر فقال: «**فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ، كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ**»(٢)، وهذا فرق واضح، فالعالم يعمل بعلمه فينتفع وينفع الناس، أما العابد فنفعه لنفسه فقط ولا ينتفع به أحد، ولكنه أحسن حالًا من المُظلم الذي ليس فيه نور.

---

(١) يُنظر: مجموع الفتاوى (٣/٣٥٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد (٥/١٩٦)، وابن حبان (١/٢٨٩) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فَصْلٌ

إِذَا عَرَفْتَ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةَ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَجْتَمِعَ فِي الْقَلْبِ حُبُّ الْمَحْبُوبِ الْأَعْلَى وَعِشْقُ الصُّوَرِ أَبَدًا، بَلْ هُمَا ضِدَّانِ لَا يَتَلَاقَيَانِ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُخْرِجَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ، فَمَنْ كَانَتْ قُوَّةُ حُبِّهِ كُلُّهَا لِلْمَحْبُوبِ الْأَعْلَى الَّذِي مَحَبَّةُ مَا سِوَاهُ بَاطِلَةٌ وَعَذَابٌ عَلَى صَاحِبِهَا صَرَفَهُ ذَلِكَ عَنْ مَحَبَّةِ مَا سِوَاهُ، وَإِنْ أَحَبَّهُ لَمْ يُحِبَّهُ إِلَّا لِأَجْلِهِ، أَوْ لِكَوْنِهِ وَسِيلَةً إِلَى مَحَبَّتِهِ، أَوْ قَاطِعًا لَهُ عَمَّا يُضَادُّ مَحَبَّتَهُ وَيُنْقِصُهَا.

وَالْمَحَبَّةُ الصَّادِقَةُ تَقْتَضِي تَوْحِيدَ الْمَحْبُوبِ، وَأَنْ لَا يُشْرِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فِي مَحَبَّتِهِ، وَإِذَا كَانَ الْمَحْبُوبُ مِنَ الْخَلْقِ يَأْنَفُ وَيَغَارُ أَنْ يُشْرِكَ مُحِبُّهُ غَيْرَهُ فِي مَحَبَّتِهِ، وَيَمْقُتُهُ لِذَلِكَ، وَيُبْعِدُهُ وَلَا يُحْظِيهِ بِقُرْبِهِ، وَيَعُدُّهُ كَاذِبًا فِي دَعْوَى مَحَبَّتِهِ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ أَهْلًا لِصَرْفِ كُلِّ قُوَّةِ الْمَحَبَّةِ إِلَيْهِ، فَكَيْفَ بِالْحَبِيبِ الْأَعْلَى الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْمَحَبَّةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ، وَكُلُّ مَحَبَّةٍ لِغَيْرِهِ فَهِيَ عَذَابٌ عَلَى صَاحِبِهَا وَوَبَالٌ؟ وَلِهَذَا لَا يَغْفِرُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ فِي هَذِهِ الْمَحَبَّةِ، وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ.

فَمَحَبَّةُ الصُّوَرِ تُفَوِّتُ مَحَبَّةَ مَا هُوَ أَنْفَعُ لِلْعَبْدِ، بَلْ تُفَوِّتُ مَحَبَّةَ مَا لَيْسَ لَهُ صَلَاحٌ وَلَا نَعِيمٌ وَلَا حَيَاةٌ نَافِعَةٌ إِلَّا بِمَحَبَّتِهِ وَحْدَهُ، فَلْيَخْتَرْ إِحْدَى الْمَحَبَّتَيْنِ، فَإِنَّهُمَا لَا يَجْتَمِعَانِ فِي الْقَلْبِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ مِنْهُ، بَلْ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَذِكْرِهِ وَالشَّوْقِ إِلَى لِقَائِهِ ابْتَلَاهُ بِمَحَبَّةِ غَيْرِهِ، فَيُعَذِّبُهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَفِي الْبَرْزَخِ وَفِي الْآخِرَةِ. فَإِمَّا أَنْ يُعَذِّبَهُ بِمَحَبَّةِ الْأَوْثَانِ، أَوْ بِمَحَبَّةِ الصُّلْبَانِ، أَوْ بِمَحَبَّةِ الْمُرْدَانِ، أَوْ بِمَحَبَّةِ النِّسْوَانِ، أَوْ بِمَحَبَّةِ الْعُشَرَاءِ وَالْخِلَّانِ، أَوْ بِمَحَبَّةِ مَا دُونَ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ فِي

غَايَةِ الْحَقَارَةِ وَالْهَوَانِ، فَالْإِنْسَانُ عَبْدُ مَحْبُوبِهِ كَائِنًا مَنْ كَانَ، كَمَا قِيلَ:

أَنْتَ الْقَتِيلُ بِكُلِّ مَنْ أَحْبَبْتَهُ ... فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ فِي الْهَوَى مَنْ تَصْطَفِي(١)

فَمَنْ لَمْ يَكُنْ إِلَهُهُ مَالِكَهُ وَمَوْلَاهُ، كَانَ إِلَهُهُ هَوَاهُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:٢٣].

الشرح:

لا يمكن يجتمع حب الله جَلَّ وَعَلَا وحب الصور والفتن والشهوات، لا يجتمعان أبدًا لأنهما ضدان، فإما أن تحب الله وتكره هذه الأشياء، وإما أن تحب هذه الأشياء ولا تحب الله عَزَّوَجَلَّ.

والله تعالى يقول: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]؛ لأن محبة المؤمنين لله خالصة، ومحبة المشركين لله مشتركة، فهم يحبون الله ويحبون الأصنام فبطلت محبتهم لله، أما المؤمنون فيحبون الله حبًّا خالصًا، ولهذا يبغضون الأصنام ويبغضون الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ. وأعلى درجات الدين الحب في الله والبغض في الله؛ محبة الله أولًا، ثم محبة رسوله، ثم محبة أولياء الله وبغض أعدائه.

ولهذا عاتب الله المؤمنين الذين لم يهاجروا ولم يقاتلوا في سبيل الله، فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ

---

(١) البيت لابن الفارض، يُنظر: ديوانه (ص١٥٢).

إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤]، فمن قدَّم محبوباته على محبة الله فهو متوعد بهذا الوعيد، أما الذي يقدِّم محبة الله على محبوبات نفسه فهذا هو السعيد، لكن هذا يحتاج إلى إيمان وصبر ويقين.

ومن أحب الله عَزَّوَجَلَّ فإنه يحب ما يحبه الله، ويُبغض ما يبغضه الله، ومن أحب غير الله ابتلاه الله جَلَّوَعَلَا بحب أشياء لا تنفعه بل تضره؛ فيحب النظر إلى النساء، ويحب النظر إلى ما حرم الله، بل قد يحب عبادة الأصنام، فإن المشركين يحبون الأصنام ولهذا يستميتون دونها ويقاتلون ويُقتلون لأجلها، ولو كانوا لا يحبونها ما قاتلوا دونها ولا بذلوا أنفسهم وأموالهم لأجلها. لـمَّا تركوا محبة الله ابتلاهم الله بمحبة الأشجار والأحجار والقبور والأضرحة وغير ذلك، فضاعوا في محبتها وهلكوا عقوبةً لهم.

فهذا الفرق بين المحبتين: محبة الله، ومحبة غير الله.

نعم الإنسان يحب أولاده ويحب ماله ويحب بلده، لكن هذه محبة طبيعية وليست محبة عبادة، فإن قدَّمها على محبة الله صارت مذمومة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ...﴾ إلى آخر الآية، أما من قدَّم محبة الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ على محبة هذه الأشياء فهذا دليل على صدقه مع الله؛ ولهذا ترك الصحابة أوطانهم وأولادهم وهاجروا مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، تركوا محبوباتهم، وآثروا محبة الله ورسوله، فهاجروا وجاهدوا في سبيل الله، وبذلوا أنفسهم وأموالهم، وهذه هي المحبة الصادقة.

فَصْلٌ

وَخَاصِّيَّةُ التَّعَبُّدِ: الْحُبُّ مَعَ الْخُضُوعِ، وَالذُّلِّ لِلْمَحْبُوبِ، فَمَنْ أَحَبَّ مَحْبُوبًا وَخَضَعَ لَهُ فَقَدْ تَعَبَّدَ قَلْبُهُ لَهُ، بَلِ التَّعَبُّدُ آخِرُ مَرَاتِبِ الْحُبِّ، وَيُقَالُ لَهُ: التَّتَيُّمُ أَيْضًا، فَإِنَّ أَوَّلَ مَرَاتِبِهِ الْعَلَاقَةُ، وَسُمِّيَتْ عَلَاقَةً لِتَعَلُّقِ الْمُحِبِّ بِالْمَحْبُوبِ.

قَالَ(١):

وَعُلِّقْتُ لَيْلَى وَهْيَ ذَاتُ تَمَائِمِ ... وَلَمْ يَبْدُ لِلْأَتْرَابِ مِنْ ثَدْيِهَا حَجْمُ

وَقَالَ الْآخَرُ(٢):

أَعَلَاقَةٌ أُمَّ الْوَلِيدِ بَعْدَ مَا ... أَفْنَانُ رَأْسِكَ كَالثَّغَامِ الْمُخْلِسِ

ثُمَّ بَعْدَهَا الصَّبَابَةُ، وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِانْصِبَابِ الْقَلْبِ إِلَى الْمَحْبُوبِ.

قَالَ(٣):

تَشَكَّى الْمُحِبُّونَ الصَّبَابَةَ لَيْتَنِي ... تَحَمَّلْتُ مَا يَلْقَوْنَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحْدِي

فَكَانَتْ لِقَلْبِي لَذَّةُ الْحُبِّ كُلُّهَا ... فَلَمْ يَلْقَهَا قَبْلِي مُحِبٌّ وَلَا بَعْدِي

ثُمَّ الْغَرَامُ، وَهُوَ لُزُومُ الْحُبِّ لِلْقَلْبِ لُزُومًا لَا يَنْفَكُّ عَنْهُ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الْغَرِيمُ غَرِيمًا؛ لِمُلَازَمَتِهِ صَاحِبَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥]. وَقَدْ أُولِعَ الْمُتَأَخِّرُونَ بِاسْتِعْمَالِ هَذَا اللَّفْظِ فِي الْحُبِّ، وَقَلَّ أَنْ تَجِدَهُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ.

---

(١) البيت لمجنون ليلى، يُنظر: ديوانه (ص١٨٦)، وفيه: «تَعَلَّقْتُ لَيْلَى وَهْيَ غِرٌّ صَغِيرَةٌ».

(٢) البيت للمرار الأسدي، ذكره سيبويه في كتابه (١/ ١١٦)، وابن السكيت في إصلاح المنطق (ص٤٥).

(٣) البيتان لمجنون ليلى، يُنظر ديوانه (ص٩٢).

ثُمَّ الْعِشْقُ، وَهُوَ إِفْرَاطُ الْمَحَبَّةِ، وَلِهَذَا لَا يُوصَفُ بِهِ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَا يُطْلَقُ فِي حَقِّهِ.

ثُمَّ الشَّوْقُ، وَهُوَ سَفَرُ الْقَلْبِ إِلَى الْمَحْبُوبِ أَحَثَّ السَّفَرِ، وَقَدْ جَاءَ إِطْلَاقُهُ فِي حَقِّ الرَّبِّ تَعَالَى، كَمَا فِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ: أَنَّهُ صَلَّى صَلَاةً فَأَوْجَزَ فِيهَا، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: أَمَا إِنِّي دَعَوْتُ فِيهَا بِدَعْوَاتٍ كَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَدْعُو بِهِنَّ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي إِذَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَأَسْأَلُكَ الشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ»(١).

وَفِي أَثَرٍ آخَرَ: «طَالَ شَوْقُ الْأَبْرَارِ إِلَى لِقَائِي، وَأَنَا إِلَى لِقَائِهِمْ أَشَدُّ شَوْقًا»(٢).

وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ»(٣).

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْبَصَائِرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٤)، والنسائي (١٣٠٦).

(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٥/ ٢٤٠) عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ﴾ [العنكبوت:٥]: لَمَّا عَلِمَ سُبْحَانَهُ شِدَّةَ شَوْقِ أَوْلِيَائِهِ إِلَى لِقَائِهِ، وَأَنَّ قُلُوبَهُمْ لَا تَهْتَدِي دُونَ لِقَائِهِ، ضَرَبَ لَهُمْ أَجَلاً وَمَوْعِدًا لِلِقَائِهِ، وَتَسْكُنُ نُفُوسُهُمْ بِهِ.

وَأَطْيَبُ الْعَيْشِ وَأَلَذُّهُ عَلَى الْإِطْلَاقِ عَيْشُ الْمُحِبِّينَ الْمُشْتَاقِينَ الْمُسْتَأْنِسِينَ، فَحَيَاتُهُمْ هِيَ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ الْحَقِيقِيَّةُ، وَلَا حَيَاةَ لِلْقَلْبِ أَطْيَبَ وَلَا أَنْعَمَ وَلَا أَهْنَأَ مِنْهَا، وَهِيَ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧]. لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهَا الْحَيَاةَ الْمُشْتَرَكَةَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكُفَّارِ، وَالْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ، وَمِنْ طِيبِ الْمَأْكَلِ وَالْمَلْبَسِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمَنْكَحِ، بَلْ رُبَّمَا زَادَ أَعْدَاءُ اللَّهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ فِي ذَلِكَ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً.

وَقَدْ ضَمِنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا أَنْ يُحْيِيَهُ حَيَاةً طَيِّبَةً، فَهُوَ صَادِقُ الْوَعْدِ الَّذِي لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ، وَأَيُّ حَيَاةٍ أَطْيَبُ مِنْ حَيَاةِ مَنِ اجْتَمَعَتْ هُمُومُهُ كُلُّهَا وَصَارَتْ هَمًّا وَاحِدًا فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ؟ وَلَمْ يَتَشَعَّبْ قَلْبُهُ، بَلْ أَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ، وَاجْتَمَعَتْ إِرَادَتُهُ وَأَفْكَارُهُ الَّتِي كَانَتْ مُتَقَسِّمَةً بِكُلِّ وَادٍ مِنْهَا شُعْبَةٌ عَلَى اللَّهِ، فَصَارَ ذِكْرُهُ بِمَحْبُوبِهِ الْأَعْلَى وَحُبُّهُ، وَالشَّوْقُ إِلَى لِقَائِهِ، وَالْأُنْسُ بِقُرْبِهِ؛ هُوَ الْمُسْتَوْلِي عَلَيْهِ، وَعَلَيْهِ تَدُورُ هُمُومُهُ وَإِرَادَتُهُ وَقُصُودُهُ بِكُلِّ خَطَرَاتِ قَلْبِهِ، فَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ بِاللَّهِ، وَإِنْ نَطَقَ نَطَقَ بِاللَّهِ، وَإِنْ سَمِعَ فَبِهِ يَسْمَعُ، وَإِنْ أَبْصَرَ فَبِهِ يُبْصِرُ، وَبِهِ يَبْطِشُ، وَبِهِ يَمْشِي، وَبِهِ يَسْكُنُ، وَبِهِ يَحْيَا، وَبِهِ يَمُوتُ، وَبِهِ يُبْعَثُ، كَمَا فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ

بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَمْشِي، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ كَتَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِيَ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ»(١).

فَتَضَمَّنَ هَذَا الْحَدِيثُ الشَّرِيفُ الْإِلَهِيُّ -الَّذِي حَرَامٌ عَلَى غَلِيظِ الطَّبْعِ كَثِيفِ الْقَلْبِ فَهْمُ مَعْنَاهُ وَالْمُرَادُ بِهِ- حَصْرَ أَسْبَابِ مَحَبَّتِهِ فِي أَمْرَيْنِ: أَدَاءِ فَرَائِضِهِ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِالنَّوَافِلِ.

وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ أَدَاءَ فَرَائِضِهِ أَحَبُّ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْهِ الْمُتَقَرِّبُونَ، ثُمَّ بَعْدَهَا النَّوَافِلُ، وَأَنَّ الْمُحِبَّ لَا يَزَالُ يُكْثِرُ مِنَ النَّوَافِلِ حَتَّى يَصِيرَ مَحْبُوبًا لِلَّهِ، فَإِذَا صَارَ مَحْبُوبًا لِلَّهِ أَوْجَبَتْ مَحَبَّتُهُ لِلَّهِ لَهُ مَحَبَّةً أُخْرَى مِنْهُ فَوْقَ الْمَحَبَّةِ الْأُولَى، فَشَغَلَتْ هَذِهِ الْمَحَبَّةُ قَلْبَهُ عَنِ الْفِكْرَةِ وَالِاهْتِمَامِ بِغَيْرِ مَحْبُوبِهِ، وَمَلَكَتْ عَلَيْهِ رُوحَهُ، وَلَمْ يَبْقَ فِيهِ سِعَةٌ لِغَيْرِ مَحْبُوبِهِ أَلْبَتَّةَ، فَصَارَ ذِكْرُ مَحْبُوبِهِ وَحُبُّهُ وَمَثَلُهُ الْأَعْلَى مَالِكًا لِزِمَامِ قَلْبِهِ، مُسْتَوْلِيًا عَلَى رُوحِهِ اسْتِيلَاءَ الْمَحْبُوبِ عَلَى مَحَبَّةِ الصَّادِقِ فِي مَحَبَّتِهِ، الَّتِي قَدِ اجْتَمَعَتْ قُوَى حُبِّهِ كُلُّهَا لَهُ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا الْمُحِبَّ إِنْ سَمِعَ سَمِعَ بِمَحْبُوبِهِ، وَإِنْ أَبْصَرَ أَبْصَرَ بِهِ، وَإِنْ بَطَشَ بَطَشَ بِهِ، وَإِنْ مَشَى مَشَى بِهِ، فَهُوَ فِي قَلْبِهِ وَمَعَهُ وَأَنِيسُهُ وَصَاحِبُهُ، فَالْبَاءُ هَاهُنَا لِلْمُصَاحَبَةِ، وَهِيَ مُصَاحَبَةٌ لَا نَظِيرَ لَهَا، وَلَا تُدْرَكُ بِمُجَرَّدِ الْإِخْبَارِ عَنْهَا وَالْعِلْمِ بِهَا، فَالْمَسْأَلَةُ حَالِيَّةٌ لَا عِلْمِيَّةٌ مَحْضَةٌ.

وَإِذَا كَانَ الْمَخْلُوقُ يَجِدُ هَذَا فِي مَحَبَّةِ الْمَخْلُوقِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ لَهَا وَلَمْ يُفْطَرْ

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْمُحِبِّينَ(١):

خَيَالُكَ فِي عَيْنِي وَذِكْرُكَ فِي فَمِي ... وَمَثْوَاكَ فِي قَلْبِي فَأَيْنَ تَغِيبُ

وَقَالَ الْآخَرُ(٢):

وَمِنْ عَجَبٍ أَنِّي أَحِنُّ إِلَيْهِمُ ... فَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ لَقِيتُ وَهُمْ مَعِي
وَتَطْلُبُهُمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا ... وَيَشْتَاقُهُمْ قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْلُعِي

وَهَذَا أَلْطَفُ مِنْ قَوْلِ الْآخَرِ:

إِنْ قُلْتُ غِبْتِ فَقَلْبِي لَا يُصَدِّقُنِي ... إِذْ أَنْتَ فِيهِ مَكَانَ السِّرِّ لَمْ تَغِبِ
أَوْ قُلْتُ مَا غِبْتِ قَالَ الطَّرْفُ ذَا كَذِبٌ ... فَقَدْ تَحَيَّرْتُ بَيْنَ الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ

فَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْنَى إِلَى الْمُحِبِّ مِنْ مَحْبُوبِهِ، وَرُبَّمَا تَمَكَّنَتْ مِنْهُ الْمَحَبَّةُ حَتَّى يَصِيرَ أَدْنَى إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ، بِحَيْثُ يَنْسَى نَفْسَهُ وَلَا يَنْسَاهُ، كَمَا قَالَ(٣):

أُرِيدُ لِأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا ... تَمَثَّلُ لِي لَيْلَى بِكُلِّ سَبِيلِ

وَقَالَ آخَرُ(٤):

يُرَادُ مِنَ الْقَلْبِ نِسْيَانُكُمْ ... وَتَأْبَى الطِّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ

وَخَصَّ فِي الْحَدِيثِ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْيَدَ وَالرِّجْلَ بِالذِّكْرِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْآلَاتِ آلَاتُ الْإِدْرَاكِ وَآلَاتُ الْفِعْلِ، وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ يُورِدَانِ عَلَى الْقَلْبِ الْإِرَادَةَ وَالْكَرَاهَةَ، وَيَجْلِبَانِ إِلَيْهِ الْحُبَّ وَالْبُغْضَ، فَيَسْتَعْمِلُ الْيَدَ وَالرِّجْلَ، فَإِذَا كَانَ سَمْعُ الْعَبْدِ بِاللَّهِ، وَبَصَرُهُ بِاللَّهِ، كَانَ مَحْفُوظًا فِي آلَاتِ إِدْرَاكِهِ، وَكَانَ مَحْفُوظًا فِي حُبِّهِ

---

(١) البيت لأبي الحكم بن غلندو الإشبيلي، يُنظر: معجم الأدباء (٣/ ٢٤١).

(٢) البيتان للقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، يُنظر: ديوانه (ص٤٩٢).

(٣) البيت لكثير عزة، يُنظر: ديوانه (ص٥٢٣).

(٤) البيت للمتنبي، يُنظر: ديوانه (ص٢٦٩).

وَبُغْضِهِ، فَحُفِظَ فِي بَطْشِهِ وَمَشْيِهِ.

وَتَأَمَّلْ كَيْفَ اكْتَفَى بِذِكْرِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْيَدِ وَالرِّجْلِ عَنِ اللِّسَانِ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ إِدْرَاكُ السَّمْعِ الَّذِي يَحْصُلُ بِاخْتِيَارِهِ تَارَةً، وَبِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ تَارَةً، وَكَذَلِكَ الْبَصَرُ قَدْ يَقَعُ بِغَيْرِ الِاخْتِيَارِ فَجْأَةً، وَكَذَلِكَ حَرَكَةُ الْيَدِ وَالرِّجْلِ الَّتِي لَا بُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْهُمَا، فَكَيْفَ بِحَرَكَةِ اللِّسَانِ الَّتِي لَا تَقَعُ إِلَّا بِقَصْدٍ وَاخْتِيَارٍ؟ وَقَدْ يَسْتَغْنِي الْعَبْدُ عَنْهَا إِلَّا حَيْثُ أُمِرَ بِهَا.

وَأَيْضًا فَانْفِعَالُ اللِّسَانِ عَنِ الْقَلْبِ أَتَمُّ مِنَ انْفِعَالِ سَائِرِ الْجَوَارِحِ، فَإِنَّهُ تُرْجُمَانُهُ وَرَسُولُهُ.

وَتَأَمَّلْ كَيْفَ حَقَّقَ تَعَالَى كَوْنَ الْعَبْدِ بِهِ سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ وَبَطْشُهُ وَمَشْيُهُ بِقَوْلِهِ: «كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»؛ تَحْقِيقًا لِكَوْنِهِ مَعَ عَبْدِهِ، وَكَوْنِ عَبْدِهِ فِي إِدْرَاكَاتِهِ، بِسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَحَرَكَاتِهِ بِيَدَيْهِ وَرِجْلِهِ.

الشرح:

الأصل أن الإنسان إذا أحب شيئًا فإنه لا يُلام عليه، كأن يحب زوجته وأولاده، أو يحب المال؛ لأن هذه جبلة طبيعية جعلها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في القلوب والنفوس لمصلحة، لكن لا يذل لهذا الشيء الذي يحبه وينقاد له، ويؤثره على محبة الله؛ لأن الحب الذي معه ذل هذا نوع من العبادة، أما الحب الذي ليس معه ذُل للمحبوب فهذا ليس عبادة، فرقٌ بين هذا وهذ.

فمن أحب شيئًا ولم يذل له فإنه ليس عابدًا له، أما من أحبه وذلَّ له فهو

عابدٌ له، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ»**(١)، فسماهم عبادًا لهذه الأشياء؛ لأنهم أحبوها وآثروها على محبة الله عَزَّوَجَلَّ.

والمحبة لها عشرة أنواع: أعلاها: الخُلة، بأن يكون المحب لا يحب غير محبوبه، وهذه درجة عالية لم ينلها من البشر إلا اثنان: إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء:١٢٥]، فإبراهيم يحب الله محبةً خالصة، ولا يحب معه غيره، كذلك نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اتخذه الله خليلًا، كما في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللهِ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»**(٢).

فالخلة أعلى درجات المحبة، وبعدها: العلاقة، ثم الصبَابة، ثم الغرام، وهو لزوم الحب للقلب فلا ينفك عنه، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾، يعني: أن عذاب جهنم ملازم للمعذبين لا ينفك عنهم أبدًا: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا﴾ [النبأ:٢٤]، ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ [الزخرف:٧٥]، أي: لا يخفف عنهم من عذابها.

ثم الشوق، كما في الدعاء العظيم الذي ساقه المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، والشاهد

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٨٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

منه قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**وَأَسْأَلُكَ الشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ**»، فهذا نوعٌ من المحبة.

وقوله: (**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ...**) إلى آخره، ليس معناه أن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يكون حالًا في العبد، أو أن يكون الله يده ورجله وسمعه وبصره، وإنما معناه: أن الله يوفقه ويسدده بهذه الأمور، وينصره ويكون معه.

فليس في هذا دليل للحلولية الذين يقولون: إن الله حالٌّ في العبد! قبَّحهم الله، يستدلون بهذا الحديث، وليس بدليل، بل معناه أن الله يوفقه في هذه الأعضاء، فلا يكتسب بها إلا خيرًا، ولا ينظر إلا إلى خير، ولا يسمع إلا ما فيه خير، ولا يمشي برجله إلا للعبادة وما فيه خير، ولا يأخذ بيده ويُعطي إلا ما فيه خير، فيحفظ الله عليه هذه الأعضاء؛ لأن هذه جوارح إما أن يكتسب بها خيرًا، وإما أن تجلب عليه شرًّا.

وهذه الأعضاء جوارح، بمعنى: أنها كواسب تكسب خيرًا أو تجلب شرًّا، فإذا أطاع العبد ربَّه؛ أحبه الله وحفظ عليه هذه الأعضاء، فلا يكسب له إلا خيرًا، وإذا عصاه ضاعت عليه هذه الأعضاء، وصارت تكسب شرًّا والعياذ بالله، هذا هو معنى الحديث.

وفي هذا الحديث الحث على المحافظة على الفرائض التي أوجبها الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ في العبادة، ثم لا يقتصر على الفرائض، بل يتزود من النوافل في كل عبادة؛ نوافل الصلوات، ونوافل الصدقات، ونوافل الصيام، ونوافل في الحج، ونوافل في الذكر، فيحرص على كل ما يتيسر للإنسان من فرائض ونوافل؛ لأنه بحاجة إلى الخير والأجر والثواب.

فكما أنه يحرص على جمع الدنيا وتنمية المال والمحافظة عليه، فأولى له أن

يحافظ على العبادة؛ لأن المال إما أن يزول، وإما أن يزول هو ويترك المال، لكن العمل الصالح يبقى له ذخرًا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: **(وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ كَتَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِيَ الْمُؤْمِنِ)** ليس معناه أن الله جَلَّ وَعَلَا يتردد بين الفعل أو الترك مثلما يتردد العبد هل يفعل أو لا يفعل، وإنما معنى التردد هنا: أن الله يكره موت عبده المؤمن؛ لأن العبد المؤمن يكره الموت، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يكره ويُبغض ويمقت، فهذه من صفات أفعاله، فيكره ما يُكدر على عبده، لكن لابد له من الموت.

وَتَأَمَّلْ كَيْفَ قَالَ: «فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ»، وَلَمْ يَقُلْ: فَلِي يَسْمَعُ، وَلِي يُبْصِرُ، وَرُبَّمَا يَظُنُّ الظَّنَّانُ أَنَّ اللامَ أَوْلَى بِهَذَا الْمَوْضِعِ، إِذْ هِيَ أَدَلُّ عَلَى الْغَايَةِ، وَوُقُوعُ هَذِهِ الْأُمُورِ لِلَّهِ، وَذَلِكَ أَخَصُّ مِنْ وُقُوعِهَا بِهِ، وَهَذَا مِنَ الْوَهْمِ وَالْغَلَطِ، إِذْ لَيْسَتِ الْبَاءُ هَاهُنَا بِمُجَرَّدِ الِاسْتِعَانَةِ، فَإِنَّ حَرَكَاتِ الْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ وَإِدْرَاكَاتِهِمْ إِنَّمَا هِيَ بِمَعُونَةِ اللَّهِ لَهُمْ، وَإِنَّ الْبَاءَ هَاهُنَا لِلْمُصَاحَبَةِ، أَيْ: إِنَّمَا يَسْمَعُ وَيُبْصِرُ وَيَبْطِشُ وَيَمْشِي وَأَنَا صَاحِبُهُ مَعَهُ، كَقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ».

وَهَذِهِ هِيَ الْمَعِيَّةُ الْخَاصَّةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]. وَقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا»[1]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩]. وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]. وَقَوْلِهِ: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]. وَقَوْلِهِ: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢]. وَقَوْلِهِ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

فَهَذِهِ الْبَاءُ مُفِيدَةٌ لِمَعْنَى هَذِهِ الْمَعِيَّةِ دُونَ اللَّامِ، وَلَا يَتَأَتَّى لِلْعَبْدِ الْإِخْلَاصُ وَالصَّبْرُ وَالتَّوَكُّلُ، وَنُزُولُهُ فِي مَنَازِلِ الْعُبُودِيَّةِ، إِلَّا بِهَذِهِ الْبَاءِ وَهَذِهِ الْمَعِيَّةِ.

فَمَتَى كَانَ الْعَبْدُ بِاللَّهِ هَانَتْ عَلَيْهِ الْمَشَاقُّ، وَانْقَلَبَتِ الْمَخَاوِفُ فِي حَقِّهِ، فَبِاللَّهِ يَهُونُ كُلُّ صَعْبٍ، وَيَسْهُلُ كُلُّ عَسِيرٍ، وَيَقْرُبُ كُلُّ بَعِيدٍ، وَبِاللَّهِ تَزُولُ الْهُمُومُ وَالْغُمُومُ وَالْأَحْزَانُ، فَلَا هَمَّ مَعَ اللَّهِ، وَلَا غَمَّ وَلَا حَزَنَ إِلَّا حَيْثُ يُفَوِّتُهُ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٥)، ومسلم (٢٠٠٩) من حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْعَبْدُ مَعْنَى هَذِهِ الْبَاءِ، فَيَصِيرُ قَلْبُهُ حِينَئِذٍ كَالْحُوتِ إِذَا فَارَقَ الْمَاءَ يَثِبُ وَيَنْقَلِبُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ.

وَلَمَّا حَصَلَتْ هَذِهِ الْمُوَافَقَةُ مِنَ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ فِي مَحَابِّهِ؛ حَصَلَتْ مُوَافَقَةُ الرَّبِّ لِعَبْدِهِ فِي حَوَائِجِهِ وَمَطَالِبِهِ، فَقَالَ: «وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ». أَيْ: كَمَا وَافَقَنِي فِي مُرَادِي بِامْتِثَالِ أَوَامِرِي وَالتَّقَرُّبِ بِمَحَابِّي، فَأَنَا أُوَافِقُهُ فِي رَغْبَتِهِ وَرَهْبَتِهِ فِيمَا يَسْأَلُنِي أَنْ أَفْعَلَهُ بِهِ، وَيَسْتَعِيذُنِي أَنْ يَنَالَهُ.

وَقَوِيَ أَمْرُ هَذِهِ الْمُوَافَقَةِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ حَتَّى اقْتَضَى تَرَدُّدَ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ فِي إِمَاتَةِ عَبْدِهِ؛ لِأَنَّهُ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَالرَّبُّ تَعَالَى يَكْرَهُ مَا يَكْرَهُهُ عَبْدُهُ، وَيَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ، فَمِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ يَقْتَضِي أَنْ لَا يُمِيتَهُ، وَلَكِنَّ مَصْلَحَتَهُ فِي إِمَاتَتِهِ، فَإِنَّهُ مَا أَمَاتَهُ إِلَّا لِيُحْيِيَهُ، وَلَا أَمْرَضَهُ إِلَّا لِيُصِحَّهُ، وَلَا أَفْقَرَهُ إِلَّا لِيُغْنِيَهُ، وَلَا مَنَعَهُ إِلَّا لِيُعْطِيَهُ، وَلَمْ يُخْرِجْ مِنَ الْجَنَّةِ فِي صُلْبِ أَبِيهِ إِلَّا لِيُعِيدَهُ إِلَيْهَا عَلَى أَحْسَنِ أَحْوَالِهِ، وَلَمْ يَقُلْ لِأَبِيهِ اخْرُجْ مِنْهَا إِلَّا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُعِيدَهُ إِلَيْهَا.

فَهَذَا هُوَ الْحَبِيبُ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَا سِوَاهُ، بَلْ لَوْ كَانَ فِي كُلِّ مَنْبَتِ شَعْرَةٍ مِنَ الْعَبْدِ مَحَبَّةٌ تَامَّةٌ لِلَّهِ، لَكَانَ بَعْضَ مَا يَسْتَحِقُّهُ عَلَى عَبْدِهِ(١).

نَقِّلْ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى ... مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ
كَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى ... وَحَنِينُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلِ

الشرح:

المعيَّة على قسمين:

---

(١) البيتان لأبي تمام، يُنظر: ديوانه بشرح التبريزي (٤/٢٥٣).

معيَّة عامة لجميع الخلق: بمعنى الإحاطة، فالله جَلَّ وَعَلَا محيط بجميع خلقه، يعلم ما يعملون وما يقع منهم، مؤمنهم وكافرهم، لا تخفى عليه خافية.

ومعيَّة خاصة بالمؤمنين: بمعنى التوفيق والتسديد والإعانة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾، فسبب هذه المعية: التقوى والإحسان، فإذا أحسن العبد واتقى صار في معية الله جَلَّ وَعَلَا ، وكما قال لموسى وهارون عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾، هذه معية خاصة بالمؤمنين، بمعنى: التسديد والتوفيق والإعانة والحفظ، والحماية، فهو سبحانه مع عباده المؤمنين بهذه المعاني العظيمة، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، فالصبر على طاعة الله، والصبر عن محارم الله، والصبر عن الجزع في المصائب، كل ذلك من الأسباب التي يكون بها العبد في معية الله.

ولـمَّا رأى قوم موسى فرعون وجنوده قد لحقوا بهم من خلفهم، والبحر أمامهم، قالوا لموسى: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾؛ لأن هذا الذي يرونه فقد أُحيط بهم من كل جانب، فقال لهم موسى: ﴿كَلَّآ﴾ هذا نفي، أي: لا يُدركنا فرعون، لماذا؟ قال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾، فما دام الله معه فإن فرعون وجنوده لن يُدركوهم وإن وصلوا إليهم وقربوا منهم؛ لأنهم في حماية الله عَزَّوَجَلَّ.

فأمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ موسى أن يضرب البحر بعصاه، فلما ضربه تجمد وافترق، وكان كل فِرقٍ كالجبل العظيم، وبينهما ممرات مثل الشوارع، فمرَّ موسى وقومه في طريقٍ يبس لا يخاف دركًا ولا يخشى، فلما تكاملوا خارجين دخل فرعون وقومه في آثارهم، فلما تكامل فرعون وقومه في البحر أطبقه الله عليهم، وعاد كما كان ماءً مائعًا، فغرقوا جميعًا، وموسى وقومه ينظرون إليهم

لتقر أعينهم بهلاك عدوهم، ونُصرة الله لهم. فهذه نتيجة قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾، توكل على الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

وكذلك لـمَّا أمر الله جَلَّوَعَلَا موسى وهارون أن يذهبا إلى فرعون، قالا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾ [طه:٤٥]؛ لأن فرعون كان جبارًا، ومعه قوة هائلة وله جنود، وموسى وهارون ليس معهما شيء، فدخلا عليه يدعوانه إلى الله، ومع هذا لم يستطع فرعون أن يصيبهما بشيء؛ لأن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ قال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

فهذا فرعون على بطشه وجبروته، وهو الذي قال: أنا ربكم الأعلى، ما استطاع أن ينالهما بسوء؛ لأنهما كانا في معية الله جَلَّوَعَلَا.

فإذا توكل العبد على الله كان الله حسبه، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ يعني: كافيه، فلا يضره أحد مهما كان، لكن الشأن في تحقيق التوكل، فإذا تحقق التوكل فإن الله سيحفظه ويحميه.

وقوله: (**فَيَصِيرُ قَلْبُهُ حِينَئِذٍ كَالْحُوتِ إِذَا فَارَقَ الْمَاءَ يَثِبُ وَيَنْقَلِبُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ**) يعني: إذا أخلص العبد في توكله على الله صار قلبه شديد المحبة لله، ولا يستطيع العيش بدون محبة الله، فكما أن الحوت لا يعيش إلا في البحر ولو خرج مات، كذلك العبد إذا غفل عن الله فإنه يموت.

وقوله: (**وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**) هذا يُفسر قوله في أول الحديث: (**كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا**)، فإذا سأل الله أعطاه، وإذا استعاذ به أعاذه.

ثم استدل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ببيتين من شعر أبي تمام، ليبين المحبة الطبيعية التي جُبل عليها الإنسان، ومنها: محبته لوطنه وتعلق قلبه به مهما ذهب وسافر، حتى لو استغنى في البلد الآخر ووُفق فإنه لا يزال وطنه في ذاكرته، وكلما أمكن رجع إليه؛ لأنه يحبه، فقال:

نَقِّلْ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى ... مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ
كَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى ... وَحَنِينُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلِ

وهذا مثل المؤمنين، فإن منزلهم الجنة التي أُخرجوا منها بسبب ما حصل من أبيهم آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فهم يحنون إلى الجنة حتى يرجعوا إليها؛ لأنها منزله الأول، أما غير المؤمن فليس عنده شعور بهذا الشيء.

فَصْلٌ

ثُمَّ التَّتَيُّمُ، وَهُوَ آخِرُ مَرَاتِبِ الْحُبِّ، وَهُوَ تَعَبُّدُ الْمُحِبِّ لِمَحْبُوبِهِ، يُقَالُ: تَيَّمَهُ الْحُبُّ، إِذَا عَبَّدَهُ، وَمِنْهُ: تَيْمُ اللَّهِ، أَيْ: عَبْدُ اللَّهِ، وَحَقِيقَةُ التَّعَبُّدِ: الذُّلُّ وَالْخُضُوعُ لِلْمَحْبُوبِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ، أَيْ: مُذَلَّلٌ، قَدْ ذَلَّلَتْهُ الْأَقْدَامُ، فَالْعَبْدُ هُوَ الَّذِي ذَلَّلَهُ الْحُبُّ وَالْخُضُوعُ لِمَحْبُوبِهِ، وَلِهَذَا كَانَتْ أَشْرَفُ أَحْوَالِ الْعَبْدِ وَمَقَامَاتِهِ فِي الْعُبُودِيَّةِ، فَلَا مَنْزِلَ لَهُ أَشْرَفُ مِنْهَا.

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَكْرَمَ الْخَلْقِ عَلَيْهِ وَأَحَبَّهُمْ إِلَيْهِ، وَهُوَ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْعُبُودِيَّةِ فِي أَشْرَفِ مَقَامَاتِهِ، وَهِيَ مَقَامُ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَمَقَامُ التَّحَدِّي بِالنُّبُوَّةِ، وَمَقَامُ الْإِسْرَاءِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:١٩]. وَقَالَ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣]. وَقَالَ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١].

وفِي حَدِيثُ الشَّفَاعَةِ: «اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، عَبْدٌ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ»(١)، فَنَالَ مَقَامَ الشَّفَاعَةِ بِكَمَالِ عُبُودِيَّتِهِ، وَكَمَالِ مَغْفِرَةِ اللَّهِ لَهُ.

الشرح:

تقدم أن الحب درجات، يبدأ شيئًا فشيئًا حتى يصل إلى الخُلة، وهي مرتبة

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤١٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لم ينلها أحد من البشر إلا اثنان: الخليل إبراهيم ونبينا محمد عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وإلَّا المؤمنون يحبون الله، والله يحبهم، ولكنهم لم يصلوا إلى مرتبة الخُلة. وآخر هذه الدرجات هو التتيم، وهو أن يتعبد المحب لمحبوبه، وهذه المرتبة لا تجوز أن تكون بين المخلوقين وبعضهم، وإنما تكون من العباد إلى خالقهم جَلَّ وَعَلَا.

والتعريف المختصر للعبادة أنها: غاية الحب مع غاية الذُل للمحبوب، ولهذا يقول ابن القيم في النونية[1]:

وَعِبَادَةُ الرَّحْمنِ غَايَةُ حُبِّهِ ... مَعْ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ
فَعَلَيْهِمَا فَلَكُ الْعِبَادَةِ دَائِرٌ ... مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ
وَمَدَارُهُ بِالْأَمْرِ أَمْرِ رَسُولِهِ ... لَا بِالْهَوَى وَالنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

فأصل العبادة: غاية الحب مع غاية الذل، وتفاصيلها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «اسمٌ جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»[2]. فمن أحب شيئًا ولم يذل له لم يكن عبدًا له، فالإنسان يحب زوجته، ويحب ولده، ويحب صديقه، لكن لا يذل لهم، فهذه ليست عبادة.

كذلك من ذَلَّ لشيءٍ ولم يحبه لم يكن عبدًا له، كالذي يذل للظلمة والسلاطين، فهو يذل لهم ويخاف منهم، لكنه لا يحبهم، وهذا لا يُسمى عبادة، إنما العبادة ما اجتمع فيها الحب مع الذل للمحبوب.

وقوله: **(وَلِهَذَا كَانَتْ أَشْرَفُ أَحْوَالِ الْعَبْدِ وَمَقَامَاتِهِ فِي الْعُبُودِيَّةِ)**، أي: لا

---

(١) يُنظر: نونية ابن القيم (ص٣٥).

(٢) يُنظر: العبودية (ص٤٤).

منزلة للإنسان مرتفعة أرفع من أن يكون عبدًا لله، فالعبودية لله مرتبة عظيمة؛ لأن فيها عِزة وسعادة وشرفًا، ولهذا نعت الله نبيه محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعبودية، وهذه أشرف المقامات، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف:١]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣]، تحداهم أن يأتوا بسورة من القرآن؛ لأنهم كانوا يقولون: القرآن ليس من عند الله، وإنما هو من كلام محمد، فتحداهم الله وقال لهم: إن كان من كلام محمد، ومحمد بشرٌ مثلكم، فأتوا بسورة من مثله، فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثل أقصر سورة في القرآن، فدلَّ على أنه كلام الله وليس كلام محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي مقام الإسراء ما قال: أسرى بمحمد، أو أسرى برسوله، بل قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾؛ لأن العبودية أشرف مقام.

ولما قام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي بمكة، استغرب الكفار ما يفعله، وجاءوا حوله يستنكرون عبادته؛ لأنه يعمل شيئًا ما ألفوه، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:١٩]، فوصفه بأشرف مقام وهو العبودية.

وفي حديث الشفاعة الكبرى يوم القيامة: يأتي الناس إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليشفع لهم عند الله أن يفصل بين العباد، فيقول: «**اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، عَبْدٌ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ**»، فنعته بالعبودية.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ أَنْوَاعِ الْمَحَبَّةِ مَعَ أَكْمَلِ أَنْوَاعِ الْخُضُوعِ وَالذُّلِّ. وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ الْإِسْلَامِ، وَمِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي مَنْ رَغِبَ عَنْهَا فَقَدْ سَفِهَ نَفْسَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٣].

وَلِهَذَا كَانَ أَعْظَمَ الذُّنُوبِ عِنْدَ اللَّهِ الشِّرْكُ، وَاللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ.

وَأَصْلُ الشِّرْكِ بِاللَّهِ: الْإِشْرَاكُ فِي الْمَحَبَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُشْرِكُ بِهِ نِدًّا يُحِبُّهُ كَمَا يُحِبُّ اللَّهَ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ مِنْ أَصْحَابِ الْأَنْدَادِ لِأَنْدَادِهِمْ.

وَقِيلَ: بَلِ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ، فَإِنَّهُمْ وَإِنْ أَحَبُّوا اللَّهَ، لَكِنْ لَمَّا شَرَكُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْدَادِهِمْ فِي الْمَحَبَّةِ ضَعُفَتْ مَحَبَّتُهُمْ لِلَّهِ، وَالْمُوَحِّدُونَ لِلَّهِ لَمَّا خَلَصَتْ مَحَبَّتُهُمْ لَهُ كَانَتْ أَشَدَّ مِنْ مَحَبَّةِ أُولَئِكَ، وَالْعَدْلُ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالتَّسْوِيَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَنْدَادِ هُوَ فِي هَذِهِ الْمَحَبَّةِ، كَمَا تَقَدَّمَ.

الشرح:

الله جَلَّ وَعَلَا خلق الخلق لعبادته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ

وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، ما خلقهم من أجل حاجته إليهم، أو لأجل أن يكتسبوا له، أو أن يُغنوه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فهو الغني، وهو الرزاق، وإنما خلقهم لعبادته، ومصلحة العبادة راجعة إليهم، فإذا عبدوه أكرمهم.

وقوله: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾، ملة إبراهيم هي الإسلام، وهي التوحيد وإخلاص العبادة لله. والرغبة عن الشيء تركه، أما الرغبة في الشيء فهي إرادته ومحبته، تقول: رغبت في كذا إذا أردته، وتقول: رغبت عن كذا إذا تركته. فلا يترك ملة إبراهيم ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾، والسفه: هو الدناءة والذِلة والخِسة، فالذي يرغب عن ملة إبراهيم هذا خسيس النفس، مهان النفس، نفسه خبيثة.

وقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أخبر أنه اصطفى -أي: اختار- إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في الدنيا على غيره بالنبوة والرسالة والدعوة والعبودية، ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وسبب هذه المقامات: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

ولم يقتصر على نفسه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، بل وصى ذريته بالإسلام؛ لأنه عزهم وشرفهم وسعادتهم، وهو يريد لهم الخير، وكذلك يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ -الذي هو إسرائيل- وصىَّ ذريته بالإسلام، وهذا من نُصح الوالد لأولاده أنه يوصيهم بالدين، ويربيهم عليه. فوصاهم بعبادة الله وحده لا شريك له: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾، لكن منهم من لم يف بهذا وهم كثير. فالله جَلَّ وَعَلَا يذكرهم بهذا العهد وهذه الوصية من أجل أن يرجعوا إليها.

وقوله: (**وَلِهَذَا كَانَ أَعْظَمَ الذُّنُوبِ عِنْدَ اللَّهِ الشِّرْكُ**)، بدليل أن الله جَلَّوَعَلَا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، فبقية الذنوب تحت مشيئة الله، إن شاء غفرها وإن شاء عذب أصحابها، كالزنا، والسرقة، وشرب الخمر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، أما الشرك فإنه لا يُغفر؛ لأنه أعظم الذنوب، وصاحبه حرَّم الله عليه الجنة، ومأواه النار والعياذ بالله، إلَّا أن يتوب وتصح توبته قبل المات.

وقوله: (**وَأَصْلُ الشِّرْكِ بِاللَّهِ الْإِشْرَاكُ فِي الْمَحَبَّةِ**) الشرك هو: صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله، وأعظم ذلك المحبة؛ لأن العبادة أنواع كثيرة، لكن أخص هذه الأنواع: المحبة، والخوف، والرجاء، فمن أحب مع الله غيره محبة عبودية معها ذل وخضوع -وليست محبة طبيعية- فقد أشرك أعظم الشرك.

وقوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ يعني: ساووهم بالله في المحبة، وإلا لو أنهم أحبوهم محبةً دون محبة الله فإنهم لا يُؤاخذون على ذلك.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾؛ لأن أهل الإيمان يحبون الله وحده، والمشركون يحبون الله ويحبون معه غيره، فالمحبة الخالصة خيرٌ من المحبة المشتركة، فدلَّ على أن المشركين يحبون الله، لكنهم لما أحبوا معه غيره صاروا مشركين، وأما أهل الإيمان فإنهم يخلصون المحبة لله، محبة العبودية، لا يحبون مع الله غيره، ومحبة المؤمنين لله أعظم من محبة المشركين لأوثانهم.

وَلَمَّا كَانَ مُرَادُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ خُلُوصَ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ لَهُ، أَنْكَرَ عَلَى مَنِ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ وَلِيًّا أَوْ شَفِيعًا غَايَةَ الْإِنْكَارِ، وَجَمْعُ ذَلِكَ تَارَةً، وَإِفْرَادُ أَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة:٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:٥١].

وَقَالَ فِي الْإِفْرَادِ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر:٤٣]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية:١٠].

فَإِذَا وَالَى الْعَبْدُ رَبَّهُ وَحْدَهُ أَقَامَ لَهُ الشُّفَعَاءَ، وَعَقَدَ الْمُوَالَاةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فَصَارُوا أَوْلِيَاءَهُ فِي اللَّهِ، بِخِلَافِ مَنِ اتَّخَذَ مَخْلُوقًا وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ.

فَهَذَا لَوْنٌ وَذَاكَ لَوْنٌ، كَمَا أَنَّ الشَّفَاعَةَ الشِّرْكِيَّةَ الْبَاطِلَةَ لَوْنٌ، وَالشَّفَاعَةَ الْحَقَّ الثَّابِتَةَ الَّتِي إِنَّمَا تُنَالُ بِالتَّوْحِيدِ لَوْنٌ، وَهَذَا مَوْضِعُ فُرْقَانٍ بَيْنَ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَأَهْلِ الْإِشْرَاكِ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ حَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ لَا تَحْصُلُ مَعَ الْإِشْرَاكِ بِاللَّهِ فِي الْمَحَبَّةِ، بِخِلَافِ الْمَحَبَّةِ لِلَّهِ، فَإِنَّهَا مِنْ لَوَازِمِ الْعُبُودِيَّةِ وَمُوجِبَاتِهَا، فَإِنَّ مَحَبَّةَ الرَّسُولِ -بَلْ تَقْدِيمُهُ فِي الْحُبِّ عَلَى الْأَنْفُسِ وَالْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ- لَا يَتِمُّ الْإِيمَانُ إِلَّا بِهَا؛ إِذْ مَحَبَّتُهُ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ كُلُّ حُبٍّ فِي اللَّهِ وَلِلَّهِ، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: -وَفِي لَفْظٍ فِي الصَّحِيحِ: لَا

يَجِدُ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ إِلَّا مَنْ كَانَ فِيهِ ثَلَاثُ خِصَالٍ[١]- أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»[٢].

وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي فِي السُّنَنِ: «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ»[٣].

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «مَا تَحَابَّ رَجُلَانِ فِي اللَّهِ إِلَّا كَانَ أَفْضَلُهُمَا أَشَدَّهُمَا حُبًّا لِصَاحِبِهِ»[٤].

فَإِنَّ هَذِهِ الْمَحَبَّةَ مِنْ لَوَازِمِ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمُوجِبَاتِهَا، وَكُلَّمَا كَانَتْ أَقْوَى كَانَ أَصْلُهَا كَذَلِكَ.

الشرح:

الشفاعة حق، ولكن الشفاعة الصحيحة لا تُطلب إلا من الله جَلَّ وَعَلَا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٤١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٨١)، والطبراني في الكبير (٧٦١٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٢٧/١١) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه أحمد (٤٣٨/٣)، والترمذي (٢٥٢١)، والحاكم (١٧٨/٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٥/١) من حديث معاذ بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (٥٣٣/٣)، وأبو يعلى في مسنده (١٤٣/٦)، والطبراني في الأوسط (١٩٢/٣)، والحاكم (١٨٩/٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٤٣/١١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بعد أن يأذن الله بها، فلا تُطلب من الموتى والمقبورين، ولا من الأشجار والأحجار، فإن المشركين يعبدون هذه الأشياء: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، هذا زعمهم، وهذه لا تملك الشفاعة، الذي يملك الشفاعة هو الله، فلا تُطلب الشفاعة إلا من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ لأن الله ليس كغيره، لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، بخلاف الملوك والسلاطين، فإن الشفعاء يشفعون عندهم ولو لم يأذنوا، بل ربما يكرهون هذا، ولكن يضطرون إلى القبول؛ لأنهم في حاجة إلى الوزراء وإلى الأعوان، ولو ردوا شفاعتهم تنكروا عليهم. أما الله جَلَّ وَعَلَا فإنه غنيٌّ عن خلقه، ولا أحد يشفع عنده إلا بإذنه، ولا يأذن إلا لأهل التوحيد، أما الكفار فلا تُقبل فيهم شفاعة: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

فالكافر ليس له شفاعة عند الله، إنما الشفاعة عند الله لأهل التوحيد؛ لأن أهل التوحيد إذا حصل منهم ذنب استحقوا العذاب، فإذا شفع لهم من ارتضى الله شفاعته الشفاعة نفعتهم بإذن الله، فيسلمون من العذاب، فيشفع لهم الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وتشفع الملائكة، ويشفع الأولياء والصالحون عند الله للمؤمنين. فالشفاعة الصحيحة ما توفر فيها شرطان:

الأول: إذن الله للشافع أن يشفع.

الثاني: أن يكون المشفوع فيه من أهل التوحيد، وليس من أهل الشرك.

فأهل التوحيد يطلبون من الله جَلَّ وَعَلَا أن يُشفع فيهم نبيه، وأن يُشفع فيهم ملائكته، وأن يُشفع فيهم عباده الصالحين، أما أهل الشرك فيطلبون

الشفاعة من غير الله؛ يطلبونها من القبور، ومن الأموات، ومن الأشجار والأحجار والأصنام، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

وقوله: (**فَإِنَّ مَحَبَّةَ الرَّسُولِ -بَلْ تَقْدِيمُهُ فِي الْحُبِّ عَلَى الْأَنْفُسِ وَالْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ- لَا يَتِمُّ الْإِيمَانُ إِلَّا بِهَا**)، فتأتي محبة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بعد محبة الله جَلَّوَعَلَا، فهي تابعة لمحبة الله، ولهذا قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»(١).

فالرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يُحبُّ حبًّا شديدًا بعد محبة الله؛ لأنه دلَّ البشرية على الخير، وعلى طريق الجنة وطريق السعادة، وأنقذ الله به الناس من النار.

فمن أحبه وجب عليه اتِّباعه، فلا يدَّعي المحبة وهو يخالفه ويعصيه، وإنما علامة صدق المحبة: الاتباع، فمن زعم أنه يحب الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ولكنه يعصيه فليست محبته سليمة، إما أن تكون ناقصة، أو لا تكون موجودة أصلًا.

فالذين يعملون البدع في حق الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ويغلون في حقه، ويعملون له الموالد وهذه الأشياء البدعية، ويقولون: هذه محبة للرسول. نقول: هذا كذب، هذه ليست محبة للرسول، الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ نهى عن البدع، وما تفعلونه في ذكرى مولده لم يفعله الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ولا أمر به، ولا فعله الصحابة من بعده، ولا فعله القرون المفضلة، فهو بدعة، فمن فعله وهو يدَّعي أنه يحب الرسول فهو كاذب، ولو كان صادقًا في محبته لاتبعه وترك

---

(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤) من حديث أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

ما نهى عنه. ولهذا يقول الشاعر[(١)]:

تَعْصِي الإِلَـهَ وَأَنْـتَ تُظْهِـرُ حُبَّـهُ ... هَـذَا لَعَمْـرِي فِي الفِعَـالِ بَـدِيعُ
لَـوْ كَـانَ حُبُّـكَ صَـادِقًا لأَطَعْتَـهُ ... إِنَّ المُحِـبَّ لِـمَنْ يُحِـبُّ مُطِيـعُ

كذلك بعد محبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محبة المؤمنين، فيكون الحب عند المؤمن على ثلاثة مراتب:

أولًا: أن تحب الله جَلَّ وَعَلَا، وهذه محبة عبادة.

ثانيًا: أن تحب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه محبة متابعة.

ثالثًا: أن تحب المؤمنين؛ لأن الله يحبهم، ولقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ: الْحُبُّ فِي اللَّهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ»**[(٢)]. فتحب المؤمنين لأن الله يحبهم، وتُبغض الكفار لأن الله يُبغضهم ، وهذا هو الولاء والبراء.

وفي حديث السبعة الذين يُظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ»**[(٣)].

وقوله: **(فَإِنَّ هَذِهِ الْمَحَبَّةَ مِنْ لَوَازِمِ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمُوجِبَاتِهَا)**، لماذا تحب المؤمنين؟ لأن الله يحبهم، فأنت تحب من يحبه الله. ولماذا تُبغض الكافرين؟ لأن الله يُبغضهم، فأنت تُبغض من يبغضه الله، وتعادي من عاداه الله، قال

---

(١) يُنسب البيتان لعبد الله بن المبارك، يُنظر: ديوانه (ص١٤٧، ١٤٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/١٧٢)، والحاكم (٢/٥٢٢)، والطبراني في الكبير (١٠٣٥٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٢/٧٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه أحمد في المسند (٤/٢٨٦) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٩٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:٣٢]، وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة:١١٤].

فَصْلٌ

وَهَاهُنَا أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْمَحَبَّةِ يَجِبُ التَّفْرِيقُ بَيْنَهَا، وَإِنَّمَا ضَلَّ مَنْ ضَلَّ بِعَدَمِ التَّمْيِيزِ بَيْنَهَا.

أَحَدُهَا: مَحَبَّةُ اللَّهِ، وَلَا تَكْفِي وَحْدَهَا فِي النَّجَاةِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَالْفَوْزِ بِثَوَابِهِ، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ وَعُبَّادَ الصَّلِيبِ وَالْيَهُودَ وَغَيْرَهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ.

الثَّانِي: مَحَبَّةُ مَا يُحِبُّ اللَّهُ، وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي تُدْخِلُهُ فِي الْإِسْلَامِ، وَتُخْرِجُهُ مِنَ الْكُفْرِ. وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَقْوَمُهُمْ بِهَذِهِ الْمَحَبَّةِ وَأَشَدُّهُمْ فِيهَا.

الثَّالِثُ: الْحُبُّ لِلَّهِ وَفِيهِ، وَهِيَ مِنْ لَوَازِمِ مَحَبَّةِ مَا يُحِبُّ، وَلَا تَسْتَقِيمُ مَحَبَّةُ مَا يُحِبُّ إِلَّا فِيهِ وَلَهُ.

الرَّابِعُ: الْمَحَبَّةُ مَعَ اللَّهِ، وَهِيَ الْمَحَبَّةُ الشِّرْكِيَّةُ، وَكُلُّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا مَعَ اللَّهِ لَا لِلَّهِ، وَلَا مِنْ أَجْلِهِ، وَلَا فِيهِ، فَقَدِ اتَّخَذَهُ نِدًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَهَذِهِ مَحَبَّةُ الْمُشْرِكِينَ.

وَبَقِيَ قِسْمٌ خَامِسٌ لَيْسَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ: وَهِيَ الْمَحَبَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ، وَهِيَ مَيْلُ الْإِنْسَانِ إِلَى مَا يُلَائِمُ طَبْعَهُ، كَمَحَبَّةِ الْعَطْشَانِ لِلْمَاءِ، وَالْجَائِعِ لِلطَّعَامِ، وَمَحَبَّةِ النَّوْمِ وَالزَّوْجَةِ وَالْوَلَدِ، فَتِلْكَ لَا تُذَمُّ إِلَّا إِذَا أَلْهَتْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَشَغَلَتْ عَنْ مَحَبَّتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٣٧].

الشرح:

محبة الله جَلَّ وَعَلَا هي أعظم أنواع العبادة، فهو تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُحب لذاته

ولأسمائه وصفاته، ولنعمه التي يُسديها على عباده، فأهل الإيمان يحبون الله جَلَّ وَعَلَا والله يحبهم: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**أَحِبُّوا اللهَ مِنْ كُلِّ قُلُوبِكُمْ**»(١).

لكن محبة العبد لله لا تكفي في النجاة من عذابه والفوز بثوابه، بل لابد معها من أنواع العبادة الأخرى، كالخوف والرجاء والخشية والدعاء، وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله تعالى بها، فالذي يقتصر على المحبة هذا يشبه أهل الضلال من الصوفية الذين يعبدون الله بالمحبة فقط، ويقولون: نحن لا نعبده طمعًا في جنته ولا خوفًا من ناره، وإنما نعبده لأننا نحبه!.

فالمحبة التي ليس معها خوف وليس معها رجاء هذه محبة الصوفية، وهي محبةٌ باطلة، ودينهم باطل، فلابد مع المحبة من الخوف والرجاء، والله جَلَّ وَعَلَا قال في أوليائه: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا﴾ [السجدة: ١٦]، وقال: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧].

وهناك من يعبد الله بالخوف فقط وهم الخوارج، ليس عندهم رجاء، وإنما عندهم الخوف الشديد الذي حملهم على ما حملهم من الخروج على ولاة أمور المسلمين، واستحلال دماء المسلمين وتكفيرهم، وهؤلاء يُقال لهم: الوعيدية، لأنهم يعتمدون على الوعيد فقط. وكذلك الذين يعبدون الله

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٥٠١) عن ابن إسحاق بغير سند إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٥٢٤) بسنده من طريق ابن إسحاق عن المغيرة بن عثمان، عن أبي سلمة ابن عبد الرحمن بن عوف، مرفوعًا.

بالرجاء فقط وليس عندهم خوف وهم المرجئة، وهؤلاء ضُلَّال.

أما أهل الإيمان فيعبدون الله بالمحبة والخوف والرجاء، وهذه هي الطريقة الصحيحة في عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم يتبع ذلك بقية أنواع العبادة، لكن الأساس والأصل هي هذه الثلاثة: المحبة والخوف والرجاء، وهي ركائز العبادة.

فإذا أحب الله طمع في جنته ورضوانه، وأكثر من الأعمال الصالحة، وإذا خاف من عقاب الله ترك المعاصي والذنوب والسيئات، وإذا وقع في شيءٍ منها تاب إلى الله عَزَّوَجَلَّ وهو يرجو مغفرته.

أما من أحب الله وأحب معه غيره فهذا شرك، فالمشركون يحبون الله، لكن يُشركون معه غيره في المحبة، وهذا أعظم أنواع الشرك، ما عبدوا الأصنام إلا لأنهم يحبونها، ولذلك يقاتلون دونها، ويبذلون أموالهم وأرواحهم دونها. وقد عبد بنو إسرائيل العجل لأنهم يحبونه: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة:٩٣]، أشربوا: يعني يحبونه حبًّا شديدًا والعياذ بالله، وإذا دخل الشرك في العبادة بطلت.

وقوله: **(الثَّانِي: مَحَبَّةُ مَا يُحِبُّ اللَّهُ)**، إذا أحببت الله فإنك تحب ما يحبه الله، وتكره ما يكرهه الله جَلَّوَعَلَا؛ فتحب الطاعة وتكره المعصية: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات:٧]، فأنت تحب ما يحبه الله وتُبغض ما يُبغضه، وكذلك تحب من يحبهم الله وهم أولياء الله من المؤمنين؛ من الأنبياء والمرسلين والصالحين والملائكة، تحبهم لأن الله يحبهم، وإلا فمن

يبغض أولياء الله فهو مُبغِضٌ لله.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قصيدته النونية(١):

شَرْطُ المَحَبَّـةِ أَنْ تُوَافِـقَ مَـنْ ... تُحِـبُّ عَـلَى مَحَبَّتِـهِ بِـلَا عِـصْيَانِ

فَإِذَا ادَّعَيتَ لَـهُ المَحَبَّةَ مَعَ خِلَا ... فِـكَ مَـا يُحِـبُّ فَأَنْـتَ ذُو بُهْتَـانِ

أَتُحِبُّ أَعْـدَاءَ الحَبِيـبِ وَتَـدَّعِي ... حُبًّـا لَـهُ مَـا ذَاكَ فِي إِمْكَـانِ

وَكَـذَا تُعَـادِي جَاهِـدًا أَحْبَابَـهُ ... أَيْـنَ المَحَبَّـةَ يَـا أَخَـا الـشَّيْطَانِ

فالذي يحب الله يحب ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه.

ويقول الشاعر(٢):

لَـوْ كَـانَ حُبُّـكَ صَـادِقًا لأَطَعْتَـهُ ... إِنَّ الْمُحِـبَّ لِـمَنْ يُحِـبُّ مُطِيـعُ

فهـذه علامـة المحبـة، واليهـود يقولـون: نحـن نحـب الله، لكـن كفـروا برسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٣١ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢]. فمن ادَّعي محبة الله فعليه أن يطيع الله، وأن يطيع رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وأن يحب أولياء الله.

والله جَلَّوَعَلَا يقول في الحديث القدسي: **«مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ»**(٣)، فالذي يُبغض أولياء الله محاربٌ لله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

---

(١) يُنظر: نونية ابن القيم (ص ٢٢١).

(٢) يُنسب البيت لعبد الله بن المبارك، وقد تقدم مع غيره قريبًا.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

وكذلك يجب عليك بُغض أعداء الله من اليهود والنصارى وسائر الكفرة؛ لأنهم أعداء الله، وهذا هو معنى الولاء والبراء: أن توالي أولياء الله، وتعادي أعداء الله. فلا يكون الناس عندك سواء، وإنما تميز بين أهل الإيمان وأهل الكفر.

وقوله: **(الْحُبُّ لِلَّهِ وَفِيهِ)** فلا تحب لأجل الدنيا أو تُبغض لأجل الدنيا، من أعطاك من المال أحببته، ومن لم يعطك أبغضته! وإنما تحب في الله عَزَّوَجَلَّ وتكره لله، ولهذا جاء في الحديث: **«أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ: الْحُبُّ فِي اللَّهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ»**[1]. وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «أَحِبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغِضْ لِلَّهِ، وَعَادِ فِي اللَّهِ، وَوَالِ فِي اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا تُنَالُ وِلَايَةُ اللَّهِ إِلَّا بِذَلِكَ، وَلَا يَجِدُ رَجُلٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصِيَامُهُ حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ، وَقَدْ صَارَتْ مُؤَاخَاةُ النَّاسِ الْيَوْمَ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ مَا لَا يُجْزِئُ عَنْ أَهْلِهِ شَيْئًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[2].

وقوله: **(الرَّابِعُ: الْمَحَبَّةُ مَعَ اللَّهِ، وَهِيَ الْمَحَبَّةُ الشِّرْكِيَّةُ)**، فلا تحب مع الله أحدًا، بل تُخلص المحبة لله عَزَّوَجَلَّ، وليس معنى ذلك أنك لا تحب المال ولا تحب الزوجة، بل هذه محبة طبيعية لا تؤاخذ عليها، فتحب الأكل والشرب، وتحب زوجتك، وتحب أولادك، وتحب المال، فهذه ليست محبة عبادة، إنما الكلام على محبة العبادة التي معها الذُل والخضوع، كما قال ابن القيم[3]:

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦٣٤).

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٥٣)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٤٠٦/١)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٠٠٦/٥).

(٣) يُنظر: نونية ابن القيم (ص٣٥).

وَعِبَادَةُ الرَّحْمنِ غَايَةُ حُبِّهِ ... مَعْ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ
فَعَلَيْهِمَا فَلَكُ العِبَادَةِ دَائِرٌ ... مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ
وَمَدَارُهُ بِالْأَمْرِ أَمْرِ رَسُولِهِ ... لَا بِالْهَوَى وَالنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

وقوله: **(وَبَقِيَ قِسْمٌ خَامِسٌ لَيْسَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ: وَهِيَ الْمَحَبَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ، وَهِيَ مَيْلُ الْإِنْسَانِ إِلَى مَا يُلَائِمُ طَبْعَهُ)**، هذه التي ذكرنا ونبهنا عليها، وهي لا تضر إذا لم تقدمها على محبة الله، فكل الناس يحبون المال والوطن والبيوت، لكن إذا قدموا محبوباتهم على محبة الله فهذا هو المحذور، ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤]، هذه المحبوبات الثمان لم يُنكر الله جَلَّ وَعَلَا على الناس محبتهم لها، لكن أنكر من قدَّم محبتها على محبته عَزَّوَجَلَّ.

فإذا تعارضت محبة هذه الأشياء مع محبة الله قدِّم محبة الله واتركها، كما ترك المهاجرون أولادهم وأوطانهم وأموالهم محبةً لله، وهاجروا في سبيل الله ولم يأخذوا معهم منها شيئًا؛ لأنهم يحبون الله عَزَّوَجَلَّ، ويحبون رسوله، وهذه علامة على صدق الإيمان، ولهذا قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

وقوله: **(فَتِلْكَ لَا تُذَمُّ إِلَّا إِذَا أَلْهَتْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)**، أو أداء واجب، أو حملت الإنسان على فعل مُحرم، فحينئذٍ تُذم وتلام، قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، فإذا جاء وقت الصلاة تركوا التجارة والبيع والشراء وذهبوا للمسجد، فدل على أن الصلاة

أحب إليهم من المال، فتركوا المال وهو مغرٍ، وتركوا السوق ووقت الربح، وأغلقوا دكاكينهم وذهبوا إلى المسجد، وهذا علامة على محبة الله عَزَّوَجَلَّ.

أما من يقدم تجارته على الواجبات، ولا يذهب إلى المسجد لأداء الصلاة، ويبقى يبيع ويشري، فهذا دليل على أنه يحب المال أكثر من محبة الله، ولهذا قال جَلَّوَعَلَا: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ وهي المساجد ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور:٣٦-٣٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩]، ويظن أنه تاجر وأنه رابح وهو خاسر، إذا ضيع الأعمال الصالحة فهو خاسر، ولو عنده هذه الدنيا كلها ما استفاد منها، وهو يظن أنه غنم وربح الكثير، لكنه في الحقيقة خاسر وفقير، ولا تُجدي عنه هذه الدنيا شيئًا عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة:١١].

فَصْلٌ

ثُمَّ الْخُلَّةُ، وَهِيَ تَتَضَمَّنُ كَمَالَ الْمَحَبَّةِ وَنِهَايَتَها، بِحَيْثُ لَا يَبْقَى فِي الْقَلْبِ سَعَةٌ لِغَيْرِ مَحْبُوبِهِ، وَهِيَ مَنْصِبٌ لَا يَقْبَلُ الْمُشَارَكَةَ بِوَجْهٍ مَا، وَهَذَا الْمَنْصِبُ خَاصٌّ لِلْخَلِيلَيْنِ -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا-: إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»[1].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ»[2].

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى كُلِّ خَلِيلٍ مِنْ خُلَّتِهِ»[3].

وَلَمَّا سَأَلَ إِبْرَاهِيمُ الْوَلَدَ فَأُعْطِيَهُ، وَتَعَلَّقَ حُبُّهُ بِقَلْبِهِ، فَأَخَذَ مِنْهُ شُعْبَةً، غَارَ الْحَبِيبُ عَلَى خَلِيلِهِ أَنْ يَكُونَ فِي قَلْبِهِ مَوْضِعٌ لِغَيْرِهِ، فَأَمَرَهُ بِذَبْحِهِ، وَكَانَ الْأَمْرُ فِي الْمَنَامِ لِيَكُونَ تَنْفِيذُ الْمَأْمُورِ بِهِ أَعْظَمَ ابْتِلَاءً وَامْتِحَانًا، وَلَمْ يَكُنِ الْمَقْصُودُ ذَبْحَ الْوَلَدِ، وَلَكِنَّ الْمَقْصُودَ ذَبْحُهُ مِنْ قَلْبِهِ؛ لِيَخْلُصَ الْقَلْبُ لِلرَّبِّ، فَلَمَّا بَادَرَ الْخَلِيلُ إِلَى الِامْتِثَالِ، وَقَدَّمَ مَحَبَّةَ اللَّهِ عَلَى مَحَبَّةِ وَلَدِهِ، حَصَلَ الْمَقْصُودُ، فَرُفِعَ الذَّبْحُ، وَفُدِيَ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ.

فَإِنَّ الرَّبَّ تَعَالَى مَا أَمَرَ بِشَيْءٍ ثُمَّ أَبْطَلَهُ رَأْسًا، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُبْقِيَ بَعْضَهُ أَوْ بَدَلَهُ، كَمَا أَبْقَى شَرِيعَةَ الْفِدَاءِ، وَكَمَا أَبْقَى اسْتِحْبَابَ الصَّدَقَةِ بَيْنَ يَدَيِ الْمُنَاجَاةِ، وَكَمَا أَبْقَى الْخَمْسَ الصَّلَوَاتِ بَعْدَ رَفْعِ الْخَمْسِينَ وَأَبْقَى ثَوَابَهَا، وَقَالَ: «وَلَا يُبَدَّلُ

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٨٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٨٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْقَوْلُ لَدَيَّ، هِيَ خَمْسٌ فِي الْفِعْلِ، وَهِيَ خَمْسُونَ فِي الْأَجْرِ»[١].

الشرح:

تقدم أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر للمحبة عشر درجات، كما ذكرها أيضًا في كتابه «روضة المحبين»، وفي «مدارك السالكين». وأعلى درجات المحبة ونهايتها: الخُلة، سُميت بالخُلة لأن الحبيب يتخلى للقلب، كما يقول الشاعر لحبيبته[٢]:

قَدْ تَخَلَّلَتْ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي   وَلِذَا سُمِّيَ الخَلِيلُ خَلِيلا

وقوله: **(وَهِيَ تَتَضَمَّنُ كَمَالَ الْمَحَبَّةِ وَنِهَايَتَهَا)** يعني: أعلى درجات المحبة، وهذه ما نالها من البشر أحد إلا إبراهيم الخليل ونبينا محمد عليهما الصلاة والسلام، وفيها يصير المحب لا يحب غير الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا ابتلى الله إبراهيم بذبح ابنه، ومعروف أن الولد من أحب الناس إلى أبيه، فلما ابتلاه الله وأمره بذبحه بادر بامتثال للأمر، وقرَّبه للذبح ولم يبق إلا أن يقطع حلقه بالسكين: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]؛ امتثالًا لأمر الله، عند ذلك نسخ الله جَلَّوَعَلَا الأمر بذبحه وفداه بالأضحية التي صارت سنةً في بني إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ [الصافات: ١٠٤- ١٠٧]، وصارت الأضحية من بعده إحياءً لسنته. الشاهد: أنه

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) البيت لبشار بن برد، يُنظر: ديوانه (٤/ ١٣٩).

أقدم على ذبح ابنه امتثالًا لأمر الله؛ لأنه يحب الله أكثر من أي شيء.

وكذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب أصحابه، وأحبهم إليه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لكنه لم يتخذه خليلًا؛ لئلا يكون شريكًا لله في الخُلة، فهو يحبه لكن لم تبلغ محبته إلى درجة الخُلة؛ لأن الخلة خاصة بالله عَزَّ وَجَلَّ، فلا يحب فيها مع الله أحدًا، كما أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يحب فيها مع الله أحدًا، حتى ابنه الذي رُزق إياه على كِبر، بادر بذبحه امتثالًا لأمر الله وطاعةً له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: **(وَكَانَ الْأَمْرُ فِي الْمَنَامِ لِيَكُونَ تَنْفِيذُ الْمَأْمُورِ بِهِ أَعْظَمَ ابْتِلَاءً وَامْتِحَانًا)**؛ لأن رؤيا الأنبياء حق، وهي وحي من الله عَزَّ وَجَلَّ، ولذلك اعتبرها أمرًا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ولم يكن المقصود ذبح الولد، ولكن الله أمره به ليبتليه ويختبره: هل يُقدم محبة الله على محبة الولد؟ أو يقدم محبة الولد على محبة الله؟

فلما امتثل لأمر الله وبادر بذبح ابنه، رفع الله جَلَّ وَعَلَا الأمر بالذبح، يعني: نسخ الأمر بعدما ظهر المقصود ونجح في الامتحان، فنهاه عن ذبح ابنه، ونسخ الأمر بذبح الولد إلى ذبح القُربان، وهذا النسخ يُسمى: النسخ إلى أخف.

فَصْلٌ

وَأَمَّا مَا يَظُنُّهُ بَعْضُ الْغَالِطِينَ أَنَّ الْمَحَبَّةَ أَكْمَلُ مِنَ الْخُلَّةِ، وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ، وَمُحَمَّدًا حَبِيبُ اللَّهِ، فَمِنْ جَهْلِهِ، فَإِنَّ الْمَحَبَّةَ عَامَّةٌ، وَالْخُلَّةَ خَاصَّةٌ، وَالْخُلَّةَ نِهَايَةُ الْمَحَبَّةِ، وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ اللَّهَ اتَّخَذَهُ خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَنَفَى أَنْ يَكُونَ لَهُ خَلِيلٌ غَيْرُ رَبِّهِ، مَعَ إِخْبَارِهِ بِحُبِّهِ لِعَائِشَةَ وَلِأَبِيهَا وَلِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَغَيْرِهِمْ(١).

وَأَيْضًا فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ، وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ، وَيُحِبُّ الصَّابِرِينَ، وَيُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَيُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، وَيُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، وَخُلَّتُهُ خَاصَّةٌ بِالْخَلِيلَيْنِ، وَالشَّابُّ التَّائِبُ حَبِيبُ اللَّهِ.

وَإِنَّمَا هَذَا مِنْ قِلَّةِ الْعِلْمِ وَالْفَهْمِ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

الشرح:

من الجهل ما يظنه بعض الناس أن المحبة أكمل من الخلة، وبعضهم دائمًا يقول عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الحبيب. وإنما هو خليل الله وليس حبيبه فقط. والمحبة غير الخُلة، ولذلك الله جَلَّ وَعَلَا يحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب المتقين والمحسنين، فالمحبة أوسع من الخُلة، ولهذا يقول أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أَوْصَانِي خَلِيلِي ..»(٢)، يعني: رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالمؤمنون خليلهم رسول الله، أما الله فليس له خليل إلا إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

---

(١) كما في حديث عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (١١٧٨)، ومسلم (٧٢١).

فَصْلٌ

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَتْرُكُ مَا يُحِبُّهُ وَيَهْوَاهُ، وَلَكِنْ يَتْرُكُ أَضْعَفَهُمَا مَحَبَّةً لِأَقْوَاهُمَا مَحَبَّةً، كَمَا أَنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَكْرَهُهُ لِحُصُولِ مَا مَحَبَّتُهُ أَقْوَى عِنْدَهُ مِنْ كَرَاهَةِ مَا يَفْعَلُهُ، أَوْ لِخَلَاصِهِ مِنْ مَكْرُوهٍ كَرَاهَتُهُ عِنْدَهُ أَقْوَى مِنْ كَرَاهَةِ مَا يَفْعَلُهُ.

وَتَقَدَّمَ أَنَّ خَاصِّيَّةَ الْعَقْلِ إِيثَارُ أَعْلَى الْمَحْبُوبَيْنِ عَلَى أَدْنَاهُمَا، وَأَيْسَرِ الْمَكْرُوهَيْنِ عَلَى أَقْوَاهُمَا، وَتَقَدَّمَ أَنَّ هَذَا مِنْ كَمَالِ قُوَّةِ الْحُبِّ وَالْبُغْضِ.

وَلَا يَتِمُّ لَهُ هَذَا إِلَّا بِأَمْرَيْنِ: قُوَّةِ الْإِدْرَاكِ، وَشَجَاعَةِ الْقَلْبِ. فَإِنَّ التَّخَلُّفَ عَنْ ذَلِكَ وَالْعَمَلَ بِخِلَافِهِ يَكُونُ إِمَّا لِضَعْفِ الْإِدْرَاكِ بِحَيْثُ إِنَّهُ لَمْ يُدْرِكْ مَرَاتِبَ الْمَحْبُوبِ وَالْمَكْرُوهِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، وَإِمَّا لِضَعْفٍ فِي النَّفْسِ وَعَجْزٍ فِي الْقَلْبِ بِحَيْثُ لَا يُطَاوِعُهُ عَلَى إِيثَارِ الْأَصْلَحِ؛ مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ الْأَصْلَحُ، فَإِذَا صَحَّ إِدْرَاكُهُ، وَقَوِيَتْ نَفْسُهُ، وَتَشَجَّعَ قَلْبُهُ عَلَى إِيثَارِ الْمَحْبُوبِ الْأَعْلَى وَالْمَكْرُوهِ الْأَدْنَى فَقَدْ وُفِّقَ لِأَسْبَابِ السَّعَادَةِ.

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ سُلْطَانُ شَهْوَتِهِ أَقْوَى مِنْ سُلْطَانِ عَقْلِهِ وَإِيمَانِهِ، فَيَقْهَرُ الْغَالِبُ الضَّعِيفَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ سُلْطَانُ إِيمَانِهِ وَعَقْلِهِ أَقْوَى مِنْ سُلْطَانِ شَهْوَتِهِ. وَإِذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَرْضَى يَحْمِيهِ الطَّبِيبُ عَمَّا يَضُرُّهُ، فَتَأْبَى عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَشَهْوَتُهُ إِلَّا تَنَاوُلَهُ، وَيُقَدِّمُ شَهْوَتَهُ عَلَى عَقْلِهِ، وَتُسَمِّيهِ الْأَطِبَّاءُ: عَدِيمَ الْمُرُوءَةِ، فَهَكَذَا أَكْثَرُ مَرْضَى الْقُلُوبِ يُؤْثِرُونَ مَا يَزِيدُ مَرَضَهُمْ، لِقُوَّةِ شَهْوَتِهِمْ لَهُ.

فَأَصْلُ الشَّرِّ مِنْ ضَعْفِ الْإِدْرَاكِ وَضَعْفِ النَّفْسِ وَدَنَاءَتِهَا، وَأَصْلُ الْخَيْرِ مِنْ كَمَالِ الْإِدْرَاكِ وَقُوَّةِ النَّفْسِ وَشَرَفِهَا وَشَجَاعَتِهَا.

فَالْحُبُّ وَالْإِرَادَةُ أَصْلُ كُلِّ فِعْلٍ وَمَبْدَؤُهُ، وَالْبُغْضُ وَالْكَرَاهَةُ أَصْلُ كُلِّ تَرْكٍ

وَمَبْدَؤُهُ، وَهَاتَانِ الْقُوَّتَانِ فِي الْقَلْبِ أَصْلُ سَعَادَةِ الْعَبْدِ وَشَقَاوَتِهِ.

وَوُجُودُ الْفِعْلِ الاخْتِيَارِيِّ لَا يَكُونُ إِلَّا بِوُجُودِ سَبَبِهِ مِنَ الْحُبِّ وَالْإِرَادَةِ. وَأَمَّا عَدَمُ الْفِعْلِ فَتَارَةً يَكُونُ لِعَدَمِ مُقْتَضِيهِ وَسَبَبِهِ، وَتَارَةً يَكُونُ لِوُجُودِ الْبُغْضِ وَالْكَرَاهَةِ الْمَانِعَةِ مِنْهُ. وَهَذَا مُتَعَلَّقُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَهُوَ الَّذِي يُسَمَّى الْكَفَّ، وَهُوَ مُتَعَلَّقُ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ.

وَبِهَذَا يَزُولُ الِاشْتِبَاهُ فِي مَسْأَلَةِ التَّرْكِ، وَهَلْ هُوَ أَمْرٌ وُجُودِيٌّ أَوْ عَدَمِيٌّ؟ وَالتَّحْقِيقُ أَنَّهُ قِسْمَانِ: فَالتَّرْكُ الْمُضَافُ إِلَى عَدَمِ السَّبَبِ الْمُقْتَضِي عَدَمِيٌّ، وَالْمُضَافُ إِلَى السَّبَبِ الْمَانِعِ مِنَ الْفِعْلِ وُجُودِيٌّ.

الشرح:

هذا كما ذكرنا أن الإنسان يحب أشياء من هذه الدنيا لكن لا يقدِّم محبتها على محبة الله عَزَّوَجَلَّ، فيحب البيع والشراء، والمال، والأهل، والأولاد، والأقارب، وهذه محبة طبيعية ليست محبة عبادة، فإذا شغلته عن محبة الله صارت محبة مكروهة، ويُخشى على صاحبها من العقوبة، أما إذا قدَّم محبة الله على ما يحبه من أمور الدنيا فهذه علامة الإيمان.

فَصْلٌ

وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنَ الْفِعْلِ وَالتَّرْكِ الاِخْتِيَارِيَّيْنِ إِنَّمَا يُؤْثِرُهُ الْحَيُّ لِمَا فِيهِ مِنْ حُصُولِ الْمَنْفَعَةِ الَّتِي يَلْتَذُّ بِحُصُولِهَا، أَوْ زَوَالِ الْأَلَمِ الَّذِي يَحْصُلُ لَهُ الشِّفَاءُ بِزَوَالِهِ، وَلِهَذَا يُقَالُ: شَفَى صَدْرَهُ، وَشَفَى قَلْبَهُ. قَالَ(١):

هِيَ الشِّفَاءُ لِدَائِي لَوْ ظَفِرْتُ بِهَا ... وَلَيْسَ مِنْهَا شِفَاءُ الدَّاءِ مَبْذُولُ

وَهَذَا مَطْلُوبٌ يُؤْثِرُهُ الْعَاقِلُ بَلِ الْحَيَوَانُ الْبَهِيمُ، وَلَكِنْ يَغْلَطُ فِيهِ أَكْثَرُ النَّاسِ غَلَطًا قَبِيحًا، فَيَقْصِدُ حُصُولَ اللَّذَّةِ بِمَا يُعَقِّبُ عَلَيْهِ أَعْظَمَ الْأَلَمِ، فَيُؤْلِمُ نَفْسَهُ مِنْ حَيْثُ يَظُنُّ أَنَّهُ يُحَصِّلُ لَذَّتَهَا، وَيَشْفِي قَلْبَهُ بِمَا يُعَقِّبُ عَلَيْهِ غَايَةَ الْمَرَضِ.

وَهَذَا شَأْنُ مَنْ قَصَرَ نَظَرَهُ عَلَى الْعَاجِلِ وَلَمْ يُلَاحِظِ الْعَوَاقِبَ، وَخَاصَّةُ الْعَقْلِ: النَّظَرُ فِي الْعَوَاقِبِ، فَأَعْقَلُ النَّاسِ مَنْ آثَرَ لَذَّتَهُ وَرَاحَتَهُ فِي الْآجِلَةِ الدَّائِمَةِ عَلَى الْعَاجِلَةِ الْمُنْقَضِيَةِ الزَّائِلَةِ، وَأَسْفَهُ الْخَلْقِ مَنْ بَاعَ نَعِيمَ الْأَبَدِ وَطِيبَ الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ وَاللَّذَّةَ الْعُظْمَى الَّتِي لَا تَنْغِيصَ فِيهَا وَلَا نَقْصَ بِوَجْهٍ مَا، بِلَذَّةٍ مُنْقَضِيَةٍ مَشُوبَةٍ بِالْآلَامِ وَالْمَخَاوِفِ، وَهِيَ سَرِيعَةُ الزَّوَالِ وَشِيكَةُ الاِنْقِضَاءِ.

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: فَكَّرْتُ فِيمَا يَسْعَى فِيهِ الْعُقَلَاءُ، فَرَأَيْتُ سَعْيَهُمْ كُلِّهِمْ فِي مَطْلُوبٍ وَاحِدٍ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ طُرُقُهُمْ فِي تَحْصِيلِهِ، رَأَيْتُهُمْ جَمِيعَهُمْ إِنَّمَا يَسْعَوْنَ فِي دَفْعِ الْهَمِّ وَالْغَمِّ عَنْ نُفُوسِهِمْ، فَهَذَا بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَهَذَا بِالتِّجَارَةِ وَالْكَسْبِ، وَهَذَا بِالنِّكَاحِ، وَهَذَا بِسَمَاعِ الْغِنَاءِ وَالْأَصْوَاتِ الْمُطْرِبَةِ، وَهَذَا بِاللَّهْوِ وَاللَّعِبِ، فَقُلْتُ: هَذَا الْمَطْلُوبُ مَطْلُوبُ الْعُقَلَاءِ، وَلَكِنَّ الطُّرُقَ كُلَّهَا غَيْرُ مُوَصِّلَةٍ إِلَيْهِ، بَلْ لَعَلَّ أَكْثَرَهَا إِنَّمَا يُوَصِّلُ إِلَى ضِدِّهِ، وَلَمْ أَرَ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الطُّرُقِ طَرِيقًا مُوَصِّلَةً إِلَيْهِ

---

(١) البيت لهشام ابن عقبة، من شواهد سيبويه في كتابه (١/ ٧١).

إِلَّا الْإِقْبَالَ عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ، وَمُعَامَلَتَهُ وَحْدَهُ، وَإِيثَارَ مَرْضَاتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ(١).

فَإِنَّ سَالِكَ هَذَا الطَّرِيقِ إِنْ فَاتَهُ حَظُّهُ مِنَ الدُّنْيَا فَقَدْ ظَفِرَ بِالْحَظِّ الْعَالِي الَّذِي لَا فَوْتَ مَعَهُ، وَإِنْ حَصَلَ لِلْعَبْدِ حَصَلَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَإِنْ فَاتَهُ فَاتَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَإِنْ ظَفِرَ بِحَظِّهِ مِنَ الدُّنْيَا نَالَهُ عَلَى أَهْنَأِ الْوُجُوهِ، فَلَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْفَعُ مِنْ هَذِهِ الطُّرُقِ، وَلَا أَوْصَلُ مِنْهَا إِلَى لَذَّتِهِ وَبَهْجَتِهِ وَسَعَادَتِهِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

الشرح:

كل إنسانٍ في هذه الحياة لابد أن يفعل أو يترك، ولكن الشأن في نوع ما يفعل ونوع ما يترك، فإن كان يفعل الخير ويترك الشر فهذه علامة السعادة، وإن كان يترك الخير ويفعل الشر فهذه علامة الشقاوة، فهو إما أن يكسب لنفسه فعل الخير ويترك الشر، أو يكسب عليها إن كان بالعكس: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

والله جَلَّ وَعَلَا إنما يُجازي الناس على أعمالهم التي عملوها باختيارهم وطواعيتهم، أما ما يعملونه مُكرَهين ليس لهم اختيارٌ فيه، أو يعملونه بجهل ليس عندهم علم، ويظنونه خيرًا ولا يعلمون أنه شرٌّ، فالجاهل يُعذر بجهله، والمُكرَه يُعذر بإكراهه، والمجنون الذي لا عقل له هذا أيضًا لا يؤاخذ، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يظلم أحدًا، وإنما يُجازي الناس بأعمالهم.

وأيضًا هو يعفو ويصفح سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [فاطر:٤٥]، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن

---

(١) يُنظر: الأخلاق والسير لابن حزم (١٣-١٦) بتصرف واختصار.

مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، فهو يعفو عن كثير فضلًا منه وإحسانًا.

الحاصل: أن الله جَلَّ وَعَلَا لا يظلم أحدًا، وإنما يجازيه بأعماله خيرها وشرها، وقد بيَّن له طريق السعادة ووضحه له، وبيَّن له طريق الشقاء وحذره منه، فلم تبق معذرة للناس بأنهم ما جاءهم نذير، ولا جاءهم كتاب، ولا أُعطوا اختيارًا وقدرة، فالله جَلَّ وَعَلَا تفضل عليهم بكثيرٍ من الفضل، مع أنه لا يحتاج إليهم، وهو غنيٌّ عنهم، لكن هم الذين يحتاجون إليه، فهو مع غناه عنهم يدعوهم ويُرشدهم، ومع فقرهم إليه يُعرضون عنه، وهذا من العجائب.

فهذا الإنسان أمره عجيب مع ربه عَزَّوَجَلَّ، فالله هو الغني وهو فقير إليه، ومع هذا يُعرض عن داعي الله الذي يريد له الخير، ويتبع داعي عدوه الشيطان الذي يريد له الشر والهلاك.

ومن العجيب أن بعض العقلاء من بني آدم تكون الحيوانات أحسن تصرفًا منهم؛ لأن الحيوان يتبع ما فيه له منفعة، ويترك ما فيه مضرة، أما هذا الإنسان فهو بالعكس إلا من رحم الله عَزَّوَجَلَّ، فهو يترك ما فيه منفعته ويأخذ ما فيه مضرته، ولهذا قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]؛ لأن الأنعام تأخذ ما ينفعها وتترك ما يضرها فطرة وطبيعة فيها، أما هذا الإنسان فهو بالعكس: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ

كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]، فهم لا يفقهون فقهًا ينفعهم، ولا يسمعون سماعًا ينفعهم، ولا يُبصرون ما فيه سعادتهم، وإلا فهم يرون الأشياء وينظرون إليها، ويسمعون الأصوات، ليس فيهم صمم ولا عمى، لكنهم لا يستعملون هذه الحواس فيما ينفعهم، فلا يُقبلون على سماع كلام الله وكلام رسوله وكلام أهل العلم والناصحين، وإنما يستمعون إلى ما يضرهم من الأغاني والمزامير، ويستمعون إلى دعاة الضلال وقادة الفتنة.

وبعض الناس يريد المنفعة، لكن لابد من النظر في هذه المنفعة: هل هي منفعة صحيحة، وعاقبتها حميدة؟ أم هي منفعةٌ عاجلة ومضرتها أكثر وعاقبتها أسوأ؟ فبعض الناس يُؤثر لذةً عاجلة على عاقبةٍ سيئة، فيقع في الزنا، أو يشرب الخمر، أو يتعاطى الدخان والمُسكرات والمخدرات، زاعمًا أنه يتلذذ بها، وقد يكون فيها لذة آنية، لكن عليه أن ينظر إلى العواقب.

فالمنفعة إذا كانت فيها مضرة أكثر فإنها تُترك، وكذلك إذا كانت مضرة الشيء ومنفعته متساوية فإنه يُترك، أما إذا كانت منفعته راجحة، أو منفعته خالصة ليس معها مضرة، فهذا مطلوب.

فالواجب على الإنسان أن يفكر في الأشياء، فيوازن بين المنافع والمضار قبل أن يقدم على فعل شيء، ولا يتبع هواه ونفسه الأمارة بالسوء، ولا يتبع أعداءه ودعاة الضلال، وفي ذلك يقول الشاعر(١):

وَأَحْزَمُ النَّاسِ مَنْ لَوْ مَاتَ مِنْ ظَمَإٍ ... لَا يَقْرَبُ الوِرْدَ حَتَّى يَعْرِفَ الصَّدَرَا

(١) البيت لصفي الدين الحلي، يُنظر: ديوانه (ص٦٩).

فليس هو يريد أن يشرب فقط ولا ينظر كيف يصدر من هذا، بل يوازن.

فلا ينظر الإنسان إلى العاجل فقط، بل عليه أن ينظر إلى العاقبة والمنتهى، فقد يكره شيئًا له عاقبة حميدة: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦]، فالنفوس تكره القتال في سبيل الله؛ لما فيه من جراح وقتل وخطر، لكن عاقبته خير، وتميل إلى الراحة وترك الجهاد، لكن هذا شر؛ لأنه يؤدي إلى تسلط الكفار عليه، وربما يحولونه عن دينه، إما بالقوة وإما بالرهبة.

فبالجهاد يتخلص الإنسان من أعدائه، وإن كان فيه ما تكرهه نفسه فإن عاقبته حميدة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦]، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩]، فلا ينظر إلى ما تكرهه نفسه وما تحبه، ولكنه ينظر في العواقب والمآلات.

ولذلك يصوم المسلم ويترك الأكل والشرب والملذات والشهوات؛ لأنه يرجو عاقبة الصيام، فيؤثر العاقبة على اللذة الحاضرة، ولا شك أن الصيام فيه حرمان للنفس، لكن عاقبته خيرٌ لها، كما يُعطي الطبيب للمريض دواءً كريه المذاق، وهو سبب للشفاء يُرجى به عاقبة حميدة.

وأقل الناس عقلًا من ينظر إلى اللذة الحاضرة، ولا ينظر إلى العاقبة السيئة، وينظر إلى المشقة الحاضرة والمكاره الحاضرة، ولا ينظر إلى العواقب الحميدة، فلا يوازن بين هذا وهذا.

فَصْلٌ

وَالْمَحْبُوبُ قِسْمَانِ: مَحْبُوبٌ لِنَفْسِهِ، وَمَحْبُوبٌ لِغَيْرِهِ. وَالْمَحْبُوبُ لِغَيْرِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْمَحْبُوبِ لِنَفْسِهِ، دَفْعًا لِلتَّسَلْسُلِ الْمُحَالِ، وَكُلُّ مَا سِوَى الْمَحْبُوبِ الْحَقِّ فَهُوَ مَحْبُوبٌ لِغَيْرِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُحَبُّ لِذَاتِهِ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ مِمَّا يُحَبُّ فَإِنَّمَا مَحَبَّتُهُ تَبَعٌ لِمَحَبَّةِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، كَمَحَبَّةِ مَلَائِكَتِهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ، فَإِنَّهَا تَبَعٌ لِمَحَبَّتِهِ سُبْحَانَهُ، وَهِيَ مِنْ لَوَازِمِ مَحَبَّتِهِ، فَإِنَّ مَحَبَّةَ الْمَحْبُوبِ تُوجِبُ مَحَبَّةَ مَا يُحِبُّهُ.

وَهَذَا مَوْضِعٌ يَجِبُ الِاعْتِنَاءُ بِهِ، فَإِنَّهُ مَحَلُّ فُرْقَانٍ بَيْنَ الْمَحَبَّةِ النَّافِعَةِ لِغَيْرِهِ، وَالَّتِي لَا تَنْفَعُ بَلْ قَدْ تَضُرُّ.

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يُحَبُّ لِذَاتِهِ إِلَّا مَنْ كَانَ كَمَالُهُ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ، وَإِلَهِيَّتُهُ وَرُبُوبِيَّتُهُ وَغِنَاهُ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ، وَمَا سِوَاهُ فَإِنَّمَا يُبْغَضُ وَيُكْرَهُ لِمُنَافَاتِهِ مَحَابَّهُ وَمُضَادَّتِهِ لَهَا، وَبُغْضُهُ وَكَرَاهَتُهُ بِحَسَبِ قُوَّةِ هَذِهِ الْمُنَافَاةِ وَضَعْفِهَا، فَمَا كَانَ أَشَدَّ مُنَافَاةً لِمَحَابِّهِ، كَانَ أَشَدَّ كَرَاهَةً مِنَ الْأَعْيَانِ وَالْأَوْصَافِ وَالْأَفْعَالِ وَالْإِرَادَاتِ وَغَيْرِهَا.

فَهَذَا مِيزَانٌ عَادِلٌ تُوزَنُ بِهِ مُوَافَقَةُ الرَّبِّ وَمُخَالَفَتُهُ وَمُوَالَاتُهُ وَمُعَادَاتُهُ، فَإِذَا رَأَيْنَا شَخْصًا يُحِبُّ مَا يَكْرَهُهُ الرَّبُّ تَعَالَى وَيَكْرَهُ مَا يُحِبُّهُ، عَلِمْنَا أَنَّ فِيهِ مِنْ مُعَادَاتِهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ، وَإِذَا رَأَيْنَا الشَّخْصَ يُحِبُّ مَا يُحِبُّهُ الرَّبُّ وَيَكْرَهُ مَا يَكْرَهُهُ، وَكُلَّمَا كَانَ الشَّيْءُ أَحَبَّ إِلَى الرَّبِّ كَانَ أَحَبَّ إِلَيْهِ وَآثَرَهُ عِنْدَهُ، وَكُلَّمَا كَانَ أَبْغَضَ إِلَيْهِ كَانَ أَبْغَضَ إِلَيْهِ وَأَبْعَدَ مِنْهُ، عَلِمْنَا أَنَّ فِيهِ مِنْ مُوَالَاةِ الرَّبِّ بِحَسَبِ ذَلِكَ.

فَتَمَسَّكْ بِهَذَا الْأَصْلِ فِي نَفْسِكَ وَفِي غَيْرِكَ، فَالْوِلَايَةُ عِبَارَةٌ عَنْ مُوَافَقَةِ الْوَلِيِّ الْحَمِيدِ فِي مَحَابِّهِ وَمَسَاخِطِهِ، وَلَيْسَتْ بِكَثْرَةِ صَوْمٍ وَلَا صَلَاةٍ وَلَا تَمَزُّقٍ وَلَا رِيَاضَةٍ.

وَالْمَحْبُوبُ لِغَيْرِهِ قِسْمَانِ أَيْضًا:

أَحَدُهُمَا: مَا يَلْتَذُّ الْمُحِبُّ بِإِدْرَاكِهِ وَحُصُولِهِ.

وَالثَّانِي: مَا يَتَأَلَّمُ بِهِ، وَلَكِنْ يَحْتَمِلُهُ لِإِفْضَائِهِ إِلَى مَحْبُوبِهِ، كَشُرْبِ الدَّوَاءِ الْكَرِيهِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦]. فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْقِتَالَ مَكْرُوهٌ لَهُمْ مَعَ أَنَّهُ خَيْرٌ لَهُمْ لِإِفْضَائِهِ إِلَى أَعْظَمِ مَحْبُوبٍ وَأَنْفَعِهِ.

وَالنُّفُوسُ تُحِبُّ الرَّاحَةَ وَالدَّعَةَ وَالرَّفَاهِيَةَ، وَذَلِكَ شَرٌّ لَهَا لِإِفْضَائِهِ إِلَى فَوَاتِ الْمَحْبُوبِ، فَالْعَاقِلُ لَا يَنْظُرُ إِلَى لَذَّةِ الْمَحْبُوبِ الْعَاجِلِ فَيُؤْثِرُهَا، وَأَلَمِ الْمَكْرُوهِ الْعَاجِلِ فَيَرْغَبُ عَنْهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ قَدْ يَكُونُ شَرًّا لَهُ، بَلْ قَدْ يَجْلِبُ عَلَيْهِ غَايَةَ الْأَلَمِ وَيُفَوِّتُهُ أَعْظَمَ اللَّذَّةِ، بَلْ عُقَلَاءُ الدُّنْيَا يَتَحَمَّلُونَ الْمَشَاقَّ الْمَكْرُوهَةَ لِمَا يُعْقِبُهُمْ مِنَ اللَّذَّةِ بَعْدَهَا، وَإِنْ كَانَتْ مُنْقَطِعَةً.

فَالْأُمُورُ أَرْبَعَةٌ:

- مَكْرُوهٌ يُوَصِّلُ إِلَى مَكْرُوهٍ.
- وَمَكْرُوهٌ يُوَصِّلُ إِلَى مَحْبُوبٍ.
- وَمَحْبُوبٌ يُوَصِّلُ إِلَى مَحْبُوبٍ.
- وَمَحْبُوبٌ يُوَصِّلُ إِلَى مَكْرُوهٍ.

فَالْمَحْبُوبُ الْمُوَصِّلُ إِلَى الْمَحْبُوبِ قَدِ اجْتَمَعَ فِيهِ دَاعِي الْفِعْلِ مِنْ وَجْهَيْنِ، وَالْمَكْرُوهُ الْمُوَصِّلُ إِلَى مَكْرُوهٍ، قَدِ اجْتَمَعَ فِيهِ دَاعِي التَّرْكِ مِنْ وَجْهَيْنِ.

بَقِيَ الْقِسْمَانِ الْآخَرَانِ يَتَجَاذَبُهُمَا الدَّاعِيَانِ، وَهُمَا مُعْتَرَكُ الِابْتِلَاءِ وَالِامْتِحَانِ، فَالنَّفْسُ تُؤْثِرُ أَقْرَبَهُمَا جِوَارًا مِنْهَا وَهُوَ الْعَاجِلُ، وَالْعَقْلُ وَالْإِيمَانُ يُؤْثِرُ أَنْفَعَهُمَا وَأَبْقَاهُمَا، وَالْقَلْبُ بَيْنَ الدَّاعِيَيْنِ، وَهُوَ إِلَى هَذَا مَرَّةً، وَإِلَى هَذَا مَرَّةً.

وَهَاهُنَا مَحَلُّ الِابْتِلَاءِ شَرْعًا وَقَدَرًا، فَدَاعِي الْعَقْلِ وَالْإِيمَانِ يُنَادِي كُلَّ وَقْتٍ: حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى، وَفِي الْمَمَاتِ يَحْمَدُ الْعَبْدُ التُّقَى، فَإِنِ اشْتَدَّ ظَلَامُ لَيْلِ الْمَحَبَّةِ، وَتَحَكَّمَ سُلْطَانُ الشَّهْوَةِ وَالْإِرَادَةِ، يَقُولُ: يَا نَفْسُ اصْبِرِي،

فَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ ثُمَّ تَنْقَضِي ... وَيَذْهَبُ هَذَا كُلُّهُ وَيَزُولُ

الشرح:

المحبوبات على قسمين:

قسمٌ يُحب لذاته، وهو الله، فليس شيء يُحب لذاته إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقسمٌ يُحب لغيره، وهذا يُنظر فيه ويُوَازن بين حاضره ومستقبله أيهما أحسن وأيهما أنفع؛ فالعبد يفكر في هذه الأمور، ولا يندفع مع محبوباته دون أن ينظر فيها وفي عواقبها ومآلاتها، فيأخذ منها ما تكون عاقبته حميدة، ويترك ما كانت عاقبته سيئة، ولا يتبع شهوة نفسه مطلقًا، بل ينظر في المآلات.

والمحبة موجودة في كل الناس، لكن يُنظر في هذا المحبوب، هل هو يُحب لذاته أو يُحب لغيره؟

فالمؤمنون يُحبون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لذاته، ويحبون ما يحبه الله، وهذا أمرٌ محمود، والأصل أن المحب يطيع محبوبه، أما الكفار فيحبون الأصنام أشد من

حبهم لله، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

ومحبة المؤمنين لله تبقى آثارها في الدنيا والآخرة، ومحبة غير الله تؤول إلى شر وإلى عداوة بين المحبوب والمُحب، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ يعني: الرجوع إلى الدنيا ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧].

فالمتحابون في غير الله تنقطع محبتهم في الآخرة، وتنقلب إلى عداوة: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧]، ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٢٥].

أما المتحابون في الله، الذين تجمعهم محبة الله ومحبة رسله وأنبيائه وعباده الصالحين، فهذه المحبة تبقى، ويكونون أحبة في الآخرة أيضًا: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧].

فالنظر في العواقب ومآلات الأمور هو غاية العقلاء، فهؤلاء أحبوا غير الله فصار محبوبهم عدوًا لهم يوم القيامة، وتبرأ منهم وتبرءوا منه، وهؤلاء أحبوا الله وأحبوا عباده الصالحين فاستمرت محبتهم ولم تنقطع أبدًا.

وقوله: (**فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْقِتَالَ مَكْرُوهٌ لَهُمْ مَعَ أَنَّهُ خَيْرٌ لَهُمْ**) هذه كراهة نفسية وليست كراهة دينية، فلو أن أحدًا يكره القتال كراهة دينية لصار مرتدًا؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد:٩]، فمن كره القتال كراهة دينية فقد كفر، أما إذا كان يكرهه كراهة نفسية لما فيه من مشقة فهذا لا يؤاخذ على هذه الكراهة، بل إذا تغلب على نفسه وفعل ما تكرهه من القتال والصيام والصلاة، فهذا يؤول إلى خير بإذن الله، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦]، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩].

والفرق بين الذي يقوم الليل ويتهجد، وبين من ينام كل الليل: أن هذا آثر العاقبة على النوم، فالنوم محبوب ومطلوب، لكنه آثر ما هو خيرٌ منه، وقام يصلي ويتهجد، وذاك أطاع نفسه فنام كل الليل، وحُرم من الخير، فهو استراح حاضرًا، لكنه سيتعب مستقبلًا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:٩].

فَصْلٌ

وَإِذَا كَانَ الْحُبُّ أَصْلَ كُلِّ عَمَلٍ مِنْ حَقٍّ وَبَاطِلٍ، فَأَصْلُ الْأَعْمَالِ الدِّينِيَّةِ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، كَمَا أَصْلُ الْأَقْوَالِ الدِّينِيَّةِ تَصْدِيقُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

وَكُلُّ إِرَادَةٍ تَمْنَعُ كَمَالَ الْحُبِّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُزَاحِمُ هَذِهِ الْمَحَبَّةَ، أَوْ شُبْهَةٍ تَمْنَعُ كَمَالَ التَّصْدِيقِ، فَهِيَ مُعَارِضَةٌ لِأَصْلِ الْإِيمَانِ أَوْ مُضْعِفَةٌ لَهُ، فَإِنْ قَوِيَتْ حَتَّى عَارَضَتْ أَصْلَ الْحُبِّ وَالتَّصْدِيقِ كَانَتْ كُفْرًا أَوْ شِرْكًا أَكْبَرَ، وَإِنْ لَمْ تُعَارِضْهُ قَدَحَتْ فِي كَمَالِهِ، وَأَثَّرَتْ فِيهِ ضَعْفًا وَفُتُورًا فِي الْعَزِيمَةِ وَالطَّلَبِ، وَهِيَ تَحْجُبُ الْوَاصِلَ، وَتَقْطَعُ الطَّالِبَ، وَتُنَكِّسُ الرَّاغِبَ.

فَلَا تَصِحُّ الْمُوَالَاةُ إِلَّا بِالْمُعَادَاةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ إِمَامِ الْحُنَفَاءِ الْمُحِبِّينَ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٧٥ - ٧٧]. فَلَمْ تَصِحَّ لِخَلِيلِ اللَّهِ الْمُوَالَاةُ وَالْخُلَّةُ إِلَّا بِتَحْقِيقِ هَذِهِ الْمُعَادَاةِ، فَإِنَّهُ لَا وَلَاءَ إِلَّا بِالْبَرَاءَةِ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة:٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٦ - ٢٨]. أَيْ: جَعَلَ هَذِهِ الْمُوَالَاةَ لِلَّهِ، وَالْبَرَاءَةَ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ يَتَوَارَثُهَا الْأَنْبِيَاءُ وَأَتْبَاعُهُمْ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَهِيَ كَلِمَةُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَهِيَ الَّتِي وَرَّثَهَا إِمَامُ الْحُنَفَاءِ لِأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَهِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي قَامَتْ بِهَا الْأَرْضُ وَالسَّمَوَاتُ، وَفَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهَا جَمِيعَ

الْمَخْلُوقَاتِ، وَعَلَيْهَا أُسِّسَتِ الْمِلَّةُ وَنُصِبَتِ الْقِبْلَةُ، وَجُرِّدَتْ سُيُوفُ الْجِهَادِ، وَهِيَ مَحْضُ حَقِّ اللهِ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ، وَهِيَ الْكَلِمَةُ الْعَاصِمَةُ لِلدَّمِ وَالْمَالِ وَالذُّرِّيَّةِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَالْمُنْجِيَةُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ النَّارِ، وَهِيَ الْمَنْشُورُ الَّذِي لَا يُدْخَلُ الْجَنَّةُ إِلَّا بِهِ، وَالْحَبْلُ الَّذِي لَا يَصِلُ إِلَى اللهِ مَنْ لَمْ يَتَعَلَّقْ بِسَبَبِهِ.

وَهِيَ كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ، وَمِفْتَاحُ دَارِ السَّلَامِ، وَبِهَا انْقَسَمَ النَّاسُ إِلَى شَقِيٍّ وَسَعِيدٍ، وَمَقْبُولٍ وَطَرِيدٍ، وَبِهَا انْفَصَلَتْ دَارُ الْكُفْرِ مِنْ دَارِ الْإِيمَانِ، وَتَمَيَّزَتْ دَارُ النَّعِيمِ مِنْ دَارِ الشَّقَاءِ وَالْهَوَانِ، وَهِيَ الْعَمُودُ الْحَامِلُ لِلْفَرْضِ وَالسُّنَّةِ، وَمَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ(١).

الشرح:

المؤمن يحب ما يحبه الله، فيحب الله عَزَّوَجَلَّ ويحب طاعته ويحب أولياءه، ويعادي أعداء الله ولو كانوا أقرب الناس إليه، فيُغلب محبة الله على محبة القرابة والنسب، هذه علامة الإيمان: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [المجادلة:٢٢]، فهم يحبون في الله ويعادون في الله، يحبون المؤمنين ولو كانوا ليسوا أقارب لهم، ولو كانوا من جنسٍ آخر من العرب أو العجم، أو من السود أو من البيض، من يحبه الله

---

(١) كما في حديث معاذ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أخرجه أحمد (٥/٢٣٣)، وأبو داود (٣١١٦)، والحاكم (١/٥٠٣).

فإنهم يحبونه تبعًا لمحبة الله، ويُبغضون من يُبغضه الله ولو كان أقرب الناس إليهم نسبًا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ﴾ يعني: انتظروا ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٣، ٢٤].

فليس المدار على رغبة النفس، وإنما المدار على ما يحبه الله ورسوله، وإن كانت نفسك تنفر منه في أول الأمر فإنك ترتاح معه في المستقبل، أما إذا كانت نفسك تطمئن لشيء وهو من سخط الله، فإن نفسك تتعب معه في المستقبل.

وإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تبرأ من أبيه وهو أقرب الناس إليه، بعد أن بذل الجهد في نصحه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ [مريم:٤٣ - ٤٥]، كان فيه عطفٌ عليه في الأول ويريد له النجاة، فلما رأى أنه لا يقبل عاداه وتبرأ منه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [التوبة:١١٤].

فبقيت هذه الخصلة العظيمة في عقب إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فلا يزال من ذريته من يعبد الله وحده لا شريك له، ويحب أولياء الله، ويُبغض أعداء الله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف:٢٨]، فيهم الأنبياء، وفيهم

الصالحون، لا يزالون على ميراث أبيهم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وهذه الكلمة هي: **(لَا إله إلَّا الله)**، وما يتبعها من الولاء والبراء، والمحبة والبُغض، والفعل والترك، وليست مجرد كلمة تُقال باللسان فقط، بل المقصود تحقيق هذه الكلمة، ومعرفة معناها، والعمل بمقتضاها ظاهرًا وباطنًا، أما مجرد التلفظ بها فهذا لا يكفي، قد يكفي في الدنيا بأن يُحقن دم قائلها مثل المنافقين، لكن لا تنفعه في الآخرة إلا إذا استقام عليها وحققها، وأتى بشروطها وأركانها.

فهي كلمة عظيمة وقليلة اللفظ، لكن الشأن في تحقيقها، والعمل بها، ومن قالها من قلبه مخلصًا لله ومات عليها دخل الجنة، أما مجرد قولها باللسان دون التفكر في معناها أو العمل بمقتضاها فلا تنفع، قد يدخل قائلها بها في عصمة المال والدم في الدنيا مثل المنافقين، لكنه في الآخرة لا يكون له حظ ولا نصيب، إنما يسعد بها في الدنيا وفي الآخرة من قالها حقًّا وعمل بمقتضاها.

فهي كلمة عظيمة، لكن تحتاج إلى فقه وتأمل، وتحتاج إلى دراسة وعمل، وليست مجرد لفظ يُقال باللسان فقط، ثم يدعو قائلها غير الله، فيقول: يا علي، يا حسين، يا عبد القادر؛ يدعو الأموات ويستغيث بهم! فلن تنفعه إن لم يعمل بها. وكذلك فعل المعاصي يُنقص هذه الكلمة، وقد لا يبقى منها إلا اليسير، أو يذهب بثوابه كله إذا كانت سيئاته راجحة.

فهي كلمة عظيمة تحتاج إلى فقهٍ في معناها، وعملٍ بمقتضاها، والتزام لما تدلُ عليه وتدعو إليه، ولذلك قامت بها السموات والأرض؛ لأنها كلمة حق وعدل، وهي العروة الوثقى لا انفصام لها، وهي كلمة التقوى.

وَرُوحُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَسِرُّهَا: إِفْرَادُ الرَّبِّ -جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، وَتَبَارَكَ اسْمُهُ، وَتَعَالَى جَدُّهُ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ- بِالْمَحَبَّةِ وَالْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وَتَوَابِعِ ذَلِكَ مِنَ التَّوَكُّلِ وَالْإِنَابَةِ وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ.

فَلَا يُحَبُّ سِوَاهُ، وَكُلُّ مَا كَانَ يُحَبُّ غَيْرُهُ فَإِنَّمَا يُحَبُّ تَبَعًا لِمَحَبَّتِهِ، وَكَوْنِهِ وَسِيلَةً إِلَى زِيَادَةِ مَحَبَّتِهِ، وَلَا يُخَافُ سِوَاهُ، وَلَا يُرْجَى سِوَاهُ، وَلَا يُتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ، وَلَا يُرْغَبُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا يُرْهَبُ إِلَّا مِنْهُ، وَلَا يُحْلَفُ إِلَّا بِاسْمِهِ، وَلَا يُنْظَرُ إِلَّا لَهُ، وَلَا يُتَابُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا يُطَاعُ إِلَّا أَمْرُهُ، وَلَا يُتَحَسَّبُ إِلَّا بِهِ، وَلَا يُسْتَغَاثُ فِي الشَّدَائِدِ إِلَّا بِهِ، وَلَا يُلْتَجَأُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا يُسْجَدُ إِلَّا لَهُ، وَلَا يُذْبَحُ إِلَّا لَهُ وَبِاسْمِهِ.

وَيَجْتَمِعُ ذَلِكَ فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ: أَنْ لَا يُعْبَدَ إِلَّا إِيَّاهُ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ، فَهَذَا هُوَ تَحْقِيقُ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

الشرح:

لا يزال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتكلم على (لا إله إلا الله) وما تقضيه من إفراد الله جَلَّ وَعَلَا بالعبادة، وترك عبادة ما سواه؛ لأنها مرَّكبةٌ من شيئين: نفي وإثبات، فقول: (لا إله) هذا نفي، وقول: (إلَّا الله): هذا إثبات، والنفي ينفي جميع ما يُعبد من دون الله، ويُبطل عبادته؛ لأنه مخلوق لا يستحق العبادة، وأما الله جَلَّ وَعَلَا فهو الذي يستحق العبادة؛ لأنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت، المدبر، كل شيءٍ بأمره، وكل شيءٍ بيده، وأما ما سواه فإنه مخلوق، ولا يستطيع أن يخلق شيئًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ [الحج:٧٣]، فما داموا لا يقدرون على خلق شيءٍ

حتى أتفه الأشياء فإنهم لا يستحقون شيئًا من العبادة.

ولكن المشركين يقولون: نحن نعلم أنهم لا يخلقون ولا يرزقون، وإنما نريد منهم الوساطة بيننا وبين الله، والشفاعة عند الله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، هذه حجتهم.

والله جَلَّوَعَلَا ليس بحاجة إلى الوسطاء والشفعاء، بل إنه أمرنا بعبادته وحده ودعائه مباشرة: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]، فليس الله بحاجة إلى أن تتخذ بينك وبينه واسطة؛ لأن الله يعلم كل شيء، إنما تُتخذ الواسطة عند الذي لا يعلم الأشياء حتى يُبلَّغ عنها، مثل الملوك والرؤساء الذين لا يعلمون أحوال الرعية حتى يأتيهم من يعلمهم بها، فيحتاجون إلى من يُبلغهم، وحتى إذا علموا فإنهم لا يستجيبون لحاجة الرعية إلا بعد تعبٍ وبعد طلب. أما الله جَلَّوَعَلَا فإنه عليمٌ بكل شيء لا تخفى عليه خافية: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:١٨].

الله جَلَّوَعَلَا يعلم حوائج العباد، ويعلم فقرهم، وأيضًا هو يريد لعباده الخير والنفع، ويريد لهم الرزق، فما عليهم إلا أن يتوجهوا إليه بالدعاء ويطلبوا منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو قريب مجيب، وليس بحاجة إلى الوسطاء والشفعاء كما هو حال ملوك ورؤساء الدنيا، فهذا من قياس الخالق على المخلوق، وهذا تنقيصٌ لله عَزَّوَجَلَّ.

فلا إله إلا الله تُبطل كل هذه الأمور، وتُثبت الألوهية، وهي العبادة لله

عَزَّوَجَلَّ بجميع أنواعها: المحبة، والخوف، والرجاء، والرغبة، والرهبة، والإنابة، والخشوع، والخشية، والصلاة، والصيام؛ لأن العبادة على ثلاثة أقسام:

عبادة قولية باللسان: مثل الذكر، والتسبيح، والتهليل، والتكبير.

وعبادة قلبية: وهي الخوف، والخشية، والرغبة، والتوكل، والإنابة.

وعبادة عملية: يؤديها الإنسان بالجوارح والأعضاء، كالصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقات.

فجميع أنواع العبادة لا تصلح إلا لله جَلَّوَعَلَا، وهي حقه على عباده كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»**(١).

فالعبادة حقٌ لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، لا يجوز أن تُعطى لغيره مما لا يملك نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان:٣]، فإذا كانوا لا يملكون لأنفسهم، فكيف يملكون لغيرهم؟!

فهذا من ضياع العقول والأفكار، ومن تلاعب الشيطان ببني آدم، فهو الذي يدعوهم إلى الشرك، ويدعوهم إلى البدع، و يريد أن يُخرجهم عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك أتباعه من شياطين الإنس الذين يدعون إلى البدع، وإلى الشركيات، وإلى الخرافات، فالشياطين على قسمين: شياطين الإنس من بني

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

آدم، وشياطين الجن من ذرية إبليس، وكلهم يتفقون على إضلال الناس، وإغوائهم، وصرفهم عن طاعة الله.

فيجب على العباد أن يحذروا من هؤلاء، وأن يتجهوا إلى داعي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالله يدعو عباده إلى الجنة ليغفر لهم، والشياطين من الجن والإنس تدعوهم إلى عذاب الله وإلى السعير: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦]، هذا قصده: أن يُدخل بني آدم النار، ومن العجب أن كثيرًا من بني آدم يتركون طاعة ربهم الذي يريد لهم الخير، ويريد لهم الجنة، ويريد لهم المغفرة، ويريد لهم الرزق، ويطيعون عدوهم الذي يريد لهم الضرر، ويريد لهم العذاب، ويريد لهم النار، ويريد لهم الفساد: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس:٦٠، ٦١].

لكن عقولهم تعمى وتنتكس، وتزيغ وتضل، فتتجه إلى هذا الاتجاه الخبيث الضار وهي لا تشعر، بل يزين لها أنه خير: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ [التوبة:٣٧]، زُين لهم ولُبس عليهم.

فالناس يحتاجون إلى بيان ويحتاجون إلى دعوة، ويحتاجون إلى تعليم، ويحتاجون إلى أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وإلا فإن الشيطان وجنوده من الأنس والجن يستولون عليهم، فلا بد من الجهاد باللسان، والجهاد بالقلم، والجهاد بالسيف، لا بد من أنواع الجهاد كلها.

وقد أمر الله بإفراده وحده بالعبادة، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ يعني: أمر ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا

لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة:٣١]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، هذا هو الأمر الذي أمر به العباد، فالشيطان له أمر، والله جَلَّوَعَلَا له أمر، الله أمر بعبادته، ونهى عن الإشراك به، والشيطان يأمر بالشرك وينهى عن التوحيد.

وليس المراد شيطان الجن فقط، لكن شياطين الإنس أشد، ولذلك قدَّمهم الله بالذكر على شياطين الجن: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]؛ لأن شياطين الإنس يخالطوننا، ويتظاهرون لنا بالأخوة والمحبة، ونراهم من جنسنا يجلسون معنا ويتحدثون معنا، أما شياطين الجن فإنهم يزينون في القلب ويشبهون على الناس وهم لا يُرونهم: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧]، فشياطين الإنس أخطر على البشرية من شياطين الجن، ولذلك يجب الحذر منهم.

هذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، فليست هي كلمة تقال باللسان فقط، ولو كان الأمر كذلك لما شقَّ على الناس أمرها، لكنها كلمة ثقيلة تحتاج عمل والتزام، فهي خفيفة على اللسان لكنها ثقيلة في العمل، فتحتاج إلى تقيد بها، وتحتاج إلى أن تُصرف جميع العبادات لله، وأن يُترك الشرك كله، وهذا صعب إلَّا على من وفقه الله.

فإذا قال العبد: (لا إله إلا الله)، فإنه يجب عليه أن يلتزم بمعناها، وأن يعمل بمقتضاها، أما أن يقولها بلسانه فقط، فهذا لا يُجدي شيئًا ولو رددها وكررها.

فالذين يقولون: (لا إله إلا الله)، ويُكثرون ترديدها، ولهم أوراد صباحية

ومسائية، ولكنهم يدعون غير الله، يتوسلون بالموتى والقبور والأضرحة ويستغيثون بهم، هؤلاء ناقضوا (لا إله إلا الله) وأبطلوها، فجمعوا بين المتناقضين من حيث لا يشعرون.

ولذلك لما ذهب المشركون يشكون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عمه أبي طالب، قال له عمه: يَا ابْنَ أَخِي، مَا تُرِيدُ مِنْ قَوْمِكَ؟ قَالَ: «**إِنِّي أُرِيدُ مِنْهُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمُ الْعَجَمُ الْجِزْيَةَ**». قَالَ: كَلِمَةً وَاحِدَةً؟ قَالَ: «**كَلِمَةً وَاحِدَةً**»، قَالَ: «**يَا عَمِّ، يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**»، فَقَالُوا: إِلَهًا وَاحِدًا؟! مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ(١).

فالمشركون فهموا معناها وأبوا أن يقولوها؛ لأنهم يعلمون أنها كلمة تحتاج إلى التزام، وفهموا أن من يقولها يجعل الآلهة إلهًا واحدًا، ولا يعبد غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهم لا يريدون ذلك، بل يريدون أن يعبدوا اللات والعزى ومناة والأصنام، فأبوا أن يقولوا: (لا إله إلا الله)؛ لأنها تقتضي منهم أن يتركوا عبادة الأصنام، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص:٥]، ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْأَخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص:٧]، ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات:٣٦]، يعنون الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويصفونه بأنه شاعر مجنون.

فلو كان المراد أن يقولوا: (لا إله إلا الله) بألسنتهم فقط، وأن يبقوا على عبادة الأصنام، لفعلوا ذلك، لكنهم عرب فصحاء، يعرفون المعنى، ويعرفون

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٦٢)، والترمذي (٣٢٣٢)، والنسائي في الكبرى (٨/ ٩٠)، والحاكم (٢/ ٤٦٩)، وابن حبان (١٥/ ٧٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

أن هذه الكلمة ليست بعبث ولا لعب، وإنما هي كلمةٌ لها معنى، وأن من قالها يجب عليه أن لا يعبد إلا الله، وأن يترك عبادة ما سواه، فأبوا أن يقولوها وأصروا، حتى قاتلهم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأمر الله عَزَّوَجَلَّ؛ حتى يكون الدين كله لله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩].

فإذا أبى الكافر والمشرك أن يُجيب الدعوة، وأبى أن يعبد الله فإنه يُقاتل؛ لأجل ألا ينتشر الشرك في الأرض؛ لأن أهل الشر نشيطون في نشر الشرك ونشر الشر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال:٣٦]، فهم نشيطون في كل زمان؛ لأن الشيطان يدفعهم، أما أهل التوحيد عندهم كسل؛ لأن الشيطان يخذلهم، ولأن العمل يحتاج إلى صبر وإلى قوة، والنفوس تريد الكسل وتريد الخمول وتريد الراحة، إلا من شاء الله من عباده المخلَصين الذين جاهدوا في الله حق جهاده وصبروا، وبذلوا دمائهم وأموالهم في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، وآثروا الآخرة على الدنيا.

وَلِهَذَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ حَقِيقَةَ الشَّهَادَةِ[1]. وَمُحَالٌ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ مَنْ تَحَقَّقَ بِحَقِيقَةِ هَذِهِ الشَّهَادَةِ وَقَامَ بِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ [المعارج:٣٣].

فَيَكُونُ قَائِمًا بِشَهَادَتِهِ فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ، فِي قَلْبِهِ وَقَالَبِهِ، فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ تَكُونُ شَهَادَتُهُ مَيِّتَةً، وَمِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ نَائِمَةً إِذَا نُبِّهَتِ انْتَبَهَتْ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ مُضْطَجِعَةً، وَمِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ إِلَى الْقِيَامِ أَقْرَبَ، وَهِيَ فِي الْقَلْبِ بِمَنْزِلَةِ الرُّوحِ فِي الْبَدَنِ، فَرُوحٌ مَيِّتَةٌ، وَرُوحٌ مَرِيضَةٌ إِلَى الْمَوْتِ أَقْرَبُ، وَرُوحٌ إِلَى الْحَيَاةِ أَقْرَبُ، وَرُوحٌ صَحِيحَةٌ قَائِمَةٌ بِمَصَالِحِ الْبَدَنِ.

الشرح:

حرَّم الله على النار من قال: (لا إله إلا الله)، وليس هو مجرد القول فقط، وإنما يبتغي بذلك وجه الله، بهذا القيد.

ولذلك في حديث عتبان بن مالك الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ أَنْكَرْتُ بَصَرِي، وَأَنَا أُصَلِّي لِقَوْمِي، فَإِذَا كَانَتِ الأَمْطَارُ سَالَ الوَادِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ آتِيَ مَسْجِدَهُمْ فَأُصَلِّيَ بِهِمْ، وَوَدِدْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ تَأْتِينِي فَتُصَلِّيَ فِي بَيْتِي، فَأَتَّخِذَهُ مُصَلًّى، قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سَأَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ**».

قَالَ عِتْبَانُ: فَغَدَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ حِينَ ارْتَفَعَ النَّهَارُ، فَاسْتَأْذَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَذِنْتُ لَهُ، فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّى دَخَلَ البَيْتَ، ثُمَّ

---

(١) كما في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخرجه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢).

قَالَ: «**أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ؟**»، قَالَ: فَأَشَرْتُ لَهُ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ البَيْتِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَبَّرَ، فَقُمْنَا فَصَفَّنَا فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ، قَالَ: وَحَبَسْنَاهُ عَلَى خَزِيرَةٍ صَنَعْنَاهَا لَهُ، قَالَ: فَآبَ فِي البَيْتِ، رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ ذَوُو عَدَدٍ، فَاجْتَمَعُوا، فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: أَيْنَ مَالِكُ بْنُ الدُّخْشُنِ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذَلِكَ مُنَافِقٌ لَا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَقُلْ ذَلِكَ، أَلَا تَرَاهُ قَدْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ؟**»، قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّا نَرَى وَجْهَهُ وَنَصِيحَتَهُ إِلَى المُنَافِقِينَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ**»(١). بهذا القيد: «**يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ**».

وفي الحديث الآخر: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مَنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ، وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**»(٢).

أما أن يقول: (لا إله إلا الله) ولا يكفر بما يعبد من دون الله، ولا يبتغي بذلك وجه الله، فهذا لا ينفعه قولها؛ لأن المنافقون يقولون: (لا إله إلاّ الله)، وهم في الدرك الأسفل من النار؛ لأنهم لا يبتغون بذلك وجه الله وإنما يريدون أن يعيشوا مع الناس ويسلموا من القتل، فهم أسلموا ظاهرًا ولكنهم كفار في الباطن، ولا يريدون وجه الله عَزَّ وَجَلَّ. فليس المقصود مجرد التلفظ بـ (لا إله إلا الله)، بل التلفظ والعمل بها، فهي كلمة عظيمة تجمع كل الدين.

وقوله: (**وَمُحَالٌ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ مَنْ تَحَقَّقَ بِحَقِيقَةِ هَذِهِ الشَّهَادَةِ وَقَامَ بِهَا**) كما

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٥) واللفظ له، ومسلم (٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣) من حديث طارق بن أشيم الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾، أي: شهدوا أن لا إله إلا الله ويعملون بها، وفي الآية الأخرى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦]، يعلمون معناها ويعملون بها، بهذا القيد. أما أن يقول: (لا إله إلا الله) وهو لا يعلم معناها، فهذا لا تفيده شيئًا، لابد أن يتعلم معناها وأن يعمل بها.

وقوله: **(فَيَكُونُ قَائِمًا بِشَهَادَتِهِ فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ)** يعني: ملتزم بها في جميع أعماله. وقوله: **(فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ تَكُونُ شَهَادَتُهُ مَيِّتَةً)** أي: أنها مجرد لفظ يقولها وهو لا يعلم معناها، أو يعلم لكنه لا يعمل به، ويدعو غير الله، ويذبح لغير الله، وينذر لغير الله، فهذا يقولها كلمة ميتة ليس لها روح، فلا تفيده. وإلا فكثير من القبوريين في وقتنا الحاضر يقولون: (لا إله إلا الله)؛ لأنهم إما لا يعلمون معناها، أو يعلمون معناها ولكنهم لا يعملون به.

أما المشركون الأولون فقد علموا معناها وأبوا أن يقولوها؛ لأنهم يخشون من التناقض، ولهذا يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعنى لا إله إلا الله»[1].

فمن الناس من يقولها كلمة ميتة ليس فيها فائدة، ولا يستطيع أن يتحول عما هو عليه، مثل ما عليه عباد القبور، متمسكون بما هم عليه، ويقولون: هذا هو الإسلام وهذا هو الدين. والذين يقولون: (لا إله إلا الله) ويدعون إلى التوحيد يسمونهم خوارج!.

---

(١) يُنظر: كشف الشبهات (ص٩).

وأهم شيء عندهم بناء الأضرحة، كلما مات لهم ميت من أهل العلم أو من السلاطين بادروا بالبناء على قبره، والذي لا يُبنى عل قبره ليس له قيمة عندهم، ويقولون: من حقه علينا أن نبني على قبره المشاهد والمساجد، وهم جادين في هذا العمل، ومتمسكين به، ولا يريدون أن يتحولوا عما هم عليه، بل إنهم يجاهدون دونه، ويبذلون دماءهم وأموالهم مثل إخوانهم من المشركين.

فالأمر خطير جدًّا، وأشد البلاء الذي يأتي من الذين ينتسبون إلى الإسلام ولا يحققونه، فهم أخطر على المسلمين من الكفار؛ لأن الكفار معروفون وظاهر للمسلمين عداؤهم، لكن هؤلاء يعيشون بين المسلمين، ويدَّعون الإسلام، ويخدعون الناس بأن ما هم عليه هو الدين الصحيح.

وقوله: **(وَمِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ نَائِمَةً إِذَا نُبِّهَتِ انْتَبَهَتْ)** وهذا أقرب إلى الحق إذا نُبه يتنبه، فرق بين النائم والميت، فالميت ليس فيه رجاء، لكن النائم يمكن يستيقظ، ولذلك الذي إذا دُعي إلى الحق قبله هذا كالنائم إذا نبهته تنبه.

وقوله: **(وَمِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ مُضْطَجِعَةً)**، يعني: عنده كسل، **(وَمِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ إِلَى الْقِيَامِ أَقْرَبَ)** يعني: قريب إلى الحق.

فالناس ليسو على حد سواء، فمنهم المخطئون، ومنهم المخالفون، ومنهم من ليس فيه رجاء، ومنهم إذا نُبِّه إلى الحق تنبه، ومنهم من ينشط ويلبي دعوة الحق فور دعوته، فهؤلاء الذين يُدعون ويُطمع في هدايتهم. أما أولئك الذين ماتت قلوبهم فهم يحتاجون إلى جهاد بالسيف.

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْهُ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَا يَقُولُهَا عَبْدٌ عِنْدَ الْمَوْتِ إِلَّا وَجَدَتْ رُوحُهُ لَهَا رَوْحًا»(١).

فَحَيَاةُ هَذِهِ الرُّوحِ بِحَيَاةِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ فِيهَا، فَكَمَا أَنَّ حَيَاةَ الْبَدَنِ بِوُجُودِ الرُّوحِ فِيهِ، وَكَمَا أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ يَتَقَلَّبُ فِيهَا، فَمَنْ عَاشَ عَلَى تَحْقِيقِهَا وَالْقِيَامِ بِهَا فَرُوحُهُ تَتَقَلَّبُ فِي جَنَّةِ الْمَأْوَى، وَعَيْشُهُ وَأَطْيَبُ عَيْشٍ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

فَالْجَنَّةُ مَأْوَاهُ يَوْمَ اللِّقَاءِ، وَجَنَّةُ الْمَعْرِفَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْأُنْسِ بِاللَّهِ وَالشَّوْقِ إِلَى لِقَائِهِ وَالْفَرَحِ بِهِ وَالرِّضَا بِهِ وَعَنْهُ مَأْوَى رُوحِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ الْجَنَّةُ مَأْوَاهُ هَاهُنَا، كَانَتْ جَنَّةُ الْخُلْدِ مَأْوَاهُ يَوْمَ الْمِيعَادِ، وَمَنْ حُرِمَ هَذِهِ الْجَنَّةَ فَهُوَ لِتِلْكَ الْجَنَّةِ أَشَدُّ حِرْمَانًا، وَالْأَبْرَارُ فِي النَّعِيمِ وَإِنِ اشْتَدَّ بِهِمُ الْعَيْشُ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا، وَالْفُجَّارُ فِي جَحِيمٍ وَإِنِ اتَّسَعَتْ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وَطِيبُ الْحَيَاةِ جَنَّةُ الدُّنْيَا.

الشرح:

قول: (لا إله إلا الله) في القلب بمنزلة الروح في البدن، فكما أن البدن لا يمشي إلا بالروح، كذلك القلب لا يمشي إلا بـ (لا إله إلا الله).

---

(١) أخرجه أحمد (١/٢٨)، والنسائي في الكبرى (٩/٤٠٣)، وابن ماجه (٣٧٩٥)، وابن حبان (١/٤٣٤) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.

وفي الحديث: «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(١)، يعني: إذا قالها بإيمان ويقين ومات عليها دخل الجنة، أما من يقولها مجرد لفظ فقط وهو مقيم على الشرك، فإنها لا تنفعه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي: خاف من الله ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: منع نفسه أن تتبع هواها وتتعاطى الكفر والشرك والمعاصي والشهوات، وهذا ليس سهلًا أن يمنع العبد نفسه من هذه الأمور، فهي تحتاج إلى صبر، وتحتاج إلى إيمان، وتحتاج إلى علم، فمن تحقق فيه هذا ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: مأواه في الآخرة إن شاء الله.

أما من أتبع تفسه هواها، وطغى وتكبر، وتساهل في الكفر والشرك والمعاصي ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٣٨، ٣٩]، يعني: مأواه يوم القيامة، وبئست المأوى.

وقوله: **(فَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ الْجَنَّةُ مَأْوَاهُ هَاهُنَا، كَانَتْ جَنَّةُ الْخُلْدِ مَأْوَاهُ يَوْمَ الْمِيعَادِ)**، هو في جنة في الدنيا والآخرة؛ جنة في الدنيا لأنه مطمئن مرتاح متجه إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويتلذذ بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾، فهو يعيش في هذه الدنيا في حياة طيبة. ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن لله جنةً في الدنيا من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة»(٢). فجنة الدنيا هي ذكر الله وعبادته والأنس

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٣٣)، وأبو داود (٣١١٦)، والطبراني في الكبير (٢٢١)، والحاكم (١/٥٠٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/١٩٨) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ذكر ابن القيم في الوابل الصيب (ص٤٨) أنه سمعه من شيخه، ثم قال: «فسبحان من أشهد

=

بالله عَزَّوَجَلَّ، وبعدها جنة الآخرة، فالذي حُرم الجنة في الدنيا ولم يذق محبة الله وطاعته وعبادته والذكر والاتصال بالله والأنس بذكره في هذه الدنيا، فإنه يُحرم من جنة الآخرة.

وقوله: **(وَالْأَبْرَارُ فِي النَّعِيمِ وَإِنِ اشْتَدَّ بِهِمُ الْعَيْشُ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا)**، وإن اشتدت عليهم الحاجة في الدنيا والفقر إلا أنهم في قلوبهم في نعيم وفي راحة، والراحة هي راحة القلب وليست راحة البدن، **(وَالْفُجَّارُ فِي جَحِيمٍ وَإِنِ اتَّسَعَتْ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا)** فربما يعيش الإنسان في قصور وعلى فرش من الديباج والحرير، وعنده من كنوز الدنيا الكثير، لكن قلبه قلق وخائف ووجل ومضطرب؛ لأنه ليس فيه إيمان وليس فيه نور، فهو لا ينتفع بهذه المظاهر والأموال والمآكل والمشارب؛ لخلو قلبه من إيمان، أما المؤمن فهو في راحة وإن لم يكن عنده شيء؛ لأن العبرة براحة القلب وليست براحة البدن.

=

أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها».

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام:١٢٥]. فَأَيُّ نَعِيمٍ أَطْيَبُ مِنْ شَرْحِ الصَّدْرِ؟ وَأَيُّ عَذَابٍ أَمَرُّ مِنْ ضِيقِ الصَّدْرِ؟

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس:٦٢ - ٦٤].

فَالْمُؤْمِنُ الْمُخْلِصُ لِلَّهِ مِنْ أَطْيَبِ النَّاسِ عَيْشًا، وَأَنْعَمِهِمْ بَالًا، وَأَشْرَحِهِمْ صَدْرًا، وَأَسَرِّهِمْ قَلْبًا، وَهَذِهِ جَنَّةٌ عَاجِلَةٌ قَبْلَ الْجَنَّةِ الْآجِلَةِ.

الشرح:

قوله تعالى: ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾، أي: يوسع صدره، ويُذهب عنه الهموم والقلق والوساوس، ويطمئن للإيمان.

والطرف الثاني: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾؛ لأن الهداية لها أسباب، والضلالة لها أسباب ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾، فتجد العصاة -وإن نالوا شهواتهم في هذه الدنيا- على وجوههم ظُلْمة، وتجدهم مستوحشين ينفرون من الناس، وعليهم علامات القلق والاضطراب وعدم الراحة، فهم في عذاب في قلوبهم وإن كان ظاهرهم أنهم في نعمة.

ولذلك تجد العاصي والكافر أشد شيء عليه أن يُقال له: يا فلان اتق الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة:٢٠٦]، أشد شيء عليه الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لأن

صدره ضيق لا يتحمل شيئًا.

وقوله: ﴿أَلَآ﴾ كلمة تنبيه واستفتاح ﴿إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، لا يخافون من المستقبل، ولا يحزنون على الماضي؛ لأنهم في أمان وراحة وطمأنينة، لكن ما صفتهم؟

قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾، فليس كل من ادعى الولاية لله أو قيل عنه: إنه ولي لله، يكون وليًّا، بل أكثر من يُقال عنهم الآن: إنهم أولياء لله، هم أولياء للشيطان من الكفار والمشركين والملاحدة والزنادقة، فولي الله من اتصف بهاتين الصفتين: الإيمان، وتقوى الله.

ثم بيَّن جزائهم: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ هذا هو محل الشاهد، فهم في الحياة الدنيا يستبشرون ويطمئنون ويرتاحون ويتلذذون بذكر الله وبعبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهم في جنة كما سبق، وفي الآخرة الجنة، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

وقوله: **(فَالْمُؤْمِنُ الْمُخْلِصُ لِلَّهِ مِنْ أَطْيَبِ النَّاسِ عَيْشًا)**، ولهذا يظهر أثر الطاعة والراحة على وجوههم، وعلى تصرفاتهم، وعلى سلوكهم، فهناك فرقٌ بين أهل الطاعة وأهل المعصية في السلوك والأخلاق، حتى في اللون والمنظر، فتجد المؤمن مستبشرًا على وجهه النور والراحة، وتجد العصاة على وجوههم ظلمة وانقباض ووحشة من الناس.

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا»، قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «حِلَقُ الذِّكْرِ»(١).

وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ»(٢).

وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ -وَقَدْ سَأَلُوهُ عَنْ وِصَالِهِ فِي الصَّوْمِ-: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي أَظَلُّ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي»(٣). فَأَخْبَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الْغِذَاءِ عِنْدَ رَبِّهِ يَقُومُ مَقَامَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ الْحِسِّي، وَأَنَّ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ أَمْرٌ يَخْتَصُّ بِهِ وَلَا يُشَارِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ، فَإِذَا أَمْسَكَ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَلَهُ عَنْهُ عِوَضٌ يَقُومُ مَقَامَهُ وَيَنُوبُ مَنَابَهُ، وَيُغْنِي عَنْهُ، كَمَا قِيلَ(٤):

لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرَاكَ تَشْغَلُهَا ... عَنِ الشَّرَابِ وَتُلْهِيهَا عَنِ الزَّادِ
لَهَا بِوَجْهِكَ نُورٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ ... وَمِنْ حَدِيثِكَ فِي أَعْقَابِهَا حَادِ
إِذَا اشْتَكَتْ مِنْ كَلَالِ السَّيْرِ أَوْعَدَهَا ... رَوْحَ اللِّقَاءِ فَتَحْيَا عِنْدَ مِيعَادِ

الشرح:

حِلق الذكر: هي مجالس العلم، تذكرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وتبين لك إذا كنت على خطأ فترجع إلى الصواب، وتستفيد منها ما تجهل، وهي رياض الجنة؛ لأنها

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤١١).

(٢) تقدم تخريجه (ص٤١٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٦٤)، ومسلم (١١٠٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) الأبيات لإدريس بن أبي حفصة، ذكرها أبو الحسن الشمشاطي في الأنوار (١/ ٤٠٠).

توصل إلى الجنة بإذن الله، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ بِهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ**»(١)، فهذه مجالس أهل الجنة، أما مجالس اللهو واللعب فإنها مجالس أهل النار وأهل العذاب.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ**»، لماذا؟ لأن الله أنزل فيها العلم والخير والعبادة، وصلى بها رسول الله، وعلَّم أصحابه، ودعا فيها إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فهي روضة من رياض الجنة، ولذلك تُستحب الصلاة فيها.

قوله: **(وَقَدْ سَأَلُوهُ عَنْ وِصَالِهِ فِي الصَّوْمِ)**، والوصال: أن يصوم أيامًا عديدة لا يُفطر بينها، وهذا نهى عنه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة:١٨٧]، فجعل نهاية الصيام إلى الليل. وفي الحديث: «**قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: إِنَّ أَحَبَّ عِبَادِي إِلَيَّ أَعْجَلُهُمْ فِطْرًا**»(٢).

وقد كانوا في أول الإسلام يصومون اليوم كله، ويفطرون ما بين المغرب والعشاء فقط، فإذا دخل وقت العشاء صاموا إلى المغرب، فلا يُفطرون إلا وقتًا قصيرًا ما بين المغرب والعشاء فقط، فشق ذلك عليهم، فنسخه الله وأمرهم بالإفطار ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر؛ أعطاهم الليل كله يُفطرون فيه يأكلون ويشربون، ويعاشرون أزواجهم؛ تخفيفًا على الناس ورحمةً بالأمة،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٩)، والترمذي (٧٠٠)، والطبراني في الأوسط (١/ ٥٤)، وابن حبان (٨/ ٢٧٥)، والبيهقي في الكبرى (٤/ ٣٣٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالذي يواصل يخالف هذا التسهيل.

وهذا التشريع العظيم عام للأمة، أما الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فله خصائص، منها: أنه كان يواصل في الصيام، ولهذا قال: «**إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي أَظَلُّ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي**»، فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقوى بذلك ويتلذذ به، أما غيره فإنهم يتأثرون ويضعفون إذا واصلوا، والناس لهم أعمال وأشغال وحِرف، فيتضررون من طول الصيام.

وقوله: «**أَظَلُّ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي**»، هذا لا يعلمه إلا الله جَلَّ وَعَلَا.

والشاهد من الأبيات التي أوردها المؤلف: أن الراحلة لا يُتعبها السير؛ لأنها ترجو الوصول إلى هذا الممدوح، فإذا رجت الوصول وذكرت قرب الوصول إلى الممدوح فإنها يهون عليها السير ولا تتأثر به، فكذلك الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا تذكر القدوم على الله وما عند الله له فإنه يسهل عليه ترك الطعام والشراب.

وقد كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب الذكر، ويحب العبادة، ويتقوى بها، وكان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه من طول القيام(١)، وكان يقرأ بالسور الطويلة في ركعةٍ واحدة، ويركع ركوعًا طويلًا، ويسجد سجودًا طويلًا، فلا يُطيق أحد عمل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو له خاصية بذلك، وهذا لا يؤثر عليه وإنما يقويه وينشطه.

---

(١) كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. أخرجه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠).

فَصْلٌ

وَكُلَّمَا كَانَ وُجُودُ الشَّيْءِ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ وَهُوَ إِلَيْهِ أَحْوَجُ، كَانَ تَأَلُّمُهُ بِفَقْدِهِ أَشَدَّ، وَكُلَّمَا كَانَ عَدَمُهُ أَنْفَعَ لَهُ كَانَ تَأَلُّمُهُ بِوُجُودِهِ أَشَدَّ، وَلَا شَيْءَ عَلَى الْإِطْلَاقِ أَنْفَعُ لِلْعَبْدِ مِنْ إِقْبَالِهِ عَلَى اللَّهِ، وَاشْتِغَالِهِ بِذِكْرِهِ، وَتَنَعُّمِهِ بِحُبِّهِ، وَإِيثَارِهِ لِمَرْضَاتِهِ، بَلْ لَا حَيَاةَ لَهُ وَلَا نَعِيمَ وَلَا سُرُورَ وَلَا بَهْجَةَ إِلَّا بِذَلِكَ، فَعَدَمُهُ آلَمُ شَيْءٍ لَهُ، وَأَشَدُّهُ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا تَغِيبُ الرُّوحُ عَنْ شُهُودِ هَذَا الْعَذَابِ وَالْأَلَمِ لِاشْتِغَالِهَا بِغَيْرِهِ، وَاسْتِغْرَاقِهَا فِي ذَلِكَ الْغَيْرِ، فَتَتَغَيَّبُ بِهِ عَنْ شُهُودِ مَا هِيَ فِيهِ مِنْ أَلَمِ الْفَوَاتِ بِفِرَاقِ أَحَبِّ شَيْءٍ إِلَيْهَا، وَأَنْفَعِهِ لَهَا.

وَهَذَا بِمَنْزِلَةِ السَّكْرَانِ الْمُسْتَغْرِقِ فِي سُكْرِهِ، الَّذِي احْتَرَقَتْ دَارُهُ وَأَمْوَالُهُ وَأَهْلُهُ وَأَوْلَادُهُ، وَهُوَ لِاسْتِغْرَاقِهِ فِي السُّكْرِ لَا يَشْعُرُ بِأَلَمِ ذَلِكَ الْفَوَاتِ وَحَسْرَتِهِ، حَتَّى إِذَا صَحَا، وَكُشِفَ عَنْهُ غِطَاءُ السُّكْرِ، وَانْتَبَهَ مِنْ رَقْدَةِ الْخَمْرِ، فَهُوَ أَعْلَمُ بِحَالِهِ حِينَئِذٍ.

وَهَكَذَا الْحَالُ سَوَاءٌ عِنْدَ كَشْفِ الْغِطَاءِ، وَمُعَايَنَةِ طَلَائِعِ الْآخِرَةِ، وَالْإِشْرَافِ عَلَى مُفَارَقَةِ الدُّنْيَا وَالِانْتِقَالِ مِنْهَا إِلَى اللَّهِ، بَلِ الْأَلَمُ وَالْحَسْرَةُ وَالْعَذَابُ هُنَا أَشَدُّ بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ، فَإِنَّ الْمُصَابَ فِي الدُّنْيَا يَرْجُو جَبْرَ مُصِيبَتِهِ بِالْعِوَضِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ أُصِيبَ بِشَيْءٍ زَائِلٍ لَا بَقَاءَ لَهُ، فَكَيْفَ بِمَنْ مُصِيبَتُهُ بِمَا لَا عِوَضَ عَنْهُ، وَلَا بَدَلَ مِنْهُ، وَلَا نِسْبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الدُّنْيَا جَمِيعِهَا؟ فَلَوْ قَضَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ مِنْ هَذِهِ الْحَسْرَةِ وَالْأَلَمِ لَكَانَ الْعَبْدُ جَدِيرًا بِهِ، فَإِنَّ الْمَوْتَ لَيَعُودُ أَعْظَمَ أُمْنِيَتِهِ وَأَكْبَرَ حَسَرَاتِهِ، هَذَا لَوْ كَانَ الْأَلَمُ عَلَى مُجَرَّدِ الْفَوَاتِ، فَكَيْفَ وَهُنَاكَ مِنَ الْعَذَابِ عَلَى الرُّوحِ وَالْبَدَنِ بِأُمُورٍ أُخْرَى وُجُودِيَّةٍ مَا لَا يُقَدِّرُهُ قَدْرَهُ؟

فَتَبَارَكَ مَنْ حَمَّلَ هَذَا الْخَلْقَ الضَّعِيفَ هَذَيْنِ الْأَلَمَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ اللَّذَيْنِ لَا تَحْمِلُهُمَا الْجِبَالُ الرَّوَاسِي!.

فَاعْرِضْ عَلَى نَفْسِكَ الْآنَ أَعْظَمَ مَحْبُوبٍ لَكَ فِي الدُّنْيَا، بِحَيْثُ لَا تَطِيبُ لَكَ الْحَيَاةُ إِلَّا مَعَهُ، فَأَصْبَحْتَ وَقَدْ أُخِذَ مِنْكَ، وَحِيلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ أَحْوَجَ مَا كُنْتَ إِلَيْهِ، كَيْفَ يَكُونُ حَالُكَ؟ هَذَا وَمِنْهُ كُلُّ عِوَضٍ، فَكَيْفَ بِمَنْ لَا عِوَضَ عَنْهُ؟

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِذَا ضَيَّعْتَهُ عِوَضُ وَمَا مِنَ اللَّهِ إِنْ ضَيَّعْتَهُ عِوَضُ

وَفِي أَثَرٍ إِلَهِيٍّ: «ابْنَ آدَمَ، خَلَقْتُكَ لِعِبَادَتِي فَلَا تَلْعَبْ، وَتَكَفَّلْتُ بِرِزْقِكَ فَلَا تَتْعَبْ، ابْنَ آدَمَ، اطْلُبْنِي تَجِدْنِي، فَإِنْ وَجَدْتَنِي وَجَدْتَ كُلَّ شَيْءٍ، وَإِنْ فُتُّكَ فَاتَكَ كُلُّ شَيْءٍ، وَأَنَا أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»[(١)].

الشرح:

المؤمن لا يتلذذ إلا بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ وعبادته وذكره، وتلاوة القرآن، والصيام، والتهجد، وأما الفاسق فإنه يتلذذ بالشهوات، والكسل، والنوم، وهذا حِرمان له، فإنه يتمتع متاعًا عاجلًا ويفقد المتاع الدائم، أما المؤمن قوي الإيمان فهو على العكس يتلذذ بالطاعات والقربات، ويرتاح فيها ويطمئن فيها؛ لأنه يرجو ثوابها وعاقبتها، فتهون عليه المتاعب بقوة إيمانه بما عند الله، فالله جَلَّوَعَلَا يُمده ويُعينه على ما يقوم به من العبادات.

وكذلك المؤمن إذا فاتته العبادة إما لنومٍ أو مرضٍ أو مانع أو عارض

---

(١) لم أقف عليه مسندًا، وقد أورده شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٨/ ٥٢)، فقال: «وفي حديث إسرائيلي ...» فذكره.

عرض له، يتألم لفقدها؛ لأنها لذته وراحته وطمأنينته.

فإذا اشتغلت الروح بالملذات والشهوات والغفلات فقدت هذه النعمة وهذه الراحة، ولهذا فإن أهل الكسل والعصاة تثقل عليهم الطاعات، وتشق عليهم مشقة عظيمة، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: الصلاة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥]، الخاشعون يتلذذون بها، ويستريحون بها، مهما طالت فهم في لذّة، كما كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستريح بالصلاة ويقول: «**يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا**»(١).

وأما أهل الكسل وأهل ضعف الإيمان أو المنافق فهذا أشق شيء عليه الصلاة؛ لأنه لا يجد لها لذة ولا يجد فيها راحة، وإذا دخل فيها فهو كالطائر في القفص، يريد الخروج منها، وقد يسابق الإمام ولا يصبر؛ لأنها ثقيلةٌ عليه: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:٤٥، ٤٦]، فهذا هو السر في كون هؤلاء يتكاسلون عن الصلاة ويتثاقلون عنها؛ لأنهم لا يجدون فيها راحتهم ولذتهم، وإنما يجدون هذا في شهواتهم.

وقوله: **(وَهَذَا بِمَنْزِلَةِ السَّكْرَانِ الْمُسْتَغْرِقِ فِي سُكْرِهِ)** السكر ليس خاصًّا بالخمر، فقد يسكر الإنسان بملذات الدنيا وشهواتها، فهو سكران بمعنى أنه مشغول البال والفِكر، فلا يستحضر ما أمامه وما هو قادم عليه ويغفل عنه،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٨٥) من حديث رجل من خزاعة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه أحمد (٥/ ٣٦٤) من حديث رجل من أسلم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه الطبراني في الكبير (٦٢١٥) من حديث سالم بن خالد الخزاعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

مثل السكران الذي لا يدري أين هو. فالسُكر سُكران: سُكر الخمر، وسُكر الغفلة.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ [ق: ١٩-٢٢]، لكن ما ينفعه، صار بصره قويًّا يشاهد ما هو قادمٌ عليه، ولكن لا يتمكن أنه يستدرك وأنه يستعد، فات عليه هذا، وقد كان على بصره في الدنيا غطاء وغشاوة، نائم وغافل ولا يدري، ولم يتنبه إلا عند الموت، ويزول عنه الغطاء في وقتٍ لا ينفعه ذلك.

فمن لم يصبر على ألم الطاعة وتعب الطاعة في هذه الدنيا فإنه سيتألم لفواتها عند الموت، ولا يكفي أنه يتألم للفوات، بل يحل عليه العذاب، ففاته الثواب وحلَّ به العقاب ولا حول ولا قوة إلا بالله. والثالثة: أنه لا يمكنه أن يستدرك وأن يتراجع، خلافًا للمؤمن فإنه وإن تعب في هذه الدنيا قليلًا فإنه يستريح دائمًا ويستريح طويلًا.

وقوله: **(فَاعْرِضْ عَلَى نَفْسِكَ الْآنَ أَعْظَمَ مَحْبُوبٍ لَكَ فِي الدُّنْيَا)** هذا مثال، يقول: لو كان عندك شيءٌ تحبه محبةً شديدة ثم نُزع منك، فكيف يكون تألمك لفقده وذهابه؟ مع أن هذا الشيء يمكن تعويضه في هذه الدنيا، لكن ما يفوتك من الآخرة أشد من هذا ولا يمكن أنه يُعوض ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾

[الأنعام:٢٧، ٢٨]، الله يعلم أنهم لو رُدوا إلى الدنيا ستعود عليهم حالة الغفلة والحِرمان والكسل، فهو يعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما يكون منهم.

وقوله: (اطْلُبْنِي) يعني: اطلبني بالعبادة والذكر، فإذا قمت بهذا وجدت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ معك، يتولاك بإعانته وتوفيقه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨]، أما إذا أعرضت عن الله أعرض الله عنك، وفقدت كل شيء، ولم يبق معك شيء.

فَصْلٌ

وَلَمَّا كَانَتِ الْمَحَبَّةُ جِنْسًا تَحْتَهُ أَنْوَاعٌ مُتَفَاوِتَةٌ فِي الْقَدْرِ وَالْوَصْفِ، كَانَ أَغْلَبَ مَا يُذْكَرُ فِيهَا فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى مَا يُخْتَصُّ بِهِ وَيَلِيقُ بِهِ مِنْ أَنْوَاعِهَا، وَلَا تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ، مِثْلَ الْعِبَادَةِ وَالْإِنَابَةِ وَنَحْوِهَا، فَإِنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ، وَكَذَلِكَ الْإِنَابَةُ.

وَقَدْ تُذْكَرُ الْمَحَبَّةُ بِاسْمِهَا الْمُطْلَقِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

وَأَعْظَمُ أَنْوَاعِ الْمَحَبَّةِ الْمَذْمُومَةِ: الْمَحَبَّةُ مَعَ اللَّهِ الَّتِي يُسَوِّي الْمُحِبُّ فِيهَا بَيْنَ مَحَبَّتِهِ لِلَّهِ وَمَحَبَّتِهِ لِلنِّدِّ الَّذِي اتَّخَذَهُ مِنْ دُونِهِ، وَأَعْظَمُ أَنْوَاعِهَا الْمَحْمُودَةِ: مَحَبَّةُ اللَّهِ وَحْدَهُ، ومحبَّةُ مَا أَحَبَّ، وَهَذِهِ الْمَحَبَّةُ هِيَ أَصْلُ السَّعَادَةِ وَرَأْسُهَا الَّتِي لَا يَنْجُو أَحَدٌ مِنَ الْعَذَابِ إِلَّا بِهَا.

وَالْمَحَبَّةُ الْمَذْمُومَةُ الشِّرْكِيَّةُ هِيَ أَصْلُ الشَّقَاوَةِ وَرَأْسُهَا الَّتِي لَا يَبْقَى فِي الْعَذَابِ إِلَّا أَهْلُهَا، فَأَهْلُ الْمَحَبَّةِ الَّذِينَ أَحَبُّوا اللَّهَ وَعَبَدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَا يَدْخُلُونَ النَّارَ، وَمَنْ دَخَلَهَا مِنْهُمْ بِذُنُوبِهِ فَإِنَّهُ لَا يَبْقَى فِيهَا مِنْهُمْ أَحَدٌ.

الشرح:

محبة الله عَزَّوَجَلَّ هي أعظم أنواع العبادة، ولكن هذه المحبة لها علامات، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١]، فمن كان يحب الله صادقًا فإنه يتبع الرسول

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما من يدَّعي محبة الله وهو لا يتبع الرسول، فهو كاذب.

ولـمَّا قال اليهود والنصارى: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨]، امتحنهم الله بهذه الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾، فدل على أن اتِّباع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو العلامة الفارقة بين من يحب الله عَزَّ وَجَلَّ ومن لا يحبه، ولهذا قال: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:٣٢]، إن تولوا عن اتباع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهم كافرون، والله لا يحب الكافرين.

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة:٥٤]، لماذا يجاهدون في سبيل الله؟ لأنهم يحبون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والله يحبهم، فهم يجاهدون في سبيله لإعلاء كلمته، وليُعبد وحده، وتُترك عبادة ما سواه.

فعلامة أنهم يحبون الله جَلَّ وَعَلَا وأن الله يحبهم: أنهم يجاهدون في سبيله ولا يخافون لومة لائم، ولا ينظرون إلى الناس هل مدحوهم أو ذموهم، ولا ينظرون إلى أذاهم، إنما ينظرون إلى رضا الله، أما الذي يخاف من الناس ويخاف من اللوم، فهذا تكون محبته لله ناقصة، أو ليس فيه محبة أصلًا.

وهذا وعدٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه لا يضيع دينه، بل يهيئ له من يقوم به، كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في أبي بكرٍ الصديق

والصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَمَّا قاتلوا أهل الردة[١]: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فأبو بكر الصديق هو الذي جاهد المرتدين، وجاهد معه صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى قضوا على فتنتهم، وأراحوا المسلمين من شرهم، وهذه علامة صدق المحبة لله عَزَّ وَجَلَّ.

أما الذي يحب الله ويحب معه غيره، فهذه محبة المشركين، وهي من الشرك في العبادة؛ لأن العبادة أعظم أنواع المحبة، فمن أحب مع الله غيره فقد أشرك شركًا أكبر، ولذلك تجد المشركين يستميتون في الدفاع عن أصنامهم ويقاتلون دونها؛ لأنهم يحبونها -والعياذ بالله- حبًّا عظيمًا، وشاركوها مع الله في المحبة، فهم يحبون الله ويحبون معه الأصنام، وهذا هو الشرك الأكبر.

فمحبة العبادة يجب أن تكون خالصة لله عَزَّ وَجَلَّ لا يُشاركه فيها غيره، فكما أنه لا يُذبح لغير الله، ولا يُنذر لغير الله، ولا يُصلى ولا يُصام لغير الله، كذلك لا يُحب إلا الله محبة العبادة، أما المحبة الطبيعية -كمحبة الأولاد والأموال والأزواج- لا يُلام عليها الإنسان.

وبنو إسرائيل لما صنع لهم السامري عجلًا له خوار أُشربوا هذا العجل في قلوبهم، بمعنى: أنهم أحبوه -والعياذ بالله- وفُتنوا به، فصاروا لا يصبرون عنه، وعبدوه من دون الله: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه:٨٨]، يعني: نسي موسى وذهب إلى ربه وهو موجود هنا! هذا كلامهم

(١) يُنظر: تفسير الطبري (١٠/ ٤١٠)، وتفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١١٦٠).

والعياذ بالله.

وقوله: **(وَأَعْظَمُ أَنْوَاعِهَا الْمَحْمُودَةِ: مَحَبَّةُ اللَّهِ وَحْدَهُ، ومحبَّةُ مَا أَحَبَّ)** كذلك بعد محبة الله يحب من يحبهم الله من رسله وأنبيائه وأوليائه، فتكون محبتهم تابعة لمحبة الله، ويُبغض من يُبغضهم الله، وهذا هو الولاء والبراء، الولاء: أن توالي المؤمنين وتحبهم وتناصرهم، وتكون معهم. والبراء: أن تتبرأ من المشركين وتُبغضهم وتعاديهم، ولا تناصرهم ولا تمدحهم؛ لأنهم أعداء الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: **(فَأَهْلُ الْمَحَبَّةِ الَّذِينَ أَحَبُّوا اللَّهَ وَعَبَدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَا يَدْخُلُونَ النَّارَ)**، هذه المحبة -محبة العبادة- إذا أخلصوها لله فإنهم لا يدخلون النار، بل يدخلون الجنة، وإن دخلوا النار بمعاصيهم فإنهم لا يُخلدون فيها، بل يُخرجون منها إلى الجنة، وهم عصاة الموحدين، فالمُوحِّد مآله إلى الجنة، إما ابتداءً وإما في النهاية؛ لأنه يحب الله عَزَّوَجَلَّ وحده لا شريك له.

أما الكافر والمشرك الذي يُشرك مع الله في المحبة فهذا مأواه النار والعياذ بالله، وليس له نصيبٌ من الجنة.

وَمَدَارُ الْقُرْآنِ عَلَى الْأَمْرِ بِتِلْكَ الْمَحَبَّةِ وَلَوَازِمِهَا، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمَحَبَّةِ الْأُخْرَى وَلَوَازِمِهَا، وَضَرَبَ الْأَمْثَالَ وَالْمَقَايِيسَ لِلنَّوْعَيْنِ، وَذَكَرَ قَصَصَ النَّوْعَيْنِ، وَتَفْصِيلَ أَعْمَالِ النَّوْعَيْنِ وَأَوْلِيَائِهِمْ وَمَعْبُودَ كُلٍّ مِنْهُمَا، وَإِخْبَارِهِ عَنْ فِعْلِهِ بِالنَّوْعَيْنِ، وَعَنْ حَالِ النَّوْعَيْنِ فِي الدُّورِ الثَّلَاثَةِ: دَارِ الدُّنْيَا، وَدَارِ الْبَرْزَخِ، وَدَارِ الْقَرَارِ، وَالْقُرْآنُ جَاءَ فِي شَأْنِ النَّوْعَيْنِ.

وَأَصْلُ دَعْوَةِ جَمِيعِ الرُّسُلِ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ إِنَّمَا هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الْمُتَضَمِّنَةُ لِكَمَالِ حُبِّهِ، وَكَمَالِ الْخُضُوعِ وَالذُّلِّ لَهُ، وَالْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ، وَلَوَازِمِ ذَلِكَ مِنَ الطَّاعَةِ وَالتَّقْوَى.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»(١).

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ: «لَا يَا عُمَرُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ»، قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، قَالَ: «الْآنَ يَا عُمَرُ»(٢).

فَإِذَا كَانَ هَذَا شَأْنَ مَحَبَّةِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَوُجُوبِ تَقْدِيمِهَا عَلَى مَحَبَّةِ نَفْسِ الْإِنْسَانِ وَوَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، فَمَا الظَّنُّ بِمَحَبَّةِ مُرْسِلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَوُجُوبِ تَقْدِيمِهَا عَلَى مَحَبَّةِ مَا سِوَاهُ؟.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٣٢) من حديث عبد الله بن هشام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَمَحَبَّةُ الرَّبِّ تَعَالَى تَخْتَصُّ عَنْ مَحَبَّةِ غَيْرِهِ فِي قَدْرِهَا وَصِفَتِهَا وَإِفْرَادِهِ سُبْحَانَهُ بِهَا، فَإِنَّ الْوَاجِبَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنْ يَكُونَ أَحَبَّ إِلَى الْعَبْدِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ، بَلْ مِنْ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَنَفْسِهِ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ، فَيَكُونُ إِلَهُهُ الْحَقُّ وَمَعْبُودُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

وَالشَّيْءُ قَدْ يُحَبُّ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ، وَقَدْ يُحَبُّ بِغَيْرِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُحَبُّ لِذَاتِهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا تَصْلُحُ الْأُلُوهِيَّةُ إِلَّا لَهُ، وَ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]. وَالتَّأَلُّهُ: هُوَ الْمَحَبَّةُ وَالطَّاعَةُ وَالْخُضُوعُ.

الشرح:

أصل العبادة المحبة، ولولا أن المؤمن يحب الله ما عبده، ولولا أن المشركين يحبون الأصنام ما عبدوها، ولو كانوا يُبغضونها لنفروا منها وأبعدوها، أما المؤمن فإنه لا يحب إلا الله عَزَّوَجَلَّ محبة العبادة والذل والخضوع له.

فمحبة العبادة من لوازمها الذل والخضوع للمحبوب، أما المحبة التي ليس معها ذل ولا خضوع فهي محبة طبيعية، مثل: محبة الإنسان لزوجته، فهو لا يخضع لها ولا يذل لها، لكنه يحبها حبًّا طبيعيًّا: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١]. ولهذا يقول ابن القيم في النونية(١):

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ ... مَعْ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ
فَعَلَيْهِمَا فَلَكُ الْعِبَادَةِ دَائِرٌ ... مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ

ومحبة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تابعة لمحبة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الرسول هو

---

(١) يُنظر: نونية ابن القيم (ص٣٥).

الذي بلغ عن الله، وهو الذي علمنا وبيَّن لنا، وهو الذي أنقذنا الله به من الضلالة ومن الكفر، فلذلك نحبه محبة شديدة بعد محبة الله، ولا نقدِّم على محبة الرسول محبة أحد من الأقارب أو أي شيء؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»**.

وعلامة محبته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طاعته واتباعه، أما من يزعم أنه يحبه ولا يتبعه ولا يطيعه، فهذا كذاب، كالذين يدَّعون أنهم يحبونه ثم يتركون سنته ويعبدون الله بالبدع والمحدثات، فهذا كذبٌ.

لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ[1]

فإذا كان هذا كله في محبة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكيف بمحبة الله عَزَّ وَجَلَّ؟!! لا شك أنها أشد؛ لأن محبة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محبة اتباع، أما محبة الله فهي محبة عبادة؛ لأنه تَبَارَكَ وَتَعَالَى هو المنعم، وهو الذي أرسل إلينا هذا الرسول، وهو الذي أنعم علينا بنعم لا تُحصى ولا تُعد، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، وأعظم النعم بعثة هذا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو منة من الله ونعمة: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران:١٦٤]، فمحبة الله هي الأصل والأساس، ومحبة الرسول تابعة لمحبة الله، وكذلك محبة المؤمنين تابعة لمحبة الله عَزَّ وَجَلَّ.

(١) تقدم (ص٦٣٤).

فَصْلٌ

وَكُلُّ حَرَكَةٍ فِي الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ فَأَصْلُهَا الْمَحَبَّةُ، فَهِيَ عَلَيْهَا الْفَاعِلِيَّةُ وَالْغَائِيَّةُ.

وَذَلِكَ لِأَنَّ الْحَرَكَاتِ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ: حَرَكَةٌ اخْتِيَارِيَّةٌ إِرَادِيَّةٌ، وَحَرَكَةٌ طَبِيعِيَّةٌ، وَحَرَكَةٌ قَسْرِيَّةٌ.

وَالْحَرَكَةُ الطَّبِيعِيَّةُ أَصْلُهَا السُّكُونُ، وَإِنَّمَا يَتَحَرَّكُ الْجِسْمُ إِذَا خَرَجَ عَنْ مُسْتَقَرِّهِ وَمَرْكَزِهِ الطَّبِيعِيِّ، فَهُوَ يَتَحَرَّكُ لِلْعَوْدِ إِلَيْهِ، وَخُرُوجُهُ عَنْ مَرْكَزِهِ وَمُسْتَقَرِّهِ إِنَّمَا هُوَ بِتَحْرِيكِ الْقَاسِرِ الْمُحَرِّكِ لَهُ، فَلَهُ حَرَكَةٌ قَسْرِيَّةٌ تَتَحَرَّكُ بِتَحْرِيكِ مُحَرِّكِهِ وَقَاسِرِهِ، وَحَرَكَةٌ طَبِيعِيَّةٌ بِذَاتِهَا يَطْلُبُ بِهَا الْعَوْدَ إِلَى مَرْكَزِهِ، وَكِلَا حَرَكَتَيْهِ تَابِعَةٌ لِلْقَاسِرِ الْمُحَرِّكِ، فَهُوَ أَصْلُ الْحَرَكَتَيْنِ.

وَالْحَرَكَةُ الِاخْتِيَارِيَّةُ الْإِرَادِيَّةُ هِيَ أَصْلُ الْحَرَكَتَيْنِ الْأُخْرَيَيْنِ، وَهِيَ تَابِعَةٌ لِلْإِرَادَةِ وَالْمَحَبَّةِ، فَصَارَتِ الْحَرَكَاتُ الثَّلَاثُ تَابِعَةً لِلْمَحَبَّةِ وَالْإِرَادَةِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى انْحِصَارِ الْحَرَكَاتِ فِي هَذِهِ الثَّلَاثِ: أَنَّ الْمُتَحَرِّكَ إِنْ كَانَ لَهُ شُعُورٌ بِالْحَرَكَةِ فَهِيَ الْإِرَادِيَّةُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ شُعُورٌ بِهَا، فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ عَلَى وَفْقِ طَبْعِهِ أَوْ لَا، فَالْأُولَى هِيَ الطَّبِيعِيَّةُ، وَالثَّانِيَةُ الْقَسْرِيَّةُ.

الشرح:

هذه عبارات دقيقة، ولكن المحبة لا شك أنها ميل القلب إلى أيِّ محبوب كان، فكل إنسانٍ يأتي شيئًا إنما يأتيه في الغالب لميلٍ إليه ومحبة له، لا أحد يأتي شيئًا إلا وهو يُحبه غالبًا، لكنه قد يأتيه أحيانًا من غير محبة، وهذا خارج عن

الأصل، ولذلك فإن المؤمنين يحبون الله عَزَّوَجَلَّ، ويعبدونه، ويبذلون الأنفس والأموال في طاعته؛ لأنهم يحبونه حبًّا شديدًا، وهو يحبهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فالمؤمنون لا يعدلون بالله أحدًا، ولا يساوون به غيره، وهذه هي محبة العبودية النافعة.

أما الكفار فهم يحبون الأصنام وما يعبدونه من دون الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ يعني: شركاء لله ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، يحبون أصنامهم كما يحب المؤمنون الله عَزَّوَجَلَّ، فهم ما عبدوا الأصنام إلا لأنهم يحبونها، ولا جاهدوا دونها وبذلوا أنفسهم وأموالهم دونها إلا لأنهم يحبونها.

وحتى الأشياء التي قد لا يكون لها قيمة ويتعلق بعض الناس بها ويحبونها، مثل: أصحاب الرياضة الذي يسمونها مباريات وكرة القدم ونحوها؛ يحبونها حبًّا شديدًا، ولذلك يتعبون فيها ويبذلون فيها المال والجهد الكثير، وتجد أحدهم يُقبِّل ما يسمونه بالكأس، لأي شيءٍ يُقبله؟! ما فيه فائدة، لكن لأنه يحب فقط، وما تعبوا هذا التعب إلا لأنهم يحبون هذه المهنة، وتعلقت قلوبهم بها.

وكذلك يحب الإنسان المال، ولذلك يُفني عمره، ويخاطر بنفسه، ويسهر ويتعب ويسافر طلبًا للمال: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:٢٠]، ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عمران:١٤].

فما أحد يتحرك بطلب شيء إلا لأنه يُحبه، ولولا المحبة ما تحرك الإنسان،

ولتعطلت الأشياء، وهذا من حكمة الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أن جعل هذه المحبة في قلوب الناس لما يريدون، فمنهم من يحب الخير، ومنهم من يحب الشر، لابد من محبة يسير بها الإنسان ويتحرك، فهي أساس كل حركة.

فالرجل يحب المرأة حبًّا طبيعيًّا وشهوانيًّا، ولذلك يتغنى بجمالها وبكلامها حتى يكاد يسجد لها من شدة محبته لها، وكذلك المرأة تحب زوجها ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾ [الروم:٢١].

فالمحبة أصلها موجودٌ في كل شيء، حتى في البهائم تحب أولادها محبة طبيعية جبلها الله عليها، ولذلك تجدها تدافع عنها، وتحن إليها، وتتعب في حمايتها ورعايتها، وهي ليس لها مصلحة منها، لكن الله جَلَّوَعَلَا جعل فيها المحبة لأجل مصالح العباد.

فالمحبة موجودة في كل شيء، لكن قد تكون المحبة لها فائدة وعواقب حميدة، وقد يكون لها ضرر وعواقب سيئة، ولذلك بنو إسرائيل لما ابتلوا بالعجل الذي صوره لهم السامري من الذهب: ﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡ﴾ [البقرة:٩٣]، صاروا يحبونه حبًّا شديدًا، وهذه محبة فتنة.

فهذا معنى كلام الإمام ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ أن المحبة هي أصل كل شيء وكل حركة.

إِذَا ثَبَتَ هَذَا، فَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ حَرَكَاتِ الْأَفْلَاكِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَالرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ وَالْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ وَحَرَكَاتِ الْأَجِنَّةِ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهَا، فَإِنَّمَا هِيَ بِوَاسِطَةِ الْمَلَائِكَةِ وَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا وَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ فِي نُصُوصٍ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

وَالْإِيمَانُ بِذَلِكَ مِنْ تَمَامِ الْإِيمَانِ بِالْمَلَائِكَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَائِكَةً، وَبِالْقَطْرِ مَلَائِكَةً، وَبِالنَّبَاتِ مَلَائِكَةً، وَبِالرِّيَاحِ مَلَائِكَةً، وَبِالْأَفْلَاكِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ.

وَوَكَّلَ بِكُلِّ عَبْدٍ أَرْبَعَةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ، كَاتِبَيْنِ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، وَحَافِظَيْنِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، وَوَكَّلَ مَلَائِكَةً بِقَبْضِ رُوحِهِ وَتَجْهِيزِهَا إِلَى مُسْتَقَرِّهَا فِي الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَمَلَائِكَةً بِمُسَاءَلَتِهِ وَامْتِحَانِهِ فِي قَبْرِهِ، وَمَلَائِكَةً بِتَعْذِيبِهِ فِي النَّارِ أَوْ نَعِيمِهِ فِي الْجَنَّةِ.

وَوَكَّلَ بِالْجِبَالِ مَلَائِكَةً، وَبِالسَّحَابِ مَلَائِكَةً تَسُوقُهُ حَيْثُ أُمِرَتْ بِهِ، وَبِالْقَطْرِ مَلَائِكَةً تَنْزِلُ بِأَمْرِ اللَّهِ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ كَمَا شَاءَ اللَّهُ، وَوَكَّلَ مَلَائِكَةً بِغَرْسِ الْجَنَّةِ وَعَمَلِ آلَتِهَا وَفُرُشِهَا وَالْقِيَامِ عَلَيْهَا، وَمَلَائِكَةً بِالنَّارِ كَذَلِكَ.

فَأَعْظَمُ جُنْدِ اللَّهِ الْمَلَائِكَةُ، وَلَفْظُ الْمَلَكِ يُشْعِرُ بِأَنَّهُ رَسُولٌ مُنَفِّذٌ لِأَمْرِ غَيْرِهِ وَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، بَلِ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَهُمْ يُدَبِّرُونَ الْأَمْرَ وَيُقَسِّمُونَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ وَإِذْنِهِ.

قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُمْ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن

يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦].

وَأَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِطَوَائِفَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُنَفِّذِينَ لِأَمْرِهِ فِي الْخَلِيقَةِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ [الصافات:١ - ٣]. وَقَالَ: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ١ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ٣ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ٤ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ [المرسلات:١ - ٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ [النازعات:١ - ٥].

وَقَدْ ذَكَرْنَا مَعْنَى ذَلِكَ وَسِرَّ الْإِقْسَامِ بِهِ فِي كِتَابِ (أَيْمَانُ الْقُرْآنِ)[1].

الشرح:

الإيمان بالملائكة هو أحد أركان الإيمان الستة، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سُئل عن الإيمان: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[2]. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة:١٧٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فمن لم يؤمن بالملائكة فهو كافر؛ لأنه مُكذِّبٌ لله، وجاحدٌ لوجود الملائكة الذين أخبر الله عنهم وعن وجودهم.

---

(١) وهو مطبوع بعنوان: «التبيان في أقسام القرآن». يُنظر: (ص٨٣ - ٨٩).

(٢) أخرجه مسلم (٨) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

والملائكة من عالم الغيب لا نراهم؛ لأن الله خلقهم من نور، وخلق الشيطان من النار، وخلق آدم من تراب.

وهم جندٌ من جند الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، ولا يعلم عدد الملائكة إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يعلم عظم خِلقة الملك الواحد إلا الله، وجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أعظمهم وسيدهم، وهو الموكل بالوحي، وهم أصناف كل صِنف له عملٌ وكَّله الله إليه في هذا الكون، كما ذكر الله في كثيرٍ من الآيات.

فالإيمان بالملائكة لابد منه، وإن كنا لا نراهم؛ لأن هذا من الإيمان بالغيب، ولكن الله أخبر عنهم، ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر عنهم.

وقد ذكر الله جَلَّ وَعَلَا لنا بعض أعمال الملائكة، فمنهم الموكل بالوحي وهو جبريل، الموكل بالقطر وهو ميكال، ومنهم الموكل بالأرواح وهو إسرافيل، ولذلك كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في دعاء الاستفتاح: «**اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**»(١).

لماذا خصَّ هؤلاء الملائكة الثلاثة؟ لأن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ موكَّلٌ بالوحي الذي به حياة القلوب، وميكائيل موكَّلٌ بالقطر الذي به حياة الأرض، وإسرافيل موكَّلٌ بالأرواح التي فيها حياة الأبدان.

وكذلك بقية الملائكة، منهم الموكل بالأجنة في البطون، والموكل بحفظ الأعمال لبني آدم، والموكل بحفظ الإنسان من المكروهات والآفات، فالإنسان

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

يمشي ومعه ملائكة لا يتخلوا عنه، فإذا وقع في الهلاك والخطر وتسلط عليه عدوه، وتسلطت عليه السِباع، فالملائكة تدفع عنه بإذن الله، ما دام له بقية في هذه الحياة، فإذا جاء الأجل تخلوا عنه: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١] فهم معه يحفظونه، وملائكة يسجلون عليه أعماله من الخير والشر: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، لكنه لا يراهم، ولكن يجب عليه الإيمان بهم.

والملائكة أصنافٌ كثيرة كما ذكر الإمام ابن القيم هنا، وكما ذكر الله جَلَّ وَعَلَا في القرآن: ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقًا ۞ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطًا﴾، هذا في قبض الروح، فروح المؤمن تُنشط نشطًا بسرعة، وروح الكافر -والعياذ بالله- تتفرق في جسده فينزعونها بشدة وهو يتألم أشد الألم من ذلك.

وكذلك: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ هؤلاء ملائكة يصفون عند ربهم، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟»**، فقيل له: وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: **«يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ»**[1].

(١) أخرجه مسلم (٤٣٠) من حديث جابر بن سمرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وَإِذَا عُرِفَ ذَلِكَ فَجَمِيعُ تِلْكَ الْمُحَبَّاتِ وَالْمُحَرِّكَاتِ وَالْإِرَادَاتِ وَالْأَفْعَالِ هِيَ عِبَادَةٌ مِنْهُمْ لِرَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ، وَجَمِيعُ الْحَرَكَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالْقَسْرِيَّةِ تَابِعَةٌ لَهَا، فَلَوْلَا الْحُبُّ مَا دَارَتِ الْأَفْلَاكُ، وَلَا تَحَرَّكَتِ الْكَوَاكِبُ النَّيِّرَاتُ، وَلَا هَبَّتِ الرِّيَاحُ الْمُسَخَّرَاتُ، وَلَا مَرَّتِ السُّحُبُ الْحَامِلَاتُ، وَلَا تَحَرَّكَتِ الْأَجِنَّةُ فِي بُطُونِ الْأُمَّهَاتِ، وَلَا انْصَدَعَ عَنِ الْحَبِّ أَنْوَاعُ النَّبَاتِ، وَلَا اضْطَرَبَتْ أَمْوَاجُ الزَّاخِرَاتِ، وَلَا تَحَرَّكَتِ الْمُدَبِّرَاتُ وَالْمُقَسِّمَاتُ، وَلَا سَبَّحَتْ بِحَمْدِ فَاطِرِهَا الْأَرَضُونَ وَالسَّمَوَاتُ، وَمَا فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَسُبْحَانَ مَنْ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

الشرح:

الإنسان يتحرك تحرك عبادة:

إمَّا عبادة قسرية: وهي تحرك المؤمن والكافر والمشرك؛ يتحرك بأمر الله ليس له مخرج عن أمر الله، فهو عبدٌ لله عَزَّوَجَلَّ عبوديةً عامة لا يخرج عن أمره وتقديره، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقدِّر على عباده الموت، ويُقدِّر عليهم المرض، ويُقدِّر عليهم الفقر، ويُقدِّر عليهم الغنى، فلا يتخلص أحد مما قدره الله عليه؛ لأنه عبد.

وإمَّا عبادة اختيارية: وهي عبادة الله بالركوع والسجود، والدعاء، والاستغفار، هذه يفعلها الإنسان باختياره، ولا يفعلها إلا المؤمن.

أما الحركة الاضطرارية فهذه يفعلها المؤمن والكافر: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم:٩٣]، ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم:٢٦]، أي: كل من في السموات والأرض من خلق لله مطيع في تصرفه فيما أراد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من حياة وموت وبعث ونشور وما أشبه ذلك، وإن عصاه فيما له السبيل إلى اختياره وإيثاره على خلافه.

وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ يعني: ينزه الله سبحانه عن النقائص والعيوب، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾، فهذا التسبيح قد نفهمه ونسمعه، وقد لا نعرفه، كتسبيح الجبال، وتسبيح الحصى، وتسبيح الأشجار، وتسبيح السموات والأرض.

لكنَّ الله جَلَّ وَعَلَا يعلمه ويسمعه، تسبيحًا حقيقيًّا كلًّا بلغته، حتى الطيور تسبح الله عَزَّ وَجَلَّ بلغاتها وإن كان الإنسان لا يسمعها ولا يفهمها.

والله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعطى سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ معجزة أنه يعرف لغة الطيور ويخاطبها وتخاطبه، وسمع كلام النملة وماذا تقول، فهذا خاصية لسليمان عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ومعجزة له تدل على نبوته.

وأما نحن فنسمع أصوات الطيور والوحوش والحيوانات لكن لا نفهم: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾.

فَصْلٌ

إِذَا عُرِفَ ذَلِكَ فَكُلُّ حَيٍّ لَهُ إِرَادَةٌ وَمَحَبَّةٌ وَعَمَلٌ بِحَسَبِهِ، وَكُلُّ مُتَحَرِّكٍ فَأَصْلُ حَرَكَتِهِ: الْمَحَبَّةُ وَالْإِرَادَةُ. وَلَا صَلَاحَ لِلْمَوْجُودَاتِ إِلَّا بِأَنْ تَكُونَ حَرَكَاتُهَا وَمَحَبَّتُهَا لِفَاطِرِهَا وَبَارِئِهَا وَحْدَهُ، كَمَا لَا وُجُودَ لَهَا إِلَّا بِإِبْدَاعِهِ وَحْدَهُ.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، وَلَمْ يَقُلْ سُبْحَانَهُ: لَمَا وُجِدَتَا وَلَكَانَتَا مَعْدُومَتَيْنِ، وَلَا قَالَ: لَعُدِمَتَا؛ إِذْ هُوَ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُبْقِيَهُمَا عَلَى وَجْهِ الْفَسَادِ، لَكِنْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَا عَلَى وَجْهِ الصَّلَاحِ وَالِاسْتِقَامَةِ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ مَعْبُودَهُمَا، وَمَعْبُودَ مَا حَوَتَاهُ وَسَكَنَ فِيهِمَا، فَلَوْ كَانَ فِي الْعَالَمِ إِلَهَانِ لَفَسَدَ نِظَامُهُ غَايَةَ الْفَسَادِ، فَإِنَّ كُلَّ إِلَهٍ كَانَ يَطْلُبُ مُغَالَبَةَ الْآخَرِ، وَالْعُلُوَّ عَلَيْهِ، وَتَفَرُّدَهُ دُونَهُ بِإِلَهِيَّتِهِ، إِذِ الشَّرِكَةُ نَقْصٌ فِي كَمَالِ الْإِلَهِيَّةِ، وَالْإِلَهُ لَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا نَاقِصًا، فَإِنْ قَهَرَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ كَانَ هُوَ الْإِلَهَ وَحْدَهُ، وَالْمَقْهُورُ لَيْسَ بِإِلَهٍ، وَإِنْ لَمْ يَقْهَرْ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ لَزِمَ عَجْزُ كُلٍّ مِنْهُمَا، وَلَمْ يَكُنْ تَامَّ الْإِلَهِيَّةِ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ فَوْقَهُمَا إِلَهٌ قَاهِرٌ لَهُمَا حَاكِمٌ عَلَيْهِمَا، وَإِلَّا ذَهَبَ كُلٌّ مِنْهُمَا بِمَا خَلَقَ، وَطَلَبَ كُلٌّ مِنْهُمَا الْعُلُوَّ عَلَى الْآخَرِ، وَفِي ذَلِكَ فَسَادُ أَمْرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهَا، كَمَا هُوَ الْمَعْهُودُ مِنْ فَسَادِ الْبَلَدِ إِذَا كَانَ فِيهَا مَلِكَانِ مُتَكَافِئَانِ، وَفَسَادِ الزَّوْجَةِ إِذَا كَانَ لَهَا بَعْلَانِ، وَالشَّوْلِ إِذَا كَانَ فِيهِ فَحْلَانِ.

وَأَصْلُ فَسَادِ الْعَالَمِ إِنَّمَا هُوَ مِنَ اخْتِلَافِ الْمُلُوكِ وَالْخُلَفَاءِ، وَلِهَذَا لَمْ يَطْمَعْ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ فِيهِ فِي زَمَنٍ مِنَ الْأَزْمِنَةِ إِلَّا فِي زَمَنِ تَعَدُّدِ الْمُلُوكِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَاخْتِلَافِهِمْ، وَانْفِرَادِ كُلٍّ مِنْهُمْ بِبِلَادٍ، وَطَلَبِ بَعْضِهِمُ الْعُلُوَّ عَلَى بَعْضٍ.

فَصَلَاحُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاسْتِقَامَتُهَا، وَانْتِظَامُ أَمْرِ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى أَتَمِّ

نِظَامٍ مِنْ أَظْهَرِ الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ كُلَّ مَعْبُودٍ مِنْ لَدُنْ عَرْشِهِ إِلَى قَرَارِ أَرْضِهِ بَاطِلٌ إِلَّا وَجْهَهُ الْأَعْلَى.

الشرح:

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾ يعني: في السموات والأرض ﴿ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾؛ لأن الآلهة المتعددة لا تتفق على شيء، كلٌّ له إرادة، وكلٌّ له ميول، وكلٌّ يسعى أن ينفذ ما يريد، فيحصل بذلك الخلل في الكون. فانتظام هذا الكون واتساقه واستقراره دليل على أن مدبره واحد، ولو كان يدبره أكثر من واحد لفسد.

وهذا مثلما يُشاهد من أحوال الناس اشتركوا في شيء فإنهم لا يتفقون، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر:٢٩]، فالمملوك إذا كان له عدة أسياد ما يدري من يُرضي منهم، ولا يدري من يُطيع منهم، كل واحد له رغبة، فيضيع بينهم، وأما الذي له ملك واحد فهذا يستريح؛ لأنه يعرف مقاصده ومطلوبه، ولا يتعب في تحقيق مطلوباته. كذلك المشرك لما كان يعبد آلهة متعددة صار في عذاب وتعب، أما الموحد لأنه يعبد إلهًا واحدًا يكون مطمئنًا مرتاح البال، متلذذًا بالعبادة، هذا مثل للمشرك، ومثل للموحِّد.

فكل شيء في هذا الكون -السموات والأرض والأفلاك والنجوم والنباتات- منتظم لا يختلف ولا يتغير منذ خلقه الله، وهو مُمسك على هذا

النظام، وهذا من أدلة وحدانية الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

والمعبودات غير الله جَلَّوَعَلَا كثيرة، ومن يقرأ في «الملل والنِحل» يرى تعدد المعبودات، فهذا يعبد الشمس، وذلك يعبد القمر، والآخر يعبد الشيطان، وغيره يعبد النار أو الشجر أو الحجر، ومنه من يعبد النور، ومن يعبد الظُلمة، فالناس متفرقون في عباداتهم.

وهذه المعبودات كلها يُبطلها قول: (لا إله إلا الله)، ولهذا صارت هذه الكلمة هي كلمة التوحيد، وكلمة الإخلاص، وكلمة التقوى، والعروة الوثقى، فهي كلمةٌ عظيمة؛ لأنها تُبطل جميع الشرك وتُثبت التوحيد لله عَزَّوَجَلَّ، وهي كلمة خفيفة قليلة الألفاظ، مختصرة يقولها الإنسان بسهولة، ولكنها ثقُلت في السموات والأرض، كما في الحديث: **«لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي، وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كَفَّةٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كَفَّةٍ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»**(١)، فهي ثقُلت في السموات والأرض لأن لها معنىً عظيمًا، وفيها إبطال الشرك وإثبات التوحيد لله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٩/٣٠٧)، وابن حبان (١٤/١٠٢)، والحاكم (١/٧١٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١/٢٥١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون:٩١ - ٩٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢١ - ٢٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٤٢].

فَقِيلَ: المَعْنَى: لَابْتَغَوُا السَّبِيلَ إِلَيْهِ بِالْمُغَالَبَةِ وَالْقَهْرِ كَمَا يَفْعَلُ الْمُلُوكُ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

قَالَ شَيْخُنَا: وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْمَعْنَى: لَابْتَغَوْا إِلَيْهِ سَبِيلًا بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ وَطَاعَتِهِ، فَكَيْفَ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِهِ؟ وَهُمْ لَوْ كَانُوا آلِهَةً كَمَا تَقُولُونَ: لَكَانُوا عَبِيدًا لَهُ؟. قَالَ: وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا وُجُوهٌ:

مِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء:٥٧]. أَيْ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِي هُمْ عِبَادِي كَمَا أَنْتُمْ عِبَادِي، وَيَرْجُونَ رَحْمَتِي وَيَخَافُونَ عَذَابِي، فَلِمَاذَا تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِي؟

الثَّانِي: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَقُلْ لَابْتَغَوْا عَلَيْهِ سَبِيلًا، بَلْ قَالَ: لَابْتَغَوْا إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَهَذَا اللَّفْظُ إِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ فِي التَّقَرُّبِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥]. وَأَمَّا فِي الْمُغَالَبَةِ فَإِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ بِعَلَى كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ

أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء:٣٤].

وَالثَّالِثُ: أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا إِنَّ آلِهَتَهُمْ تُغَالِبُهُ وَتَطْلُبُ الْعُلُوَّ عَلَيْهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ قَالَ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ وَهُمْ إِنَّمَا كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ آلِهَتَهُمْ تَبْتَغِي التَّقَرُّبَ إِلَيْهِ وَتُقَرِّبُهُمْ زُلْفَى إِلَيْهِ، فَقَالُوا: لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُونَ لَكَانَتْ تِلْكَ الْآلِهَةُ عَبِيدًا لَهُ، فَلِمَاذَا تَعْبُدُونَ عَبِيدَهُ مِنْ دُونِهِ؟

الشرح:

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، وقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، هذا برهانٌ عقليٌّ على التوحيد، فإذا كان هناك آلهة متعددة فلا يمكن أن يصير تدبيرهم واحدًا أبدًا، فلابد من أحد أمرين: إما أن يتغلب أحدهما، وهذا هو الإله الحق، وإما أن يقتسما الكون، فيذهب كل واحد بنصيبه، ويفضون الشركة، وحينئذٍ يفسد الكون. والكون الآن ليس فيه انقسام، ليس فيه شيء لله وشيء لغير الله، بل الكون كله لله عَزَّوَجَلَّ، وهذا كله برهانٌ قاطعٌ عقلي يدل على وحدانية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي: كما يقول المشركون ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ يعني: تغالبوا، مثل الملوك في الدنيا يتغالبون كل واحد يريد المُلك، فلا يكون في البلد ملكان أو أميران أبدًا، إلَّا إذا كان أحدهما تحت الآخر، فيكون مساعدًا له، أما أنه يكون هذا ملك مستقل وهذا مِلك مستقل في بلد واحد، فهذا لا يمكن أبدًا؛ لأنه سيؤدي إلى

حدوث اضطراب في البلد، ويحصل اقتتال، ويحصل اختلاف. فإذا كان هذا في الخلق، فكيف بالكون كله؟! لو كان فيه آلهة متعددة لفسد كله.

وقوله: ﴿إِذًا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾ يعني: لطلبوا التغلب على الله عَزَّوَجَلَّ، وما حصل هذا، بل الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ هو الغالب وغيره مغلوب، فدلَّ على أنه هو الإله وحده لا شريك له.

وقوله: **(قَالَ شَيْخُنَا)** يعني: شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ، **(وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْمَعْنَى: لَابْتَغَوْا إِلَيْهِ سَبِيلًا بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ وَطَاعَتِهِ)** هذا المعنى الثاني لقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾، يعني: عبدوه وطلبوا رضوانه، فدل على أنهم لا يُصلحون للعبادة؛ لأن الذي يتقرب إلى الله ويخاف من الله يكون عبدًا ولا يكون إلهًا.

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ [الإسراء:٥٦]، فجميع المعبودات في الدنيا وجميع الأطباء لا يستطيعون رفع المرض عن شخص أنزله الله فيه، ولا يستطيعون نقله من عضو إلى عضو، أو من شخصٍ إلى شخص.

ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء:٥٧]، فهم يعبدون الملائكة، والملائكة يعبدون الله ويتقربون إلى الله، فدل على أنهم عبيد لا يصلحوا للعبادة، وهم كذلك يعبدون المسيح عيسى بن مريم، والمسيح يعبد الله: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾، ويصلي لله ويزكي: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾

[مريم: ٣٠، ٣١]، فكيف يُتخذ إلهًا من كان ضعيفًا فقيرًا إلى الله، ويتقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ؟! فهذا دليل على بطلان الشرك؛ لأن الكون كله -الأصنام والأحجار والبحار والأنهار- محتاج إلى الله، وفقير إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فهو الذي أوجده وهو الذي يُصلحه.

ولذلك قال الله تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، هذه الآية كافية؛ إذ كيف تعبدونهم وهم عباد؟! والله جَلَّوَعَلَا هو الواحد القهار الذي قهر الأشياء، ودانت له وانقادت له وحده؟!.

فَصْلٌ

وَالْمَحَبَّةُ لَهَا آثَارٌ وَتَوَابِعُ وَلَوَازِمُ وَأَحْكَامٌ، سَوَاءٌ كَانَتْ مَحْمُودَةً أَوْ مَذْمُومَةً، نَافِعَةً أَوْ ضَارَّةً، مِنَ الْوَجْدِ وَالذَّوْقِ وَالْحَلَاوَةِ، وَالشَّوْقِ وَالْأُنْسِ، وَالِاتِّصَالِ بِالْمَحْبُوبِ وَالْقُرْبِ مِنْهُ، وَالِانْفِصَالِ عَنْهُ وَالْبُعْدِ عَنْهُ، وَالصَّدِّ وَالْهِجْرَانِ، وَالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ، وَالْبُكَاءِ وَالْحُزْنِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْكَامِهَا وَلَوَازِمِهَا.

وَالْمَحَبَّةُ الْمَحْمُودَةُ: هِيَ الْمَحَبَّةُ النَّافِعَةُ الَّتِي تَجْلِبُ لِصَاحِبِهَا مَا يَنْفَعُهُ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ، وَهَذِهِ الْمَحَبَّةُ هِيَ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ. وَالضَّارَّةُ: هِيَ الَّتِي تَجْلِبُ لِصَاحِبِهَا مَا يَضُرُّهُ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ، وَهِيَ عُنْوَانُ شَقَاوَتِهِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحَيَّ الْعَاقِلَ لَا يَخْتَارُ مَحَبَّةَ مَا يَضُرُّهُ وَيُشْقِيهِ، وَإِنَّمَا يَصْدُرُ ذَلِكَ عَنْ جَهْلٍ وَظُلْمٍ، فَإِنَّ النَّفْسَ قَدْ تَهْوَى مَا يَضُرُّهَا وَلَا يَنْفَعُهَا، وَذَلِكَ مِنْ ظُلْمِ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ، إِمَّا بِأَنْ تَكُونَ جَاهِلَةً بِحَالِ مَحْبُوبِهَا بِأَنْ تَهْوَى الشَّيْءَ وَتُحِبَّهُ غَيْرَ عَالِمَةٍ بِمَا فِي مَحَبَّتِهِ مِنَ الْمَضَرَّةِ، وَهَذَا حَالُ مَنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَإِمَّا عَالِمَةً بِمَا فِي مَحَبَّتِهِ مِنَ الضَّرَرِ لَكِنْ تُؤْثِرُ هَوَاهَا عَلَى عِلْمِهَا، وَقَدْ تَتَرَكَّبُ مَحَبَّتُهَا مِنْ أَمْرَيْنِ: اعْتِقَادٍ فَاسِدٍ، وَهَوًى مَذْمُومٍ. وَهَذَا حَالُ مَنِ اتَّبَعَ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ.

فَلَا تَقَعُ الْمَحَبَّةُ الْفَاسِدَةُ إِلَّا مِنْ جَهْلٍ وَاعْتِقَادٍ فَاسِدٍ، أَوْ هَوًى غَالِبٍ، أَوْ مَا تَرَكَّبَ مِنْ ذَلِكَ وَأَعَانَ بَعْضُهُ بَعْضًا فَتَتَّفِقُ شُبْهَةٌ يَشْتَبِهُ بِهَا الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ تُزَيِّنُ لَهُ أَمْرَ الْمَحْبُوبِ، وَشَهْوَةٌ تَدْعُوهُ إِلَى حُصُولِهِ، فَيَتَسَاعَدُ جَيْشُ الشُّبْهَةِ وَالشَّهْوَةِ عَلَى جَيْشِ الْعَقْلِ وَالْإِيمَانِ، وَالْغَلَبَةُ لِأَقْوَاهُمَا.

وَإِذَا عُرِفَ هَذَا فَتَوَابِعُ كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَحَبَّةِ لَهُ حُكْمُ مَتْبُوعِهِ.

فَالْمَحَبَّةُ النَّافِعَةُ الْمَحْمُودَةُ -الَّتِي هِيَ عُنْوَانُ سَعَادَةِ الْعَبْدِ- تَوَابِعُهَا كُلُّهَا نَافِعَةٌ لَهُ، فَحُكْمُهَا حُكْمُ مَتْبُوعِهَا، فَإِنْ بَكَى نَفَعَهُ، وَإِنْ حَزِنَ نَفَعَهُ، وَإِنْ فَرِحَ

نَفَعَهُ، وَإِنِ انْقَبَضَ نَفَعَهُ، وَإِنِ انبَسَطَ نَفعَهُ، فَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِي مَنَازِلِ الْمَحَبَّةِ وَأَحْكَامِهَا فِي مَزِيدٍ وَرِبْحٍ وَقُوَّةٍ.

وَالْمَحَبَّةُ الضَّارَّةُ الْمَذْمُومَةُ تَوَابِعُهَا وَآثَارُهَا كُلُّهَا ضَارَّةٌ لِصَاحِبِهَا، مُبْعِدَةٌ لَهُ مِنْ رَبِّهِ، كَيْفَمَا تَقَلَّبَ فِي آثَارِهَا وَنَزَلَ فِي مَنَازِلِهَا فَهُوَ فِي خَسَارَةٍ وَبُعْدٍ.

وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ فِعْلٍ تَوَلَّدَ عَنْ طَاعَةٍ وَمَعْصِيَةٍ، فَكُلُّ مَا تَوَلَّدَ مِنَ الطَّاعَةِ فَهُوَ زِيَادَةٌ لِصَاحِبِهَا وَقُرْبَةٌ، وَكُلُّ مَا تَوَلَّدَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ فَهُوَ خُسْرَانٌ لِصَاحِبِهِ وَبُعْدٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١].

فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ فِي الْآيَةِ الْأُولَى: أَنَّ الْمُتَوَلِّدَ عَنْ طَاعَتِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ يُكْتَبُ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ، وَأَخْبَرَ فِي الثَّانِيَةِ: أَنَّ أَعْمَالَهُمُ الصَّالِحَةَ الَّتِي بَاشَرُوهَا تُكْتَبُ لَهُمْ أَنْفُسُهَا، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا: أَنَّ الْأَوَّلَ لَيْسَ مِنْ فِعْلِهِمْ، وَإِنَّمَا تَوَلَّدَ عَنْهُ فَكُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ، وَالثَّانِي نَفْسُ أَعْمَالِهِمْ فَكُتِبَ لَهُمْ.

فَلْيَتَأَمَّلْ قَتِيلُ الْمَحَبَّةِ هَذَا الْفَصلَ حَقَّ التَّأَمُّلِ؛ لِيَعْلَمَ مَا لَهُ وَمَا عَلَيْهِ.

سَيَعْلَمُ يَوْمَ الْعَرْضِ أَيَّ بِضَاعَةٍ ... أَضَاعَ وَعِنْدَ الْوَزْنِ مَا كَانَ حَصَّلَا

الشرح:

المحبة لها آثار تظهر إما محمودة وإما مذمومة، لكن الذي يعنينا هو الآثار المحمودة، وهي محبة الله جَلَّ وَعَلَا، ومحبة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومحبة عباده

المؤمنين، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١]. فإذا أحببت الله محبةً حقيقية فإنك تتبع رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما من يدِّعي أنه يحب الله ولكنه لا يتبع رسوله فهذا كاذب، كاليهود والنصارى الذين قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨]، فأنزل الله هذه الآية بسبب مقالتهم: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، فلما لم يتبعوا هذا الرسول صاروا كاذبين في دعوى المحبة لله عَزَّوَجَلَّ.

وكذلك من يدعي حب الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه يتبعه.

ولهذا يقول الشاعر(١):

تَعْصِي الإِلَـهَ وَأَنْتَ تُظْهِـرُ حُبَّهُ ... هَـذَا لَعَمْـرِي فِي الفِعَـالِ بَـدِيعُ
لَـوْ كَـانَ حُبُّكَ صَادِقًا لأَطَعْتَـهُ ... إِنَّ المُحِـبَّ لِـمَنْ يُحِـبُّ مُطِيـعُ

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قصيدته النونية(٢):

شَرْطُ المَحَبَّـةِ أَنْ تُوَافِـقَ مَـنْ ... تُحِـبُّ عَـلَى مَحَبَّتِـهِ بِـلَا عِـصْيَانِ
فَإِذَا ادَّعَيتَ لَـهُ المَحَبَّةَ مَعَ خِـلَا ... فِـكَ مَـا يُحِـبُّ فَأَنْـتَ ذُو بُهْتَـانِ
أَتُحِـبُّ أَعْـدَاءَ الحَبِيـبِ وَتَـدَّعِي ... حُبًّـا لَـهُ مَـا ذَاكَ فِي إِمْكَـانِ
وَكَـذَا تُعَـادِي جَاهِـدًا أَحْبَابَـهُ ... أَيْـنَ المَحَبَّـةَ يَـا أَخَـا الـشَّيْطَانِ

فثمرة المحبة شيئان:

أولًا: أن الله يحب من يحبه.

---

(١) يُنسب البيتان لعبد الله بن المبارك، يُنظر: ديوانه (ص١٤٧، ١٤٨).

(٢) يُنظر: نونية ابن القيم (ص٢٢١).

وثانيًا: أن الله يغفر له ذنوبه ﴿يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾، فذكر لازم المحبة وهو اتباع الرسول، وذكر ثمرتها وهي أن الله يحب من أحبه، ويغفر له ذنوبه.

ومحبة المؤمنين تقتضي مناصحتهم وعدم غشهم، وتقتضي نُصرتهم وموالاتهم، فالمحبة ليست مجرد دعوى، وإنما لها علامات ولها آثار تدل عليها، وهذه هي المحبة النافعة.

أما المحبة الضارة فهي التي تجلب الضرر، كالذي يُحب المعاصي والشهوات والمحرمات، هذه محبة قبيحة تجلب لصاحبها الآثام، وارتكاب المنهيات، وأظهر علاماتها: اتِّباع الهوى، فيتبع الإنسان ما تهواه نفسه حتى يقع في الكفر والشرك والعياذ بالله، كما في القرآن: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان:٤٣]، ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ [الجاثية:٢٣]. فأخطر ما على الإنسان اتباع الهوى، فإذا سلِم من شر نفسه وهواه فإنه قد سلم من الضرر، وقلَّ من يسلم من ذلك.

الشاهد: أن محبة الله عَزَّوَجَلَّ تقلب الأتعاب إلى ملذات، وإلى عواقب حميدة، أما المحبة الضارة فإنها تقلب الملذات إلى شقاء وحرمان والعياذ بالله.

فَصْلٌ

وَكَمَا أَنَّ الْمَحَبَّةَ وَالْإِرَادَةَ أَصْلُ كُلِّ فِعْلٍ -كَمَا تَقَدَّمَ- فَهِيَ أَصْلُ كُلِّ دِينٍ، سَوَاءٌ كَانَ حَقًّا أَوْ بَاطِلًا. فَإِنَّ الدِّينَ هُوَ مِنَ الْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ، وَالْمَحَبَّةُ وَالْإِرَادَةُ أَصْلُ ذَلِكَ كُلِّهِ.

وَالدِّينُ هُوَ الطَّاعَةُ وَالْعَادَةُ وَالْخُلُقُ، فَهُوَ الطَّاعَةُ اللَّازِمَةُ الدَّائِمَةُ الَّتِي صَارَتْ خُلُقًا وَعَادَةً، وَلِهَذَا فُسِّرَ الْخُلُقُ بِالدِّينِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عُيَيْنَةَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَعَلَى دِينٍ عَظِيمٍ[(١)].

وَسُئِلَتْ عَائِشَةُ عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»[(٢)].

وَالدِّينُ فِيهِ مَعْنَى الْإِذْلَالِ وَالْقَهْرِ، وَفِيهِ مَعْنَى الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ وَالطَّاعَةِ، فَلِذَلِكَ يَكُونُ مِنَ الْأَعْلَى إِلَى الْأَسْفَلِ، كَمَا يُقَالُ: دِنْتُهُ فَدَانَ، أَيْ: قَهَرْتُهُ فَذَلَّ.

قَالَ الشَّاعِرُ[(٣)]:

هُوَ دَانَ الرِّبَابَ إِذْ كَرِهُوا الـ ... ـدِّينَ فَأَضْحَوْا بِعِزَّةٍ وَصِيَالِ

وَيَكُونُ مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى، كَمَا يُقَالُ: دِنْتُ اللَّهَ، وَدِنْتُ لِلَّهِ، وَفُلَانٌ لَا يَدِينُ اللَّهَ دِينًا، وَلَا يَدِينُ اللَّهَ بِدِينٍ، فَدَانَ اللَّهَ: أَيْ أَطَاعَ اللَّهَ وَأَحَبَّهُ وَخَافَهُ، وَدَانَ اللَّهَ: تَخَشَّعَ لَهُ وَخَضَعَ وَذَلَّ وَانْقَادَ.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩/١٨).

(٢) أخرجه مسلم (٦٤٧).

(٣) يُنسب البيت للأعشى، يُنظر: ديوانه (ص١١).

وَالدِّينُ الْبَاطِنُ لَا بُدَّ فِيهِ مِنَ الْحُبِّ وَالْخُضُوعِ كَالْعِبَادَةِ سَوَاءً، بِخِلَافِ الدِّينِ الظَّاهِرِ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَلْزِمُ الْحُبَّ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ انْقِيَادٌ وَذُلٌّ فِي الظَّاهِرِ.

وَسَمَّى اللَّهُ سُبْحَانَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ «يَوْمَ الدِّينِ»؛ لأَنَّهُ الْيَوْمُ الَّذِي يَدِينُ فِيهِ النَّاسُ فِيهِ بِأَعْمَالِهِمْ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ جَزَاءَهُمْ وَحِسَابَهُمْ، فَلِذَلِكَ فَسَّرُوهُ بِيَوْمِ الْجَزَاءِ، وَيَوْمِ الْحِسَابِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الواقعة:٨٦، ٨٧]. أَيْ: هَلَّا تَرُدُّونَ الرُّوحَ إِلَى مَكَانِهَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَرْبُوبِينَ مَقْهُورِينَ وَلَا مَجْزِيِّينَ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ تَحْتَاجُ إِلَى تَفْسِيرٍ، فَإِنَّهَا سِيقَتْ لِلاحْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ فِي إِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ وَالْحِسَابَ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الدَّلِيلُ مُسْتَلْزِمًا لِمَدْلُولِهِ، بِحَيْثُ يَنْتَقِلُ الذِّهْنُ مِنْهُ إِلَى الْمَدْلُولِ، لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّلَازُمِ، فَيَكُونُ الْمَلْزُومُ دَلِيلًا عَلَى لَازِمِهِ، وَلَا يَجِبُ الْعَكْسُ.

وَوَجْهُ الِاسْتِدْلَالِ: أَنَّهُمْ إِذَا أَنْكَرُوا الْبَعْثَ وَالْجَزَاءَ فَقَدْ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، وَأَنْكَرُوا قُدْرَتَهُ وَرُبُوبِيَّتَهُ وَحِكْمَتَهُ، فَإِمَّا أَنْ يُقِرُّوا بِأَنَّ لَهُمْ رَبًّا قَاهِرًا مُتَصَرِّفًا فِيهِمْ، كَمَا سَيُمِيتُهُمْ إِذَا شَاءَ وَيُحْيِيهِمْ إِذَا شَاءَ، وَيَأْمُرُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ، وَيُثِيبُ مُحْسِنَهُمْ وَيُعَاقِبُ مُسِيئَهُمْ، وَإِمَّا أَنْ لَا يُقِرُّوا بِرَبٍّ هَذَا شَأْنُهُ، فَإِنْ أَقَرُّوا بِهِ آمَنُوا بِالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، وَالدِّينِ الْأَمْرِيِّ وَالْجَزَائِيِّ، وَإِنْ أَنْكَرُوهُ كَفَرُوا بِهِ، فَقَدْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ غَيْرُ مَرْبُوبِينَ وَلَا مَحْكُومٍ عَلَيْهِمْ، وَلَا لَهُمْ رَبٌّ يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ كَمَا أَرَادَ، فَهَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى دَفْعِ الْمَوْتِ عَنْهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ، وَعَلَى رَدِّ الرُّوحِ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ؟.

وَهَذَا خِطَابٌ لِلْحَاضِرِينَ وَهُمْ عِنْدَ الْمُحْتَضِرِ، وَهُمْ يُعَايِنُونَ مَوْتَهُ، أَيْ: فَهَلَّا تَرُدُّونَ الرُّوحَ إِلَى مَكَانِهَا إِنْ كَانَ لَكُمْ قُدْرَةٌ وَتَصَرُّفٌ، وَلَسْتُمْ بِمَرْبُوبِينَ وَلَا بِمَقْهُورِينَ لِقَاهِرٍ قَادِرٍ، تَمْضِي عَلَيْكُمْ أَحْكَامُهُ، وَتَنْفُذُ أَوَامِرُهُ؟

وَهَذِهِ غَايَةُ التَّعْجِيزِ لَهُمْ؛ إِذْ بَيَّنَ عَجْزَهُمْ عَنْ رَدِّ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِلَى مَكَانِهَا، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَى ذَلِكَ الثَّقَلَانِ!

فَيَا لَهَا مِنْ آيَةٍ دَالَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ، وَتَصَرُّفِهِ فِي عِبَادِهِ، وَنُفُوذِ أَحْكَامِهِ فِيهِمْ، وَجَرَيَانِهَا عَلَيْهِمْ!

الشرح:

قوله: (**يَدِينُ فِيهِ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ**) يعني: يحاسبهم بأعمالهم ويجزيهم عليها: إن خيرًا جزاهم عليها خيرًا، وإن شرًّا جزاهم عليها شرًّا، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، كلٌّ يجازى بعمله وما قدمت يداه.

وقوله: (**وَسَمَّى اللَّهُ سُبْحَانَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَوْمَ الدِّينِ**) يعني: يوم الجزاء ويوم الحساب. وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي: غير محاسبين.

وقوله: ﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ هذا خطاب للكفار الذين تمردوا على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعصوا أوامره، وخالفوا دينه، وأشركوا به، وزعموا أنهم أحرار، وأنهم يفعلون ما يشاءون، مثل ما يقوله الآن الملاحدة الذين ينكرون وجود الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

فقال الله لهم: إن كنتم أحرارًا كما تزعمون فهلَّا أنقذتم أنفسكم مما يجري عليكم من أقدار الله؟! هلَّا أنقذتم أنفسكم من شيءٍ لا أحد يُنكره وهو

الموت؟! وجميع الخلق يعلمون أنه لا أحد يستطيع أن ينجو من الموت، أو يدفع الموت، فهذا دليل على أن له ربًّا يقضي عليه، وأن له ربًّا يُميته، فأين حريته، وأين مقدرته، وأين قوته التي يدعي؟

فإذا كان لا يستطيع أن يتخلص من أقدار الله فإنه يلزمه أن يطيع أوامر الله وينقاد له، وهذا مثال واضح: فالميت حينما يُحتضر وعنده أهله وأقاربه الذي يُحزنهم موته ويفقدونه، لماذا لا يردون عليه روحه وينقذونه من الموت وهم عنده كثيرون؟ لماذا لا ينقذونه من الموت مع أنه أغلى شيءٍ عندهم؟ بل يموت وهم ينظرون إليه ولا يستطيعون أن يمنعوا الموت عنه، وهذا الموت من أين جاء؟ جاء من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو الذي يُحيي ويُميت، فهذه حجةٌ قاهرةٌ لهم.

فدل على أنهم عباد، وأنهم مدبَّرون، وليسوا أحرارًا كما يزعمون، وإنما هم مُدبَّرون، مقضي عليهم، تنفذ فيهم أحكام الله جَلَّوَعَلَا وأوامره الكونية، فكذلك يجب عليهم أن يمتثلوا أوامره الشرعية لأجل مصلحتهم؛ لأنهم إذا تركوها أضروا بأنفسهم، فأين عقولهم التي يريدون منها نفع أنفسهم وهم يضرونها ويُهلكونها؟!

وهذا مثالٌ واحد مما يجري على العباد ولا يستطيعون رده، وهو: الموت، وكذلك غير الموت من أوامر الله الكونية، مثل: الغنى، والفقر، والمرض، والصحة، والهم، والحزن، والفرح، والسرور، .. وغير ذلك مما يجري عليهم ولا يستطيعون أن يردوه عن أنفسهم.

وَالدِّينُ دِينَانِ: دِينٌ شَرْعِيٌّ أَمْرِيٌّ، وَدِينٌ حِسَابِيٌّ جَزَائِيٌّ، وَكِلَاهُمَا لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَالدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ أَمْرًا أَوْ جَزَاءً، وَالْمَحَبَّةُ أَصْلُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الدِّينَيْنِ.

فَإِنَّ مَا شَرَعَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَأَمَرَ بِهِ يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَمَا نَهَى عَنْهُ فَإِنَّهُ يَكْرَهُهُ وَيُبْغِضُهُ؛ لِمُنَافَاتِهِ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، فَهُوَ يُحِبُّ ضِدَّهُ، فَعَادَ دِينُهُ الْأَمْرِيُّ كُلُّهُ إِلَى مَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ. وَدِينُ الْعَبْدِ لِلَّهِ بِهِ إِنَّمَا يُقْبَلُ إِذَا كَانَ عَنْ مَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»(١). فَهَذَا الدِّينُ قَائِمٌ بِالْمَحَبَّةِ وَبِسَبَبِهَا شُرِعَ، وَلِأَجْلِهَا شُرِعَ، وَعَلَيْهَا أُسِّسَ.

وَكَذَلِكَ دِينُهُ الْجَزَائِيُّ، فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ مُجَازَاةَ الْمُحْسِنِ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءِ بِإِسَاءَتِهِ، وَكُلٌّ مِنَ الْأَمْرَيْنِ مَحْبُوبٌ لِلرَّبِّ، فَإِنَّهُمَا عَدْلُهُ وَفَضْلُهُ، وَكِلَاهُمَا مِنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ صِفَاتِهِ وَأَسْمَاءَهُ، وَيُحِبُّ مَنْ يُحِبُّهَا.

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الدِّينَيْنِ فَهُوَ صِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ، فَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَثَوَابِهِ وَعِقَابِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ نَبِيِّهِ هُودٍ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦].

وَلَمَّا عَلِمَ نَبِيُّ اللَّهِ أَنَّ رَبَّهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَثَوَابِهِ وَعِقَابِهِ، وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَمَنْعِهِ وَعَطَائِهِ، وَعَافِيَتِهِ وَبَلَائِهِ، وَتَوْفِيقِهِ وَخِذْلَانِهِ، لَا

---

(١) أخرجه مسلم (٣٤) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يَخْرُجُ فِي ذَلِكَ عَنْ مُوجِبِ كَمَالِهِ الْمُقَدَّسِ، الَّذِي يَقْتَضِيهِ أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُهُ، مِنَ الْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ وَالْفَضْلِ، وَوَضْعِ الثَّوَابِ مَوَاضِعَهُ، وَالْعُقُوبَةِ فِي مَوْضِعِهَا اللَّائِقِ بِهَا، وَوَضْعِ التَّوْفِيقِ وَالْخِذْلَانِ وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ وَالْهِدَايَةِ وَالْإِضْلَالِ، كُلُّ ذَلِكَ فِي أَمَاكِنِهِ وَمَحَالِّهِ اللَّائِقَةِ بِهِ، بِحَيْثُ يَسْتَحِقُّ عَلَى ذَلِكَ كَمَالَ الْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ؛ أَوْجَبَ لَهُ ذَلِكَ الْعِلْمَ وَالْعِرْفَانَ، إِذْ نَادَى عَلَى رُؤُوسِ الْمَلَأِ مِنْ قَوْمِهِ بِجَنَانٍ ثَابِتٍ وَقَلْبٍ غَيْرِ خَائِفٍ بَلْ مُتَجَرِّدٍ لِلَّهِ: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾.

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ عُمُومِ قُدْرَتِهِ وَقَهْرِهِ لِكُلِّ مَا سِوَاهُ، وَذُلِّ كُلِّ شَيْءٍ لِعَظَمَتِهِ، فَقَالَ: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾، فَكَيْفَ أَخَافُ مَنْ نَاصِيَتُهُ بِيَدِ غَيْرِهِ، وَهُوَ فِي قَهْرِهِ وَقَبْضَتِهِ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ دُونَهُ، وَهَلْ هَذَا إِلَّا مِنْ أَجْهَلِ الْجَهْلِ، وَأَقْبَحِ الظُّلْمِ؟!

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي كُلِّ مَا يَقْضِيهِ وَيُقَدِّرُهُ، فَلَا يَخَافُ الْعَبْدُ جَوْرَهُ وَلَا ظُلْمَهُ، فَلَا أَخَافُ مَا دُونَهُ فَإِنَّ نَاصِيَتَهُ بِيَدِهِ، وَلَا أَخَافُ جَوْرَهُ وَظُلْمَهُ فَإِنَّهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ مَاضٍ فِي عَبْدِهِ حُكْمُهُ، عَدْلٌ فِيهِ قَضَاؤُهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَلَا يَخْرُجُ فِي تَصَرُّفِهِ فِي عِبَادِهِ عَنِ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ، إِنْ أَعْطَى وَأَكْرَمَ وَهَدَى وَوَفَّقَ فَبِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَإِنْ مَنَعَ وَأَهَانَ وَأَضَلَّ وَخَذَلَ وَأَشْقَى فَبِعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي هَذَا وَهَذَا.

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «مَا أَصَابَ عَبْدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ،

أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَغَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا»(١).

وَهَذَا يَتَنَاوَلُ حُكْمَ الرَّبِّ الْكَوْنِيَّ وَالْأَمْرِيَّ، وَقَضَاءَهُ الَّذِي يَكُونُ بِاخْتِيَارِ الْعَبْدِ وَغَيْرِ اخْتِيَارِهِ، وَكِلَا الْحُكْمَيْنِ مَاضٍ فِي عَبْدِهِ، وَكِلَا الْقَضَائَيْنِ عَدْلٌ فِيهِ، فَهَذَا الْحَدِيثُ مُشْتَقٌّ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، بَيْنَهُمَا أَقْرَبُ نَسَبٍ.

الشرح:

قوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ احتجوا عليه بأن كل رسول لابد له من معجزة وبيِّنة، وقالوا: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾، زعموا أنه ليس معه بينة على رسالته، وهددوه بآلهتهم، فتحداهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وتحدى آلهتهم أن يمسوه بسوء، وقال: أنا بشرٌ واحد، وأنتم أمةٌ قاهرة، وأنا أتحداكم أن تضروني بشيء أنتم وآلهتكم: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾، فعجزوا أن يمسوه بسوء، وهم أمة قاهرة وهو بشرٌ واحد، فهذا دليل على رسالته، وهذه معجزته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٥).

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يعني: على طريق واضح، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وصراط الله هو الطريق إلى الله، وهو دينه.

كذلك إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما هددوه بالأصنام قال لهم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ [الأنعام:٨١]، يعني: كيف تهددونني بآلهتكم ولا تخافون ربي وهو الرب الحق، أما آلهتكم فهي باطلة؟ فكيف تهددونني بباطل ولا تخافون الحق سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؟ ثم قال: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ أي: هل المشرك أحق بالأمن أم الموحد؟ قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]، فالأمن من عذاب الله إنما هو لأهل التوحيد، وأما أهل الشرك فليس لهم أمن لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وقوله: (**مَا أَصَابَ عَبْدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ...**) إلى آخره، ينبغي لمن سمع هذا الحديث أن يحفظه وأن يدعو به؛ لأن الله يجعل له من كل ضيقٍ مخرجًا، ومن كل همٍّ فرجًا، وهذا شيء عظيم، فليتخذ هذا الحديث وهذا الدعاء معه دائمًا. وهذا الحديث مثل الآية التي ذكرها الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن هود: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

فَصْلٌ

وَنَخْتِمُ الْجَوَابَ بِفَصْلٍ مُتَعَلِّقٍ بِعِشْقِ الصُّوَرِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْمَفَاسِدِ الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ، وَإِنْ كَانَتْ أَضْعَافَ مَا ذَكَرَهُ ذَاكِرٌ، فَإِنَّهُ يُفْسِدُ الْقَلْبَ بِالذَّاتِ.

وَإِذَا فَسَدَ الْقَلْبُ فَسَدَتِ الْإِرَادَاتُ وَالْأَقْوَالُ وَالْأَعْمَالُ، وَفَسَدَ نَفْسُ التَّوْحِيدِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَكَمَا سَنُقَرِّرُهُ أَيْضًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

الشرح:

والآن ابتُلي الناس بالصور والفتن؛ الصور التي على الأوراق، والصور التي في الفضائيات وعلى الشاشات والإنترنت، هذه أهلكت كثيرًا من الناس، خصوصًا الشباب الذين هم في طور القوة والشهوة، فلا يُتساهل بها.

ولذلك شدد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النهي عن الصور، وقال: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ**»(١)؛ لأنها شرٌّ، والناس يتساهلون فيها.

وقوله: (**مُتَعَلِّقٍ بِعِشْقِ الصُّوَرِ**) يعني: الذي ينظر إلى ما حرَّم الله عَزَّوَجَلَّ من صور النساء، والصور الفاتنة، فإن النظر إلى هذه الصور سواء كانت صورة خَلقية أو صورة شكلية، كالصور التي على الأوراق والمجلات، أو صور النساء الفاتنة، والصور العارية التي تُنشر للفساد والدعاية إلى الباطل، فإن النظر إليها وعشقها من أضر ما يكون على الإنسان، ولهذا قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٦٥).

فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

وهذا عام في جميع الصور والرسوم الفاتنة، مثل: صور النساء الخَلقية، أو الصور المنقولة والمنقوشة والمرسومة.

واليوم ازداد البلاء بالصور الفوتوغرافية، وقد كانوا قديمًا يرسمون بالأقلام ويتعبون، والآن بكل سهولة يلتقط الصورة بالآلة، ويأخذها في لحظة، وهذا من تمام الفتنة، ومن تيسير الشر لأهل الشر.

فلا يجوز للإنسان أنه يطلق بصره على كل ما يقع أمامه من الأشياء الفاتنة والأشياء الضارة، بل يغض بصره عنه ليسلم قلبه؛ لأن النظر المحرم يؤثر في القلب ويفسده، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾، فالنظرة كالسهم إذا كفها الإنسان سلم قلبه، وإذا أرسلها أصابت قلبه.

وقوله: **(وَإِذَا فَسَدَ الْقَلْبُ فَسَدَتِ الْإِرَادَاتُ وَالْأَقْوَالُ وَالْأَعْمَالُ)** كما في الحديث: «**إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»(١).

فعليك أن تحافظ على قلبك، فلا يصل إليه شيء يفسده، لا من أكل الحرام، ولا من النظر إلى ما حرم الله، ولا من السماع الحرام، فأنت تحفظ قلبك من أن يصل إليه شيء يفسده عليك.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا حَكَى هَذَا الْمَرَضَ عَنْ طَائِفَتَيْنِ مِنَ النَّاسِ، وَهُمَا: اللُّوطِيَّةُ وَالنِّسَاءُ، فَأَخْبَرَ عَنْ عِشْقِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ لِيُوسُفَ، وَمَا رَاوَدَتْهُ وَكَادَتْهُ بِهِ، وَأَخْبَرَ عَنِ الْحَالِ الَّتِي صَارَ إِلَيْهَا يُوسُفُ بِصَبْرِهِ وَعِفَّتِهِ وَتَقْوَاهُ، مَعَ أَنَّ الَّذِي ابْتُلِيَ بِهِ أَمْرٌ لَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ صَبَّرَهُ اللَّهُ، فَإِنَّ مُوَاقَعَةَ الْفِعْلِ بِحَسَبِ قُوَّةِ الدَّاعِي وَزَوَالِ الْمَانِعِ، وَكَانَ الدَّاعِي هَاهُنَا فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ، وَذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: مَا رَكَّبَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي طَبْعِ الرَّجُلِ مِنْ مَيْلِهِ إِلَى الْمَرْأَةِ، كَمَا يَمِيلُ الْعَطْشَانُ إِلَى الْمَاءِ، وَالْجَائِعُ إِلَى الطَّعَامِ، حَتَّى إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَصْبِرُ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَلَا يَصْبِرُ عَنِ النِّسَاءِ. وَهَذَا لَا يُذَمُّ إِذَا صَادَفَ حَلَالًا بَلْ يُحْمَدُ، كَمَا فِي كِتَابِ الزُّهْدِ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ يُوسُفَ بْنِ عَطِيَّةَ الصَّفَّارِ عَنْ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، أَصْبِرُ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَلَا أَصْبِرُ عَنْهُنَّ»(١).

الثَّانِي: أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ شَابًّا، وَشَهْوَةُ الشَّبَابِ وَحِدَّتُهُ أَقْوَى.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ كَانَ عَزَبًا، لَيْسَ لَهُ زَوْجَةٌ وَلَا سُرِّيَّةٌ تَكْسِرُ شِدَّةَ الشَّهْوَةِ.

الرَّابِعُ: أَنَّهُ كَانَ فِي بِلَادِ غُرْبَةٍ، يَتَأَتَّى لِلْغَرِيبِ فِيهَا مِنْ قَضَاءِ الْوَطَرِ مَا لَا

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ في المطبوع من الزهد للإمام أحمد. وأخرج نحوه أحمد في المسند (١٢٨/٣)، والنسائي (٣٩٣٩)، والحاكم (١٧٤/٢)، والبيهقي في الكبرى (١٢٥/٧) من حديث أنس، ولفظه: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».
وأخرج ابن حبان في المجروحين (١٣٥/٣) من طريق يوسف بن عطية الصفار، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله جَلَّ وَعَلَا جعل قرة عيني في الصلاة، وحبب إلي الطيب كما حبب إلى الجائع الطعام وإلى الظمآن الماء، والجائع يشبع والظمآن يروي وأنا لا أشبع من الصلاة». ويوسف بن عطية متروك الحديث.

يَتَأَتَّى لَهُ فِي وَطَنِهِ وَبَيْنَ أَهْلِهِ وَمَعَارِفِهِ.

الْخَامِسُ: أَنَّ الْمَرْأَةَ كَانَتْ ذَاتَ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، بِحَيْثُ إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ يَدْعُو إِلَى مُوَاقَعَتِهَا.

السَّادِسُ: أَنَّهَا غَيْرُ مُمْتَنِعَةٍ وَلَا آبِيَةٍ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يُزِيلُ رَغْبَتَهُ فِي الْمَرْأَةِ إِبَاؤُهَا وَامْتِنَاعُهَا؛ لِمَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ مِنْ ذُلِّ الْخُضُوعِ وَالسُّؤَالِ لَهَا، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَزِيدُهُ الْإِبَاءُ وَالِامْتِنَاعُ إِرَادَةً وَحُبًّا، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ[1]:

وَزَادَنِي كَلَفًا فِي الْحُبِّ أَنْ مَنَعَتْ ... أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مَنَعَا

فَطِبَاعُ النَّاسِ مُخْتَلِفَةٌ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَضَاعَفُ حُبُّهُ عِنْدَ بَذْلِ الْمَرْأَةِ وَرَغْبَتِهَا، وَيَضْمَحِلُّ عِنْدَ إِبَائِهَا وَامْتِنَاعِهَا.

وَأَخْبَرَنِي بَعْضُ الْقُضَاةِ أَنَّ إِرَادَتَهُ وَشَهْوَتَهُ تَضْمَحِلُّ عِنْدَ امْتِنَاعِ امْرَأَتِهِ أَوْ سُرِّيَّتِهِ وَإِبَائِهَا، بِحَيْثُ لَا يُعَاوِدُهَا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَضَاعَفُ حُبُّهُ وَإِرَادَتُهُ بِالْمَنْعِ فَيَشْتَدُّ شَوْقُهُ كُلَّمَا مُنِعَ، وَيَحْصُلُ لَهُ مِنَ اللَّذَّةِ بِالظَّفَرِ بِالضِّدِّ بَعْدَ امْتِنَاعِهِ وَنِفَارِهِ، وَاللَّذَّةُ بِإِدْرَاكِ الْمَسْأَلَةِ بَعْدَ اسْتِصْعَابِهَا، وَشِدَّةِ الْحِرْصِ عَلَى إِدْرَاكِهَا.

السَّابِعُ: أَنَّهَا طَلَبَتْ وَأَرَادَتْ وَبَذَلَتِ الْجُهْدَ، فَكَفَتْهُ مُؤْنَةَ الطَّلَبِ وَذُلَّ الرَّغْبَةِ إِلَيْهَا، بَلْ كَانَتْ هِيَ الرَّاغِبَةَ الذَّلِيلَةَ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْمَرْغُوبُ إِلَيْهِ.

الثَّامِنُ: أَنَّهُ فِي دَارِهَا، وَتَحْتَ سُلْطَانِهَا وَقَهْرِهَا، بِحَيْثُ يَخْشَى إِنْ لَمْ يُطَاوِعْهَا مِنْ أَذَاهَا لَهُ، فَاجْتَمَعَ دَاعِي الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ.

التَّاسِعُ: أَنَّهُ لَا يَخْشَى أَنْ تَنِمَّ عَلَيْهِ هِيَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ جِهَتِهَا، فَإِنَّهَا هِيَ الطَّالِبَةُ

(١) البيت للأحوص، يُنظر: شعر الأحوص الأنصاري (ص١٩٥).

الرَّاغِبَةُ، وَقَدْ غَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَغَيَّبَتِ الرُّقَبَاءَ.

الْعَاشِرُ: أَنَّهُ كَانَ فِي الظَّاهِرِ مَمْلُوكًا لَهَا فِي الدَّارِ، بِحَيْثُ يَدْخُلُ وَيَخْرُجُ وَيَحْضُرُ مَعَهَا وَلَا يُنْكَرُ عَلَيْهِ، وَكَانَ الْأُنْسُ سَابِقًا عَلَى الطَّلَبِ وَهُوَ مِنْ أَقْوَى الدَّوَاعِي، كَمَا قِيلَ لِامْرَأَةٍ شَرِيفَةٍ مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ: مَا حَمَلَكِ عَلَى الزِّنَا؟ قَالَتْ: قُرْبُ الْوِسَادِ، وَطُولُ السَّوَادِ، تَعْنِي: قُرْبَ وِسَادِ الرَّجُلِ مِنْ وِسَادَتِي، وَطُولَ السَّوَادِ بَيْنَنَا.

الْحَادِيَ عَشَرَ: أَنَّهَا اسْتَعَانَتْ عَلَيْهِ بِأَئِمَّةِ الْمَكْرِ وَالِاحْتِيَالِ، فَأَرَتْهُ إِيَّاهُنَّ، وَشَكَتْ حَالَهَا إِلَيْهِنَّ؛ لِتَسْتَعِينَ بِهِنَّ عَلَيْهِ، وَاسْتَعَانَ هُوَ بِاللَّهِ عَلَيْهِنَّ، فَقَالَ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣].

الثَّانِيَ عَشَرَ: أَنَّهَا تَوَاعَدَتْهُ بِالسِّجْنِ وَالصَّغَارِ، وَهَذَا نَوْعُ إِكْرَاهٍ؛ إِذْ هُوَ تَهْدِيدُ مَنْ يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ وُقُوعُ مَا هَدَّدَ بِهِ، فَيَجْتَمِعُ دَاعِي الشَّهْوَةِ، وَدَاعِي السَّلَامَةِ مِنْ ضِيقِ السِّجْنِ وَالصَّغَارِ.

الثَّالِثَ عَشَرَ: أَنَّ الزَّوْجَ لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ الْغَيْرَةُ وَالنَّخْوَةُ مَا يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَهُمَا، وَيُبْعِدُ كُلًّا مِنْهُمَا عَنْ صَاحِبِهِ، بَلْ كَانَ غَايَةَ مَا قَابَلَهَا بِهِ أَنْ قَالَ لِيُوسُفَ: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾، وَلِلْمَرْأَةِ: ﴿وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف:٢٩]، وَشِدَّةُ الْغَيْرَةِ لِلرَّجُلِ مِنْ أَقْوَى الْمَوَانِعِ، وَهُنَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ غَيْرَةٌ.

وَمَعَ هَذِهِ الدَّوَاعِي كُلِّهَا، فَآثَرَ مَرْضَاةَ اللَّهِ وَخَوْفَهُ، وَحَمَلَهُ حُبُّهُ لِلَّهِ عَلَى أَنِ اخْتَارَ السِّجْنَ عَلَى الزِّنَا: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف:٣٣]. وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يُطِيقُ صَرْفَ ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ، وَأَنَّ رَبَّهُ تَعَالَى إِنْ لَمْ

يَعْصِمْهُ وَيَصْرِفْ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ صَبَا إِلَيْهِنَّ بِطَبْعِهِ، وَكَانَ مِنَ الْجَاهِلِينَ، وَهَذَا مِنْ كَمَالِ مَعْرِفَتِهِ بِرَبِّهِ وَبِنَفْسِهِ.

وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنَ الْعِبَرِ وَالْفَوَائِدِ وَالْحِكَمِ مَا يَزِيدُ عَلَى الْأَلْفِ فَائِدَةٍ، لَعَلَّنَا إِنْ وَفَّقَ اللَّهُ أَنْ نُفْرِدَهَا فِي مُصَنَّفٍ مُسْتَقِلٍّ.

الشرح:

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وما جرى عليه من المحن، ومنها فتنة امرأة العزيز؛ لأنه كان في بيتها، وكان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أجمل الناس صورة، فافتتنت به، وفي يوم من الأيام غلَّقت الأبواب ودعته إلى الفاحشة، لكنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خاف ربه، وقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣]. فالله جَلَّ وَعَلَا ثبته وصبره ومنعه مما أرادت منه المرأة.

لكن الشاهد من هذه القصة: أنها نظرت إليه فافتتنت به، فكان إطلاق النظر هو الذي جرَّ عليها هذه الفتنة.

وقوله: (**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ**)، كون الإنسان يحب زوجته، ويحب أنه يتزوج من النساء الجميلات الصالحات، هذا لا يُلام عليه بل هو مأمورٌ به، لكن المذموم أن يعدل عن ذلك إلى الحرام.

وعلى كل حال الإنسان مبتلى في هذه الدنيا وممتحن، وإلا فإن الله جَلَّ وَعَلَا جعل مصرفًا للشهوة نافعًا ومفيدًا وهو الزواج، فبه يُعف البصر، ويحصل الأولاد والذرية، ويحصل بناء الأسرة.

فالزواج عقدٌ عظيم وفائدته عظيمة في المجتمع، أما السُفاح -والعياذ بالله- فهو شر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢]، فالزنا يُفسد الأعراض، ويُضيع الأولاد، ويخلط الأنساب، ويسبب الأمراض الفتاكة، وينشر الوباء في المجتمعات، كما هو معلومٌ الآن ما يعاني منه العالم من مرض فقد المناعة المسمى «الإيدز» الذي استعصى على العالم كله، إذا أصيب به الإنسان فإنه يُعزل عن المجتمع إلى أن يموت؛ لأنه ليس له علاج. وهذه عقوبة عاجلة والعياذ بالله.

قوله: (**أَنَّهَا طَلَبَتْ وَأَرَادَتْ وَبَذَلَتِ الْجُهْدَ**)، قال تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف:٢٣]، فمكنته من نفسها، وهي امرأة ملك في غاية الجمال، وهو في غاية الشباب والقوة والشهوة، وغريب لا يعرفه أحد، فتوفرت أسباب الوقوع في الفتنة، لكنَّ الله عصمه: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]، لكن هذا بعد الابتلاء والامتحان.

وقوله: (**أَنَّهُ كَانَ فِي الظَّاهِرِ مَمْلُوكًا لَهَا فِي الدَّارِ، بِحَيْثُ يَدْخُلُ وَيَخْرُجُ وَيَحْضُرُ مَعَهَا وَلَا يُنْكَرُ عَلَيْهِ**)، وهذا مما يُنبه على منع الاختلاط بين الرجال والنساء وعدم دخول الرجال على غير محارمهم، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ**»(١). فلما كان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في قبضة هذه المرأة، ومخالطًا لها، سبَّب ذلك افتتانها به، ولولا أن الله جَلَّ وَعَلَا ثبته ومنعه

(١) أخرجه البخاري (٥٢٣٢)، ومسلم (٢١٧٢) من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لحصل المحذور.

وقوله: **(أَنَّ الزَّوْجَ لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ الْغَيْرَةُ وَالنَّخْوَةُ مَا يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَهُمَا)**، وهذا دليل على أن ضعف غيرة الرجل تُسبب ضياع المرأة، وكون العزيز ترك يوسف في بيته مع امرأته هذا تعريضٌ للخطر، ولولا أن الله سبحانه عصم نبيه من ذلك لحصل الشر الكثير.

فهذا مما يدل على وجوب عدم التساهل في وجود الرجال الأجانب مع النساء والاختلاط بهن، فلا أحد أوثق ولا أكثر أمانة من يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومع هذا لم يسلم من شر هذه المرأة، فكيف لو كان مكانه رجلٌ ضعيف الإيمان، وضعيف الشخصية؟ لا شك أنها تؤثر عليه. فمن ذا الذي مثل يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في إيمانه وصبره وشجاعته؟ أكثر الرجال ضِعاف مع النساء، يتغلبن عليهم بأقل سبب. فهذا مما يؤكد وجوب عزل النساء عن الرجال، إلا إذا كانوا من محارمهن.

وقوله: **(وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنَ الْعِبَرِ وَالْفَوَائِدِ وَالْحِكَمِ مَا يَزِيدُ عَلَى الْأَلْفِ فَائِدَةٍ، لَعَلَّنَا إِنْ وَفَّقَ اللَّهُ أَنْ نُفْرِدَهَا فِي مُصَنَّفٍ مُسْتَقِلٍّ)**، للشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالة سماها: «فوائد مستنبطة من قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ»، فلعل طالب العلم يطلع عليها، ولا ندري هل للإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب جمع فيه ألف فائدة في قصة يوسف أم لا.

فَصْلٌ

وَالطَّائِفَةُ الثَّانِيَةُ الَّذِينَ حَكَى اللَّهُ عَنْهُمُ الْعِشْقَ: هُمُ اللُّوطِيَّةُ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۝٦٩ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٧١ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٦٧ - ٧٢]. فَهَذِهِ الْأُمَّةُ عَشِقَتْ.

فَحَكَاهُ سُبْحَانَهُ عَنْ طَائِفَتَيْنِ عَشِقَ كُلٌّ مِنْهُمَا مَا حُرِّمَ عَلَيْهِ مِنَ الصُّوَرِ، وَلَمْ يُبَالِ بِمَا فِي عِشْقِهِ مِنَ الضَّرَرِ.

وَهَذَا دَاءٌ أَعْيَا الْأَطِبَّاءَ دَوَاؤُهُ، وَعَزَّ عَلَيْهِمْ شِفَاؤُهُ، وَهُوَ وَاللَّهِ الدَّاءُ الْعُضَالُ، وَالسُّمُّ الْقَتَّالُ، الَّذِي مَا عَلِقَ بِقَلْبٍ إِلَّا وَعَزَّ عَلَى الْوَرَى خَلَاصُهُ مِنْ إِسَارِهِ، وَلَا اشْتَعَلَتْ نَارُهُ فِي مُهْجَةٍ إِلَّا وَصَعُبَ عَلَى الْخَلْقِ تَخْلِيصُهَا مِنْ نَارِهِ.

وَهُوَ أَقْسَامٌ: تَارَةً يَكُونُ كُفْرًا، كَمَنِ اتَّخَذَ مَعْشُوقَهُ نِدًّا يُحِبُّهُ كَمَا يُحِبُّ اللَّهَ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ مَحَبَّتُهُ أَعْظَمَ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ فِي قَلْبِهِ؟ فَهَذَا عِشْقٌ لَا يُغْفَرُ لِصَاحِبِهِ، فَإِنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الشِّرْكِ، وَاللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَإِنَّمَا يَغْفِرُ بِالتَّوْبَةِ الْمَاحِيَةِ مَا دُونَ ذَلِكَ.

وَعَلَامَةُ الْعِشْقِ الشِّرْكِيِّ الْكُفْرِيِّ: أَنْ يُقَدِّمَ الْعَاشِقُ رِضَاءَ مَعْشُوقِهِ عَلَى رَبِّهِ، وَإِذَا تَعَارَضَ عِنْدَهُ حَقُّ مَعْشُوقِهِ وَحَظُّهُ، وَحَقُّ رَبِّهِ وَطَاعَتُهُ، قَدَّمَ حَقَّ مَعْشُوقِهِ عَلَى حَقِّ رَبِّهِ، وَآثَرَ رِضَاهُ عَلَى رِضَاهُ، وَبَذَلَ لَهُ أَنْفَسَ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَبَذَلَ لِرَبِّهِ -إِنْ بَذَلَ- أَرْدَأَ مَا عِنْدَهُ، وَاسْتَفْرَغَ وُسْعَهُ فِي مَرْضَاةِ مَعْشُوقِهِ وَطَاعَتِهِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ، وَجَعَلَ لِرَبِّهِ -إِنْ أَطَاعَهُ- الْفَضْلَةَ الَّتِي تَفْضُلُ مَعْشُوقَهُ مِنْ

سَاعَاتِهِ.

فَتَأَمَّلْ حَالَ أَكْثَرِ عُشَّاقِ الصُّوَرِ تَجِدْهَا مُطَابِقَةً لِذَلِكَ، ثُمَّ ضَعْ حَالَهُمْ فِي كِفَّةٍ، وَتَوْحِيدَهُمْ وَإِيمَانَهُمْ فِي كِفَّةٍ، ثُمَّ زِنْ وَزْنًا يَرْضَى اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ وَيُطَابِقُ الْعَدْلَ.

وَرُبَّمَا صَرَّحَ الْعَاشِقُ مِنْهُمْ بِأَنَّ وَصْلَ مَعْشُوقِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ رَبِّهِ، كَمَا قَالَ الْعَاشِقُ الْخَبِيثُ(١):

يَتَرَشَّفْنَ مِنْ فَمِي رَشَفَاتٍ ... هُنَّ أَحْلَى فِيهِ مِنَ التَّوْحِيدِ

وَكَمَا صَرَّحَ الْخَبِيثُ الْآخَرُ أَنَّ وَصْلَ مَعْشُوقِهِ أَشْهَى إِلَيْهِ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ -فَعِياذًا بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ هَذَا الْخُذْلَانِ- فَقَالَ(٢):

وَصْلُكَ أَشْهَى إِلَى فُؤَادِي ... مِنْ رَحْمَةِ الْخَالِقِ الْجَلِيلِ

وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا الْعِشْقَ مِنْ أَعْظَمِ الشِّرْكِ.

وَكَثِيرٌ مِنَ الْعُشَّاقِ يُصَرِّحُ بِأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِي قَلْبِهِ مَوْضِعٌ لِغَيْرِ مَعْشُوقِهِ أَلْبَتَّةَ، بَلْ قَدْ مَلَكَ عَلَيْهِ قَلْبَهُ كُلَّهُ فَصَارَ عَبْدًا مَحْضًا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ لِمَعْشُوقِهِ، فَقَدْ رَضِيَ هَذَا مِنْ عُبُودِيَّةِ الْخَالِقِ جَلَّ جَلَالُهُ بِعُبُودِيَّةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ، فَإِنَّ الْعُبُودِيَّةَ هِيَ كَمَالُ الْحُبِّ وَالْخُضُوعِ، وَهَذَا قَدِ اسْتَفْرَغَ قُوَّةَ حُبِّهِ وَخُضُوعِهِ وَذُلِّهِ لِمَعْشُوقِهِ، فَقَدْ أَعْطَاهُ حَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ.

وَلَا نِسْبَةَ بَيْنَ مَفْسَدَةِ هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ وَمَفْسَدَةِ الْفَاحِشَةِ، فَإِنَّ تِلْكَ ذَنْبٌ كَبِيرٌ لِفَاعِلِهِ حُكْمُ أَمْثَالِهِ، وَمَفْسَدَةُ هَذَا الْعِشْقِ مَفْسَدَةُ الشِّرْكِ.

---

(١) البيت للمتنبي، يُنظر: ديوانه (ص١٩).

(٢) تقدم (ص٥٦٦).

وَكَانَ بَعْضُ الشُّيُوخِ مِنَ الْعَارِفِينَ يَقُولُ: لَأَنْ أُبْتَلَى بِالْفَاحِشَةِ مَعَ تِلْكَ الصُّورَةِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُبْتَلَى فِيهَا بِعِشْقٍ يَتَعَبَّدُ لَهَا قَلْبِي وَيَشْغَلُهُ عَنِ اللَّهِ.

الشرح:

الطائفة الأولى التي ابتليت بالعشق هم الذين وقعوا في فاحشة الزنا والعياذ بالله، وقد نهى الله جَلَّوَعَلَا عن قربانه وفعل الأسباب التي توصل إليه، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢]، فكيف بإتيانه وفعله؟!

والأسباب التي توصل إلى الزنا كثيرة، منها: إطلاق النظر إلى النساء، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

فإطلاق النظر إلى ما حرَّم الله يُوقع الرجال والنساء في الفاحشة، وليس الأمر مقتصرًا على الرجال فقط، بل إن النساء أيضًا إذا نظرت إحداهن إلى الرجال نظر شهوة وقعت في الفاحشة، وهي أشد من الرجل فتنة.

واليوم ابتُلي كثيرٌ من الناس بالشاشات والفضائيات التي تُعرض فيها الصور الفاتنة والعارية، والمجلات والكتب التي تُوضع فيها صور النساء الفاتنة، فلم يعد الأمر قاصرًا على النظر إلى النساء، وإنما عمَّ البلاء وصار يصل إلى الإنسان في أي مكان، ولو لم يكن قريبًا من أماكن تواجد النساء.

ومن أسباب الوقوع في الزنا أيضًا: اختلاط النساء بالرجال، سواء

اختلطن بهم في العمل، أو في الأسواق، أو حتى في المساجد، وقد أمر النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ النساء أن يكن خلف الرجال في الصلاة منعًا للاختلاط (١).

أما ما يقع في الحج وفي مواطن الزحام التي ليس للناس فيها طاقةٌ في فصل النساء عن الرجال، فهذا شيءٌ يُغتفر، لكن على كلٍّ من الرجل والمرأة أن يتحرز من الفتنة، ولذلك لا تجوز المزاحمة على الحجر إذا كان عنده نساء، وليس هذا طاعة المزاحمة على الحجر في هذه الحالة وإنما هو معصية؛ لما فيه من الفتنة.

كذلك من وسائل الزنا: خلوة الرجل بامرأةٍ لا تحل له، سواء في مكتب، أو في بيت، أو في برٍّ، أو في سيارة، فهذا من أسباب الوقوع في الفاحشة، ولهذا قال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«لَا يَخْلُوَنَّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ ثَالِثُهُمَا»** (٢).

ومن وسائل الزنا التي حذر النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ منها: سفر المرأة بدون محرَم (٣)؛ لأنها تقع فريسة للفسَّاق وضعاف النفوس، وهي ضعيفة، أو تنخدع، فلابد أن يكون معها محرم يحميها، وسفر إلى البلاد البعيدة تضيع فيه المرأة ولا يكون عندها وازع لا من عقل ولا من دين، وتكون قريبة التناول، فلابد

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: **«خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا، وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا، وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا»**. أخرجه مسلم (٤٤٠).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٨)، والنسائي في الكبرى (٨/ ٢٨٤)، وابن حبان (١٠/ ٤٣٦)، والحاكم (١/ ١٩٩)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ١٤٦) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: **«لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ، وَلَا تُسَافِرِ الْمَرْأَةُ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ»**. أخرجه البخاري (٣٠٠٦)، ومسلم (١٣٤١).

من محرم؛ لحمايتها من ذئاب البشر الضارية.

كذلك من الوسائل التي تُوقع في الزنا: تعري المرأة، وسفورها، وعدم احتشامها بالستر، فهذا مما يُعرضها ويُعرض الرجال للفاحشة، ولهذا قال الله جل وعلا: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ وهي: زينة البدن، وزينة الحلي، وزينة الثياب ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

فإذا كان على المرأة خلخال وهو تحت الثياب فلا تضرب برجلها حتى يُسمع صوته؛ لأن هذا فتنة يُلفت نظر الرجل الذي فيه ريبة أو في قلبه مرض في قلبه، فيطمع بها.

وكذلك من وسائل الوقوع في الفاحشة: أن المرأة تلين في الكلام مع الرجل، وتمازحه، وترقق صوتها في الحديث معه، مما يُطمع أصحاب القلوب المريضة فيها، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب:٣٢]، ومن حماية المرأة بقاؤها في البيت وعندها من العمل في البيت ما يكفيها: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣]، والمراد بالتبرج: الظهور بالزينة.

وقوله: **(وَالطَّائِفَةُ الثَّانِيَةُ الَّذِينَ حَكَى اللَّهُ عَنْهُمُ الْعِشْقَ: هُمُ اللُّوطِيَّةُ)**، واللواط -والعياذ بالله- أسوأ من الزنا، وهذه الجريمة لم تكن معروفة في العالم قبل قوم لوط: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾

[الأعراف:٨٠]، ولذلك عاقبهم الله جَلَّوَعَلَا عقوبةً لم يعاقب بها غيرهم؛ حيث أمر جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ فرفع ديارهم على طرف جناحه إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم، وخُسف بهم، وأُتبعوا بحجارة من سجيل. هذه عقوبة لم يسبق لها نظير؛ لأن جريمتهم لم يسبق لها نظير، حتى البهائم تأنف منها، فلا يعلو ذكرٌ على ذكرٍ في جميع البهائم، لكن فسقة بني آدم أخس من البهائم، نسأل الله العافية.

ولما نهى لوط عَلَيْهِٱلسَّلَامُ قومه عن الفاحشة، وحذرهم من عذاب الله، لم يمتثلوا، وهددوه، وقالوا: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:٥٦]، عيروه ومن معه بأنهم يتطهرون ولا يريدون اللواط، فعيروهم بما هو خير؛ لأن أذواقهم تغيرت والعياذ بالله.

ولما أراد الله إهلاكهم جاءت الملائكة في صور رجال دخلوا على إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وكان مضيافًا يُكرم الأضياف، فقرب إليهم الطعام، لكن الملائكة لا تأكل فلم يمدوا أيديهم إليه، فاستراب منهم، وظن أنهم يريدون به شرًّا، فبينوا له أنهم ملائكة: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧١]، عند ذلك جادلهم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٢].

فلما جاءوا إلى لوط عَلَيْهِٱلسَّلَامُ في صور فتيان أجمل ما يكون، لأجل إغراء قومه بالفاحشة؛ لأنه قد حان وقت هلاكهم، فجاءوا يستبشرون أن لوطًا عنده فتيان، يريدون فعل الفاحشة بهم، فدافع لوط عَلَيْهِٱلسَّلَامُ عن أضيافه، وتكلم

مع قومه ودافعهم، وقال لهم: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ﴾، فقالت له الملائكة: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ [هود: ٨١]، فضربهم جبريل بجناحه فطمس الله أعينهم، وصاروا لا يُبصرون، وهذا أول شيء، فقالوا: سحرنا لوط. يعني: لا يزالون في غيِّهم.

ثم أتبعهم الله بالعقوبة، بعدما خرج لوط ومن معه إلا زوجته؛ لأنها كانت تماري هؤلاء، وتدلهم على الفساد، فهلكت معهم والعياذ بالله، ولم ينفعها أنها زوجة نبي، كما لم يضر امرأة فرعون أن زوجها كافر؛ لأنها كانت مؤمنة. فالله جَلَّوَعَلَا إنما يجزي الإنسان بعمله لا بعمل غيره.

فهذا حاصل قصة قوم لوط، أهلكهم الله بعدما أقام عليهم الحجة، وبعد أن نصحهم لوط وبين لهم عاقبة فعل الفاحشة، بل قال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾، فبين لهم الطريق الصحيح لإفراغ الشهوة التي فطرهم الله عليها، وذلك بأن يتزوجوا النساء المؤمنات، فذلك أطهر لهم من هذه الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين.

ولما لم يستجيبوا للنصح ويرجعوا عن غيهم أهلكهم الله، ووصفهم بقوله: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، أي: لا يزالون في سكرة الشهوة يعمهون، والعمه: أشد من العمى؛ لأن العمه هو عمى القلب، أما العمى فهو عمى البصر.

وقوله: **(وَهُوَ أَقْسَامٌ: تَارَةً يَكُونُ كُفْرًا، كَمَنِ اتَّخَذَ مَعْشُوقَهُ نِدًّا يُحِبُّهُ كَمَا يُحِبُّ اللَّهَ)**، يعني: من أقسام العشق ما يفعله المشركون من محبتهم لأصنامهم كحب الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، فيحبون الحجر والشجر والقبر كحب الله، ولذلك يبذلون جهدهم وأموالهم في الدفاع عنها.

وقوله: **(فَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ مَحَبَّتُهُ أَعْظَمَ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ فِي قَلْبِهِ)**، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ [الأنعام:١٣٦]، فإذا زرعوا أو غرسوا جعلوا قسمًا لله وقسمًا لأصنامهم، فإذا جاءت آفة وأصابت القسم الذي للأصنام قالوا: الأصنام ضعيفة ومحتاجة، والله غني عن هذا. فيأخذون الذي جعلوه لله بزعمهم فيجعلونه للأصنام عِوضًا عما تلف، وإذا تلف ما زعموه حقًّا لله جَلَّ وَعَلَا لا يأخذونه مما جعلوه لأصنامهم. مع أن الجميع كله لله عَزَّوَجَلَّ، هو الذي خلقه، وهو الذي رزقهم إياه، والأصنام لم تخلق شيئًا ولم ترزق.

فَصْلٌ

وَدَوَاءُ هَذَا الدَّاءُ الْقَتَّالُ: أَنْ يَعْرِفَ أَنْ مَا ابْتُلِيَ بِهِ مِنْ هَذَا الدَّاءِ الْمُضَادِّ لِلتَّوْحِيدِ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ جَهْلِهِ وَغَفْلَةِ قَلْبِهِ عَنِ اللهِ تَعَالَى، فَعَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ تَوْحِيدَ رَبِّهِ وَسُنَّتَهُ أَوَّلًا، ثُمَّ يَأْتِي مِنَ الْعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ بِمَا يَشْغَلُ قَلْبَهُ عَنْ دَوَامِ الْفِكْرَةِ فِيهِ، وَيُكْثِرُ اللَّجَأَ وَالتَّضَرُّعَ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ فِي صَرْفِ ذَلِكَ عَنْهُ، وَأَنْ يُرَاجِعَ بِقَلْبِهِ إِلَيْهِ.

وَلَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ أَنْفَعُ مِنَ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ، وَهُوَ الدَّوَاءُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ حَيْثُ قَالَ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]. وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ صَرَفَ عَنْهُ السُّوءَ مِنَ الْعِشْقِ وَالْفَحْشَاءَ مِنَ الْفِعْلِ بِإِخْلَاصِهِ، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا أَخْلَصَ وَأَخْلَصَ عَمَلَهُ لِلَّهِ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْهُ عِشْقُ الصُّوَرِ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَتَمَكَّنُ مِنْ قَلْبٍ فَارِغٍ، كَمَا قَالَ:

.... فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا(١)

الشرح:

الإخلاص لله يمنع الإنسان من الوقوع في الشرك، ويكون قلبه خالصًا لله عَزَّوَجَلَّ، وأما إذا أشرك مع الله فقد انقسم قلبه أو خلُص قلبه للمعشوق والمعبود من دون الله عَزَّوَجَلَّ، كحال المشركين، ولا نقصد بالمشركين عبدة الأصنام فقط، بل عبدة القبور أشد من عبدة الأصنام، مع أنهم يدَّعون الإسلام، وينطقون بالشهادتين، لكنهم يعبدون الأموات، فيذبحون لهم،

(١) عجز بيت لمجنون ليلى، تقدم (ص٥٣٢)، وصدره: «أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى».

وينـذرون لهـم، ويطوفـون بقبـورهم، ويتبركـون بتربـتهم، ويبكـون حـولهم، ويستغيثون بهم، فتجد أحدهم يبكي عند القبر ولا يبكي في المسجد بيت الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا من العجائب في بني آدم أنه ينسى خالقه وربه ويذهب إلى مخلوقٍ أقل منه، فالميت أقل من الحي لا يملك لنفسه شيئًا، والحي مخلوقٌ مثلك، فقير مثلك، فكيف تطلب منه وهو فقير مثلك محتاج إلى الله عَزَّوَجَلَّ؟!

وقوله: **(وَلَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ أَنْفَعُ مِنَ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ)**، وهو الذي نجَّى الله جَلَّوَعَلَا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من العشق لمَّا راودته امرأة العزيز، امرأة ملك وجميلة وعندها ترف وعندها منصب، لكنه أعرض عنها وقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ﴾ يعني: طلبت منه ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٣، ٢٤]. يعني: لولا أن الله عصمه لهَمَّ بها، لكن الله عصمه، فأعرض عنها ولم يلتفت إليها، وسبب ذلك: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾، فعند ذلك عصمه الله جَلَّوَعَلَا من هذه الورطة العظيمة وهذه الفتنة الكبيرة، ونجاه منها بسبب إيمانه وتوحيده وإخلاصه لله عَزَّوَجَلَّ.

فيؤخذ من قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الإنسان إذا ابتُلي ووقع في فتنة ووقع في شر أنه يلجأ إلى الله ويصرف قلبه إلى الله، فإذا تعلق بالله عَزَّوَجَلَّ ودعا ربه فإن الله ينجيه من هذه الفتنة، كما نجَّى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بإخلاصه وتوحيده لله، وتعلق قلبه بالله عَزَّوَجَلَّ، ولم ينخدع بهذا المظهر الخداع الجذاب، لأن عنده من الإيمان واليقين ما يمنعه من الانصراف إلى هذه الفواحش.

وَلْيَعْلَمِ العَاقِلُ أَنَّ الْعَقْلَ وَالشَّرْعَ يُوجِبَانِ تَحْصِيلَ الْمَصَالِحِ وَتَكْمِيلَهَا، وَإِعْدَامَ الْمَفَاسِدِ وَتَقْلِيلَهَا. فَإِذَا عَرَضَ لِلْعَاقِلِ أَمْرٌ يَرَى فِيهِ مَصْلَحَةً وَمَفْسَدَةً، وَجَبَ عَلَيْهِ أَمْرَانِ: أَمْرٌ عِلْمِيٌّ، وَأَمْرٌ عَمَلِيٌّ. فَالْعِلْمِيُّ: مَعْرِفَةُ الرَّاجِحِ مِنْ طَرَفَيِ الْمَصْلَحَةِ وَالْمَفْسَدَةِ، فَإِذَا تَبَيَّنَ لَهُ الرُّجْحَانُ وَجَبَ عَلَيْهِ إِيثَارُ الْأَصْلَحِ لَهُ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَيْسَ فِي عِشْقِ الصُّوَرِ مَصْلَحَةٌ دِينِيَّةٌ وَلَا دُنْيَوِيَّةٌ، بَلْ مَفْسَدَتُهُ الدِّينِيَّةُ وَالدُّنْيَوِيَّةُ أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا يُقَدَّرُ فِيهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ، وَذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: الِاشْتِغَالُ بِحُبِّ الْمَخْلُوقِ وَذِكْرِهِ عَنْ حُبِّ الرَّبِّ تَعَالَى وَذِكْرِهِ، فَلَا يَجْتَمِعُ فِي الْقَلْبِ هَذَا وَهَذَا إِلَّا وَيَقْهَرُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، وَيَكُونُ السُّلْطَانُ وَالْغَلَبَةُ لَهُ.

الثَّانِي: عَذَابُ قَلْبِهِ بِمَعْشُوقِهِ، فَإِنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا غَيْرَ اللَّهِ عُذِّبَ بِهِ وَلَا بُدَّ، كَمَا قِيلَ(١):

فَمَا فِي الْأَرْضِ أَشْقَى مِنْ مُحِبٍّ ... وَإِنْ وَجَدَ الْهَوَى حُلْوَ الْمَذَاقِ
تَرَاهُ بَاكِيًا فِي كُلِّ حِينٍ ... مَخَافَةَ فُرْقَةٍ أَوْ لِاشْتِيَاقِ
فَيَبْكِي إِنْ نَأَوْا شَوْقًا إِلَيْهِمْ ... وَيَبْكِي إِنْ دَنَوْا خَوْفَ الْفِرَاقِ
فَتَسْخَنُ عَيْنُهُ عِنْدَ الْفِرَاقِ ... وَتَسْخَنُ عَيْنُهُ عِنْدَ التَّلَاقِي

وَالْعِشْقُ وَإِنِ اسْتَعْذَبَهُ العَاشِقُ، فَهُوَ أَعْظَمُ مِنْ عَذَابِ الْقَلْبِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ العَاشِقَ قَلْبُهُ أَسِيرُ قَبْضَةِ مَعْشُوقِهِ يَسُومُهُ الْهَوَانَ، وَلَكِنْ لِسَكْرَةِ العِشْقِ لَا يَشْعُرُ بِمُصَابِهِ، فَقَلْبُهُ:

---

(١) تُنسب الأبيات لنصيب، يُنظر: شعر نصيب بن رباح (ص١١١).

كَعُصْفُورَةٍ فِي كَفِّ طِفْلٍ يَسُومُهَا حِيَاضَ الرَّدَى وَالطِّفْلُ يَلْهُو وَيَلْعَبُ(١)

فَعَيْشُ الْعَاشِقِ عَيْشُ الْأَسِيرِ الْمُوثَقِ، وَعَيْشُ الْخَلِيِّ عَيْشُ الْمُسَيَّبِ الْمُطْلَقِ، فَالعَاشِقُ كَمَا قِيلَ:

طَلِيقٌ بِرَأْيِ الْعَيْنِ وَهْوَ أَسِيرُ عَلِيلٌ عَلَى قُطْبِ الْهَلَاكِ يَدُورُ
وَمَيِّتٌ يُرَى فِي صُورَةِ الْحَيِّ غَادِيًا وَلَيْسَ لَهُ حَتَّى النُّشُورِ نُشُورُ
أَخُو غَمَرَاتٍ ضَاعَ فِيهِنَّ قَلْبُهُ فَلَيْسَ لَهُ حَتَّى الْمَمَاتِ حُضُورُ

الرَّابِعُ: أَنَّهُ يَشْتَغِلُ بِهِ عَنْ مَصَالِحِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَضْيَعُ لِمَصَالِحِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا مِنْ عِشْقِ الصُّوَرِ.

أَمَّا مَصَالِحُ الدِّينِ فَإِنَّهَا مَنُوطَةٌ بِلَمِّ شَعَثِ الْقَلْبِ وَإِقْبَالِهِ عَلَى اللَّهِ، وَعِشْقُ الصُّوَرِ أَعْظَمُ شَيْءٍ تَشْعِيثًا وَتَشْتِيتًا لَهُ.

وَأَمَّا مَصَالِحُ الدُّنْيَا فَهِيَ تَابِعَةٌ فِي الْحَقِيقَةِ لِمَصَالِحِ الدِّينِ، فَمَنِ انْفَرَطَتْ عَلَيْهِ مَصَالِحُ دِينِهِ وَضَاعَتْ عَلَيْهِ، فَمَصَالِحُ دُنْيَاهُ أَضْيَعُ وَأَضْيَعُ.

الْخَامِسُ: أَنَّ آفَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَسْرَعُ إِلَى عُشَّاقِ الصُّوَرِ مِنَ النَّارِ فِي يَابِسِ الْحَطَبِ.

وَسَبَبُ ذَلِكَ: أَنَّ الْقَلْبَ كُلَّمَا قَرُبَ مِنَ الْعِشْقِ وَقَوِيَ اتِّصَالُهُ بِهِ بَعُدَ مِنَ اللَّهِ، فَأَبْعَدُ الْقُلُوبِ مِنَ اللَّهِ قُلُوبُ عُشَّاقِ الصُّوَرِ، وَإِذَا بَعُدَ الْقَلْبُ مِنَ اللَّهِ طَرَقَتْهُ الْآفَاتُ، وَتَوَلَّاهُ الشَّيْطَانُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَتَوَلَّاهُ. وَمَنْ تَوَلَّاهُ عَدُوُّهُ وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِ لَمْ يَدَعْ أَذًى يُمْكِنُهُ إِيصَالُهُ إِلَيْهِ إِلَّا أَوْصَلَهُ، فَمَا الظَّنُّ بِقَلْبٍ تَمَكَّنَ مِنْهُ

---

(١) يُنسب البيت إلى الوزير محمد بن عبد الملك الزيات. يُنظر: ديوانه (ص٢٠٣)، وعجزه: «وُرودَ حِيَاضِ المَوْتِ وَالطِّفْلُ يَلْعَبُ».

عَدُوهُ وَأَحْرَصُ الْخَلْقِ عَلَى غَيِّهِ وَفَسَادِهِ، وَبَعُدَ مِنْهُ وَلِيُّهُ، وَمَنْ لَا سَعَادَةَ لَهُ وَلَا فَرَحَ وَلَا سُرُورَ إِلَّا بِقُرْبِهِ وَوِلَايَتِهِ؟

السَّادِسُ: أَنَّهُ إِذَا تَمَكَّنَ مِنَ الْقَلْبِ وَاسْتَحْكَمَ وَقَوِيَ سُلْطَانُهُ، أَفْسَدَ الذِّهْنَ، وَأَحْدَثَ الْوَسْوَاسَ، وَرُبَّمَا أَلْحَقَ صَاحِبَهُ بِالْمَجَانِينِ الَّذِينَ فَسَدَتْ عُقُولُهُمْ فَلَا يَنْتَفِعُونَ بِهَا. وَأَخْبَارُ الْعُشَّاقِ فِي ذَلِكَ مَوْجُودَةٌ فِي مَوَاضِعِهَا، بَلْ بَعْضُهَا مَشَاهَدٌ بِالْعِيَانِ. وَأَشْرَفُ مَا فِي الْإِنْسَانِ عَقْلُهُ، وَبِهِ يَتَمَيَّزُ عَنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ، فَإِذَا عُدِمَ عَقْلَهُ الْتَحَقَ بِالْحَيَوَانِ الْبَهِيمِ، بَلْ رُبَّمَا كَانَ حَالُ الْحَيَوَانِ أَصْلَحَ مِنْ حَالِهِ، وَهَلْ أَذْهَبَ عَقْلَ مَجْنُونِ لَيْلَى وَأَضْرَابِهِ إِلَّا ذَلِكَ؟

وَرُبَّمَا زَادَ جُنُونُهُ عَلَى جُنُونِ غَيْرِهِ كَمَا قِيلَ[١]:

قَالُوا جُنِنْتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ ... الْعِشْقُ أَعْظَمُ مِمَّا بِالْمَجَانِينِ
الْعِشْقُ لَا يَسْتَفِيقُ الدَّهْرَ صَاحِبُهُ ... وَإِنَّمَا يُصْرَعُ الْمَجْنُونُ فِي الْحِينِ

السَّابِعُ: أَنَّهُ رُبَّمَا أَفْسَدَ الْحَوَاسَّ أَوْ بَعْضَهَا، إِمَّا إِفْسَادًا مَعْنَوِيًّا أَوْ صُورِيًّا.

أَمَّا الْفَسَادُ الْمَعْنَوِيُّ فَهُوَ تَابِعٌ لِفَسَادِ الْقَلْبِ، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا فَسَدَ فَسَدَتِ الْعَيْنُ وَالْأُذُنُ وَاللِّسَانُ، فَيَرَى الْقَبِيحَ حَسَنًا مِنْهُ وَمِنْ مَعْشُوقِهِ، كَمَا فِي الْمُسْنَدِ مَرْفُوعًا: «حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ»[٢]. فَهُوَ يُعْمِي عَيْنَ الْقَلْبِ عَنْ رُؤْيَةِ مَسَاوِئِ الْمَحْبُوبِ وَعُيُوبِهِ، فَلَا تَرَى الْعَيْنُ ذَلِكَ، وَيُصِمُّ أُذُنَهُ عَنِ الْإِصْغَاءِ إِلَى الْعَذْلِ فِيهِ، فَلَا تَسْمَعُ الْأُذُنُ ذَلِكَ.

---

(١) يُنسب البيتان لمجنون ليلي قيس بن الملوح، يُنظر: ديوانه (ص٢١٨).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٤)، وأبو داود (٥١٣٠)، والطبراني في الأوسط (٤/ ٣٣٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٣) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالرَّغَبَاتُ تَسْتُرُ الْعُيُوبَ، فَالرَّاغِبُ فِي الشَّيْءِ لَا يَرَى عُيُوبَهُ، حَتَّى إِذْ زَالَتْ رَغْبَتُهُ فِيهِ أَبْصَرَ عُيُوبَهُ، فَشِدَّةُ الرَّغْبَةِ غِشَاوَةٌ عَلَى الْعَيْنِ، تَمْنَعُ مِنْ رُؤْيَةِ الشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ بِهِ، كَمَا قِيلَ(١):

هَوَيْتُكَ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ ... فَلَمَّا انْجَلَتْ قَطَّعْتُ نَفْسِي أَلُومُهَا

وَالدَّاخِلُ فِي الشَّيْءِ لَا يَرَى عُيُوبَهُ، وَالْخَارِجُ مِنْهُ الَّذِي لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ لَا يَرَى عُيُوبَهُ، وَلَا يَرَى عُيُوبَهُ إِلَّا مَنْ دَخَلَ فِيهِ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْهُ، وَلِهَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ الْكُفْرِ خَيْرًا مِنَ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ.

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّمَا تَنْتَقِضُ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً إِذَا وُلِدَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْجَاهِلِيَّةَ»(٢).

وَأَمَّا فَسَادُ الْحَوَاسِّ ظَاهِرًا، فَإِنَّهُ يُمْرِضُ الْبَدَنَ وَيُنْهِكُهُ، وَرُبَّمَا أَدَّى إِلَى تَلَفِهِ، كَمَا هُوَ الْمَعْرُوفُ فِي أَخْبَارِ مَنْ قَتَلَهُمُ الْعِشْقُ.

وَقَدْ رُفِعَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَهُوَ بِعَرَفَةَ شَابٌّ قَدِ انْتَحَلَ حَتَّى عَادَ جِلْدًا عَلَى عَظْمٍ، فَقَالَ: مَا شَأْنُ هَذَا؟ قَالُوا: بِهِ الْعِشْقُ، فَجَعَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَسْتَعِيذُ بِاللَّهِ مِنَ الْعِشْقِ عَامَّةَ يَوْمِهِ(٣).

الثَّامِنُ: أَنَّ الْعِشْقَ كَمَا تَقَدَّمَ هُوَ الْإِفْرَاطُ فِي الْمَحَبَّةِ، بِحَيْثُ يَسْتَوْلِي الْمَعْشُوقُ عَلَى قَلْبِ الْعَاشِقِ، حَتَّى لَا يَخْلُوَ مِنْ تَخَيُّلِهِ وَذِكْرِهِ وَالْفِكْرِ فِيهِ، بِحَيْثُ لَا يَغِيبُ عَنْ خَاطِرِهِ وَذِهْنِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَشْتَغِلُ النَّفْسُ عَنِ اسْتِخْدَامِ الْقُوَّةِ الْحَيَوَانِيَّةِ

---

(١) يُنسب البيت للحارث المخزومي. يُنظر: شعر الحارث بن خالد (ص١٠١).

(٢) لم أقف عليه مسندًا، وقد ذكره ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٠١).

(٣) أخرجه الخرائطي في اعتلال القلوب (٢/ ٣٧٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٧/ ٢١)، وابن الجوزي في ذم الهوى (ص٤٩٤).

وَالنَّفْسَانِيَّةِ فتتعَطَّلُ تِلْكَ الْقُوَّةُ، فَيَحْدُثُ بِتَعْطِيلِهَا مِنَ الْآفَاتِ عَلَى الْبَدَنِ وَالرُّوحِ مَا يَعِزُّ دَوَاؤُهُ وَيَتَعَذَّرُ، فَتَتَغَيَّرُ أَفْعَالُهُ وَصِفَاتُهُ وَمَقَاصِدُهُ، وَيَخْتَلُّ جَمِيعُ ذَلِكَ، فتَعْجِزُ الْبَشَرُ عَنْ صَلَاحِهِ، كَمَا قِيلَ(١):

الْحُبُّ أَوَّلُ مَا يَكُونُ لَجَاجَةٌ ... يَأْتِي بِهَا وَتَسُوقُهُ الْأَقْدَارُ
حَتَّى إِذَا خَاضَ الْفَتَى لُجَجَ الْهَوَى ... جَاءَتْ أُمُورٌ لَا تُطَاقُ كِبَارُ

وَالْعِشْقُ مَبَادِيهِ سَهْلَةٌ حُلْوَةٌ، وَأَوْسَطُهُ هَمٌّ وَشُغْلُ قَلْبٍ وَسَقَمٌ، وَآخِرُهُ عَطَبٌ وَقَتْلٌ، إِنْ لَمْ تَتَدَارَكْهُ عِنَايَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا قِيلَ(٢):

وَعِشْ خَالِيًا فَالْحُبُّ أَوَّلُهُ عَنَا ... وَأَوْسَطُهُ سَقَمٌ وَآخِرُهُ قَتْلُ

وَقَالَ آخَرُ(٣):

تَوَلَّعَ بِالْعِشْقِ حَتَّى عَشِقْ ... فَلَمَّا اسْتَقَلَّ بِهِ لَمْ يُطِقْ
رَأَى لُجَّةً ظَنَّهَا مَوْجَةً ... فَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنْهَا غَرِقْ

وَالذَّنْبُ لَهُ، فَهُوَ الْجَانِي عَلَى نَفْسِهِ، وَقَدْ قَعَدَ تَحْتَ الْمَثَلِ السَّائِرِ: «يَدَاكَ أَوْكَتَا، وَفُوكَ نَفَخَ»(٤).

الشرح:

يجب على الإنسان إذا عرض له فتنة ولذة وشهوة حاضرة أن يُفكر في

---

(١) يُنسب البيتان للعباس بن الأحنف. يُنظر: ديوانه (ص١١٦).

(٢) يُنسب البيت لابن الفارض. يُنظر: ديوانه (ص١٣٤).

(٣) يُنسب البيتان لمحمد بن نحرير البغدادي. ذكرهما ابن الجوزي في ذم الهوى (ص٥٨٦)، والذهبي في تاريخ الإسلام (٣٠/ ٣٨٩).

(٤) يُنظر: جمهرة الأمثال (٢/ ٢٤٣)، ومجمع الأمثال (٢/ ٣٢٠).

العواقب: ماذا يجيء بعدها؟ يجيء بعدها عذاب، يجيء بعدها نار، يجيء بعدها ذِلَّة ومهانة ...، فإذا نظر في العواقب ولم ينظر للذة الحاضرة ترك الفواحش.

وسبب العشق الذي هذه آفاته: النظر إلى ما حرم الله، فلو أن الإنسان غض بصره لسلِم من هذا العشق الذي يؤدي به إلى هذه المهالك، ولذلك قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]، فغض البصر أزكى للإنسان وأطهر لقلبه. أما إذا أطلق نظره إلى ما حرم الله فإن النظر ينقل الصورة إلى قلبه، فلا تزال صورة المعشوق في قلبه حتى يؤدي به ذلك إلى ما لا تُحمد عُقباه.

فعاقبة إطلاق البصر ليست بالأمر الهيِّن، إذا تساهل الإنسان في إطلاق بصره وقع في الفتنة والهلاك والعياذ بالله، كما قال الشاعر(١):

نَظْرَةٌ فَابْتِسَامَةٌ فَسَلَامُ　　　فَكَلَامٌ فَمَوْعِدٌ فَلِقَاءُ

فأول شيء النظرة، ثم يبتسم مع المنظور ويمازحه حتى يتواعدان، ثم يحصل اللقاء على الفاحشة. فعلى الإنسان أن يغض بصره عمَّا حرم الله، من أجل ألا يقع في هذه الآفات التي يصعُب الخروج منها. وما وقع الزناة واللوطية في هذه الفواحش إلا بسبب إطلاق البصر، وعدم غض البصر.

---

(١) يُنسب البيت لأحمد شوقي. يُنظر: الشوقيات (٢/ ١١٢).

فَصْلٌ

وَالْعَاشِقُ لَهُ ثَلَاثُ مَقَامَاتٍ: مَقَامُ ابْتِدَاءٍ، وَمَقَامُ تَوَسُّطٍ، وَمَقَامُ انْتِهَاءٍ.

فَأَمَّا مَقَامُ ابْتِدَائِهِ: قَالُوا: يَجِبُ عَلَيْهِ مُدَافَعَتُهُ بِكُلِّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، إِذَا كَانَ الْوُصُولُ إِلَى مَعْشُوقِهِ مُتَعَذِّرًا قَدَرًا وَشَرْعًا.

فَإِنْ عَجَزَ عَنْ ذَلِكَ وَأَبَى قَلْبُهُ إِلَّا السَّفَرَ إِلَى مَحْبُوبِهِ -وَهَذَا مَقَامُ التَّوَسُّطِ وَالانْتِهَاءِ- فَعَلَيْهِ كِتْمَانُ ذَلِكَ، وَأَنْ لَا يُفْشِيَهُ إِلَى الْخَلْقِ، وَلَا يَشْمَتَ بِمَحْبُوبِهِ وَيَهْتِكُهُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَجْمَعُ بَيْنَ الشِّرْكِ وَالظُّلْمِ، فَإِنَّ الظُّلْمَ فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ، وَرُبَّمَا كَانَ أَعْظَمَ ضَرَرًا عَلَى الْمَعْشُوقِ وَأَهْلِهِ مِنْ ظُلْمِهِ فِي مَالِهِ، فَإِنَّهُ يُعَرِّضُ الْمَعْشُوقَ بِهَتْكِهِ فِي عِشْقِهِ إِلَى وُقُوعِ النَّاسِ فِيهِ، وَانْقِسَامِهِمْ إِلَى مُصَدِّقٍ وَمُكَذِّبٍ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَصَدَّقُ فِي هَذَا الْبَابِ بِأَدْنَى شُبْهَةٍ، وَإِذَا قِيلَ فُلَانٌ فَعَلَ بِفُلَانٍ أَوْ بِفُلَانَةَ، كَذَّبَهُ وَاحِدٌ وَصَدَّقَهُ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ.

وَخَبَرُ الْعَاشِقِ الْمُتَهَتِّكِ عِنْدَ النَّاسِ فِي هَذَا الْبَابِ يُفِيدُ الْقَطْعَ الْيَقِينِيَّ، بَلْ إِذَا أَخْبَرَهُمُ الْمَفْعُولُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ كَذِبًا وَافْتِرَاءً عَلَى غَيْرِهِ جَزَمُوا بِصِدْقِهِ جَزْمًا لَا يَحْتَمِلُ النَّقِيضَ، بَلْ لَوْ جَمَعَهُمَا مَكَانٌ وَاحِدٌ اتِّفَاقًا؛ لَجَزَمُوا أَنَّ ذَلِكَ عَنْ وَعْدٍ وَاتِّفَاقٍ بَيْنَهُمَا، وَجَزْمُهُمْ فِي هَذَا الْبَابِ عَلَى الظُّنُونِ وَالتَّخَيُّلِ وَالشُّبَهِ وَالْأَوْهَامِ وَالْأَخْبَارِ الْكَاذِبَةِ، كَجَزْمِهِمْ بِالْحِسِّيَّاتِ الْمُشَاهَدَةِ.

وَبِذَلِكَ وَقَعَ أَهْلُ الْإِفْكِ فِي الطَّيِّبَةِ الْمُطَيَّبَةِ حَبِيبَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُبَرَّأَةِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ، بِشُبْهَةِ مَجِيءِ صَفْوَانَ بْنِ الْمُعَطَّلِ بِهَا وَحْدَهُ خَلْفَ الْعَسْكَرِ حَتَّى هَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَلَوْلَا أَنْ تَوَلَّى اللَّهُ سُبْحَانَهُ بَرَاءَتَهَا، وَالذَّبَّ عَنْهَا، وَتَكْذِيبَ قَاذِفِهَا، لَكَانَ أَمْرًا آخَرَ[1].

---

(١) قصة الإفك أخرجه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ فِي إِظْهَارِ الْمُبْتَلَى عِشْقَ مَنْ لَا يَحِلُّ لَهُ الاتِّصَالُ بِهِ مِنْ ظُلْمِهِ وَأَذَاهُ مَا هُوَ عُدْوَانٌ عَلَيْهِ وَعَلَى أَهْلِهِ، وَتَعَرُّضٌ لِتَصْدِيقِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ ظُنُونَهُمْ فِيهِ، فَإِنِ اسْتَعَانَ عَلَيْهِ بِمَنْ يَسْتَمِيلُهُ إِلَيْهِ، إِمَّا بِرَغْبَةٍ أَوْ رَهْبَةٍ، تَعَدَّى الظُّلْمُ وَانْتَشَرَ، وَصَارَ ذَلِكَ الْوَاسِطَةُ دَيُّوثًا ظَالِمًا.

الشرح:

العشق آفة يُصاب بها الإنسان، وقد كان العرب في الجاهلية قبل الإسلام مبتلَين بهذه الآفة، وكان شعراء العشق والغزل معروفون، وأهم أسباب ذلك: إطلاق النظر إلى ما حرَّم الله جَلَّوَعَلَا، وعدم تحفظ المرأة وتسترها، فلما جاء الإسلام وصان المرأة وجعل لها حواجز وضوابط ارتفعت هذه الآفة عن أهل الإيمان، لكن بقيت في أهل الفسق وفي أهل النفاق. ولكن من ابتُلي بها فعليه بالمبادرة بعلاجها والابتعاد عن أسبابها لعل الله أن يشفيه منها.

ثم إن الناس -أيضًا- يأنفون ممن يرونه يميل إلى النساء، ويتكلمون فيه ولا يرحمونه، وقد يتهمونه بالفاحشة، وهو الذي سبب على نفسه هذه الأمور، ولو أنه تعفف وأبعد نفسه عن أسباب الشر لما حصل له ما حصل.

واليوم كما هو معلوم انتشر تعري النساء ومخالطتهن للرجال وظهورهن على الشاشات، وهذا يعيدنا إلى أمور الجاهلية، بل إلى ما هو أشد منها. فافتتان الرجال بالنساء والنساء بالرجال آفة خطيرة تقضي على العرض والدين، وتنزع الحياء والمروءة. فيجب على القيِّمين على النساء أن يقوموا عليهن بالرعاية والحماية؛ لأنهن ضعيفات، فيحفظوهن من الوقوع في أسباب الفتنة، ويصونوا أعراضهن عن الكلام؛ لأن الناس لا يرحمون، وأكثرهم يتكلم بالظنون

والأوهام، ولا يفكر فيما يترتب على كلامه من الإساءة إلى الآخرين.

وقصة الإفك ذكرها الله في القرآن، وهي: أن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خرج إلى إحدى غزواته وكانت معه أم المؤمنين عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، وكانت صغيرة، وقد بات الجيش في مكان من البرِّ، ثم أرادوا الرحيل آخر الليل، وكانت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قد ذهبت تقضي حاجتها، ولم تعلم أنهم سيرحلون، فلمَّا رجعت وجدتهم قد رحلوا؛ لأنهم لما حملوا الهودج ووضعوه على العادة ظنوا أنها فيه؛ لأنها كانت خفيفة. فلمّا جاءت ولم تجدهم كان من حنكتها وعقلها أنها بقيت في المكان ولم تذهب هنا أو هنا، فأدركها النوم في مكانها.

وبينما هي كذلك إذا هي تسمع بصوت يسترجع، يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، فإذا هو صفوان بن المعطل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، كان متأخرًا عن الركب ولحق بهم، فلما أبصر المكان وإذا فيه سواد، جاء يتبين ما هو هذا السواد؟ فإذا هي عائشة؛ لأنه كان يعرفها قبل أن ينزل الحجاب، فجعل يسترجع، ماذا يفعل؟ هل يتركها تهلك في الصحراء أم ينقذها؟

فأسدلت عائشة جلبابها على وجهها، وأناخ صفوان لها راحلته، ووطأ على يديه لها حتى تركبها، ثم قاد الراحلة بها حتى لحق بالركب، فلمَّا علم المنافقون بالواقعة، جعلوا ينسجون الكذب عليهما، ويقولون: إنها متواعدة معه. وهذا من غباواتهم؛ لأنهما لو كانا متواعدين -كما قالوا- وأنه شيء مقصود، هل يأتي بها ويلحق بالركب؟! فمجيئه بها ولحاقه بالركب دليل على براءتهما وصدقهما، وعلى أنه محسن ومنقذ ومغيث لهذه المرأة، فلو تركها لهلكت من الظمأ؛ لأنها في صحراء شديدة القيظ والحر.

لكنهم أشاعوا هذا الكذب بين المسلمين، ولا يُستغرب عليهم ذلك؛

لأنهم منافقون ويتلمَّسون الكذب والافتراء على رسول الله وعلى زوجاته وآل بيته، يريدون الطعن في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكم لهم من موقف مخزٍ غير هذا مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا ليس بغريب منهم، لكن تأثر بهم بعض أهل الإيمان وصدقوهم وتكلموا مثلهم، فأنزل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الآيات في ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ سماه الله إفكًا، والإفك: هو الكذب، ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١]، وهو عبد الله بن سلول، رأس المنافقين، هو الذي تولى كبَر هذه الجريمة.

فأصاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا الكلام ما أصابه، وأصاب عائشة من الهم والحزن الشيء الكثير، وبقيت أيام لا يرقأ لها دمع، تبكي الليل والنهار، ثم أنزل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ براءتها من فوق سبع سموات، وهل يختار الله لنبيه وصفيه من خلقه امرأة غير عفيفة لا تصلح له؟! هذا تنقص لله، وتنقص للرسول، وتنقص لبيت رسول الله، فخيب الله ظنهم وفضحهم.

ثم إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقام حد القذف على من تكلم بالإفك من أهل الإيمان، وأما المنافقون فلم يُقم عليهم الحد؛ لأنهم كفار لا ينفع فيهم الحد، ولأن لهم قبائل تناصرهم، فدرأ المفسدة التي تحصل من إقامة الحد عليهم، وقد كان فيهم كبيرهم عبد الله بن أُبي بن سلول، كان رأسًا في أهل المدينة وله مكانة. وأيضًا فإن في الحد تطهيرًا ومصلحة لأهل الإيمان، وهؤلاء لا يطهرهم الحد ولا يفيدهم شيئًا، فتركهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولكن الله جَلَّ وَعَلَا فضحهم، وأنزل فيهم قرآنا يُتلى إلى يوم القيامة، في ذمّهم، والطعن فيهم والإنكار عليهم.

والشاهد من قصة الإفك: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥]، فليس بالأمر الهين عند الله أن يتكلم الإنسان وهو لم يتثبت في مثل هذه الأمور، بل هذا عند الله عظيم، وإن كان المتكلم يظنه هينًا ولا أثر له. وهذا يقع كثيرًا في الناس، لا يحسبون لكلامهم حسابًا، مع أنه مسجل عند الله، وسيُجازى كل إنسان يوم القيامة بما كان يلفظه في هذه الدنيا من خير أو شر.

فهذه القصة فيها فوائد عظيمة وفيها مواعظ وأحكام كثيرة، وفيها دليل على طهارة زوجة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الطيبة المطيبة الصديقة بنت الصديق التي اختارها الله لنبيه، والتي هي أحب نسائه إليه، وأبوها أحب الرجال إليه. وقد كان المنافقون يريدون أن ينزلوها من هذه المكانة، ولكنها زادت رفعة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وزادهم الله ذلًّا وانخفاضًا: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. فصار خيرًا لها ولرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصارت شرًّا على المنافقين، وضررًا على المؤمنين الذين تكلموا بالإفك.

وهكذا ينبغي على المؤمن ألا ينساق مع الناس وألا يحكي كما يحكي الناس، ويحفظ لسانه ولا يتكلم إلا عن علم وكان في الكلام مصلحة، ويسكت إذا لم يكن فيه مصلحة: **«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»**(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ لَعَنَ الرَّائِشَ (١) -وَهُوَ الْوَاسِطَةُ بَيْنَ الرَّاشِي وَالْمُرْتَشِي فِي إِيصَالِ الرِّشْوَةِ- فَمَا ظَنُّكَ بِالدَّيُّوثِ الْوَاسِطَةِ بَيْنَ الْعَاشِقِ وَالْمَعْشُوقِ فِي الْوَصْلَةِ الْمُحَرَّمَةِ؟ فَيَتَسَاعَدُ الْعَاشِقُ وَالدَّيُّوثُ عَلَى ظُلْمِ الْمَعْشُوقِ وَظُلْمِ غَيْرِهِ مِمَّنْ يَتَوَقَّفُ حُصُولُ غَرَضِهِ عَلَى ظُلْمِهِ فِي نَفْسٍ أَوْ مَالٍ أَوْ عِرْضٍ.

فَإِنَّ كَثِيرًا مَا يَتَوَقَّفُ الْمَطْلُوبُ فِيهِ عَلَى قَتْلِ نَفْسٍ يَكُونُ حَيَاتُهَا مَانِعَةً مِنْ غَرَضِهِ، وَكَمْ قَتِيلٍ طُلَّ دَمُهُ بِهَذَا السَّبَبِ، مِنْ زَوْجٍ وَسَيِّدٍ وَقَرِيبٍ! وَكَمْ خُبِّبَتِ امْرَأَةٌ عَلَى بَعْلِهَا، وَجَارِيَةٌ وَعَبْدٌ عَلَى سَيِّدِهِمَا! وَقَدْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَتَبَرَّأَ مِنْهُ (٢)، وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ.

وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ نَهَى أَنْ يَخْطُبَ الرَّجُلُ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ، وَأَنْ يَسْتَامَ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ (٣)، فَكَيْفَ بِمَنْ يَسْعَى فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ رَجُلٍ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ وَأَمَتِهِ حَتَّى يَتَّصِلَ بِهِمَا؟

وَعُشَّاقُ الصُّوَرِ وَمُسَاعِدُوهُمْ مِنَ الدَّيَايِثَةِ لَا يَرَوْنَ ذَلِكَ ذَنْبًا، فَإِنْ طَلَبَ الْعَاشِقُ وَصْلَ مَعْشُوقِهِ وَمُشَارَكَةَ الزَّوْجِ وَالسَّيِّدِ، فَفِي ذَلِكَ مِنْ إِثْمِ ظُلْمِ الْغَيْرِ مَا لَعَلَّهُ لَا يَقْصُرُ عَنْ إِثْمِ الْفَاحِشَةِ، وَإِنْ لَمْ يُرْبِ عَلَيْهَا.

الشرح:

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٩)، والبزار (١٠/ ٩٧)، والطبراني في الكبير (١٤١٥)، والحاكم (٤/ ١١٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٣٥٤) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٢١٧٥)، والنسائي في الكبرى (٨/ ٢٨٢)، وأحمد (٢/ ٣٩٧)، وابن حبان (١٢/ ٣٧٠)، والحاكم (٢/ ٢١٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٢١٤٠)، ومسلم (١٤٠٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كـم يحصل بسبب هـذه الأمـور واخـتـلاط الرجـال بالنساء في المجـالس المُريبة من الشرور التي تُفضي إلى القتل؟ فأهل الفساد كثيرًا ما يقتتلون، وهذه وقائع معروفة، يقتل بعضهم بعضًا إما لغيرة فيما بينهم، أو أن كل واحد يريد أن يظفر بالفساد دون غيره، فيؤول الأمر إلى القتل وسفك الدماء، وهذا من مفاسد عدم تجنب مواطن الشر والفساد ومجالس الفُسَّاق.

وقد نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإضرار بالمسلم، والاعتداء على حقه، كما نهى أن يبيع الرجل على بيع أخيه، ونهى أن يخطب على خِطبة أخيه، ونهى أن تُخبِبَ المرأة على زوجها، فيأتي شيطان مُفسد فيقول للمرأة: هذا الزوج لا يصلح لك، كيف تصبرين عليه وفيه كذا وكذا؟! والمرأة تتأثر حتى يرخُص عليها زوجها وتنفر منه، ويحصل الفراق بينهما بغير حق، وإنما بسبب هذا المُفسد. والواسطة الذي يسعى في الفساد والقواد الذي يقود للفواحش، هذا لعنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما لعن الراشي والمرتشي والرائش، فالراشي: الذي يدفع الرِشوة، والمرتشي: الذي يأخذها، والرائش: الواسطة بينهما، كلهم ملعونون، وقد لعن الرائش لأنه هو الذي سعى في دفع الرِشوة التي هي سُحت وحرام، وتعاون على الإثم والعُدوان.

فعلى المسلم أن يبتعد عن هذه الأخلاقيات الفاسدة، ويبتعد عن أن يكون سببًا في الإضرار بإخوانه بأي نوع من الإضرار، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ»**(١)، فكما لا ترضى أن يضرك أحد فلا تضر الناس.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٣٢٦)، وابن ماجه (٢٣٤٠)، والبيهقي في الكبرى (٦/٢٥٨) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَلَا يَسْقُطُ حَقُّ الْغَيْرِ بِالتَّوْبَةِ مِنَ الْفَاحِشَةِ، فَإِنَّ التَّوْبَةَ وَإِنْ أَسْقَطَتْ حَقَّ اللَّهِ فَحَقُّ الْعَبْدِ بَاقٍ لَهُ الْمُطَالَبَةُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّ مِنْ ظُلْمِ الْوَالِدِ إِفْسَادَ وَلَدِهِ وَفِلْذَةِ كَبِدِهِ، وَمَنْ هُوَ أَعَزُّ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ، فَظُلْمُ الزَّوْجِ بِإِفْسَادِ حَبِيبَتِهِ وَالْجِنَايَةِ عَلَى فِرَاشِهِ أَعْظَمُ مِنْ ظُلْمِهِ بِأَخْذِ مَالِهِ كُلِّهِ، وَلِهَذَا يُؤْذِيهِ ذَلِكَ أَعْظَمَ مِمَّا يُؤْذِيهِ أَخْذُ مَالِهِ، وَلَا يَعْدِلُ ذَلِكَ عِنْدَهُ إِلَّا سَفْكُ دَمِهِ، فَيَا لَهُ مِنْ ظُلْمٍ أَعْظَمَ إِثْمًا مِنْ فِعْلِ الْفَاحِشَةِ.

فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا لِغَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وُقِفَ لَهُ الْجَانِي الْفَاعِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقِيلَ لَهُ: «خُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شِئْتَ»، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَمَا ظَنُّكُمْ؟»(١)، أَيْ: فَمَا تَظُنُّونَ يَبْقَى لَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ؟

فَإِنِ انْضَافَ إِلَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْمَظْلُومُ جَارًا، أَوْ ذَا رَحِمٍ مُحَرَّمٍ، تَعَدَّدَ الظُّلْمُ فَصَارَ ظُلْمًا مُؤَكَّدًا لِقَطِيعَةِ الرَّحِمِ وَإِيذَاءِ الْجَارِ، وَ«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ»(٢)، وَلَا «مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»(٣).

الشرح:

من أفسد فِراش زوجٍ بفعل الفاحشة بزوجته هذا لو تاب ما تعفيه التوبة من حق من ظلمه، فالتوبة فيما بين العبد وبين ربه، لكن حقوق الناس لا

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦) من حديث جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) تقدم تخريجه (ص٣٨٣).

تسقط، إلا إذا سمحوا بها أو دُفعت إليهم، وهذا في الأموال أو في الكلام السيئ، لكن الفاحشة يبقى أثرها ولا ينمحي ولو تاب فاعلها ولو اعتذر؛ لأنه أفسد فِراشًا، وأدخل أولادًا على غير أبيهم من الزنا، وخلطهم مع محارمه، ولا يخفى ما ذلك من مفاسد كثيرة والعياذ بالله.

فلا شك أن الزنا بذات زوج أشد من الزنا بغير ذات زوج، وإن كان الزنا كله فاحشة ومقتًا وشرًّا، لكن بعضه أشد من بعض، كما أن الزنا بالمحارم أشد، كمن يزني بابنته أو أخته أو امرأة من محارمه. كذلك فإن الزنا من كبير السن أشد من الزنا من الشاب؛ لأن الشاب قد تغلبه الشهوة، لكن كبير السن ليس فيه شهوةٌ قوية، ولكن وقوعه في الزنا دليل على أنه خبيث حيث لا يوجد دافع قوي يدفعه لذلك، ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»**، وفي رواية: **«أُشَيْمِطٌ زَانٍ»**(١)، والأُشيمط: هو الذي بدأ فيه الشيب، وهذا يكون دافع الشهوة فيه ضعيفًا، وكونه يزني وهذا حاله دليل على شدة خبثه. والعائل المستكبر: هو الفقير الذي يستكبر، فما الذي يدفعه أنه يسكتبر وهو ليس عنده مال؟! فالغني يمكن أن يطغيه المال ويصيبه بالغرور والتكبر، لكن هذا ليس عنده مال، وليس عنده سبب في كونه يتكبر، إلا أن طبيعته خبيثة.

وقوله: **(فَظُلْمُ الزَّوْجِ بِإِفْسَادِ حَبِيبَتِهِ وَالْجِنَايَةِ عَلَى فِرَاشِهِ أَعْظَمُ مِنْ ظُلْمِهِ بِأَخْذِ مَالِهِ كُلِّهِ)** يعني: لو كان عنده ملايين كثيرة فأُخِذت كلها، أسهل عليه من

---

(١) تقدم تخريجه بروايتيه (ص٣٨٥).

أن يأتي أحد فيزني بزوجته؛ لأن مصيبة المال أخف من مصيبة العِرض، فالمال يروح ويأتي، ولا أحد يُذم لأنه فقير ليس عنده مال، لكن مصيبة العِرض التي لا تنمحي أبدًا، وإذا فسد العرض لا يرجع. فالمصيبة عظيمة في هذه الأمور، وإن كان كثيرٌ من الناس يتساهل فيها، لكنها خطيرة وعظيمة.

وإذا كان الزنا بامرأة غائب مسافر فهذا أشد، لاسيما إن كان سفره للعبادة، كالسفر للجهاد والغزو، ثم يأتي خبيثٌ ويخرب زوجته، فهذا أشد أنواع الزنا، أن يزني بامرأة من يغزو في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: (**فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا لِغَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وُقِفَ لَهُ الْجَانِي الْفَاعِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقِيلَ لَهُ: خُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شِئْتَ**)، ولو أخذها كلها ما يُمنع، ولا يبقى له إلا النار.

وقوله: (**فَإِنِ انْضَافَ إِلَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْمَظْلُومُ جَارًا**)؛ لأن الجار ائتمنه ووثق به، فإذا خانه فهذا أشد، ولهذا لـمَّا سُئل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: أي الذنب أعظم؟ قال: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**»، يعني الشرك، قيل: ثم أي؟ قال: «**أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**»، كما كانوا في الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الفقر، القتل من حيث هو جريمة، لكن قتل القريب والولد أشد، قيل: ثم أي؟ قال: «**أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ**»[1]. وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ**»، قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**»[2].

---

(١) تقدم تخريجه بروايتيه (ص٣٨١).

(٢) تقدم تخريجه (ص٣٨٣).

فالزنا بزوجة الجار أشد من الزنا بغيرها؛ لأنه ائتمنه وجاوره واطمأن إليه، وله حق أوصى الله عَزَّوَجَلَّ به، فيأتي جاره ويخونه في زوجته، ويفسد عليه فراشه! هذا خيانة للأمانة، ولذلك يحرُم على الإنسان أن يتطلع إلى بيت جاره وينظر فيه، والتطلع على بيوت الناس حرام على العموم، وبيت الجار أشد؛ لأن ملاصق وقريب، ولا يمكن أنه يتحرز منه.

وقوله: **(أَوْ ذَا رَحِمٍ مُحَرَّمٍ)**، كأم زوجته، أو بنت لزوجته، أو زنا بأخته، أو بابنته، هذا أشد من الزنا بالأجنبية.

وقوله: **(تَعَدَّدَ الظُّلْمُ فَصَارَ ظُلْمًا مُؤَكَّدًا لِقَطِيعَةِ الرَّحِمِ وَإِيذَاءِ الْجَارِ)**، والآن يذكرون أن ما يُعرض في الشاشات والفضائيات من البغاء واللواط والعُري يُسبب أن يتفاسد من يشاهدها، وأنه قد يعلو الرجل على أمه أو على أخته؛ لأنه إذا رأى هذه المشاهد يزول شعوره ويدخل في سكرة الشهوة، فربما يقع على من بجانبه ولو كانت أمه أو أخته أو ابنته.

فَإِنِ اسْتَعَانَ الْعَاشِقُ عَلَى وِصَالِ مَعْشُوقِهِ بِشَيَاطِينِ الْجِنِّ -إِمَّا بِسِحْرٍ أَوِ اسْتِخْدَامٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ- ضُمَّ إِلَى الشِّرْكِ وَالظُّلْمِ كُفْرُ السِّحْرِ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْهُ هُوَ وَرَضِيَ بِهِ، كَانَ رَاضِيًا بِالْكُفْرِ غَيْرَ كَارِهٍ لِحُصُولِ مَقْصِدِهِ، وَهَذَا لَيْسَ بِبَعِيدٍ مِنَ الْكُفْرِ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ التَّعَاوُنَ فِي هَذَا الْبَابِ، تَعَاوُنٌ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ.

الشرح:

وهذا يقع من السحرة الذين يتلاعبون بالمجتمع، حين يجيئهم أحد الفُساق ويقول: ائت لي بفلانة، وأعطيك كذا وكذا. فيعملون له السحر حتى تأتي هذه المسكينة بتأثير السحر لمن يريدها ويتمكن منها.

وهذا عمل شيطاني، ولذلك يجب قتل السحرة وإبادتهم من المجتمع؛ لأنهم يفسدون في المجتمع، فلا يجوز التساهل معهم.

والآن يفعلون أشياء تجعل الشباب والشابات يُسرعون إلى الفساد من غير شعور ومن غير إدراك؛ لأن السحر سيطر عليهم، وهذا من مفاسد السحرة في المجتمع، أنهم يُفسدون الأعراض، ويُقربون بين الفساق وبين النساء، ويربطون بينهم، وينفرون الزوجة من زوجها حتى يتمكن منها الفاسق الذي أغراه بذلك، فيفسد الفراش، ويفسد النسل.

فالساحر مفسدٌ في الأرض يجب المبادرة بقتله، ولو استتاب لا يُستتاب، وإنما يُقام عليه الحد بغير استتابة.

وانتشار الأغاني والمزامير بين المسلمين الآن هو من هذا الباب؛ لأن

شياطين الإنس والجن علموا أنهم لا يحصلون على الشر إلا بواسطة هذه الأغاني الماجنة والعشق والغرام، ووصف الخدود، والقدود، ووصف البنات، فتجد أشعارهم مملوء بهذا، وينغمونه ويرددونه لأجل أنهم يُغرون الشباب بالفاحشة،

فهذه الأغاني هي من أقوى أسباب انتشار الفساد؛ لأن الشاب إذا سمع وصف المرأة، ووصف جسمها وخدها وعينيها ونحو ذلك مما فيه قوة شهوة، فإنه يندفع ويبحث عمن تنطبق عليها هذه الصفات، فهم ما جعلوا هذه الأغاني عبثًا إنما جعلوها لمقصدٍ سيئ وهو إفساد المجتمع، ولذلك حرَّم الله الاستماع إلى الأغاني والمعازف والمزامير، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ، يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ وَالحَرِيرَ، وَالخَمْرَ وَالمَعَازِفَ»**[(١)].

(١) أخرجه البخاري (٥٥٩٠) من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَمَّا مَا يَقْتَرِنُ بِحُصُولِ غَرَضِ الْعَاشِقِ مِنَ الظُّلْمِ الْمُنْتَشِرِ الْمُتَعَدِّي ضَرَرُهُ فَأَمْرٌ لَا يَخْفَى، فَإِنَّهُ إِذَا حَصَلَ لَهُ مَقْصُودُهُ مِنَ الْمَعْشُوقِ، فَلِلْمَعْشُوقِ أَغْرَاضٌ أُخَرُ يُرِيدُ مِنَ الْعَاشِقِ إِعَانَتَهُ عَلَيْهَا، فَلَا يَجِدُ مِنْ إِعَانَتِهِ بُدًّا، فَيَبْقَى كُلٌّ مِنْهُمَا يُعِينُ الْآخَرَ عَلَى الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ.

فَالْمَعْشُوقُ يُعِينُ الْعَاشِقَ عَلَى ظُلْمِ مَنْ يَتَّصِلُ بِهِ مِنْ أَهْلِهِ وَأَقَارِبِهِ وَسَيِّدِهِ وَزَوْجِهِ، وَالْعَاشِقُ يُعِينُ الْمَعْشُوقَ عَلَى ظُلْمِ مَنْ يَكُونُ غَرَضُ الْمَعْشُوقِ مُتَوَقِّفًا عَلَى ظُلْمِهِ، فَكُلٌّ مِنْهُمَا يُعِينُ الْآخَرَ عَلَى أَغْرَاضِهِ الَّتِي فِيهَا ظُلْمُ النَّاسِ، فَيَحْصُلُ الْعُدْوَانُ وَالظُّلْمُ بِسَبَبِ اشْتِرَاكِهِمَا فِي الْقُبْحِ لِتَعَاوُنِهِمَا بِذَلِكَ عَلَى الظُّلْمِ، كَمَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ بَيْنَ الْعُشَّاقِ وَالْمَعْشُوقِينَ، مِنْ إِعَانَةِ الْعَاشِقِ لِمَعْشُوقِهِ عَلَى مَا فِيهِ ظُلْمٌ وَعُدْوَانٌ وَبَغْيٌ، حَتَّى رُبَّمَا يَسْعَى لَهُ فِي مَنْصِبٍ لَا يَلِيقُ بِهِ وَلَا يَصْلُحُ لِمِثْلِهِ، وَفِي تَحْصِيلِ مَالٍ مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ، وَفِي اسْتِطَالَتِهِ عَلَى غَيْرِهِ، فَإِذَا اخْتَصَمَ مَعْشُوقُهُ وَغَيْرُهُ أَوْ تَشَاكَيَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا فِي جَانِبِ الْمَعْشُوقِ ظَالِمًا كَانَ أَوْ مَظْلُومًا.

هَذَا إِلَى مَا يَنْضَمُّ إِلَى ذَاكَ مِنْ ظُلْمِ الْعَاشِقِ لِلنَّاسِ بِالتَّحَيُّلِ عَلَى أَخْذِ أَمْوَالِهِمْ، وَالتَّوَصُّلِ بِهَا إِلَى مَعْشُوقِهِ بِسَرِقَةٍ أَوْ غَصْبٍ أَوْ خِيَانَةٍ أَوْ يَمِينٍ كَاذِبَةٍ أَوْ قَطْعِ طَرِيقٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَرُبَّمَا أَدَّى ذَلِكَ إِلَى قَتْلِ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ، لِيَأْخُذَ مَالَهُ لِيَتَوَصَّلَ بِهِ إِلَى مَعْشُوقِهِ.

فَكُلُّ هَذِهِ الْآفَاتِ وَأَضْعَافُهَا وَأَضْعَافُ أَضْعَافِهَا تَنْشَأُ مِنْ عِشْقِ الصُّوَرِ، وَرُبَّمَا حَمَلَ عَلَى الْكُفْرِ الصَّرِيحِ، وَقَدْ تَنَصَّرَ جَمَاعَةٌ مِمَّنْ نَشَأَ فِي الْإِسْلَامِ بِسَبَبِ الْعِشْقِ، كَمَا جَرَى لِبَعْضِ الْمُؤَذِّنِينَ حِينَ أَبْصَرَ امْرَأَةً جَمِيلَةً عَلَى سَطْحٍ، فَفُتِنَ بِهَا، فَنَزَلَ وَدَخَلَ عَلَيْهَا، وَسَأَلَهَا نَفْسَهَا، فَقَالَتْ: هِيَ نَصْرَانِيَّةٌ، فَإِنْ دَخَلْتَ فِي دِينِي تَزَوَّجْتُ بِكَ، فَفَعَلَ، فَرَقِيَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَلَى دَرَجَةٍ عِنْدَهُمْ فَسَقَطَ مِنْهَا فَمَاتَ،

ذَكَرَ هَذَا عَبْدُ الْحَقِّ فِي كِتَابِ «الْعَاقِبَةِ» لَهُ[١].

وَإِذَا أَرَادَ النَّصَارَى أَنْ يُنَصِّرُوا الْأَسِيرَ، أَرَوْهُ امْرَأَةً جَمِيلَةً وَأَمَرُوهَا أَنْ تُطْمِعَهُ فِي نَفْسِهَا حَتَّى إِذَا تَمَكَّنَ حُبُّهَا مِنْ قَلْبِهِ، بَذَلَتْ لَهُ نَفْسَهَا إِنْ دَخَلَ فِي دِينِهَا، فَهُنَالِكَ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٢٧].

وَفِي الْعِشْقِ مِنْ ظُلْمِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْعَاشِقِ وَالْمَعْشُوقِ لِصَاحِبِهِ بِمُعَاوَنَتِهِ لَهُ عَلَى الْفَاحِشَةِ، وَظُلْمِهِ لِنَفْسِهِ. فَكُلٌّ مِنْهُمَا ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَصَاحِبِهِ، وَظُلْمُهُمَا مُتَعَدٍّ إِلَى الْغَيْرِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ظُلْمُهُمَا بِالشِّرْكِ، فَقَدْ تَضَمَّنَ الْعِشْقُ أَنْوَاعَ الظُّلْمِ كُلَّهَا.

وَالْمَعْشُوقُ إِذَا لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ فَإِنَّهُ يُعَرِّضُ الْعَاشِقَ لِلتَّلَفِ -وَذَلِكَ ظُلْمٌ مِنْهُ- بِأَنْ يُطْمِعَهُ فِي نَفْسِهِ، وَيَتَزَيَّنَ لَهُ، وَيَسْتَمِيلَهُ بِكُلِّ طَرِيقٍ، حَتَّى يَسْتَخْرِجَ مِنْهُ مَالَهُ وَنَفْعَهُ، وَلَا يُمَكِّنُهُ مِنْ نَفْسِهِ؛ لِئَلَّا يَزُولَ غَرَضُهُ بِقَضَاءِ وَطَرِهِ مِنْهُ، فَهُوَ يَسُومُهُ سُوءَ الْعَذَابِ، وَالْعَاشِقُ رُبَّمَا قَتَلَ مَعْشُوقَهُ لِيَشْفِيَ نَفْسَهُ مِنْهُ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا جَادَ بِالْوِصَالِ لِغَيْرِهِ.

فَكَمْ لِلْعِشْقِ مِنْ قَتِيلٍ مِنَ الْجَانِبَيْنِ! وَكَمْ قَدْ أَزَالَ مِنْ نِعْمَةٍ، وَأَفْقَرَ مِنْ غِنًى، وَأَسْقَطَ مِنْ مَرْتَبَةٍ، وَشَتَّتَ مِنْ شَمْلٍ! وَكَمْ أَفْسَدَ مِنْ أَهْلٍ لِلرَّجُلِ وَوَلَدٍ! فَإِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا رَأَتْ بَعْلَهَا عَاشِقًا لِغَيْرِهَا اتَّخَذَتْ هِيَ مَعْشُوقًا لِنَفْسِهَا، فَيَصِيرُ الرَّجُلُ مُتَرَدِّدًا بَيْنَ خَرَابِ بَيْتِهِ بِالطَّلَاقِ وَبَيْنَ الْقِيَادَةِ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُؤْثِرُ هَذَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْثِرُ هَذَا.

---

(١) يُنظر: العاقبة في ذكر الموت (ص١٨١).

فَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ لَا يُحَكِّمَ عَلَى نَفْسِهِ عِشْقَ الصُّوَرِ، لِئَلاَّ يُؤَدِّيَهُ ذَلِكَ إِلَى هَذِهِ الْمَفَاسِدِ أَوْ أَكْثَرِهَا أَوْ بَعْضِهَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ الْمُفَرِّطُ بِنَفْسِهِ الْمُغَرِّرُ بِهَا، فَإِذَا هَلَكَتْ فَهُوَ الَّذِي أَهْلَكَهَا، فَلَوْلَا تَكْرَارُهُ النَّظَرَ إِلَى وَجْهِ مَعْشُوقِهِ وَطَمَعُهُ فِي وِصَالِهِ لَمْ يَتَمَكَّنْ عِشْقُهُ مِنْ قَلْبِهِ.

فَإِنَّ أَوَّلَ أَسْبَابِ الْعِشْقِ الِاسْتِحْسَانُ، سَوَاءٌ تَوَلَّدَ عَنْ نَظَرٍ أَوْ سَمَاعٍ، فَإِنْ لَمْ يُقَارِنْهُ طَمَعٌ فِي الْوِصَالِ وَقَارَنَهُ الْإِيَاسُ مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَحْدُثْ لَهُ الْعِشْقُ، فَإِنِ اقْتَرَنَ بِهِ الطَّمَعُ فَصَرَفَهُ عَنْ فِكْرِهِ وَلَمْ يَشْغَلْ قَلْبَهُ بِهِ لَمْ يَحْدُثْ لَهُ ذَلِكَ.

فَإِنْ أَطَالَ مَعَ ذَلِكَ الْفِكْرَ فِي مَحَاسِنِ الْمَعْشُوقِ، وَقَارَنَهُ خَوْفُ مَا هُوَ أَكْبَرُ عِنْدَهُ مِنْ لَذَّةِ وِصَالِهِ، إِمَّا خَوْفٌ دِينِيٌّ كَدُخُولِ النَّارِ، وَغَضَبِ الْجَبَّارِ، وَاحْتِقَابِ الْأَوْزَارِ، وَغَلَبَ هَذَا الْخَوْفُ عَلَى ذَلِكَ الطَّمَعِ وَالْفِكْرِ؛ لَمْ يَحْدُثْ لَهُ ذَلِكَ الْعِشْقُ.

فَإِنْ فَاتَهُ هَذَا الْخَوْفُ فَقَارَنَهُ خَوْفٌ دُنْيَوِيٌّ، كَخَوْفِ إِتْلَافِ نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ، أَوْ ذَهَابِ جَاهِهِ وَسُقُوطِ مَرْتَبَتِهِ عِنْدَ النَّاسِ، وَسُقُوطِهِ مِنْ عَيْنِ مَنْ يَعِزُّ عَلَيْهِ، وَغَلَبَ هَذَا الْخَوْفُ لِدَاعِي الْعِشْقِ؛ دَفَعَهُ.

وَكَذَلِكَ إِذَا خَافَ مِنْ فَوَاتِ مَحْبُوبٍ هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ وَأَنْفَعُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَعْشُوقِ، وَقَدَّمَ مَحَبَّتَهُ عَلَى مَحَبَّةِ ذَلِكَ الْمَعْشُوقِ؛ انْدَفَعَ عَنْهُ الْعِشْقُ.

فَإِنِ انْتَفَى ذَلِكَ كُلُّهُ، وَغَلَبَتْ مَحَبَّةُ الْمَعْشُوقِ لِذَلِكَ؛ انْجَذَبَ إِلَيْهِ الْقَلْبُ بِكُلِّيَّتِهِ، وَمَالَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ كُلَّ الْمَيْلِ.

الشرح:

والعشق لا يقتصر على المعشوقة وإفساد العاشق لها، بل قد تجلب له غيرها، وتدعو غيرها من بنات جنسها إلى الفاحشة، فتجد البنت الفاسدة

تُفسد بنات الآخرين، وهذا شيء معروف وثابت، أنه إذا فسدت البنت أفسدت كل من تتصل به من البنات.

والآن تتوافر وسائل الاتصال؛ تتصل بالجوال، وتُرسل رسائل لمن تعرفه من البنات، وتُقرِّب بينهن وبين الشباب، فيحصل بذلك الفساد والاختلاط والشر العظيم.

فالمسألة جدٌّ خطيرة، والناس غافلون عن هذه الأمور، يتركون بناتهم وزوجاتهم يرحن للعمل والدارسة دون ضوابط، ولا يدرون ماذا يحصل لهن، ولا يدرون أن أهل الشر متربصون بهن؛ يتابعونهن ويغازلونهن، ويرسلون لهن الرسائل، وقد يدرون ولا يبالون؛ حتى فسدت الزوجات والبنات إلا من رحم الله.

كل هذا من تضييع النساء والبنات، وعدم مراقبتهن، وعدم متابعتهن، وكثرة خروجهن دون ضابط.

فَإِنْ قِيلَ: قَدْ ذَكَرْتُمْ آفَاتِ الْعِشْقِ وَمَضَارَّهُ وَمَفَاسِدَهُ، فَهَلَّا ذَكَرْتُمْ مَنَافِعَهُ وَفَوَائِدَهُ الَّتِي مِنْ جُمْلَتِهَا: رِقَّةُ الطَّبْعِ، وَتَرْوِيحُ النَّفْسِ وَخِفَّتُهَا، وَزَوَالُ ثِقَلِهَا وَرِيَاضَتُهَا، وَحَمْلُهَا عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ مِنَ الشَّجَاعَةِ وَالْكَرَمِ وَالْمُرُوءَةِ وَرِقَّةِ الْحَاشِيَةِ وَلُطْفِ الْجَانِبِ.

وَقَدْ قِيلَ لِيَحْيَى بْنِ مُعَاذٍ الرَّازِيِّ: إِنَّ ابْنَكَ قَدْ عَشِقَ فُلَانَةً، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَيَّرَهُ إِلَى طَبْعِ الْآدَمِيِّ[١].

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْعِشْقُ دَوَاءُ أَفْئِدَةِ الْكِرَامِ[٢].

وَقَالَ غَيْرُهُ: الْعِشْقُ لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِذِي مُرُوءَةٍ ظَاهِرَةٍ، وَخَلِيقَةٍ طَاهِرَةٍ، أَوْ لِذِي لِسَانٍ فَاضِلٍ، وَإِحْسَانٍ كَامِلٍ، أَوْ لِذِي أَدَبٍ بَارِعٍ، وَحَسَبٍ نَاصِعٍ[٣].

وَقَالَ آخَرُ: الْعِشْقُ يُشَجِّعُ جَنَانَ الْجَبَانِ، وَيُصَفِّي ذِهْنَ الْغَبِيِّ، وَيُسَخِّي

---

(١) يُنظر: فتوى في العشق، ضمن جامع المسائل لابن تيمية - المجموعة الأولى (ص١٧٨).

وتعليقًا على نسبة هذه الفتوى لابن تيمية، قال ابن القيم في روضة المحبين (ص١٣١): «وأما من حاكمتمونا إليه وهو شيخ الإسلام ابن تيمية فنحن راضون بحكمه، فأين أباح لكم النظر المحرم وعشق المردان والنساء الأجانب؟ وهل هذه إلا كذب ظاهر عليه؟ وهذه تصانيفه وفتاواه كلها ناطقة بخلاف ما حكيتموه عنه. وأما الفتيا التي حكيتموها فكذب عليه لا تناسب كلامه بوجه، ولولا الإطالة لذكرناها جميعها حتى يعلم الواقف عليها أنها لا تصدر عمن دونه فضلًا عنه، وقلت لمن أوقفني عليها: هذه كذب عليه لا يشبه كلامه. وكان بعض الأمراء قد أوقفني عليها قديمًا -وهي بخط رجل متهم بالكذب- وقال لي: ما كنت أظن الشيخ برقة هذه الحاشية. ثم تأملتها فإذا هي كذب عليه، ولولا الإطالة لذكرنا من فتاويه ما يبين أن هذه كذب».

(٢) يُنظر: المرجع نفسه.

(٣) يُنظر: المرجع نفسه.

كَفَّ الْبَخِيلِ، وَيُذِلُّ عِزَّةَ الْمُلُوكِ، وَيُسَكِّنُ نَوَافِرَ الْأَخْلَاقِ، وَهُوَ أَنِيسُ مَنْ لَا أَنِيسَ لَهُ، وَجَلِيسُ مَنْ لَا جَلِيسَ لَهُ(١).

وَقَالَ آخَرُ: الْعِشْقُ يُزِيلُ الْأَثْقَالَ، وَيُلَطِّفُ الرُّوحَ، وَيُصَفِّي كَدَرَ الْقَلْبِ، وَيُوجِبُ الِارْتِيَاحَ لِأَفْعَالِ الْكِرَامِ(٢)، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ(٣):

سَيَهْلِكُ فِي الدُّنْيَا شَفِيقٌ عَلَيْكُمْ ... إِذَا غَالَهُ مِنْ حَادِثِ الْحُبِّ غَائِلُهُ
كَرِيمٌ يُمِيتُ السِّرَّ حَتَّى كَأَنَّهُ ... إِذَا اسْتَفْهَمُوهُ عَنْ حَدِيثِكَ جَاهِلُهُ
يَوَدُّ بِأَنْ يُمْسِيَ سَقِيمًا لَعَلَّهَا ... إِذَا سَمِعَتْ عَنْهُ بِشَكْوَى تُرَاسِلُهُ
وَيَهْتَزُّ لِلْمَعْرُوفِ فِي طَلَبِ الْعُلَا ... لِتُحْمَدَ يَوْمًا عِنْدَ لَيْلَى شَمَائِلُهُ

فَالْعِشْقُ يَحْمِلُ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْعِشْقُ يُرَوِّضُ النَّفْسَ، وَيُهَذِّبُ الْأَخْلَاقَ، وَإِظْهَارُهُ طَبِيعِيٌّ، وَإِضْمَارُهُ تَكْلِيفِيٌّ(٤).

وَقَالَ الْآخَرُ: مَنْ لَمْ يُهَيِّجْ نَفْسَهُ بِالصَّوْتِ الشَّجِيِّ، وَالْوَجْهِ الْبَهِيِّ، فَهُوَ فَاسِدُ الْمِزَاجِ، يَحْتَاجُ إِلَى عِلَاجٍ(٥).

وَأَنْشَدُوا فِي ذَلِكَ:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَدْرِ مَا الْهَوَى ... فَأَنْتَ وَعِيرٌ فِي الْفَلَاةِ سَوَاءُ

---

(١) يُنظر: المرجع السابق (ص١٧٩)، وأورد نحوه ابن عبد البر في بهجة المجالس (١/ ٨١٧، ٨١٨).

(٢) يُنظر: بهجة المجالس (١/ ٨١٧، ٨١٨).

(٣) الأبيات لكثير عزة، يُنظر: ديوانه (ص٤٢٠).

(٤) يُنظر: فتوى في العشق، ضمن جامع المسائل لابن تيمية (ص١٧٩).

(٥) يُنظر: المرجع نفسه.

وَقَالَ آخَرُ:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَدْرِ مَا الْهَوَى ... فَكُنْ حَجَرًا مِنْ جَانِبِ الصَّخْرِ جَلْمَدَا

وَقَالَ آخَرُ:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَدْرِ مَا الْهَوَى ... فَقُمْ وَاعْتَلِفْ تِبْنًا فَأَنْتَ حِمَارُ

وَقَالَ آخَرُ:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَدْرِ مَا الْهَوَى ... فَمَا لَكَ فِي طِيبِ الْحَيَاةِ نَصِيبُ

وَقَالَ بَعْضُ الْعُشَّاقِ أُولُو الْعِفَّةِ وَالصِّيَانَةِ: عِفُّوا تَشْرُفُوا، وَاعْشَقُوا تَظْفَرُوا.

وَقِيلَ لِبَعْضِ الْعُشَّاقِ: مَا كُنْتَ تَصْنَعُ لَوْ ظَفِرْتَ بِمَنْ تَهْوَى؟ فَقَالَ: كُنْتُ أُمَتِّعُ طَرْفِي بِوَجْهِهِ، وَأُرَوِّحُ قَلْبِي بِذِكْرِهِ وَحَدِيثِهِ، وَأَسْتُرُ مِنْهُ مَا لَا يُحِبُّ كَشْفَهُ، وَلَا أَصِيرُ بِقَبِيحِ الْفِعْلِ إِلَى مَا يَنْقُضُ عَهْدَهُ، ثُمَّ أَنْشَدَ[١]:

أَخْلُو بِهِ فَأَعِفُّ عَنْهُ تَكَرُّمًا ... خَوْفَ الدِّيَانَةِ لَسْتُ مِنْ عُشَّاقِهِ

كَالْمَاءِ فِي يَدِ صَائِمٍ يَلْتَذُّهُ ... ظَمَأً فَيَصْبِرُ عَنْ لَذِيذِ مَذَاقِهِ

وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ بْنُ إِبْرَاهِيمَ: أَرْوَاحُ الْعُشَّاقِ عَطِرَةٌ لَطِيفَةٌ، وَأَبْدَانُهُمْ رَقِيقَةٌ خَفِيفَةٌ، نُزْهَتُهُمُ الْمُؤَانَسَةُ، وَكَلَامُهُمْ يُحْيِي مَوَاتَ الْقُلُوبِ، وَيَزِيدُ فِي الْعُقُولِ، وَلَوْلَا الْعِشْقُ وَالْهَوَى لَبَطَلَ نَعِيمُ الدُّنْيَا.

وَقَالَ آخَرُ: الْعِشْقُ لِلْأَرْوَاحِ بِمَنْزِلَةِ الْغِذَاءِ لِلْأَبْدَانِ، إِنْ تَرَكْتَهُ ضَرَّكَ، وَإِنْ أَكْثَرْتَ مِنْهُ قَتَلَكَ[٢]. وَفِي ذَلِكَ قِيلَ:

خَلِيلَيَّ إِنَّ الْحُبَّ فِيهِ لَذَاذَةٌ ... وَفِيهِ شَقَاءٌ دَائِمٌ وَكُرُوبُ

---

(١) يُنظر: فتوى في العشق، ضمن جامع المسائل لابن تيمية (ص١٨٣).

(٢) يُنظر: البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي (٢/١٦٨).

عَلَى ذَاكَ مَا عَيْشٌ يَطِيبُ بِغَيْرِهِ وَلَا عَيْشَ إِلَّا بِالْحَبِيبِ يَطِيبُ
وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا بِغَيْرِ صَبَابَةٍ وَلَا فِي نَعِيمٍ لَيْسَ فِيهِ حَبِيبُ

وَذَكَرَ الْخَرَائِطِيُّ عَنْ أَبِي غَسَّانَ قَالَ: مَرَّ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِجَارِيَةٍ وَهِيَ تَقُولُ:

وَهَوَيْتُهُ مِنْ قَبْلِ قَطْعِ تَمَائِمِي مُتَمَايِلًا مِثْلَ الْقَضِيبِ النَّاعِمِ

سَأَلَهَا: أَحُرَّةٌ أَنْتِ أَمْ مَمْلُوكَةٌ؟ قَالَتْ: بَلْ مَمْلُوكَةٌ، فَقَالَ: مَنْ هَوَاكِ؟ فَتَلَكَّأَتْ، فَأَقْسَمَ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ:

وَأَنَا الَّتِي لَعِبَ الْهَوَى بِفُؤَادِهَا قُتِلَتْ بِحُبِّ مُحَمَّدِ بْنِ الْقَاسِمِ

فَاشْتَرَاهَا مِنْ مَوْلَاهَا، وَبَعَثَ بِهَا إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ الْقَاسِمِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ وَاللَّهِ فِتَنُ الرِّجَالِ، وَكَمْ وَاللَّهِ مَاتَ بِهِنَّ كَرِيمٌ، وَعَطِبَ بِهِنَّ سَلِيمٌ[(١)].

وَجَاءَتْ جَارِيَةٌ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَسْتَعْدِي عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ لَهَا عُثْمَانُ: مَا قِصَّتُكِ؟ فَقَالَتْ: كَلِفْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِابْنِ أَخِيهِ، فَمَا أَنْفَكُّ أُرَاعِيهِ، فَقَالَ عُثْمَانُ: إِمَّا أَنْ تَهَبَهَا إِلَى ابْنِ أَخِيكَ، أَوْ أُعْطِيكَ ثَمَنَهَا مِنْ مَالِي، فَقَالَ: أُشْهِدُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا لَهُ[(٢)].

وَنَحْنُ لَا نُنْكِرُ فَسَادَ الْعِشْقِ الَّذِي مُتَعَلَّقُهُ فِعْلُ الْفَاحِشَةِ بِالْمَعْشُوقِ، وَإِنَّمَا الْكَلَامُ فِي الْعِشْقِ الْعَفِيفِ مِنَ الرَّجُلِ الظَّرِيفِ، الَّذِي يَأْبَى لَهُ دِينُهُ وَعِفَّتُهُ وَمُرُوءَتُهُ أَنْ يُفْسِدَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعْشُوقِهِ بِالْحَرَامِ، وَهَذَا عِشْقُ

(١) يُنظر: اعتلال القلوب (٢/٢٥٧).

(٢) لم أقف عليه مسندًا، وقد ذكره علاء الدين مغلطاي في الواضح المبين (ص٣١).

السَّلَفِ الْكِرَامِ وَالْأَئِمَّةِ الْأَعْلَامِ. فَهَذَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ أَحَدُ الْفُقَهَاءِ السَّبْعَةِ، عَشِقَ حَتَّى اشْتُهِرَ أَمْرُهُ، وَلَمْ يُنْكَرْ عَلَيْهِ، وَعَدَّ ظَالِمًا مَنْ لَامَهُ، وَمِنْ شِعْرِهِ(١):

كَتَمْتَ الْهَوَى حَتَّى أَضَرَّ بِكَ الْكَتْمُ ... وَلَامَكَ أَقْوَامٌ وَلَوْمُهُمْ ظُلْمُ
فَنَمَّ عَلَيْكَ الْكَاشِحُونَ وَقَبْلَهُمْ ... عَلَيْكَ الْهَوَى قَدْ نَمَّ لَوْ يَنْفَعُ الْكَتْمُ
فَأَصْبَحْتَ كَالنَّهْدِيِّ إِذْ مَاتَ حَسْرَةً ... عَلَى إِثْرِ هِنْدٍ أَوْ كَمَنْ شَفَّهُ سُقْمُ
تَجَنَّبْتَ إِتْيَانَ الْحَبِيبِ تَأَثُّمًا ... أَلَا إِنَّ هُجْرَانَ الْحَبِيبِ هُوَ الْإِثْمُ
فَذُقْ هَجْرَهَا قَدْ كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّهُ ... رَشَادٌ أَلَا يَا رُبَّمَا كَذَبَ الزَّعْمُ

وَهَذَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، عِشْقُهُ مَشْهُورٌ لِجَارِيَةِ فَاطِمَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ امْرَأَتِهِ مَشْهُورٌ. وَكَانَتْ جَارِيَةً بَارِعَةَ الْجَمَالِ، وَكَانَ مُعْجَبًا بِهَا، وَكَانَ يَطْلُبُهَا مِنِ امْرَأَتِهِ، وَيَحْرِصُ عَلَى أَنْ تَهَبَهَا لَهُ، فَتَأْبَى. وَلَمْ تَزَلِ الْجَارِيَةُ فِي نَفْسِ عُمَرَ، فَلَمَّا اسْتُخْلِفَ أَمَرَتْ فَاطِمَةُ بِالْجَارِيَةِ فَأُصْلِحَتْ، وَكَانَتْ مَثَلًا فِي حُسْنِهَا وَجَمَالِهَا، ثُمَّ دَخَلَتْ عَلَى عُمَرَ، وَقَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّكَ كُنْتَ مُعْجَبًا بِجَارِيَتِي فُلَانَةَ، وَسَأَلْتَنِيهَا، فَأَبَيْتُ عَلَيْكَ، وَالْآنَ فَقَدْ طَابَتْ نَفْسِي لَكَ بِهَا. فَلَمَّا قَالَتْ لَهُ ذَلِكَ اسْتَبَانَ الْفَرَحُ فِي وَجْهِهِ، وَقَالَ: عَجِّلِي عَلَيَّ بِهَا. فَلَمَّا أَدْخَلَتْهَا عَلَيْهِ ازْدَادَ بِهَا عَجَبًا، وَقَالَ لَهَا: أَلْقِي ثِيَابَكِ، فَفَعَلَتْ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: عَلَى رِسْلِكِ، أَخْبِرِينِي لِمَنْ كُنْتِ؟ وَمِنْ أَيْنَ صِرْتِ لِفَاطِمَةَ؟ فَقَالَتْ: أَغْرَمَ الْحَجَّاجُ عَامِلًا لَهُ بِالْكُوفَةِ مَالًا، وَكُنْتُ فِي رَقِيقِ ذَلِكَ الْعَامِلِ، فَأَخَذَنِي، وَبَعَثَ بِي إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ، فَوَهَبَنِي لِفَاطِمَةَ. قَالَ: وَمَا فَعَلَ ذَلِكَ الْعَامِلُ؟ قَالَتْ: هَلَكَ، قَالَ: وَهَلْ تَرَكَ

---

(١) يُنظر: الأمالي في لغة العرب (٢/ ٢٢)، والتمهيد لابن عبد البر (٩/ ١٦).

وَلَدًا؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا حَالُهُمْ؟ قَالَتْ: سَيِّئَةٌ. فَقَالَ: شُدِّي عَلَيْكِ ثِيَابَكِ، وَاذْهَبِي إِلَى مَكَانِكِ، ثُمَّ كَتَبَ إِلَى عَامِلِهِ عَلَى الْعِرَاقِ: أَنِ ابْعَثْ إِلَيَّ فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ عَلَى الْبَرِيدِ، فَلَمَّا قَدِمَ، قَالَ لَهُ: ارْفَعْ إِلَيَّ جَمِيعَ مَا أَغْرَمَهُ الْحَجَّاجُ لِأَبِيكَ. فَلَمْ يَرْفَعْ إِلَيْهِ شَيْئًا إِلَّا دَفَعَهُ إِلَيْهِ، ثُمَّ أَمَرَ بِالْجَارِيَةِ فَدُفِعَتْ إِلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: إِيَّاكَ وَإِيَّاهَا، فَلَعَلَّ أَبَاكَ قَدْ أَلَمَّ بِهَا. فَقَالَ الْغُلَامُ: هِيَ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: لَا حَاجَةَ لِي بِهَا. قَالَ: فَابْتَعْهَا مِنِّي. قَالَ: لَسْتُ إِذًا مِمَّنْ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى. فَلَمَّا عَزَمَ الْفَتَى عَلَى الِانْصِرَافِ بِهَا، قَالَتْ: أَيْنَ وَجْدُكَ بِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: عَلَى حَالِهِ، وَلَقَدْ زَادَ. وَلَمْ تَزَلِ الْجَارِيَةُ فِي نَفْسِ عُمَرَ حَتَّى مَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ(١).

وَهَذَا أَبُو بَكْرِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ دَاوُدَ الظَّاهِرِيُّ، الْعَلَمُ الْمَشْهُورُ فِي فُنُونِ الْعِلْمِ؛ مِنَ الْفِقْهِ، وَالْحَدِيثِ، وَالتَّفْسِيرِ، وَالْأَدَبِ، وَلَهُ قَوْلُهُ فِي الْفِقْهِ، وَهُوَ مِنْ أَكَابِرِ الْعُلَمَاءِ، وَعَشِقُهُ مَشْهُورٌ(٢).

قَالَ نِفْطَوَيْهِ: دَخَلْتُ عَلَيْهِ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَقُلْتُ: كَيْفَ تَجِدُكَ؟ فَقَالَ: حُبُّ مَنْ تَعْلَمُ أَوْرَثَنِي مَا تَرَى، فَقُلْتُ: وَمَا يَمْنَعُكَ مِنَ الِاسْتِمْتَاعِ بِهِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ: الِاسْتِمْتَاعُ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: النَّظَرُ الْمُبَاحُ، وَالْآخَرُ: اللَّذَّةُ الْمَحْظُورَةُ، فَأَمَّا النَّظَرُ الْمُبَاحُ فَهُوَ الَّذِي أَوْرَثَنِي مَا تَرَى، وَأَمَّا اللَّذَّةُ الْمَحْظُورَةُ فَيَمْنَعُنِي مِنْهَا مَا حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا سُوَيْدُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ عَنْ أَبِي يَحْيَى الْقَتَّابِ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَرْفَعُهُ: «مَنْ عَشِقَ وَكَتَمَ وَعَفَّ وَصَبَرَ، غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ».

---

(١) يُنظر: اعتلال القلوب (١/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ترجمته في تاريخ بغداد (٥/ ٢٥٦ - ٢٦٢).

ثُمَّ أَنْشَدَ:

انْظُرْ إِلَى السِّحْرِ يَجْرِي مِنْ لَوَاحِظِهِ وَانْظُرْ إِلَى دَعَجٍ فِي طَرْفِهِ السَّاجِي
وَانْظُرْ إِلَى شَعَرَاتٍ فَوْقَ عَارِضِهِ كَأَنَّهُنَّ نِمَالٌ دَبَّ فِي عَاجِ

ثُمَّ أَنْشَدَ:

مَا لَهُمْ أَنْكَرُوا سَوَادًا بِخَدَّيْهِ وَلَا يُنْكِرُونَ وَرْدَ الْغُصُونِ
إِنْ يَكُنْ عَيْبُ خَدِّهِ بَرْدُ الشَّعْرِ فَعَيْبُ الْعُيُونِ شَعْرُ الْجُفُونِ

فَقُلْتُ لَهُ: نَفَيْتَ الْقِيَاسَ فِي الْفِقْهِ، وَأَثْبَتَّهُ فِي الشِّعْرِ؟ فَقَالَ: غَلَبَةُ الْوَجْدِ وَمَلَكَةُ النَّفْسِ دَعَوَا إِلَيْهِ. ثُمَّ مَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ.

وَبِسَبَبِ مَعْشُوقِهِ صَنَّفَ كِتَابَ «الزَّهْرَةِ». وَمِنْ كَلَامِهِ فِيهِ: «مَنْ يَئِسَ مِمَّنْ يَهْوَاهُ، وَلَمْ يَمُتْ مِنْ وَقْتِهِ سَلَاهُ، وَذَلِكَ أَوَّلُ رَوْعَاتِ الْيَأْسِ تَأْتِي الْقَلْبَ وَهُوَ غَيْرُ مُسْتَعِدٍّ لَهَا، فَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَتَأْتِي الْقَلْبَ وَقَدْ وَطَّأَتْهُ لَهَا الرَّوْعَةُ الْأُولَى»[(١)].

وَالْتَقَى هُوَ وَأَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ سُرَيْجٍ فِي مَجْلِسِ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ عِيسَى الْوَزِيرِ، فَتَنَاظَرَا فِي مَسْأَلَةٍ مِنَ الْإِيلَاءِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ سُرَيْجٍ: أَنْتَ بِأَنْ تَقُولَ: مَنْ دَامَتْ لَحَظَاتُهُ كَثُرَتْ حَسَرَاتُهُ، أَحْذَقُ مِنْكَ بِالْكَلَامِ عَلَى الْفِقْهِ.

فَقَالَ: لَئِنْ كَانَ ذَلِكَ فَإِنِّي أَقُولُ:

أُنَزِّهُ فِي رَوْضِ الْمَحَاسِنِ مُقْلَتِيَّ وَأَمْنَعُ نَفْسِي أَنْ تَنَالَ مُحَرَّمَا
وَأَحْمِلُ مِنْ ثِقَلِ الْهَوَى مَا لَوْ أَنَّهُ يُصَبُّ عَلَى الصَّخْرِ الْأَصَمِّ تَهَدَّمَا
وَيَنْطِقُ طَرْفِي عَنْ مُتَرْجَمِ خَاطِرِي فَلَوْلَا اخْتِلَاسِي وُدَّهُ لَتَكَلَّمَا
رَأَيْتُ الْهَوَى دَعْوَى مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ فَلَسْتُ أَرَى وُدًّا صَحِيحًا مُسَلَّمَا

(١) يُنظر: الزهرة (١/ ٤٥٢).

فَقَالَ لَهُ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ سُرَيْجٍ: بِمَ تَفْخَرُ عَلَيَّ؟ وَلَوْ شِئْتُ لَقُلْتُ:

وَمُطَاعِمٍ كَالشَّهْدِ فِي نَغَمَاتِهِ ... قَدْ بِتُّ أَمْنَعُهُ لَذِيذَ سِنَاتِهِ

بِصَبَابَةٍ وَبِحُسْنِهِ وَحَدِيثِهِ ... وَأُنَزِّهُ اللَّحَظَاتِ عَنْ وَجَنَاتِهِ

حَتَّى إِذَا مَا الصُّبْحُ لَاحَ عَمُودُهُ ... وَلَّى بِخَاتَمِ رَبِّهِ وَبَرَاتِهِ

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَحْفَظُ عَلَيْهِ الْوَزِيرُ مَا أَقَرَّ بِهِ حَتَّى يُقِيمَ شَاهِدًا عَلَى أَنَّهُ وَلَّى بِخَاتَمِ رَبِّهِ وَبَرَاءَتِهِ.

فَقَالَ ابْنُ سُرَيْجٍ: يَلْزَمُنِي فِي هَذَا مَا يَلْزَمُكَ فِي قَوْلِكَ:

أُنَزِّهُ فِي رَوْضِ الْمَحَاسِنِ مُقْلَتِي ... وَأَمْنَعُ نَفْسِي أَنْ تَنَالَ مُحَرَّمَا

فَضَحِكَ الْوَزِيرُ، وَقَالَ: لَقَدْ جَمَعْتُمَا لُطْفًا وَظُرْفًا، ذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ الْخَطِيبُ فِي تَارِيخِهِ(١).

وَجَاءَتْهُ يَوْمًا فُتْيَا مَضْمُونُهَا:

يَا ابْنَ دَاوُدَ يَا فَقِيهَ الْعِرَاقِ ... أَفْتِنَا فِي قَوَاتِلِ الْأَحْدَاقِ

هَلْ عَلَيْهَا بِمَا أَتَتْ مِنْ جُنَاحٍ ... أَمْ حَلَالٌ لَهَا دَمُ الْعُشَّاقِ

فَكَتَبَ بِخَطِّهِ تَحْتَ الْبَيْتَيْنِ:

عِنْدِي جَوَابُ مَسَائِلِ الْعُشَّاقِ ... فَاسْمَعْهُ مِنْ قَرِحِ الْحَشَا مُشْتَاقِ

لَمَّا سَأَلْتَ عَنِ الْهَوَى هَيَّجْتَنِي ... وَأَرَقْتَ دَمْعًا لَمْ يَكُنْ بِمُرَاقِ

إِنْ كَانَ مَعْشُوقًا يُعَذِّبُ عَاشِقًا ... كَانَ الْمُعَذَّبُ أَنْعَمَ الْعُشَّاقِ

قَالَ صَاحِبُ كِتَابِ «مَنَازِلِ الْأَحْبَابِ»(٢) شِهَابُ الدِّينِ مَحْمُودُ بْنُ سُلَيْمَانَ

---

(١) يُنظر: تاريخ بغداد (٥/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: منازل الأحباب ومنازه الألباب (ص١٨٥، ١٨٦).

بْنِ فَهْدٍ صَاحِبُ «الْإِنْشَاءِ»: وَقُلْتُ فِي جَوَابِ الْبَيْتَيْنِ عَلَى وَزْنِهِمَا مُجِيبًا لِلسَّائِلِ:

قُلْ لِمَنْ جَاءَ سَائِلًا عَنْ لِحَاظٍ ... هُنَّ يَلْعَبْنَ فِي دَمِ الْعُشَّاقِ
مَا عَلَى السَّيْفِ فِي الْوَرَى مِنْ جُنَاحٍ ... إِنْ ثَنَى الْحَدَّ عَنْ دَمٍ مُهْرَاقِ
وَسُيُوفُ اللِّحَاظِ أَوْلَى بِأَنْ تَصْـ ... ـفَحَ عَمَّا جَنَتْ عَلَى الْعُشَّاقِ
إِنَّمَا كُلُّ مَنْ قَتَلْنَ شَهِيدٌ ... وَلِهَذَا يَفْنَى ضَنًى وَهْوَ بَاقِ

وَنَظِيرُ ذَلِكَ فَتْوَى وَرَدَتْ عَلَى الشَّيْخِ أَبِي الْخَطَّابِ مَحْفُوظِ بْنِ أَحْمَدَ الْكَلْوَذَانِيِّ شَيْخِ الْحَنَابِلَةِ فِي وَقْتِهِ:

قُلْ لِلْإِمَامِ أَبِي الْخَطَّابِ مَسْأَلَةٌ ... جَاءَتْ إِلَيْكَ وَمَا خَلْقٌ سِوَاكَ لَهَا
مَاذَا عَلَى رَجُلٍ رَامَ الصَّلَاةَ فَمُذْ ... لَاحَتْ لِخَاطِرِهِ ذَاتُ الْجَمَالِ لَهَا

فَأَجَابَهُ تَحْتَ السُّؤَالِ:

قُلْ لِلْأَدِيبِ الَّذِي وَافَى بِمَسْأَلَةٍ ... سَرَّتْ فُؤَادِي لَمَّا أَنْ أَصَخْتُ لَهَا
إِنَّ الَّتِي فَتَنَتْهُ عَنْ عِبَادَتِهِ ... خَرِيدَةٌ ذَاتُ حُسْنٍ فَانْثَنَى وَلَهَا
إِنْ تَابَ ثُمَّ قَضَى عَنْهُ عِبَادَتَهُ ... فَرَحْمَةُ اللَّهِ تَغْشَى مَنْ عَصَى وَلَهَا

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَعْمَرٍ الْقَيْسِيُّ: حَجَجْتُ سَنَةً، ثُمَّ دَخَلْتُ ذَاتَ لَيْلَةٍ مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ لِزِيَارَةِ قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ ذَاتَ لَيْلَةٍ بَيْنَ الْقَبْرِ وَالْمِنْبَرِ، إِذْ سَمِعْتُ أَنِينًا، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ(١):

أَشْجَاكَ نَوْحُ حَمَائِمِ السِّدْرِ ... فَأَهَجْنَ مِنْكَ بَلَابِلَ الصَّدْرِ
أَمْ عَزَّ نَوْمَكَ ذِكْرُ غَانِيَةٍ ... أَهْدَتْ إِلَيْكَ وَسَاوِسَ الْفِكْرِ
يَا لَيْلَةً طَالَتْ عَلَى دَنِفٍ ... يَشْكُو السُّهَادَ وَقِلَّةَ الصَّبْرِ

---

(١) يُنظر: منازل الأحباب (ص١٨٧ - ١٩٣).

أَسَلَّمْتَ مَنْ يَهْوَى لِحَرِّ جَوًى ... مُتَوَقِّدٍ كَتَوَقُّدِ الْجَمْرِ
فَالْبَدْرُ يَشْهَدُ أَنَّنِي كَلِفٌ ... مُغْرًى بِحُبِّ شَبِيهَةِ الْبَدْرِ
مَا كُنْتُ أَحْسَبُنِي أَهِيمُ بِحُبِّهَا ... حَتَّى بُلِيتُ وَكُنْتُ لَا أَدْرِي

ثُمَّ انْقَطَعَ الصَّوْتُ، فَلَمْ أَدْرِ مِنْ أَيْنَ جَاءَ، وَإِذَا بِهِ قَدْ أَعَادَ الْبُكَاءَ وَالْأَنِينَ، ثُمَّ أَنْشَدَ:

أَشْجَاكَ مِنْ رَيَّا خَيَالٌ زَائِرٌ ... وَاللَّيْلُ مُسْوَدُّ الذَّوَائِبِ عَاكِرُ
وَاغْتَالَ مُهْجَتَكَ الْهَوَى بِرَسِيسَةٍ ... وَاهْتَاجَ مُقْلَتَكَ الْخَيَالُ الزَّائِرُ
نَادَيْتَ رَيَّا وَالظَّلَامُ كَأَنَّهُ ... يَمٌّ تَلَاطَمَ فِيهِ مَوْجٌ زَاخِرُ
وَالْبَدْرُ يَسْرِي فِي السَّمَاءِ كَأَنَّهُ ... مَلِكٌ تَرَجَّلَ وَالنُّجُومُ عَسَاكِرُ
وَتَرَى بِهِ الْجَوْزَاءَ تَرْقُصُ فِي الدُّجَى ... رَقْصَ الْحَبِيبِ عَلَاهُ سُكْرٌ ظَاهِرُ
يَا لَيْلُ طُلْتَ عَلَى مُحِبٍّ مَا لَهُ ... إِلَّا الصَّبَاحَ مُسَاعِدٌ وَمُؤَازِرُ
فَأَجَابَنِي مُتْ حَتْفَ أَنْفِكَ وَاعْلَمَنْ ... أَنَّ الْهَوَى لَهُوَ الْهَوَانُ الْحَاضِرُ

قَالَ: وَكُنْتُ ذَهَبْتُ عِنْدَ ابْتِدَائِهِ بِالْأَبْيَاتِ، فَلَمْ يَتَنَبَّهْ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ، فَرَأَيْتُ شَابًّا مُقْتَبِلًا شَبَابُهُ قَدْ خَرَقَ الدَّمْعُ فِي خَدِّهِ خَرْقَيْنِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اجْلِسْ، مَنْ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَعْمَرٍ الْقَيْسِيُّ، قَالَ: أَلَكَ حَاجَةٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، كُنْتُ جَالِسًا فِي الرَّوْضَةِ، فَمَا رَاعَنِي إِلَّا صَوْتُكَ، فَبِنَفْسِي أَفْدِيكَ فَمَا الَّذِي تَجِدُهُ؟ فَقَالَ: أَنَا عُتْبَةُ بْنُ الْحُبَابِ بْنِ الْمُنْذِرِ بْنِ الْجَمُوحِ الْأَنْصَارِيُّ، غَدَوْتُ يَوْمًا إِلَى مَسْجِدِ الْأَحْزَابِ، فَصَلَّيْتُ فِيهِ، ثُمَّ اعْتَزَلْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ، فَإِذَا بِنِسْوَةٍ قَدْ أَقْبَلْنَ يَتَهَادَيْنَ مِثْلَ الْقَطَا، وَإِذَا فِي وَسَطِهِنَّ جَارِيَةٌ بَدِيعَةُ الْجَمَالِ، كَامِلَةُ الْمَلَاحَةِ، فَوَقَفَتْ عَلَيَّ، فَقَالَتْ: يَا عُتْبَةُ، مَا تَقُولُ فِي وَصْلِ مَنْ يَطْلُبُ وَصْلَكَ؟ ثُمَّ تَرَكَتْنِي وَذَهَبَتْ، فَلَمْ أَسْمَعْ لَهَا خَبَرًا، وَلَا قَفَوْتُ لَهَا أَثَرًا، وَأَنَا حَيْرَانُ أَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ. ثُمَّ

صَرَخَ وَأَكَبَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ، كَأَنَّمَا صُبِغَتْ وَجْنَتَاهُ بِوَرْسٍ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

أَرَاكُـمْ بِقَلْبِـي مِـنْ بِـلَادٍ بَعِيـدَةٍ ... فَيَا هَـلْ تَـرَوْنِي بِـالْفُؤَادِ عَـلَى بَعْدِي

فُـؤَادِي وَطَـرْفِي يَأْسَـفَانِ عَلَـيْكُمُ ... وَعِنْـدَكُمْ رُوحِـي وَذِكْـرُكُمْ عِنْـدِي

وَلَـسْتُ أَلَـذُّ الْعَـيْشَ حَتَّـى أَرَاكُـمُ ... وَلَوْ كُنْتُ فِي الْفِرْدَوْسِ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ

فَقُلْتُ: يَا ابْنَ أَخِي، تُبْ إِلَى رَبِّكَ، وَاسْتَغْفِرْهُ مِنْ ذَنْبِكَ، فَبَيْنَ يَدَيْكَ هَوْلُ الْمُطْلَعِ. فَقَالَ: مَا أَنَا بِسَالٍ حَتَّى يَئُوبَ الْقَارِظَانِ! وَلَمْ أَزَلْ مَعَهُ إِلَى أَنْ طَلَعَ الصُّبْحُ، فَقُلْتُ: قُمْ بِنَا إِلَى مَسْجِدِ الْأَحْزَابِ، فَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكْشِفَ كُرْبَتَكَ. فَقَالَ: أَرْجُو ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِبَرَكَةِ طَاعَتِكَ. فَذَهَبْنَا حَتَّى أَتَيْنَا مَسْجِدَ الْأَحْزَابِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ:

يَـا لَلرِّجَـالِ لِيَـوْمِ الْأَرْبِعَـاءِ أَمَـا ... يَنْفَـكُّ يُحْدِثُ لِي بَعْـدَ النُّهَـى طَرَبَـا

مَـا إِنْ يَـزَالُ غَـزَالٌ مِنْـهُ يَقْتُلُنِـي ... يَـأْتِي إِلَى مَـسْجِدِ الْأَحْـزَابِ مُنْتَقِبَـا

يُخْـبِرُ النَّـاسَ أَنَّ الْأَجْـرَ هِمَّتُـهُ ... وَمَـا أَتَـى طَالِبًـا لِلْأَجْـرِ مُحْتَـسِبَا

لَـوْ كَـانَ يَبْغِي ثَوَابًا مَا أَتَى صَلَفًا ... مُـضَمَّخًا بِفَتِيـتِ الْمِـسْكِ مُخْتَـضِبَا

ثُمَّ جَلَسْنَا حَتَّى صَلَّيْنَا الظُّهْرَ، فَإِذَا بِالنِّسْوَةِ قَدْ أَقْبَلْنَ وَلَيْسَتِ الْجَارِيَةُ فِيهِنَّ، فَوَقَفْنَ عَلَيْهِ، وَقُلْنَ لَهُ: يَا عُتْبَةُ، مَا ظَنُّكَ بِطَالِبَةِ وَصْلِكَ، وَكَاسِفَةِ بَالِكَ؟ قَالَ: وَمَا بَالُهَا؟ قُلْنَ: أَخَذَهَا أَبُوهَا وَارْتَحَلَ بِهَا إِلَى أَرْضِ السَّمَاوَةِ. فَسَأَلْتُهُنَّ عَنِ الْجَارِيَةِ، فَقُلْنَ: هِيَ رَيَّا بِنْتُ الْغِطْرِيفِ السُّلَمِيِّ. فَرَفَعَ عُتْبَةُ رَأْسَهُ إِلَيْهِنَّ وَقَالَ:

خَلِـيلَيَّ رَيَّـا قَـدْ أُجِـدَّ بِكُورِهَـا ... وَسَـارَتْ إِلَى أَرْضِ الـسَّمَاوَةِ عَيْرُهَـا

خَلِـيلَيَّ إِنِّي قَـدْ عَـشِيتُ مِـنَ الْبُكَـا ... فَهَـلْ عِنْـدَ غَـيْرِي مُقْلَـةٌ أَسْـتَعِيرُهَا

فَقُلْتُ لَهُ: إِنِّي قَدْ وَرَدْتُ بِمَالٍ جَزِيلٍ أُرِيدُ بِهِ أَهْلَ السَّتْرِ، وَوَاللَّهِ لَأَبْذُلَنَّهُ أَمَامَكَ حَتَّى تَبْلُغَ رِضَاكَ وَفَوْقَ الرِّضَا، فَقُمْ بِنَا إِلَى مَسْجِدِ الْأَنْصَارِ، فَقُمْنَا وَسِرْنَا

حَتَّى أَشْرَفْنَا عَلَى مَلَأٍ مِنْهُمْ، فَسَلَّمْتُ، فَأَحْسَنُوا الرَّدَّ، فَقُلْتُ: أَيُّهَا الْمَلَأُ، مَا تَقُولُونَ فِي عُتْبَةَ وَأَبِيهِ؟ قَالُوا: مِنْ سَادَاتِ الْعَرَبِ، قُلْتُ: فَإِنَّهُ قَدْ رُمِيَ بِدَاهِيَةٍ مِنَ الْهَوَى، وَمَا أُرِيدُ مِنْكُمْ إِلَّا الْمُسَاعَدَةَ إِلَى السَّمَاوَةِ، فَقَالُوا: سَمْعًا وَطَاعَةً.

فَرَكِبْنَا وَرَكِبَ الْقَوْمُ مَعَنَا حَتَّى أَشْرَفْنَا عَلَى مَنَازِلِ بَنِي سُلَيْمٍ، فَأُعْلِمَ الْغِطْرِيفُ بِنَا، فَخَرَجَ مُبَادِرًا فَاسْتَقْبَلَنَا، وَقَالَ: حُيِّيتُمْ يَا كِرَامُ، فَقُلْنَا: وَأَنْتَ فَحَيَّاكَ إِنَّا لَكَ أَضْيَافٌ، فَقَالَ: نَزَلْتُمْ أَكْرَمَ مَنْزِلٍ، ثُمَّ نَادَى: يَا مَعْشَرَ الْعَبِيدِ، أَنْزِلُوا الْقَوْمَ، فَفُرِشَتِ الْأَنْطَاعُ وَالنَّمَارِقُ، وَذُبِحَتِ الذَّبَائِحُ، فَقُلْنَا: لَسْنَا بِذَائِقِي طَعَامِكَ حَتَّى تَقْضِيَ حَاجَتَنَا، فَقَالَ: وَمَا حَاجَتُكُمْ؟ قُلْنَا: نَخْطُبُ عَقِيلَتَكَ الْكَرِيمَةَ لِعُتْبَةَ بْنِ الْحُبَابِ بْنِ الْمُنْذِرِ، فَقَالَ: إِنَّ الَّتِي تَخْطِبُونَهَا أَمْرُهَا إِلَى نَفْسِهَا، وَأَنَا أَدْخُلُ أُخْبِرُهَا.

ثُمَّ دَخَلَ مُغْضَبًا عَلَى ابْنَتِهِ، فَقَالَتْ: يَا أَبَتِ مَا لِي أَرَى الْغَضَبَ فِي وَجْهِكَ؟ فَقَالَ: قَدْ وَرَدَ الْأَنْصَارُ يَخْطُبُونَكِ مِنِّي، فَقَالَتْ: سَادَاتٌ كِرَامٌ، اسْتَغْفَرَ لَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلِمَنِ الْخِطْبَةُ مِنْهُمْ؟ فَقَالَ: لِعُتْبَةَ بْنِ الْحُبَابِ، قَالَتْ: وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ عَنْ عُتْبَةَ هَذَا، إِنَّهُ يَفِي بِمَا وَعَدَ، وَيُدْرِكُ إِذَا قَصَدَ، فَقَالَ: أَقْسَمْتُ لَا زَوَّجْتُكِ بِهِ أَبَدًا، وَلَقَدْ نَمَى إِلَيَّ بَعْضُ حَدِيثِكِ مَعَهُ، فَقَالَتْ: مَا كَانَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ إِذْ أَقْسَمْتَ، فَإِنَّ الْأَنْصَارَ لَا يُرَدُّونَ رَدًّا قَبِيحًا، حَسِّنْ لَهُمُ الرَّدَّ، فَقَالَ: بِأَيِّ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: أَغْلِظْ عَلَيْهِمُ الْمَهْرَ، فَإِنَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَلَا يُجِيبُونَ، فَقَالَ: مَا أَحْسَنَ مَا قُلْتِ.

ثُمَّ خَرَجَ مُبَادِرًا عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: إِنَّ فَتَاةَ الْحَيِّ قَدْ أَجَابَتْ، وَلَكِنِّي أُرِيدُ لَهَا مَهْرَ مِثْلِهَا، فَمَنِ الْقَائِمُ بِهِ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَعْمَرٍ: أَنَا، فَقُلْ مَا شِئْتَ، فَقَالَ: أَلْفُ مِثْقَالٍ مِنَ الذَّهَبِ، وَمِائَةُ ثَوْبٍ مِنَ الْأَبْرَادِ، وَخَمْسَةُ أَكْرِشَةٍ مِنْ عَنْبَرٍ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَكَ ذَلِكَ كُلُّهُ، فَهَلْ أَجَبْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَأَنْفَذْتُ نَفَرًا مِنَ

الْأَنْصَارِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأَتَوْا بِجَمِيعِ مَا طَلَبَ، ثُمَّ صُنِعَتِ الْوَلِيمَةُ، وَأَقَمْنَا عَلَى ذَلِكَ أَيَّامًا، ثُمَّ قَالَ: خُذُوا فَتَاتَكُمْ وَانْصَرِفُوا مُصَاحِبِينَ.

ثُمَّ حَمَلَهَا فِي هَوْدَجٍ، وَجَهَّزَهَا بِثَلَاثِينَ رَاحِلَةً مِنَ الْمَتَاعِ وَالتُّحَفِ، فَوَدَّعْنَاهُ وَسِرْنَا، حَتَّى إِذَا بَقِيَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ مَرْحَلَةٌ وَاحِدَةٌ، خَرَجَتْ عَلَيْنَا خَيْلٌ تُرِيدُ الْغَارَةَ، أَحْسَبُهَا مِنْ سُلَيْمٍ، فَحَمَلَ عَلَيْهَا عُتْبَةُ بْنُ الْحُبَابِ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ رِجَالًا، وَجَرَحَ آخَرِينَ، ثُمَّ رَجَعَ وَبِهِ طَعْنَةٌ تَفُورُ دَمًا، فَسَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ، وَأَتَتْنَا نَجْدَةٌ، فَطَرَدَتْ عَنَّا الْخَيْلَ، وَقَدْ قَضَى عُتْبَةُ نَحْبَهُ، فَقُلْنَا: وَاعُتْبَتَاهُ. فَسَمِعَتْنَا الْجَارِيَةُ، فَأَلْقَتْ نَفْسَهَا عَنِ الْبَعِيرِ، وَجَعَلَتْ تَصِيحُ بِحُرْقَةٍ، وَأَنْشَدَتْ:

تَصَبَّرْتُ لَا أَنِّي صَبِرْتُ وَإِنَّمَا ... أُعَلِّلُ نَفْسِي أَنَّهَا بِكَ لَاحِقَهْ
فَلَوْ أَنْصَفَتْ رُوحِي لَكَانَتْ إِلَى الرَّدَى ... أَمَامَكَ مِنْ دُونِ الْبَرِيَّةِ سَابِقَهْ
فَمَا أَحَدٌ بَعْدِي وَبَعْدَكَ مُنْصِفٌ ... خَلِيلًا وَلَا نَفْسٌ لِنَفْسٍ مُوَافِقَهْ

ثُمَّ شَهِقَتْ وَقَضَتْ نَحْبَهَا، فَاحْتَفَرْنَا لَهُمَا قَبْرًا وَاحِدًا وَدَفَنَّاهُمَا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأَقَمْتُ سَبْعَ سِنِينَ، ثُمَّ ذَهَبْتُ إِلَى الْحِجَازِ وَوَرَدْتُ الْمَدِينَةَ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَآتِيَنَّ قَبْرَ عُتْبَةَ أَزُورُهُ، فَأَتَيْتُ الْقَبْرَ، فَإِذَا عَلَيْهِ شَجَرَةٌ عَلَيْهَا عَصَائِبُ حُمْرٌ وَصُفْرٌ، فَقُلْتُ: لِأَرْبَابِ الْمَنْزِلِ مَا يُقَالُ لِهَذِهِ الشَّجَرَةِ؟ قَالُوا: شَجَرَةُ الْعَرُوسَيْنِ.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْعِشْقِ مِنَ الرُّخْصَةِ الْمُخَالِفَةِ لِلتَّشْدِيدِ إِلَّا الْحَدِيثُ الْوَارِدُ بِالْحَسَنِ مِنَ الْأَسَانِيدِ، وَهُوَ حَدِيثُ سُوَيْدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ مُسْهِرٍ، عَنْ أَبِي يَحْيَى الْقَتَّاتِ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَرْفَعُهُ: «مَنْ عَشِقَ وَعَفَّ، وَكَتَمَ فَمَاتَ

فَهُوَ شَهِيدٌ»(١).

وَرَوَاهُ سُوَيْدٌ أَيْضًا، عَنِ ابْنِ مُسْهِرٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ مَرْفُوعًا.

وَرَوَاهُ الْخَطِيبُ، عَنِ الْأَزْهَرِيِّ، عَنِ الْمُعَافَى بْنِ زَكَرِيَّا، عَنْ قُطْبَةَ، عَنِ ابْنِ الْفَضْلِ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مَسْرُوقٍ عَنْهُ.

وَرَوَاهُ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمَاجِشُونِ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

وَهَذَا سَيِّدُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَرَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَظَرَ إِلَى زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، فَقَالَ: «سُبْحَانَ مُقَلِّبِ الْقُلُوبِ»(٢). وَكَانَتْ تَحْتَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ مَوْلَاهُ، فَلَمَّا هَمَّ بِطَلَاقِهَا، قَالَ لَهُ: «اتَّقِ اللَّهَ وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ». فَلَمَّا طَلَّقَهَا زَوَّجَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ رَسُولِهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ، فَكَانَ هُوَ وَلِيَّهَا وَوَلِيَ تَزْوِيجَهَا مِنْ رَسُولِهِ، وَعَقَدَ عَقْدَ نِكَاحِهَا مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ، وَأَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾

---

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٥/ ١٥٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٣/ ١٩٥). قال ابن حجر في التلخيص الحبير (٢/ ٣٢٥): «وقد أنكره على سويد الأئمة، قاله ابن عدي في كامله، وكذا أنكره البيهقي وابن طاهر، وقال ابن حبان: من روى مثل هذا عن علي بن مسهر تجب مجانبة روايته». ويُنظر أيضًا: البدر المنير (٥/ ٣٧٠).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن إسحاق في السيرة (٥/ ٢٤٤). وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٥/ ٣٠٢)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٤٤) برقم (١٢١)، والحاكم (٤/ ٢٥)، بلفظ: «مصرف القلوب».

[الأحزاب:٣٧].

وَهَذَا دَاوُدُ نَبِيُّ اللَّهِ لَمَّا كَانَ تَحْتَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ امْرَأَةً، ثُمَّ أَحَبَّ تِلْكَ الْمَرْأَةَ فَتَزَوَّجَهَا وَكَمَّلَ بِهَا الْمِائَةَ(١).

قَالَ الزُّهْرِيُّ: أَوَّلُ حُبٍّ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ، حُبُّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَكَانَ مَسْرُوقٌ يُسَمِّيهَا: «حَبِيبَةَ رَسُولِ رَبِّ العَالَمِينَ»(٢).

وَقَالَ أَبُو قَيْسٍ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: أَرْسَلَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ أَسْأَلُهَا: أَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَبِّلُ أَهْلَهُ وَهُوَ صَائِمٌ؟ فَقَالَتْ: لَا، فَقَالَ: إِنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَبِّلُهَا وَهُوَ صَائِمٌ. فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا رَأَى عَائِشَةَ لَا يَتَمَالَكُ عَنْهَا(٣).

وَذَكَرَ سَعْدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَزُورُ هَاجَرَ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنَ الشَّامِ عَلَى الْبُرَاقِ مِنْ شَغَفِهِ بِهَا، وَقِلَّةِ صَبْرِهِ عَنْهَا(٤).

وَذَكَرَ الْخَرَائِطِيُّ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ اشْتَرَى جَارِيَةً رُومِيَّةً، فَكَانَ يُحِبُّهَا حُبًّا شَدِيدًا، فَوَقَعَتْ ذَاتَ يَوْمٍ عَنْ بَغْلَةٍ لَهُ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ التُّرَابَ عَنْ وَجْهِهَا

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/١٤٦ - ١٥١).

(٢) أخرجه ابن سعد في طبقاته (٨/٦٤)، وابن المبارك في الزهد (١٤٥٢)، والطبراني في الكبير (٢٣/١٨١) رقم (٢٨٩)، وأبو نعيم في الحلية (٢/٤٤) عَنْ مَسْرُوقٍ أَنَّهُ كَانَ إِذَا حَدَّثَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَ: «حَدَّثَتْنِي الْمُبَرَّأَةُ الصِّدِّيقَةُ بِنْتُ الصِّدِّيقِ، حَبِيبَةُ حَبِيبِ اللهِ».

(٣) أخرجه أحمد (٦/٢٩٦)، والنسائي في الكبرى (٣/٢٩٩)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٢/٩٣)، والخرائطي في اعتلال القلوب (٢٠).

(٤) أخرجه الخرائطي في اعتلال القلوب (٧٣٨).

وَيُفَدِّيهَا. وَكَانَتْ تُكْثِرُ أَنْ تَقُولَ: يَا بَطْرُونُ، أَنْتَ قَالُونُ. تَعْنِي: يَا مَوْلَايَ أَنْتَ جَيِّدٌ. ثُمَّ إِنَّهَا هَرَبَتْ مِنْهُ، فَوَجَدَ عَلَيْهَا وَجْدًا شَدِيدًا، وَقَالَ(١):

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُنِي قَالُونَ فَانْصَرَفَتْ فَالْيَوْمَ أَعْلَمُ أَنِّي غَيْرُ قَالُونَ

قَالَ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ حَزْمٍ: وَقَدْ أَحَبَّ مِنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَالْأَئِمَّةِ الْمَهْدِيِّينَ كَثِيرٌ.

وَقَالَ رَجُلٌ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، رَأَيْتُ امْرَأَةً فَعَشِقْتُهَا، فَقَالَ: ذَلِكَ مَا لَا تَمْلِكُ(٢).

فَالْجَوَابُ -وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ- أَنَّ الْكَلَامَ فِي هَذَا الْبَابِ لَا بُدَّ فِيهِ مِنَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْوَاقِعِ وَالْجَائِزِ، وَالنَّافِعِ وَالضَّارِّ، وَلَا يُسْجَلُ عَلَيْهِ بِالذَّمِّ وَالْإِنْكَارِ، وَلَا بِالْمَدْحِ وَالْقَبُولِ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ، وَإِنَّمَا يَتَبَيَّنُ حُكْمُهُ، وَيَنْكَشِفُ أَمْرُهُ بِذِكْرِ مُتَعَلِّقِهِ، وَإِلَّا فَالْعِشْقُ مِنْ حَيْثُ هُوَ لَا يُحْمَدُ وَلَا يُذَمُّ.

وَنَحْنُ نَذْكُرُ النَّافِعَ مِنَ الْحُبِّ، وَالضَّارَّ وَالْجَائِزَ وَالْحَرَامَ:

اعْلَمْ أَنَّ أَنْفَعَ الْمَحَبَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَأَوْجَبَهَا وَأَعْلَاهَا وَأَجَلَّهَا مَحَبَّةُ مَنْ جُبِلَتِ الْقُلُوبُ عَلَى مَحَبَّتِهِ، وَفُطِرَتِ الْخَلِيقَةُ عَلَى تَأَلُّهِهِ، وَبِهَا قَامَتِ الْأَرْضُ وَالسَّمَوَاتُ، وَعَلَيْهَا فُطِرَتِ الْمَخْلُوقَاتُ، وَهِيَ سِرُّ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّ الْإِلَهَ هُوَ الَّذِي تَأْلَهُهُ الْقُلُوبُ بِالْمَحَبَّةِ وَالْإِجْلَالِ، وَالتَّعْظِيمِ وَالذُّلِّ لَهُ وَالْخُضُوعِ وَالتَّعَبُّدِ، وَالْعِبَادَةُ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ، وَالْعِبَادَةُ هِيَ كَمَالُ الْحُبِّ مَعَ كَمَالِ

---

(١) لم أقف عليه في المطبوع من اعتلال القلوب للخرائطي، وقد أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣١/١٧٨).

(٢) لم أقف عليه مسندًا.

الْخُضوعِ وَالذُّلِّ. وَالشِّرْكُ فِي هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ مِنْ أَظْلَمِ الظُّلْمِ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُحَبُّ لِذَاتِهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَمَا سِوَاهُ فَإِنَّمَا يُحَبُّ تَبَعًا لِمَحَبَّتِهِ.

الشرح:

عبادة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنواعٌ كثيرة ظاهرة وباطنة، ظاهرة على الألسنة والجوارح، وباطنة في القلوب، وأعظم أنواع العبادة: محبة الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وهذا هو معنى الألوهية؛ لأن الإله معناه: الوله، والوله معناه: المحبة، فالإله هو المحبوب.

وكيف لا يُحب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وهو المُنعم بجميع النعم، والقلوب مجبولةٌ على حب من أحسن إليها، ولا أعظم إحسانًا من الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، فهو المُنعم لدقائق النعم وجلائلها، ظاهرها وباطنها.

فهو الذي يُحب محبةً خالصة عظيمة، والمحبة هي أعظم أنواع العبادة، وليست هي العبادة كما تقوله الصوفية، الذين يقولون: نحن نعبده لأننا نحبه، لا نعبده طمعًا في جنته ولا خوفًا من ناره!.

كذا يقولون، وهذا ضلال، بل الله جَلَّوَعَلَا يُعبد لأنه يُحَبُّ ويُخاف ويُرجى، لا للمحبة فقط، وقد ذكر الله جَلَّوَعَلَا عن خلاصة عباده أنهم: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة:١٦]، خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء:٥٧]. وقال عن الأنبياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠]، ﴿رَغَبًا﴾ أي: رجاءً، ﴿وَرَهَبًا﴾ يعني: خوفًا.

فالله جَلَّوَعَلَا يُعبد بجميع أنواع العبادة، ومنها المحبة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، فالله أحبّ إليهم من كل شيء، ولذلك لا يؤثرون على محبته شيئًا، ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤].

فالمؤمنون لا يقدمون على محبة الله جَلَّوَعَلَا شيئًا، لا محبة الوالد، ولا محبة الولد، ولا محبة المال، ولا محبة النفس، ولا أي شيء، ولهذا قال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يحبهم وهم يحبونه.

وأصل العبادة: كمال الحب مع كمال الذل، وأما المحبة التي بغير ذلٍّ فليست عبادة، كحب الإنسان للزوجة والمال والولد، لكنه لا يذل لهم، وكذلك الذل بدون محبة لا يُسمى عبادة، فقد يخاف الإنسان من الجبابرة، ويخاف من السباع، ويخاف من المؤذيات، فليس هذا عبادة لها، وإنما هو خوف طبيعي؛ لأنه ليس معه ذل وخضوع.

فالعبادة: ما اجتمع فيها غاية الحبِّ مع غاية الذلِّ والخضوع لله عَزَّوَجَلَّ.

وَقَدْ دَلَّ عَلَى وُجُوبِ مَحَبَّتِهِ سُبْحَانَهُ جَمِيعُ كُتُبِهِ الْمُنَزَّلَةِ، وَدَعْوَةُ جَمِيعِ رُسُلِهِ، وَفِطْرَتُهُ الَّتِي فَطَرَ عِبَادَهُ عَلَيْهَا، وَمَا رَكَّبَ فِيهِمْ مِنَ الْعُقُولِ، وَمَا أَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ، فَإِنَّ الْقُلُوبَ مَفْطُورَةٌ مَجْبُولَةٌ عَلَى مَحَبَّةِ مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهَا وَأَحْسَنَ إِلَيْهَا، فَكَيْفَ بِمَنْ كَانَ الْإِحْسَانُ مِنْهُ؟! وَمَا بِخَلْقِهِ جَمِيعِهِمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل:٥٣]. وَمَا تَعَرَّفَ بِهِ إِلَى عِبَادِهِ مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَا، وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ آثَارُ مَصْنُوعَاتِهِ مِنْ كَمَالِهِ وَنِهَايَةِ جَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ.

وَالْمَحَبَّةُ لَهَا دَاعِيَانِ: الْجَمَالُ، وَالْجَلَالُ وَالرَّبُّ تَعَالَى لَهُ الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، بَلِ الْجَمَالُ كُلُّهُ لَهُ، وَالْإِجْلَالُ كُلُّهُ مِنْهُ، فَلَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُحَبَّ لِذَاتِهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ سِوَاهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [المائدة:٥٤ - ٥٦].

الشرح:

قلوب العباد مفطورة ومجبولة على حب من أحسن إليها، والإحسان كله

من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠]، ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨]، فهو الذي يُحَب محبة عظيمة خالصة، وما سواه فإنه يُحَب تبعًا لا قصدًا.

ولـمَّا ادَّعى اليهود أنهم يحبون الله امتحنهم الله بهذه الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، يعني: إن كنتم صادقين في أنكم تحبون الله فاتبعوا رسوله محمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فعلامة محبة الله اتباع رسوله وطاعته: ﴿قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران:٣٢]، فمن ادَّعى أنه يحب الله ولا يتبع الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فهذا كذاب.

ومن ثمرات محبة الله: أن يخص الله جَلَّوَعَلَا بالمحبة من أحبه من عباده دون غيره، ويغفر له ذنوبه وأحبه: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، أما الكفار فإن الله يبغضهم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:٣٢]، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٩٨].

فالله يحبهم وهم يحبون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والدليل على ذلك: أنهم يجاهدون في سبيل الله، ويبذلون أنفسهم وأموالهم في سبيله؛ لأنه أحبُّ إليهم من أنفسهم وأماالهم، فيبذلونها في نصرة الله سبحانه ونصرة دينه، وهذه علامة على المحبة: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾.

وقد جاء مصداق هذه الآية في قصة أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مع المرتدين، لما تُوفي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ارتد جماعات من العرب، فقيض الله

لهم أبا بكر الصديق خليفة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصحابته الكرام، فجاهدوا المرتدين وقاتلوهم حتى نصر الله بهم دينه، وأعلى بهم كلمته، وخذل المرتدين. فهذا من مدلول هذه الآية الكريمة، مما وعد الله به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حيث جاء بأبي بكر والصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ فقاتلوا المرتدين: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فهم نحو المؤمنين أذلة، يعني: يلينون لهم، ويرحمونهم، ويشفقون عليهم، وأما على الكفار فهم أعزة أقوياء، لا يلينون معهم، ولا يحابونهم في دين الله عَزَّ وَجَلَّ.

هذه علامة محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أما من زعم أنه يحب الله ولكنه لا يجاهد في سبيل الله وهو قادر عليه، ولا يدافع عن دين الله عَزَّ وَجَلَّ، ولا يُنفق في سبيل الله، فهذا كذَّابٌ في دعواه المحبة، بل ماله أحب إليه من الله، ونفسه أحب إليه من الله، ولذلك لم يجاهد بماله ونفسه.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، ثم قال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [المائدة:٥٥]، أي: الذي يجب أن تحبوه وتوالوه هو الله ورسوله، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فالمؤمن يحب الله ويحب رسوله ويحب المؤمنين، أما الذي يُبغض أهل الإيمان ويحب أهل الكفر فهذا دليلٌ على عدم إيمانه.

أَتُحِبُّ أَعْدَاءَ الحَبِيبِ وَتَدَّعِي ... حُبًّا لَهُ مَا ذَاكَ فِي إِمْكَانِ
وَكَذَا تُعَادِي جَاهِدًا أَحْبَابَهُ ... أَيْنَ المَحَبَّةَ يَا أَخَا الشَّيْطَانِ

ثم قال: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾، هذه علاماتهم: يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويركعون لله عَزَّ وَجَلَّ ويسجدون

له، وهذه علامة على الإيمان.

قال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني: يحب الله ورسوله والمؤمنين ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، هؤلاء حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، أما الذي يُبغضون الله ورسوله، ويُبغضون المؤمنين، فأولئك حزب الشيطان. فهما حزبان: حزب الله، وحزب الشيطان، فلينظر الإنسان مع أي الحزبين هو.

وَالْوَلَايَةُ أَصْلُهَا الْحُبُّ، فَلَا مُوَالَاةَ إِلَّا بِحُبٍّ، كَمَا أَنَّ الْعَدَاوَةَ أَصْلُهَا الْبُغْضُ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا، وَهُمْ أَوْلِيَاؤُهُ، فَهُمْ يُوَالُونَهُ بِمَحَبَّتِهِمْ لَهُ، وَهُوَ يُوَالِيهِمْ بِمَحَبَّتِهِ لَهُمْ، فَاللَّهُ يُوَالِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ بِحَسَبِ مَحَبَّتِهِ لَهُ.

وَلِهَذَا أَنْكَرَ سُبْحَانَهُ عَلَى مَنِ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ، بِخِلَافِ مَنْ وَالَى أَوْلِيَاءَهُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْهُمْ مِنْ دُونِهِ، بَلْ مُوَالَاتُهُ لَهُمْ مِنْ تَمَامِ مُوَالَاتِهِ.

وَقَدْ أَنْكَرَ عَلَى مَنْ سَوَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فِي الْمَحَبَّةِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ أَنْدَادًا يُحِبُّهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ. وَأَخْبَرَ عَمَّنْ سَوَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَنْدَادِ فِي الْحُبِّ، أَنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي النَّارِ لِمَعْبُودِيهِمْ: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٧، ٩٨].

وَبِهَذَا التَّوْحِيدِ فِي الْحُبِّ أَرْسَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ جَمِيعَ رُسُلِهِ، وَأَنْزَلَ جَمِيعَ كُتُبِهِ، وَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِ دَعْوَةُ جَمِيعِ الرُّسُلِ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، وَلِأَجْلِهِ خُلِقَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَجَعَلَ الْجَنَّةَ لِأَهْلِهِ، وَالنَّارَ لِلْمُشْرِكِينَ بِهِ فِيهِ.

الشرح:

الوَلاية بفتح الواو هي: الحب، وأمّا الوِلاية بكسر الواو فهي: الإمارة.

وقوله: (**وَقَدْ أَنْكَرَ عَلَى مَنْ سَوَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فِي الْمَحَبَّةِ**)، فالمشركون يحبون الله ويحبون معه الأصنام والمعبودات من دون الله، أشركوهم مع الله في المحبة، أما المؤمنون فإنهم أخلصوا المحبة لله ولا يحبون معه غيره، ولذلك قال: (**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ**).

والشرك هو تسوية غير الله بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الذين عبدوا الأصنام والأشجار والأحجار جعلوها معادلة لله ومساوية له، ولولا أنهم يرون أنها

مساوية لله ما عبدوها، ولذلك يندمون يوم القيامة إذا جُمعوا هم ومعبوداتهم في جهنم ويقولون: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١] يعني: يسوونه بغيره، فالكافر والمشرك سوّى غير الله بالله.

وقوله: **(وَبِهَذَا التَّوْحِيدِ فِي الْحُبِّ أَرْسَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ جَمِيعَ رُسُلِهِ، وَأَنْزَلَ جَمِيعَ كُتُبِهِ)**، الله جَلَّوَعَلَا أرسل الرسل وأنزل الكتب في الدعوة إلى التوحيد، وإفراد الله بالعبادة، ومنها المحبة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل:٢].

فالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أرسل الرسل وأنزل الكتب من أجل عبادته وحده لا شريك له؛ لأن العبادة توقيفية لا تؤخذ من العقل والتفكير والتقاليد، وإنما تؤخذ من الوحي، فلا يُعبد الله إلَّا بما شرع في كتبه وعلى ألسنة رسله، ولا يجوز لأحدٍ أنه يعبد الله بدون دليل من الكتاب والسنة، كأن يستحسن شيئًا، أو يُقلِّد أحدًا، ولذلك قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هذا ما لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(١)، وفي رواية: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيه أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(٢). أي: مردودٌ عليه؛ فالعبادة توقيفية لا يُشرع منها شيء إلا بدليل.

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٥٠٠).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٥٠٠).

وَقَدْ أَقْسَمَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يَكُونَ هُوَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١)، فَكَيْفَ بِمَحَبَّةِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ؟

وَقَالَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: «لَا، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ»(٢)، أَيْ: لَا تُؤْمِنُ حَتَّى تَصِلَ مَحَبَّتُكَ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ.

وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَوْلَى بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا فِي الْمَحَبَّةِ وَلَوَازِمِهَا، أَفَلَيْسَ الرَّبُّ -جَلَّ جَلَالُهُ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، وَتَبَارَكَ اسْمُهُ، وَتَعَالَى جَدُّهُ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ- أَوْلَى بِمَحَبَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ؟

الشرح:

النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أقسم فقال: **«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»**، فشرط الإيمان أن يكون الرسول أحب إلى العبد من ولده ووالده والناس أجمعين، وحتى من نفسه؛ لأن الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو الذي أخرجنا الله به من الظلمات إلى النور، وهدانا به إلى الصراط المستقيم، فلا أحد من الخلق أحب من الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ومحبة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعد محبة الله، وهي تابعة لمحبة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فإذا كان الإنسان لا يؤمن حتى يكون الرسول أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين، فكيف بمحبة الله جَلَّوَعَلَا التي هي الأصل؟.

ولما قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَأَنْتَ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦٣٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص٦٩١).

أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، قال له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا يَا عُمَرُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ»**، فَقَالَ عمر: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، قَالَ: **«الْآنَ يَا عُمَرُ»**.

فنحب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم من محبتنا لأنفسنا؛ لأنه الواسطة بيننا وبين الله، وهو الذي دلَّنا على الخير، وهو الذي علمنا، وهو الذي دعانا إلى الله، فلولا بعثة هذا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما عرفنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا عرفنا كيف نعبد الله، ولا عرفنا الحق من الباطل، ولا عرفنا الهُدى من الضلال.

لكن ليس معنى ذلك أن نبتدع في حقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونزعم أن هذا من محبته، فنعمل الاحتفالات بمناسبة مولد الرسول كما يقول المبتدعون، فهذه بدعة، والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبغض البدع ونهى عنها، بل نهى أن يغلو الناس في حبه، وقال: **«لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»**(١).

فلا يُرفع فوق منزلته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى منزلة الألوهية والربوبية؛ لأن هذا حقٌّ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

لِلَّهِ حَقٌّ لَا يَكُونُ لِغَيْرِهِ ... وَلِعَبْدِهِ حَقٌّ هُمَا حَقَّانِ
لَا تَجْعَلُوا الحَقَّيْنِ حَقًّا وَاحِدًا ... مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ وَلَا فُرْقَانِ

فالله له حق هو أصل الحقوق، والرسول له حق، ولا يُخلط بين الحقين؛ فحق الله هو العبادة، وحق الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الاتباع، والمحبة،

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ونصرة دينه، وليس له حقٌّ من العبادة، وإنما هذا لله جَلَّوَعَلَا.

فالذي يحب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقًّا يترك البدع؛ لأن الرسول نهى عن البدع، وقال: **«وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»**. وفي بعض ألفاظ الحديث: **«وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ»**[(١)].

فعمل الاحتفال بمناسبة مولده -كما يزعمون- هذا بدعة، والرسول لا يحب البدع ولا يرضى عنها.

---

(١) تقدم تخريجه بروايتيه (ص٥٠٠).

وَكُلُّ مَا مِنْهُ إِلَى عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ يَدْعُو إِلَى مَحَبَّتِهِ، مِمَّا يُحِبُّ الْعَبْدُ وَيَكْرَهُ. فَعَطَاؤُهُ وَمَنْعُهُ، وَمُعَافَاتُهُ وَابْتِلَاؤُهُ، وَقَبْضُهُ وَبَسْطُهُ، وَعَدْلُهُ وَفَضْلُهُ، وَإِمَاتَتُهُ وَإِحْيَاؤُهُ، وَلُطْفُهُ وَبِرُّهُ، وَرَحْمَتُهُ وَإِحْسَانُهُ، وَسَتْرُهُ وَعَفْوُهُ، وَحِلْمُهُ وَصَبْرُهُ عَلَى عَبْدِهِ، وَإِجَابَتُهُ لِدُعَائِهِ، وَكَشْفُ كَرْبِهِ، وَإِغَاثَةُ لَهْفَتِهِ، وَتَفْرِيجُ كُرْبَتِهِ -مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهِ، بَلْ مَعَ غِنَاهُ التَّامِّ عَنْهُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ- كُلُّ ذَلِكَ دَاعٍ لِلْقُلُوبِ إِلَى تَأَلُّهِهِ وَمَحَبَّتِهِ. بَلْ تَمْكِينُهُ عَبْدَهُ مِنْ مَعْصِيَتِهِ، وَإِعَانَتُهُ عَلَيْهَا، وَسَتْرُهُ حَتَّى يَقْضِيَ وَطَرَهُ مِنْهَا، وَكَلَاءَتُهُ وَحِرَاسَتُهُ لَهُ وَهُوَ يَقْضِي وَطَرَهُ مِنْ مَعْصِيَتِهِ، بِعَيْنِهِ، وَيَسْتَعِينُ عَلَيْهَا بِنِعَمِهِ؛ مِنْ أَقْوَى الدَّوَاعِي إِلَى مَحَبَّتِهِ.

فَلَوْ أَنَّ مَخْلُوقًا فَعَلَ بِمَخْلُوقٍ أَدْنَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَمْلِكْ قَلْبَهُ عَنْ مَحَبَّتِهِ، فَكَيْفَ لَا يُحِبُّ الْعَبْدُ بِكُلِّ قَلْبِهِ وَجَوَارِحِهِ مَنْ يُحْسِنُ إِلَيْهِ عَلَى الدَّوَامِ بِعَدَدِ الْأَنْفَاسِ، مَعَ إِسَاءَتِهِ؟

فَخَيْرُهُ إِلَيْهِ نَازِلٌ، وَشَرُّهُ إِلَيْهِ صَاعِدٌ، يَتَحَبَّبُ إِلَيْهِ بِنِعَمِهِ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهُ، وَالْعَبْدُ يَتَبَغَّضُ إِلَيْهِ بِالْمَعَاصِي وَهُوَ فَقِيرٌ إِلَيْهِ! فَلَا إِحْسَانُهُ وَبِرُّهُ وَإِنْعَامُهُ إِلَيْهِ يَصُدُّهُ عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَلَا مَعْصِيَةُ الْعَبْدِ وَلُؤْمُهُ يَقْطَعُ إِحْسَانَ رَبِّهِ عَنْهُ. فَأَلْأَمُ اللُّؤْمِ تَخَلُّفُ الْقُلُوبِ عَنْ مَحَبَّةِ مَنْ هَذَا شَأْنُهُ، وَتَعَلُّقُهَا بِمَحَبَّةِ سِوَاهُ.

وَأَيْضًا فَكُلُّ مَنْ تُحِبُّهُ مِنَ الْخَلْقِ أَوْ يُحِبُّكَ إِنَّمَا يُرِيدُكَ لِنَفْسِهِ وَغَرَضِهِ مِنْكَ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُرِيدُكَ لَكَ، كَمَا فِي الْأَثَرِ الْإِلَهِيِّ: «عَبْدِي كُلٌّ يُرِيدُكَ لِنَفْسِهِ، وَأَنَا أُرِيدُكَ لَكَ»[1]. فَكَيْفَ لَا يَسْتَحِي الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ رَبُّهُ لَهُ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ، وَهُوَ

---

(١) لم أقف عليه مسندًا.

مُعْرِضٌ عَنْهُ، مَشْغُولٌ بِحُبِّ غَيْرِهِ، قَدِ اسْتَغْرَقَ قَلْبُهُ بِمَحَبَّةِ سِوَاهُ؟

الشرح:

أيضًا مما يوجب محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ زيادة على نعمه وتوفيقه: أن العبد إذا عصى الله وخالف أمره فإن الله لا يبادره بالعقوبة، بل يمهله ويستر عليه ولا يفضحه، وإذا تاب تاب الله عليه ومحا ذنبه.

فلو أخطأت على واحد من الناس، فإنه يبغضك ويعاديك ويبتعد عنك، أما الله جَلَّ وَعَلَا فإنه لا يؤاخذك على ما تفعل إلا بعد أن تتمرد عن طاعته، وتتمرد عن التوبة، فالله يمهلك ويستر عليك ويرزقك ويعطيك حتى تتوب إليه، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يصفح عن عباده، واسع العفو والمغفرة، كرمه وجوده على عباده لا حدود له، وهم يعصونه ويخالفون أمره، وهذا كله مما يوجب محبته.

فخيره جَلَّ وَعَلَا إلى عباده نازل، دائمًا وأبدًا لا ينقطع، وشرُّ العباد يصعد إليه؛ من الذنوب والمعاصي والسيئات، فهذا من العجائب أنه يحسن إليهم وهم يسيئون إليه، ومع هذا لا يعاجلهم بالعقوبة، بل يحلم ويمهل، ومن تاب منهم تاب عليه ومحا ذنبك.

وهو تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُعطيهم ويُنعم عليهم وهو غنيٌّ عنهم، ويطلب منهم التوبة لأجل مصلحتهم، فهو سبحانه لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية، لكن منفعة الطاعة ومضرة المعصية تعود عليهم.

فالله جَلَّ وَعَلَا يريد لك الخير، يريدك لنفسك، وإلَّا فهو غنيٌّ عنك، وأنت

تعاديه وتعصيه وأنت الفقير إليه، وهذا من العجائب.

ولذلك يرزق الله الكفار وهم أعداؤه؛ يرزقهم ويُطعمهم ويسقيهم ويؤويهم وهم أعداؤه، هذا دليل على حلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر:٤٥].

فكونه يُنعم حتى على أعداءه يدلُّ على ربوبيته وألوهيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنه المستحق للشكر والحمد والثناء.

وَأَيْضًا، فَكُلُّ مَنْ تُعَامِلُهُ مِنَ الْخَلْقِ إِنْ لَمْ يَرْبَحْ عَلَيْكَ لَمْ يُعَامِلْكَ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الرِّبْحِ، وَالرَّبُّ تَعَالَى إِنَّمَا يُعَامِلُكَ لِتَرْبَحَ أَنْتَ عَلَيْهِ أَعْظَمَ الرِّبْحِ وَأَعْلَاهُ، فَالدِّرْهَمُ بِعَشَرَةِ أَمْثَالِهِ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَالسَّيِّئَةُ بِوَاحِدَةٍ وَهِيَ أَسْرَعُ شَيْءٍ مَحْوًا.

وَأَيْضًا هُوَ سُبْحَانَهُ خَلَقَكَ لِنَفْسِهِ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَمَنْ أَوْلَى مِنْهُ بِاسْتِفْرَاغِ الْوُسْعِ فِي مَحَبَّتِهِ، وَبَذْلِ الْجُهْدِ فِي مَرْضَاتِهِ؟

وَأَيْضًا فَمَطَالِبُكَ -بَلْ مَطَالِبُ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ جَمِيعًا- لَدَيْهِ، وَهُوَ أَجْوَدُ الْأَجْوَدِينَ، وَأَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ، أَعْطَى عَبْدَهُ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَهُ فَوْقَ مَا يُؤَمِّلُهُ، يَشْكُرُ الْقَلِيلَ مِنَ الْعَمَلِ وَيُنَمِّيهِ، وَيَغْفِرُ الْكَثِيرَ مِنَ الزَّلَلِ وَيَمْحُوهُ، ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]، لَا يَشْغَلُهُ سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ، وَلَا يُغَلِّطُهُ كَثْرَةُ الْمَسَائِلِ، وَلَا يَتَبَرَّمُ بِإِلْحَاحِ الْمُلِحِّينَ، بَلْ يُحِبُّ الْمُلِحِّينَ فِي الدُّعَاءِ، وَيُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ، وَيَغْضَبُ إِذَا لَمْ يُسْأَلْ، يَسْتَحِي مِنْ عَبْدِهِ حَيْثُ لَا يَسْتَحِي الْعَبْدُ مِنْهُ، وَيَسْتُرُهُ حَيْثُ لَا يَسْتُرُ نَفْسَهُ، وَيَرْحَمُهُ حَيْثُ لَا يَرْحَمُ نَفْسَهُ، دَعَاهُ بِنِعَمِهِ وَإِحْسَانِهِ وَأَيَادِيهِ إِلَى كَرَامَتِهِ وَرِضْوَانِهِ، فَأَبَى، فَأَرْسَلَ رُسُلَهُ فِي طَلَبِهِ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ مَعَهُمْ عَهْدَهُ، ثُمَّ نَزَلَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ نَفْسُهُ، وَقَالَ: «مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»(١).

أَدْعُوكَ لِلْوَصْلِ تَأْبَى، أَبْعَثُ رَسُولِي فِي الطَّلَبِ، أَنْزِلُ إِلَيْكَ بِنَفْسِي، أَلْقَاكَ فِي النَّوْبِ.

وَكَيْفَ لَا تُحِبُّ الْقُلُوبُ مَنْ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا هُوَ، وَلَا يَذْهَبُ بِالسَّيِّئَاتِ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٦).

إِلَّا هُوَ، وَلَا يُجِيبُ الدَّعَوَاتِ، وَيُقِيلُ الْعَثَرَاتِ، وَيَغْفِرُ الْخَطِيئَاتِ، وَيَسْتُرُ الْعَوْرَاتِ، وَيَكْشِفُ الْكُرُبَاتِ، وَيُغِيثُ اللَّهَفَاتِ، وَيُنِيلُ الطَّلَبَاتِ سِوَاهُ؟ .

فَهُوَ أَحَقُّ مَنْ ذُكِرَ، وَأَحَقُّ مَنْ شُكِرَ، وَأَحَقُّ مَنْ عُبِدَ، وَأَحَقُّ مَنْ حُمِدَ، وَأَنْصَرُ مَنِ ابْتُغِيَ، وَأَرْأَفُ مَنْ مَلَكَ، وَأَجْوَدُ مَنْ سُئِلَ، وَأَوْسَعُ مَنْ أَعْطَى، وَأَرْحَمُ مَنْ اسْتُرْحِمَ، وَأَكْرَمُ مَنْ قُصِدَ(١).

وَأَعَزُّ مَنِ الْتُجِئَ إِلَيْهِ، وَأَكْفَى مَنْ تُوُكِّلَ عَلَيْهِ، أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا(٢)، وَأَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ التَّائِبِ مِنَ الْفَاقِدِ لِرَاحِلَتِهِ الَّتِي عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فِي الْأَرْضِ الْمُهْلِكَةِ، إِذَا يَئِسَ مِنَ الْحَيَاةِ ثُمَّ وَجَدَهَا(٣).

وَهُوَ الْمَلِكُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْفَرْدُ فَلَا نِدَّ لَهُ، كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ، لَنْ يُطَاعَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَنْ يُعْصَى إِلَّا بِعِلْمِهِ، يُطَاعُ فَيَشْكُرُ، وَبِتَوْفِيقِهِ وَنِعْمَتِهِ أُطِيعَ، وَيُعْصَى فَيَغْفِرُ وَيَعْفُو، وَحَقُّهُ أُضِيعَ.

فَهُوَ أَقْرَبُ شَهِيدٍ، وَأَجَلُّ حَفِيظٍ، وَأَوْفَى بِالْعَهْدِ، وَأَعْدَلُ قَائِمٍ بِالْقِسْطِ، حَالَ دُونَ النُّفُوسِ، وَأَخَذَ بِالنَّوَاصِي، وَكَتَبَ الْآثَارَ، وَنَسَخَ الْآجَالَ، فَالْقُلُوبُ لَهُ مُفْضِيَةٌ، وَالسِّرُّ عِنْدَهُ عَلَانِيَةٌ، وَالْغَيْبُ لَدَيْهِ مَكْشُوفٌ، وَكُلُّ أَحَدٍ إِلَيْهِ مَلْهُوفٌ.

عَنَتِ الْوُجُوهُ لِنُورِ وَجْهِهِ، وَعَجَزَتِ الْقُلُوبُ عَنْ إِدْرَاكِ كُنْهِهِ، وَدَلَّتِ الْفِطَرُ وَالْأَدِلَّةُ كُلُّهَا عَلَى امْتِنَاعِ مِثْلِهِ وَشِبْهِهِ. أَشْرَقَتْ لِنُورِ وَجْهِهِ الظُّلُمَاتُ، وَاسْتَنَارَتْ لَهُ الْأَرْضُ وَالسَّمَوَاتُ، وَصَلُحَتْ عَلَيْهِ جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ، «لَا يَنَامُ

---

(١) كما في حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه الطبراني في الكبير (٨٠٢٧).

(٢) كما في حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

(٣) كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤).

وَلَا يَنبُغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، وَلَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ[١].

مَا اعْتَاضَ بَاذِلُ حُبِّهِ لِسِوَاهُ مِنْ ... عِوَضٍ وَلَوْ مَلَكَ الْوُجُودَ بِأَسْرِهِ

الشرح:

الخلق لا يحبونك إلَّا لغرض، يريدون منك نفعًا، ويريدون منك قضاء حوائجهم؛ فهم يحبونك لأجل حاجتهم إليك، أما الله جَلَّ وَعَلَا فهو يحبك وهو غنيٌّ عنك، وليس بحاجةٍ إليك.

وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يأمرك بالطاعات لأجل أن يضاعفها لك، فيأمرك بالإنفاق ليضاعف لك أجر النفقة أضعافًا كثيرة، وليس هو في حاجة إلى نفقتك، وإنما يأمرك بها لحاجتك أنت؛ فأنت حينما تُنفق فإنما تنفع نفسك، ويزيد الله أجرك من عنده فضلًا وإحسانًا إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة، فهو يطلب منك لك، أما المخلوق فإنه يطلب منك له. ومن عدله سبحانه أنه لا يُضاعف السيئة، بل السيئة بمثلها، أو يعفو عنها، أما الحسنة فإنه يضاعفها أضعافًا كثيرة، لا يعلمها إلا هو سبحانه، وهذا من فضله وكرمه.

وقوله: **(أَلْقَاكَ فِي النَّوْبِ)** يعني: في الحاجات.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَصْلٌ

وَهَاهُنَا أَمْرٌ عَظِيمٌ يَجِبُ عَلَى اللَّبِيبِ الاِعْتِنَاءُ بِهِ، وَهُوَ أَنَّ كَمَالَ اللَّذَّةِ وَالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ وَنَعِيمِ الْقَلْبِ وَابْتِهَاجِ الرُّوحِ تَابِعٌ لِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: كَمَالُ الْمَحْبُوبِ فِي نَفْسِهِ وَجَمَالِهِ، وَأَنَّهُ أَوْلَى بِإِيثَارِ الْحُبِّ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ.

وَالْأَمْرُ الثَّانِي: كَمَالُ مَحَبَّتِهِ، وَاسْتِفْرَاغُ الْوُسْعِ فِي حُبِّهِ، وَإِيثَارُ قُرْبِهِ وَالْوُصُولِ إِلَيْهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

وَكُلُّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّذَّةَ بِحُصُولِ الْمَحْبُوبِ بِحَسَبِ قُوَّةِ مَحَبَّتِهِ، فَكُلَّمَا كَانَتِ الْمَحَبَّةُ أَقْوَى كَانَتْ لَذَّةُ الْمُحِبِّ أَكْمَلَ. فَلَذَّةُ مَنِ اشْتَدَّ ظَمَؤُهُ بِإِدْرَاكِ الْمَاءِ الزُّلَالِ، وَمَنِ اشْتَدَّ جُوعُهُ بِأَكْلِ الطَّعَامِ الشَّهِيِّ، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ عَلَى حَسَبِ شَوْقِهِ وَشِدَّةِ إِرَادَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ.

وَإِذَا عُرِفَ هَذَا، فَاللَّذَّةُ وَالسُّرُورُ وَالْفَرَحُ أَمْرٌ مَطْلُوبٌ فِي نَفْسِهِ، بَلْ هُوَ مَقْصُودُ كُلِّ حَيٍّ وَعَاقِلٍ، وَإِذَا كَانَتِ اللَّذَّةُ مَطْلُوبَةً لِنَفْسِهَا فَهِيَ تُذَمُّ إِذَا أَعْقَبَتْ أَلَمًا أَعْظَمَ مِنْهَا، أَوْ مَنَعَتْ لَذَّةً خَيْرًا مِنْهَا وَأَجَلَّ مِنْهَا، فَكَيْفَ إِذَا أَعْقَبَتْ أَعْظَمَ الْحَسَرَاتِ، وَفَوَّتَتْ أَعْظَمَ اللَّذَّاتِ وَالْمَسَرَّاتِ؟ وَتُحْمَدُ إِذَا أَعَانَتْ عَلَى لَذَّةٍ عَظِيمَةٍ دَائِمَةٍ مُسْتَقِرَّةٍ لَا تَنْغِيصَ فِيهَا وَلَا نَكَدَ بِوَجْهٍ مَا، وَهِيَ لَذَّةُ الْآخِرَةِ وَنَعِيمُهَا وَطِيبُ الْعَيْشِ فِيهَا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦، ١٧]. وَقَالَ السَّحَرَةُ لِفِرْعَوْنَ لَمَّا آمَنُوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا

عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه:٧٢، ٧٣].

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْخَلْقَ لِيُنِيلَهُمْ هَذِهِ اللَّذَّةَ الدَّائِمَةَ فِي دَارِ الْخُلْدِ، وَأَمَّا الدُّنْيَا فَمُنْقَطِعَةٌ، وَلَذَّاتُهَا لَا تَصْفُو أَبَدًا وَلَا تَدُومُ، بِخِلَافِ الْآخِرَةِ، فَإِنَّ لَذَّاتِهَا دَائِمَةٌ، وَنَعِيمَهَا خَالِصٌ مِنْ كُلِّ كَدَرٍ وَأَلَمٍ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ مَعَ الْخُلُودِ أَبَدًا، وَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أَخْفَى اللَّهُ لِعِبَادِهِ فِيهَا مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ، بَلْ فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

الشرح:

لا شك أن محبة الشيء هي التي تدفع الإنسان إلى تحصيله وتحمل المشاق في سبيل الوصول إليه. فلولا المحبة ما تحرك أحد، وما اشتغل أحد في جلب شيء إلَّا لأنه يُحبه، فمن يحب المال يشتغل في طلبه، ومن يحب الملذات الملائمة للنفس يشتغل في تحصيلها، ولذلك يسعى الناس في تحصيل ملذاتهم، وتحقيق مصالحهم، فلولا وجود المحبة التي تدفعهم المحبوب لما أفنوا حياتهم وتعرضوا للأخطار في تحصيله.

ولكن لا بد من النظر في عواقب الأمور، فإذا كانت محبة الشيء تُفضي إلى خير فإنها محبةٌ محمودة، ولا يُلام من طلب محبوبه فيها، وأما إذا كانت هذه المحبة مؤقتة ويعقبها بُغض، ويعقبها حسرة، فهي محبةٌ مذمومة.

فالذي يحب الدنيا ويؤثرها على الآخرة هذا سيتحسر فيما بعد، إذا فاتته الدنيا والآخرة؛ لأن الدنيا لا تدوم، والآخرة مُقبلة، وهي التي ينبغي أن يسعى الإنسان إليها: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ

سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ [الإسراء:١٩]، أما من اقتصر حبه على الدنيا فقط ونسي الآخرة، فهذا وإن حصلت له ملذته ومطلوبه فإنها محبةٌ مقطوعة ومنتهية: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾، فيها صفتان: أنها خير، وأنها أبقى، أما الدنيا فلا تبقى، بل هي مُنقطعة.

وكذلك محبة الأشخاص الذين يُغرون بالفواحش وبالملذات والشهوات المحرمة، هذه المحبة تنقلب إلى عداوة يوم القيامة: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧].

فإذا كان الذين تحبهم يدلونك على الخير ويساعدونك عليه ويُعينونك عليه، فهذه المحبة تستمر في الدنيا والآخرة، بل تزيد في الآخرة، ﴿إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ فإنها تبقى محبتهم فيما بينهم، ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧]، فهم إخوان في الدنيا على طاعة الله، وهم إخوانٌ في الجنة على كرامة الله عَزَّوَجَلَّ، فهذه محبة متصلة، وهي التي تبقى.

أما محبة الأصنام، ومحبة الأشخاص والمعبودات من دون الله، فإنها تفنى ويعقبها حسرة يوم القيامة، يوم يتبرأ الكفار والمشركون من محبوباتهم ومعبوداتهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٨ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٩٩ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ﴾ [الشعراء:٩٧ - ١٠١]. هذه نهايتهم.

وكذلك كل من أحب شيئًا لغير الله ولغير طاعة الله ولغير الدار الآخرة يكون هذا مصير محبته ونهايته، حتى ولو تحصل على كل ملذات الدنيا فهي مؤقتة، وربما يتحصل عليها ولا يتلذذ بها، فالذي يحب المال ويؤثره على

الآخرة ولا يشتغل للآخرة، قد يحصل على المال ويُحرم من الانتفاع به، فيُصاب بأمراض تمنعه من التلذذ به، فلا يأكل ما يحب، وإذا أكل شيئًا تكدر، وهو عنده الأموال الطائلة، فهذه محبة مبتورة وعاقبتها سيئة.

فلينظر الإنسان في عاقبة الأمور، وليؤثر لذة الآخرة الدائمة على اللذة الزائلة، لكن لذة الآخرة لا تأتي عفوًا، وإنما يلزمها عمل: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٌ﴾ هذه هي الشروط. وفي الحديث: «**الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ**»(١). يريد أنه يصل إلى الجنة بدون عمل ويُعطي نفسه هواها.

والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، فمن أراد الآخرة ينهى نفسه عن الهوى، أما أن يعطي نفسه كل ما تشتهي ويريد الفوز بالآخرة! فهذا لا يكون أبدًا.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٩١).

وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي قَصَدَهُ النَّاصِحُ لِقَوْمِهِ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٣٨ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر:٣٨، ٣٩]. فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الدُّنْيَا يُسْتَمْتَعُ بِهَا إِلَى غَيْرِهَا، وَأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ الْمُسْتَقَرُّ.

وَإِذَا عُرِفَ أَنَّ لَذَّاتِ الدُّنْيَا وَنَعِيمَهَا مَتَاعٌ وَوَسِيلَةٌ إِلَى لَذَّاتِ الْآخِرَةِ، وَلِذَلِكَ خُلِقَتِ الدُّنْيَا وَلَذَّاتُهَا، فَكُلُّ لَذَّةٍ أَعَانَتْ عَلَى لَذَّةِ الْآخِرَةِ وَأَوْصَلَتْ إِلَيْهَا لَمْ يُذَمَّ تَنَاوُلُهَا، بَلْ يُحْمَدُ بِحَسَبِ إِيصَالِهَا إِلَى لَذَّةِ الْآخِرَةِ.

إِذَا عُرِفَ هَذَا فَأَعْظَمُ نَعِيمِ الْآخِرَةِ وَلَذَّاتِهَا: هُوَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، وَسَمَاعُ كَلَامِهِ مِنْهُ، وَالْقُرْبُ مِنْهُ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ فِي حَدِيثِ الرُّؤْيَةِ: «فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمْ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ»(١). وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «إِنَّهُ إِذَا تَجَلَّى لَهُمْ وَرَأَوْهُ نَسُوا مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ»(٢).

وَفِي النَّسَائِيِّ وَمُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دُعَائِهِ: «وَأَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ»(٣).

وَفِي كِتَابِ السُّنَّةِ لِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ مَرْفُوعًا: «كَأَنَّ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ يَسْمَعُوا الْقُرْآنَ، إِذَا سَمِعُوهُ مِنَ الرَّحْمَنِ فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا قَبْلَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٨١) من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ. وأخرج ابن ماجه (١٨١)، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة (٩٤)، والدارقطني في رؤية الله (٥١) نحوه من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وفيه: «**فَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ النَّعِيمِ مَا دَامُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ**».

(٣) تقدم تخريجه (ص ٦١١).

ذَلِكَ»(١).

الشرح:

هذا مؤمن آل فرعون ينصحهم ويذكرهم بالآخرة، ويُحذرهم من الاغترار بما هم عليه من زهرة الدنيا، ويحثهم على اتباع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وطاعته؛ لأنه يدعو إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويحذرهم من طاعة فرعون الذي يُهلكهم، فقال ناصحًا لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ [غافر: ٣٩-٤١]، مواعظ عظيمة.

وقوله: **(إِذَا عُرِفَ هَذَا فَأَعْظَمُ نَعِيمِ الْآخِرَةِ وَلَذَّاتِهَا: هُوَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، وَسَمَاعُ كَلَامِهِ مِنْهُ، وَالْقُرْبُ مِنْهُ)**، هم أحبوا الله عَزَّوَجَلَّ وأطاعوه في هذه الدنيا وهم لم يروه، وإنما آمنوا به بناءً على الآيات الدالة على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وما هم فيه من النعم التي أعطاهم، فيحبونه لأنه هو المُنعم عليهم، وأعظم نعمة أنه هداهم إلى الإيمان الذي تطمئن به قلوبهم، وتنشرح به صدورهم، فهو نعمة عظيمة، بينما الكافر يتقلب في الهموم والأحزان

---

(١) لم أقف عليه في المطبوع من كتاب السنة، وأخرجه الرافعي في التدوين في أخبار قزوين (٢/٤٠٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

والوساوس، وإن كان عنده الثروات الطائلة فإن قلبه في وحشة، وهذا شيءٌ ظاهر على أهل الكفر وأهل الفسق.

بينما أهل الطاعة دائمًا في راحة وفي طمأنينة ولو لم يكن عندهم شيء، فهم تلذذوا بذكره في الدنيا، وفي الآخرة يتجلى الله لهم فيرونه عيانًا، وتقرُّ أعينهم إذا رأوا محبوبهم، فلا شيء ألذ عليهم من ذلك، فقد تشوقوا إليه في الدنيا، وآمنوا به، وصبروا على طاعته، فإذا مكَّنهم الله من رؤيته -وهو غاية ما يحبون- فهذا أعظم لذةٍ، أعظم من لذة الجنة، فإن كانت الجنة عظيمة ونعيمها مقيم لكن رؤية الله ألذ منها، فكان هذا جزاءهم لأنهم آمنوا به في الدنيا ولم يروه، فتجلى لهم في الآخرة وقرَّت أعينهم برؤيته.

أما الكافر الذي جحد ربه في الدنيا وأنكر ربوبيته وتكبر عن عبادته، فإن الله يحجبه عن رؤيته يوم القيامة عقوبةً له: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، في حين أن المؤمنين ينظرون إلى الله عَزَّوَجَلَّ عيانًا كما يرون القمر ليلة البدر، وكما يرون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب، بل ويكلمهم، ويتلذذون بكلامه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وهذا أعظم نعيم ينالونه في الآخرة جزاءً لهم على إيمانهم به في الدنيا وهم لم يروه.

والمؤمنون في الدنيا بلغهم كلام الله بواسطة الوحي الذي أنزله على رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، أما في الآخرة فيكلمهم الله مباشرة دون واسطة، فيتلذذون بذلك ويسمعون كلامه، فيكون سماعهم لكلامه في الآخرة ألذ من سمعاهم لكلامه في الدنيا، وإن كان في سماع كلامه في الدنيا لذة القلوب وبهجة النفوس وقوة الإيمان، ولكن سماعه مباشرة من الله أشد لذة.

وَإِذَا عُرِفَ هَذَا، فَأَعْظَمُ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُحَصِّلُ هَذِهِ اللَّذَّةَ هُوَ أَعْظَمُ لَذَّاتِ الدُّنْيَا عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَهُوَ لَذَّةُ مَعْرِفَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَلَذَّةُ مَحَبَّتِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ جَنَّةُ الدُّنْيَا وَنَعِيمُهَا الْعَالِي، وَنِسْبَةُ لَذَّاتِهَا الْفَانِيَةِ إِلَيْهِ كَتَفْلَةٍ فِي بَحْرٍ، فَإِنَّ الرُّوحَ وَالْقَلْبَ وَالْبَدَنَ إِنَّمَا خُلِقَ لِذَلِكَ. فَأَطْيَبُ مَا فِي الدُّنْيَا مَعْرِفَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ، وَأَلَذُّ مَا فِي الْجَنَّةِ رُؤْيَتُهُ وَمُشَاهَدَتُهُ، فَمَحَبَّتُهُ وَمَعْرِفَتُهُ قُرَّةُ الْعُيُونِ، وَلَذَّةُ الْأَرْوَاحِ، وَبَهْجَةُ الْقُلُوبِ، وَنَعِيمُ الدُّنْيَا وَسُرُورُهَا، بَلْ لَذَّاتُ الدُّنْيَا الْقَاطِعَةُ عَنْ ذَلِكَ تَنْقَلِبُ آلَامًا وَعَذَابًا، وَيَبْقَى صَاحِبُهَا فِي الْمَعِيشَةِ الضَّنْكِ، فَلَيْسَتِ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ إِلَّا بِاللَّهِ.

وَكَانَ بَعْضُ الْمُحِبِّينَ تَمُرُّ بِهِ أَوْقَاتٌ فَيَقُولُ: إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَعِيمٍ مِثْلِ هَذَا إِنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ.

وَكَانَ غَيْرُهُ يَقُولُ: لَوْ يَعْلَمُ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ لَجَالَدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ.

الشرح:

كيف تعرف الله عَزَّوَجَلَّ وأنت لم تره؟ تعرفه بالأدلة والشواهد، فإذا نظرت في أي شيء في هذه الدنيا دلَّك على الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإذا تفكرت في نِعم الله عليك وعلى الناس دلَّتك على عظمة الله وعلى كرمه ورحمته ولطفه، وإذا تأملت في المخلوقات عرفت الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وتيقنت من بديع مصنوعاته، فهذا كله يدل على الله جَلَّ وَعَلَا، ويُعرِّفك بالله.

وأعظم ما يُعرِّف بالله: أسماؤه وصفاته، فإن الله سمى نفسه بأسماء ووصف نفسه بصفات، فإذا تأملتها دلّتك على الله ووصلتك بالله: ﴿وَلِلَّهِ

ﱡﭐﭐﱡﭐٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاﱠ [الأعراف:١٨٠]، فادعوه بها وتوسلوا إليه بها؛ فهي تدل على الله جَلَّ وَعَلَا.

ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن لله جنةً في الدنيا من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة»(١). وجنته في الدنيا هي ذكره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، هذه جنة غفل عنها كثيرٌ من الناس، فأهل الإيمان لأن ذكر الله ألذ عليهم من كل شيء وفقهم الله وأدخلهم جنته في الآخرة وتلذذوا بها، أما من حُرِم الجنة التي في الدنيا -وهي ذكرُ الله- فإنه يُحرم من جنة الآخرة، ولهذا يقول بعضهم: «مَسَاكِينُ أَهْلُ الدُّنْيَا، خَرَجُوا مِنْهَا وَمَا ذَاقُوا لَذِيذَ الْعَيْشِ فِيهَا، وَمَا ذَاقُوا أَطْيَبَ مَا فِيهَا»(٢).

وذكرُ الله عَزَّوَجَلَّ هو أطيب ما في الدنيا، ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾، قيل معناه: أنه يعيش في ضيقٍ في الدنيا، وقيل: يُضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، ويُفرش له من النار، ويأتيه من سَمومها وحرِّها، فهو في عيشةٍ ضنك في الدنيا وفي البرزخ، ﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ هذه حاله قبل الحشر في ضنك ويُحشر أعمى، ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا

---

(١) ذكر ابن القيم في الوابل الصيب (ص٤٨) أنه سمعه من شيخه، ثم قال: «فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها».

(٢) تقدم (ص٢٧٤).

فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٥-١٢٧].

فليتأمل الإنسان هذه الآيات، وأنه إذا غفل عن ذكر الله فإنه يعيش معيشةً ضنكا، وأشد من ذلك أنه يُحشر يوم القيامة أعمى، كما عمي عن آيات الله في الدنيا فإنه يُحشر يوم القيامة بلا بصر -والعياذ بالله- عقوبةً له.

وقوله: **(لَوْ يَعْلَمُ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ لَجَالَدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ)** الملوك وأبناء الملوك يريدون العز والشرف واللذة في الدنيا، ويظنون أن من حصّل المُلك والمال والسلطان ينال اللذة، وليس الأمر كذلك، بل هذا شقاء، وأشقى من يعيش على الأرض هم الملوك؛ لأنهم في همٍّ يخافون على مُلكهم ويخافون من أعدائهم، ودائمًا يراقبون من حولهم، ودائمًا معهم حراس، فهم ليسوا في لذة.

أما العابد فهو في لذة، ولا يحتاج مُلْكٍ، ولا يحتاج حرس، وتكفيه كسرة خبز يقيم بها صلبه وتعينه على ذكر ربه؛ لأن اللذة إنما تُدرك بذكر الله وبطاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

وَإِذَا كَانَ صَاحِبُ الْمَحَبَّةِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي هِيَ عَذَابٌ عَلَى قَلْبِ الْمُحِبِّ، يَقُولُ فِي حَالِهِ[١]:

وَمَا النَّاسُ إِلَّا الْعَاشِقُونَ ذَوُو الْهَوَى ... فَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يُحِبُّ وَيَعْشَقُ

وَيَقُولُ غَيْرُهُ[٢]:

أُفٍّ لِلدُّنْيَا إِذَا مَا لَمْ يَكُنْ ... صَاحِبُ الدُّنْيَا مُحِبًّا أَوْ حَبِيبًا

وَيَقُولُ آخَرُ:

وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي نَعِيمِهَا ... وَأَنْتَ وَحِيدٌ مُفْرَدٌ غَيْرُ عَاشِقِ

وَيَقُولُ الْآخَرُ[٣]:

اسْكُنْ إِلَى سَكَنٍ تَلَذُّ بِحُبِّهِ ... ذَهَبَ الزَّمَانُ وَأَنْتَ مُنْفَرِدُ

وَيَقُولُ الْآخَرُ:

تَشَكَّى الْمُحِبُّونَ الصَّبَابَةَ لَيْتَنِي ... تَحَمَّلْتُ مَا يَلْقَوْنَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحْدِي

فَكَانَتْ لِقَلْبِي لَذَّةُ الْحُبِّ كُلُّهَا ... فَلَمْ يَلْقَهَا قَبْلِي مُحِبٌّ وَلَا بَعْدِي

فَكَيْفَ بِالْمَحَبَّةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ، وَغِذَاءُ الْأَرْوَاحِ، وَلَيْسَ لِلْقَلْبِ لَذَّةٌ، وَلَا نَعِيمٌ، وَلَا فَلَاحٌ، وَلَا حَيَاةٌ إِلَّا بِهَا، وَإِذَا فَقَدَهَا الْقَلْبُ كَانَ أَلَمُهُ أَعْظَمَ مِنْ أَلَمِ الْعَيْنِ إِذَا فَقَدَتْ نُورَهَا، وَالْأُذُنِ إِذَا فَقَدَتْ سَمْعَهَا، وَالْأَنْفِ إِذَا فَقَدَ شَمَّهُ، وَاللِّسَانِ إِذَا فَقَدَ نُطْقَهُ؟ بَلْ فَسَادُ الْقَلْبِ إِذَا خَلَا مِنْ مَحَبَّةِ فَاطِرِهِ وَبَارِئِهِ وَإِلَهِهِ الْحَقِّ

---

(١) يُنسب البيت للعباس بن الأحنف. يُنظر: ديوانه (ص١٩٧).

(٢) بل هو للعباس بن الأحنف، صاحب البيت السابق. يُنظر: ديوانه (ص٤١).
وعجزه: «صَاحِبُ الدُّنْيَا حَبِيبًا أَوْ مُحِبٌ».

(٣) يُنسب البيت لبشار بن برد. يُنظر: ديوانه (٣/ ٦٢).

أَعْظَمُ مِنْ فَسَادِ الْبَدَنِ إِذَا خَلَا مِنْهُ الرُّوحُ.

وَهَذَا الْأَمْرُ لَا يُصَدِّقُ بِهِ إِلَّا مَنْ فِيهِ حَيَاةٌ، وَمَا لِجُرْحٍ مَيِّتٍ إِيلَامُ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ أَعْظَمَ لَذَّاتِ الدُّنْيَا هُوَ السَّبَبُ الْمُوَصِّلُ إِلَى أَعْظَمِ لَذَّةٍ فِي الْآخِرَةِ.

الشرح:

إذا كانت هذه أشعارهم في طلب الدنيا وطلب الملذات، فكيف بالذي يطلب ما هو أعلى من ذلك وهو الآخرة؟!.

وَلَذَّاتُ الدُّنْيَا ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ:

فَأَعْظَمُهَا وَأَكْمَلُهَا: مَا أَوْصَلَ لَذَّةَ الْآخِرَةِ، وَيُثَابُ الْإِنْسَانُ عَلَى هَذِهِ اللَّذَّةِ أَتَمَّ ثَوَابٍ، وَلِهَذَا كَانَ الْمُؤْمِنُ يُثَابُ عَلَى مَا يَقْصِدُ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ؛ مِنْ أَكْلِهِ، وَشُرْبِهِ، وَلِبَاسِهِ، وَنِكَاحِهِ، وَشِفَاءِ غَيْظِهِ بِقَهْرِ عَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّهِ، فَكَيْفَ بِلَذَّةِ إِيمَانِهِ، وَمَعْرِفَتِهِ بِاللَّهِ، وَمَحَبَّتِهِ لَهُ، وَشَوْقِهِ إِلَى لِقَائِهِ، وَطَمَعِهِ فِي رُؤْيَةِ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ؟

النَّوْعُ الثَّانِي: لَذَّةٌ تَمْنَعُ لَذَّةَ الْآخِرَةِ، وَتُعْقِبُ آلَامًا أَعْظَمَ مِنْهَا، كَلَذَّةِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ، وَيَسْتَمْتِعُونَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، كَمَا يَقُولُونَ فِي الْآخِرَةِ إِذَا لَقُوا رَبَّهُمْ: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:١٢٨ - ١٢٩]. وَلَذَّةُ أَصْحَابِ الْفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ وَالْبَغْيِ فِي الْأَرْضِ وَالْعُلُوِّ بِغَيْرِ الْحَقِّ.

وَهَذِهِ اللَّذَّاتُ فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هِيَ اسْتِدْرَاجٌ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ لِيُذِيقَهُمْ بِهَا أَعْظَمَ الْآلَامِ، وَيَحْرِمَهُمْ بِهَا أَكْمَلَ اللَّذَّاتِ، بِمَنْزِلَةِ مَنْ قَدَّمَ لِغَيْرِهِ طَعَامًا لَذِيذًا مَسْمُومًا يَسْتَدْرِجُهُ بِهِ إِلَى هَلَاكِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف:١٨٢، ١٨٣].

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ فِي تَفْسِيرِهَا: كُلَّمَا أَحْدَثُوا ذَنْبًا أَحْدَثْنَا لَهُمْ نِعْمَةً[١].

---

(١) أخرج ابن أبي الدنيا في الشكر (١١٦)، ومن طريقه البيهقي في الأسماء والصفات (٢/٤٤٣) عن عبد الله بن داود، عن سفيان الثوري، قال: «نُسْبِغُ عَلَيْهِمِ النِّعَمَ، وَنَمْنَعُهُمُ =

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٤٤، ٤٥].

وَقَالَ تَعَالَى فِي أَصْحَابِ هَذِهِ اللَّذَّاتِ: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٥، ٥٦].

وَقَالَ فِي حَقِّهِمْ: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥].

وَهَذِهِ اللَّذَّةُ تَنْقَلِبُ آخِرًا آلَامًا مِنْ أَعْظَمِ الْآلَامِ، كَمَا قِيلَ:

مَـآرِبُ كَانَـتْ فِي الْحَيَـاةِ لِأَهْلِهَـا ... عِـذَابًا فَـصَارَتْ فِي الْمَعَـادِ عَـذَابَا

النَّوْعُ الثَّالِثُ: لَذَّةٌ لَا تُعْقِبُ لَذَّةً فِي دَارِ الْقَرَارِ وَلَا أَلَمًا، وَلَا تَمْنَعُ أَصْلَ لَذَّةِ دَارِ الْقَرَارِ، وَإِنْ مَنَعَتْ كَمَالَهَا. وَهَذِهِ اللَّذَّةُ الْمُبَاحَةُ الَّتِي لَا يُسْتَعَانُ بِهَا عَلَى لَذَّةِ الْآخِرَةِ، فَهَذِهِ زَمَانُهَا يَسِيرٌ، لَيْسَ لِتَمَتُّعِ النَّفْسِ بِهَا قَدْرٌ، وَلَا بُدَّ أَنْ تَشْتَغِلَ عَمَّا هُوَ خَيْرٌ وَأَنْفَعُ مِنْهَا.

وَهَذَا الْقِسْمُ هُوَ الَّذِي عَنَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ: «كُلُّ لَهْوٍ يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ فَهُوَ بَاطِلٌ، إِلَّا رَمْيَهُ بِقَوْسِهِ، وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ، وَمُلَاعَبَتَهُ امْرَأَتَهُ، فَإِنَّهُنَّ مِنَ الْحَقِّ»(١).

فَمَا أَعَانَ عَلَى اللَّذَّةِ الْمَطْلُوبَةِ لِذَاتِهَا فَهُوَ حَقٌّ، وَمَا لَمْ يُعِنْ عَلَيْهَا فَهُوَ بَاطِلٌ.

=

الشُّكْرَ». قَالَ: «وَقَالَ غَيْرُ سُفْيَانَ: كُلَّمَا أَحْدَثُوا ذَنْبًا أَحْدَثْتُ لَهُمْ نِعْمَةً».

(١) أخرجه أبو داود (٢٥١٣)، والترمذي (١٦٣٧)، والنسائي (٣٥٨٠)، وابن ماجه (٢٨١١)، وأحمد (٤/ ١٤٤) من حديث عقبة بن عامر الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشرح:

كثير من الجهال يتساءلون ويقولون: لماذا الكفار يُمتعون في الدنيا، وعندهم بهجة الدنيا والمناظر البهيجة والثروات، وهم يكفرون بالله؟ ولماذا يكون المؤمن في ضيق وفقر وفاقة؟

وقد يحمل هذا بعضهم على الكفر بالله عَزَّوَجَلَّ، وهو لا يدري **«أَنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ»**(١)، و**«لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»**(٢).

فالله يستدرج الكفار بهذه النعم ليزدادوا كفرًا وتعظم عقوبتهم في الآخرة، فلو لم يُعطوا هذا لكان أسهل عليهم: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ يُمهلهم الله ويعطيهم الأعمار والأموال ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم:٤٤، ٤٥]، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨]، ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤]، والآيات في هذا كثيرة.

أعطاهم المخترعات والملذات والثروات والبلاد الطيبة، ليستدرجهم وتزيد غفلتهم وتكبرهم وكفرهم، حتى يأخذهم الله على غِرَّة وهم ليسوا على

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٢٨).

(٢) تقدم تخريجه (ص١٢٨).

شيء: ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ آيسون من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، لا طمع لهم في النجاة.

قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥]. أمدهم بالأموال والأولاد لتكون وبالًا عليهم، فيحرصون عليها ويتابعونها لئلا تضيع، ويسهرون في جمعها، ويخافون عليها من السرقة، ويخافون من الخسَّارة في التجارة، وبعضهم لا يأكل ولا يتلذذ بشيء، وإنما بالغ همه السعي في زيادة المال، ويُحرم من التنعم به، إما لانشغاله وعدم تفرغه، وإما لمرض يصيبه يمنعه من الأكل ومن الشرب، وما ناله إلا التعب في جمعه فقط.

وقوله: **(وَهَذِهِ اللَّذَّةُ تَنْقَلِبُ آخِرًا آلَامًا مِنْ أَعْظَمِ الْآلَامِ)**، ويا ليتها تذهب وينتهي أمرها، لكنها لذة تزول ويُعقبها حسرات وآلام في الآخرة.

وقوله: **(كَانَتْ فِي الْحَيَاةِ لِأَهْلِهَا عِذَابًا)** يعني: حلوة، **(فَصَارَتْ فِي الْمَعَادِ عَذَابًا)** يعني: صارت في الآخرة شقاءً وآلامًا.

وقوله: **(إِلَّا رَمْيَهُ بِقَوْسِهِ، وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ)**؛ لأن هذا من وسائل الجهاد في سبيل الله، **(وَمُلَاعَبَتَهُ امْرَأَتَهُ)** وهذا يعفه ويمنعه من الوقوع في الحرام، فهو شيء طيب.

فَصْلٌ

فَهَذَا الْحُبُّ لَا يُنْكَرُ وَلَا يُذَمُّ، بَلْ هُوَ أَحَدُ أَنْوَاعِ الْحُبِّ. وَكَذَلِكَ حُبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنَّمَا نَعْنِي الْمَحَبَّةَ الْخَاصَّةَ، الَّتِي تَشْغَلُ قَلْبَ الْمُحِبِّ وَفِكْرَهُ وَذِكْرَهُ لِمَحْبُوبِهِ، وَإِلَّا فَكُلُّ مُسْلِمٍ فِي قَلْبِهِ مَحَبَّةٌ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، لَا يَدْخُلُ فِي الْإِسْلَامَ إِلَّا بِهَا. وَالنَّاسُ مُتَفَاوِتُونَ فِي دَرَجَاتِ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ تَفَاوُتًا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللَّهُ، فَبَيْنَ مَحَبَّةِ الْخَلِيلَيْنِ وَمَحَبَّةِ غَيْرِهِمَا مَا بَيْنَهُمَا.

فَهَذِهِ الْمَحَبَّةُ هِيَ الَّتِي تُلَطِّفُ الرُّوحَ، وَتُخَفِّفُ أَثْقَالَ التَّكَالِيفِ، وَتُسَخِّي الْبَخِيلَ، وَتُشَجِّعُ الْجَبَانَ، وَتُصَفِّي الذِّهْنَ، وَتُرَوِّضُ النَّفْسَ، وَتُطَيِّبُ الْحَيَاةَ عَلَى الْحَقِيقَةِ، لَا مَحَبَّةُ الصُّوَرِ الْمُحَرَّمَةِ. وَإِذَا بُلِيَتِ السَّرَائِرُ يَوْمَ اللِّقَاءِ كَانَتْ سَرِيرَةُ صَاحِبِهَا مِنْ خَيْرِ سَرَائِرِ الْعِبَادِ، كَمَا قِيلَ[1]:

سَيَبْقَى لَكُمْ فِي مُضْمَرِ الْقَلْبِ وَالْحَشَا ... سَرِيرَةُ حُبٍّ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ

وَهَذِهِ الْمَحَبَّةُ هِيَ الَّتِي تُنَوِّرُ الْوَجْهَ، وَتَشْرَحُ الصَّدْرَ، وَتُحْيِي الْقَلْبَ.

وَكَذَلِكَ مَحَبَّةُ كَلَامِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ مِنْ عَلَامَةِ مَحَبَّةِ اللَّهِ. وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ مَا عِنْدَكَ وَعِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ، فَانْظُرْ مَحَبَّةَ الْقُرْآنِ مِنْ قَلْبِكَ، وَالْتِذَاذَكَ بِسَمَاعِهِ أَعْظَمَ مِنَ الْتِذَاذِ أَصْحَابِ الْمَلَاهِي وَالْغِنَاءِ الْمُطْرِبِ بِسَمَاعِهِمْ، فَإِنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ مَنْ أَحَبَّ مَحْبُوبًا كَانَ كَلَامُهُ وَحَدِيثُهُ أَحَبَّ شَيْءٍ إِلَيْهِ كَمَا قِيلَ:

إِنْ كُنْتَ تَزْعُمُ حُبِّي ... فَلِمَ هَجَرْتَ كِتَابِي
أَمَا تَأَمَّلْتَ مَا فِيـ ... ـهِ مِنْ لَذِيذِ خِطَابِي

---

(١) يُنسب البيت للأحوص الأنصاري. يُنظر: شعر الأحوص (ص١٤٥).

وَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ طَهُرَتْ قُلُوبُنَا لَمَا شَبِعَتْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ»(١).

وَكَيْفَ يَشْبَعُ الْمُحِبُّ مِنْ كَلَامِ مَحْبُوبِهِ وَهُوَ غَايَةُ مَطْلُوبِهِ؟!

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: «اقْرَأْ عَلَيَّ»، فَقَالَ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ فَقَالَ: «إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي». فَاسْتَفْتَحَ وَقَرَأَ سُورَةَ النِّسَاءِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ قَوْلَهُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١]، قَالَ: «حَسْبُكَ الْآنَ»، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَذْرِفَانِ مِنَ الْبُكَاءِ(٢).

وَكَانَ الصَّحَابَةُ إِذَا اجْتَمَعُوا وَفِيهِمْ أَبُو مُوسَى يَقُولُونَ: يَا أَبَا مُوسَى ذَكِّرْنَا رَبَّنَا، فَيَقْرَأُ، وَهُمْ يَسْتَمِعُونَ(٣).

فَلِمُحِبِّي الْقُرْآنِ مِنَ الْوَجْدِ وَالذَّوْقِ وَاللَّذَّةِ وَالْحَلَاوَةِ وَالسُّرُورِ أَضْعَافُ مَا لِمُحِبِّي السَّمَاعِ الشَّيْطَانِيِّ، فَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ؛ ذَوْقَهُ، وَوَجْدَهُ، وَطَرَبَهُ، وَتَشَوُّقَهُ إِلَى سَمَاعِ الْأَبْيَاتِ دُونَ سَمَاعِ الْآيَاتِ، وَسَمَاعِ الْأَلْحَانِ دُونَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ، وَهُوَ كَمَا قِيلَ:

تُقْرَأُ عَلَيْكَ الْخَتْمَه ... وَأَنْتَ جَامِدٌ كَالْحَجَرِ

---

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على الزهد (٦٨٠)، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٥٥)، ومسلم (٨٠٠).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٤٨٦)، وابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (٨١)، وابن حبان (١٦/ ١٦٩)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٥٨)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٣٩٠).

وَبَيْتٌ مِنَ الشِّعْرِ يُنْشَدُ تَمِيلُ كَالنَّشْوَانِ

فَهَذَا مِنْ أَقْوَى الْأَدِلَّةِ عَلَى فَرَاغِ قَلْبِهِ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَكَلَامِهِ، وَتَعَلُّقِهِ بِمَحَبَّةِ سَمَاعِ الشَّيْطَانِ، وَالْمَغْرُورُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ عَلَى شَيْءٍ!.

فَفِي مَحَبَّةِ اللَّهِ وَكَلَامِهِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا ذَكَرَ السَّائِلُ مِنْ فَوَائِدِ الْعِشْقِ وَمَنَافِعِهِ، بَلْ لَا حُبَّ عَلَى الْحَقِيقَةِ أَنْفَعَ مِنْهُ، وَكُلُّ حُبٍّ سِوَى ذَلِكَ بَاطِلٌ إِنْ لَمْ يُعِنْ عَلَيْهِ وَيَسُقِ الْمُحِبَّ إِلَيْهِ.

الشرح:

لا شك أن محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هي أصل العبادة، فالذين لا يحبون الله لا يعبدونه، لكن الناس متفاوتون في محبة الله.

فأهل الشرك يحبون الله لكن يحبون معه غيره، فأشركوا في المحبة حيث أحبوا الله وأحبوا معه أصنامهم ومعبوداتهم، فلم يُخلصوا المحبة لله عَزَّوَجَلَّ.

وأهل الإيمان أخلصوا حبهم لله عَزَّوَجَلَّ، ولا يحبون الشرك وأهله، وهذا هو الولاء والبراء؛ فأهل الإيمان يحبون الله، ويحبون ما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ، ويحبون رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويحبون عباد الله الصالحين وإخوانهم المؤمنين، وهي محبة تابعة لمحبة الله عَزَّوَجَلَّ. وهذا هو الحب في الله والبُغض في الله، وهو أوثق عُرى الإيمان كما في الأثر[1].

وعلامة محبة الله: اتِّباع رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦٣٤).

﴿٣١ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ٣٢﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢]. فالذي يدَّعي أنه يحب الله يُنظر في اتباعه للرسول وطاعته للرسول، فإن كان مطيعًا ومتابعًا للرسول فهو صادق في محبته، وإن كان مخالفًا للرسول فهو كاذبٌ في محبته، فإما أنه ليس عنده محبة أصلًا، وإما أن محبته ناقصة بحسب معصيته ومخالفته، فهذا أمرٌ مهمٌ جدًّا.

والآن يوجد من يُطنطنون بمحبة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخصوصًا أيام مولده، لكن نراهم لا يتبعون الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدلَّ على أنهم كاذبون في ادعاء محبته، فلو كانوا يحبونه ما ابتدعوا في دين الله، وما يفعلونه من هذه الاحتفالات والموالد هو بدعة، والرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن البدع وقال: «**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**». وفي بعض ألفاظ الحديث: «**وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ**»(١). وقال: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هذا ما لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(٢)، وفي رواية: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيه أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(٣).

فهم يزعمون أنهم يحبون الرسول ويحيون الليل ويرقصون وكل شيء يعملونه يدعون أنه محبة للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا كذب، فمحبة الرسول ليست بالرقص والتصفيق والأغاني وضرب الطبول كما يفعلون، وإنما محبة الرسول تكون باتباعه وطاعته. فمحبة الرسول ليست مجرد دعوى، لابد من

---

(١) تقدم تخريجه بروايتيه (ص٥٠٠).

(٢) تقدم تخريجه (ص٥٠٠).

(٣) تقدم تخريجه (ص٥٠٠).

علامة ودليل عليها.

كذلك من علامات محبة الله: محبة القرآن؛ لأن القرآن كلام الله عَزَّوَجَلَّ وصفة من صفاته، فمن ادَّعى محبة الله وينفر من سماع القرآن، ويحب الغناء والطرب والمزامير فهو كاذبٌ في ادعائه، ولهذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]:

حُبُّ الكِتَابِ وَحُبُّ أَلْحَانِ الغِنَا ... فِي قَلْبِ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ

فإما أن تكون مُحبًّا للقرآن، وإمّا أن تكون مُحبًّا للألحان، أما أن تحب القرآن وتحب الألحان فهذا لا يمكن؛ لأنهما متضادان، فالقرآن كلام الله، والألحان كلام الشيطان، بينهما فرق.

وقول عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: **(لَوْ طَهُرَتْ قُلُوبُنَا)** يعني: بمحبة الله **(لَمَا شَبِعَتْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ)**، وهذا من باب التواضع وعدم تزكية النفس، وإلَّا فإنه كان من أهل القرآن الذين يتهجدون به، حتى إنه رُوي عنه أنه كان يقرأ القرآن في ركعة واحدة من طول القيام[٢]. فهو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ممن يرتبط بالقرآن، وهو الذي جمع القرآن واعتنى به، والمصحف العثماني الآن الذي بأيدي المسلمين هو الذي جمعه ورتبه، وهو الذي حافظ عليه، جعله الله حارسًا لكتابه، ولكنه لم يُزك نفسه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وفي قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»**، دليل على أن محبة سماع القرآن علامة من علامات محبة الله، فإما أن يقرأه هو، وإما أن

---

(١) يُنظر: نونية ابن القيم (ص٣٢٦).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٣٥٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٣٢٣)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٦).

يسمعه من غيره. وكان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعمل بالحالتين: كان يقرأ القرآن، وكان يطلب من غيره أن يسمعه القرآن، فقد كان يحب الاستماع إلى قراءة أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يصلي بالليل، وقال له: **«يَا أَبَا مُوسَى، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»**(١). لأن أبا موسى أعطاه الله صوتًا جميلًا بالقرآن.

فإذا رأيت من يفتح الإذاعة على القرآن، ويستمع للقرآن، فهذا دليل على إيمانه ومحبته لكلام الله، وإذا رأيت الذي يُغلق القرآن ويستمع للأغاني، فهذا دليل على أنه يكره كلام الله عَزَّ وَجَلَّ ويحب الأغاني والمزامير، وبئس للظالمين بدلًا.

وقد استمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقراءة ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ قَوْلَهُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قَالَ: **«حَسْبُكَ الْآنَ»**، وبكى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكان يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ»**(٢)، يعني: ابن مسعود، فهو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من المشهورين بتلاوة القرآن وحفظه، والإكثار من تلاوته.

وقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يطلبون في مجالسهم من أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يقرأ القرآن، وذلك لجمال صوته وجودة قراءته، فهذا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١/٧)، وابن ماجه (١٣٨)، وابن حبان (١٥/٥٤٢)، والبيهقي في الكبرى (٣/٢١٩) من حديث أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

دليل على أن الاستماع لحسن الصوت بالقرآن أمر مطلوب؛ لأنه يؤثر في القلب أكثر من غيره.

وقوله:

تُقْـرَأُ عَلَيْـكَ الْخَتْمَـه وَأَنْـتَ جَامِـدٌ كَـالْحَجَرِ
وَبَيْـتٌ مِـنَ الـشِّعْرِ يُنْـشَدُ تَمِيـلُ كَالنَّـشْوَانِ

فمن الناس من لو قُرئ عليه القرآن كله ما تأثر، ولو قُرئ عليه بيت من الشعر فيه غرام وغزل تأثر وتمايل كالنشوان، فهذا دليل على أنه لا يحب القرآن وإنما يحب الغناء والشعر.

فَصْلٌ

وَأَمَّا مَحَبَّةُ النِّسْوَانِ فَلَا لَوْمَ عَلَى الْمُحِبِّ فِيهَا، بَلْ هِيَ مِنْ كَمَالِهِ. وَقَدِ امْتَنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهَا عَلَى عِبَادِهِ فَقَالَ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:٢١]. فَجَعَلَ الْمَرْأَةَ سَكَنًا لِلرَّجُلِ، يَسْكُنُ قَلْبُهُ إِلَيْهَا، وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا خَالِصَ الْحُبِّ، وَهُوَ الْمَوَدَّةُ الْمُقْتَرِنَةُ بِالرَّحْمَةِ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى عُقَيْبَ ذِكْرِهِ مَا أُحِلَّ لَنَا مِنَ النِّسَاءِ وَمَا حُرِّمَ مِنْهُنَّ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٦ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ۝٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٦ - ٢٨].

ذَكَرَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ: «إِذَا نَظَرَ إِلَى النِّسَاءِ لَمْ يَصْبِرْ»(١).

الشرح:

هناك محبة طبيعية لا يؤاخذ عليها الإنسان، كمحبة الأولاد والزوجة والمال ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:٢٠]، ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ

---

(١) لم أقف عليه في المطبوع من تفسير الثوري. وأخرجه الخرائطي في اعتلال القلوب (١٩٩)، وابن الجوزي في ذم الهوى (ص١٦٤).

ﭐلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ﴾ [آل عمران: ١٤]. هذه محبة طبيعية وليست محبة عبادة، فإذا قُدِّمت هذه المحبوبات على محبة الله صارت محبتها عبادة لهذه الأشياء: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فالذي يقدم محبة المخلوق على محبة الخالق هذا دليل على ضعف إيمانه، أو أنه ليس عنده إيمان أصلًا. أما أن يحب شيئًا ولا يقدمه على محبة الله، فهذا أمر مباح، كمن يحب زوجته، ويحب والديه وأولاده، ويحب ماله، هذه محبة طبيعية، وفيها مصالح؛ لأنه لو لم يحب هذه الأشياء ما طلبها ولا اعتنى بها.

قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾، من آيات الله جَلَّوَعَلَا الدالة على قدرته: أن جعل المحبة بين الزوجين، فيجتمعان في ليلة فيجعل الله بينهما المحبة، وتستمر هذه المحبة، مع أنهما لم يكونا يعرف أحدهما الآخر؛ لِما في هذه المحبة من مصالح، فإذا تحاب الزوجان أطاع أحدهما الآخر في مصالحهما، وأنجبا وتعاشرا وحصل المقصود. أما إذا كان الزوج لا يحب زوجته، أو كانت المرأة لا تحب زوجها، حصلت النفرة والفرقة وعدم الوئام. فهذه المحبة لا يمكن لأحد أن يشتريها، ولا يقدر على جعلها في القلوب إلا الله، وهذا من آياته سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

والله جَلَّوَعَلَا لَمَّا أباح الزواج، وبيَّن النساء المحرمات في سورة النساء،

قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٦ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾. فالذين يتبعون الشهوات ينفرون من الزواج ويريدون المتعة المحرمة، ولا يفرقون بين محرمات ومباحات من النساء، وإنما همهم الشهوة فقط، ولا يكفي أنهم يفسدون بأنفسهم، لكنهم يريدون أن يفسدوا الناس أيضًا، فينفرون من الزواج، وينفرون من تعدد الزوجات الذي فيه مصالح، وينفرون من تزويج كبير السن، وينفرون من زواج الأقارب، كل هذه محاولات من أهل الفسق في سبيل الزواج حتى ينتشر الفساد، فيجب الانتباه لمكائدهم.

هم الآن جند الشيطان -من الكفار ومن المنافقين ومن المندسين في المسلمين- يحاربون الزواج، لكن لا يقدرون على منعه منعًا باتًّا، لكنهم يأتونه من جوانب، فينفرون من تعدد الزوجات، ومن زواج الأقارب، وزواج كبير السن بالشابة، فإذا نفروا الناس من الزواج انعدمت الرغبة في الزواج، وانتشر الفساد، وهذا ما يريدونه: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾. والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ جعل الشهوة، لكنه جعل لها مصرفًا شريفًا منضبطًا، لكن شياطين الإنس ينفرون من الزواج، ويرغبون في الزنا والسفاح أكثر من الزواج، ويقولون: لا ترتبط بعائلة ولا ترتبط بزوجة، ويزعمون أن الرجل بذلك يكون حرًّا، وأنه يمكنه أن يحصل على ما يطفئ شهوته بغير زواج، حتى أنهم أباحوا لأنفسهم اللواط، ويعقدون الندوات والمؤتمرات الآن لإباحة اللواط وإباحة الزنا والعياذ بالله.

وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّهُ رَأَى امْرَأَةً، فَأَتَى زَيْنَبَ، فَقَضَى حَاجَتَهُ مِنْهَا، وَقَالَ: «إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، وَتُدْبِرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمُ امْرَأَةً فَأَعْجَبَتْهُ فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ»(١).

فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ عِدَّةُ فَوَائِدَ:

مِنْهَا: الْإِرْشَادُ إِلَى التَّسَلِّي عَنِ الْمَطْلُوبِ بِجِنْسِهِ، كَمَا يَقُومُ الطَّعَامُ مَكَانَ الطَّعَامِ، وَالثَّوْبُ مَقَامَ الثَّوْبِ.

وَمِنْهَا: الْأَمْرُ بِمُدَاوَاةِ الْإِعْجَابِ بِالْمَرْأَةِ الْمُوَرِّثِ لِشَهْوَتِهَا بِأَنْفَعِ الْأَدْوِيَةِ، وَهُوَ قَضَاءُ وَطَرِهِ مِنْ أَهْلِهِ، وَذَلِكَ يَنْقُضُ شَهْوَتَهُ لَهَا.

وَهَذَا كَمَا أَرْشَدَ الْمُتَحَابِّينَ إِلَى النِّكَاحِ، كَمَا فِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ مَرْفُوعًا: «لَمْ يُرَ لِلْمُتَحَابِّينَ مِثْلُ النِّكَاحِ»(٢).

فَنِكَاحُ الْمَعْشُوقَةِ هُوَ دَوَاءُ الْعِشْقِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ دَوَاءً شَرْعًا، وَقَدْ تَدَاوَى بِهِ دَاوُدُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يَرْتَكِبْ نَبِيُّ اللَّهِ مُحَرَّمًا، وَإِنَّمَا تَزَوَّجَ الْمَرْأَةَ وَضَمَّهَا إِلَى نِسَائِهِ لِمَحَبَّتِهِ لَهَا، وَكَانَتْ تَوْبَتُهُ بِحَسَبِ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ وَعُلُوِّ مَرْتَبَتِهِ، وَلَا يَلِيقُ بِنَا الْمَزِيدُ عَلَى هَذَا.

وَأَمَّا قِصَّةُ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ: فَزَيْدٌ كَانَ قَدْ عَزَمَ عَلَى طَلَاقِهَا وَلَمْ تُوَافِقْهُ، وَكَانَ يَسْتَشِيرُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي فِرَاقِهَا، وَهُوَ يَأْمُرُهُ بِإِمْسَاكِهَا، فَعَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ مُفَارِقُهَا لَا بُدَّ، فَأَخْفَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ يَتَزَوَّجُهَا إِذَا

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٠٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٨٤٧).

فَارَقَهَا زَيْدٌ، وَخَشِيَ مَقَالَةَ النَّاسِ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَزَوَّجَ زَوْجَةَ ابْنِهِ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ تَبَنَّى زَيْدًا قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَالرَّبُّ تَعَالَى يُرِيدُ أَنْ يُشَرِّعَ شَرْعًا عَامًّا فِيهِ مَصَالِحُ عِبَادِهِ.

فَلَمَّا طَلَّقَهَا زَيْدٌ، وَانْقَضَتْ عِدَّتُهَا مِنْهُ، أَرْسَلَهُ إِلَيْهَا يَخْطُبُهَا لِنَفْسِهِ، فَجَاءَ زَيْدٌ وَاسْتَدْبَرَ الْبَابَ بِظَهْرِهِ، وَعَظُمَتْ فِي صَدْرِهِ لَمَّا ذَكَرَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَادَاهَا مِنْ وَرَاءِ الْبَابِ: يَا زَيْنَبُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُكِ، فَقَالَتْ: مَا أَنَا بِصَانِعَةٍ شَيْئًا حَتَّى أُؤَامِرَ رَبِّي، وَقَامَتْ إِلَى مِحْرَابِهَا فَصَلَّتْ، فَتَوَلَّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نِكَاحَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَفْسِهِ، وَعَقَدَ النِّكَاحَ لَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ، وَجَاءَ الْوَحْيُ بِذَلِكَ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب:٣٧]، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِوَقْتِهِ فَدَخَلَ عَلَيْهَا[١]. فَكَانَتْ تَفْخَرُ عَلَى نِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ، وَتَقُولُ: أَنْتُنَّ زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ، وَزَوَّجَنِي اللَّهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ[٢].

فَهَذِهِ قِصَّةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ زَيْنَبَ.

الشرح:

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا رأى امرأة فأعجبته ذهب إلى زوجته زينب فقضى حاجته منها، وهذا من باب سد الفتنة، والزواج إنما هو لمنع الفتنة، فهو صرف شهوته في الحلال بدل أن تكون في الحرام، ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٢٨) من حديث زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٢٠) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ»(١).

وقوله: (**وَقَدْ تَدَاوَى بِهِ دَاوُدُ**) يشير إلى قصة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، لـمّا امتحنه الله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ۝٢١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ۝٢٢ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢١ - ٢٣]. وقد رُوي في تفسير هذه الآيات(٢): أن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ رأى امرأة فأعجبته، فتزوجها، أتاها بالحلال ولم يأتها بالحرام.

فكان سبب فتنته بها أنه وقع نظره عليها، لكن بالنسبة له عَلَيْهِ السَّلَامُ اعتبر الله ذلك في حقه ذنبًا، فتاب داود عَلَيْهِ السَّلَامُ من ذلك، فتاب الله عليه: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ۝٢٤ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٤، ٢٥].

فهذا هو ملخص القصة أنه لـمّا أعجبته ما تابعها، مع أنه ملك إذا أمر يُجاب، لكنه أراد الحلال ولم يرد الحرام. لكن الله جَلَّ وَعَلَا لامه على إلقاء نظره

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٥)، ومسلم (١٤٠٠) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٢): «ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذة من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ... فالأولى أن يُقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يُرد علمها إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضًا».

عليها، والنظر إلى النساء فتنة لا شك في ذلك.

وأشار المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى قصة زينب بنت جحش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، فقد كانت زوجة لزيد بن حارثة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مولى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأراد زيد أن يفارقها، فجاء إلى الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستشيره في طلاقها، فأشار عليه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُبقيها، بعدما أعلمه الله جَلَّ وَعَلَا أنها ستكون زوجة له، ولكنه أخفى ذلك في نفسه: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أنعم الله عليه بالإسلام، وأنعم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه بالعِتق، ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾، فقد أعلمه الله جَلَّ وَعَلَا أنه سيتزوجها كم بعده، لكنه خاف من ملامة الناس أن يقولوا: تزوج امرأة ابنه؛ لأنهم كانوا في الجاهلية يتبنون الأشخاص ويعتبرونهم أبناءهم. فأراد الله أن يبطل التبني، وأنه لا يجوز للمسلم أن يأتي بولد من الشارع أو دار الأيتام وينسبه لنفسه، هذا حرام لا يجوز، فلا يكون ابنك إلَّا من هو من صُلبك، فأراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُبطل عادة التبني: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأحزاب:٤]، ومن تمام ذلك أنه أمر نبيه أن يتزوج زوجة مولاه زيد بن حارثة ليقضي على هذه العادة الجاهلية.

لكن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تهيب ذلك حتى عاتبه الله جَلَّ وَعَلَا، وتولى عقد زواج رسوله من زينب من فوق سبع سموات، فدخل عليها بتزويج الله إيَّاه لها.

وهذا من فضائلها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، أن الله تولى عقدها بنفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب:٣٧]، فقضى بذلك على عادة الجاهلية، وأن الأدعياء ليسوا أبناءً لمواليهم، وأنه يجوز للمعتق أن يتزوج زوجة عتيقه، وأبطل ما كانوا في يعتقدون الجاهلية أنه من أكبر الكبائر أن يتزوج المعتق زوجة عتيقه.

ورفع الحرج عن نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بقوله: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذي فرض هذا وشرعه، فما عليه من حرج أن يتزوج زوجة مولاه بعد فراقها.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ قَدْ حُبِّبَ إِلَيْهِ النِّسَاءُ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»(١).

هَذَا لَفْظُ الْحَدِيثِ، لَا مَا يَرْوِيهِ بَعْضُهُمْ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ»، زَادَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: «أَصْبِرُ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَلَا أَصْبِرُ عَنْهُنَّ»(٢).

وَقَدْ حَسَدَهُ أَعْدَاءُ اللَّهِ الْيَهُودُ عَلَى ذَلِكَ فَقَالُوا: مَا هَمُّهُ إِلَّا النِّكَاحُ، فَرَدَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَافَحَ عَنْهُ، فَقَالَ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤](٣).

وَهَذَا خَلِيلُ اللَّهِ إِبْرَاهِيمُ كَانَ عِنْدَهُ سَارَّةُ أَجْمَلُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَأَحَبَّ هَاجَرَ وَتَسَرَّى بِهَا.

وَهَذَا دَاوُدُ كَانَ عِنْدَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ امْرَأَةً، فَأَحَبَّ تِلْكَ الْمَرْأَةَ وَتَزَوَّجَهَا فَكَمَّلَ الْمِائَةَ(٤).

---

(١) تقدم تخريجه (ص٧٢٤).

(٢) تقدم الكلام عليه (ص٧٢٤).

(٣) أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/٩٧٨)، والطبري في تفسير الطبري (٨/٤٧٨) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: « ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، وذلك أن أهل الكتاب قالوا: زعم محمد أنه أوتي ما أوتي في تواضع، وله تسع نسوة، ليس همه إلا النكاح! فأيُّ ملك أفضلُ من هذا!».

(٤) قال ابن كثير في تفسيره (٤/٣٢): «ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذة من =

وَهَذَا سُلَيْمَانُ ابْنُهُ كَانَ يَطُوفُ فِي اللَّيْلَةِ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً(١).

وَقَدْ سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَقَالَ: «عَائِشَةُ»(٢). وَقَالَ عَنْ خَدِيجَةَ: «إِنِّي رُزِقْتُ حُبَّهَا»(٣).

فَمَحَبَّةُ النِّسَاءِ مِنْ كَمَالِ الْإِنْسَانِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَكْثَرُهَا نِسَاءً»(٤).

وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ وَقَعَ فِي سَهْمِهِ يَوْمَ جَلُولَاءَ جَارِيَةٌ كَأَنَّ عُنُقَهَا إِبْرِيقٌ مِنْ فِضَّةٍ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «فَمَا صَبَرْتُ عَنْهَا أَنْ قَبَّلْتُهَا وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ»(٥).

وَبِهَذَا احْتَجَّ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَلَى جَوَازِ الِاسْتِمْتَاعِ مِنَ الْمَسْبِيَّةِ قَبْلَ الِاسْتِبْرَاءِ بِغَيْرِ الْوَطْءِ، بِخِلَافِ الْأَمَةِ الْمُشْتَرَاةِ. وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ انْفِسَاخَ الْمِلْكِ لَا يُتَوَهَّمُ فِي

=

الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ... فالأولى أن يُقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يُرد علمها إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضًا».

(١) أخرجه البخاري (٥٢٤٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه: «بمائة امرأة»، (٣٤٢٤): «على سبعين امرأة»، وفيه: «قال شعيب وابن أبي الزناد: «تسعين»، وهو أصح». وأخرجه مسلم (١٦٥٤)، وفي إحدى رواياته: «كان لسليمان ستون امرأة». كلاهما

(٢) تقدم تخريجه (ص٦٤٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٣٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه البخاري (٥٠٦٩).

(٥) أخرجه أحمد في العلل ومعرفة الرجال، رواية ابنه عبد الله (٢/ ٢٦٠).

الْمَسْبِيَّةِ بِخِلَافِ الْمُشْتَرَاةِ فَقَدْ يَنْفَسِخُ فِيهَا الْمِلْكُ، فَيَكُونُ مُسْتَمْتِعًا بِأَمَةِ غَيْرِهِ[١].

وَقَدْ شَفَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَاشِقٍ أَنْ تُوَاصِلَهُ مَعْشُوقَتُهُ بِأَنْ تَتَزَوَّجَ بِهِ فَأَبَتْ، وَذَلِكَ فِي قِصَّةِ مُغِيثٍ وَبَرِيرَةَ، فَإِنَّهُ رَآهُ يَمْشِي خَلْفَهَا بَعْدَ فِرَاقِهَا وَدُمُوعُهُ تَجْرِي عَلَى خَدَّيْهِ، فَقَالَ لَهَا: «لَوْ رَاجَعْتِيهِ؟»، فَقَالَتْ: أَتَأْمُرُنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا، إِنَّمَا أَشْفَعُ»، فَقَالَتْ: لَا حَاجَةَ لِي بِهِ، فَقَالَ لِعَمِّهِ: «يَا عَبَّاسُ، أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ، وَمِنْ بُغْضِهَا لَهُ»[٢]. وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ حُبَّهَا، وَإِنْ كَانَتْ قَدْ بَانَتْ مِنْهُ، فَإِنَّ هَذَا مَا لَا يَمْلِكُهُ.

الشرح:

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»**، هذه هي الرواية الصحيحة، أما رواية: **«حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ: النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»**، فهي خطأ؛ لأن الصلاة ليست من أمور الدنيا، وإنما هي من أمور الآخرة.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُبِّب إليه النساء، وحب المؤمن للنساء ليس فيه لوم، وإنما اللوم يكون إذا اتَّبع الشهوات ووقع في المحرم، أما إذا تزوج من أحبها فهذا طيب. وكذلك لو أحب امرأة ولم يقدر على زواجها ليس فيه بأس ما دام لم يقع في شيء محرم، أما إذا اتَّبع فيه شهواته ووقع في الحرام فهذا الذي فيه اللوم.

---

(١) يُنظر: المغني لابن قدامة (٨/ ١٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٨٣) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ [آل عمران:١٤]. فلا بأس في حب النساء والبنين إلا إذا قدَّمه على محبة الله وطاعته، فهذا الذي فيه اللوم.

والذين ينادون بتحريم تعدد الزوجات -حتى من الذين يدَّعون الإسلام- يستنكرون أن الرسول تزوج بتسع، ويقولون: هذا دليل على أنه شهواني! ويلتمسون الطعن في الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه ردَّة عن دين الإسلام، إذا قالها من يدَّعي الإسلام فهو مرتد، أما إذا قالها كافر فالكافر لا لوم عليه، وليس بعد الكفر ذنب.

وكون اليهود يقولون هذه المقالة، فهذا من أسهل ما يقولون في الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن المصيبة أن يأتي من أبناء المسلمين من يدَّعي الإسلام ويتنقص الرسول.

والرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تزوج بتسع لمصالح عظيمة، لا لأجل الشهوة فقط، فالشهوة إذا صُرفت فيما أحل الله فليس فيها بأس، لكنه لم يتزوج من أجل الشهوة فقط، بل تزوج لمصالح عظيمة؛ من أجل تأليف الناس، ولأجل أن النساء يروين عنه السنَّة التي لا يطلع عليها إلا أهل بيته، ولأجل أن تنال هذه النساء شرف أمهات المؤمنين، ويكنَّ زوجاته في الجنة، ففيها مصالح عظيمة.

وتعدد زوجات الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا من شرفه ومكارمه وكماله، وليس مما يُؤخذ عليه، وهذا من فضل الله جَلَّ وَعَلَا عليه أن الله أباح له أن يتزوج بهذا العدد، وهو من خواصه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما عامة المسلمين فهم

مقصورون على أربع: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء:٣].

وتعدد الزوجات ليس خاصًّا بالإسلام ولا بالرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل كان في شريعة الأمم قبلنا، كما كان داود وسليمان عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ عندهما من الزوجات العدد الكثير. وكذلك إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان عنده سارة بنت عمه، وكانت من أجمل نساء العالم، ومع هذا تسرَّى بهاجر أم إسماعيل. فتعدد الزوجات والسراري هذا أمرٌ محمود، فيه مصالح.

وقد ثبت في الصحيحين عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِائَةِ امْرَأَةٍ، أَوْ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ كُلُّهُنَّ، يَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ، جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ**». لأنه لم يقل: إن شاء الله، ولو قال: إن شاء الله. لحصل له مطلوبه، كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ**»(١).

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسَاوِي بَيْنَ نِسَائِهِ فِي الْقَسْمِ، وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا لَا أَمْلِكُ»(١). يَعْنِي: فِي الْحُبِّ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء:١٢٩]، يَعْنِي: فِي الْحُبِّ وَالْجِمَاعِ.

الشرح:

ما زال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سياق المحبة والحب، وهما عملٌ قلبيٌّ يدفع إلى عمل الجوارح، فكل حركة في الكون فإنها ناشئة عن الحب، ولو لم يكن هناك حبٌ في القلوب لما تحركت الأبدان في تحصيل الأشياء.

وأساس المحبة هي محبة الله جَلَّ وَعَلَا، وهي التي تحض على عبادة الله وعلى الخوف من الله، والطمع في عفوه ورجاء مغفرته، ويتبع هذا محبة الأشياء التي تُعين على عبادة الله عَزَّ وَجَلَّ. أما المحبة التي تصد عن طاعة الله، وتؤدي إلى تحصيل أشياء ضارة، فهي محبةٌ مذمومة.

وغرض المؤلف هنا أن المحبة لا حيلة للإنسان فيها؛ لأنها عملٌ قلبي، فمثلاً: الله جَلَّ وَعَلَا أمر العدل بين الزوجات، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٣]. بينما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠)، والنسائي (٣٩٤٣)، وابن ماجه (١٩٧١)، وأحمد (٦/ ١٤٤) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ [النساء:١٢٩]. فما هو العدل المأمور به؟

العدل المأمور به: هو المستطاع، وذلك بالنفقة والكسوة والسُكنى والمبيت بين الزوجات، هذه كلها يجب العدل فيها، ولا يجوز للزوج أنه يحيف في شيءٍ منها؛ لا في الكسوة، ولا في المبيت، ولا في السُكنى، هذا هو العدل الذي أوجبه الله على من أراد تعدد الزوجات، وأمر من لا يستطيع تحقيقه أن يكتفي بزوجة واحدة.

أما العدل الذي لا يملكه الإنسان، فهذا لا يُكلف الله به، وهو محبة القلب وميل القلب، فقد يكون عند الإنسان امرأتان أو أكثر، فيحب إحداهن أكثر من عيرها، وهذا ليس للإنسان فيه حيلة.

وقد كان صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يحب عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أكثر من غيرها، لكنه لا يحيف معها، بل كان يقسم لها مثل زوجاته، ويبيت عندها مثل زوجاته، ويقسم لها من النفقة والكسوة والسكنى مثل زوجاته، مع أنه يحبها أكثر من غيرها، ولهذا قال: **«اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ»** يعني: في الأشياء التي يستطيع، **«فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا لَا أَمْلِكُ»** وهو المحبة القلبية.

فلا يمكن للإنسان أن يحب زوجاته على حدٍّ سواء؛ لأن هذا ليس باستطاعته، هذا بيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فلا يُكلَّف بهذا العدل.

ولكن لا يحمله حب إحداهن على أن يميل إليها فيزيدها على غيرها، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشِقُّهُ**

مَائِلٌ»[١]. يعني: مال إلى إحداهما بزيادة النفقة أو الكسوة أو السكنى أو المبيت، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ [النساء:١٢٩]، فلا يجوز له أن يميل مع من يحب من نسائه ويُعرض عن الأخريات.

أما المحبة التي في القلب فلا أحد يستطيع أن يعدل بين النساء فيها، ولو حرص الإنسان على العدل فيها ما استطاع، كذلك شهوة الجِماع بهن لا يستطيع أنه يعدل فيها؛ لأن هذا ميلٌ نفسي، فقد يميل إلى إحداهن ويشتهيها أكثر من غيرها، فلا يُكلَّف أنه يشتهي الأخريات مثلها؛ لأن هذا ليس باستطاعته.

وَلَمْ يَزَلِ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ وَالرُّحَمَاءُ مِنَ النَّاسِ يَشْفَعُونَ لِلْعُشَّاقِ إِلَى مَعْشُوقِهِمُ الْجَائِزِ وَصْلُهُنَّ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ فِعْلِ أَبِي بَكْرٍ وَعُثْمَانَ.

وَكَذَلِكَ عَلِيٌّ أُتِيَ بِغُلَامٍ مِنَ الْعَرَبِ وُجِدَ فِي دَارِ قَوْمٍ بِاللَّيْلِ، فَقَالَ لَهُ: مَا قِصَّتُكَ؟ قَالَ: لَسْتُ بِسَارِقٍ، وَلَكِنِّي أَصْدُقُكَ:

تَعَلَّقْتُ فِي دَارِ الرِّيَاحِيِّ خُودَةً ... يَذِلُّ لَهَا مِنْ حُسْنِ مَنْظَرِهَا الْبَدْرُ
لَهَا فِي بَنَاتِ الرُّومِ حُسْنٌ وَمَنْظَرُ ... إِذَا افْتَخَرَتْ بِالْحُسْنِ خَافَتْهَا الْفَخْرُ
فَلَمَّا طَرَقْتُ الدَّارَ مِنْ حَرِّ مُهْجَةٍ ... أَبِيتُ وَفِيهَا مِنْ تَوَقُّدِهَا الْجَمْرُ
تَبَادَرَ أَهْلُ الدَّارِ بِي ثُمَّ صَيَّحُوا ... هُوَ اللِّصُّ مَحْتُومًا لَهُ الْقَتْلُ وَالْأَسْرُ

فَلَمَّا سَمِعَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شِعْرَهُ رَقَّ لَهُ، وَقَالَ لِلْمُهَلَّبِ بْنِ رَبَاحٍ: اسْمَحْ لَهُ بِهَا، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، سَلْهُ مَنْ هُوَ؟ فَقَالَ: النَّهَّاسُ بْنُ عُيَيْنَةَ، فَقَالَ: خُذْهَا فَهِيَ لَكَ[(١)].

وَاشْتَرَى مُعَاوِيَةُ جَارِيَةً، فَأُعْجِبَ بِهَا إِعْجَابًا شَدِيدًا، فَسَمِعَهَا يَوْمًا تُنْشِدُ أَبْيَاتًا مِنْهَا:

وَفَارَقْتُهُ كَالْغُصْنِ يَهْتَزُّ فِي الثَّرَى ... طَرِيرًا وَسِيمًا بَعْدَ مَا طَرَّ شَارِبُهُ

فَسَأَلَهَا، فَأَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا تُحِبُّ سَيِّدَهَا، فَرَدَّهَا إِلَيْهِ وَفِي قَلْبِهِ مِنْهَا[(٢)].

وَذَكَرَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي «رَبِيعِهِ»: أَنَّ زُبَيْدَةَ قَرَأَتْ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ عَلَى حَائِطٍ:

أَمَا فِي عِبَادِ اللَّهِ أَوْ فِي إِمَائِهِ ... كَرِيمٌ يُجَلِّي الْهَمَّ عَنْ ذَاهِبِ الْعَقْلِ
لَهُ مُقْلَةٌ أَمَّا الْمَآقِي قَرِيحَةٌ ... وَأَمَّا الْحَشَا فَالنَّارُ مِنْهُ عَلَى رِجْلِ

---

(١) أخرجه الخرائطي في اعتلال القلوب (٥٢٣).

(٢) لم أقف عليه مسندًا.

فَنَذَرَتْ أَنْ تَحْتَالَ لِقَائِلِهَا إِنْ عَرَفَتْهُ حَتَّى تَجْمَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ يُحِبُّهُ، فَبَيْنَا هِيَ بِالْمُزْدَلِفَةِ إِذْ سَمِعَتْ مَنْ يُنْشِدُهُمَا، فَطَلَبَتْهُ، فَزَعَمَ أَنَّهُ قَالَهُمَا فِي ابْنَةِ عَمٍّ لَهُ نَذَرَ أَهْلُهَا أَنْ لَا يُزَوِّجُوهَا مِنْهُ، فَوَجَّهَتْ إِلَى الْحَيِّ، وَمَا زَالَتْ تَبْذُلُ لَهُمُ الْمَالَ حَتَّى زَوَّجُوهَا مِنْهُ، وَإِذَا الْمَرْأَةُ أَعْشَقُ لَهُ مِنْهُ لَهَا. فَكَانَتْ تَعُدُّهُ مِنْ أَعْظَمِ حَسَنَاتِهَا، وَتَقُولُ: مَا أَنَا بِشَيْءٍ أَسَرَّ مِنِّي مِنْ جَمْعِي بَيْنَ ذَلِكَ الْفَتَى وَالْفَتَاةِ(١).

وَقَالَ الْخَرَائِطِيُّ: وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ غُلَامٌ وَجَارِيَةٌ يَتَحَابَّانِ، فَكَتَبَ الْغُلَامُ إِلَيْهَا يَوْمًا:

وَلَقَدْ رَأَيْتُكِ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّمَا ... عَاطَيْتِنِي مِنْ رِيقِ فِيكِ الْبَارِدِ
وَكَأَنَّ كَفَّكِ فِي يَدِي وَكَأَنَّنَا ... بِتْنَا جَمِيعًا فِي فِرَاشٍ وَاحِدِ
فَطَفِقْتُ يَوْمِي كُلَّهُ مُتَرَاقِدًا ... لِأَرَاكِ فِي نَوْمِي وَلَسْتُ بِرَاقِدِ

فَأَجَابَتْهُ الْجَارِيَةُ:

خَيْرًا رَأَيْتَ وَكُلَّ مَا أَبْصَرْتَهُ ... سَتَنَالُهُ مِنِّي بِرَغْمِ الْحَاسِدِ
إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مُعَانِقِي ... فَتَبِيتُ مِنِّي فَوْقَ ثَدْيٍ نَاهِدِ
وَأَرَاكَ بَيْنَ خَلَاخِلِي وَدَمَالِجِي ... وَأَرَاكَ فَوْقَ تَرَائِبِي وَمَجَاسِدِي

فَبَلَغَ سُلَيْمَانَ ذَلِكَ فَأَنْكَحَهَا الْغُلَامَ وَأَحْسَنَ حَالَهُمَا عَلَى فَرْطِ غَيْرَتِهِ.

وَقَالَ جَامِعُ بْنُ مُرْخِيَةَ:

سَأَلْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ مُفْتِيَ الـ ... ـمَدِينَةِ هَلْ فِي حُبِّ دَهْمَاءَ مِنْ وِزْرِ
فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ إِنَّمَا ... تُلَامُ عَلَى مَا تَسْتَطِيعُ مِنَ الْأَمْرِ

فَقَالَ سَعِيدٌ: وَاللهِ مَا سَأَلَنِي أَحَدٌ عَنْ هَذَا، وَلَوْ سَأَلَنِي مَا كُنْتُ أُجِيبُ إِلَّا

---

(١) يُنظر: ربيع الأبرار (٢/٤٢٨).

بِهِ(١).

فَعِشْقُ النِّسَاءِ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

عِشْقٌ هُوَ قُرْبَةٌ وَطَاعَةٌ، وَهُوَ عِشْقُ الرَّجُلِ امْرَأَتِهِ وَجَارِيَتِهِ. وَهَذَا الْعِشْقُ نَافِعٌ؛ فَإِنَّهُ أَدْعَى إِلَى الْمَقَاصِدِ الَّتِي شَرَعَ اللَّهُ لَهَا النِّكَاحَ، وَأَكَفُّ لِلْبَصَرِ وَالْقَلْبِ عَنِ التَّطَلُّعِ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ، وَلِهَذَا يُحْمَدُ هَذَا الْعَاشِقُ عِنْدَ اللَّهِ، وَعِنْدَ النَّاسِ.

وَعِشْقٌ هُوَ مَقْتٌ مِنَ اللَّهِ، وَبُعْدٌ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَهُوَ أَضَرُّ شَيْءٍ عَلَى الْعَبْدِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ. وَهُوَ عِشْقُ الْمُرْدَانِ، فَمَا ابْتُلِيَ بِهِ إِلَّا مَنْ سَقَطَ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ، وَطُرِدَ عَنْ بَابِهِ، وَأُبْعِدَ قَلْبُهُ عَنْهُ. وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْحُجُبِ الْقَاطِعَةِ عَنِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِذَا سَقَطَ الْعَبْدُ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ، ابْتَلَاهُ بِمَحَبَّةِ الْمُرْدَانِ.

وَهَذِهِ الْمَحَبَّةُ هِيَ الَّتِي جَلَبَتْ عَلَى قَوْمِ لُوطٍ مَا جَلَبَتْ، فَمَا أُتُوا إِلَّا مِنْ هَذَا الْعِشْقِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢].

وَدَوَاءُ هَذَا الدَّاءِ: الِاسْتِعَانَةُ بِمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ، وَصِدْقُ اللَّجَأِ إِلَيْهِ، وَالِاشْتِغَالُ بِذِكْرِهِ، وَالتَّعَوُّضُ بِحُبِّهِ وَقُرْبِهِ، وَالتَّفَكُّرُ فِي الْأَلَمِ الَّذِي يُعْقِبُهُ هَذَا الْعِشْقُ، وَاللَّذَّةُ الَّتِي تَفُوتُهُ بِهِ، فَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ فَوَاتُ أَعْظَمِ مَحْبُوبٍ، وَحُصُولُ أَعْظَمِ مَكْرُوهٍ. فَإِذَا أَقْدَمَتْ نَفْسُهُ عَلَى هَذَا وَآثَرَتْهُ، فَلْيُكَبِّرْ عَلَيْهَا تَكْبِيرَهُ عَلَى الْجِنَازَةِ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ الْبَلَاءَ قَدْ أَحَاطَ بِهِ.

وَالْقِسْمُ الثَّالِثُ مِنَ الْعِشْقِ: عِشْقٌ مُبَاحٌ لَا يُمْلَكُ، كَعِشْقِ مَنْ وُصِفَتْ لَهُ امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ، أَوْ رَآهَا فَجْأَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ، فَأَوْرَثَهُ ذَلِكَ عِشْقًا لَهَا، وَلَمْ يُحْدِثْ لَهُ

---

(١) يُنظر: الموشى (الظرف والظرفاء) (ص٩١).

ذَلِكَ الْعِشْقُ مَعْصِيَةً، فَهَذَا لَا يُمْلَكُ وَلَا يُعَاقَبُ عَلَيْهِ. وَالْأَنْفَعُ لَهُ مُدَافَعَتُهُ، وَالاِشْتِغَالُ بِمَا هُوَ أَنْفَعُ لَهُ مِنْهُ. وَالوَاجِبُ عَلَى هَذَا أَنْ يَكْتِمَ وَيعِفَّ وَيَصْبِرَ عَلَى بَلْوَاهُ، فَيُثِيبُهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ، وَيُعَوِّضُهُ عَلَى صَبْرِهِ لِلَّهِ وَعِفَّتِهِ، وَتَرْكِهِ طَاعَةَ هَوَاهُ، وَإِيثَارِ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَهُ.

الشرح:

الإنسان قد يعشق امرأة ويطلبها للزواج، فإن كان أهلًا لها ينبغي لأهل الخير أن يتوسطوا له ويساعدوه على تحصيلها، من أجل أن يتجنب الحرام.

ولكن ما هو سبب العشق؟ سببه النظر، فلو أنه غضَّ بصره كما أمر الله جَلَّوَعَلَا ما حصل له هذا المرض، فإذا أُصيب بهذا المرض فليس له علاج إلا أنه يحصل على هذا المحبوب، وكونه يحصل عليه بالطريقة الشرعية هذا أمر محمود، وهو خير له من أن يحصل عليه بالطرق المحرمة، أو يبقى محرومًا يتألم طول حياته. لكن الأولى له أن يغض بصره ليسلم من الوقوع في هذا العشق.

والسعي بين المتحابين من الرجال والنساء بالزواج الشرعي هذا عملٌ طيب، وهو أفضل من أن يبقى العاشق محرومًا يتألم طوال حياته، أو يغلبه شيطانه فيقع في الحرام والعياذ بالله؛ لأن العشق هذا مرض ابتُلي به، فلابد من السعي في علاجه بالحلال، بأن يُسعى في تزويج أحدهما من الآخر

ولكن على الإنسان أن يتجنب أسباب الوقوع في هذا الداء الذي يكاد يقضي على حياته، أو يكدر عليه عيشه، وأهم هذه الأسباب أن يغض بصره، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ

لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

ومن أسباب الوقوع في هذا المرض أيضًا: مخالطة الرجال للنساء، فهما أمران حذَّر منهما الشرع؛ حذَّر من إطلاق البصر، وحذَّر من خلوة الرجل بالمرأة، ومن مخالطة الرجال للنساء، كل ذلك سدًّا لذرائع الشرِّ.

وقد يجرُّ إطلاق البصر إلى فتنة أعظم، وهي الابتلاء بالمردان والعياذ بالله، فيُوقع صاحبه في اللواط الذي هو أشد من الزنا.

فعلى المسلم أن يغض بصره عن كل ما حرَّم الله؛ لئلا يجره إلى السوء وإلى الشرِّ، فما وقع الناس في جريمة اللواط إلا بسبب النظر وتعلق القلب بالمنظور إليه، ولا وقعوا في الزنا إلا بسبب النظر إلى النساء وتعلق قلب الناظر إليهن، وعلاج هذا الداء هو ما أرشد الله إليه: غض البصر.

ومن أحسَّ من نفسه شهوةٍ قوية فعليه أن يبادر بالزواج، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ**»(١). فالعلاج بعد غض البصر الزواج.

وقوله: (**وَهَذِهِ الْمَحَبَّةُ هِيَ الَّتِي جَلَبَتْ عَلَى قَوْمِ لُوطٍ مَا جَلَبَتْ، فَمَا أُتُوا إِلَّا مِنْ هَذَا الْعِشْقِ**)؛ لأن التعلق بالذكور هذا خلاف الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهذا لا يوجد في البهائم أبدًا، وإنما وقع في بني آدم؛ لأن الإنسان -كما قال الله جَلَّ وَعَلَا-: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فقد يفعل

(١) تقدم تخريجه (ص٨٢٤).

أشياءً تأنف البهائم من فعلها: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤]، فاللوطية أحط من البهائم؛ لأن البهائم لا تفعل هذا.

وقوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ هذا قسم من الله جَلَّ وَعَلَا بحياة نبيه محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، والله جَلَّ وَعَلَا يحلف بما شاء من خلقه، أما المخلوق فإنه لا يُقسم إلا بالله كما هو معلوم.

والشاهد في قوله: ﴿لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾، فدلَّ على أن الذي أوقعهم في اللواط هو السُكر والعياذ بالله؛ سُكر عقول وشهوة، وليس سكر شراب.

وهذا الابتلاء ليس له علاج، إلَّا أن يتوب الإنسان إلى الله، ويُكثر من ذكر الله، ويمسك بصره، ويتجنب مخالطة المردان، ومواطن الفتنة.

وقوله: (**فَإِذَا أَقْدَمَتْ نَفْسُهُ عَلَى هَذَا وَآثَرَتْهُ، فَلْيُكَبِّرْ عَلَيهَا تَكْبِيرَهُ عَلَى الْجِنَازَةِ**)؛ فمن أصر على جريمة اللواط فهو كالميت، ولو كان حيًّا في بدنه، لكنه مات من الإنسانية، فأصبح لا خير فيه، وكونه يموت بدنه أحسن من أنه يبقى حيًّا على هذه الحالة.

وقوله: (**عِشْقٌ مُبَاحٌ لَا يُمْلَكُ، كَعِشْقِ مَنْ وُصِفَتْ لَهُ امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ، أَوْ رَآهَا فَجْأَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ**)، كالعشق الذي يأتي من وصف الناس لها، أو أنه رآها وهي صغيرة قبل أن تحتجب، فهذا لا يُذَّم على تعلقه بها ورغبته في الزواج بها.

فَصْلٌ

وَالْعُشَّاقُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

مِنْهُمْ: مَنْ يَعْشَقُ الْجَمَالَ الْمُطْلَقَ.

وَمِنْهُمْ: مَنْ يَعْشَقُ الْجَمَالَ الْمُقَيَّدَ، سَوَاءٌ طَمِعَ بِوِصَالِهِ أَوْ لَمْ يَطْمَعْ.

وَمِنْهُمْ: مَنْ لَا يَعْشَقُ إِلَّا مَنْ يَطْمَعُ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

وَبَيْنَ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ تَفَاوُتٌ فِي الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ. فَعَاشِقُ الْجَمَالِ الْمُطْلَقِ قَلْبُهُ يَهِيمُ فِي كُلِّ وَادٍ، وَلَهُ فِي كُلِّ صُورَةٍ جَمِيلَةٍ مُرَادٌ!

يَوْمًا بِحَزْوَى، وَيَوْمًا بِالْعَذِيبِ وَيَوْ ... مًا بِالعَقِيقِ وَيَوْمًا بِالْخُلَيْصَاءِ

وَتَارَةً تَنْتَحِي نَجْدًا وَآوِنَةً ... شِعْبَ الْعَقِيقِ وَطَوْرًا قَصْرَ تَيْمَاءَ

فَهَذَا عِشْقُهُ أَوْسَعُ، وَلَكِنَّهُ غَيْرُ ثَابِتٍ كَثِيرُ التَّنَقُّلِ:

يَهِيمُ بِهَذَا ثُمَّ يَعْشَقُ غَيْرَهُ ... وَيَسْلَاهُمْ مِنْ وَقْتِهِ حِينَ يُصْبِحُ

وَعَاشِقُ الْجَمَالِ الْمُقَيَّدِ أَثْبَتُ عَلَى مَعْشُوقِهِ، وَأَدْوَمُ مَحَبَّةً لَهُ، وَمَحَبَّتُهُ أَقْوَى مِنْ مَحَبَّةِ الْأَوَّلِ، لِاجْتِمَاعِهِمَا فِي وَاحِدٍ، وتقسُّم الأولى، وَلَكِنْ يُضْعِفُهُمَا عَدَمُ الطَّمَعِ فِي الْوِصَالِ. وَعَاشِقُ الْجَمَالِ الَّذِي يُطْمَعُ فِي وِصَالِهِ أَعْقَلُ الْعُشَّاقِ وَأَعْرَفُهُمْ، وَحُبُّهُ أَقْوَى؛ لِأَنَّ الطَّمَعَ يَمُدُّهُ وَيُقَوِّيهِ.

الشرح:

هذا يعني أنه يجول ولا يستقر في مكان؛ لأنه يتطلب الجمال في كل شيء، وفي كل أحد، فلا يستقر أبدًا، دائمًا يهيم بحثًا عن مراده.

فَصْلٌ

وَأَمَّا حَدِيثُ: «مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ»، فَهَذَا يَرْوِيهِ سُوَيْدُ بْنُ سَعِيدٍ، وَقَدْ أَنْكَرَهُ حُفَّاظُ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِ.

قَالَ ابْنُ عَدِيٍّ فِي كَامِلِهِ: هَذَا الْحَدِيثُ أَحَدُ مَا أُنْكِرَ عَلَى سُوَيْدٍ[١].

وَكَذَا ذَكَرَهُ الْبَيْهَقِيُّ، وَابْنُ طَاهِرٍ فِي الذَّخِيرَةِ وَالتَّذْكِرَةِ، وَأَبُو الْفَرَجِ ابْنُ الْجَوْزِيِّ، وَعَدَّهُ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ[٢].

وَأَنْكَرَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَاكِمُ عَلَى تَسَاهُلِهِ، وَقَالَ: أَنَا أَتَعَجَّبُ مِنْهُ[٣].

قُلْتُ: وَالصَّوَابُ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَوْقُوفًا عَلَيْهِ، فَغَلِطَ سُوَيْدٌ فِي رَفْعِهِ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ خَلَفِ بْنِ الْمَرْزُبَانِ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ الْأَزْرَقِ، عَنْ سُوَيْدٍ بِهِ، فَعَاتَبْتُهُ عَلَى ذَلِكَ، فَأَسْقَطَ ذِكْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ يُسْأَلُ عَنْهُ فَلَا يَرْفَعُهُ.

---

(١) ساق ابن عدي في الكامل (٤/٤٨٩) عددًا من أحاديث سويد بن سعيد، ليس هذا منها، ثم قال: «ولسويد غير ما ذكرت من الحديث، عن قَتادَة وعن غيره، بعضها مستقيمة وبعضها لا يتابعه أحد عليها، وإنما يخلط على قتادة ويأتي بأحاديث عنه لا يأتي به أحد عنه غيره، وَهو إلى الضعف أقرب».

(٢) يُنظر: مختصر خلافيات البيهقي (١/١٩٧)، وتذكرة الحفاظ (ص٣٤٠)، ومعرفة التذكرة (ص٢٢٤). ولم أقف عليه في المطبوع من الموضوعات. وقد أورده في العلل المتناهية (٢/٢٨٦) من طريق، وذكر كلام الحفاظ في تضعيفه، ثم قال: «هذا حديث لا يصح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

(٣) في تاريخ نيسابور كما في زاد المعاد (٤/٢٥٥).

وَلَا يُشْبِهُ هَذَا كَلَامَ النُّبُوَّةِ.

وَأَمَّا رِوَايَةُ الْخَطِيبِ لَهُ عَنِ الزُّهْرِيِّ: «حَدَّثَنَا الْمُعَافَى بْنُ زَكَرِيَّا، حَدَّثَنَا قُطْبَةُ بْنُ الْفَضْلِ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْرُوقٍ، حَدَّثَنَا سُوَيْدٌ، حَدَّثَنَا ابْنُ مُسْهِرٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ مَرْفُوعًا»(١)؛ فَمِنْ أَبْيَنِ الْخَطَأِ. وَلَا يَحْتَمِلُ هِشَامٌ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ مِثْلَ هَذَا عِنْدَ مَنْ شَمَّ أَدْنَى رَائِحَةٍ مِنَ الْحَدِيثِ.

وَنَحْنُ نُشْهِدُ اللَّهَ أَنَّ عَائِشَةَ مَا حَدَّثَتْ بِهَذَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَطُّ، وَلَا حَدَّثَ بِهِ عَنْهَا عُرْوَةُ، وَلَا حَدَّثَ بِهِ عَنْهُ هِشَامٌ قَطُّ.

وَأَمَّا حَدِيثُ ابْنِ الْمَاجِشُونِ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا؛ فَكَذِبٌ عَلَى ابْنِ الْمَاجِشُونِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُحَدِّثْ بِهَذَا، وَلَا حَدَّثَ بِهِ عَنْهُ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ، وَإِنَّمَا هَذَا مِنْ تَرْكِيبِ بَعْضِ الْوَضَّاعِينَ.

وَيَا سُبْحَانَ اللَّهِ! كَيْفَ يَحْتَمِلُ هَذَا الْإِسْنَادُ مِثْلَ هَذَا الْمَتْنِ؟ فَقَبَّحَ اللَّهُ الْوَضَّاعِينَ!.

وَقَدْ ذَكَرَهُ أَبُو الْفَرَجِ مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ سَهْلٍ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ عِيسَى مِنْ وَلَدِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ مَرْفُوعًا(٢).

وَهَذَا غَلَطٌ قَبِيحٌ، فَإِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ جَعْفَرٍ هَذَا هُوَ الْخَرَائِطِيُّ، وَوَفَاتُهُ سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ وَثَلَاثِ مِائَةٍ، فَمُحَالٌ أَنْ يُدْرِكَ شَيْخَهُ يَعْقُوبَ ابْنَ أَبِي نَجِيحٍ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ رَوَاهُ فِي كِتَابِ الِاعْتِلَالِ، عَنْ يَعْقُوبَ هَذَا، عَنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ، عَنْ

---

(١) يُنظر: تاريخ بغداد (١٢/ ٤٧٥).

(٢) يُنظر: العلل المتناهية (٢/ ٢٨٥، ٢٨٦)، وذم الهوى (ص٣٢٦).

عَبْدِ الْعَزِيزِ، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ.

وَالْخَرَائِطِيُّ هَذَا مَشْهُورٌ بِالضَّعْفِ فِي الرِّوَايَةِ، ذَكَرَهُ أَبُو الْفَرَجِ فِي كِتَابِ الضُّعَفَاءِ(١).

وَكَلَامُ حُفَّاظِ الْإِسْلَامِ فِي إِنْكَارِ هَذَا الْحَدِيثِ هُوَ الْمِيزَانُ، وَإِلَيْهِمْ يُرْجَعُ فِي هَذَا الشَّأْنِ. وَمَا صَحَّحَهُ وَلَا حَسَّنَهُ أَحَدٌ يُعَوَّلُ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ عَلَيْهِ، وَيُرْجَعُ فِي التَّصْحِيحِ إِلَيْهِ، وَلَا مَنْ عَادَتُهُ التَّسَاهُلُ وَالتَّسَامُحُ، فَإِنَّهُ لَمْ يُطَنِّفْ نَفْسَهُ لَهُ. وَيَكْفِي أَنَّ ابْنَ طَاهِرٍ -الَّذِي يَتَسَاهَلُ فِي أَحَادِيثِ التَّصَوُّفِ، وَيَرْوِي مِنْهَا الْغَثَّ وَالسَّمِينَ وَالْمُنْخَنِقَةَ وَالْمَوْقُوذَةَ- قَدْ أَنْكَرَهُ، وَحَكَمَ بِبُطْلَانِهِ.

نَعَمِ، ابْنُ عَبَّاسٍ غَيْرُ مُسْتَنْكَرٍ ذَلِكَ عَنْهُ. وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو مُحَمَّدٍ ابْنُ حَزْمٍ عَنْهُ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْمَيِّتِ عِشْقًا، فَقَالَ: قَتِيلُ الْهَوَى، لَا عَقْلَ وَلَا قَوَدَ! (٢)

وَرُفِعَ إِلَيْهِ بِعَرَفَاتٍ شَابٌّ قَدْ صَارَ كَالْفَرْخِ، فَقَالَ: مَا شَأْنُهُ؟ قَالُوا: الْعِشْقُ، فَجَعَلَ عَامَّةَ يَوْمِهِ يَسْتَعِيذُ مِنَ الْعِشْقِ. فَهَذَا نَفْسُ مَنْ قَالَ: مَنْ عَشِقَ وَعَفَّ وَكَتَمَ وَمَاتَ، فَهُوَ شَهِيدٌ(٣).

وَمِمَّا يُوَضِّحُ ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَدَّ الشُّهَدَاءَ فِي الصَّحِيحِ، فَذَكَرَ الْمَقْتُولَ فِي الْجِهَادِ، وَالْمَبْطُونَ، وَالْحَرِقَ، وَالنُّفَسَاءَ يَقْتُلُهَا وَلَدُهَا، وَالْغَرِقَ،

---

(١) لم يذكره ابن الجوزي في الضعفاء. وقد تعقبه الألباني في السلسلة الضعيفة (٣/ ٤٦، ٤٧)، وقال: «أما الخرائطي فلا أعرف أحدًا من المتقدمين رماه بشيء من الضعف».

(٢) يُنظر: طوق الحمامة (ص٩٣).

(٣) تقدم تخريجه (ص٧٤٣).

وَصَاحِبَ ذَاتِ الْجَنْبِ(١)، وَلَمْ يَذْكُرْ مِنْهُمْ مَنْ يَقْتُلُهُ الْعِشْقُ.

وَحَسْبُ قَتِيلِ الْعِشْقِ أَنْ يَصِحَّ لَهُ هَذَا الْأَثَرُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ(٢)، عَلَى أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ تَحْتَهُ حَتَّى يَصْبِرَ لِلَّهِ، وَيَعِفَّ لِلَّهِ، وَيَكْتُمَ لِلَّهِ. وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى مَعْشُوقِهِ، وَإِيثَارِ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَخَوْفَهُ وَرِضَاهُ.

وَهَذَا أَحَقُّ مَنْ دَخَلَ تَحْتَ قَوْلِهِ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠، ٤١]. وَتَحْتَ قَوْلِهِ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦].

فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ، رَبَّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ، أَنْ يَجْعَلَنَا مِمَّنْ آثَرَ حُبَّهُ عَلَى هَوَاهُ، وَابْتَغَى بِذَلِكَ قُرْبَهُ وَرِضَاهُ.

الشرح:

الشاهد: أن قوله: «**مَنْ عَشِقَ وَعَفَّ وَكَتَمَ وَمَاتَ، فَهُوَ شَهِيدٌ**»، هذا الحديثُ لم يثبت مرفوعًا عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) كما في حديث جابر بن عتيك. أخرجه مالك في الموطأ رواية يحيى الليثي (١/ ٢٣٣)، ومن طريقه أحمد (٥/ ٤٤٦)، وأبو داود (٣١١١)، والنسائي (١٨٤٦).

(٢) قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في زاد المعاد (٤/ ٢٥٥): «وفي صحته موقوفًا على ابن عباس نظر».

قائمة المصادر والمراجع

١- اختلاف الأئمة العلماء، يحيى بن هبيرة بن محمد أبو المظفر الشيباني، تحقيق: السيد يوسف أحمد، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ.

٢- اعتلال القلوب، أبو بكر محمد بن جعفر الخرائطي، تحقيق: حمدي الدمرداش، مكتبة: نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط٢، ١٤٢١هـ.

٣- الإشراف على نكت مسائل الخلاف، القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي، تحقيق: الحبيب بن طاهر، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٠هـ.

٤- إصلاح المنطق، ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، تحقيق: محمد مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٣ هـ.

٥- إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض بن موسى بن عياض أبو الفضل اليحصبي، تحقيق: د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط١، ١٤١٩ هـ.

٦- الإيمان، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، عمان، الأردن، ط٥، ١٤١٦هـ.

٧- الأخلاق والسير في مداواة النفوس، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، دار الآفاق الجديدة - بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ.

٨- أدب الدنيا والدين، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب الماوردي، دار مكتبة الحياة، طبعة ١٩٨٦م.

٩- الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة أبو عبد الله

البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٣، ١٤٠٩هـ.

١٠- الأسماء والصفات، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي، جدة - المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٣ هـ.

١١- أمالي ابن سمعون الواعظ، أبو الحسين محمد بن أحمد بن إسماعيل البغدادي، تحقيق: د. عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٣ هـ.

١٢- الأمالي في لغة العرب، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٣٩٨هـ.

١٣- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا، تحقيق: صلاح بن عايض الشلاحي، مكتبة الغرباء الأثرية، السعودية، ط١، ١٤١٨هـ.

١٤- أمراض القلوب وشفاؤها، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، المطبعة السلفية، القاهرة، ط٢، ١٣٩٩هـ.

١٥- الأنوار ومحاسن الأشعار، أبو الحسن علي بن محمد بن المطهر الشمشاطي، تحقيق: د. السيد محمد يوسف، مطبعة حكومة الكويت، ١٣٩٧هـ.

١٦- الآحاد والمثاني، أحمد بن عمرو بن الضحاك أبو بكر ابن أبي عاصم، تحقيق: د. باسم فيصل أحمد الجوابرة، دار الراية - الرياض، ط١، ١٤١١هـ.

١٧- البدر المنير في تخريج الأحاديث والأثار الواقعة في الشرح الكبير، ابن

الملقن سراج الدين عمر بن علي بن أحمد الشافعي، تحقيق: مصطفى أبو الغيط وآخرون، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض-السعودية، ط ١، ١٤٢٥هـ.

١٨- البدع والنهي عنها، أبو عبد الله محمد بن وضاح، تحقيق: عمرو عبد المنعم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة - مصر، ط ١، ١٤١٦هـ.

١٩- البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي علي بن محمد بن العباس، تحقيق: د. وداد القاضي، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ.

٢٠- بهجة المجالس وأنس المجالس، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي، تحقيق: محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

٢١- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٠٧هـ.

٢٢- التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: السيد هاشم الندوي، دار الفكر، بيروت - لبنان.

٢٣- تاريخ بغداد، أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٧ هـ.

٢٤- تاريخ مدينة دمشق، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي، تحقيق: محب الدين عمر بن غرامة، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٩٩٥م.

٢٥- تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

٢٦- التبيان في أقسام القرآن، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت - لبنان.

٢٧- التدوين في أخبار قزوين، عبد الكريم بن محمد الرافعي القزويني، تحقيق: عزيز الله العطاري، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٩٨٧م.

٢٨- تذكرة الحفاظ، أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١.

٢٩- تعظيم قدر الصلاة، محمد بن نصر بن الحجاج المروزي أبو عبد الله، تحقيق: د. عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٦هـ.

٣٠- تفسير ابن أبي حاتم (تفسير القرآن العظيم)، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، ط٣، ١٤١٩هـ.

٣١- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ.

٣٢- تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، محمد بن جرير بن يزيد أبو جعفر الطبري، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤٠٥هـ.

٣٣- التلخيص الحبير في أحاديث الرافعي الكبير، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، تحقيق: السيد عبد الله هاشم، طبعة ١٣٨٤ هـ.

٣٤- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن

محمد بن عبد البر، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، طبعة ١٣٨٧هـ.

٣٥- تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا محي الدين بن شرف النووي، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٦هـ.

٣٦- التوبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، مصر.

٣٧- جمهرة الأمثال، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد العسكري، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤٠٨هـ.

٣٨- الحاوي الكبير (شرح مختصر المزني)، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق: علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٩هـ.

٣٩- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق أبو نعيم الأصبهاني، مكتبة السعادة، مصر، طبعة ١٣٩٤هـ.

٤٠- الدعاء، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ.

٤١- الدعوات الكبير، أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر البيهقي، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر، غراس للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ٢٠٠٩ م.

٤٢- دقائق التفسير، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، تحقيق: د. محمد السيد الجليند، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ط٢، ١٤٠٤هـ.

٤٣- دلائل النبوة، أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر البيهقي، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية - دار الريان للتراث، ط١، ١٤٠٨هـ.
٤٤- ديوان ابن الفراض، دار صادر، بيروت.
٤٥- ديوان ابن نباتة المصري، شركة علاء الدين للطباعة والتجليد، بيروت.
٤٦- ديوان أبي الشيص الخزاعي، صنعة عبد الله الجبوري، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.
٤٧- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة، ط٤.
٤٨- ديوان أبي نواس برواية الصولي، تحقيق: د. بهجت عبد الغفور الحديثي، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي - الإمارات، ط١، ١٤٣١هـ.
٤٩- ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، تحقيق: د. محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، القاهرة.
٥٠- ديوان الإمام الشافعي (الجوهر النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس)، إعداد وتعليق: محمد إبراهيم سليم، مكتبة ابن سينا، القاهرة.
٥١- ديوان الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك، تحقيق: مجاهد مصطفى بهجت، مجلة البيان، ١٤٣٢هـ.
٥٢- ديوان الإمام علي بن أبي طالب، جمع وترتيب: عبد العزيز الكرم، ط١، ١٤٠٩هـ.
٥٣- ديوان البحتري، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، القاهرة - مصر، ط٣.

٥٤- ديوان الخنساء، تحقيق : د. إبراهيم عوضين، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٨٥م.

٥٥- ديوان العباس بن الأحنف، تحقيق: عاتكة الخزرجي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٧٣هـ.

٥٦- ديوان القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني، تحقيق: أحمد بدوي، وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٦١م.

٥٧- ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٣هـ.

٥٨- ديوان الوزير محمد بن عبد الملك الزيات، تحقيق: د. جميل سعيد، المجمع الثقافي، أبو ظبي - الإمارات، ١٤١٠هـ.

٥٩- ديوان بشار بن برد، تحقيق: محمد الطاهر عاشور، وزارة الثقافة، الجزائر، ٢٠٠٧م.

٦٠- ديوان ديك الجن، تحقيق: د. أحمد مطلوب - عبد الله الجبوري، دار الثقافة، بيروت - لبنان.

٦١- ديوان صفي الدين الحلي، تنسيق وفهرسة: د. الشويحي، دار صادر، بيروت - لبنان.

٦٢- ديوان كثير عزة، جمع وشرح: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت - لبنان، ١٣٩١هـ.

٦٣- ديوان مجنون ليلى، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار مصر للطباعة، القاهرة.

٦٤- ذم اللواط، أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري، تحقيق: مجدي

السيد إبراهيم، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة.

٦٥- ذم الملاهي، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا، تحقيق: عمرو عبد المنعم سليم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة- مصر، مكتبة العلم، جدة - السعودية، ط ١، **١٤١٦**هـ.

٦٦- ذم الهوى، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد.

٦٧- ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، جار الله الزمخشري، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط ١، **١٤١٢**هـ.

٦٨- الرضا عن الله بقضائه، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا، تحقيق: ضياء الحسن السلفي، الدار السلفية، بومباي، ط ١، **١٤١٠**هـ.

٦٩- الرقة والبكاء، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير رمضان، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، ط**٣**، **١٤١٩**هـ.

٧٠- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، **١٤٠٣**هـ.

٧١- رؤية الله، علي بن عمر بن أحمد الدارقطني، تحقيق: مبروك إسماعيل مبروك، مكتبة القرآن، القاهرة.

٧٢- زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ١، **١٤٢٢**هـ.

٧٣- زاد المعاد ي هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس

الدين ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط٢٧، ١٤١٥هـ.

٧٤- الزهد، أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ.

٧٥- الزهد، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير أبو داود السجستاني، تحقيق: أبو تميم ياسر بن ابراهيم وآخرون، دار المشكاة للنشر والتوزيع، حلوان، مصر، ط١، ١٤١٤هـ.

٧٦- الزهد والرقائق، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧٧- الزهرة، أبو بكر محمد بن داود بن علي بن خلف الأصبهاني ثم البغدادي الظاهري، تحقيق: د. إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الأردن، ط٢، ١٤٠٦هـ.

٧٨- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، دار المعارف، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٢هـ.

٧٩- السنة، أحمد بن عمرو بن الضحاك أبو بكر بن أبي عاصم، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ.

٨٠- السنة، أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخلال، تحقيق: د. عطية الزهراني، دار الراية، الرياض، ط١، ١٤١٠هـ.

٨١- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر، بيروت.

٨٢- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر.

٨٣- سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٨٤- السنن الكبرى، أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ.

٨٥- السنن الكبرى، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.

٨٦- السنن الصغرى (المجتبى)، أحمد بن شعيب أبو عبدالرحمن النسائي، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، ١٤٠٦هـ.

٨٧- السنن الواردة في الفتن وغوائلها والساعة وأشراطها، عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني، تحقيق: د. رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ.

٨٨- سيرة ابن إسحاق (المبتدأ والمبعث والمغازي)، محمد بن إسحاق بن يسار، تحقيق: محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث للتعريف.

٨٩- السيرة النبوية عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، تحقيق: طه عبدالرءوف سعد، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

٩٠- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، أبو القاسم هبة الله بن الحسن

بن منصور اللالكائي، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة، السعودية، ط٨، ١٤٢٣هـ.

٩١- شرح مشكل الآثار، أحمد بن محمد بن سلامة أبو جعفر الطحاوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٥هـ.

٩٢- الشريعة، أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري، تحقيق: د. عبد الله بن عمر الدميجي، دار الوطن، الرياض - السعودية، ط٢، ١٤٢٠هـ.

٩٣- شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: د. عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط١، ١٤٢٣ هـ.

٩٤- شعر الأحوص الأنصاري، تحقيق: عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٤١١هـ.

٩٥- شعر الحارث بن خالد المخزومي، تحقيق: يحيى الجبوري، مطبعة النعمان، النجف، ط١، ١٣٩٢هـ.

٩٦- شعر نصيب بن رباح، جمع وتقديم: د. داود سلوم، مكتبة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٧م.

٩٧- الشكر لله عز وجل، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد السعيد بسيوني، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ.

٩٨- الشوقيات، أحمد شوقي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر - دار الكتاب العربي، بيروت.

٩٩- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ.

١٠٠- صحيح ابن خزيمة، محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٠هـ.

١٠١- صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه)، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي)، ط١، ١٤٢٢هـ.

١٠٢- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٠٣- صفة الجنة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا، تحقيق: عبدالرحيم أحمد العساسلة، دار البشير - مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٧هـ.

١٠٤- صفة الصفوة، عبدالرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، تحقيق: محمود فاخوري، محمد رواس قلعجي، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ.

١٠٥- الصمت وآداب اللسان، أبو بكر عبدالله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا، تحقيق: أبو إسحاق الحويني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.

١٠٦- طبقات الصوفية، محمد بن الحسين بن محمد بن موسى أبو عبد الرحمن

السلمي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

١٠٧- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري، دار صادر، بيروت.

١٠٨- طوق الحمامة في الألفة والألاف، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، تحقيق: د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، ط٢، ١٩٨٧م.

١٠٩- العاقبة في ذكر الموت، أبو بكر عبدالله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا، تحقيق: خضر محمد خضر، مكتبة دار الأقصى، الكويت، ط١، ١٤٠٦هـ.

١١٠- العزلة، حمد بن محمد بن إبراهيم أبو سليمان الخطابي، المطبعة السلفية، القاهرة، ط٢، ١٣٩٩هـ.

١١١- العقوبات، أبو بكر عبدالله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٦هـ.

١١٢- العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، عبدالرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق: خليل الميس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ.

١١٣- العلل ومعرفة الرجال، أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، تحقيق: وصي الله بن محمد عباس، دار الخاني ، الرياض، ط٢، ١٤٢٢هـ.

١١٤- عمل اليوم والليلة، أحمد بن شعيب بن علي النسائي أبو عبد الرحمن، تحقيق: فاروق حمادة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ.

١١٥- غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي، تحقيق: محمد

عبدالمعيد خان، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٣٩٦هـ.

١١٦- جامع المسائل - المجموعة الأولى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، تحقيق: محمد عزير شمس، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة، ط١، ١٤٢٢هـ.

١١٧- الفردوس بمأثور الخطاب، أبو شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه الديلمي الهمذاني الملقب إلكيا، تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ.

١١٨- فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، تحقيق: وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ.

١١٩- الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ.

١٢٠- القناعة والتعفف، أبو بكر عبدالله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٣هـ.

١٢١- قوت القلوب في معاملة المحبوب، محمد بن علي بن عطية الحارثي أبو طالب المكي، تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ.

١٢٢- الكامل في الضعفاء، عبدالله بن عدي بن عبدالله أبو أحمد الجرجاني، تحقيق: يحيى مختار غزاوي، دار الفكر ، بيروت، ط٣، ١٤٠٩هـ.

١٢٣- كتاب سيبويه، أبو البشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط١.

١٢٤- كشف الأستار عن زوائد البزار، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٣٩٩هـ.

١٢٥- كشف الشبهات، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٨هـ.

١٢٦- اللزوميات لأبي العلاء المعري، تحقيق: أمين عبد العزيز الخانجي، مكتبة الخانجي، القاهرة.

١٢٧- المبسوط، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي، دار المعرفة، بيروت.

١٢٨- مجابو الدعوة، مطبوع ضمن مجموعة رسائل ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبدالله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا، تحقيق: الشيخ زياد حمدان، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٣هـ.

١٢٩- المجالسة وجواهر العلم، أبو بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري القاضي المالكي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ.

١٣٠- من المحدثين والضعفاء والمتروكين، محمد بن حبان بن أحمد بن أبي حاتم التميمي البستي، تحقيق: محمود إبراهيم، دار الوعي، حلب، ط١ ١٣٩٦هـ.

١٣١- مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت - لبنان.

١٣٢- مجموع فتاوى ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، ١٤٢٥هـ.

١٣٣- المحتضرين، أبو بكر عبدالله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٧هـ.

١٣٤- المحلى بالآثار، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، دار الفكر، بيروت.

١٣٥- مختصر خلافيات البيهقي، أحمد بن فَرْح بن أحمد بن اللَّخمى الإشبيلى، تحقيق: د. ذياب عبد الكريم ذياب عقل، مكتبة الرشد، الرياض - السعودية، ط١، ١٤١٧هـ.

١٣٦- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤١٦هـ.

١٣٧- مساوئ الأخلاق ومذمومها، أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل الخرائطي، تحقيق: مصطفى بن أبو النصر الشلبي، مكتبة السوادي للتوزيع، جدة، ط١، ١٤١٣هـ.

١٣٨- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

١٣٩- المستغيثين بالله تعالى عند المهمات والحاجات، أبو القاسم خلف بن

عبدالملك بن مسعود بن بشكوال، تحقيق: مانويلا مارين، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد التعاون مع العالم العربي، ١٩٩١م.

١٤٠- مسند ابن الجعد، علي بن الجَعْد بن عبيد الجَوْهَري البغدادي، تحقيق: عامر أحمد حيدر، مؤسسة نادر، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.

١٤١- مسند أبي يعلى، أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ١٤٠٤هـ.

١٤٢- المسند، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مؤسسة قرطبة، مصر.

١٤٣- مسند البزار (البحر الزخار)، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبدالخالق البزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، مكتبة العلوم والحكم، بيروت، المدينة النبوية، ط١، ١٤٠٩هـ.

١٤٤- مسند الشهاب، محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبدالله القضاعي، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ.

١٤٥- مسند الطيالسي، سليمان بن داود أبو داود الفارسي البصري الطيالسي، دار المعرفة، بيروت.

١٤٦- المصنف، أبو بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.

١٤٧- المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ.

١٤٨- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

١٤٩- المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله، عبدالمحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، طبعة١٤١٥هـ.

١٥٠- معجم الشيوخ، أبو الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن يحيى بن جُمَيْع، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، مؤسسة الرسالة، دار الإيمان، بيروت - طرابلس، ط١، ١٤٠٥هـ.

١٥١- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة الزهراء، الموصل، ط٢، ١٤٠٤هـ.

١٥٢- معرفة التذكرة في الأحاديث الموضوعة، أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي بن أحمد، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ.

١٥٣- معرفة السنن والآثار، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي - باكستان، دار قتيبة، دمشق - بيروت، دار الوعي، حلب - دمشق، دار الوفاء، المنصورة - القاهرة، ط١، ١٤١٢هـ.

١٥٤- مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

١٥٥- المغني، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي، مكتبة القاهرة، ١٣٨٨هـ.

١٥٦- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي، تحقيق: محمد عثمان

الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.
١٥٧- مكايد الشيطان، أبو بكر عبدالله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا.
١٥٨- منازل الأحباب ومنازه الألباب، شهاب الدين محمود بن سلمان الحلبي؛ تحقيق: محمد الديباجي، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
١٥٩- مناقب الشافعي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط١، ١٣٩٠هـ.
١٦٠- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.
١٦١- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط١، ١٤٠٦هـ.
١٦٢- الموشى (الظرف والظرفاء)، محمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيى أبو الطيب، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٣٧١هـ.
١٦٣- الموطأ، مالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ١٤٠٦ هـ
١٦٤- النونية ابن القيم (الكافية الشافية)، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، ١٤١٧هـ.
١٦٥- هواتف الجنان، أبو بكر عبدالله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد الزغلي، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤١٦هـ.

١٦٦- الوابل الصيب من الكلم الطيب، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة، ط٣، ١٩٩٩م.

١٦٧- الواضح المبين في ذكر من استشهد من المحبين، الحافظ أبو عبد الله علاء الدين مغلطاي، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت - لبنان، ١٩٩٧م.

١٦٨- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

فهرس الموضوعات

بحمد الله تم